

وزارة الثقافة . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

الشمندرة

محمد خليل فتاسم



محمد خليل قاسم



أول رواية نوبية في تاريخ الأدب العربي

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالمطاهرة

تنويه☆☆

الأسماء في هذه الرواية أسماء
شائعة بين النوبيين ، فاذا ما حدث
تشابه أو تطابق بينها وبين أسماء
أشخاص معينين حقيقيين ، فليسوا
مقصودين بالمرّة

هذا فيما عدا الشخصيات الهامة
التي قامت بدور بارز في حياة
النوبيين ..

كل شيء فى هذا الاطار هادىء ساكن ، فأشجار النخيل لاتهز
أعطافها ، والنيل يرقد تحت أقدامنا هامدا لا يتحرك ،
والدوامة التى تتوسطه ما بين الشاطئ والجزيرة الخضراء خامدة
تغط فى نوم عميق .



حتى المراكبية ، أصواتهم خافتة تردد أغنيات دافئة عن عذارى ،
وأكواب شاي فى الضحى ، أعددها على نار هادئة من خشب السنط ،
فلا تصل الى أسماعنا الا غامضة حزينة . فمراكبهم ماتزال بعيدة ، ونقرات
أصابعهم على الدف تخنقها غابات النخيل هناك عند المنحنى الذى يفصل
شمال قريتنا « قته » عن « الدر » عاصمة المركز ، أو عند المنحنى الذى يفصل
جنوب « ابريم » توأم قريتنا عن « الجنينة والشباك » .

اننا نتشبث بمواقع أقدامنا على الجرف ، لا نريد أن نعترف بالرعدة
التي تسرى فى مفاصلنا خوفا من النيل والسكون الذى يلفنا .. بل
نتطلع الى وجه « برعى » زعيم أطفال النجع ننقل بما ينفع به ! ..

ونحن فى حقيقة الأمر لا نفعل شيئا غير التأمل فى النيل وتحديق
البصر طويلا ، لأن الباخرة ، ذات النوافذ والثريات الكهربائية ، ستهل
علينا فى هذه الأمسية من المنحنى الشمال تحمل رسائل وطرودا من
المهاجرين .. وتحمل فى هذه المرة ، كما قال آباؤنا ، أفندية بوجوه
بيضاء ، وطرابيش حمراء ، وملابس عجيبة لم نرها من قبل على جسم
بشر !

مضيئا نغالب الخوف وننتقل من قدم الى أخرى ونقتل الرعب الذى
تملكنا بشرثرة متصلة حتى صاح « برعى » :

— ها هي !

وقفز قفزته العالية وهو يشير بأصبعه عبر أجسام النخيل ، ثم
مطلق ضحكة عالية ساخرة حين صاح « بكر » :

— ستكون لي واحدة مثلها !!

نه .. من أين ؟!

— أبى سيشتري لي واحدة !

فضحكنا جميعا لأول مرة في أمسيتنا ، وعيوننا لا تبارح شريط
النور الأبيض السابح ، ولا العلم الذي مضى يرفرف فوقه .

وتلفت برعى نحو بكر وأسكته بإشارة من يده ثم تبسم في وقار
المقول :

— رأيتم الأفندية ؟ والطرايش حمراء مثل القوطة !

وكانت الباخرة تواصل سيرها وتتجاوزنا دون أن تقع عيوننا لا على
الطرايش الحمراء ، ولا على الوجوه البيضاء ، الا أن برعى أخذ يؤكد
ويصف تلك الوجوه : مستديرة تلمع كما تلمع المرايا . واسترسل في
حديثه حتى يؤكد زعامته فلم يعترض أحد الا «صالح جلق» الذي همس
في خفاء : لا أرى شيئا . أين ؟ .. خلف النور ؟!

واتجه ناحيتي وكأنه يحتاج :

— ولكن لماذا لا تربط الباخرة عندنا أبدا ؟

ولمحت الغضب يرتسم على وجه برعى ، فلم أجب بينما بادره برعى :

— نه ؟ ولماذا تقف هنا ؟! ستربط هناك في « ابريم » .

ثم تظاهر أنه يعرف رئيس الباخرة ، فمضى يرحب به ونحن من خلفه
بصياحات داوية ، الا أنها ابتعدت دون أن يأبه بنا أحد .

ولبثنا لحظة والغيظ يأكل قلوبنا ، ثم نكس برعى رأسه وابتعد عنا
في خطى سريعة فبدأنا نعود ، حتى تفرقت بنا الدروب .



وأخذت أنا أشق الطريق الطويل الذى يفصل بين صفوف طويلة
متراسة من النخل ، تشكل غابة كثيفة لا ترى العين من خلالها الا أنوارا
هامسة تنبعث من بيوتنا ، هنالك عند السفح .

كانت أشجار النخيل المثقلة بحبات البلح الحمراء تهتز فى بطن
شديد ، وتتصافح شواشيها ويسرى بينها همس أصفى عليه المساء
الساكن كثيرا من الغموض . كل واحد فى قريتنا كان يملك منها خمسين
أو ستين ، حتى أن صفوفها كانت تمتد من الشاطئ الى المزارع الضيقة ،
ثم تتراعى بعدها فى صفوف أخرى ، تنفرج عند السفح ، عند بيوتنا
المتلاصقة لا يفصل بينها الا أزقة ضيقة غير مرصوفة وان دكتها أقدام
السابلة على مر السنين والأجيال .

ومن داخل هذه البيوت ، من فوق أسوارها المسلحة بقطع من
الزجاج كانت هذه الأشجار تطل علينا ، سفح الجبل نفسه كانت تعلوه
هذه الأشجار ، وقد لفت رعوسها بعصائب خضراء من السعف والجريد
والسباطات الصفراء المثقلة بحبات البلح .

وفى الطريق ، عند نهاية الأشجار ، رأيت أبى بجلبابه الطويل
الأبيض وعمامته المزهرة ، ومداسه الأحمر اللامع ، الشامخ بأنفه ،
ومسبحته وعصاه ذات المقبض النحاسى .

كان منهما فى حديث طويل مع فضل الماساوى وجعفر وآخرين
من رجال النجع . كانت أياديهم ، وعذبات عماثمهم ، وعصيهم تلوح نحو
الشاطئ . يبدو أنهم كانوا يتحدثون عن الباخرة والأفندية والوجوه
البيضاء والطرايش الحمراء ويرددون أسماء بعض الباشوات والصحف .

وسمعت الشيخ جعفر يهتف :

— أرض الله واسعة وسيعوضنا أحسن من أراضينا !

فتنحنع عبد الله الجزار وقال :

— ويرزقنا بيوتا غير بيوتنا ؟

ويبدو أن « فضل الماساوى » لم يقنعه كل ما قيل ، فانحنى على
الأرض فجأة ، وأنشأ أنامله فيها ، ليعود بها تحمل حفنة من التراب
أخذ يتشممها . ثم تركها تتخلل أصابعه الى الأرض من جديد بينما اتجه
« جعفر » بناظره الى السفوح وهو يقول فى لهجة حزينة :

– من يدري .. ربما أراد الله بنا خيرا .

وفتح أبى فمه ليقول شيئا ثم أطبق شفتيه فجأة حين رآنى فاستدار
تأحيتى وابتسم فى حنان وأمسك برأسى حين دنوت منه وهمس :

– لم تأخرت هكذا يا ولدى ؟

وتابع سؤاله وكأنه لا يتوقع اجابة منى :

– والباخرة .. هل رأيته أنت والعيال ؟

– نعم يا أبتى .

– والوجوه البيضاء ؟

– كلا ..

– ولا طربوشا ؟

وخشيت أن أقول لا فى هذه المرة أيضا فوجدت نفسى أردد : نعم !

وما أن نطقت بها حتى سمعت الشيخ فضل يهمس فى حزن :

– اذن فقد جاءوا !

ودارت عيناه فى وجوه الآخرين ثم أضاف :

– مساكين .. نحن مساكين .. لنا رب اسمه الكريم ! ..

وغمغم عبد الله الجزار :

– غدا يكونون هنا فى النجع بأوراقهم وأقلامهم !

الشيخ حسين :

– ومن يدريك .. وهل أنت أفندى حتى تعرف ؟

وأحس أبى بما يدور على وجهى من أمارات الحيرة فأشفق على وريت
فوق ظهري ، ومسح بيده على رأسى وأدار الحديث مدارا آخر :

– وماذا حفظت اليوم يا ولدى ؟

وصمت لحظة يستحطني حتى قلت :

— الربيع الأول من سوزة يس •

فبسنملوا جميعا وكأنما أخذوا على غرة ومضى فضل يعبت بخصلة
الشعر المجدولة المنسدلة خلف أذني اليسرى وشفتاه تتمتمان :

— بارك الله في ولدك يا « أمين » .. قريبا يعود إلينا من الأزهر
يلقى علينا دروس الدين بدلا من الأغراب !

وتبسم الشيخ جعفر وقال :

— ولا تنس الجبة والقفطان الشاهي اللميع !

فضحك أبي ضحكة مقتضبة وشكر للشيخ فضل أمنيته ودعاه إلى
العشاء وهو يقول :

— ولا تنس أن تأتي معك بأدوات الحجامه .. فالوجع الشديد قد
عاود ظهري ، وكاسات الهوا أفضل علاج !

فبادره الشيخ حسين :

— أوجاع في ظهرك ! لا أصدق ، فان لك زوجتين !

وقهقه الجميع ، بينما دس أبي يده في سيالته وقدم لي حفنة من
التمر ودفعني في ظهري وهو يأمر :

— عد يا ولدي .. لئلا ينشغلوا عليك ، فالدنيا ليل ، والظلام
يشتد بعد أن يغيب الهلال •

كنت أريد أن أتريث إلى أن يعاودوا حديثهم عن الأفندية والطرابيش
الحمرء ، ووددت لو فهمت معنى لكل ما يقولون ، وما سبب الحيرة المرتسمة
على وجوههم ، ولماذا يشم الشيخ فضل تراب الأرض؟! ولماذا هذا الحديث
الحزين عن بيوت غير بيوتنا ، وسماء تعوضنا بدل ما نفقد ؟

وكنيت أعرف أنهم لن يعاودوا حديثهم الا بعد أن أنصرف ، وأن
شقيقتي وأمي وجدتي لن يهدأ لهن بال الا بعد أن أعود •

وعلى ضوء الهلال الباهت أخذت أدب على أرض الطريق الزراعية

الى أن حاذيت شونة البلح ، وانحرفت الى الطريق العام الذى يخرق
صفوف البيوت .

كانت أعمدة التليفون والبرق تنتصب على هذا الطريق ، نفس
الأعمدة التى اعتدنا نحن الصغار أن نلصق آذاننا وتصيح السمع الى
كركرة جوفها ثم نتصايح : مصر تكلم ابريم ! مصر تكلم الدر !
وفى تلك الأمسية ، وعلى غير العادة ، صاح برعى فى زهو وخيلاء :
— مصر تكلم بلدنا !

ومن يدري ؟ فربما كانت مصر تكلم بلدنا بالفعل فى تلك الليلة
عن الطرابيش الحمراء والوجوه البيضاء .. ربما ..

وكان وطواط قد حط على الأسلاك ثم لم ندر ما حدث له ، فقد
سقط صريعا أمام عيوننا فأسرعنا ندفنه الا أن « برعى » تشبث به ومضى
يقغم بكلمات مبهمه عن تجفيف الوطواط ودقه الى مسحوق أسمر ! وعن
« شريفة » جارتة الصغيرة !

وتركناه يحتضن وطواطه وانصرفنا بعد أن تواعدنا على التلاقى ،
بعد صلاة العشاء فى الساحة ، نلعب الهندوكية « الحجلة » حتى يشغل
النوم جفوننا .

كان بيتنا هنالك فى بداية الطريق ، تتصدره « مندره » يفتح عليها
الباب العمومى ذو الضبة الخشبية الغليظة ، وندلف منها خلال باب آخر
صغير ، الى فناء واسع تراصت على جوانبه ثمانى غرف مسقوفة بجذوع
النخيل والجريد المصفور بحبال الليف .

وفى جانب من هذا الحوش دقت أوتاد للأغنام والماعز تسمى
الدواجن والحمام بين أقدامها ، تنق وتهدل بينما « لورد » يرقد على مقربة
يحرسها بعين يقظة .

هذا الجانب ينتهى بمطبخ ، وفى ركن من هذا المطبخ ثلاث صوامع
كبيرة من الطين وصومعتان متوسطتان لشقيقتى وأخرى صغيرة لى أنا .

ومن خلف البيت ترتفع مئذنة الجامع ، وعلى يسار الجامع بيت برعى
على مسافة يسيرة من بيت « داريا سكيئة » أم « شريفة » صديقة أطفال
النجع ..

دلفت من الباب العمومى ، ووجدت نفسى فى « المندرة » • وتوقفت
هنيهة عند الزير الفخارى المنتصب عند الباب ، أعب من مائه فى صوت
مسموع ، وأنا أختلس النظر من فوق الكوز الى « بطة » شقيقتى الصغيرة
وهى تطل على وعاء كبير منهمكة فى اعداد وجبة العشاء ، بينما استدارت
جدتى نحوى فى هدوء تسأل عن سبب تأخرى دون أن تقتنع بما لففته
من أعذار فمضت تعنفنى ، تساندها بطة بنظراتها الحادة •

وهناك فى الركن الآخر كانت أمى •

مخلوقة غريبة تعمل أناملها دائما فى الأرض ترسم خطوطا تدور
وتتشابك ، ثم تبسط يدها لتمحوها فى آناء ، لتعاود رسمها من جديد !

ولم أدرك طيلة حياتى معنى لتلك الخطوط ، ولكنها على كل حال
كانت شغلها الشاغل الذى لا تكف عنه فى عزلتها الأبدية ..

كانت أمى من هذا الركن القصى الذى استقرت فيه منذ أعوام سبعة
تنفعل معنا بكل شيء : تبكى اذا ما بكينا ، وتبتسم اذا ما ضحكنا دون
أن تتبادل معنا كلمة واحدة ، دون أن تشاركنا طعامنا من اناء واحد !

ولكنها رغم ذلك كانت تحبنا جميعا ! أمها وبنتيها وولدها الوحيد ،
الا اننا لم نكن نستبين هذا الحب فى بادرة أخرى غير نظرة طويلة حانية
من عينيها الواسعتين ترسلها نحوى حين ترانى أدلف من الباب أو
أخرج ..

نظراتها الحانية هذه كانت تبدو حين تنتهرنى جدتى ، أو حين
تعلق بى « بطة » لتضربنى .. أو حين يصب أبى غضبه على رأسى •

كانت ترتفع برأسها وتسدد اليهم نظرة قاسية صارمة ، ثم ترتد
بطرفها نحوى بتلك النظرة العذبة الحانية ، فأرتعش أنا بالحب ، الا اننى
رغم ذلك لم أجرو فى يوم من الأيام أن أقرب منها ولم تجرو هى أن تدنو
منى ، فاذا ما أرادت أن تهدينى شيئا قدمته لى من بعيد ، فقد كان فى
أعماقها شيء ينأى بها عنى ، فلقد أخبرتنى شقيقتى الكبرى « جميلة » أن
أمنا أصيبت بالصرع قبل مولدى ، وأن نوبة انغماء منكرة ألت بها ذات
يوم وهى ترضعنى فبركت على دون أن تعى وكادت تخنقنى ..

هاج البيت يومذاك وماج ، وأبعدونى عنها منذ ذلك الحين ، أما هى
فقد أفاقت من غيبوبتها وأدركت كل شيء وقررت أن تبتعد عنى الى الأبد !

لقد تربى في صدرها خوف رهيب من ملامستي خشية أن تخنقني ، وظل هذا الشعور يساورها حتى بعد أن كبرت ، فاكتفت طيلة حياتها ، بتلك النظرة الطويلة الحانية تنفذ الى قلبي في عذوبة دافقة .

وما كدنا ننتهي من تناول عشائنا حتى تناهى الى اسماعنا وقع خطى في الشارع الملاصق وأصوات رجال ميزت منها صوت أبي والشيخ فضل ورجل آخر لم أكن قد عرفته بعد ..

وفتح الباب العمومي ، وفجأة ولأول مرة ، ولأمر لا أدريه أسرعت شقيقتاي ، ودفعتا بي دفعا معهما الى الفناء الداخلي ..

كان الرجل الثالث هو شعبان ، الذي تزوج شقيقتي الكبرى ، وقد جاءوا في تلك الأمسية يتحدثون عن هذه الزيجة ويستعدون لها ، ويبدو أن أمي كانت تعرف أمر هذه الزيجة ، فقد استمعت الى كل ما دار هنالك وأقبلت تنحني علي « جميلة » وتطبع قبلة علي جبينها !

وتقدمت « بطة » تعانق شقيقتها بينما وقفت أنا حائرا لا أدري ماذا أفعل ، وأدركت « جميلة » ما أنا فيه .. فانحنيت تقبلني وهي تبتسم ، ولا أدري لماذا أحسست في تلك اللحظة بالضيق . لقد أردت أن أسألها عما يدور هناك داخل « المندرة » .. الا أن أصوات الرجال كانت تعلو ومعها صوت عائشة - جدتي ، كانوا يتحدثون عن الطرايش والباخرة ذات الثريات المتألثة ، فمضينا نصيحخ السمع بينما اقتربت الأم من الباب الصغير الذي يفتح علي « المندرة » من الفناء ، وتريثت حتى قام أبي بتوديع شعبان وفضل وعاد الى مجلسه فانطلقت الى « المندرة » .

ومن خلال الباب الصغير ، تناهى إلينا ، ونحن تحت سماء زرقاء صافية ، ينيرها هلال فضي باهت ، صوتها الواهن الرقيق يتسلل في هدوء وحزم ، وأبى يحاورها ويداورها ..

ودون أن ندري ، لماذا ارتفع صوتها ، واحتد علي أبي ، كانت تتحدث عن الباخرة ودفاتر التسجيل ، حديثا أنهته في كلمات حازمة :
- « أمين » .. هذا البيت يكتب باسم « حامد » !!

وصمت الرجل صمتا أدركت هي كنهه فانبرت تقول :

- يمكنك أن تسجل باسمك ذلك البيت الذي تعيش فيه مع الزوجة الأخرى .. ضررتي - وكذلك البيت الثالث الذي ورثته عن أبيك مع النخيل التي نملكها هنا وهناك ، خذ كل شيء لنفسك الا هذا البيت ، فقد بنيتك معك طوبة بعد طوبة ، وجذع نخلة بعد آخر ، وعشت فيه مع

أمي العجوز هذه ، وأولادى هؤلاء سنة بعد أخرى ، ويجب أن يسجل
باسم ابني .. باسم « حامد » !

ولا أدري ما الذي دفع أما مريضة ، أن تقول كل ما قالت ، إلا أنني
عرفت حينذاك أن أمي تملك شيئاً ما غير النظرات الحانية ، حبا لا حب
بعده ، أملا عريضا تحاول أن تسعدني به .. كانت تملك رغم مرضها
قوة مواجهة زوجها ! تسجيل بيت باسمي كان شيئاً كبيراً بالنسبة لي أنا
الطفل ، كنت لا أفهم له معنى ، ولكن كلمات أمي حملت الى قلبي ما جعلني
أوقن انها تدافع عني ، بيد أنني رغم ذلك لم أدرك أية علاقة بين الطرابيش
الحمراء وتسجيل بيتنا ذي الغرف الثمانية باسمي .

واشتد الحاح أمي بينما ازداد صمت أبي حتى نفذ صبره ، فأخذ
يقذفها بكلمات جارحة : مجنونة ! مخبولة ! مالك ولهذه الأمور .. انزوى
في ركنك يا .. فأجهشت بالبكاء وارتفع صوت جدتي ، تحاول عبثاً أن
تهديء من روعها وأن تسكت أبي الذي ارتفع صوته يهدر كأمواج النيل .
وفي الفناء كنا نحن الثلاثة نلتصق ببعضنا في صمت لم يقطعه
إلا صوت « جميلة » وهي تبتسم : لماذا يا أبي .. لماذا ؟ ..

ثم بعد صمت قصير :

— دعها وشأنها .. انها مريضة .. أنت تعرف انها مريضة !

وهمست الأخرى في صوت داعم :

— كل هذا من تحت رأس العقربة ، حجوبة .

وقاطعتهما في كلمات مختنقة :

— جميلة .. بطة .. أنا لا أريد بيتا ..

واختنق صوتي بالبكاء بينما صوت أبي ما يزال يهدر ، وبدأ
« جميلة » انني أتململ في موقفى فأمسكت بيدي في عزم ، وأقلت أنا
منها رغم ذلك فجأة واندفعت كالسهم الى « المندرة » ثم الى الركن الذي
تقبع فيه أمي أحاول أن احتضنها بيدي الصغيرتين ، وهي تدفعني بعيداً
عنها في حنو ، وتنهاني عن الاقتراب منها في تلك اللحظة المشحونة
بالصدام ، ولكنني اندفعت اليها أهمس :

— أمي .. أنا لا أريد بيتا .. لماذا تريدني لي ؟ .. سأختم القرآن

واسافر الى الأزهر !!

ولم أستطع أن أواصل حديثي ، فإن دعة ساخنة كانت قد سقطت
على يدي فألجمت لساني وهمت هي لتحضنني غير أنها ترددت ، ثم اربد
وجهها فجأة وغامت عيناها في سحابة من الدموع وبان فيهما بريق غريب
اتكأت بعده على الأرض براحة يدها اليمنى ، ثم انكفأت على وجهها !
وأخذت تحرك ساقها في تشنجات .. ثم هدأت مستكينة بينما يغلي بين
شفتيها سائل أبيض مثل رغاوى الصابون .

وتحركت الأقدام من حولنا ، تروح وتجيء .. بينما أصابني الذعر
واحساس بأن روحي تنسل من بدني ، وقطرات من الدمع تنسكب على
خدي .

ثم انكفأت على أمي متغافلا تحذيرات جدتي وأبي الذي بدا عاجزا
وحائرا في نفس الوقت .

هذا الرجل : أبي - يعرف متى بادأها هذا المرض الغريب وأين ! ..
هنالك في القاهرة ، في حي البغالة بالذات ، أيام كان يعمل غفيرا في
الكونتنتال في أعوام السلطنة ، وهو ما يزال يذكر أنه لم تجد معها أضرحة
جميع الأولياء والأطباء ، فعاد بها من مصر ، كان يحبها وقد ازداد حبه لها
بعد مولدي ولكنه في نفس الوقت لم يحتمل العذاب بجانبها فهرب منها
إلى زوجة أخرى . وخليق به اليوم ألا يحتمل الموقف الذي استثاره بعناده ،
فذر فدمعتين وهو يهتف : فاطمة .. فاطمة .. سامحيني ... فلم
أقصد شرا !!

ومضى إلى الباب .. وجدتي تستمطر اللعنات على رأسه ورأس
أهله ..

وحين رأيت الدموع في عينيه ، وفي عيون الأخريات أحسست أن
أمي ستموت في تلك اللحظة فارتفع صوتي بالبكاء ..

ومع صوت بكائي ارتفع عواء الذئب : أووو .. أووو ! ..

وبرعى هو الذي أطلق صيحة الذئب .. ومن كل الأزقة والبيوت
أخذ الأطفال يرددون مثله هذه الصيحة التي اعتاد دعوتنا بها إلى الساحة
الواسعة أمام شجرة الجميز لنلعب « الهندوكية » (الحجلة) في ضوء
القمر .

وكان من واجبي ، شأنهم جميعا ، إطلاق نفس العواء .. لأسرع
إليهم . ولكنني ألقيت نظرة على وجه أمي فأدركت أن واجبي هو البقاء

الى جانبها ريثما تفيق فالتقط من عينيها نظرتها الطويلة الحانية .
تردد العواء مرة بعد أخرى . . واستجاب له أطفال النجع الا أنا . .
فقد احتبس هذا العواء فى حلقى . . وبدلا منه أمسكت بالمصحف أرتل
منه وقد وضعت يدي على رأس أمي التي كانت ماتزال تعاني نوبة اغماء
منكرة .
وبينما عادت جدتي من الديوانى تحمل زجاجة عطر نفاذ ، كانت
بطة تهوول الى الخارج لتستدعى خالتي أمينة بايا . . فهي خيرة بأمي
وبنوبات اغماؤها .
وفى نفس الوقت كان عواء الذئب يتردد فى النجع .

منذ أن ارتفع صوت المؤذن بالفجر . . وأنا مستلق على ظهري
فوق « العنجريب » . . أحرق فى جذوع السقف . . وفى
أطباق الخوص والصينى المزخرفة المعلقة على الحائط متكفئة على
وجهها !

فالأضواء الخافتة التى تلقيها المسرحجة على الحائط والأطباق . .
والأبراش الخوصية . . الى جانب الظلال المرتسمة عليها ترسم عالما خياليا
أمام عيني يشغلنى من حين الى آخر . . عن مراجعة صورة ياسين . . عالما
خياليا لم يتبدد الا حين أخذت أشعة الشمس تتسرب الى « المندرة » فى
حياء ، من خلال الكوة العالية المنحوتة فى الجدار . . يعلق بها غبار
يتراقص أمام عيني .

وفى صمت ، وحتى لا توقظ أحدا ، هبت شقيقتى « جميلة » من
نومها . . ومضت تتحرك خفيفة الوطء لتعد افطارنا : شرائح من « الحمريد »
(العيش المخمر) وسلطانية لبن رائب مزجته بقليل من عسل البلح .

وازدردت افطاري على عجل .. وعلقت لوحى من عنقى على صدرى ..
وكيس الكتب على كتفى .. وطوقت رأسى بالكوفية المزركشة ..
وأخذت أمد أذنى عبر الجدران والكوى والأبواب علنى أسمع نداء « برعى »
دولحظ ، فلقد تباطأ نداؤه اليوم .. وتقد صبرى فدلقت الى الفناء أشاغب-
« لورد » وهو يتمسح بى .. ويهز ذيله بتحية الصباح !

وفجأة ، ومن بعيد ، تردد عواء الذئب .. الا اننى لم أتحرك ..
فقد اعتاد « برعى » أن يطلق عواءه الأول .. أمام بيت شريفة عليها تكون
فى يقظة .. فتستمع الى صوته القوى .. كان يطلق نداءه ثم يتمهل
قليلا أمام بيوت الأطفال .. فيحملون مثلى ألواحهم وأكياس كتبهم ..
وينطلقون معه .

وعند الناصية .. على مقربة من شونة البلع رأيت « برعى » يلصق
أذنه بعمود التليفون والى جانبه صديقه « صالح جلق » و « بكر » يقضم
كل منهما شريحة الحمريد يزدردوها مع التمر وهو يهمهم بآيات سورته .
كان « برعى » ، رغم قامته المبشرة بالامتداد وعضلاته المفتولة ..
ووجهه الأسمر اللامع .. وأنفه الأفطس وشفتيه الغليظتين الحازمتين ..
وقدميه الضخمتين المتشققتين فى روافد صغيرة ، مريضا بأمعائه وصدره
.. كان يجرى فى قوة الأسد .. ويطلق فى نفس الوقت سعالا عنيفا
يخرج من حلقه فى أنغام خشنة مبحوحة تتناهى الى مسمعيك وكأنه يقول:
« دولحظ .. دولحظ » .. ولم يعد هو ، على مر الأيام ، يبالى حين تناديه
ببرعى دولحظ .

أقبل على حين لحنى وسلم بطريقته الغريبة اذ مد قدما لامست قدمي
بينما مد يدا الى يدي .. كان حافيا .. قدمه خشنة متشققة ، فهو يؤم
الكتاب ويكدح فى نفس الوقت مع أبيه وخاله الشيخ فضل فى حقلتهما
الصغيرين بقية النهار وبعض الليل .

ورغم ذلك كان أكثرنا حفظا واستعدادا ، يلتهم كل الدروس ،
ويتقدم علينا جميعا .. يكاد يختم القرآن هذا العام .. وحينذاك ستنتهى
حياته الدراسية ليعمل مع أبيه فى الفيط ..

كان فى الثالثة عشرة . يكبرنا بأربعة أو خمسة أعوام ، ولذلك
أحسبنا جميعا بالولاء له فهو حامينا أمام أطفال التجوع الأخرى الذين
يتربصون بنا كثيرا خلف جذوع النخيل وعند منعطفات الطريق ، وقد
حدث مرة أن اشتبك بكر بواحد من أطفال نجع « السوارذب » فضرب

حتى احمرت عيناه ، فتواعدنا على ملاقاتهم بعد يومنا الدراسي لنتضارب ،
وتسف التراب ، فالتقينا بين غابات النخيل متخذين من جريدها الاخضر
الطويل كرابيج وعصيا نتبارز بها .. وعدنا ظافرين في ذلك اليوم ،
وفي ضحي اليوم التالي كنا ، نحن وأطفال « السوارذب » معا في الكتاب
نتبادل النكات ، وحفلات التمر كأن نزاعا ما لم يقم بيننا ، ثم تربصوا
بنا وأذاقونا الهزيمة متحينين فرصة غياب « برعى دولظ » في تلك الظهيرة
الحارة ..

ومنذ ذلك اليوم لم نعد نسير الا وعلى رأسنا برعى .. ولا نلعب الا
وهو معنا ، ولا نمر في طرقات نجع الآخرين الا اذا كان معنا ..

كل واحد منا كان على استعداد لأن يقدم له كل شيء يملكه ، النبلة
والفخ والسنانير والرطب المبكرة ، والبسر الاحمر ، وسنابل القمح
الخضراء ، بل كنا في بعض الاحيان نمضي لنسهر معه في الغيط ، اذا
ما اضطر الى البقاء هناك في الليل ، ونطارده معه الثعالب والفئران ..

كان تلميذا مجدا وفلاحا ماهرا في نفس الوقت .. ذا صوت جميل
يغرد به وهو يروى الارض ويرمم البتون والجداول .. ويحفظ عن ظهر
قلب أغاني قريتنا ويتصرف فيها بالتحوير .. يعدل كلماتها كيفما شاء !.

كان آباؤنا يتهمونه بافساد الاطفال ، اذ اعتاد أن يقتطف شواشي
الذرة ويجففها ويلفها لندخنها كما يفعل الكبار ، وأن يطارد « شريفة »
في كل مكان ، فقد نضج قلبه ، وتفتح على مشاعر الحب في تلك السن
المبكرة !

أما صالح جلق .. فهو طفل رقيق الحاشية .. مهندم الثياب ..
عزيز النفس ، يؤم الكتاب .. وهو يرتدى جلبابا أفرنجيا ، ويزين رأسه
بطاقيّة مزركشة عليها جمال باركة ، وأخرى تنهض ، وينتعل صندلا
أصفر أرسله أبوه من مصر أم الدنيا .. لا يتقدم في دراسته كما يتقدم
برعى ، بينما بكر ، عفريت ، كثير الشغب .. الشغ ، تعود أن يتسلق
النخيل وأشجار السنط بحثا عن أعشاش العصافير .. مكثنا طويلا
تلتصق آذاننا بأعمدة التليفون ونرسل بين الحين والآخر نداءنا الداوي
الى ان جاء أوش الله واكمل جمعنا ..

فانطلقنا مسرعين ، والشمس تحلق فوق بيوتنا المائلة على سفح
الجبيل ، والمثدنة المطلة خلف بيتنا ، كنا نجرى موهمين انفسنا اننا نمتطي
ظهور حمير أسرجناها .. كان برعى يسبقنا ثم يتوقف رافع الرأس في

غطرسه • حتى تكاد تقترب منه ثم يجري وهو يرسل عوامه ، يملطه ويشتد به اذا ما دخلنا دروب « السوارذاب » ليلقى الرعب في صدور أطفاله الذين كانوا يتسابقون مثلنا ، وعلى رأسهم « أحمد البسطاوى » يطلق صياح الديكة - الشارة التى اتفقوا عليها لنجمعهم ..

وعلى مقربة من سفح الجبل عند الاطراف الشمالية لنجع السوارذاب كان بيت الشيخ طه ، وعلى جانب منه كتابنا العتيق « مندره » طويلة وطاقات أربع تتسرب منها أشعة الشمس .. مسقوفة بجذوع النخيل والجريد ، فرشت أرضها بالرمل الأصفر الناعم ، فى مقدمتها مصطبة عالية عليها حصيرة خوصية ملونة فوقها وسادة يتكىء عليها الشيخ ونحن نعيد على مسامعه ما حفظنا ، جلوسا على الارض عند قدميه •

وعند الباب مباشرة اناء ماء تناثرت حوله قطع صغيرة من الحجارة الجيرية البيضاء ، فقد كنا نحفظ ما على اللوح ثم نمحوه بالماء ونعيد طلاء صفحته بهذا الجير الابيض ونتركه يجف ثم نكتب عليه آيات أخرى •

وها نحن ندخل الكتاب ، ونصطف جالسين نواجه الجدار ، وقد امسك كل منا باللوح نرتل ما على صفحته من آيات فى همهمات عالية تختلط فيها الكلمات حتى يخيل لك أن خلية نحل تطن فى أذنيك ..

كنا نهتز يمنة ويسرة : بسم الله ، يس والقرآن ، مرج البحرين يلتقيان • أعوذ بالله ، فبأى آلاء ربكما تكذبان .. بسم الله .. يس •

وفجأة انطلق صوت العريف .. هس .. فسكتنا جميعا ، وشعرنا أن عشرات من الابقار كانت تخور ثم توقفت فجأة عن خوارها الرهيب •

وطرق العريف بكرباجه ، ومر به فى مس خفيف على ظهورنا ، فأسندنا الألواح الى الجدار .. واستدردنا نواجه وهو ينتقل بين هذه المجموعة او تلك يملئ مسائل الجمع والضرب والقسمة والطرح لنخطها على الرمل ، فراجعها بنشاط وذكاء •

ومرة أخرى طرق العريف بكرباجه فرفعنا عن الارض وجوهنا • ثم مضينا نردد معا وفى كلمات متكسرة ، مصر العريزة لى وطن ... فتنداح أصواتنا عبر البيوت والاشجار وترن اصداؤها على الصخرة العالية المعلقة فوق كتف الجبل مباشرة خلف الكتاب وترتد الينا : لى وطن ... لى وطن فى نغم جميل •

— وفجأة وبينما نحن هائمون في النشيد ، ارتقع عند الباب همس

— سيدنا الشيخ ! سيدنا الشيخ !

فنشطت الحلق سيدنا الشيخ سيد .. سي .. سي .. ثم صمتنا صمت القبور واتجهنا بأبصارنا الى باب صغير يصل ما بين الكتاب وبيت الشيخ فرأيناه ، وهو الرجل الضريع ، يتحسس طريقه بنفسه ويرقى العتبة دون معين الى ان تقدم العريف وخطا به الى منصته العالية ، فخلع مداسه وأسرع أوّش الله لينفضه بينما تربع الشيخ على المصطبة وشفته مشغولتان بترديد كلمات من القرآن .. ثم كف عن همماته وساد الصمت العميق وهو ينادى على برعى ليكرر عليه ما حفظه في نغم لاهت .

ونجا برعى ونهض وتنحى جانبا وهو يرمق البسطاوى بنظرات شامتة متشفية .. فقد مد المسكين في الفلكة .. أما أنا وبكر وأوش الله .. فقد تلعننا كثيرا اذ أخذتنا الرعدة بعد أن سمعنا صرخات البسطاوى وهو يتلوى في الفلكة كما يتلوى طائر جريح .. وقد احتجزنا الشيخ في بيته لتسقى شتلات نخل كنا قد غرسناها له في فناء بيته ... واختصنى الشيخ بالتقريع وهو يذكرنى بأمنية أبى ، أن اختتم القرآن لتقلع الباخرة بى الى الازهر الشريف !

وخبا بريق الطفولة المتشيطة في عيوننا ونحن نحتجز ، وأحسنا بالجوع يملأ نخاع عظامنا بالالم .. فطفرت الدموع وسالت ونحن نراقب الآخرين وهم يتأهبون للانصراف ..

لقد كان يستبد بى حنين جارف الى نظرات أمى التى تركتها فى الصباح راقدة فى ركنها تئن وتتوجع ..

وأخذنا نتجه فى يأس الى الدلاء ، بيد أننا تلكأنا فى اللحظة الاخيرة نراقب رجلا من النجع الآخر ، ينحنى على الشيخ ويلثم يده .. ثم يهمس فى أذنه همسات استدعى الشيخ بعدها برعى والبسطاوى وأمرهما فتصايحا على الاطفال الذين كانوا قد خرجوا الى الساحة الممتدة أمام الكتاب ، فعادوا والحيرة مرتسمة فى عيونهم ..

وتجمعنا فى موكب وسرنا خلف الشيخ ، عبر طرقات النجع ، الى نهايته ، الى أن تراءت لنا خيمة كبيرة رصت فيها أسرة وعنجريبات متناثرة تربع عليها الرجال يهيمون ، ويترحمون ويتكلمون عن مشاغلهم بينما فناجين القهوة السادة ولفافات التبغ الماكينة تدور عليهم .

كان ماتم رجل شيع الى قبره منذ أسبوع .
وفي ركن من الخيمة ، وفي نهاية صفين متقابلين من الابراش
الخصية ارتكزت مقاطف كبيرة متباعدة تلمع فيها آلاف من قطع الحصباء :
صفراء وحمراء ، بيضاء ومجزعة ، تنتظر أيادينا النحيلة .

وتربعا جميعنا متقابلين ، وبدأ الشيخ يرقل بصوت منغوم والناس
مشغولون عن تلاوته بأحاديثهم .

– عند النتوء الشرقي مرت باخرة الافندية .

– ولماذا جاءوا

– من يدري ؟ ..

– ألا تعرف ياشيخ ؟ .. للتسجيل !

– مسكين محمود .. مات قبل أن يرى الطرابيش ..

– دنيا ..

– رحمة الله عليه ..

– ولا رحمة ولا يحزنون ، أنا لا أبكي عليه بل على زوجته وعياله
.. مساكين !

– ترزق ... ربنا موجود يا شيخ !

– يقولون أن معهم دفاتر لتحصيل الميرى .

– الميرى ؟! ومن أين ندفع الميرى ؟ أباطك والشمس ..

– كما خلقتنى يا مولاي ..

ويستمر الشيخ فى ترتيبه رغم كل شيء ، ويختلط ترتيبه بأصواتنا
ونحن نردد : لا اله الا الله .. لا اله الا الله .. فقد كنا نؤدى طقوس
المرحمة فنلتقط الحصباء قطعة قطعة ونحن نرقل .. ونقذف بها فى سرعة
الى مقاطف أخرى فارغة .

كان الشيخ يهتز وتهتز معه قاماتنا الصغيرة ..

وانتهينا والشيخ يقول : صدق الله العظيم ، فأشعل الرجال لفافات
التبغ ، وعادوا الى أحاديثهم ، بينما حشرنا نحن فى الركن الآخر ...
تحملق عيوننا فى اتجاه الباب ، فقد كنا جياعا تصرخ أعمارنا بالالم .

وما هي الا لحظة حتى تهللت أساريرنا فقد أطلت « أناجر » الفتة
يتصاعد منها البخار .. قصاع مليئة عليها قطع كبيرة من اللحم اللذيذ
المسلوق ، فتخاطفناه في هرج ، وعضلات وجوهنا تتقلص مع المضغ ،
ونحن نكور اللقمة ساخنة ونلقى بها في أفواهنا ، نعالجها بأخرى قبل
أن تنتهي .

وانتهى المأتم ، وتجمعنا في موكب خلف الشيخ والرجال ، نحمل
المقاطف على رؤوسنا ونخترق دروب النجع الى الجبانة البحرية .

وتوقفنا والحزن يتملكتنا على قبر الفقيد ، ننسق الحصباء على صدره
.. ونروى بأباريق الماء ، صيارا متجهما ينمو عند رأسه ، والرجال
وقوف من حولنا ، تتناهي أحاديثهم الى أسماعنا .. كانوا يتحدثون عن
النيل والفيضان ..

واستدار الرجال ليعودوا الى بيوتهم وحقولهم .. وحسبنا أن
الشيخ سيصرفنا .. الا أنه أصدر أوامره فتبعناه الى الكتاب من جديد !
وهناك ، أمرنا عن طريق العريف أن نجلب الى صومعة الكتاب ،
يوما بعد يوم أربع طورات من البلح !

— اسمعتم ؟ .. كل واحد أربع طورات ؟

ثم مد كل واحد منا ساقه فمر عليها العريف بالقلم البوص ،
ورسم عليها علامات يجب أن نعود بها يوم السبت .. والا قام ذلك
دليلا على اننا قد نزلنا الى النيل ، ثم يأتي دور الفلكة والكرباج !

فالفيضان الذي ملأ مجرى النيل بأمواجه المتلاطمة ، قد بعث الخوف
في قلوب آبائنا فتوسلوا الى الشيخ أن يحذرننا ، فاهتدى الى هذه الطريقة
العجيبة ، علامات بالحبر على سيقاننا يفحصها الشيخ ليتأكد أننا لم ننزل
الى النيل وأمواجه الصاخبة .

ولكم تحايلنا على هذه العلامات ، وعيشتنا في النيل ، وعدنا بها دون
خوف من فلكة الشيخ .

وقبل أن تغيب الشمس انصرفنا من الكتاب .. وعدنا وعلى رأسنا
برعى يردد عواءه .. بينما انطويت أنا على نفسي أفكر في الطورات
الأربعة وفي الطرايش الحمراء . وبركات أفندي الذي أخذ اسمه يتردد
في قريتنا في كل يوم على المصاطب وفي الساحات الممتدة أمام دكاكين
التجار !

كل شيء كان بهيجا وجميلا في قرينتنا في تلك الايام ..
٣ فالنيل العجوز ، وسواعد الرجال والنساء ، والشمس
 المشرقة اللافحة قد كسا الغيطان والشواطىء بخضرة يانعة
 تتخللها مقاطع شتى من الالوان تبعث البهجة والتوثب . ونبات الترمس
 ينمو ويتربع فوق الجروف المبتلة « والكشرنقيق » ينشر خضرته بين
 سيقان أشجار النخيل .. يزخرفها نوار أحمر وأصفر وأبيض هنا وهناك ،
 وعيدان الذرة ، ترتفع وتميس على نغمات النسيم ، وتمد أصابعها
 الصغيرة تثقلها ، فتحنى وكأنها تصلى للارض الطيبة ، وعلى النخيل



عناقيد بلح تتزاحم كعصائب من المرجان تلف أعناقها .. والنيل العالى
 تتلاطم أمواجه الحمراء الدسمة ويهدر كأنه حائق على نجعنا وعلى الجزيرة
 التى كاد يبتلعها ويحطم بيوتها المبنية من الطين .

ولقد تعاون النيل الطامى والشمس الملتهية فى ارهاق الابدان حتى
أصاب الرجال لهاث .. فسقطوا اعياء . وافترشوا المصاطب حول أشجار
النخيل وأستسلموا للنوم بعد أن ملأوا بطونهم بشرائح كبيرة من الحمريد
والسبروجة والاطر حريفة بالشطة الحمراء ... يزدردونها الى جانب
قضبات من البصل الاخضر ..

وفى يوم من هذه الايام اللافحة . كنت أتربع على هودية الساقية .
تدور بى وأنا أستحث بقرتنا : تنزح المياه فتصبها القواديس الفخارية
الحمراء فى الجدول الكبير ، ليستقبلها « حسن المصرى » ويجريها فى هذا
الحوض أو ذاك .. مترنما بألحانه الصعيدية الحزينة التى لم أدرك لها
معنى . فقد كان لا يكف عن ارسال مواويله الا ريثما يلف سيجارته أو
« يدقنها » على حد تعبيره ، ويرسل دخانها فى حلقات متتابة متعجلة بين
شواشى الذرة ثم يفرك بقاياها بقدمه العارية ، ويعود الى أغانيه يرسلها
فى شجو ، وعيناه تتجهان الى الشمال .

عاش هذا الرجل سنوات طويلة فى قرينتنا .. دون أن يدري أحد
من أين أقبل ولماذا وكيف ومتى يترك النجع ؟ ورغم ذلك فقد رحب به
الجميع . على مصاطب بيوتهم وحفلاتهم .. أحبوا فيه رجلا قويا يصنع
ضلوع سواقيهم ويرمم جدران بيوتهم المتشقة ..

وأحب الرجل نجعنا وأطفاله ، وأحبوه هم كأنه واحد منهم ...
كانوا يتطلعون الى وجهه .. فاذا ما وجدوه مرحا ضاحكا أقبلوا عليه
يشاغبونه ويتصايحون به : الاحمر أهوه .. الاحمر أهوه ! أو يمدون
أناملهم الصغيرة الى شاربه الطويل الذى غطى نصف وجهه المائل الى
الحمرة ، وقد ارتفع طرفاه المدبان الى عينيه الحادثين ، يعلوهما حاجب
كث وجبهة عريضة تشير تجاعيدها القليلة الى الخامسة والثلاثين ..

وذات مرة فى يوم عيد تجمع الاطفال حوله بملابسهم الزاهية
يريدون مشاغبته .. الا انهم ابتعدوا عنه بسرعة .. اذ بدا لهم فى
جلسته الحزينة ، وقد اعتمد ذقنه على مقبض العصا ، شاخصا بعينه
الحادثين فى اتجاه الشمال مهموما مربد الوجه ، قاسيا يثير الرعب فى
قلوبهم الصغيرة .

ابتعدوا عنه بينما أطرق هو الى الارض .. يفكر فى قرينته البعيدة
.. ويجتر ذكريات أعياد قضاها فى « الكلج » الى شمال أسوان ...

فاستبد به حنين جارف كسا ملامحه بتعبيرات كالحة هزت كيانه ، ونأت
به عن العيد ومباهجه وعن التحطيب الذى علمه لبعض شباب التجع .

لكن جلسته الحزينة الى الجدار لم تطل .. فقد هب على قدميه ومضى
بخطوات متثاقلة الى أبى أمام المتجر وانتصب أمامه بقامته المديدة . ثم
تنحنح حتى رفع أبى رأسه وحرك عينيه فى دهشة متسائلة ، فعاجله
حسن المصرى بكلمات مختنقة .

— يا شيخ أمين ، لو تكرمت نسوى حسابنا ! وعجب أبى من كلماته
وحسبه يحكى نادرة من نوادره فقهقه عاليا وقال ، بينما يده تشد « حسن
المصرى » من جلبابه الى المصطبة :

— حساب ! ليس بين الخيرين حساب يا حسن . تعال يا رجل ..
وصمت الرجل .. فاستطرد أبى يقول :

— ولماذا نتحاسب .. الدكانة دكانتك والغيط غيطك !

وفتح الرجل فاه ليقول شيئا الا أن أبى استرسل :

— وأولادى هم أولادك يا حسن .. أم أن .. وتردد ، والرجل
يحملق فيه ثم أضاف .

— أم ان شيئا ينقصك ؟!

وتلفت نحو باب البيت على مسافة مترين ونادى :

— « بطة » بنت يا بطة .. هاتى شايا لعمك المصرى .

وعاد يتفرس فى وجه « حسن المصرى » .. فوجده ما يزال مربدا
فسأل :

— مالك ؟! أمرىض أنت يا أخى ؟ اجلس .

فبلغ ريقه وقال فى صوت دامج : كلا .. الحمد لله .. لكن مصير
الغريب « يردع » لبلده !

فلم يصدق أبى أذنيه فانشغل باصلاح عمته وغمغم لنفسه : بلده !
أى بلد هذا الذى يتحدث عنه ؟ ثم ارتفع بصوته :

— يا سلام يا حسن ! أكرهت مقامك بيننا يا رجل ؟! يبدو انك قد
كرهت مقامك بيننا يا حسن ؟!

وبصق على الأرض وكأتما يستهجن شيئا وأضاف .

— أغضبت من أحد ، أم لعله الحنين الى تراب بلدك ؟ .. لا يا حسن ..
.. اننا لم نشجع منك بعد .

وقدم له سيجارة ماكينة وهو يواصل حديثه :

— ولماذا أنت حزين في العيد ؟ فرفش يا عم ! يمكنك أن ترجع
لبلدك .. لكن بعد العيد ، يا بنت يابطة . أين الشاي .. يا بنت الابه
.. تفضل يا حسن .. اجلس .. اجلس .. قعمز يا سيدى قعمز ..

وقطبا أبى جبينه وفكر برهة ثم سأل :

— وبالنسبة يا حسن . أين بلدك .. ومن هم الذين ..

وأربد وجه الرجل .. واعتصره حزن شديد أخذ يغالبه ، وتصاعدت
الكلمات الى حلقه شيئا فشيئا ، كأن في اعماقه سرا دفيناً . كأن يريد
أن يشكو لو وجد أذنا صاغية .

وتهاوى فجأة على المصطبة ، وأصابه تشنج على مقبض عصاه ،
ثم رفع فنجان الشاي الى شفتيه ، وأخذ يحتسيه فى اللحظة التى بدأ
يتكلم فيها .

.. فى « الكلج » عرف فتاة خمرية . غرق فى حبها لشوشته ...
وتلاقيا وتعاهدا على الزواج ، وراح يعد نفسه لحياة آمنة هادئة ... ثم
تقدم لأهلها .. فاذا بهم يحقرون من شأنه هو العامل ! عامل لا يساوى
شروى نقيرا .. هكذا قالوا ..

ولمح الاصرار فى عين فتاته فازداد حبه لها ، الا أن الايام كرت وهو
لا يستطيع لقاءها .. ثم كانت الكارثة .. تزوجت الفتاة من ابن عمها ،
جن جنونه ومضى يطوف ببيتها ويتلصص خلال الكوى وخصائص النوافذ
الحشبية .. حتى رآها مرة ترتدى فى غنج — نصف عارية — فى أحضان
زوجها الجلف ، فنفرت عروق رقبته . وبدأ يسمع نبضات قلبه خلف
أذنه طبولا داوية تدق وتدفعه دفعا فاقترح الباب وأطل فوقهما والشرر
يتطاير من عينيه ..

ثم ارتفعت يده القوية ببلمة صغيرة أهوى بها على رأس الزوج
ففصلته ، وانكفا عليها يطعن ، الا أن صرختها الدواية حفزته الى النجاة ،
فولى هارباً ، وقد ترك بين يديها لبدته الصفراء .

ثم بدأت مطاردة أهل القتل واليوليس ، وبدأ طوافه في ادغال
«القصب حتى ضاق الخناق عليه فهرب الى الجنوب وهو يأمل العودة الى
زينب في يوم قريب ، وساقته قدماء الى اسوان ، فعمل في تلية الخزان
حتى حامت الشبهات حوله فركب الباخرة خلسة الى القرى النوبية .. ثم
هذا النجع يحتوى فيه ..

وأجهش في بكاء مرير ، وأبى يربت على كتفه وصوته المختنق
حازال يقول :

— لكن مصير الغريب يا شيخ امين يردع لبلده ..

وزبت ابى على كتفه .. وهتف :

— لكنهم يا مجنون .. ينتظرونك هناك ، جبل المشنقة ..
ينتظرك ..

ثم أشار بيده وكأنما يبعد خاطرة بدت له وأضاف :

— وأهل القتل !

— لا أخشى جبل المشنقة .. ولكن زينب ..

— هوه هوه ؟ تزوجت .. لا بد انها تزوجت .. اولى بك ان تعيش
هنا حتى توافيك اخبارها ..

— وكيف ؟

وبدا أبى عاجزا عن الإجابة ، فأطرق برأسه ثم قدم له سيجارة
أخرى اشعلها .. واخذ يرسل دخانها في حلقات تحوم فوق رأسه ..
ولانت مع نفثات الدخان عضلات وجهه ، وانطفاً البريق القاسى في عينيه
واسترخى على المصطبة .. وبدأ واضحاً أن نزوة « الردوع » الى بلده قد
فارقت الى حين ! فقد عاينته ساكناً هادئاً بعد أن انتهى من قصته ، يرتشف
الشأى الثقيل في نهم ..

زال من قلبه اى حماس يدفعه الى التفكير في العودة ، أو تمسك
السجن والمشنقة .. فوازن بين حياة القرية النائية المؤلمة ، وبين القبر
المظلم البارد في سجن قنا فقرر البقاء بعيداً عن الصعيد وادغاله ومطارداته
التي لا تنتهى ..

وكثيراً ما كان حسن المصرى يتداعى ويخلد الى الصمت ، فلا يبارح

الشونة لينطلق بعد ذلك يضحك ويرسل اغانيه الشجية ، وناظرا
يتجهان الى الشمال !

وفي ذلك اليوم القائظ ، والقيلولة تشوى الابدان لم يكن عند
الشاطيء غيره ، يتلقى مياه الجدول الكبير في احواض الذرة النامية ،
وغيرى انا متربعا على هودية الساقية اتأمل ظهر بقرتنا وهى تدور فى
صمت .. وأفكر فى النيل ، تلطم امواجه الشاطيء فى قوة ثم تعود الى
شاطيء الجزيرة الغارقة لشوشتها ، البادية كباقة خضراء القاها سكير
فى أليم .

ولم يكن على شاطيء الجزيرة الا برعى وقد تعلق بذراع شادوف
ينحنى ويقوم معه .. والا بعض الاطفال عرايا « ييلبطون » فى الماء ..

ومع كل دورة وأخرى للبكرة ، ومع القواديس الفخارية الحمراء ..
تصب الماء فى الجدول الكبير .. ومع هدير تروس الساقية وحفيف
النخيل . وشوشة وريقات اللوبيا والترمس « وزمة » القيلولة ولطمت
الموج ، كان صوت حسن المصرى ينسكب فى أذنى .. بينما عيناي تجولان
هنا وهناك لتلتقى مع الظل فوق الصخرة المعلقة على كتف الجبل ، والتي
اتخذناها ساعة تحدد مواعيد عملنا ، ولنلتقى عند الافق بسفينة ثلاثية
الشراع . سوداء ضخمة تقترب من المنحنى الشمالى ، غاطسة فى النيل
الى غور .. تغالب الموج وتصعد الى الجنوب .. نفس السفينة التى فقد
الى شواطئنا فى كل عام .. تحمل الفرحة الى قلوبنا نحن الصغار .

فيما بعد الجزيرة الخضراء - الى الغرب - عبر النيل كان « كران
نوج » .. الاثر الرومانى القديم يربض بقمه الشامخة على الصحراء ،
تمتد الى ثلاثين ميلا ما بين قرى « عافية » .. و « عنيبة » بمحاذاة قرىتنا
قته وابريم ..

هذه الصحراء كانت رهيبة تملأ قلوبنا نحن الاطفال بالرعب ..
فالقصر مسكون كما تحكى جداتنا .. يغشى الهلع نفوسنا حين نرى رجلا
يسير الهوينى على دابته عبر الصحراء ، امام القصر المباشر .. فنبسمل
خشية أن تخرج العفاريت اليه لتنتزعه هو ودابته الى داخل القصر فلا
يعود الى ذويه !

وعلى الشاطيء الغربى - أمام القصر - بمحاذاة الشمندورة الحمراء
.. كنا نراقب وقرائصنا ترتعد ذئابا تعوى وئعالب بلون الرمل تجرجر
ذيولها حول القصر ، وضباعا تستدير حول نفسها ، وتماسيح تربض فى

المغارات السوداء على الجرف ، تماسيح تنهش الابقار والاطفال وتحملهم الى
المغارات تتركهم هناك حتى تتعفن الاجساد فتزددرد لها لتعربد بعد ذلك بين
الشاطئين .

وفجأة ، وأنا أمد بصرى الى الشاطيء المقابل ، تسمرت عيناى على
الماء وهو ينشق عن جسم هائل يخترقه من الغرب الى الشرق ، حتى وصل
فى سرعة البرق الى « الموردة » الملاصقة للساقية ، ولطم الفلوكة لطمسة
كادت تقلبها . . لطمه أثارت موجة عالية من الماء ورذاذا تساقط على يدي،
ثم استدار دون تمهل فى حركة لولبية الى وسط النيل يشقه تماما مثل
محركات البواخر . . فارتعدت فرائصى لمراى التمساح ، وكدت أقفز من
الهودية هاربا بجلدى ، تاركا بقرتنا تدور وتدور حولها فى الساقية . .
الا ان اختفاء التمساح وصوت حسن المصرى سكبا فى قلبى هدوءا أخذت
أستعيده لحظة بعد لحظة . . وأنا أتلفت هنا وهناك ، تكاد عيناى لاتستقران
على شىء !

ومن الناحية الشرقية ، فى الطريق العام ، لاحت فتاة أخذت تتحرك
ببطء وعلى رأسها « كوبيه » نحاسى (وعاء كبير يستخدم كالجرة) تتوهج
الشمس عليه وتنعكس منه أضواء باهتة صفراء على وجهها الأسمر ذى
التقاطيع النوبية وأخذت احرق البصر لأميزها ، غير أنها اختفت فجأة
على مسافة قريبة من ساقيتنا . بين عيدان الذرة ، وفى نفس الوقت سكنت
حسن المصرى عن ترديد اغنيته .

وتملكنى الفضول فأخذت أرنو ببصرى فى اتجاه الفتاه ، افتش عنها
هنا وهناك الى أن وجدتها تنحنى بين عيدان الذرة ، وقد تعرت ساقاها ،
تلتقط بعض الحشائش والعيدان . . ومن خلفها حسن المصرى يقترب فى
هدوء وحذر . . بينما انا أمعن النظر فيهما ، فى الفتاة المنحنية لاتبالى
بشىء مما يدور حولها ، وفى الرجل المتسلل اليها .

وقفز قلبى فجأة ، فقد رأيته ينكب على الفتاة ويحيطها بكلتا يديه،
ويمد يمينه الى خاصرتها ويجذبها اليه وهى تقاوم فى عناد . .

ومد الرجل يسراه وقبض على فخذها ، وقد كمم فمها بيده اليمنى ثم
انكفأ على الارض ، وتدحرجا فوق عيدان الذرة التى تكسرت تحت ثقلهما
. . وبدت الفتاة ضائعة ، الا أنها تمكنت منه ودفعته دفعة كفأته على وجهه
. . ثم استوت على قدميها وهرولت الى الطريق العام ، وهى تنفض ترابا

علق بجلبابها وشعرها ثم حملت « الكوبيه » واتجهت الى الشاطئ . وهي تتلفت خلفها ، وتضم ثيابها التي تمزقت عند صدرها وتتحسس فخذها .

ولبت حسن المصرى لحظة يتتبعها بعينه صامتاً حتى توارت عن نظريه ، ثم عاد الى غنائه وكأن شيئاً لم يحدث .

لحظة خاطفة تم فيها كل شيء ، وفي سرعة أذهلتنى . . . وتبدى لى حسن المصرى شخصية جديدة ، فلقد شهدته يصلى ويبكى ويحمل الاثقال ويرمم الجدران ويتسلق اشجار النخل ليبنى لنا نحن الصغار رطباً جنياً ميكرة . . . فاذا به اليوم يبدو رجلاً قاسياً . . . وتذكرت هنا قصته مع زينب فى الكلح ، واصابتنى رعشة الا اننى ادركت ادراكاً غريباً ان ما يحدث يجب الا يذاع ، اذ كنت احب الرجل واتعلق به منذ اربعة اعوام . . . منذ كنت فى الرابعة من عمري .

وها هى الفتاة تقبل على « الموردة » فى خطى لاهثة . . . تتلفت الى الوراء خشية ان يلحق بها الرجل ، وهالنى الامر فانها « شريفة » صديقة كل اطفال النجع ، فتاة فى سن برعى دولحظ . . . ممثلة القوام ، بديعة القسمات سمراء ، واسعة العينين تتهدل ضفائرها على كتفيها من تحت طرحتها الخفيفة السوداء . . . متوسطة الطول . خفيفة الحركة مثل الفراشات ، يتيمة ، تعيش مع أمها « دارياسكينة » .

توقفت عند الشاطئ ، وهى تلهث ، ثم انحنت بعد أن استدارت قليلاً لتلقى نظرة على الطريق . . . وطفقت تغمس « الكوبيه » النحاسى الأصفر فى الماء .

واختلط صوت ارتطام الوعاء بالماء ، بصوت حسن المصرى وهو يسكب الحانه ، بينما انشغلت من جديد بالبقرة ودورانها وحركة القواديس والموج وهو يعلو ويهبط ، والتيار المندفع بلونه الداكن الحمرة الى الشمال ، والمراكب الشراعية وهى تشق طريقها فى جهد ، وبرعى وهو يجهد نفسه مع الشادوف على شاطئ الجزيرة ، والقصر الاثرى والرياح تنفذ من قمم المتلثة ، ومن حوله رمال ساقية تدور فى اتجاه الريح . . .

وفجأة ارتفع صوت نسائى حاد يخترق طبلة أذنى ، وينتشلنى من تأملاتى الصغيرة فى استغاثة باكية .

وحانت منى التفاتة الى موضع شريفة فلم أجدها !! فقفزت من مكانى وجريت الى الشاطئ والصراخ يعلو ويندفع بعيدا . بينما الرجال على مصاطب النخل يفركون عيونهم ، وحسن المصرى يجرى على الطريق العام مندفعاً كالسهم .

وأدركت بعد لحظة معنى تلك الاستغاثة .. فقد كانت الامواج العالية تبتلع شريفة بينما طرحتها تعوم فى مكان غير بعيد من « الموردة » .

وتغلب رجلان على اضطرابهما ، وصاحا بالرجال النائمى على المصاطب . ثم اتجها الى الفلوكة واندفعا بها فى النيل .. الا أن حسن المصرى كان أسرع منهما ، اذ خلع جلبابه وألقى بنفسه الى التيار ، يحمله بسرعة الى أن حاذى شريفة .. فاذا بها تغوص للمرة الثالثة !

المرة الثالثة ! نهائية وحاسمة ، اقدر للنيل اذن أن يطوى بين ذراعيه نواره النجع وابتسامتها المشرقة !؟ ابنة داريا سكينه ، حبيبة برعى دولخط ، والتي مزق حسن المصرى جلبابها تماما فوق الصدر منذ حين قصير ، بين عيدان الذرة فى حقنا .

أخذت أفكارى تلهث بى وأنا اجرى على الشاطئ ، ثم توقفت افكارى حين لمحت برعى هنالك على جرف الجزيرة يترك الشادوف ويلقى بنفسه بين احضان النيل الهائج المائج وترددت أنا لحظة ثم ألقيت بنفسى تحملنى الامواج الى حيث تغوص شريفة وتموت ، واخذت العن نفسى على ترددى ، ولا أدرى ما الذى كنت سأفعله اذا ما بلغت موضع شريفة ، بجسدى الصغير ، ولكن « برعى دولخط » زعيم النجع قد ألقى بنفسه فى النيل لانقاذ نواره النجع .. النواره التى نحبها جميعا .

وتذكرت التمساح بينما التيار يندفع بى الى الشمال ، فتبيست مفاصلى ولم تعد قدماى تحركان الماء حتى كدت أغوص ، بيد أن التيار كان قد حملنى بسرعة حتى حاذيت الفلوكة ، فمد أحد الرجلين يده وانتشلنى على ظهرها ثم أخذنا يجدفان بقوة ليبلغا الموضع الذى رأى شريفة تغوص عنده ..

ولكن أين شريفة الآن ؟

سرحت ببصرى الى الشمال .. فرأيت برعى والتيار يجرفه حتى غلب على أمره .. فأسلم نفسه للتيار يحمله أنى شاء .

وهناك قريبا من الشاطئ الشرقى ، فى مواجهة نتوء من الارض

يمتد داخل النيل ، كان حسن المصرى ينتشل نفسه من النيل ويجذب وراءه كومه سوداء !! وحدقت فى اللومه .. اهى شريفة ؟ .. ربما ..
فذلك هو جلبابها الاحمر ينقطه البيضاء المستديرة .. المرة الثالثة ! ..
آخر مرة .. أتراها ماتت مختوقة فى النيل ؟

واتجهت فلوكتنا الى برعى وانتشلتة .. وما ان استوى على الفلوكة
واسترد انفاسه حتى اتجه الينا يسأل .

— ما الذى جرى ؟

ورد عليه احد الرجلين :

— اهدأ الآن وسترى .. صبرك بالله ..

— أماتت ؟

واردف فى لهفة قبل أن يجيب عليه أحد

— ومن هى ؟

ثم أشار الى فلم أجب .. شىء غريزى دفعنى الى عدم الافضاء
بالسر .. أقول له ان شريفة ماتت ؟ ولما لم يجد منى جوابا اتجه الى
الآخرين ببصره وقال فى توسل :

— رأيتموها ؟

وواجهاه بصمت مطبق فأردف :

— أهى ..

وقاطعه أحد الرجلين بحدة : سبحان الله يا ولد ! لماذا تتعب نفسك؟
لا أحد يعرف ، لكنها من نساء نجعتنا .. لعنة الله عليها .

واضاف الآخر .

— نساء ناقصات عقل ودين .. العفارىت تنام فى مثل هذه القيلولة
.. العفارىت ..

وحقق الآخر فى وجهى وقال وكأنه تذكر أبى .

— والشيخ أمين هو السبب .. لو أصلح الموردة .. لما زلت قدمها .

فقلت فى حدة :

— والموردة مالها ..

فانبرى برعى يصرخ فى وجهى :

— لو كانت سليمة مبطنة بجذع نخل لما تأكلت ولما انزلت المسكينة الى التيار ..

وفى هذا الوقت ، كان جمع من الناس .. قد ازدحموا على شاطئ الجزيرة وعلى النتوء الممتد الى النيل .. بينما السفينة الشراعية الكبيرة ذات القلوع الثلاثة تتوسط الطريق بين ساقيتنا والمنحنى الشمالى ، وعليها رجال سمر يتجهون بعيونهم الى النتوء وايديهم ممسكة بالسكان والشاغول .. وبحبال متينة من الليف والتيل .. يلقونها على بكرة عالية .. وشغلنى منظر السفينة عن النتوء وعن الرجال والنساء الذين تجمعوا هناك . بل كنت فى حقيقة الامر امعن النظر فى السفينة حتى لا تتلاقى عيناي ببرعى . فيفهم من حيرتى وارتاباكي كل شيء . كنت وحدى اعرف الحقيقة .. فماذا أقول له لو سألتنى ! أكذب عليه وأختلق له اسما آخر .. غير اسم شريفة ؟ لم تكن قد تعودنا بعد أن نتبادل الأكاذيب حتى ولو كانت بيضاء ! ..

انه يكبرنى .. ولكنه فى نفس الوقت يصغر الرجال .. وليس مسموحا لمن فى سننا توجيه الاسئلة الى كبارنا .. ولذلك أخذ برعى يصب أسئلته على رأسى أنا ، على واحدا منهما يتفضل بالاجابة . ولكنهما كانا لا يعلمان شيئا . أنا وحدى كنت أعرف القصة كلها ، وتمنيت لو استطعت أن أقول له :

— محبوبتك شريفة زلت قدمها عند الموردة .

فيطلق صرخة مرعبة ثم يسأل :

— أماتت ؟

— كلا .. مازالت تعيش ..

تمنيت أن أقول له ذلك : لكنى وجدتنى اسبح مع أفكارى هذه وأنا أشيح بوجهى عن برعى .. وأحلق فى الأمواج .. وأحسست بحزن شديد .. ومن يدرينى انها لم تمت بعد .. من يدرينى ؟ مسكين أنت يا برعى .. والمسكينة الاخرى هى داريا مسكينة .. أم شريفة .

فشريفة وحدها تؤنس وحدة أمها الأرملة الشابة التى لم يعد لها

فى الوجود غير ابن اضطر ان يهاجر الى مصر أم الدنيا ليعمل هناك ..
ولكن سنة كاملة مضت دون أن يكلف نفسه عناء ارسال خطاب واحد
شأن كل المهاجرين .

« داريا سكيئة » المسكيئة تعيش فى النجع على محصول بضعة
نخلات والعمل فى البيوت . تطحن وتغسل وتغربل وتعجن .. وتربى فى
بيتها المتهدم بعض الدواجن والحملان . أما القيرطان اللذان تملكهما فقد
رهنتهما عند أبى وفاء لبعض ديونها .. غلبانة .. أنها ستحرم حتى من
ابنتها .. ستحرم منها نحن جميعا .. داريا ستجن .. وتقتل نفسها
من الحزن .. ستذرف الدموع وتصبغ وجهها بالنيلة .. كما فعلت أمى
حين مات أبوها .

واشتد قلقى على الأم .. وانشغلت بالتفكير فيها عن برعى وأسئلته
.. فكف عن ملاحظتى .. وانتصب على مقدمة الفلوكة يمد بصره الى النتوء
الشرقى يستكشف ما يدور هناك .. الا أن التجمع الصغير من الرجال
والنساء كان يحجب كل شئ عن ناظره فتتهد وضرب كفا بكف ، بينما
الرجلان صامتان يضربان الماء بمجدافيهما .. ، ويسرعان بالفلوكة الى
النتوء الشرقى .. ولا يهمسان أو يقطعان صمتها الا بكلمات مقتضبة .
- دنيا !

فيبتلع الآخر ريقه ، ويبصق فى راحة يده ويقول وكأنه يردد قطعة
من المحفوظات :

- غرورة !

ويمصص الاول بشفتيه ، ويترقع بلسانه ويضرب الماء بقوة وقد
برزت عروق رقبته ويردد لاهثا :

- لا اله الا الله .

- لا حول ولا قوة الا بالله ..

وأرسلت الفلوكة أنينا خافتا .. وهى تجنح الى الشاطئ عند
النتوء الشرقى ، فقفزنا جميعا الى الارض .. وفى سرعة كنا عند التجمع
الصغير .. رجالا ونساء يستديرون بالكومة السوداء التى لم استطع
تبيينها من خلال قاماتهم الطويلة .. فأخذت أنتقل من رجل الى آخر ، حتى
وجد برعى ثغرة يطل منها فأسرعت اليه ، نتلصص معا الى داخل الحلقة ،

وأصابني رعب شديد وتقرز حين رأيت شريفة ملقاة على الأرض وقد
التصقت ضفائرها بجبينها الملطخ بالوحل .. وتذكرت المعركة التي دارت
بينها وبين حسن المصرى حين رأيت نهدها يبرز من خلال جلبابها الممزق
على الصدر .

والتفت برعى الى وفى عينيه بريق خاطف وسأل :

— من ؟ شريفة بنت « داريا سكيئة » ..

ولكن أحدا لم يجب .. فانسحب بعيدا وقد غطى عينيه براحتيه
حتى لا يرى حبيبته ملطخة بالطين عارية النهدة ..

كان رجلان عجوزان ينكفئان على جسدها الصغير يجسان بدنهما
ويتناوبان تدليك صدرها .. وهى ماتزال جثة هامدة .. حتى أقبل
عم محمود حلاق الضحّة والقى نظرة عليها ثم أمر :

— ابعدوا .. اتركوها تتنفس ..

فاتسعت الدائرة ، وركع هو على ركبتيه بينما تنحى العجوزان ثم
أمسك بها من قدميها .. ورفعها فى الهواء حتى بان فخذاها ، وفغرت
فاها .. فاندلق الماء غزيرا من جوفها الى الأرض تحت اقدام الرجل ..
كان منظر برعى فى هذه اللحظة مشهد انسان ماتت أمه أمام عينيه .
دموع تسيل على خديه ، وعينان تتقدان ، ووجه مطرق الى الأرض ..
وقدما ملطختان تتحركان به هنا وهناك .

كل أطفال النجع كانوا يعرفون حبه لشريفة .. لكم بطش بأطفال
« نجع السوارده » اذا ما تغنى احدهم باسمها .. أنا بنفسى سمعته مرة
يهدد ويشور لانه سمع أحد النوتية يتغنى باسمها على نقرات دف .. كان
يريد اسمها وقفا على لسانه فهى له .. ولن ينزعها منه احد .. لكن
ها هو الموت !

ولم يستطع برعى ان يتحمل الصدمة .. فانزوى بعيدا على جذع
ميت ينبش الأرض بقدميه .. وينهض من مكانه بين الحين والآخر ليقترّب
من الحلقة .. ويلقى نظرة محمومة .. ثم ينأى بنفسه فى سرعة .. ليعود
الى مجلسه القديم .. وشفته تتمتآن بدعاء غير مسموع .. بينما محمود
الحلاق قد أعاد شريفة الى الأرض وأخذ يدلك صدرها وراحه يدها ..
وتجراً أحد الواقفين وسأل .

– ترى هل تعيش ؟

– غوروا من وجهها وسوف تعيش .. باذن الله سوف تعيش ..

ولامر لا أدريه شعرت بالارتياح .. وانا استمع الى كلمات الرجل
وأطالع صفحة وجهه .. فقد أوجت كلماته بالثقة .. كما بدت حركات
يديه على صدر الفتاة مريحة تبعث الحياة فى جسدها الممدد على التراب .
ثم توقف الرجل فجأة وقال :

– الحمد لله .

فتفتح الامل فى قلوبنا جميعا .. بينما مضى هو يقول :

– البنت تتنفس ولكنها متعبة من الماء الذى ملأ بطنها ..

وتلفت وهو يصرخ :

– هاتوا ملاءة من اى مكان ..

فقفز برعى على قدميه .. وأسرع عبر النخيل واختفى عن أنظارنا
ثم عاد بعد ساعة من الزمن . وفى صحبته داريا مسكينة تحمل ملاءة
بيضاء متسخة .

كانت داريا تصرخ وتلطم خديها وتشد شعرها .. فرق قلبى
لمنظرها وذرفت دمعتين وانا اراقبها وهى تنتفض بشدة .

كانت فى الثامنة والثلاثين .. ما تزال شابة تجر جر جلبابها الاسود
الطويل .. وتلف راسها بطرحة سوداء تمزقت أطرافها .. يرتسم فى
عينها وعلى جبينها حزن شديد ..

وانحنى المسكينة على ابنتها وهى تعول وتصرخ :

شريفة ! بنتى ! والهفى عليك يا بنتى !

وجالت بناظرها فى الحاضرين المائلين فى حزن ثم صرخت :

– يالى من مسكينة . أبوك مات .. اتودين الذهاب اليه ..

أهو شرير حتى يدعوك الى جواره وانت عروس .. واخوك جمال
سافر ولم يعد .. يا الهى .. يالى ..

وحاول البعض أن يمسك بها ليبعدها لكنها ثارت كالهرة البرية
المتوحشة ، وانكفأت على ابنتها تقبلها فى كل مكان .

— بنتى .. ردى عليه .. أنا أمك .. أنا داريا .. مالك لا تردى ..
.. لا يمكن أن تكون السماء .. ماذا سأقول لجمال .. أنا الغلطانة ..
تركك تنزلين الى النيل فى هذا اليوم الهائج .. شريفة .. شريفة ..
ردى عليا .

ثم انعطفت فجأة الى الرجال وصرخت فى وجوههم :
— وأنتم .. الا تملكون شيئا من اجلى .. خدمتكم جميعا .. أنا
أختكم .. سأجن ياناس حرام عليكم .. اعملوا معروف فى ولية غلبانة
.. شريفة بنتكم .. أختكم ياهوه .. مالكم لا تتحركون ؟!

وانكفأت من جديد تقبل ابنتها .. والشيخ محمود يحاول انتزاعها
.. لكنها ناضلت فى عناد حتى لا تترك ابنتها .. كانت تهذى وتدق بيدها
على صدرها وترسل آهات تعقبها تنهدات تغوص فى قلوب الناس فيبكون
.. وفجأة رأينا على ثغرها ابتسامة واهنة .. فان شريفة كانت تحلق
فى وجه أمها تحاول ان تقول شيئا .

وترددت على الشاطئ زغرودة طويلة .. وتنفس الناس الصعداء
.. وراحت الام تمسح على شعر ابنتها وعلى صدرها .. وهنا فقط تنبّهت
لجال ابنتها وللعيون التى تحلق فى جسدها ، وجلبابها الممزق فوق
صدرها ، فانبرت تقول :

— ابعدوا من هنا .. لماذا تقفون هكذا ؟ .. أنجاس اولاد انجاس
.. الا ترون ابنتى عارية ؟

وألقت بالملاءة على شريفة . ومضت تنوش الرجال بيديها ولم
تسمح الا لبرعى والشيخ محمود بالاقتراب منها ، فحملها الى حظيرة
عبد الله الجزار .

كنت خلال هذه الاحداث قد نسيت حسن المصرى ، فلم يكن احد
يفكر فيه .. اليس غريبا هنا ؟ لقد انتشل شريفة وانقذ حياتها ، ولو
.. فان هذا هو ما يجب أن يقوم به من كان مثله ..

وتلفت حولى أبحث عنه ، فوجدته على كومة من السباخ .. يرسل
بنظراته الى التجمع الصغير والى الحظيرة ، مبتل الملابس منتفش الشارب .
ولربما كانت شريفة هى مدار تفكيره فى تلك اللحظة .. شريفة
التي قاومته ثم ألقاها القدر بين يديه بجسدها الناعم .. فحملها الى بر
النجاة .

وارتفع صوت المؤذن بالعصر من مئذنة الجامع خلف بيتنا ، ومع
صوته خرجت شريفة من الحظيرة ، تستند على ذراعي أمها وعلى كتف
برعى ، فبدأوا ينصرفون ..

وسارت شريفة خطوات حتى حاذت حسن المصرى الذى ظل متربعا
على كوم السباح يراقبها وهي تتعثر فى خطاها ، ملفوفة فى الملاء البيضاء
وتلاقت عينها بوجهه ، واستقرتا عليه برهة وشفتاهما تتمتمان بشيء
أدركت منه داريا سكينه ، أن حسن المصرى هو الذى أنقذ وحيدتها من
الموت ، فاندفعت إليه تشكره ، فى كلمات عربية متكسرة ، تختلط بها
كلمات نوبية كثيرة ، اعتاد الرجل أن يفهمها من قرط ما سمعها فى
قرينتنا منذ مقامه بها ..

وتبسم الرجل ، ثم قام واتجه الى الساقية .. كانت البقرة المسكينة
ما تزال تدور ، والقواديس ما تزال تصب الماء فى الجدول الكبير ، الا أن
هذا الجدول كان قد قطع فسال منه الماء حتى كون بركة فى أرض عبدالله
الجزار ، فى القراطين المنطرحين خلف الجدول ، غائرين عن الاراضى
المرتفعة حولهما ..

وارتقى الرجل الى الساقية ، وأوقف البقرة عن دورانها ، وتناول
فأسا ومقطفا ، ومضى الى الجدول يرممه ، فاندفع الرجال اليه يعاونونه ،
بينما وقفت أنا على الشاطئ بعيدا عن الموردة التى تأكلت ، انظر فى
غضب الى النيل وكأننى ألومه على فعلته المنكرة ..

كانت امواجه ما تزال تهدر وكأنها تتحدانى ، فأخذت أسائل
نفسى :

ترى من أين يأتى النيل ، وإلى أين ؟ ولماذا يتجه دائما الى الشمال !
ولماذا لا يعود مرة واحدة الى الجنوب ؟! وقلت لنفسى : ربما يعود فى يوم
من الايام ..

سمعت احدهم يقول ان النيل ينتهى عند الشيخ « شببكة » بعد
المنحنى الشمالى فانبرى له أحمد عودة - خالى - يقهقه ساخرا ويؤكد أن
النيل لا ينتهى هناك ، بل هو لا ينتهى أبدا ! انه يمضى بعيدا بحيث
لا تدرك العين منتهاه !!

واقتربت السفينة الشراعية من ساقيتنا ، وأنا غارق فى افكارى ،
والقت ظلال أشرعثها طويلة على صفحة الماء ، ومعها ظل ملاح أسمر .

كانت تجر جر نفسها فى بطنه • كانت سفينة كبيرة سوداء ، محملة بعشرات الصناديق ، غاطسة فى الماء حتى لا يبين منها غير مقدمتها والا زيق ضيق من الخشب المظلي بالقار ، ينسجم مع لونه دخان ضئيل أخذ يرتفع من داخل السفينة ، من كانوا زوجة الملاح التى انهمكت فى اعداد وجبة العشاء لزوجها ولاولادها ملاهى السفينة ..

انهم فى كل عام يقبلون بهذه المراكب قبل بداية الموسم : تظهر احدى السفن ، وتتلوها اخريات من الشمال • تظهر أولا عند المنحنى الشمالى وتضعده الى الجنوب ، وترسو على مرافئنا فى أماكن متباعدة من شواطئنا الجنوبية ، وتفرغ حمولتها وتظل راسية هناك ، شهرا أو شهرين يعرضون بضاعتهم فيها حتى ينتهى الموسم ..

وكنا جميعا : نحن الصغار نحب هذه المراكب ولذلك دنوت من الموردة ، وأخذت أتأمل السفينة السوداء فى شغف ولهفة والى جانبى عم محمود •

وحين دنت السفينة من الساقية ، وحاذتها ، ارتفع صوت الملاح يوجه كلماته الى عم محمود :

— أنا ن هالى •• كيف حالك ؟

— اشرى يا •• الحمد لله •• وانت ؟!

— سكار كالا جا •• مثل السكر ••

وقهقه الرجل الواقف على الشاطئ ، فقد عرف الرجل من لهجته وصوته والفاظه وسمته :

— آه •• ها ! ازيك يا باشرى ؟

— الحمد لله ، موسم خير ان شاء الله ••

واندفع عم محمود خطوات أخرى الى الشاطئ ليدقق النظر فيما تحمله السفينة ثم سأل :

— واين ترسو : أليس هنا مكانك ؟

وأرسل باشرى ضحكة قصيرة وقال :

— كلا ؟ ليس الآن • نحن مسافرون الى حلفا بحمولتنا هذه ثم نعود فى زمن الموسم ••

أما برعى فقد ظل يتردد على العنجريب الذى رقدت عليه شريفة
يلقى عليها نظرة اشفاق ، ثم يعود ليجلس على المصطبة قلقا وكان زوجته
تلد في الداخل ..

واقتربت منه ورويت له عن سفينة باشرى فأعرض عنى ، وكأنه
لا يبالي بشيء ، وبدأ على وجهه أنه يفكر ويصيحخ السمع الى الحاصل ..
ثم أقبل على يقضى الى بسر اختزنه فى صدره :

– سأشتري لها شيئا فى هذا الموسم .. غوايش أو طرحة ملونة،
مشغولة بالحرز ..
وأطرق ثم أضاف :

– وسوف أصلى فى الفجر من أجلها عند مقام الحاج مكاوى ، فى
الجبانة ..

وأخذ يهز رأسه وقدميه المتدليتين على المصطبة ، وكأنه قد انتهى
من همومه ، وقلت له : لكن صومعتك فارغة .. لا بلح فيها !
فقال بحدة وكأنه يصفعنى :

– لا شأن لك بهذا .. سأملؤها فى أى وقت .. اشجار النخيل
كثيرة ..

في قرينتنا تعود آباؤنا وأشقائنا ، أن يسافروا ،
يودعون فى ألم مجبرين على الرحيل ويشربون سطل لبن ،
وهم يخطون أولى خطواتهم على عتبة البيت خارجين ،
يزدردون معه حبتين من التمر ، ثم يرحلون فى جمع من أهل النجع الى
المحطة النيلية ، راكبين أو راجلين ، ثم تقلع الباخرة الى الشلال ، ثم
يحملهم القطار الى مصر أم الدنيا أو الى الاسكندرية ..



ومنهم من يعيشون هناك سنوات طويلة ، وقد لا يعودون ابدا ،
ومنهم من يغيب بضعة شهور يعود بعدها الى أهله ، ومنهم من يتوهون
فى زحام المدينة ، فلا يعرف أحد مصيرهم ، حتى خطاباتهم تنقطع ، فيلج
أهلهم فى السؤال عنهم ، ويلحفون فى السؤال حتى تمر الايام ،
ويصيبهم اليأس ، فيسكتون طاوين صدورهم على حزن مرير ..

وعند الرحيل ، يبكى الناس ، أما عند عودة الغائب فانهم يفرحون ،
الزوجة تفرح ، والحالة والعمة والابنة والاعمام والخيلا ن يفرحون لعودته
بالسلامة ، ولانه غالبا ما يحمل اليهم من مصر أم الدنيا أشياء قد تكون
فى متناول اليد ، يمكنهم شراؤها من الدكاكين المنتشرة فى كل قرية ، أو
فى عاصمة المركز اذا أرادوا ، أشياء قيمتها ان تهدى اليهم ، أن تكون
جسرا بين قلب العائد الى قريته وقلوب الذين ظلوا ينتظرونه ، يسألون
عن صحته ويوم عودته شهورا أو سنين طويلة ، لا ينسونه مهما طال بهم
الزمن أو ابتعد المكان . حفنة شاي ، جانب سكر ، طرحة خفيفة ملونة
لهذه الفتاة ، قبضة صغيرة من الحناء لشعر هذه العجوز ، ومنداس أحمر
للصغيرة ، وطاقية ملونة للولد ، وسبحة طويلة من الكهرمان لهذا العم ،
وحففات من الفول السوداني والحمص . وملبس لهؤلاء الاطفال ، ومصحف
لشيخ الكتاب أو المأذون ، وأنواع من العطارة لحلاق الصحة — عم محمود—
وزجاجة عطر نفاذ من « حسنين الماوردى » فى التريفة للزوجة ، وقوائم
طويلة من اخبار الغائبين المزمين لامهاتهم وآبائهم وزوجاتهم وعيالهم !

كل عائد فى قريتنا ، يستقبل كما يستقبل المولود أو الحجاج .
كل واحد ، كل واحدة تستقبله ، وفى قلبه أو فى صدرها أمل ..

وياويل العائد حين تخلو جعبته من اخبار الناس ..

ذلك الوداع الحار هو ما ودع به خالى — أحمد عودة — منذ شهور :
زوجته تودعه ، وأمه تدعو له ، وامرأة أخرى من الجيران تستحلفه : أن
يتصل بابنها الوحيد الغائب ، وأن يعود لها بأخباره ، فقد انقطعت منذ
شهور ، واذا كان « خالى شغل » أو « بطل » فليس عليه من حرج ! ماعليه
الا أن يعود ورزقه ورزقنا على الله !

وهذه أخرى تدنو منه وتميل على وجهه وتسرى أذنه ، كلما دامعا
يظل سرا بينهما : ان يحمل زوجها على استدعائها فى مصر ! لقد طال
غيابه وهى فى القرية لا تريم ، انه يرسل طرودا وحوالات مالية ورسائل
تكفل عيشها . انه لا يقصر فى كل ذلك ، ولا يتخلف شهرا ، ولكن الحياة

كما تعلم يا أحمد عودة ليست مجرد خطابات وطرود .. فالاطفال زينة الحياة الدنيا .. لقد كبر ابننا ابراهيم دون أخ يؤنس وحدته أو أخت تساعدني في شيخوختي !

ويضحك أحمد عودة ويداعبها ، ثم يقرصها من خدها على مرأى ومسمع من الناس ، ثم يعدها خيرا ليفرغ لغيرها ..

هكذا رحل منذ شهور ، الكل يأمل من رحيله خيرا ، والكل يأمل في عودته خيرا ..

ولحالي في كل عام رحيل وعودة . الناس جميعا يشقون في أنه سيقوم بكل ما أوصوه به ، فهو لا يرحل الى مصر ليقيم ، بل جدير به أن يعود سريعا اذا ما رحل ، فله أعمال في النجع : زراعته ومتجره ، وصحابه الذين لا يملهم ولا يملونه ..

وهو رجل مستنير ، كثير الصلات بتجار القرى والمركز ، خبير بدروب القاهرة وشوارعها وملاهيها ، معتز بنفسه ، يصلي كل فرض . ويصوم رمضان ، ويؤدي كل فريضة وان كان لا يهتم ذاته ، فهو يحب من الطعام أجوده ، ومن الشراب اشهائه وأطيبه ، ومن الملابس أزهاها وأنعمها ملمسا ، ومن الاصدقاء أرفعهم ذكرا ، يعرف لنفسه حقها في الحياة ، وللعمل قيمته فلا يتوانى ..

ورحيله ليس الا نوعا من العمل ، يرحل وفي جيبه دفتر طويل ، فيه ما على الناس من ديون ، يستوفيه من ابنائهم في مصر وبقية المدن ، فهو يرحل اذن للترويح عن النفس وفي نفس الوقت للعمل ، يرحل ويبقى أبي في المتجر - فهما شريكان - يديره بمفرده ريثما يعود الخال ..

كان أبي لا يقرأ ولا يكتب الا بصعوبة شديدة ، وكان على أن أساعده في تدوين ما يصرف من المتجر وما يستورد اليه ، وما على هذه وتلك من ديون ..

وكم رأيت أبي حين تستهويه الكتابة ، يفترش الارض وينكفيء على الدفتر ، ويمسك بالقلم في قسوة بين أنامله ، ويكتب الكلمات في خطوط عريضة متعرجة ، فيملأ السطر كله بكلمتين : داريا سكيئة . ووقه سكر ووقية شاي ، فأهرع لمساعدته فيتأبى ، ويدفعني بعيدا عن الدفتر في كبرياء ، ثم تتعب عيناه وتكل أنامله فيسلم الدفتر لي ، ويظل يراقبني في حذر وأنا أكتب ..

وكان من الطبيعي أن يختصم أبى وخالى على بعض حسابات المتجر ،
فيصر أبى وهو يشد قامته أن تتم المحاسبة فى وجودى أنا الذى لا أدرك
كثيرا مما يقال ، ولكن أبى رغم ذلك كان يصر ، ثم يطمئن اذا ما حضرت ،
ولكن المحاسبة كانت تتم فى نهاية الامر كما أراد خالى لها أن تنتهى ، فلم
يكن جضورى اياها ذا شأن كبير أو صغير .. ولكن الرجل كان يطمئن اذا
ما حضرت ..

خالى هذا لم يكن الا ابن عم لأمى ، ولكننا فى بلادنا نحب أشقاء أمهاتنا
وأبناء أعمامهن الاقربين والابعدين ، ونعتبرهم خيلانا نعتز بهم ، ويعتزون
بنا ، فان أخلاق المدن وعاداتها لم تكن قد أفسدت بعد حياتنا ! فظلت
علاقاتنا الاجتماعية على الدوام بقية وشائج من التعاطف والحنو .. وكان
أبى فى نفس الوقت خاله شقيق أمه ، ومن هنا كانت فرحة أبى تتزايد ،
وترتفع روحه المعنوية حين يعود هذا الخال سالما ، فيستريح من تدوين
حسابات المتجر ومن مناهدة كل زبونة ، فكم كان يعانى منهمن وكم كن يعانين
منه ! ويطمئن عليه بعد هذه الغيبة فى مصر ذات العربات والعجلات والنساء
وكان هذا الخال يعتبرنى ابنا من أبنائه ، يتعهدنى كما يتعهدهم ،
ومن هنا كانت فرحتى ، وفرحة جدتى وأمى وشقيقتى ، وكل أهل النجع
بعودة هذا الغائب العزيز . الجميع يذكرون أياديه ، ويحمدون له
صنائع قدمها لهم ...

فبعد رحيله بأيام كان يتحقق للناس كثير مما أوصوه به ، فتسافر
الزوجة الى زوجها ويأتى الخبر بعد عام أو عامين انها انجبت طفلا ،
ويرسل الابناء مزيدا من الطرود لذويهم ، وبعد عودته يعمر المتجر بالجديد
من الحلوى والشيت والفوال والطرح الملونة ، فيحمد الناس له عودته ..

كان لعودة الغائب فى قريتنا شأن وأى شأن ..

منذ شهر أو يزيد والناس فى نجعنا يعلمون بعودته ، فقد أرسل
منذ أيام تلغرافا أخذنا بعده نتهيا لاستقباله على مرسى الباخرة فى «أبريم» .
وبدأنا نفرش داره بالرمال الناعم الاصفر ، ونطلي جدرانها ، بينما البنات
والام والزوجة يخرجن من السحاحير ، اطباق الخوص الملونة ، وأطباق
الصينى المزخرفة يلصقنها فوق جدران الدهليز والديوانى « والمندرة »
منكفئة على وجوهها ، وملاءات بيضاء نظيفة ، والحقة لامعة ، يفرشنها على
أرائك وعنجريات رصت فى الدهليز والمندرة .

كل من فى الدار يتحرك . والجيران وجيرة الجيران يأتون

للمساعدة ، كل واحدة تتقرب الى زوجها وأمه ، لتكون أقرب الناس الى الغائب حين يعود ..

كانت الباخرة تصل عادة في المساء ، وللنوبيين في انتظار هذه الباخرة « البوستة » عادات وتقاليد ، فهي همزة الوصل بينهم وبين مصر ، فلا قطارات تصل بلادهم بالسودان أو بالمدن الزاهرة في مصر ، ولا عربات ، كل ما هنالك هو أعمدة التليفون والبرق ، والجمال ، والنيل والبواخر تمشي على الماء كالسلحفاة ما بين الشلال وحلقا في يومين أو ثلاثة ، لا تربط في قريتنا الا مرة كل اسبوع .. ورغم ذلك فقد اعتمدوا عليها في حياتهم ، في اتصالهم بالعاصمة وبمن فيها من الابناء الغائبين ، وفي نقل السلع والغلال من المتاجر واليها ..

وفي كل اسبوع .. كنا نذهب الى المحطة النيلية ، وننتظر الباخرة ، فتبغدد علينا ولا تصل في مواعيدها ، فنظل ننتظر وننتظر حتى يصيبنا الكلال ، فننام على الشاطئ ، حتى تصوصو في عيوننا بأنوارها الزاهية من بعيد ، فيهلل الصغار وتصفو نفوس الرجال والنساء .. ثم تدنو وتتهادى رويدا رويدا الى أن تعانق المرسى ، وترمى بالسقالة الى الموردة وتفرغ حمولتها من العائدين والطرود والرسائل ويبتاع ركبها الصاعدون الى الجنوب علب التبغ ومئات من ثمار الليمون ..

ومنذ الاصيل في ذلك اليوم .. رحنا جميعا ، أبناء العم والخال نسوق فلوكتنا الى المحطة النيلية ..

وأقبلت الباخرة كما تقبل العروس : علم يرفرف ، وثريات تسطع ، دنت حتى جاوزت الشمندورة الحمراء ، ثم انعطفت الى الشاطئ ورست ، وأطبقت شفتي قلاباتها عن الحركة فأطل العائدون علينا ..

وعلى غير العادة ، كان العائدون كثيرين في تلك السنة ، وكم كانت مؤثرة مشاهد استقبال الناس لهؤلاء العائدين في تلك السنة بالذات .. فقد كانوا اشكالا والوانا من الناس ، لم تعهدهم القرية منذ زمن بعيد ..

فهذا رجل أشيب الفودين ، ابن من أبناء القرية ، تركها منذ ثلاثين سنة شابا ، وها هو يعود مع أبنائه اليوم عجوزا ، وهذه البيضاء امرأة من مصر ، تزوجها رجل نوبى هناك وأنجب منها ثم مات .. عاد بها ابنها في هذا العام الغريب الشاذ في حياة قريتنا .. عودة لم أدرك مغزاها الا بعد شهور طويلة ، فهي تتصل ببركات أفندى ، والطرايش والوجوه البيضاء ودفاتر التسجيل ..

وهذا هو عبده الفرنساوى : صغير الجسم ، لقب فى مصر وفى
القرية بلقب « عبده بتيت » .. فقد كان يعمل عند عائلة فرنسية منذ كان
طفلا صغيرا فاستحق هذا اللقب بجدارة ، لا يعرف من لغتنا الا كلمات
متأكلة الحروف والنهائيات ، ولا يجيد العربية ، ويتقن رغم ذلك لغات
سبعا منها الانجليزية والفرنسية يلوى بهما لسانه ، كما يلوى الخواجات
السنتهم ..

لم يعد « عبده بتيت » الى وطنه الا فى هذه المرة ، وكانت له أم
وأخت . والام والاخت قد كبرتتا حتى بلغتا سن الشيخوخة والكهولة ،
أقبلتا متساندتين فى صحبة نفر من الاهل تستقبلان الابن والشقيق
القائب طيلة العمر . ياللوعاطف الجارفة التى تجتاحهما وهما تنتظران
الباخرة : احدهما يبصر كليل ، والاخرى أرملة ، عاشت منذ زمن بعيد
تتمنى هذا اللقاء وتتشوق اليه ، جدران بيتهما مزدانة بصوره التى أعتاد
أرسالها . فصورة له وهو يعمل فى مصر ، وثانية فى باريس وثالثة فى
زيورخ وكارلسباد ، ومن حوله شقراوات بصدور عارية وعيون ..
ياللعيون ! .. لقد طاف بكثير من عواصم العالم ومرافئها وزار مختلف
البلدان الاوروبية ..

نزل هذا الرجل من الباخرة ، فأحاطت به الام والاخت ونسوة العائلة
يقبلن صفحة وجهه ورأسه ، ويلشمن قدميه ويديه وصدره وفخذه ، كل
قطعة من جسمه ..

توقف الرجل على الضفة التى ولدته ، برهة قصيرة يمعن النظر فى
أشجار النخيل الباسقة ، وقف وعلى شفثيه رعشة ، لا يفوه بكلمة وكأن
شيئا ما يقف فى حلقه ، ثم انثالت دموعه ، وهو يحاول أن يتجلد ، ويظهر
بمظهر الرجال أمام نسوته اللائى التفقن به ، يمسكن به ويبتعدن عنه .
يراقبن طوله وعرضه وقسمات وجهه ثم تصرخ احداهن :

.. آه يا ابن سبيلة خليل .. كم كبرت ؟!

فرد عليها بكلمات عربية متكسرة فلا يفهم منه شيئا ، ويبدين
سرورهن بعودته .. ألم يعد غائب مزمنا الى وطنه ؟!

وانشغلت أنا بهذا الرجل لحظة ، ولم تطب نفسى الا بعد أن علمت
أن أمه جارتنا فى النجع القريب من نجعنا ، وأتانا سنراه اذن فى كل يوم ،
فأستدرت عنه الى خالى الذى توسط جمعا من المستقبليين ، يبش لهم ،

ويتندر بهم .. وكان كما عهدته : متوسط الطول ، عريض المنكبين ،
شامخ الأنف أفضسه ، أسود الشعر غزيره ، الا شعيرات قليلة بيضاء
تناثرت فى قوديه ومؤخرة رأسه . أسمر الوجه تشوبه حمرة خفيفة ،
ساخرا قوى العزيمة البادية فى عينين واسعتين ، يشع منهما ذكاء التاجر
الريفى الرحالة الذى عرك الدنيا وعركته ..

وتبسم حين رآنى ، ثم شدنى اليه ورفعنى الى صدره ، وقبلنى وهو
يمطرنى بأسئلته عن أبى الذى تخلف فى المتجر ، وعن أمى والمتجر وشيخ
الكتاب ، وعما حفظت وهل تهيأت للازهر أم ما يزال أمامى شوط بعيد ؟
وهل دونت أنا كل شئ يتعلق بالمتجر ، أم تركت أبى يملأ الدفاتر
بكلماته العريضة غير المقروءة ، فأخذت أجيبه فى اقتضاب ، وأنا أتأمل
وجهه وأشم رائحة ذكية تنبعث من ثيابه .. رائحة مصر ..

ثم انهمكنا فى حمل شنته وأمتعته ، نتحسسها ونجس ما فيها ،
ففيها ولا شك بعض ما ترقبناه ، وسريعا ما حملناه الى الفلوكة ، فأقلعت
بنا وبه لترسو على الموردة قبالة ساقيتنا ..

وبعد العناق والاحضان ، خلص الرجل الى « المندرة » وتربع على
أريكة ، وبدأ الناس من نجعنا ومن النجوع القريبة يتوافدون عليه ،
والكوانين مشتعلة واكواب الشاى ، وفناجين القهوة تدور عليهم ..

وأمرنا الرجل فأدركنا على الضيوف صندوق سجائره الماكينة ، ذلك
أن بعض الناس تمللوا فتماكروا ، وأخرجوا من جيوبهم علبا صفيحية
وأخذوا يعبثون بوريقات البفرة ، موهمين أنهم يلفون لانفسهم لقافات
من الدخان الأخضر المهرب من السودان عبر الحدود ، موعزين اليه من
طرف خفى وكأنهم يقولون :

— وأين الماكينة يا أحمد عودة ؟ لقد انتظرناك طويلا !

وتتسع الحلقة وتكبر ، والرجل يحكى عن مصر ، وعن القطار ،
ويصف المناظر : مناظر قرى كاملة ، وخضرة واسعة اخترقها القطار ست
عشرة ساعة كاملة من بوابة الحديد الى الشلال ، وكوبرى سوهاج ،
والتغير فى الاقصر ، ثم عن الباخرة التى أتعبته وأرهقت بدنه يومين
كاملين ، وعن مراكب سوداء ، ثلاثية الشراع سماها بأسماء اصحابها ،
شاهدها تشق النيل نحونا ، ثم لف بالناس أحياء مصر والاسكندرية :
معروف ، البغالة ، باب البحر وعمارة شارع عدلى والحسين والسيدة
عيشة والامامين والعطارين وعساكر البوليس ، وتمن عابدين والفرنساوى

فى بولاق ، واستمعوا اليه فى لهفة ، وضحكوا كثيرا .. ولمعت أسنانهم
بيضاء من خلال وجوههم السمراء الطيبة ومن خلال سحب الدخان المنعقدة
فوق رؤوسهم . ثم تجرأت واحدة فى منحدر العمر وابتدرته :

— احمد يا عودة ..

وانبعث صوتها نشارا بين أصوات الرجال فانتهروها :

— اخرسى يا حرمة ..

— حرمة فى عينك !

وتلتها همهمات اصوات النساء ، وانبرت ام الغائب تقول :

— دعوها لشأنها .. أليست اختك يا احمد فى الرضاعة ؟

وهدأت الاصوات ، فقامت اليه ، وقالت متشجعة بالصمت الذى ران
بعد كلمات الام :

— كيف حال عقيد ؟

وتريث العائد الى أن رأى أمه تنصرف ، فقال بعد أن عبث بشاربته .
وأمعن النظر فى وجه المتسائلة ، ورسم على شفتيه ابتسامة ساخرة :

— نسا .. ناقصات عقل ودين ..

واختلس نظرة الى الزوجة واطاف :

— أهكذا تسألين عن زوجك أمام الناس دون حياء .. لعلك تحلمين
به طول الليل ..

وأضاف الشيخ فضل :

— سمعتها تحلم به فى النهار : عقيد .. عقيد .. عقيد ..

ومضى يقلد صوت امرأة تتحرق شوقا الى رجل ، فضج الدهليز
بقهقهات الرجال .. واحتجاجات النساء . ودارت المرأة خجلها فى ضحكة
خافتة تكتمها بطرف طرحتها ، لتقول بعد تردد :

— الله .. انما اسأل عن صحته !

— وماله .. على كل حال اعرفى انه أوصانى بك ! ..

وسكت هنيهة وأضاف وهو يغمز بعينه :

— طلب منى أن أحل محله .. وكتبت له كميالة !

فعدت الضجة والتهليل فقالت غاضبة :

— لماذا لا يرسل جوابا ؟ أنا أسأل عن هذا ، ولست افكر فى السخام
الذى تعنيه .

— السخام .. وهل يريد هو هذا السخام ولماذا يريدك للسخام ..
النساء يعدد الليمون فى مصر ، وجوه مسحة ونهود .. وسراويل
قصيرة ..

فصاحت :

— ليتزوج عشرا منهن .. لن أبالى ! .. فقط يرسل لى كلمة
بأخباره ..

وأضافت بسرعة قبل أن يضحك الرجال ..

— لكى أطمئن عليه ..

وأجاب العائد :

— عشرا ! .. ليس له الا أن يتزوج أربعا فى الشرع .

واندفع حسن المصرى يقول :

— ياه .. ولماذا لا ينزل لى عن واحدة منهن ..

فارتجت « المندرة » بالضحك من جديد ، واكتسب المجلس حيوية
دافقة ، يتندرون بالمرأة ويضحكون على لهجة حسن المصرى .. وأمنيته
عسيرة المنال .

ثم يشتد الضحك حين يقول العائد :

— طيب .. ترضى بهذه يا حسن ؟

فارتفعت القهقهات هنا وهناك ، وراح حسن يتأملها ليلوى شفثيه
.. فقد كانت عجفاء معروقة اليدين ، ضامرة الصدر ، فى عينيها ذبول ،
تحلى كل أصابع يديها بخواتم ثقيلة ..

واحس العائد انه قد أثقل على المسكينة ، فقربها وشد على يدها ،
واخذ يروى لها أخبار زوجها بسرعة ، ثم أمر « اش الله » فأتى لها

بطرد كبير أرسله زوجها ، فحملته كما تحمل طفلا صغيراً ، وتبخترت به عبر الناس ، وتركت الدهليز - بين اعجاب النساء - ثم تبعتها شقيقتى بطة بطرد كبير الى بيتنا ووددت لو تركت العائد ، وانطلقت خلفها لامتع عيني بمحتوياته ولكن ..

ومادامت أخبار المهاجرين قد بدأت فان هناك من يتحرقون شوقاً الى معرفة أخبار ابنائهم وأزواجهم .

ففى ركن بعيد من « المنيرة » قبعت « داريا سكيئة » وابنتها شريفه ملتصقتين ، وعلى وجه كل واحدة منهما سؤال تترددان فى القائه .. يتمنيان أن يسألا عن الابن والاخ الغائب الذى لا تعرفان عنه شيئاً .. أهو حى يرزق ؟ أم هو فى عداد الأموات ؟ أيعيش أم ابتلعتسه عجلات الترام ، أو بسمات الغوازي العاريات الصدور .. وتفكران فى قسوة الولد العاق ، قسوة لا تفوه بكلمة ، ولا رسالة واحدة . الولد يعرف كم تتمزق الأم خوفاً عليه ، وكم تتحرق الأخت لكلمة واحدة منه .. الا أنه رغم ذلك لا يتكرم .. أوصتا العائد به حين سافرا .. وأيقنتا أنه لابد ملاقيه لاقتضاء ديونه .. أوصتاه أن ينصحه بالعودة .. فهما فى حاجة الى رجل . أى رجل فى هذه الأيام .. أيام بركات أفندى والطرابيش الحمراء .

السؤال ينضج على وجه الأم .. ويكاد يقفز الى شفة الفتاة ... ولكنهما تترددان اذ تخشيان اجابة محزنة . مجرد توقع رد جاف كان يحول بينهما وبين الافصاح عن هذا السؤال الحائر بين شفتيهما !

وتجرات داريا لحظة واقتربت من العائد . وفتحت فاهها ثم أحجمت وتعثرت فى ذيل جلبابها الجرجار الطويل ثم تحركت شريفة البادية الحسن من خلفها . تتبعها عيون حسن المصرى وبرعى ، وتنزلق الى شفتيهما الممتلئتين ، ثم الى الكرتين اللتين تثقلان صدرها ، تنسدل عليهما أطراف طرحتها فى استرخاء ..

وتجاوزت الفتاة أمها وواجهت الرجل الذى نظر اليها متفحصاً ، ثم مضى يداعبها بكلمات مرحة عن الزوج المرتقب ، فتغض حياءً وهى تتذكر معركتها مع حسن المصرى وتوددات « برعى » دلحظ .

وترددت لحظة كأنها تقرأ شيئاً حزيناً فى عين الرجل ، ثم تجرات فجأة وألقت بالسؤال .. وكان السؤال كلمة واحدة أطلقتها ثم سكنت .

— جمال ؟!

وصمت الرجل لحظة .. وقطب كأنما يتذكر شيئاً ، وفي هذه اللحظة اندفعت الأم تبكي في صوت متهدج ، وذرفت الفتاة دموعاً ، أخذت تضغط على شفتيها لتحبسها ولكن .. وأدرك الرجل خرج الموقف فقال :

— صبرك بالله ياداريا .. لم أره في مصر .. سألت عنه ..
حسين النجار هو الذي قال لي .. انه سافر الى طنطا !
فقال أحدهم :

— عال .. شىء لله يا بدوى ؟

وسألت داريا في صوت مختنق :

— وطنطا .. أهى بعيدة ؟

— لا ياست .. وحسين النجار وعد بارسال جواب خالما يراه ..

وران على المجلس صمت ثقيل . ثم بعض النههات تنبعث من حلق نساء ، بينما أخذت داريا تنسحب وهي تشد طرحتها على فمها ومن خلفها شريفة .. تسالتا عبر الباب الضيق ، فمصمص الرجال بشفاههم ، وبكت النسوة وجمعن أطراف ثيابهن وخرجن الواحدة بعد الأخرى .

وجاء دور الرجال والسياسة .. فتكلم العائد عن اخبار نشرت في كوكب الشرق والجهاد والمقطم والاهرام ، وعن شباب متعلمين من أبناء النوبة يكتبون في الصحف دفاعاً عن حقوقنا . وعن بدر أفندي والمستر هيس والتقديرات الأولية للتعويضات والمنسوب الذي ستبلغه المياه وأراضى بور لا تعرف الماء نوءد بها فى الصعيد ثم انتقل الى اشاعات تدور على ذلك البوابين وبالذات بوابى وسفرجية وطباخى عمارات وقصور موظفى الرى من الانجليز والمصريين .. وخدم الباشوات والحكام وسفرجية وطباخى القصور الملكية فى عابدين ورأس التين والقبة .

راى الحزان وهو عائد : البناء فيه يتم بسرعة وما هي الا سنة أو سنتان حتى يوفى البناء على غايته ثم يقبل الطوفان .. ولن تنتظر الحكومة الا ريثما يتم الحصر والتعداد وضبط مناسيب النيل .
وحينذاك لن يكون لنا الا الله .

والامل كما يقول العائد معقود على سقوط حكومة صدقي باشا .
فالظواهرات تصخب ضدها والناس « خاليين شغل » وساخطون ، وآلاف
الشكاوى ترسل من المدن والقاهرة يكتبها المتعلمون : عجيب والباقر
وعبد الصادق ومكاوى والطرايشى وجمال وبدر أفندى . وحسين طه .

وقال أحد الجالسين وكان رجلا ربة قصر القامة أصلع تتسم
كلماته بطابع الحكمة والجد . . . شفتاه تحتبسان بعض الحروف فتخرج
مضحكة . . قال :

– ولكن الطوفان لن يجرؤ على مقام الحاج مكاوى ، فنحن فى
رحابه ، وبلدتنا هذه عالية . . عالية جدا . .

ورفع يديه فوق رأسه واستطرد :

– ولن يبلغها أى طوفان . . حتى طوفان سيدنا نوح . .

ورد الشيخ طه فى سخرية :

– أستغفر الله . . لا عاصم اليوم من أمر ربى . .

وتهمك آخر :

– أنت يا حموى تحسب الطوفان كوز ماء يندلق على رأسك ،
أنت لا تفهم شيئا يا حموى . . أنت لا تعرف الا كيف تبطح الرؤوس !!

فأسكته الجميع ، فان كلمات حموى رغم سذاجتها بعثت الامل
والسلوى فى قلوبهم .

فقد ولدوا جميعا على هذه الارض ، ومن قبلهم ولد عليها آباؤهم
وأعمامهم ، انهم جميعا يعشقون أشجار النخيل ويحبونها هى والارض
الزراعية والبيوت المبنية من جالوص الطين . . والطوب الأخضر والنيل
– شريحته المتدفقة – أمام قريتهم . . يعشقونها كما يعشقون زوجاتهم ،
دار فى خلدتهم دائما أن بلادهم أجمل بلاد الدنيا ، وناسها أحسن ناس
فى العالم . . هم الناس وغيرهم ركش لاطائل تحته ! حلب لا قيم لديهم !
يرحل الواحد منهم ، ويحملة الرحيل الى عواصم بلاد كبرى . . ثم يدنو
الاجل فيعود حاملا كل ما ادخره الى هذه الارض ليموت بين أشجار
التخيل ، وليدفن فى الجبانة المترامية الى جوار الحاج مكاوى . . فى
ظل شفاعته .

فلماذا يصدقون اليوم ان طوفانا يمكن ان يأتى على كل هذا الذى يعشقونه ؟ أولى لهم أن يصدقوا كل التعلات ، أولى بهم أن يحلموا بسراب ، يعرف الكثيرون انه مجرد امل خادع ، ألا ان فى امكانهم تخيله والتعلق به ما دام لم يتحطم بعد .. أما الطرابيش فلتتحرك كيفما تشاء ، وأنى تشاء .

واذا كان ما يحلمون به سرايا ، فهناك على الاقل هذا الامل الغامض الذى اقامه العائد تمثالا امام عيونهم الحالية : ان يسقط صدقى وأن تحل وزارة أخرى محل وزارته ، انهم لم يفكروا لحظة واحدة ان أية وزارة أخرى ، حتى من ابنائهم ستمضى فى طريق واحد ينساب الطوفان منه الى أرضهم الطيبة ، أرضهم التى تحبل وتلد مرتين أو ثلاثا فى كل عام ، وفوق نخيلهم التى يعبدونها ، فان الطوفان مثل القدر لا مفر من ملاقاته والاذعان له ..

لم يفكروا لحظة فى ذلك ، فتعلقوا بكلمات حموى ، وبالتمثال الوهمى .. تمثال الامل فى وزارة أخرى ، تحوش عنهم الطوفان والراجحون وحدهم تعلقوا بتلك الشكاوى ، شكاوى ومقالات المتعلمين من ابنائهم . أدركوا أن الحزان ضرورة لوطنهم الاكبر ، مصر ، وفكر بعضهم فى كتابة أمثال هذه الشكاوى وانبرى الشيخ فضل يقول :

— حتى النعاج تفعل شيئا حين تساق الى الذبح ! .

وسكت وكأن عبارته هذه قد عبرت عن كل شيء ، وتدخل عبد الله الجزار ، فى الصمت الذى أعقب كلمات الشيخ فضل وقال وهو يتنهد :

— لو كان اللورد كرومر على قيد الحياة .. لما نزلت بنا هذه المصيبة !

ولم يمهله العائد بل بادره بحدة ساخرة :

— دائما تمدح فى النصارى يا عبد الله .. انت غبى وجبان .. مثل الحيوانات النافقة التى تذببحها ولا تعرف الا كرشك . ملأتها بلحم الخنزير حينما كنت تخدم فى سراى اللورد كرومر ..

ورفع يديه الى السماء وهو يهتف :

— رحمة الله عليك يا مصطفى كامل .

فترحم الجميع عليه ، وان كان الجزار قد طوى صدره على

عقيدة جازمة بأن اللورد كرومر كان في مكانه انتقاذهم من المصيبة التي
تكاد تلم بهم .

وتكلم أحدهم عن النحاس ومكرم ولجنة الوفد في الدر ورئيسها
الشيخ عبد الغفور .. فقاطعه الجزار :

— سفرجى باشا الملك من البلد المجاورة . لماذا لا يتوسط عند
الملك أو الملكة ليمنع هذا الطوفان . ألم يتوسط لسعد بن عبد الله ..
ليتعلم في بلاد بره ؟

فأجاب العائد : سعد نفسه من الذين يكتبون الشكاوى والمقالات .

ثم تلفت الى الباب ، وانتفض يرحب بصديقه الشيخ « شليب »
الذى تبدى على عتبة الباب متهلل الأسارير .. شاب أسمر اللون ..
ملفوف الجسد ، قوى البنية ، واضح الذكاء ، يجيد القراءة والكتابة ،
يقوم بتجارة صغيرة تكفل عيشه ..

وتعانق الصديقان وتحدثا مليا في بعض شئونهما بينما أكوأب
الشاي ، وفناجين القوة تدور من جديد ، على الرجال الذين استأنفوا
مناقشاتهم ..

وقبل أن ينتصف الليل كان شليب قد أشار الى حل سكت عليه
الرجال جميعا دون تعليق .

— لماذا لا نذهب الى « الدر » نستشير بدر أفندى ..

ثم فتر النقاش . وبدأ الرجال ينصرفون واحدا بعد آخر ، فهب
خالى من مجلسه ، وعبر الساحة الممتدة أمام المتجر ، ودلف الى بيتنا ،
فزار أمى وجدتي ..

وانتصبت أمى أمامه بعد أن شدت على يده تتفرس في وجهه مليا ،
وحار الرجل في أمرها ثم أدرك أنها بدورها تسأل عن أخويها محمد
وعثمان ، فطفق يحكى عن أخبارهما بعضا مما أثلج الصدر ، وبعضا آخر
مما سبب القلق والحزن في قلوبنا ، فهما يعملان ويكسبان .. لكن
محكما تزوج واحدة من باب البحر .. وعثمان واحدة من الاسكندرية ..

وابتهجت الأم ثم ابتأست .. وفرحت الجدة ثم قطبت جبينها ..
وشعرنا نحن الصغار بحنين جارف يشدنا الى هذين الحالين اللذين لم
نرها .

وانصرف العائد .. فقامت أمي الى السحارة .. ورفعت غطاءها
المزخرف بنقوش عربية .. وليثت تدور بأصابعها في محتويات الطرد
دون أن تخرجه من السحارة ، ثم استدارت نحوي .. واقتربت خطوتين
وتوقفت ثم مدت يدها بحيث لا تلامسني .. وابتسمت ابتسامة خافتة
وهي تقول .

— خذ يا حامد .. خذ .

فاندفعت الى يدها في لهفة ، وتناولت الطاقية الملونة .. التي كانت
تحملها بين أناملها ..

كانت مطوية على حقان من الحمص والفول السوداني المقشر .

الغائب يملأ قريتنا بالبهجة .. فعند عودته نسمع نحن
الأطفال الصغار عشرات القصص عن المدينة الكبيرة اللاهية ..
وقد نستمع لأول مرة الى تلك العلب التي تدار بيد مثل
« المانيقلة » توضع عليها أقراص سوداء تدور وتسكب في أذنيك أصواتا
حلوة .. نساء ورجال لا ندرى أين يختبئون .. ومتى يستريحون وأي
طعام يتناولون؟! لا بد أنهم يأكلون البسكويت .. « والحلقوم » ولا يقربون
طعاما غيرهما ..

واحد من هذه الاقراص كان يقول : « أكل الباشوات والأمراء ..



الحزمة بمليم يادرة . . . صوت امرأة تغنى يختلط به صوت أجش غليظ
القلب شرس النبرات يحول بينها وبين الغناء ثم تعود . عصفور حصان
المولد . . . الحزمة بمليم يادرة . . . أكل الباشوات والامراء !

فيقهقه أحد الرجال ويهتف :

— الفاجرة !! باشا يأكل دره وبمليم !!

ثم تنطلق من أحد الاقراص قهقهات عالية ، قال بعدها أحد الكبار .

— هذا القرص معجون من البانجو والحشيش والافيون . . . وقليل من
عرقى البلع المضبوط . . . والا فلماذا يقهقهون بهذا الصوت الذى لا يخجل ،
ومن هو سيد قشطة هذا الذى يتحدثون عنه ؟

ثم ينطلق قرص آخر لا يقل سوادا عن الأقراص الأخرى ، يلمع كما
تلمع ، ويدور كما تدور . ولا يستغنى عن المانيقلة كما لا تستغنى عنه
الا انه يختلف عن الاقراص الأخرى بشئ واحد هز كياننا بتلك الكلمات
التي سالت منه مفهومة ميسورة تنفذ الى قلوبنا . . .

كنا لانفهم ماتقوله الاقراص الأخرى . . . أما قرصنا هذا فقد كان
يصيح : اسطوانات ميشان خوجلى عبد المجيد ، ويضغط على المقطع الثانى
من خوجلى هذه وكأن السحر والالهام يكمنان فى ذلك المقطع . . . كانت
اسطوانة بلغتنا نحن . . . كانت تقول :

أبدن أبدنا بالناتون فابا يمونا

برو وش المراية بالناتون فابا يمونا . . .

فيصرخ الشباب ، ويهب بعضهم واقفين . . . ويصفقون بأيديهم . . .
ويتراقصون ويهزون أقدامهم . . . فترج الارض بدقاتها . . . ويبتسم الكبار
ابتسامات وقورة وتتكسر أعطاف البنات . . . ويميل بعضهن الى الحلف .
وقد أمسكن بين أسنانهن بأطراف الطرح ، وتقفز أقدام الأطفال فى مرح
وتتلاعب عيونهم فى شيطنة وترد الأغنية من جديد الى المطلع :

أبدن أبدنا بالناتون فابايمونا

برو وش المراية بالناتون فابا يمونا

ويحاول أحدهم أن يرفع القرص ، ويدير الحزمة بمليم يادرة . . .

فترتفع احتجاجات الآخرين وتلمع عيونهم بالغضب ، فتعود اسطوانات
ميشيان : خوجلى عبد المجيد بالتاكيد على المقطع الثانى من خوجلى ..
وتفتح أبواب وفى حياء يقبل سرب من الفتيات : سعدية ، بنخيته ،
وشريفه . كل واحدة تشعر انها بعينها « برو » هذه التى يتغنى بها
خوجلى ، فتمر بأصبعها على الحدين تتحسسهما لتتأكد ان وجهها كالمرآة
فى نعومته كما يتغنى هذا القرص اللعين . ويلاحظ الشبان ما يبدينه
من خفر ودلال تابع من أعماقهن دون أن يشعرون به .. فيتغامزون
ويضحكون ، وتزداد الأكف تصفيقا ، وتشتد الأرجل دقا على الارض ..
وبدا حسن المصرى ضائعا وسط هذه الضجة .. لا يفهم شيئا من كلمات
الاغنية .. ولا يعرف معنى لكل هذه الضجة .. فأخذت عيناه تنتقلان
من وجوه الفتيات الى شفاء الرجال .. ثم تطوع الماذون يترجم له كلمات
الاغنية :

لن يغيب عن خاطرى

الى الابد .. لن يغيب

وجه عذراء

ناعم مثل المرايا

لن يغيب ! لن يغيب !

فتهللت أسارير حسن المصرى ، وعبت بإشارته وأسدل جفنيه ،
ليلقى من خلفهما نظرة حب الى شريفة التى أحست فى نفس الوقت
بنظرات برعى النارية من خلفها ، تنفذ الى قلبها ، فحار عقلها الصغير
وألم بها اضطراب شديد أنكرته أول أمرها به ، ثم وجدت فيه عذوبة
لا تدانيها عذوبة الرطب التى أخذت تلوكها .

ثم تدار « المانيقلة » من جديد ، ويدور قرص أخسر لا يشير نفس
الضجة بيد أن الصوت السودانى الحنون أسال رقة دغدغت أحلام
الشباب والفتيات : ابراهيم عبد الجليل ، خليل فرح عزة فى هواك .
عزة نحنا الجبال ونحننا كيلزهور فوق ليل تلال (فوق التلال) نشاهد
النجوم الحارسة الهلال ، خدينى باليمين أنا راقد شمال ، فيكاد الشباب
يميلون على جنوبهم اليسرى متلهفين أن تأخذهم احداهن باليمين !

الحزمة بلميم ، « برو » وش المراية . وش المراية . خدينى باليمين



... باليمين ونحنا كالزهور .. كالزهور .. ثم ينتهي الليل ويشحب القمر ليختفي خلف التلال الغربية أو يغوص في مياه النيل بعيدا هنالك عبر المنحني الشمالي ، بينما أحمد عودة وشليوب والشيخ فضل يتفقدون على عبور الجبل الى الدر ، عاصمة المركز لزيارة بدر أفندي ، واستطلاع أخبار غد قريب يتوقعونه ، بقلوب متوجسة هالعة ، يزيد من اضطرابها انهم لم يقرروا بعد ما الذي يفعلونه لمجابهة ذلك الخوف الذي ينبجس في صدورهم .

وهدأت القرية ، ونام الاطفال بعد أن مروا بأعمدة التليفون والصقوا آذانهم بها يصنيخون السمع الى كركرة لا يفهمون لها معنى ، لقد تأخروا ولعنة الله على تلك الاقراص السوداء التي تبيع الحزمة بمليم يادرة ، وترقد بالشمال لتؤخذ باليمين ، وتقهره كالمجنونة - سهروا طويلا ، وربما لن يكون لهم في السحر وقت كاف لرحلتهم المعهودة عند الغسق ..

غاب القمر واستقر على فراشه الوثير ، فوق الرمال الناعمة الصفراء خلف التلال الغربية .. بينما الشمس تفرك عينيها وتمطي دون أن تحسر رداء الليل اليارد عن وجهها الحافظ الرضى ..

وبعد آذان الفجر ، وقبل أن يلقي الليل وشاحه ، تردد في النجع عواء الذئب يرسله برعى ، ينادينا الى رحلتنا المعهودة ، فباليل هز نسيم نشيط أعطاف أشجار النخيل ، والمراكب السوداء المحملة بكل أنواع الهدايا ، قد بدأت ترسو على مرافئنا .

وفي مثل هذا السحر من كل يوم في الموسم اعتاد أطفال نجعنا أن يحملوا فوانيسهم المضائة يهبطون بها الى غابات النخيل ، فيجوسون خلالها ، ويجمعون من تحتها ثمارا نضجت وتيبست فناءت بحملها الاشجار ونفضتها حين هز النسيم جذوعها ، ويعودون مع الشمس ، وقد ملأوا باثمار سيالاتهم وطواقيمهم ، الى الصوامع الطينية الصغيرة ، فيدسونها هنالك في انتظار بداية الموسم ليحملوها الى المراكب السوداء .. فيشترون المزامير والسنانير وألوانا من المباحج لا يعرفونها الا في أيام الموسم . .

وما زلت أذكر تلك الصوامع الصغيرة الرابضة في بيتنا الى جانب الصوامع الكبيرة ، واحدة منها كانت لي أجمع فيها من التمر ما أستطيع جمعه ، وأسرق لها ما أستطيع سرقة من صومعة « بطة » شقيقتي

الصغرى، وكم تشاجرنا أنا وهذه الشقيقة - كم خدشنا وجهينا ، وحططنا صومعتينا وأعدنا بناءهما ؟! • كانت تضربنى وتأخذ لنفسها كل ما أجمعه • فأتحایل حتى أثقب صومعتها نافذا إليها من القاع ، من تحت الأرض لاضم حفقات من البلح الى صومعتى •• فنكتشف جريمتى فتتعلق بى تضربنى لا يفصل بيننا الا جميلة شقيقتنا الكبرى •



تردد عواء الذئب مرة ثم أخرى ، ومن كل بيت كان يتسلل فانوس الى الطريق ، تتلوه فوانيس أخرى ترسم أضواؤها الشاحبة هالات من النور حول أقدام فتية تنتعل المداسات الحمراء ••

ويتحول النجع كله فى دقائق معدودة الى نقط مضيئة متناثرة تتقارب ثم تتباعد ، تهدأ ثم يطوح بها فوق الرؤوس هنا وهناك •• ثم تسرى فى طابور جميل لا تنتظم خطاه هابطة بنا الى أجسام النخيل ، تسرى فى نجعنا وفى الجزيرة وفى النجوع التى تلى بيوتنا ، وفى كل القرى فى نفس اللحظة التى تصوصو فيها مشاعلنا الهادئة ••

والثمار المتناثرة تحت النخيل فى السحر مشاع لجميع الاطفال ، وليس فى مقدورك أن تحول أحدا دون التقاطها من تحت نخيل أهلك بل ان أقوى الأطفال ، وأكثرهم حذقا هم الذين يستطيعون جمع أكبر قدر من الثمار ••

والغريب أننا نحن الذين كنا نرتعد خوفا بين غابات النخيل وعلى الشاطيء اذا ما تمشى الليل بظلامه الكثيف كنا ننسى هذا الخوف فى السحر على ضوء فوانيسنا وعلى صيحاتنا الصاخبة ••

وكان يكفى أن تلتفت حولك لترى كل أطفال النجع ينحنون ثم يستقيمون ويتقافزون من نخلة الى أخرى ، والبله منهم هم الذين كانوا يتطلعون الى ما فوق رؤوسهم ، بدلا من الانكباب على مواطن الاقدام ، ودون أن تخلصهم المناظر الساحرة التى تتلون حولهم مع الشفق •

التنافس يبعث الحرارة فى الاقدام فتجرى هنا وهناك ، فها هو « اش الله » يطرح بكرا على الأرض •• ليسبقه الى جمع ثمار أشار اليها صالح جلق بصيحة مرحة من فمه ، وتريث بكر حتى يرى اش الله منحنيا على الأرض ، فيقفز ويطرحه على الأرض بينما شريفة وبطة تصرخان ،

ويحول بينهما برعى بصرخة غامضة وبلكمتين ، فيتوقفان .. ثم يواصلان
تقارهما في سباب متصل .. ثم ينكبان على جمع الثمار . وقد تناسيا
ما حدث بينهما .

وفى ذلك السحر بالذات تم شيء لم يكن يحدث من قبل ! اذ
تلفتنا حونا فلم نجد برعى ولا شريفه ، فقد اعتادا أن يجمعا الثمار
معا ، ويبدو أن برعى انتهز فرصة التقار واللجاج بين أش الله وبكر ،
فابتعد بها عن انظارنا مخفيا فانوسه أمام جسديهما ، ثم تواريا خلف
غابة أخرى من التخيل .

وترددت صوت بطة وبخيته فى الغابة ..

ـ شريفة .. شريفة !

وهتف اش الله ينادى :

ـ برعى .. أين أنت يا برعى ؟

ثم استأنفنا عملنا من جديد حتى امتلأت سيالاتنا ، وفى النهاية
أشارت بطة الى اشاعات الشمس الباهتة وقالت :

ـ يجب أن نعود فجديتى تستيقظ الآن ..

وأبيت أن أعود معها بل قررت انتظار برعى وشريفة ، فقد تملكنى
فضول غريب آنذاك ، فلوت «بطة» بوزها ودفعتنى فى صدرى ثم انطلقت
ومن خلفها بخيته وبقية أطفال النجع واستندت أنا الى جذع نخلة وأخذت
أراقبهم وهم ينعطفون الى الطريق انعام ..

كان الليل يلفظ أنفاسه وانكون يتمطى .. والشمس تكاد تقفز
فوق التلال الشرقية وتتبدى كقطعة مستديرة من الخشب تتوهج فى
كانون بعيد وتلقى أضواءها الحمراء الشفافة على المخمل الأخضر المنطرح
فى استرخاء كسول على الأرض فوق الشاطئ وفى الجزيرة ، وبين الجذوع
وتعكس ظلال النخيل وأشجار السنط والاتل والدوم طويلة على مد البصر
والجنادب تنتقل من حرش اللوبيا الى حرش آخر ، والعصافير تستعد
للزقزقة ، والقصر الأثرى الى الغرب يلقى قنামته على الرمال الغافية
حوله ، والجروف المبتلة تحتضن الترمس وتغفو ، والامواج الهادئة
المرتعشة تدغدغها الريح لتستيقظ وتنهض لتشارك فى زفة الصباح ،

بينما السواقى النائحات الدامعات أبدا ، والشواديف الراكعات الساجدات
مطرقات لا يبدين حراكا ، مرهقات من نوح الامس وصلاته الخاشعة .

انها الطبيعة تنهى أحلامها الفجرية لتبدأ نهارا صاخبا من الامواج
الهادرة المتلاطمه فوق خد الشمسندورة الحمراء الفارقة المناضلة أبدا
لتتخلص من قيودها ، لا تخلد الى اليأس الا اذا ما هدأت الريح واستكان
النيل ..

ولكن فى نفس الوقت كان يستيقظ فى قلبى تطلع جارف لمعرفة
ما يدور هناك بين برعى وشريفة ، فجعلت استحث الخطى بين أشجار
النخيل وعيناي تدوران هنا وهناك بحثا عنهما . وعبر أشجار النخيل
« صوصو » فى عينى ضوء خافت وجهت خطاى نحوه ثم تناهى الى سمعى
همس ووشوشة يختلط بهما حفيف الاشجار وهممة النيل ، .

وأخيرا وجدتهما غائبين عن كل ما حولهما فلم ينتبها لوقع خطاى :
الفتاة بسمرتها الناضرة وصدرها الناهد وفى عينها بريق عجيب ...
والفتى بلامحه الفتية الصارمة عليها شفافية الفجر ..

وأشارت الفتاة الى نخلة يملكها أبى وقالت :

– سباطة واحدة من هذه تملأ صومعتى !!

ونفش برعى صدره وصاح فى زهو :

– لك النخلة كلها اذا أردت !

وعضت الفتاة يدها وهزت اصبعها فى وجهه وهى تقول :

– أتسرق ؟!

– فى سبيل رضاك أسرق يا شريفة ..

فشقشقت بلسانها تنهات ولكنه أولاها ظهره وأقبل على النخلة
يحيط ساقها بذراعيه .. ويهزها هزات مسعورة تساقطت الثمار معها
على الأرض – كالطر – والفتاة تصرخ مرحة وتضحك ثم تحسر طرحتها
عن شعرها ، وتنحنى وتجمع البلح المتساقط فيها وهى تصرخ :

– يا لله .. كم هى كثيرة ؟!

وتوقفت كأنما أتبها ضميرها وتلفتت هنا وهناك ، بينما تواريت أنا

ثم تغلبت على تردها ومضت تجمع حتى ملأت طرحتها وهي تهتف :
- كفاية .. كفاية !

وحدق الفتى فى الأرض ثم ترك النخلة وساعدها فى جمع الثمار حتى أوفيا على غايتيهما من سرقة نخلتنا وأردت أن أصرخ فيهما لكننى ترددت وأججمت إبقاء على صداقة برعى وخوفا منه ، وجبا فى استطلاع ما سيدور بينهما بعد جمع الثمار ..

كانت الفتاة قد استندت الى جذع نخلة .. ومضت تحديق فى السماء خلال السعف والجريد فتنعكس الأشعاعات الاولى فى عينيها فتبرقان بينما يداها منطرحتان الى الخلف ، وصدرها بارز الى الامام ، وضميرتاها منسدلتان فى استرخاء على منكبيها ، ثم انزلت بعينيها الى الفتى الاسمر الذى طفق يتملاها ويتأمل وجهها صامتا !!

ثم قرر الفتى شيئا ، وخطا خطوتين نحوها حتى توقف أمامها ، وبدأت الفتاة وكأنها تنكمش وتندمج فى الجذع ، لقد رأت فى عينيه شيئا روعت منه ، نفس الشيء الذى لمحتة فى عين حسن المصرى يومذاك ، بين عيدان الذرة !

ثم تحول الشيء الى غضب أحست به فاضطربت وأرادت أن تنفلت وتعدو ، ولكنه مد يده اليمنى وثبتها على منكبيها ، يضغط بشدة وهو يهدىء من روعها ..

- لا تخافى يا شريفة .. أريد ..

وأجفلت الفتاة وقالت فى قزع :

- ما الذى تريده ؟

فتلعثم الفتى وهو يهمس :

- أريد أن أسأل ..

وازداد ضغط يده على كتفها وهي تقول :

- هوى .. برعى .. انك تؤلمنى .. فلم يبال .. بل ثبت عينيه

فى عينيها وقال بحزم :

- ماذا يفعل حسن المصرى فى بيتكم ؟

حسن المصرى ؟ ماذا يفعل فى بيتنا ؟ انه لا يفعل شيئاً .. ولكن لماذا يسأل برعى عما يفعله الرجل .. وما شأنه ؟ أأكون أحد قد افضى اليه بما حدث بين عيدان الذرة ؟ ربما يكون حامد .. برعى لا يزال يضغط على كتفى وفى عينيه بريق .. انه مجنون .. لماذا يسألنى ؟ انه يكرر .

— لماذا تصبمتين .. ردى .. لماذا يتردد عليكم فى الضحى وفى الليل وفى العصر يا شريفة .. لماذا ؟

وأحست أنه يعرف كل شيء وتساءلت ، ولكن لماذا يعترينى هذا الخوف أمام نظرات برعى ؟! لقد قاومت الرجل الى أن تغلبت عليه .. لماذا لا أقول لهذا الآخر كل شيء ؟ كلا لا يجب أن يعرف .. وتذكرت نفسها وهى تغوص بين الامواج، وتذكرت حسن المصرى وهو يسبح بها الى النقاء، وأحست بصوتها يخترق سمعها .

— حسن المصرى ! لا شيء يا برعى .. لا شيء ، انقذنى من الموج يا برعى ..

وابتلع الفتى ريقه وتنحنح ثم قال فى غيظ :

— أنقذك ! لبيته ما أنقذك !

فروعت الفتاة وصاحت :

— تمنى لو مت !

فأسرع ينفى بشدة ..

— لا .. لا والله العظيم .. بل أردت أن أقول : ليتنى أنا الذى أنقذتك .. ثم ، أأحق لحسن المصرى أن يدخل بيتكم لأنه أنقذك .. كلام الناس يا شريفة ..

صمتت الفتاة لحظة وشفقتها ترتعشان ، ثم صاحت :

— لكن .. ألا يدخل حسن المصرى بيتنا غير بيتنا ؟!

— البيوت الاخرى فيها رجال يا شريفة !

وتذكرت صراعها مع الرجل ، وافلاتها منه بين دغل الذرة بعد أن كفاته على وجهه فقالت فى حماسة :

— أنا الاخرى رجل !

فضحك برعى ضحكة جافة وكرر تهديده :

— الكلب .. لو جاء عندكم مرة واحدة •

وأمسك عن اكمال تهديده، وتريث بينما الفتاة تواصل تفكيرها حتى
اهتدت الى فكرة نفذتها على الفور :

— انما يأتى لاصلاح الباب والعنجريب .. و ..

وتفرست فى وجه برعى ثم أضافت فى صوت هامس :

— ولماذا لا تأتى أنت أيضا ؟ أمى تقول ان سقف البيت فى حاجة الى
اصلاح ..

وتنهدت تنهيدة عميقة ثم قالت :

— لو كان جمال هنا .. لو لم يسافر !

ثم ابتسمت ابتسامة واهنة .. بينما قهقه برعى وكأنه وجد الخلاص
ومضت هى تغوص فى دوامة أفكارها .. انها تحذر من حسن المصرى
وتخشاه ، ولا تسمح لنفسها أن تلتاقه على انفراد .. بيد أنها رغم حذرها
منه لا تكرهه أبدا .. وكيف تكرهه وهو الذى أنقذ حياتها ؟! ولا يزال
يقدم يد العون لها .. حتى روث البهائم يجمعه ويجففه ويحمله الى بيتها
.. وهو حين يغشى البيت لا يأتى منكرًا .. صحيح انه يغشى البيت فى
الضحى .. ويغشاه فى الاصيل .. ثم ماذا .. لقد رآته مرة يترك البيت
فى منتصف الليل .. ولاحظت الارتباك على وجه أمها التى أشارت بسرعة
الى جذع نخلة قائلة :

— جاء به من شونة الشيخ أمين فى الليل حتى لا يراه أحد ..

كان يأتى ويجلس على المصطبة الداخلية يشرب الشاي ويزدرد حفنة
أو حفتين من التمر والفشار الابيض ، ويظل يرددش مع أمها ، حول
الغربة والابن الغائب .. فلماذا لا يأتى برعى مثله ؟ « آه » كم أتمنى لو
رفع يده عن كتفى ، ثم أحست بموضع فى فخذهما يلتهب ، موضع قبضة
حسن المصرى التى لن تنساها ، القبضة التى لا يكررها .. وإن تسمح له
أن يكررها ، فانه ليس من ولد العم ولا من ولد الحال ، وليس من شباب
النجع .. انه غريب .. من مكان بعيد ، لا تعرف عنه شيئا ..

وبدأت العصافير ترسل دقائق طروبة من الشقشقة ، وترفرف بأجنحتها الصغيرة فوق رأسيهما ، ولع على صفحة النيل ، رفاص مضت قلاباته تشرح النيل ، فاتجهت شريفة كما اتجهت أنا ببصرى الى هذا الرفاص .. أما برعى الكلف بكل ما يجرى فى النيل من مراكب ودوامات وبالشمندورة وبكل رفاص أو باخرة ، فقد انشغل عن النيل فى هذه اللحظة بما كان يعمل فى صدره ، من حيرة ورغبة عارمة ..

راقت له فكرة اصلاح السقف، وسيعمل من غد على اصلاحه وليذهب الكتاب وشيخه الى الجحيم . انه مشغول فى هذه الايام بأثرية الخامسة للذرة ، وبزراعة بعض المحاصيل الشتوية مثل الفول واللوبيا تحت الذرة ويشتل الباذنجان ، وغدا سينشغل بقطع الذرة والتخيل ، ولن يذهب الى الكتاب .. أبوه نفسه يقول ذلك .. وفى وسعه أن يفرغ حيناً لاصلاح هذا السقف ..

كان الرفاص لا يزال يدمم على صفحة النيل وينفث الدخان من منخره انعالى العريض ، بينما برعى لاه عنه ، يفكر فيما قالته شريفة ، فرصة طيبة يجب انتهازها ، وليس فى وسع الجزار أو البسطاوى أن يعترضا بحجة قرابتهما لداريا سكيئة .. سيسميها خالته ، ولا دالة لهما عليها اذ لا يهتمان بشئونها ولا يقدمان لها أية مساعدة ..

ومد يده الاخرى ووضعها على الكتف الاخرى وخطا خطوة وهم بها يريد أن يقبلها فأشاحت بوجهها فى سرعة تركت له فرصة للتفكير : فمضى يقول لنفسه : الذين يريدون الزواج من فتاة فى قرينتنا .. لا يقربونها بسوء ولكنها جميلة ومغرية . شفاتها . صدرها . ثناياها . واللمعة التى فى عينيها ، وشفيرتاها الفاحمتان .. يده ما زالت تضغط على مكنتيها ، وجسده يكاد يلاصق جسدها وأنفاسه الساخنة ، مختلطة بندى الصباح ، تلفح وجه الفتاة ..

وأحست أن عضلات يده تتراخى ، ثم رأته يرفع يديه ويهوى بهما الى جانبه ، ثم يخلى سبيلها ويتراجع خطوتين وهو يهمس :
- آن لنا أن نعود ..

فأفاقت لنفسها على كلماته ، وجالت بعينيها فى بطن فيما حولها ، فى أوراق الشجر والغصون ، واشعاعات الشمس المتكسرة ، يسبح الغبار فى ثناياها ، وفى الدناير المضيئة المتناثرة على الأرض ، وفى لمعة الماء على

صفحة النيل ، وفي الدخان المتصاعد من بيوت الجزيرة وقالت :
- تأخرنا ..

وانحنى على الأرض ، ترفع الطرحة المثقلة بحبات البلح ، فلمحتني
وارتسمت الدهشة على شفتيها حين رأتني ، وتراجعت يداها عن الطرحة ،
وأحسست بالحرج فتركت مكاني . ومضيت استحث الخطى بينما انعطفا
الى دروب أخرى وأسرعنا الى الطريق العام يواجهان الشمس التي كانت قد
ارتفعت من خلف التلال ، فوق الصخرة المعلقة في كتف الجبل ، وانفصلا
عند تحويشة عبد الله الجزار ، وتقاديا مجموعات الرجال الذين أقبلوا من
البيوت الى المزارع ..

ومضيت أفكر في برعي وشريفة وأيقنت أن ما بينهما محظور ،
والا لما اختفيا عن الأنظار بين النخيل ..

في مثل هذه الأيام من كل عام ، من أوائل سبتمبر الى ٦
نهاياته ، يزدحم المتجر بالرجال والنساء من نجعنا ، ومن
النجوع القريبة .. وينهمك أبي وخالي طول الليل والنهار
في مراجعة دفتر «الأستاذ» واليومية .. الدفاتر تفتح في مثل هذه الأيام
كثيرا وتطوى ، حتى تتمرق أوراقها ، فالتشطيب بقلم الكوبيا ، يمر على
صفحاتها بقسوة ولاسيما دفتر اليومية ، بعض الرجال يأتون من الغيط
.. والطواري والفتوس معلقة بين الأعناق والأكتاف يركنونها على الحائط
ويتربعون على البرش ويديرون الحساب في هدوء ، ثم تعلو الأصوات
أحيانا ، وترتفع الأيدي وتعم الجلبة ، وتنطلق أغلظ الألفاظ من أفواه
الرجال :

- سبع كيلات ذرة ..

— لا .. بل خمس .. ولا حبة زيادة !

وعلى الطلاق من مراتي ، عليك أربع كيلات من القمح .. كلا ..
على الطلاق ما على الا ثلاث كيلات وطرحه ونصف قمع سكر ، لا غير . ثم
يسوى الحساب التفصيلي في نهاية الأمر .. لكن الرجل يكتشف انه
مطالب بخمسة جنيهات كاملة فيشتجر الخلاف ويتفرع . ثم يضطر خالي
الى فتح دفتر اليومية من جديد ليبدأ العنت .. وعلى الطلاق من مراتي ،
وراس السيد الميرغني ومقام الحاج مكاوي ..

وينفد صبر التاجر فيصرخ :

— يا ضلالي ..

وتتقد عينا الرجل ، وتنفض عروقه وهو يهتف :

— أنا ضلالي ، والله والله انت الضلالي .. انت وخالك ، ويضحك
أبي ، ويعبر البنك الزنك .. ويهدي من روع الرجل ثم يجلسه من جديد
وهو يقول :

— طيب .. طيب .. نبدأ الحساب من الأول ، واحدة واحدة ويلتفت
الى خالي ويوعز اليه :

— افتح الدفاتر من جديد ..

ويضرب خالي كفا بكف ، ويتمخط .. ثم يبدأ الحساب من أوله ..

— ألم تأخذ خمس أقات سكر ؟

— متى ؟

— يوم تنزيلة الذرة خلف المحراث ..

فيسكت الرجل ، ويعتبر التاجر سكوته علامة الرضا فيؤشر بقلم
الكوبيا ليقول من جديد :

— وأخذت من الولد حامد ثلاث قطع صابون فرنساوي يوم تلقيح
النخيل منذ أربعة شهور .. وعشرة أمتار دبلان يوم تعشير بقرتك ..

ويتذكر الرجل ذلك جيدا ، ويوميء برأسه .. ويعترف بكل شيء
اما بهزة من رأسه .. أو تكشيرة في وجه التاجر ولكنه في نهاية الأمر
لا يعترف بالحساب الاجمالي ، ويقسم أن التاجر ضلالي ، خرب الذمة ثم

يتملص وينهض غاضبا ، يسب ويلعن التجار . كل التجار وينصرف ،
فيطوى التاجر دفاتره ، ويشعل سيجارة ينفث دخانها وهو يزفر ،
ويضرب كفا بكف ، وتأتى خديجة وتدلف من الباب «فضيلة» ثم تنصرف
لتحل محلها أم سعدية ويدور الحساب وينتهى على خير أو على نكد .

ومن جديد يعود الرجل الأول مع ابنه الصغير رقبيا على الحساب :
غلام فى الثامنة من عمره لا يعرف غير فك الخط ، ثم يدور الحساب من
جديد ، والولد لا يفعل شيئا غير الدوران بعينه على رفوف الدكان ،
الا أن الحساب ينتهى بعد أن يكون الرجل قد طلق أم هذا الولد مرات
عشرا .. تنتهى بتنازل دفتر الأستاذ عن ستين أبيض ، فيقول الرجل
لا راضيا ولا ساخطا ، مطمئنا الى أن ابنه الذى يعرف القراءة والكتابة
كان رقبيا على التاجر فى الجمع والطرح .. يقوم ويعلق طوريته بين عنقه
وكتفه ويبأرح المتجر والولد مازال يدور بعينه على الرفوف فى نهم .

وتأتى زبونة أخرى . صاحبة زار . معطرة ، يلمع الذهب فى
معصمها وحول رقبته ، شعرها المصبوغ بالحناء يتنافر مع الوجه الاسمر
المتعرج .. ويدور الكلام قبل الحساب عن مصر وعن ابن تملص من دفع
ديون أمه هذه .. دع الاسياد يدفعون لها فهمي تبدد كل ما نكسب فى
الزار ! وعن شقيق رفض أن يدفع الا خمسين قرشا يخصمها التاجر
بالكوبيا من حسابها مطمئنا الى ان نخيلها الكثير سيفى بديونها ،
وينهضان الى البنك ويعرض الرجل عليها طرحا سوداء فتأبى أن تأخذ منها
وهى تحتج :

— أتحسب اننى عجوز .. هات طرحة من .. أم التاجر ! ..

فيضحك التاجر ويشب على قدميه ، ويفض صندوقا ، ويضع أمام
عينها طرحة من .. أم التاجر ، ملونة ، ناعمة وخفيفة ..

تلك كانت حالة المتاجر وعملائها فى قرانا قبل بداية الموسم ، يكاد
التعامل بالنقود فيها لا يوجد اذ لم تكن قد اكتسبت بعد قدسيته
المعبودة ! ..

كل أسرة تفتح حسابا فى المتجر وتجر ما تشاء ، واثقة أن الموسم
سيأتى .. تفتحها فى طلوع الشمس من خلف التلال الشرقية كل صباح ،
وحينذاك يستوفى التاجر ديونه على دابر مليم ، يستوفىها تمرا ، كيلة
الذرة بكيلة بلح ، والقمح بكيلتين .. وقد يفرض ماتقدمه فلا تأخذه بلـ

تتركه رصيذا لها ، وقد يقصر المحصول ، فلا يكف التاجر عن تقديم الديون ، الا انه قد يتخذ بعض الاجراءات مثل كتابة كمبيالة أو تحويل اليه الاسرة ما يصلها من حوالات مالية من الابن أو الزوج الغائب في مصر يكدح ويرهق نفسه في احدى العمارات أو الفنادق والمشارب ، طباحا أو بوابا ، مرطونا أو سفرجيا ..

وقد تنقطع الحوالات شهورا بل سنين طويلة ، فيطمع التاجر في قيراطين تملكهما الاسرة وتعض عليهما بالتواجد ، فتبكي وتستعطف ، ثم ترهن وترسل ابنا آخر صغيرا أو زوجا الى مصر .. ليعمل هو الآخر في نفس العمارات والفنادق والمشارب ، فليس من المعقول لرجل أو لطفل صغير يرحل فجأة على هذه الشاكلة أن يمتن عملا لا دربة له عليه ، عملا قد يكلفه اتقانه وقتا طويلا ، فيندفع الى أسهل المهن ، مرطونا يرتقى الى سفرجي بعد كدح طويل ، ثم يرسل كل ما يكسبه الى الاسرة لتسدد ديونها وتبقى على القيراطين في حوزتها ، فالارض ضمنية في قريتنا ، وان كانت تجود - في زعمهم - كما لاتجود أرض في الدنيا بحالها ..

كانوا جميعا يحتضنون القيراط ، والقيراطين .. كما يحتضن الانسان أطفاله ، أو معشوقته .. ثم يهاجرون ويتركون هذه المعشوقة لتبقى لهم على البعد ..

هكذا هاجر الألف ، فعاشوا بعيدين حتى شاخوا ، ثم عادوا الى القيراطين اللذين دفعوا حياتهم ثمنا لاستبقائهما ، عادوا اليهما يخربشون في الأرض بفئوسهم ، ثم ماتوا ليمزقهما الارث الى شرائح تتبدد ما بين الجسور والأقنية والبتون .

- ومنذ عام هاجر البعض ، ومنذ شهور عاد آخرون يتوج الشيب زعوسهم ، وهم الذين تركوا القرية سود الشعر في ميعة الصبا ..

ومنذ عامين هاجر جمال : وحيد داريا سكيئة .. ليعمل ويستبقى قيراطين أودعتهما أمه رهينة عند أبي ثم تناساها جمال . تناسى أمه وشقيقته ، لقد ابتلعه زحام المدينة العاتية !

وها هي أمه الحائرة تدلف من باب المتجر والنكد باد على وجهها رغم أمل خافت يداعب صدرها : أن يرحمها التاجر فلا يثقل عليها .

ويدور الحساب ، وهي ترسل دعة مع كل رقم وآهه عند كل صفحة قلب ، لتتجمع ديون الأيام الطويلة كما تتجع الغيوم وتنذر بحساب.

كبير تنوء المسكينة بحمله ، فتغص بدموعها ، وتلهث وكأنها قطعت شوطا كبيرا على قدميها .. من بداية العام الى نهايته وتهتف :

— وونور .. يارب .. لماذا تركتني يا جمال ؟ !

وتنزلق دمعتان على دفتر الاستاذ وتذبيان السكر على الشاي .. والجاز على الزيت .. فتختلط الأرقام ، فيقطب التاجر ويزوى مابين حاجبيه ، لكنه يكظم غيظه حين يرى ما يرتسم على وجهها من نكد جاثم كما يجثم الكابوس ، فينشغل برش حفنة من التراب الناعم على موضع الدموع في الدفتر ثم يطويه ويتمخط ويصق قبل أن يشعل لفافة ويقول مواسيا :

— صدقيني يا داريا .. أنا لم أره .. آخرون رأوه رأى العين .. أبعدى الشر عن قلبك : فجمال خالى شغل ..

كل الناس تمر عليهم الأعوام دون أن يجدوا عملا .. ورفعت داريا رأسها في ثقاقل .. ثم همست من بين الدموع .. — ولكن لماذا لا يرسل لنا أخباره : تعريفه .. بارة ستين أبيض ! — مكسوف منك ، ماذا يقول في خطابه .. عما قريب يعمل .. لن ينسأك الله ياولية .. استغفرى الله يا داريا .. يا حلوة ! وأحست المرأة بالرقعة التي تخللت كلمات التاجر ، فتشجعت وسألت :

— ولكن ماذا أفعل في الديون ؟

فمد يده وربت على كتفها ثم همس :

— ماعليك يا داريا .. المحصول ، والذي يتبقى تسديده حين يعمل جمال .. انه يحبك .. ألا تذكرين تعلقه بك ؟ ..

نعم ! انها تذكر ، ولكن الرجل يكذب لتهدة خواطرها ، وغدا يطالبها شريكه بكل ديونه — اضرب ولاقي — وجمال .. قلبها يحدثها . انها ستعرف خيرا عن جمال ، فان براحة يدها اليمنى دغدغة متصلة منذ أيام ، أمارة على أنها ستتسلم خطابا .. و (كلو) أيضا وزيارته .

وعاشت في أحلام اليقظة لحظة وبان البريق الناضر في عينيها من جديد ، وأحس الرجل بما أحدثته كلماته في نفسها .. فواصل حديثه :

- حرام عليك ! أنسييت أيام الشباب .. وأنت رخصة مثل ورقة اللوبيا .. كنت لا تبكين .. أما الآن فأنك تذبلين من قرط البكاء ..
أنك تدفينين جمالك ، ولكنك مازلت جميلة .. ومازلت صغيرة ،
لا تستطيع العين أن تفرق بينك وبين شريفة ! ..

كانت هذه الكلمات تتدفق من لسان خير . وداريا تتغلب على انفعالاتها المؤلمة وتبتسم حتى خيل لي انها قد نسييت « جمال » تماما ..

- أنت عروس : الشيخ أمين لن تضيره زوجة ثالثة ..

ومدت يدها ودفعته في صدره وهي تقول :

- بلا زواج بلا سخام .. هي .. هي .. هي .. زوجة ثالثة !

- ايه .. وكم تطلبين مهرا ؟

فتتثنى المسكينة ، رغم انها تعرف أن الرجل يمازحها ثم تفيق لنفسها وعيناها تقعان على البنك ، فعليه تعودت أن تجلس «جمال» وهي تشتري له الملبين والحلوى ، وأمام هذه النتيجة وقف يوم رحيله يودع التاجرين، ويقسم لهما أنه سيسدد ديون أمه، ويوصيهما بها خيرا ويوصى « حامد » الصغير بأخته شريفة .. عيدان مرا دون أن يرسل شيئا ..
ماذا لا يرسل ؟ أتراه مات ولا يعرف أحد عنه شيئا .. وهنا سألت دموعها من جديد ، وأحسنت أنها ضائعة ، ولا يزال أحمد عودة يتحدث ضاحكا عن الزواج .. هكذا دائما يتحدث أحمد الى النساء .. ولكن لو رضى الشيخ أمين هل يرضى جمال ؟ كلا : أمين طاعن في السن ولن يجديها .. وهل من المعقول أن يتزوج رجل مثل أمين امرأة مثلها ابنة جارية وعبد اعتقهما جد عبد الله الجزار ؟ .. أغلب الظن أنه يعرف شيئا عن الاشاعات التي تدور حولها وحول حسن المصرى ! جسمها يسومها العذاب .. فهي لاتزال شابة ! .. ولكن هل تقبل الزواج ؟ .. وماذا تفعل شريفة اذا ماتتزوجت هي ؟ والقيراطان .. وهل يرضى جمال ؟ .. ثم رفعت رأسها فجأة لتهمس في صوت مبحوح مختنق :

- اسمع يا أحمد : القيراطان في ذمتك وفي ذمة الشيخ أمين ..

وتلفتت لترى أين أبى فوجدته عبر البنك الزنك فحذرته بأصبعها :

- ليس من حق أحد أن يبيع القيراطين .. جمال لن يرضى ..

وأطرقت ثم قالت: قنى عنف :

- خربتم بيتى ، أخذتم القيراطين وكل مصاغى ومعيزى .. كل شىء
أخذتموه ، حتى جمال أرسلتموه الى مصر . دمه فى رقبتكم يوم القيامة
.. يوم القيامة !

فصاح بها أبى :

- الحق علينا يا ولية .. سكتنا له دخل بحماره .. اخرسى ..
منذ عامين ترددين هذا الكلام الفارغ !! ..

- حرام عليك يا « أمين كلثومة » .. أمك كانت صاحبة أُمى
بالروح .. زوجى المرحوم كان صاحبك ، وشريفنة ابتك .. حرام
عليك ! لم تترك لى الا معزة واحدة والآن تريدون بيع الأرض ..

وتدخل أحمد عودة ، وأمسك بيدها ودفعها الى الباب وهو
يقول :

- اذهبي الآن .. اقصرى الشر واذهبي .. وتعالى بعد قليل ..
كلا .. ابعثى بشريفة ..

فخطت خطوتين ، وتوقفت عند الباب ، تعاني احساسا غريباً
بأن الدنيا تدور بها ، ان الرفوف والبنك يطبق عليها ، فتشد صغيرتيها
المجدولتين بينما أخذ أحمد عودة يطوى دفاتره وهو يردد :

- لا اله الا الله .. لا حول ولا قوة الا بالله .. ابعدى يا ولية عن
الباب ، اتركي الخير يدخل علينا ! ..

فانبرت لتهاجم ، لكنها أطبقت شفتيها على صوت خشن يلعلع من
خلفها ، عند مدخل الدكان :

- السلام عليكم ..

فتلفتت لترى « ماهر أفندى » بجلبابه الاقرنجى تنسدل من فوقه
جاكته صفراء قديمة ، وفى يده حزمة من الخطابات ..

وتفادها الرجل ودخل وصافح أحمد عودة ، وسلمه حزمة الخطابات
وانصرف بعد أن اعتذر عن شرب الشاي ..

ونشر أحمد عودة الخطابات على البنيك ومضى يقرأ فى مهمة
مسموعة : عبد الراضى مختار .. خويلد ، الحاج على سلطان .. ثم

توقف عند خطاب ، كتب عنوانه بخط منكوش مثل نبش الفراخ ، المحترم
الفاضل أحمد عودة ومنه الى الست الماصونة ..

كانت داريا لا تزال عند الباب ، تختلس النظر في لهفة الى حزمة
الخطابات ، فقد دب الأمل في قلبها ، جمال هناك بين يديك يا أحمد
عودة .. قل لي بربك .. لا تخف على شيئنا .. لن أبكى .. لن أجن ؟
وأخذ شيء ما يدق في رأسها ، وانطلق وجيب قلبها يعربد بين
ضلوعها ، ثم أحست بقدميها تتحركان بها الى الداخل حتى توقفت
خلف التاجر ، وهو لا يزال يفك طلاس الحط ويهمهم : ومنه الى الست
.. آه .. انها هذه المرأة المنكودة المسكينة داريا سكينة ..

وتلفت خلفه فوجدتها تحقق في يده بعينين دامعتين :

— داريا .. جواب يا داريا ..

فشهقت شهقة والهة ، ومدت يدها واختطففت الجواب . وانطلقت
تجري عبر الباب مرتطمة بأبى ، وخرجت منه الى الطريق ، لم تفكر لحظة
واحدة أن عليها أن تتوقف لتقرأ الخطاب — ولماذا تقرأه ، فانه الخطاب
الذى تنتظره منذ عامين وكفى .. انها تتحسسه وتجسه ثم ترفعه
الى شفيتها وتستقر به على رأسها ..

مضت تصرخ وهي تجرى ، وتزغرد وتهتف : يارب .. وونور ..
الله يحرسك يا جمال ... يا ابنى .. أخيرا تذكرت أمك ! ثم سكنت
فجأة وتوقفت عند المنعطف وكأنها حائرة : أين تتجه !؟ ومضت تهتف
بعد تردد : وأختك شريفة .. « افكرتها » بعد كل هذا الوقت ..
ابن حلال ..

ثم ارتفعت بصوتها تنادى فى النجع كله .. شريفة .. يا بنت
يا شريفة شريفة داريا ، جواب من جمال .. من جمال .. من جمال ..
ياهو يا ناس .. باركوا لي .. ياهوه .. تعالوا باركوا لشريفة ! ..

وفتحت أبواب ، واندفع منها أطفال ونساء وهي تجرى لا تلوى
على شيء ، حتى ارتمت على عتبة البيت بين أحضان شريفة التى اختطففت
الجواب منها تقبله وتبلله بدموعها ، وأما لاتزال تهذى ..

— نلنا المنى بعدما صبرنا ، يا سلام يا شريفة .. أخوك افكرنا
.. وسوف يتذكرنا على الدوام ..

وامتزجت دقات قلبيهما ، ثم تهالكت الأم على المصطبة ، تروح
ب طرحتها ، وتهتف : جمال يا حبيبي .. ضنايا .. يا كبدي .. أخيرا ..
كنت خالي شغل ، الله يجازي أمين كلثومة .. هو السبب .. شريفة
هاتي قمع السكر بليه ووزعي الشربات ..

ورفعت رأسها لتجد ابنتها واجمة تتفرس في الظرف ، فانه لم يكن
قد فتح بعد ..

أدركت الفتاة أن أمها لم تعرف بعد مضمون الخطاب ، فدق قلبها
بسرعة ثم انتزعت طرحتها وأسدلتها على شعرها ، وتخلصت من يد أمها
وانطلقت تعدو في الطريق الى المتجر ، ثم تعدل عنه حين تصادفني ،
فتندفع نحوي وتمسك بيدي وتجذبني بشدة وهي تصيح في صوت
متهدج :

— حامد .. تعال يا حامد .. تعال ..

وقادتني مهرولة بي عبر الطريق حتى مثلت أمام أمها التي كانت
لا تزال تزغرد وتغني أغاني شبابها ، وأمسكت بالخطاب تفضيه بيده
مرتعشة حتى بدا أنها ستمزقه فانتزعته أنا من يدها وفضضته بعنايه ،
ولمعت عيناها ببريق الأمل ، فقد أضاءتهما ورقة صفراء ، حوالة بريدي ،
جنيه كامل تلقفته الفتاة مني وطبعت عليه قبلة ، ثم جذبتني من كمي
 واجلستني على المصطبة بينها وبين أمها ، وأمرتني أن أقرأ .

كان الخط رديئا ، نبش فراخ لا أكثر ، من رجل اسمه حسين
النجار ، وما ان نطقت باسمه حتى وجمتا ، فأنهما تعرفانه ، وهو نفس
الرجل الذي أرسلنا له تستفسران عن جمال .. وماذا يقول الرجل ؟
ولماذا كتبه هو ولم يترك « جمال » نفسه يكتب الى أمه أم أنه مريض ،
أم مات وانتهى أمره ؟! ..

وضغطت شريفة بصدرها على ظهري ، تتفرس من فوق كتفي في
كلمات الرسالة ، تحاول أن تقرأها ، بينما الأم مطرقة الى الأرض تصيح
السمع في صمت الى الكلمات وقد جمدت نظراتها ، وبدت قسوة الحياة
على ملامح وجهها .. اذن فما زال جمال سادرا في جموده ! يا للمغفل ابن
المغفل ، الكلب ابن الكلب .. ماذا يقول حسين النجار عن ولدي يا حامد
.. انه يشكو من جمال ، اختفى منذ عام .. لم يعد أحد يراه لا في مقهى
البلديات ولا في الجمعية الخيرية ، بحثت عنه منذ رسالتكما .. هنا وهناك

.. فى باب البحر فلم أجده وفى مصر الجديدة والبلاسة وبولاق ..
وفى البجيزة ، فلم أجده حتى عثرت به صدفة فى شبرا خلف جامع
الخازندار ، حاول أن يتحاشانى ولكننى لحقت به ، فأسقط فى يده ،
ودعانى الى بيته فانتزعت منه هذا الجنيه لكما بعد محاورة ومداورة ..
واتسعت حدقتا عين الفتاة ولعلتا عند ذكر الجنيه ، ورفعت الأم
رأسها فى زهو ، ثم جف البريق ، وانحنى الأم تحت وقع الكلمات التى
تلت : وهل تعرفين يا داريا من الذى يعيش مع جمال ؟! وزوجته !! ..

قرأت الكلمة ثم توقفت ، ولا أدرى لماذا توقفت ؟ ربما لأراقب يد
الأم التى تشنجت على معصمى وكأنها يد ميت ، وربما لأن الفتاة اندلقت
على كتفى وكأن نوبة اغماء قد ألمت بها حين فاجأتها الكلمة .. فلقد تزوج
جمال كما يقول حسين النجار هنالك فى مصر ، من بيضاء فى سن
شريفة ، أمها كانت تمورجية فى القصر العينى ثم ماتت فعملت خادما مع
جمال فى قصر أحد الباشوات فى مصر الجديدة ..

رأيتهما بعينى فى مسكنهما على سطوح عمارة فى شبرا ، ولم أسترح
لها ، فارغة العين .. تلعب كثيرا بحاجبيها ، وتلاطف دون حياء ضيفا
اسمه حسين ، وتقهقه كما يقهقه الرجال ! والولد جمال مفتون بها تلتطخ
وجهها بالاحمر والابيض ، وتكسم الملاعة على جسدها وتتقصص .. سأعمل
على اقتضاء هذا الجنيه كل شهر وان كنت أخشى أن تقطع هذه الزوجة
بينه وبين أهله .. ولسوف أعقد له جمعية من أبناء النجع فى مصر ،
لتحمله على تسريح هذه الزوجة بالحسنى .. لا تشغلى نفسك طويلا ..
اتكلى على الله ومن بعده وبأذنه على حسين النجار ..

وانتهت كلمات الرسالة ، وغاض الدم فى وجه الأم التعيسة وأخذت
شفقتا شريفة تتمثمان :

— زوجة من مصر .. تلتطخ وجهها بالاحمر والابيض !! ..

ونهضت من مكانها ، ومضت الى الباب توصلده فقد كان صوت
أمها قد ارتفع بالعويل تنعى فرحة لم تتم ..

لقد رأيت الناس جميعا يفرحون حين يتم زواج ، رأيت برعى
ينتفش حين يتباهى بأنه سيتزوج من شريفة ، وتوسمت الفرحة على
وجه أمى يوم زارنا شعبان ، وهأنذا ألمس اليوم شيئا غريبا لمستته يوم
زارنا العائد وأنهى إلينا أن «عثمان ومحمد» قد تزوجا من مصر .. شيئا

يائسا معتما يرتسم بقسوة على وجه هذه الام المتكودة ، ويحفر الحزن على وجه ناضر مثل وجه شريفة ..

وزاد من حيرتى ان الفتاة مضت تهذى مرة بعد أخرى : زوجة من مصر .. وونور ... رحمتك يارب .. وأحسست اننى أقف على شاهد قبر ، وشعرت بالدموع ترتفع الى عيني وأنا أقرأ البؤس والحزن الجائمين على وجهيهما ، البادين فى أعراض بارزة .. فقد تقلصت عضلات وجه الأم ، وضاق ما بين حاجبيها واستوت خياشيمها ، ولعت دمعة حائرة فى عين الفتاة تركتها تسيل على خديها ، وان بدت أكثر جلدا من أمها ..

كانت الحوالة لا تزال فى يد الأم تكاد تمزقها .. فأشرت الى الفتاة من طرف خفى ، فانكبت على يد أمها ، واختطفت الحوالة ورجتني أن أحملها الى المتجر ثم عادت تغغم : بيضاء تنقص .. تلتطخ وجهها بالابيض والأحمر !!

وربما كانت هذه البيضاء ينبوع سعادة لجمال .. ربما كانت أشرف النساء وأكثرهن تعلقا بجمال .. ربما كانت طيبة طاهرة ، وجدت فى جمال مبتغاها ، فضحت بالكثير فى سبيل حبها .. وربما كان ذيلها أطهر من ذيل هذه الام نفسها ، كل ذلك جائز ومعقول ولكنها رغم كل ذلك تعتبر .. وهذا ما أدركته بعد سنوات طويلة - تعتبر مجرمة فى نظر المجتمع الصغير الذى يعيش فى نجعنا .. وليس الفتى أقل أجراما منها هى التى تصيده .. فقد سلبت هذه الزيجة البيضاء عصارة الحياة من جسد هذه الأم ، ويريق الأمل من عين هذه الشقيقة النعسة.

أرسلته الى مصر ليكدح ، ابقاء على شريحة الارض الصغيرة ، ووفاء بديونهما ، فاذا بمصر تبتلعه وتبعده عنهما .. وربما الى الأبد ، تقصيه عن الام التى تبعده ، وألتى ضحت بالزواج من أجله ومن أجل هذه اليتيمة .. جمال هذا فى الحق ليس إلا سبق شيطان .. ابن حرام ! .. كلا فانها تعلم علم اليقين انه ابن حلال ، ولكن قلبه من صوان لا يلين ، تماما مثل قلب أبيه .

داريا سكينه تعرف تماما معنى هذه الزيجة البيضاء ، فلسوف تنقطع بسببها صلة جمال بأهله هنا ، وهناك فى مصر ، فلا يزورهم ولا يزورونه ، لا يحس بواجب أزاءهم ولا يحسون بواجب أزاءه .. هذا الولد الجاحد لن يجد من يقف الى جانبه ويشد من أزره ، اذا ما ألت به مصيبة .. اذا ماتت أمه مثلا ، لن يسمحوا له بتلقى التعازى فى

جمعية القرية في عابدين .. آه من الدنيا ومن جحود الابناء .. كتب
علينا الشقاء في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

وتداعت المسكينة ، وانكفأت على تراب المصطبة تكبش فيه يديها
وتهيله على رأسها بينما لوت شريفة بوزها فاستطال وجهها البانع وكساه
حزن قاتل .

وتتالت الطرقات على الباب ، وقمت لافتحه ، فوجدت نسوة
النجع وقد جئن للتهنئة .

واندفعن في هرج تلمع الابتسامات على شفاههن ثم صمتن صمت
القبور حين وقعت العيون على جسد الام المتكوم على المصطبة .. ثم
عرفن الخبر فانقلبن باكيات واستدرن بالأم وأخذن في عويل منظم منفعل
داعيات على مصر .. وعلى بنات مصر الغوازي .. بنات لا أهل لهن ،
والا فلماذا تركوهن هكذا على « حل شعورهن » يتصيدن أبناءنا ورجالنا
هناك !! ألم يتزوج عثمان خال حامد من الاسكندرية وأخوه محمد أبايا ألم
يتزوج من باب الشعرية ؟ .. وأخذن في تحريض الام ! .. ارسلن لكل
الناس في مصر ليسعوا حتى يطلق تلك الفاجرة ..

وراحت أم سعدية تحاول بظرفها المعهود تخفيف لوعة الام فقالت:
واذا ما عاد جمال بالسلامة فعندى له عروسة ..

وتغامزت مع الاخريات ثم أضافت .

— سعدية بنتى .. قمر في ليلة أربعتاشر .

وبعد صمت وتردد خلصت فضيلة صوتها من الدموع لتقول :

— سعدية ليست في جمال بنت شبرا !

وتدخلت أخرى :

— وليس جرجارها الذي يكنس التراب والشوك والعقارب
والخنافس من خلفها مثل فساتين البيضاء : قصيرة ، تحت الركبة ..
تكشف عن سمانة الساق .

وتبتلع جرعة ماء وتستطرد .

— ولا جدائل سعدية الملتصقة بفروة رأسها ، المدهونة بزيت
الخروج مثل شعر الأخرى : فاحم تعطره وترسله لينزلق على الكتفين

أو تحبسه داخل منديل يزينه الترتر المشغول ، وتغضب أم سعدية
وتخجل ابنتها وتتوارى بينما تسترسل السيدة التي عادت من مصر
منذ سنين :

- نه .. اسكتي انت .. كلكن عبيطات ، رأيتهن بعيني هاتين في
مصر ، وكتر خير رجالنا الذين يرضون بنا ومن حولهم كل تلك الوجوه
البيضاء اللامعة .

- فتزد أخرى في حماس :

- وقلوب مثل قلب ابليس .. لا تعرف الرحمة .. الا أنهم على
كل حال مريضات ، مصوصات العود ولا يصلحن للفراش ، ولا أدري
ما الذي جعل « جمال » يندب في حبال هذه الفجرية البيضاء ؟!
وتطوف بعينيها في وجوه الأخريات ثم تضيف :

- ابنك ياداريا هبيل ، وانت نفسك هبيلة .. لو كنت في شطارة
كل الناس لما وقع ابنك في حبال البيضاء لتمتص عوده ولا تعيده اليك
الا ليمونة صفراء .

وتضح الدار بالضحك ، حتى داريا سكيئة سمحت لنفسها أن
تضحك وتضحك : ذلك أن زوج هذه الشاطرة التي عادت من مصر منذ
شهور هجرها الى زوجة بيضاء ، فعادت تندب حظها وتنفت حقدتها
كلما جرى اسم المدينة على لسان الناس ، تكره كل وجه أبيض ، تكره
سعدية لأنها بيضاء ولا تتصور حسن المصري .

ثم أخذن في ألوان شتى من الحديث .. واستمطرن اللعنات على
بنات مصر وعلى المدينة نفسها ، وتمنين على الله أن تفقد البيضاء التي
تصيدت « جمال » وغير جمال من أبناء النجع نعمة النظر فلا ترى ..
ونعمة السمع فلا تسمع .. وأن يسد باب الرحم في بطنها فلا تلد ..
فانحية لا تلد الا جية تمسك بجمال وغير جمال وتشدهم اليها ، فلا
يستطيعون الفكاك ، وربنا قادر على كل شيء . هو الذي أعطى وهو
الذي يأخذ !!

وأقبلت نبوية - سيدة من النجع الآخر عرفت بخفة الدم ، يروى
الناس نوادرها في كل نجع ، علمت بالمصيبة التي حلت بداريا سكيئة
فأقبلت لتواسي وتخفف من لوعتها .

فتحت الباب ووقفت باسم الثغر لحظة ثم راحت تتحرك وتقهقه

ونلقى بمقطع أغنية مرحة تنم عن الدلال ، فأخذن يوجهن إليها نظرات
تحذير فلم تبال بهن بل اندفعت وقامت وسطهن ولفت جلبابها حول
ساقها حتى بانت سماتها ، وراحت تتثنى بينهن تقلد بنات مصر ،
تغنج وتدل وتتقصص في مشيتها وتطرقع بلسانها وكأنها تلوك اللبان
مثل بنت مصر ، ثم أمعنت في المحاكاة وهزت أردافها وبطنها وهي
تعلن :

– هكذا تفعل بنت مصر .. تعلمي يا شريفة • فترسل الفتاة شهقة
وتتوارى خلف أمها بينما راحت نبوية تحوم بينهن تهز أعطافها وخالصرتها
وترعش صدرها •

– تعلمي حتى لا يفلت منك زوجك •

لقد عادت نبوية هذه منذ شهر من الاسكندرية بعد سنوات
طويلة عاشتها هناك ، كانت تبالغ في دلالتها وحركاتها ولكنها تمكنت من
انتزاع بعض الضحكات والبسمات حتى من داريا سكيته نفسها ومن
شريفة التي وقفت مشدوهة تتصور زوجة جمال في الصور التي عرضتها
نبوية •

وعندما حل المساء انصرفن الا نبوية ، فانها لم تبرح الدار الا بعد
أن مسحت الدموع وطبعت على ثغر الأم والفتاة الجريحة بسمة ،
وحفرت في قلوبهما أملا في جمال ..

قبل أن يبدأ الموسم وفي انتظاره ، ظل المتجر يعمل طول
النهار على ضوء الشمس : وفي الليل على ضوء كلوب كبير
خالى روحه تكاد تزهق من فرط العمل ، وأبى يسب ويلعن
« خاش » الزبائن • يتغيب الخال ساعات بالنهار – وبالليل – يستقل
فلوكته ، الرابضة على الموردة الى الجزيرة ، وقد علق طوريته بين كتفه





وعنقه ، وفى جيبه دفتر طويل بالديون التى على أهل الجزيرة ، ويظل
هناك يشخط فى أبنائه ثم يعود مرهقا ليسهر مع الكلوب . يشطب
صفحات من دفتر اليومية بالقلم الكوبيا ، بينما يعلق أبى فأسه على
كتفه وينحدر الى الغيط ليعاون حسن المصرى وبطة .

فقبل مهرجان النخيل يجب أن تتعري الأرض من الذرة فتترك
لتستريح وتستجم فى ضوء الشمس .

وثمة حركة دائبة فى الحقول ، تنغمها خشخشة أعواد الذرة ، وصوت
الشراشر والمناجل ، ودبيب أقدام وأكف تطلس مساحات عارية من الأرض
تكوم عليها قناديل الذرة ، ثم تدب الأقدام والهراوات على هذه القناديل
لتخليص الحبوب منها ، بينما النساء يستدبرن الريح ، ويذررين . وكل
طفل يمد يده الى ظهره وصدره من خلال تقويرة الجلباب الأزرق ليهرش
وينفض عن جلده الملتهب ذرات القيشة المتسربة اليه .

وما زال وجه داريا سكيئة متجهما ، تلمع الدموع فى مقلتيها ،
وما زالت شريفة متحفزة الاعصاب . تدوران هنا وهناك ، تلتقطان قناديل
نسيها أصحابها وتذريان وتقتضيان أجرهما فى العصر : قدحا تحملانه .

الى دارهما وهما تلهجان بحمد الله وتستمطران اللعنات فى نفس الوقت على مصر ، وبنات مصر ، وعلى جمال .

وبين الحقول أناس ليس من عادتهم العمل فى الحقول .

فهذا هو نجار السواقي وحلاق الصحة والمأذون وشيخ الكتاب والمؤذن وجزاز الأغنام . . يتوافدون على الاجران جماعات وفرادى يلقون بالتحية ، ويتمتمون بالدعاء ، فيهز الناس رؤوسهم ويفهمون ، فان هؤلاء قد صلوا بهم طوال العام وفى الأعياد وعلموا أبناءهم . وقصوا شعورهم وجزوا أغنامهم عند نهاية الحسوم ، والصقوا « كاسات الهواء » على ظهورهم . . ومن حقهم اليوم كيلة أو كيلتان يجود بهما الناس طواعية ، فلسوف يجزون أغنامهم ويصلحون سواقيهم وفئوسهم من جديد حتى يحل موسم جديد . .

والى المتجر ترحل بعض غرارات المحصول ، فيعمد القلم الكوبيا الى تشطيب صفحات كاملة من دفتر اليومية الا سطورا تنقل الى دفتر جديد لتستوفى فى موسم البلح ، الموسم الذى يقف الآن على مشارف القرية ، ينتظر انتهاء الناس من مهرجان الذرة البهيج .

وأمام البصر وتحت الشمس المحرقة تأخذ الأرض العنصرية ببصرك وهى ترقد متشقة ، تنبثق منها هنا وهناك نباتات ابرية غاضبة ، فيمسك العاقول بأقدام الناس ، ويلتصق ، « حسن شبكة » بشياهم وجلودهم ، فيصرخون .

كانت هذه النباتات الغاضبة تبدو مثل شعيرات تبتت على رأس عجوز أصلح ، بينما الارض نفسها تبدو كامرأة أسلمت مولودها للدنيا ورقدت لاهثة على فراشها ، متشقة الشفاء ، تهمس وتتوجع . وعليها تنطلق قطعان من العجول والماعز والاغنام ترعى وتجتز الحشائش والعاقول المزهر وبقايا البوص الناتئة . وتخور وتثغو وتهش الذباب بذيولها ثم تحملق فينا بعيون بلهاء .

وفوق سباطات البلح وعلى تلال الذرة ، وبين أحراش اللوبيا تنتقل العصافير وأسراب القمري واليمام ، تطير من فتن الى آخر وتغرد لنا ونحن ندب بأقدامنا على قناديل الذرة ، وتأتى ساعات الراحة فنترك العمل ، ونكسر بصلة نزرود بها لقيمات من الحمريد ، ثم نسعى وراء الهدهد ،

وتواجه الملوكى الخاطف اللون ، تكيد له ، فيتآمر علينا ويطير بعيدا عنا
بعد أن نكون قد ضيقنا الحناق وكدنا نوقعه فى شراكنا ..

وتظل الاقدام والهراوات تهوى على قناديل الذرة ، والنساء يذرين
ويظل العرق يتصبب على الجبال حتى يتكوم الحب تلالا صغيرة ، فيتجمع
حولها الورثة يصرخون ويتشابكون بالأيدى ، وبالهراوات كما صرخوا
وتشابكوا منذ مئات السنين .

عائلتنا الصغيرة نفسها كان جوها يتوتر فى مثل هذه الايام ،
فليس من حق هذه العمة أن تركز قنديلين جانبا ، ولا من حق هذه الحالة
أو الزوجة أن تجلس هادئة على جدول تراقب جباهنا الغارقة فى العرق ،
الا « بطة » شقيقتى الصغرى فلقد تعارفت الاسرة عن رضا أو على مضض
أن من حقها وحدها أن تفعل ماتشاء بالقناديل ، فقد سنهرت على الزرع
وانتزعت « الهالوك » من بين جذوره ، وعزقت الارض وبتنتها وحولت
الماء ، وحفظت مواقيت الري .. فمن حقها اذن حين يكوم المحصول أن
تعزل لنفسها كيلة أو كيلتين وتشتري لنفسها شيئا من المتجر أو من
السفينة السوداء التى ترسو على مرافئنا فى الموسم .. ومن الغريب أنها
كانت تحجم عن دكان أبيها ، وتشتري من غيره وتقول حين يعاتبها :
الدكانة دكانة أبى .. وكل ما فيها لى فكيف أشتري منها ؟ .. وهل يمكن
أن أفصل أبى أو أن ادفعه فى صدره وأسبه اذا ما غشنى فى الكيل ؟!

الناس جميعا فى أسرتنا يعترفون لها بهذا الحق الا حجوبة .. فقد
دأبتا على النقار معا فى كل موسم ، تصر بطة على أن تستوفى حقوقها ،
رغم أنف حجوبة ، زوجة أبيها .

وكان الأمر يصل بينهما الى حد التشابك باليد . وقد تشابكتا فى
هذا الموسم ، وفى أحد أيامه . والاسرة كلها مجتمعة فى الغيط تعمل
وتدق وتدرى أقبلت حجوبة فى خطى متثاقلة . فقد كانت فى شهرها
السابع أو الثامن ، وألقت نظرة هنا وهناك حتى استقرت عينها على بطة
ثم جلست فى محاذاتها على الجدول الكبير ومضت تراقب حركات الصغيرة
وسكناتها .

وأخذت بطة تختلس النظر اليها ويدها تعملان بسرعة ، وتعجب
منها . سيدة فى مقتبل العمر ، معتدلة القوام ، بوجه مستطيل ، وشعر
مجدول ملتصق بعناية تحت الطرحة على جانبي رأسها وعينين واسعتين

فيهما ترقب تقولان : اننى أراك من مجلسى فاحذرى . وبشرة سمراء يلمع فوقها لون الذهب الأصفر من قطع مثلثة تتراقص على الجبهة ، وأخرى مستديرة ، صغيرة تحيط بالجيد . وشفتين ممتلئتين تتدلى أسفلهما . ويدين تتشابكان على بطن منتفخة، تربتان عليها بين الحين والآخر وكأنهما تهدئان الجنين الكامن فيها ، وتمتدان مرة بعد أخرى ، وتغوصان فى الغلة تنقبان عن قطع صغيرة من الطين تندفعان بها الى فمها بسرعة فتزددرها اذ تتوحم على الطين يقينا منها أن ذلك يزيد من سعة البطن ويترك براحا للجنين يتحرك ويتنفس فيه . .

ظلت تزدد الطين حتى انتهرها ابى فكفت ، ثم مدت يدها الى سيالتها ، وعادت تحمل بها علبة مستديرة من الصفيح فضت غطاءها وركزتها على الارض ، وتناولت قطعة صغيرة من النطرون ضمت حولها حفنة من الدخان ودفعت بها الى شدقها الأيمن ، وأعادت العلبة الصفيحية الى مكانها ، وراحت تلوك المضغة . وتزم شفيتها . الا فتحة صغيرة ترسل منها بين الحين والآخر خيطا طويلا أصفر من الرذاذ . يمتد مترا أو يزيد . . رذاذ يحمل لعابا اختلطت به رائحة الدخان وطعم النطرون . ومضت بطة تختلس النظر اليها حتى وقع المحذور فقد امتد الرذاذ الى يدها مرة فتململت وتذرعت بالصبر . ثم مرة أخرى فتحفزت حتى كانت المرة الثالثة فانتفضت تصرخ فى وجه حجوبة ، وتعبر عن احتقارها الشديد .

والحق أن حجوبة كانت تعد فى غير محيط أسرتنا الصغيرة ورغم الأوصاف التى أجملناها امرأة ظريفة تهش للناس وتبذل لهم من جودها ، وقد عرفت عنها فصاحة لسان وحلاوة صوت وفطنة وخفة دم . .

ولا يدري المرء سببا محددًا لذلك الشعور الغريب الذى تربى فى صدورنا ازاء زوجة أبينا . . أهى السبب أم الرجل الذى تبنى بها على كبر أم تلك الاوهام الغريبة التى تصيبها كل أم وجدة وشقيقة نحو زوجة الأب ، فنخاف منها ولا نقرب طعاما تقدمه لنا !! الا اذا اكلت منه هى أو زوجها ، فقد تدس السم لنا فيه !!؟

اننى أنفجر بالضحك اليوم وأنا أتذكر مشاهد موعلة فى الشذوذ بينى وبينها . . كنت أصخب أبى الى بيتها ، فتخلو بى ، وتحاول أن تتقرب الى وتقدم لى رطبا ، وحلوى يتحلب لها ريقى ، وآكاد أدفع بها الى فمى ثم أتردد حين أتذكر تحذيرات جدتى : اياك . . ستدس لك السم

فى الطعام ، فأقذف بها الى جيبى ثم انتحل عذرا واترك بيتها ، واعرج على الحراية القريبة ، واقذف بقطع الحلوى واحدة بعد الأخرى الى التراب واقلب سيالتي أنفضها باتقان من آثار السم !

انكفأت بطة تعمل من جديد بعد أن ابتعدت عن نطاق الرذاذ الا أن حجوبة كانت مصممة على التحرش بها ، اذ بدأت تشهر فى وجهنا سلاحا تعرف جيدا أنها تصيب به مقتلا فينا حين تشرعه .. بدأت تغنى وتلقى كلمات مزدوجة المعانى ، حمالة أوجه ..

تنظر الى شقيقتى جميلة العروسة وتقول :

— داريا . مالبنتك شريفة تقتصع ؟ ويدها متحنية .. دعيها تتحشم !! وتدرك بطة أن شقيقتها هى المعنية بذلك فيملأ الغيظ قلبها بينما جميلة تبدو هادئة باردة الاعصاب كعادتها تتحرك وكأن ما قيل لا يعنيها فى شيء وتتأكد بطة من مقصد حجوبة حين لا ترى شريفة فى الغيظ على مرمى البصر .. وتحس حجوبة أن سهمها قد طاش فى هذه المرة ، فتستعد لجولة أخرى وتتخذنى مرمى ، وتتحدث فى كلمات منغومة عن الحيلة التى أعيش فيها : لا شغل ولا مشغلة .. نهايته يتلو القرآن فى الميام .. ولا يغيب عن بطة ماتعنيه ولكنها تتذرع بالصبر بينما خالتي أمينة بايا تحذر حجوبة بنظرة جانبية فلا تبالى بل تمضى قدما الى القاء قذيفة أخرى :

— داريا .. مالك مخطوفة اللون مثل المجنونة ..

وتغمز ثم تضيف :

— .. ومن أين رغاوى الصابون التى تسيل بين شفتيك ..

مخطوفة اللون .. مجنونة . . . رغاوى الصابون بين الشفتين .. حجوبة لا تعرض الا بأمرى ، تتهمها بالمجنون !! أدركت كل ذلك وأمسكت بقطعة حجر بعد أن رأيت أبى بعيدا فى نهاية الغيظ ورفعت يدي لأقذف بها فى وجه حجوبة ، الا أن جميلة اختطفها من يدي ، وانتهرتنى ، وقررت بطة أن تنتقم من حجوبة فى نفس اللحظة التى انشغلت جميلة فيها بأمرى ، فأمسكت بقطعة مستديرة من الصوان وطوحت بها على رأس الزوجة التى أطلقت صرخة داوية انكفأت بعدها على الأرض والدم الاحمر ينبجس من رأسها بينما الصغيرة تعدو هاربة لتختفى بين أشجار النخيل .

لكنها اصطدمت بأبى لسوء حظها فأمسك بها ، ثم ضربها علقه ساخنة
لم تنسها طوال حياتها •

أخذ الرجل يضربها الى أن سقطت على الارض فاقدة الحس ، وركلها
وأقبل على حجوبة ، فوجدها منطرحه على الارض ، فجن جنونه خشية أن
يكون مكروه ما قد أصاب الجنين في بطنها ، فارغى وأزبد وصفعني صفة
أطارت صوابي ، وأنحى باللائمة على جميلة وكأنها هي المسئولة ثم أقسم
وأغلظ في إيمانه وتعهد ألا تدخل حبة واحدة من الذرة أو القمح هذا العام
في بيتنا ••

ورفعت أمينة بايا رأسها • من فوق الراس الجريح في غضب ثم
انكفأت على الجرح تغسله وهي تصرخ في ابنتها :

— عيشة •• بسرعة •• قليلا من البن ••

فأسرعت هذه الى البيت عدوا ، ثم عادت بالبن ، فمضت أمينة بايا
تحشو الجرح به وحجوبة تتأوه وتئن •

وتجمع رجال ونساء النجع حولنا واجمين الا الشيخ فضل ، فقد
أطلق ، بعد أن ألقى نظرة على حجوبة ، ضحكة مقتضبة والتفت الى أبى
يسخر منه :

— هيه •• الزوجة الصغيرة •• مسكين •• وحيل •• مسكينة !!

فتار أبى في وجهه !!

— الوقت ليس وقت مزاح يا فضل •• الا تراها تموت ؟

— تموت !! وتلك الاخرى الا تموت ؟

وتلفت نحو بطة التي كانت قد أفاقت ونهضت تنفض الغبار عن
ثيابها ، وتختلس نظرة جانبية الى أبيها ، متأهبة للجري في أى وقت ،
ورمقها الشيخ فضل باعجاب وقال :

— عفريته وشقية ، زوجها لى يا أمين ••

فتفرس أبى في وجهه نافر العروق ثم مضى يلعن أمى وجدتى حتى
أقبلت عليهما أمينة بايا تبتسم ابتسامة ذات معنى وتقول :

— حجوبة بخير •• جرحها ليس الا خدشا بسيطا ••

وتفحصها أبى بنظرة غاضبة ، ثم مد يده الى يطنه يشير الى الجنين .
- فى بطن زوجته - فقالت على الفور :

- لا شيء .. لم يحدث له أى ضرر ..

فارتخت عضلات وجهه قليلا ، وبدأ لأمينة ان الجو ممهد لاصلاح
ذات البين فاقترحت ..

- وأين تلك العفريته ... هاتها يا فضل تصلحها على الزوجة
الغاضبة .. البنت الثانية «على وش» فرح ، ولا داعى لكل هذا النكد ..
وأشارت باصبعها الى « جميلة » فانعطف الشيخ فضل الى «بطة»
وأخذ يحاورها ويشدها من يدها شدا الى « حجوبة » ..

- تعالى ، بوسى راس حجوبة فهى فى مقام أمك !!

فتقفز الصغيرة وتكاد تفلت منه وهى تصرخ ..

- وأنا مالى !! .. هى التى شتمت أمى . ويميل عليها فضل ويسر
فى أذنها شيئا .. تتلفت بعده الى شقيقتها ثم تنقاد فى تقزز لكن فى يسر
الى حيث كانت حجوبة ترسل رذاذها الاصفر وقد لفت رأسها بقطعة بيضاء
من القماش لطختها بقعة مستديرة من الدم .. توقفت بطة برهة على رأس
الزوجة التى أشاحت بوجهها ، تبدى تمنا مزوجا بالتشفى ..

فأمسك الشيخ فضل برأسها وأماله على الزوجة . فأطاعت الصغيرة
وطبعت قبلة خاطفة على رأس الزوجة واستقامت لتهمس :

- معلش .. سامحينى ..

ولكنها لم ترد حتى فى هذه اللحظة أن تفلت الفرصة منها ، فانعطفت
وبصقت على الأرض بصقة تعبر عن اشمئزازها ، فكظمت الزوجة غيظها
وبيتت فى نفسها أمرا : أن تثير حفيظة الأب على البنت وعلى الأم ، فهى
ترمى الى اجلائنا عن بيتنا الكبيرذى الغرف الثمانية لتحل فيه هى ،
والرجل لا يمانع ، لكن الضرة - أمى - والجدة تقفان دون تحقيق رغبتها ،
انها فى كل يوم تسر الى الرجل : بيتك لا يليق بك وبضيوفك .. لماذا
لا ننتقل الى البيت الكبير ؟

البيت الكبير الجديد المبنى من جالوص الطين مجال حرب أخرى بين
الزوجتين ، حرب لا تهمد ، والرجل حائر ماذا يفعل ، فهو يعانى من هذه

المشكلة منذ سنين طويلة ، يخلو الى فراشه فتثير الزوجة الشابة حفيظته
ثم تثير جدتي اشفاقه علينا وعلى الام المريضة فيسكت ..

وبدا واضحا في تلك الظهيرة ان الرجل نادم على ايمانه التي أطلقها
لحرمان بيتنا من الذرة والقمح ، ولكن التراجع أيضا كان عسيرا ، اذ لا بد
من استشارة الشيخ عبد العزيز في استرجاع يمينه ولا بد له أن يدفع
كفارة !!

وبدت الشقيقتان حائرتين .. ماذا تفعلان ؟ .. الصغرى ترمق
شقيقتها نادمة على ما بدر منها من أذى ومن تنغيص !! والكبرى تخفف عنها
ببسمه رانية حلوة وتهمس :

- انت تعرفين أبى .. يقسم كثيرا ولكنه سيرجع كعادته ..

- ولكن الايام قد تطول الى أن يتراجع !!

- صحيح .. الا أنه سيتراجع في آخر الامر ..

- ولكن لا بد لنا من قمح للشعرية ولزفافك .

- بدرى يا بطة ، .. لا تشغلي نفسك ..

- كيف ؟! ألم تقولى ان فردوسة وحفيظة شقيقتى شعبان ستزوران
بيتنا ؟!

- وماله ؟ .. لا تهتمى فذلك لن يتم الا بعد أيام ..

فدعت الصغيرة على نفسها بالعمى والكساح ، ثم أقبلت على عملها
بهمة كأنما تريد أن ترضى أباهما الغاضب المتهجم ، بيد أنه أغاظها أن رأت
حجوبة مرحة ضاحكة ، لا تبالي بجراحها بل تبدو وكأنها سعيدة بهذه
الجراح ..

وحل الأصيل باشعاعاته الذهبية ، وهب نسيم نشط هزنا له نحن
الصغار رءوسنا طربا في انتظار سحر لذيذ نتعقب فيه الثمار المتساقطة
على أضواء فوانيسنا .. ولربما توارى فيه برعى وشريفة عن الانظار
وتهامسا كما فعلا بالامس القريب فأستمتع بتناجيهما والتلصص عليهما !!
وامتلأت الحقول بسحر الاصيل ، ونشطت الايدي ، وأخذت داريا
سكينة وشريفة تحشران في كيس كبير ما جمعتاه من كدهما طول النهار
في الدق والتذرية ثم انسجبتا عائدتين ، وعيونهما لا تزال شاخصة

غائمة ، كأنهما لا تريان أمامهما الا وجوها بيضاء ملطخة بالأحمر والابيض .
وملاءات تكسّم أجسادا ملفوفة ، تقتنص أبناء انتجع هنالك فى مصر ، لعنة
الله على الشيخ أمين وعلى انقراطيين فلولاهما لما هاجر جمال ولزّرع شريحة
الارض وكفاهما مشقة العمل فى الشمس لغيرهما - انهما تلهثان من فرط
العمل ، بينما حجوبة تراقبهما وكأنها سيدتهما أو سيدة قصر تشرفان هما
على خدمته تماما كما يفعل جمال فى مصر !! ورغم كدهما ، فان دفتر أحمد
عودة ما زال يحمل اسم داريا سكيّنة ، وأمامه أرقام كبيرة رهيبة ، تسبب
ألم بالليل والعرق المتصّيب بالنهار دون جدوى الا لقمة العيش . ومن
يدري ، هل يكفى محصول البلح أم يقصر ؟ فتدرفان الدمع طوال الشتاء
فى انتظار موسم جديد ..

وتميل الشمس ، لتغوص فى مياه النيل الى الغرب عاكسة أشعتها
الواهنة على صفحة الشمندورة الحمراء التى تناضل فى الضحى ، وتناضل
فى الظهيرة وعند الاصيل وعند السحر ، لتنعق وتجرى فى النيل كما
تهوى ، دون تلك السلسلة اللعينة التى تشدها الى القاع ... وتنحدر
الشمس وهى تتبدى قرصا أحمر يظلال الاشجار فتمدّها وتجلدها على
الارض ، وتهبط معها العصافير من تحليقها لتستكن فى أعشاشها ، وتشرع
الجنادب فى ارسال صريرها الخافت يطغى عليه نقيق الضفادع ، وثغاء
الحملان الصغيرة وخوار البقر ونهيق حمار . ونباح « لورد » يطارد كلبة
عبد الله الجزار ..

حينذاك بدأنا نعود فرادى وجماعات ..

كنت أدب على الطريق العام بين شقيقتى ، وأنا أفكر فى بطة الثائرة
دائما وفى جميلة التى لا تثور أبدا . وعن لى أن أسأل جميلة عن شيء ما ،
فالتفت ناحيتها ، وذهلت اذ وجدتها تنسحب بسرعة لتتوارى خلف جذع
نخلة ..

وحانت منى التفاتة الى الناحية الشرقية ، وعرفت السبب فى اختفائها
المفاجئ ، فان شعبان الرجل الذى اختارها عروسة له كان يقبل على نجعنا
فى خطى متوتبة ، فاخفت حتى لا يراها !! فهكذا جرت التقاليد فى قرانا
.. والشئ العجيب حقا أن جميلة نفسها كانت تلتقى بهذا الرجل قبل
أن يخطبها ، فلا تختفى منه بل تحييه وتقدم له الشاي فى المتجر سافرة ،
فلماذا تختفى اليوم عن ناظريه ؟! لماذا ترتبك ويصيبها الاضطراب لمراه ،
فلا تشعر بالهدوء الا حين تجد نفسها فى مأمن من عينيه ؟! ..

هكذا كانت كل فتاة تستقبل الزواج .. تتوارى حين يلوح رجل .

..المستقبل ، وقد تراقبه من طرف خفى .. ولكنها لا تسمح له أن يراها .

وما زال الناس فى قرينتنا يذكرون ما حدث لأميئة .. عروسة أمين
حجى ، توارت عن عينيه بعد أن خطبها .. الا أن الفتى اتفق مع لداثها
فاستدرجتها فى أصيل يوم الى شاطئ النيل لتفصى اليهن بدخائل نفسها،
بينما يراقبها هو من طرف خفى ..

ركزن الكوبيهات على الشاطئ ، وأخذن فى إثارة أمنيئة الى أن
انفجرت تنبأهى ، وتذيب على شفقتها كل ما تعلم به فى ليلتها الاولى مع
أمين عريسها : سأذله وأتغلب عليه ! ثم لا أستسلم له الا بعد أن يجن .
وهزت أعطافها وهى تتدلل ، ثم تبسمت وهى تقول : بعده .. لن ينالنى
الا بعد أن يتعذب ، انه يتعقبنى فى هذه الايام . رأيتة وهو يراقبنى من
سطح بيت خالته .. فرميتة بحجر واختفيت عن ناظره ..

ومضت تحكى وبالتفصيل ، كل ما سيتم بينها وبينه فى ليلتهما
الاولى ! واستمع الفتى بقلب نابض الى أحلام فتاته ، وقرر أن يفاجئها
فخرج اليها من خلف نخلة وتوقف أمامها بينما الخبيثات يتظاهرن
بالدهشة والغضب ! أما هى فقد احتبست الكلمات فى حلقها ، قمضت
تغمغم جاحظة العينين ثم أطلقت صرخة داوية أخذت تعدو بعدها الى سفوح
الجبل الشرقى .. ظلت تعدو والفتى يناديهما ، والمذات يستصرخنها ،
ثم كانت الكارثة فقد سقطت أمنيئة وهى تعدو فى بثر جافة انتشلت منها
فاقة الوعي مختلة العقل وعاشت بعد ذلك تلطم خديها حتى فارقتها
الحياة ...

ويبدو أن جميلة قد تذكرت قصة أمنيئة حين لاح شعبان عند منعطف
الطريق .. فتوارت عن عينيه ريثما تفحصنا الرجل ، وشق طريقه الى
المتجر ودلف من بابه ، فانضمت اليها من جديد ثم أخذنا نسرع الخطى
لنعبى باب الدهليز وصوت عم نوح يلعلع بأذان المغرب يطلقه من مئذنة
الجامع خلف بيتنا .

وفى ركن من الدهليز رأيت أمى ، مطرقة الرأس ترسم خطوطها
وتذرف الدمع وتبكي بحرقة ، فقد سبقتنا اليها أخبار معركة ابنتها مع
حجوبة فى الغيط ..

ومضت جميلة تواسى أمها ، وتهدىء من روعها بينما انكفات بطة مع
جدتها تعدان لوجبة العشاء ..

وران صمت ثقيل على الدهليز ، وابت وجوهنا على ضواء المسرحة

متجهمة غاضبة يعتل الغيظ على قسوماتها ، الغيظ من حجوبة ومن الـابـ
الذي أسلم نفسه للغضب ، فأغلظ في إيمانه وأوقع علينا الحرمان ..

الا أن الوجوم لم يطل بنا ، فان شيئاً جديداً قد انبثق بيننا في تلك
الامسية ، وجوه باسمه ضاحكة : وجوه فردوسة وحفيظة ومسكة شقيقات
شعبان ، أقبلن علينا بعد العشاء في زيارة ودية للعروس ، كل واحدة
كانت مثقلة بهداياها للعروس وللأم والجدة وللشقيقة الصغرى ..

وفرحت أنا بهديتي : طاقة مزركشة عليها جمال باركة بأحمالها
وأخرى على أهبة النهوض ومن خلفها نخيل .

وسهرنا الليل كله في مرح تضج الصالة بضحكات متشرخة تنبعث
من بين شفتي جدتي العجوز وبضحكات شابة ، حتى أمتى تناست خطوطها
واشتركت بابتسامة بينما جميلة مخرجة مرتبكة يزداد اضطرابها كلما
داعبتها مسكة أو حفيظة ..

وانتصف الليل ، ونحن ما نزال في دعاباتنا .. وانقضت السهرة ،
وحينذاك أمسكت « مسكة » برأسي وهي تقول :

– ألسنت رجلا ؟

فهزرت رأسي في زهو :

– رجل وألف رجل !

– ألا تخاف من الضباع ؟

فارتعش جسدي كله عند ذكر الضباع .. ولكنني أجبت رغم ذلك :

– ضباع ! أنا لا أخشى الضباع ولا الفئران ..

وضحكت جدتي فانها تعرف انني ارتعش لمجرد ذكر الضباع ، ثم
توجهت الى مسكة تسأل :

– ولم تسألين ؟ ..

– ليقوم جامد بتوصيلنا ..

وتدخلت فردوسة :

– ما عليه ، شعبان ينتظرنا في الدكان ..

وأقسمت جدتي ألا يبارحن الدار إلا في الضحى من غد ، وتشبثت
جميلة بمسكة وبطة بفردوسة ، بينما تعلقت أنا بحفيظة .. فقد أصبحنا
صديقين منذ أول لحظة - أرجوها أن تبقى الليل كله معنا ، فأذعن
ورجوتنى أن أخبر شعبان في الدكان ..

وعدت بعد حين لأجدهن يتهيأن للنوم ..
ولا أدري ما الذى حفز شقيقتى الكبرى .. فقد سمعتها تقول بعد
تردد :

— مسكة ! ..

قالت : نعم ..

— وانت يا فردوس وحفيظة ..

قلن : نعم .. ماذا تريدن .. أتريدن أن تسألى عن شعبان ...
اسألى عنه دون حياء ! طوله وعرضه ! هواه وملبسه ! ومراحه .. اسألى
وسوف نجيب بصراحة .. انه زين الرجال يا ست ..

وارتبكت جميلة لكنها قالت :

— ولكن مثل بطة ، طويلات اللسان .. لا نفع فيكن غير المهزأة ..
فاحتجت الصغيرة .. ثم انبرت تقول :

— جميلة خجلى .. تريد أن تقول : يابنات انتن ضيفاتنا بعد اسبوع
من تاريخه .. يوم الاثنين .. من الصباح الى ضحى اليوم التالى ..
— ولماذا ؟ .. لست أنا التى أتزوجك .. بل شعبان .. اعزميه
هو ..

قالتها مسكة ثم أردفت :

— سمعت انك تصنعين أحسن شعيرية فى البلد يا جميلة من دقيق
القمح ، سوف نرى ، أيننا الاشطر .. أنت أم أنا ؟ ..

القمح والدقيق .. يالله .. ومن أين لنا بهذا القمح بعد أن أقسم
أبى .. ولمحت دمعة تسيل من عين « بطة » دارتها بطرحة .. وتوسمت
ربكة فى عين جميلة ، وندما على الدعوة التى وجهتها دون تفكير فى القمح !

ومرت أيام ثلاثة على شهرتنا ، وأبى لا يزال على خصامه معنا ،

لا يعرج على بيتنا ولا يدعونا للعمل فى الغيط ، ولا يوجه كلمة واحدة الى بطة حين يراها ، كان يجتاز بيتنا بسرعة دون أن يلقي نظرة واحدة الى داخل الدهليز ، وبدا وكأنه قد تناسانا جميعا وأسقطنا من حسابه .

وباتت الجدة والشقيقتان يعانين . . فقد تورطن ودعون شقيقات العريس ، وها هي الايام تقترب دون أن يكتمل لهن ما تتطلبه الوليمة . . اللحم يمكن تديره ، فالدواجن تملأ فناء البيت . . ولكن أنى لهن بالسمن ، وفى الصومعة ذرة وفول ، وفى السحارة سكر وشاى ولكن لا بد لهن من دقيق القمح ، يعدون منه خبز ذلك اليوم ناعما رقيقا شفافا أبيض مثل بياض اللبن . والشعرية . . ؟

أيلجأن الى الجيران ؟ . . عيب ! أم يلذن بمتجر حسن حسين يستدن منه ؟ . . عار كبير ! ابنة تاجر تستدين لتولم لضيوفها ؟ . . وحارت جميلة فى أمرها وتشفعت بخالتها . . لكن أبى كرر ايمانه من جديد مما غرس اليأس فى قلب الفتاة فراحت تنتحب وتبكي سوء حظها . .

اتقدم لهن عيش الذرة ؟ دون ذلك قطع الرقاب . . لا بد من قمح . . والغريب أن القمح متوفر فى المتجر ، فى مخزنه الصغير - على بعد شبرين من الدهليز - عبر الحائط الرقيق الذى يفصل بينهما . . وقررت الجدة فى نهاية الامر أن تستدين ولكن من قرية أخرى ، أن تسافر الى عنبية فى البر الغربى ، عند أبيها الذى لم تره منذ سنين طويلة ، وشق الامر على جميلة وأخذت تستعطفها ألا « تسافر ، فلسوف يعرف الخبر مهما حاولنا اخفائه : أولت لشقيقات عريسها من قمح استدائنه ، مع ان القمح فى دكان أبيها على بعد شبرين !! وتمنت لو عاد أحمد عوده من أسوان ، فقد سافر اليها منذ أسبوع لقضية رفعها أمام المحاكم تشغل باله منذ سنين طويلة . .

كانت جدتى تعرف أن مشكلة القمح ستحل بطريقة ما ، باذن الله ، فراحت تستعد للوليمة . . وتنظف البيت فى انتظار الفرج . . كلفتنا أنا وبطة أن ندور بكل الجدران . . ونرم كل الشقوق والجحور فى الدهليز . . ونطلس الجدران من جديد ، ونرتب العنجريات كما يحلو لنا ، ونطارد خيوط العنكبوت ، حتى يبدو البيت بهيجا يوم الوليمة ، فشمعنا عن سواعدنا ، وغرشنا أيدينا فى مونة أعدناها منذ

الليل ، وبدأنا بالحوش منذ الصباح .. وعرجنا على الحاصل والديوانى ،
ثم على الدهليز نوصد الجحور والشقوق .

وفى الدهليز توقفت بطة أمام جحر صغير .. وفى يدها قطعة كبيرة
من الطين ، ومضت تصيخ السمع ، فمن الجحر كان ينبعث صوت خافت
رفيع عرفته هى على الفور ، فألقت بالطين جانبا واقتحمت الجحر بهراوة
صغيرة ، فازدادت الصوصوة ثم هدأت ، ومضت بطة تعربد بالهراوة فى
الجحر حتى وسعته ، فأدخلت يدها .. تدور بها فى جوانبه لامعة العينين،
ثم أخرجتها ممسكة بفأر كبير صرعته الهراوة !

وأخذت أنا ألهو بالفأر بينما مدت هى يدها من جديد فى الجحر ،
وأفقت من لهوى بالفأر على صرخة مكتومة أطلقتها بطة ، وجزعت فربما
يكون ثعبان قد لدغها داخل الجحر ، فانكبت عليها أسأل :

— مالك .. ألدغتك عقربة .. ثعبان ؟! ..

ولكنها لم تجب بل استمرت تحرك يدها داخل الجحر :

— يا مجنونة ماذا تفعلين ؟ ..

— اخرس الآن ..

ثم لمعت عيناها ببسمة وهى تشير الى مقطف كبير فى الركن :

— هذا المقطف .. عجل يالكفى .. عجل !

وأخرجت يدها تحمل حفنة كبيرة من القمح مختلطة بالطين ، فان
جحر الفأر كان يصل ما بين الدهليز ومخزن القمح فى الدكان غير حائط
رقيق ! ..

ومضت تطلق صرخات الفرخ ، وتندفع بيدها فى الجحر ، وتعود بها
محملة بحفنات كبيرة تصيبها فى المقطف الكبير وأنا أراقبها بشغف ،
وأحاول أن أدخل يدى معها وهى تدفعنى بعيدا وتهتف :

— لا تدخل يدك ، ألا ترى القمح ؟ لياكل أبى ايمانه وسوف نقيم

الوليمة ! ..

وبدا انها تنتقم لنفسها من أبيها ومن حجوبة :

— لا تقل لجميلة شيئا ، سأقول لها اننى اشتريت القمح ..

— من أين ؟

— لا شأن لك .. اياك أن تقول شيئاً لأحد ..

وامتلاً المقطف الكبير بسرعة ، فأتت بمقطف آخر ، ومضت تملؤه ..

وبينما هي منكفئة على عملها فتح باب الدهليز فجأة ، ووجدت نفسى أمام أبى ، فتيبس لسانى وجف حلقى ، ولم أستطع حتى أن أحذرهما ، وفى لحظة صغيرة كان أبى يقف على رأسها والغضب يتقد شرراً فى عينيه . كان صامتاً يراقبها فى ذهول ، وهى لاهية عنه ، تعمل يدها فى الجحر بشراهة غريبة ، والتفتت لتأمرنى بشئ ، ووقعت عينها على الرجل يتفرس فيها ، فأطلقت صرخة وهبت واقفة لتعود الى الفناء أو الى الخارج .. لكن الرجل عاجلها وأمسك بها وهو يقول :

— مجنونة .. أتسرقين يا بنت المخبولة ؟

وتأوهت وهى تحاول أن تتخلص منه .. وعجزت فانحنيت على يده ، لا لتقبلها ، بل لتغرس أسنانها ..

فلم يتمالك نفسه ، بل أهوى بيده على صدغها ، فصرخت صرخة أسرع بخطى جميلة من الفناء الداخلى الى الدهليز ..

وبنظرة واحدة أدركت هذه كل شئ ، فقد رأت الجحر وحفقات القمح والمقطفين وأدركت موقف أختها وغضب أبيها فانبهرت تقول فى هدوئها المعهود ..!

— مجنونة ! أتحسبين اننا سنقيم وليمة من السرقة ؟! ..

وهتفت بطة من بين دموعها وهى « تفلقص » لتنفلت من يد أبيها كلمات مضحكة :

— سرقة ! انه مال أبينا وليس مال أبيه .

وعند هذه الكلمات أطلق أبى ضحكة عالية وأفلتها من يده وأقبل على الكبرى التى وقفت جامدة ، وربت على رأسها ثم مضى يهمس :

— مجنونة مثل أمك .. انت الاخرى مجنونة !

فتفرست فى وجهه بنظرات باردة وقالت :

— أنا مجنونة ! أنا يتيمة لا أب لى ، وأمى مريضة ؟

وأجهشت بالبكاء ثم ارتمت على صدر أبيها الذى ضمها اليه ، يربت على ظهرها فى حنان ، وهو يهمس فى صوت خافت :

— أتحسبن يا جميلة أنتى أمتع القمع عنك ! .. أصدقت ! ..؟ انت
غشيمة مثل هذه الشعنونة .. تعالى .. تعالى ..

وأمسك بطرف طرحتها ومسح دموعها .. وقادها من يدها وهو
يأمر :

— وانت يا مجنونة .. هاتى هذين المقطفين .

والتفت ناحيتى وقال :

— وانت يا ولد عليك أن تسد هذا الجحر بالطين .

فانهمكت فى عملى بينما خرجتا معه ..

وما هى الا لحظات حتى عادت بطة ، تهز رأسها فى عجب وتغنى ،
وراحت تقفز وتحجل حتى دلفت الى الفناء ، وهى تنادى على جدتها .

ثم فتح باب الدهليز من جديد ، ووقفت جميلة على عتبة ، تحمل
فوق رأسها مقطفا كبيرا ، ملأته بقمح نظيف لا يختلط به التراب ...
رفى يدها اليمنى عشرات من قصاصات الحرير اليابانى الملون ، اعتزمت
أن تعد منها مناديل وهدايا لشقيقات العريس : مناديل حمراء وصفراء
وخضراء ، وما عليها الا أن تبعث ببطة الى السفينة الشراعية السوداء ،
أو الى دكان الف صنف فى ابريم لتعود بالحرز الرفيع اللامع .. تطرز
به هذه المناديل ، وسوف تساعدنا فى ذلك شريفة وسعدية .. ويقولون
ان يد البيضاء التى وفدت من مصر منذ أسابيح يد صناعة .. ولسوف
تستعين بها ..

وشغلت أنا بالقصاصات الملونة فترة ، ثم ارتفعت بعينى فأحسست
أن الدهليز قد تغير منظره : كل شئ كان فيه بهيجا ، الاطباق الخوصية
والصينية المنكفة على وجوها ... حتى الطين الذى كان لا يزال طريا
على فوهة الجحر بدا شيئا جميلا ، على ضوء الابتسامة العذبة التى رفعت
على شفتى جميلة ، فأضاعت وجهها الاسمر الطيب ، وألقت بظل مشرق
على غمازتيها .. وانعكست كالنغم الحبيب فى صوتها وهى تنادى :

— بطة .. تعالى يا بطة ..

فهرولت هذه مع جدتها من الفناء الداخلى .. وارتمت بين أحضانها ،
تتلقى على جبينها قبلة عرفان بالجميل ..

تعرّت الارض ، ورقدت تستحم في ضوء الشمس ، ومع ذلك
فمئات الاقدام لاتزال تدب عليها من السفوح الى الشاطئ
ومنه الى السفوح من جديد ، والهرج والمرج يبلغان مداهما
في كل مكان ..



فلقد بدأ الموسم الكبير ، موسم البلح ..
وفيه منذ بواكيره الاولى ، تعج القرية بصنوف من الغرباء ، يملئون
الدروب ، وينزلون على المصاطب ، ويملئون عيوننا بمشاهد من البهجة
والفرح ، مشاهد تحفر في الذاكرة فلا تنسى .



انه غزو غريب ، تتلقاه القرية بالترحاب فى كل موسم ، ونهيص له نحن الصغار ، ونهجر الكتاب ونترك كل عمل لنغم أنفسنا فى أحداث هذا الغزو ، نسعى فى ركاب الحلب .. وطبولهم الداوية ، وخيولهم المزدانة الراقصة تدك الارض بحوافرها ، وتملأ الجو بصهيلها المنغم ، وأغانيهم على الربابة ، عند عتبات الدور ، وفتياتهم يخطرن ، خلف الركاب ، قسيمات الوجوه ، تكاد الازداف تثقل بهن عن السير .

ويبدو أن بعض رجال الدين يقررون عند بداية الموسم أن مواعظهم لا يمكن أن تروج الا فيه ، فيتوافدون على النجع يستدير بهم الناس فى دروس الدين والذكر ، ويتبركون بهم ثم يبذلون لهم فى سخاء ..

وكم عانيت من هؤلاء فان أبى اعتاد أن يجبرنى على الجلوس اليهم أستمع الى شئ كثير مما يشقشقون به دون أن أفهم شيئاً مما يقولون .. وما زلت أذكر واحداً من هؤلاء بالاسم : الشيخ الرحمانى ... ما زلت أذكر جيتة الجرباء وقفطاته الشاهى الذى كبت لمعته ، وزر طربوشه المغربى وقامته الطويلة العريضة ووجهه الاملس .

أقبل فى أصيل أحد الايام ، وتربع على سجادة صغيرة فى الساحة الممتدة بين الشونة والمتجر ، فاستدار به الناس ، يلثمون يده ، ويتبركون باطراف ثيابه وهو لاه عنهم بتسبيحاته وإيماءاته الوقورة !

تمهل حتى ازدد عدداً من فناجين القهوة ، وتريث حتى طوى فى إحشائه من الحمام زوجين .. ثم تجشأ ومسح فمه بظهر يده ، وراح يتلو من القرآن آيات يفسرها فى كلمات طنانة وجمل مسجوعة عسيرة الفهم ..

توقف هذا الرجل مرة عند مقطع ، وترك عيون الناس تتعلق بشفتيه برهة من الزمن حتى بان فيها التشوق والتطلع وهز رأسه ثم قال :

— هذا ما يعنيه المفسر .. والله اعلم !

ثم تفرس فى الوجوه الطيبة السمراء وازداف :

— أما الواو هنا فهي واو الحال ..

ولأمر ما سمعت الشيخ طه يردف على الفور فى صوت خافت :

— واو الحال .. والمحتال ؟!

بينما رأيت وجه أبى يتجههم ، وجبينه يتقلص كعادته ، حين يحاول أن يفهم شيئاً .. وبدأ انه سيرقع أصبعه فى وجه الشيخ مثل تلميذ صغير ليسأل ، ولكنه تريت حتى طاف بنظراته فى وجوه الآخرين الى أن استقر بها على الشيخ فضل فوجده هادئاً لا يتغضن جبينه .. وأدرك أن فضلاً قد فهم تماماً حال هذه الواو فتزدد فى القاء سؤاله ثم نكص فى نهاية الامر مؤثراً السلامة ، فان هذه الكلمات الكبيرة غير المفهومة تصدع رءوس الناس ، ولكن هؤلاء ظلوا يرحبون بالشيوخ فى كل موسم ، ويبذلون لهم العطاء ، فلا تنتهى جولاتهم الا بأكياس طويلة من التمر يبيعونها هنا أو هناك .

وقد امتلأ قلبى باجلال هؤلاء الشيوخ فى تلك الايام ، فانهم ، كما أدخل أبى فى روعى ، رجال لا يكذبون ، ولا يرتكبون المعاصى ، قرييون من الله ورسوله ، تتهدج أصواتهم أسفاً على كل انسان ضل سواء السبيل ، بل تسيل الدموع من عيونهم ، عند أقل معصية ترتكب .

ثم بدأت أضيق شيئاً فشيئاً بهم عند أقل هفوة يرتكبونها ، بدأت الصورة الحلوة التى رسمتها لهم فى ذاكرتى تتشرب ..

والشيخ طه هو أول من فتح عينى على الحقائق الصغيرة التى أخذت تهوى على هذه الصورة لتحطمها .

ففى أحد هذه الامسيات ، وأنا أنعم بلذة صب الماء على يد الشيخ طه ، أساعده فى وضوئه وشفتاه تتمتمان .

— بارك الله فىك يا ولدى .. أتبتك الله نباتاً حسناً ..

فى هذه الامسية ، ولسبب لا أذكره أهو الغيرة من الشيوخ الوافدين أم الغيرة على الحق ترك الشيخ طه تتمماته وقال على نحو فجائى أصابنى بالرعب :

— اذا أردت أن تكون من مريدى الازهر فاياك من هؤلاء !! .

وأشار الى الشيخ الرحمانى ثم أردف :

— فليسوا من الدين فى شىء ! ..

ومسح بيده على راسه ثم طاف بأصبعه فى أذنه واستطرد :

— انهم محتالون .. كذابون لا يعرفون الله !

يا لله ! .. كذابون ، محتالون ولا يعرفون الله ؟! ومن الذى يعرفه
اذن ؟! ..

وانزعجت لهذه الكلمات ، ورحت انكرها كلما أدرتها فى ذاكرتى ،
الا اننى بدأت أراقب حركات الرحمانى وسكناته ، الى أن كان الليل بعد
صلاة العشاء ، فنشبت معركة رهيبه بين الشيخين على مسمع من رجال
النجع .

كانوا يلتهمون ، فى هدوء ، شرائح من البطيخ والشمام ، وطاب
للرحمانى أن يسلى مائدة القوم ، فأدلى بحديث نبوى عن البطيخ زعم فيه
ان آكله يدخل الجنة دون حساب!! وانتظر الشيخ فضل الى نهاية الحديث،
وقال وهو يضحك !

— اذن فسوف أدخل عشرين جنة .. بل مائة جنة ! ..

وصاح عبدالله الجزار :

— اللورد كرومر نفسه سيدخل الجنة رغم أنه نصرانى .. فكم أكل
البطيخ بالثلج .. أحسن بطيخ ، يا سلام ..

وتلمظ وفرك فمه بيده بينما ضج الآخرون بالضحك ، وراح الشيخ
يعيد الحديث من جديد ، ليضيف فى نهاية الامر :

— بشرط أن تكون موحدًا مؤمنًا بالرسول يا عبد الله .

فردد الحاضرون فى صوت واحد :

— عليه الصلاة والسلام .

بينما تأسف الجزار ، ومضى يبحث عن كلمات يعتذر بها ، كلمات
لم يجدها فاكتفى بالقاء قطعة أخرى من البطيخ فى فمه ..

وأحس الشيخ طه أن فرصته قد سنحت فأنبرى يتكلم فى وقار ،
وفى كلمات هادئة يسفه الحديث وقائله ، ويتهمه بالذمة الخربة . وأبى
يحاول أن يهدىء ، ويلطف من كلماته . فالرجل على كل حال ضيف على
النجع .

وتشرخت الصورة الحلوة مرة أخرى ثم تلطخت فى اليوم التالى ..

فعند الضحى من هذا اليوم وقفت أمام الرجلين : أبى والشيخ
الرحمانى أصب الشاى فى فنجانيهما ، وقبل أن أنتهى رأيت « برعى »

يجتاز الساحة من الطرف الشمالى للشونة .. ويقترب من مجلسنا حتى
حاذانا وحيانا ، ثم جلس على طرف البرش ، فى أدب وحياء جديرين بمن
كان فى مثل سنه ، وتريث الى أن فرغ الرجلان من شرايهما وابتدر
أبى :

– عم أمين .

– هيه يا ولدى .. خير ! ..

– خير يا عمى ..

وصمت وكأن أبى قد فهم ما يعنيه . واتجه بناظره الى الشونة ثم
أضاف :

– مشوار بسيط الى ابريم ..

ولعب الفأر بعب أبى فتيقظت حواسه وهتف :

– ومالى أنا وما لهذا المشوار يا ابنى يا برعى ؟

وتردد برعى لحظة : ثم قال متلعثما ..

– لو سمحت بالركوبة ..

فأربد وجه أبى بينما استطرد برعى :

– والسرج واللجام والفرو ..

كنت أعرف أن «برعى» ، اتخذ أحسن ثيابه . وتهيأ للرحيل على
الركوبة الى ألف صنف فى ابريم ، ليشتري شيئا لشريفة ، واعتقدت
وهو رابض أمام أبى انه يريد السرج واللجام والركوبة ، فأشفقت عليه .
وخفت أن يرده أبى خائبا .. وتمنيت لو استجاب له أبى ليحقق رغبته
الجارفة لكن الرجل مضى دون تردد واقسم ثلاثا :

– والله والله والله العظيم يا برعى .. الركوبة أخذها نوح ..

وبانت الدهشة على وجه برعى بينما أبى يستطرد فى حديثه قائلا:

– منذ الفجر ولم يعدها بعد !

فقال برعى متلعثما :

– لكن الركوبة ..

وقبل أن يكمل جملته انبعث من الشوثة ، من مكان قريب ، نهيق متصل ، نهيق حمارنا الأبيض الفاره ، وبدا وكأنه يقول :

– أنت تكذب يارجل .. انا هنا لا نوح ولا حاجة !!

فأصاخ أبى السمع اليه وراح يتلعثم :

– ولد .. ولد يا حامد .. لماذا لم تقل لي ..

وانبرى برعى يقول :

– الركوبة هنا من الصبح ..

فقاطعه الرحمانى :

– اخرس يا ولد ، الشيخ أمين أكد لك انها كانت مع نوح ..

وقد رأيت بنفسى « نوح » يركبها فى الفجر ..

وفتحت فمى لأقول شيئاً بيد أنى آثرت الصمت ، وتحطمت تماماً صورة الشيخ فى ذاكرتى ، وبدا حمارنا وبرعى يخرج من الحظيرة .. وكأنه يخرج لسانه لهذا الشيخ ! انت تكذب يا شيخ .. شخصك ركبك .

واكمل النهار ، وعاد الشيخ الى مجلسه فى الأصيل وحيدا بعد أن بارحه أبى الى داخل الدكان تتبعه شريفة تشتترى شيئاً .

كان الرجل مشتبكا معى فى حديث ولكنه انشغل عنى حالما رأى شريفة فأتبعها عينيه يتفحصها من رأسها الى خديها ، الى صدرها فخص المعجب الولهان ، فازدريته : شيخ بجبة وقفطان ولا يتورع ! .. اسفخص ..

ولا أدري كيف انبثق « لورد » يجرى عبر الشيخ ويطأ طرف جيبته ويزوم ! لا أدري الا أننى رأيت الشيخ ينعطف فجأة على الكلب بهراوة غليظة نزلت بساقه فهشمتها فى الحال ..

وارتمى « لورد » على مد الذراع وأخذ يرسل عويلا متصلا نفذ الى قلبى كما ينفذ جرح غائر ، لينعكس فى كراهية شديدة للرجل .. صممت بعدها أن أنتقم منه ..

لورد العزيز يتلوى أمام عيني ! ، صديقى الليف الذى يتمسح بى كل صباح ، ويهز ذيله بالتحية ، ويحزن اذا ما حزنت ولا يأكل الا اذا أكلت .. « لورد » يرقد جريحا ... لا يتحرك الا ليعوى ويصرخ

ويقطب غرته المستديرة البيضاء !! انكبت عليه ، ألف ساقه بخرقه
كانت ملقاة هناك بينما أبى يعاقب الشيخ فيرد عليه هذا في وقار وبالأحاديث
المزعومة كأنه لم يفعل شيئا ..

— الكلاب لن تدخل الجنة يا أمين .. ظلها .. مجرد ظلها ينجس ..
ووددت في تلك اللحظة لو تجمعت كلاب الأرض كلها ، لتلقى ظلها
على هذا الشيخ ، بل ووددت لو طرحته الكلاب أرضا وراحت تبول عليه ،
أو على قصاع الفتة التي يزدريها كل ليلة .. الكلب ابن الكلب ..
وحملت كلبى الى الدهليز ، ثم عدت في غبش المساء أبحث عن
أصدقائي أطفال النجع وأسر بكلمة واحدة في آذانهم ..
وفي الأصيل من اليوم التالي ، والرجل يغادر نجعنا تربصنا به ،
عند مشارف النجع الآخر نمطره بوابل من الحجارة وروث البهائم
حتى تركناه دامي القدمين ، ملطخ الثياب .. يرسل صرخات فزع ،
ووليننا الادبار ضاحكين من عويله !! ..

وعدت الى الشونة أشترك مع أبى وحسن المصرى ، فى تغطية
أرضها بأكوام من الرماد .. تحول بين السوس والبلح ، فئنا سوف
نكوم جرن « البرموده » والى اليمين « القنديلة » .. و « الحجازى »
و « القرقودة » ، والى الشمال سنكوم « السكوتى » الى آخر أنواع البلح
الابريمى التى اشتهرت بها قرانا ، ورحنا نعد غرارات طويلة ، يمر على
ظهرها زيق أحمر عريض ، وننظف المكاييل ، فمن غد ، منذ الصباح
سنحمل كل أدواتنا هذه الى غابات النخيل .. نستوفى ديوننا ..

مئات .. من الرجال والنساء والاطفال يهبطون مع الشمس
الصاعدة الى الشاطئ على موعد مع عشرات الالوف من أشجار النخيل،
ومئات الالوف من السباطات ، وملايين حبات التمر .
فالنجع يبدو وكأنه ليس الا غابة نخل ... نخل من كل لون ،
من كل مذاق ، ولكل نخلة حياة كاملة ، وصفات متوارثة يحفظها عم
نوح .. عن ظهر قلب ..

هذه نخلة سامقة ، حانية على النيل ، قمتها منفوشة اصفرت
نهايات شواشيها ، تهتز مع النسيم ، وتحتضن ثمارها فى حنان ، تتحنى
قليلا ثم تهمس لجارتها :

— أتعرفين يا صغيرة كم بلغت من العمر ؟

- كم يا جدتي ؟ ٠٠ عشرين سنة ؟ ٠٠
- عدى على أصابعك ٠٠ استراح المالك تحتى منذ ٠٠
- ممالك ؟! ٠٠
- نعم ممالك ٠٠ ألا تعرفينهم ؟ هربوا من مذبحه ، ومروا من هنا ، رحل بعضهم وبقي آخرون ، سعدية من بناتهم ٠٠ بيضاء ، جميلة ٠٠ في عينيها بقايا زرقة ٠٠
- وتلفت الشجرة الصغيرة لترمق سعدية ثم ترفع قامتها لتهمس :
- ممالك !! سعدية ٠٠ انت تخرفين يا جدتي ، فتصخب الكبيرة ، وقد جريدها تصفع حفيدتها ، بينما انبرت عجوز تهمس فوق الاتير :
- دعى الصغيرة ، انها لا تدرك شيئاً ٠٠ ولا تعرف ان الدراويش استراحوا فى ظلى ٠٠ وهم يطاردون الكفرة بينادق الصيد والسهام ٠
- صحيح يا بنتى ٠٠ رأيتهم بعينى ونجوت منهم فقد كانوا جائعين ٠ ينزعون من النخلة قلبها ، ويفترسون البلح وهو ما يزال مرا ٠٠ ولا يتركون شيئاً أخضر – تماماً مثل الجراد ؟
- ويلتهمون الجلود التى تمسك بضلوع الساقية ، أيام صعبة ، لا أعادها الله على أحد من المؤمنين ٠٠
- ثم تضحك وكأنها تذكرت شيئاً وتهمس :
- انظرى الى هذا الرجل : الشيخ أمين ٠٠ يمشى وكأنه ملك ، لقد شهدته فى تلك الايام مربوطاً الى جبل – ربطه الانجليز – يشد مراكب ذخيرتهم حين توقف النو ٠٠ أيام حرب الدراويش ٠٠ كان يبكي ويصرخ والسياط تلسع ظهره ٠٠ والآن – دنيا !! ٠٠
- فتطلق العجوز الاخرى ضحكة متشرخة وتردد :
- انظرى الى سساقى ، ألا ترين اللون الأحمر ٠٠ انه دم ٠٠ دم عسكرى انجليزى ، أراد أن يعتدى على فضيلة ٠٠
- فضيلة ؟!
- زوجة الشيخ فضل صاحبى ، بالطبع قبل أن يتزوجها ٠٠
- وتركته يعتدى عليها ؟! ٠٠

— كلا ، فقد عاجله فضل وقطع رأسه بفأس .. ألا تسمعينه دائما
يضحك فى زهو وهو يقول : كلب ومات ولم يسأل عنه أهله .

ثم صمتن فى أسى حين لاح بريق الشرشر فى يد نوح وصحابه ،
فقد أقبلوا يقطعون السباطات ، وليتهم يقطعون السباطات فحسب انهم
لا يرحمون بل يخربشون بمناجلهم فى القلوب بحثا عن الجمار ، فيتوقف
نبض القلب حين ينتزعونه ..

وتضحك الصغيرة مرة أخرى وهى تقول :

— انظرى يا جدتى الى هذا الرجل ، انه سكران ! ..

فتهمهم العجوز وتشقشق لتقول :

— شرب العرقى بالامس ، فمنذ أسابيع أشعلوا النار تحت آنية .
كبسوها بالبلح — يستقطرون الحمر ..

وتردد العجوز الاخرى فى صوت متهدج باك :

— عروا جسدى من الكراديف ، والشتاء آت يبرده ، أشعلوا فيها
النار فى الكوانين تحت أوعية الحمر .. حتى العيال الصغار يشربون
الحمر — العرقى فى الموسم — انظرى الى هذا الطفل ! ..

فتقاطعها الصغيرة :

— دعيهم يمرحون فانهم مازالوا صغارا !

ثم تقطب وتزوى ما بين عراجينها وتقول :

— الادهى من ذلك يا أمى انهم يغازلون البنات مباشرة تحتنا ودون
حياء ! ..

— اسكتى يا ابنتى .. ربنا أمر بالستر .. قلبى يبكى على بدنك ،
تحولت الى جذع يمتد على سقف بيت هناك ..

وأشارت الى بيت الشيخ فضل :

— وعلى قوامها الطاهر حصيرة من جريدى ، وحبال من ليفى أنا ،
لعنة الله على الدنيا ! .. وفوق الجدران أطباق وأبراش من خوصى أنا .
وخصوصك ، وعراجين هذه الجارة المسكينة ... الحياة قاسية لا تستحق
كل هذا العناد ! متى يأتى الطوفان الذى يتحدثون عنه متى !؟

وهب نسيم نشط فتراقصن معه ، وأرسلن أغنية مرحة سكتن بعدها فجأة ، حين تكاثر الرجال والنساء تحتهم ، ولعت الشرشرة في يد نوح ، وهو يتسلق النخلة العجوز ، فرسلت انينا خافتا أعولت له الجارة الصغيرة وهي ترمق أبى يرص زكائبه ويرتب مكاييله ، ونسوة العائلة وهن يتجمعن فى الظل ، ويتطلعن الى هامات الأشجار فى انتظار السباطات التى ستختنق وترتمى على الارض .

وتقع السباطة الاولى : دب .. دب .. والثانية والثالثة .. دب .. دب .. بين تهليل الاطفال ، فتمتد أيدي النسوة يجمعن البلع المتناثر ويكومنه فى جرن كبير ، ثم يستدعين أبى فيجلس القرفصاء ويغمغم بالحمد لله .. ويغرس المكيال فى كومة البلع يسنده بيده اليسرى ، بينما اليمنى تمتد الى المحصول فى شراهة ، وتنتقل فى خفة بحفقات كبيرة منه الى قاع المكيال الكبير ، دفعة بعد أخرى الى أن يمتلىء ويتكوم البلع فوق فوهته ، وتحسب « داريا » انه سينتقل بالمكيال الى فوهة الشوال فتأهب لتقول : الله واحد ماله ثانى ، فاذا بالرجل يضرب يميناه على ضلوع المكيال ضربة قاسية .. ترج البلع فيتقلص ويتراجع الى القاع من جديد ، فتنهد المسكينة وتقول لنفسها :

— المحصول لن يفى بالديون ..

ثم ترفع صوتها وتحتج :

— حرام عليك يا أمين كلثومة .. قطعت فرط البلع ! ..

فيرمىها الرجل بنظرة غاضبة ثم يواصل عمله فتتكب على يده وهي تصرخ :

— بددت بركته يا شيخ .. حرام .. أولادك يا أمين كلثومة ..

فلا يبالي بل يدفع يدها عنه ، ويتمتم فى غيظ : فى كل موسم تأتى هذه الولية تناكف وتتشكك فى ذمتى ، بنت الكلب تتهمنى ... ما عدت احتمل ، وتكاد بطة وشريفة تشتبكان لولا صداقتهما الوطيدة ، فتكتفیان بنظرة عتاب .. بينما ينفذ صبر الرجل فيهب غاضبا :

— خلاص ياداريا يابنت سكينة ، حرمت التعامل معك ، ابحتى عن غيرنا تستدينين منه .

ثم يرفع يده فى وجهها محذرا :

– لكن بعد أن تسددى ديونك على داير ملیم ! ..
فتتعلق شریفة بكمه وتهمس فی تضرع :

– لا عليك یاعم أمين ، من غيرك نتعامل معه ، المرحوم أخوك ،
صاحبك بالروح .

فیتذكر الرجل أباه ، ویصمت هنیئة تشجع فیها داریا وتهتف :

– ولكن المکیال کبیر وأنت تدکه یا أمين بیدک .

– یاولیه .. حرام عليك ، لا تکفریننی ، المکیال علیه خاتم الحكومة ..
ویرفع المکیال أمام عینیها ثم یقذف به الى کومة البلع وهو یهدر ،
فتتعرض طریقته ثم ترفع المکیال من جدید أمام عینیها وتقول :

– صحیح ؟ علیه خاتم لكنه اتسع بسبب الشروح !

ثم تمسک بقطعة حجر ، وتندق علیه من جوانبه لتضم الشروح ،
بینما أبی یصرخ فیها وهو یضرب کفا بکف :

– بخلاص .. خلاص .. هاتی کیالا آخر .. الحق علينا ، ترکنا له
دخل بحماره ..

وتلح المسکينة علیه ، فیعود الى التکییل والدک والتعبئة من
من جدید ، ویظل یدک ویحصى ویسجل فی دفاتره ، ونظل نحن ننقل کل
زکیبة تمتلئ علی ظهور الدواب للشونة الى أن حلت الظهيرة فركنا الى
الهدوء ، وافترشنا المصاطب ثم تحلقنا حول صحاف الأکل : شرائح
من الحمربد ورؤوس بصل نکسرهما علی الرکب ، وحفان من الشطة
نزدردھا بسرعة .. لا نبالی بالالتهاب الذی یکوی أشداقنا ، فقد اعتدنا
نحن الصغار أن نتباری فی التهام الشطة ونحن نردد کلمات تنتهی بالحاء :

قدح : بلع .. قمح .. صبح ..

وما أن انتهینا من تناول طعامنا حتی لاح « باشری » عند الساقية
یتسمت مجلسا مدید القامة ، نحیل الجسد ، جاحظ العینین . أحمرهما ،
یکاد شعر صدره الرمادی ، یخترق قمیصه السکریشه الأبيض ، فی
شفتیه عزم .. صفحة وجهه تلمع ببریق یوحى الیک انه یعیش علی
مدار السنة فی الماء .

دنا منا ثم ألقى بالتحية فی صوت خشن یحمل الى أذنیك صوت

الشمندورة المرتطمة بسلسلتها وهدير الدوامة واصطفاق قلع المراكب .
وتلقاه أحمد عوده بالترحاب ، فضمه الى صدره مرة ثم تباعدا
وشدا الأيدي ، وعادا بهما الى الصدر تحت القميص ، تماما فوق القلب
.. وهما يرددان :

— حيا بك عشرة ..

— حيا بك عشرة يا باشرى

واستدار الناس بباشرى يستعيدون ذكريات المواسم ، ويرددون
النوادر عن رحلاته فى شمال القرى وجنوبها ، فالرجل من « الكنوز »
« المتكية » ، قبائل الشمال ، فيما يلي الشلال الى الجنوب ، والتي تنتسب
الى عرب الشرق وتتكلم لغة أخرى غير لغة الجنوبيين ، أغرق الطوفان الاول
والثانى ، منذ بناء خزان اسوان ثم تعليته لأول مرة فى سنة ١٩١٢ قراهم
فانتقلوا الى قمم الجبال يحاولون ان يعاشروا الطبيعة القاسية ثم أصابهم
اليأس فهاجروا الى المدن الكبرى أو الى الجنوب ، واتخذ بعضهم من سفن
شراعية كبيرة متاجر تنتقل بهم من مرفأ قرية الى ماردة قرية أخرى وترسو
شهرًا أو شهرين على مرافينا فى كل موسم .

والرجل فى كل موسم ، ومنذ عشرات السنين يحل بنجعنا حتى
انعقد بينه وبين رجال النجع ونسائه أواصر ووشائج ود ، يعرفهم بالاسم
ويعرفونه كأنه واحد منهم ويهتمون بشئون زوجته وعياله مثلما يهتم
بشئون زوجاتهم وعيالهم .

تربع الرجل على المصطبة المستديرة بالنخلة العجوز ، وأخذ يدور
بعينه هنا وهناك كأنه يبحث عن شيء أو يخزن فى ذاكرته صورة يخشى
أن يطويها النسيان ، ودار الحديث مليا عن الاسعار وعن أبنائه بحر
وعبدون حتى أقبلت بطة تحيى وتقدم فنجان شاي أعدته تحت جدار
الساقية فتلفت اليها وهو يقول :

— باسم الله ما شاء الله .. هاتى يا عروسة .. يا سلام !

والتفت الى أبى باسم يغمز بعينه ليهتف فى مرح :

— كبرت بطة يا أمين وطاب الأكل للأكل !

فغضت الفتاة حياء وهربت وهى تخفى ابتسامتها خلف طرحتها
بينما أبى يضحك ويقول :

– طاب الأكل يا باشرى والأكال أهتم لا أسنان له ..

فدفعه الرجل فى صدره بلكمة وهو يصرخ :

– هيا نجرب ، زوجها لى يا أمين .

ثم انشغل فجأة عن هذا الحديث وأخذ يحدق فى قامات النخيل السامقة وهو يغمغم : مساكين .. سيطويكم الطوفان مثلما طوانا ، ولا نخلة واحدة هناك ! .. ثم قطع أبى عليه كلامه وهو يسأل :

– وكيف حال الكنوز يا باشرى ، ومشاريع الرى فى بلاد المتكية .

فانتفض الرجل كأنما لسعته عقربة وتنهى ودار بعينه فى النخيل ثم قال :

– كنوز ! .. ما عاد هناك أحد .. الكل هاجروا ..

وتذكر قمم الجبال الشاهقة التى لاذ بها الناس بعد الطوفان الاول والثانى فى « دابود » و « الكلابشة » و « خور رحمة » منذ عشرين عاما .. تلك القمم التى لا ينبت فيها الا الصبار المتجهم . كأنما هو وجه الموت نفسه .. وتذكر الدروب الثعبانية المنحدرة منها ، وتذكر نساء وهن ينحدرن من تلك الدروب الى النيل ، يجلبن الماء ، فيتبدين ديدانا سوداء تزحف ، تذكر كل ذلك وهتف فى يأس :

– أى مشروع رى تتحدث عنه يا أمين ! ولا نخلة واحدة هناك ، مذاق البلح نسيه الناس هناك ، الا ما تشتريه من هنا .. وماذا سنفعل غدا اذا ما ..

وضرب صفحا عن تكملة نذيره .. وقال :

– النبى عليه الصلاة أمر بالتمر ففيه شفاء ..

ثم أخذه سعال حاد جعل عروق رقبته تنفر .. وعينه الحمراءوين تجحطان ، فتريث حتى تمخط وبصق فى اتجاه الحزان ثم أكمل : شفاء سبعين « داقا » – بعد حين لن نجد ولا حبة واحدة من التمر .. مساكين مساكين نحن !

وتلفت الى أحمد عوده ، وهو يقلب عينيه فى حيرة :

– أتعرف يا أحمد لقد مررت « بالديوان » فرأيت رفاصا راسيا هناك ، فانقبض فؤادى ، وأحسست أن دمة تقفز الى عيني .

وتأثر أحمد عوده بكلماته الحزينة وصاح فيه :

— ماذا جرى يا باشرى .. مالك تبكي مثل النساء .. حرام عليك
.. الله موجود .. الرقاقيص كثيرة .. كلها تمر من هنا ..

وهرش باشرى على رقبته وأكمل :

— الا هذا الرقاص يا أحمد .. كان المستر هيس واقفا على حافته
يراقب النخيل والبيوت والجبل بمنظاره المكبر ..

وأصاخ فضل السمع الى كلمات الرجل وقال :

— ومن هو المستر هيس هذا ؟ أهو عزرائيل ؟ .. لماذا تخاف منه؟

وتردد باشرى قبل أن يجيب :

— اننى أخاف عليكم أنتم .. فبعد الرقاص سوف يأتى الطوفان ..

وتلهى عنه فضل فجأة وانتبه الى مشهد استثاره وصاح :

— يا بنت يا شريفة ، أتركى هذه الحلقة .

وسرع صوت الفتاة فى حدة :

— لماذا ؟

— عجائب ! سنشتلها يا بنت الرفضى .. اتركها والا ..

فأجابت الفتاة بجرأة :

— النخلة نخلتنا والحلقة خلقتنا يا عم فضل !!

وقطب الرجل جبينه ، وقذفها بقطعة صغيرة من الطين تفادتها
الفتاة ، ثم عادت تجذب فى الحلقة .. كانت تحاول انتزاع جمارها الحلو
لتمتصه ، وانتبه برعى الى النقار الدائر بين شريفة وخاله ، فأسرع اليها
يهمس فى صوت خافت :

— اتركى هذه .. أنا سأنتزع لك جمارة أخرى ..

ورمقته الفتاة بنظرة متسائلة ثم لوت شفيتها وتركت المكان :

وأطرق باشرى يفكر ... هؤلاء الناس لاهون عن الكارثة المعلقة
فوق رموسهم ، انهم لم يجربوا النار بعد ، لقد جربتها أنا .. جربتها
صغيرا ورأيت الموت يزحف أمواجاً على نجوعنا هناك فى الشمال .. انهم

لا يعرفون ما قاله النائب عبد الصادق عبد الحميد ، ولا ما قاله سليمان عجيب ، لا يعرفون ما عرفناه نحن هناك في أسوان عندما كانت سفيتتى ترسو في مينائها قبل أن تجتاز هاويس الحزان ، يجهلون ان مجلس الشيوخ ناقش تعويضاتهم : قروش قليلة عن كل نخلة ، والارض بتراب القلوس ٠٠ مساكن يساقون الى الذبح كما تساق النعاج ٠٠٠ لم يعد أحد يدافع عنا بعد عبد الصادق وعجيب ، أما النائب الحالى على طه فلا يفعل شيئا غير تملق حكومة صدقى ، لا يدافع عنا بل عن الحكومة :

وهنا تمخط من جديد وبصق ، وأنشأ يتكلم عن أفكاره ، والناس يستمعون الى أشجانه فى ذهول ، بينما نهض أبى من جديد الى العمل يكيل وأنا أمسك له بفوهة الزكية .

كنت أعمل ، وذهنى منصرف بكليته الى باشرى وكلماته عن النواب والانتخابات فسرحت بفكرى الى سنوات مضت ، وعشت من جديد صور جموع كبيرة من الناس تطوف بالنجوع ، تحجل وتهتف : فتى أسمر ممصوص القوام ، يطوح بخيزرانتة ويرفع عقيرته ويهتف :

الطير يقول :

ويسكت لتردد الجموع من خلفه :

– سليمان عجيب ٠٠ سليمان عجيب ٠٠ سليمان عجيب .

– زرزور يقول :

– سليمان عجيب .

– زغلول يقول :

وأخذت أربط بين تلك الهتافات وكلمات باشرى عن النواب والتعويضات فلم أستطع أن أدرك العلاقة فازددت حيرة وأرخيت يدي وأفلتت فوهة الزكية التى كنت أمسك بها فطاشت كيلة البلح التى رفعها أبى ليصبها ٠٠ فدفعنى بعيدا عنه وهو يسب ويلعن :

ولد خيبان ، ينام واقفا على قدميه ، وعاد يدك الكيل ، ويفرس يده فى المحصول المتكوم ٠٠ والنسوة من حوله يصرخن فى احتجاج ويملى هو على أحمد عوده دون أن يبالي بالصرخات .

– اكتب عندك ٠٠ داريا سكيئة ٠٠ ١٣٠ كيلة ٠٠ ٥٠ سكوتى

٠٠ ٧٠ ابرتموده والباقي قرقوده ٠٠!

وينهض الى جرن آخر من البلح لعائلة أخرى ، وتبدأ المناهدة والنقار بينما ينضم الشيخ شليب الى المصطبة ويشترك في الحديث الدائر عن الحكومة ومجلس الشيوخ ويقول متانيا :

— أسمعتم بتليغراف بدر أفندى ..

فسأله فضل بعد أن نفت دخان سيجارته :

— بدر أفندى ؟! .. أى تليغراف ؟!

— تليغراف شكر الى « أبو الفضل الجيزاوى » .

ومضى يشرح معنى هذه البرقية ، فالرجل كان مأمورا في مركز الدر يعرفه جميع النوبيين ثم أحيل الى المعاش وأصبح عضوا في مجلس الشيوخ ، وهناك دافع عنا بكل ما يملك من بلاغة وحب .. هكذا قال بدر أفندى ، فالرجل جدير بالشكر .. هو الوحيد الذى دافع عنا .

وكعادتهم .. كعادة كل القرويين سكنت أهل النجع فى كل شيء فلم يبالوا بكلمات الشيخ شليب بل صمتوا ، ثم عادوا الى أحاديثهم المليئة بالشجن والحزن ، تمتزج بما يدور حولهم من ضجة وجلبة ، النساء وهن يصرخن فى وجه أبى ، وصوت عم نوح وهو يصرخ فى ابنته ... وأصوات مزامير وخشخشة غواش زجاجية ملونة اشتريتها من مركب باشرى ، وصرخات نقار يثيرها الاطفال ، حول الافخاخ والسنانير والطواقى الملونة ، قايضوها عند باشرى بالبلح الذى جمعه ، فى السحر من كل يوم ، قبل بداية الموسم .

وعلى مد البصر ، كانت جماعات من النسوة يتحلقن بمصاطب النخيل ، يتشاجرن ، ومواكب ألوان جميلة من الطواقى والطرح ومناديل الرأس الحمراء والخضراء والصفراء .

وفجأة صمت كل شيء ، وأحس الانسان أنه قد سقط فى هاوية ، فى نفق عميق غائر لا حس فيه ولا صوت ، فقد توقفت « الغوايش » الزجاجية عن همسها ، والتوت الألسنة ، وتوقف دك المكياى ولجاج النسوة واستدارت العيون كلها فى اتجاه واحد .. كل العيون كانت تنظر فى اتجاه النتوء الشرقى ، حتى عم نوح الذى هبط من آخر نخلة ألقى بالشرشرة فى يد ابنته مندوهة ، وأشرأب بعنقه يرمق النتوء بنظراته الكليلة ، فعنده كان « رفاص » أبيض جميل المنظر يلقي مرساه بعد أن أوقف قلاباته ، ومنه كان يقفز الى الشاطئ رجال بملابس غريبة محبوكة

على أجسادهم في ضيق شديد ، وطرايش حمراء وبرانيط تنعكس عليها
اشعاعات شمس الاصيل .

وعلى الشاطئ توقف العدة يلقاهم بترحاب شديد ، وما هي الا
لحظة حتى انعطف بهم الى الطريق العام يقودهم الى داره ، هناك في الطرف
الشمالي من القرية بينما بدا الرجال والنساء والاطفال تحت أشجار
النخيل وحول أكوام البلح عيونا واسعة تحلق في الوجوه البيضاء
والطرايش الحمراء ، والبرانيط .

ومرت لحظات مثقلة بالرعشة واللهفة والخوف .. لحظات دامت حتى
توارى الوافدون الجدد خلف الربوة الفاصلة بين نجعنا ونجع «السواردة»
.. قبالة الصخرة المعلقة على كتف الجبل ..

ثم انكفأ الناس على أعمالهم ، يراقبون الشمس المائلة الى الغروب
يلمع ضوءها الباهت على سطح الشمندورة الحمراء التي طفقت تتحرك
في قلق شديد تحاول الفكاك من أسرارها الأبدى ..

ونفض أبي يده من التراب ، بعد آخر كيلة .. أفرغها في الزكبية
وبدا يجمع أدواته ويتأهب للعودة ، بينما ودع باشرى صحابه ، وانطلق
بخطى واسعة هاربا الى متجره العائم ، ومن خلفه الشيخ فضل يضرب
كفا بكف ويهمس :

— مسكين باشرى ، الرفايفص تخيفه .. مسكين !

وقال أحمد عودة :

— معذور يا فضل ..





٩
 الشرشرة تلمع في يد نوح • والبساطات تتهاوى الى الارض
 في جلبة دائمة، والدواب تتحرك من الشاطئ الى الشونة تنوء
 بحملها ، والأطفال يتواثبون في ضجيج لا ينقطع من النوء
 الى السفينة الشراعية السوداء ، ويحشون أفواههم بالحلوى ..
 وحفلات الفول السوداني والحمص ، وبين النخيل ألحان تنبعث ..
 مختلطة بوشوشة الأجراس الصغيرة المنتظمة حول « الخلاخيل »
 المحدقة بالسيقان ، موسيقى ينتظم ايقاعها مع الخطى الصغيرة الواثية
 والاكف الرخصة المخضبة السارحة في دلال بين الطرحة المسدلة تصلح
 من وضعها وبين الجرجار الطويل تخلصه من التراب والعاقول .

في مثل هذا الجو الساحر ، كنت امسك بفوهة الزكية لابي ،
وهو يدك المكيال دكات تختلط بشهيق النسوة ، وفجأة انبعثت على
الشاطئ صيحات مرسعة وضحكات ألهتنا عن مشاغلنا فأدركنا الرعوس
غراينا حلقة صغيرة من الاطفال تتشكل ، يتوسطها « أشي الله » وهو
يردد في نغم راقص :

— هيه هيه ، كلو هيه

— هيه .. هيه ، كلو هيه ..

وابتسم الرجال والنساء ، وتواثب الاطفال من كل مكان
لينضموا الى الحلقة يرددون نفس النشيد . ويلقون حجارة .
يطوحون بها من فوق رؤوسهم الى رجل كان يسرع الخطى ، على
الشاطئ . رجل غريب الأطوار والمظهر ، مديد القامة ، عريض البدن ،
مستدير الوجه ، لامع السواد ، تنفرج شفتاه الغليظتان عن أسنان
ناصعة البياض ، ينتشر شعره على رأسه مثل حبات الفلفل ويفرز
وينسدل طويلا على صدره وبين فخذه ، عارى البدن تماما كما ولدته
أمه .. طيب الملامح ، يسيل اللعاب من بين شفتيه على نحره ، يختلط
به ، نثار كلمات خافتة .. يرددها عند كل خطوة :

— واحد .. أحد .. لا شريك له .. واحد .. أحد ..

ظل يدنو وصيحات الاطفال تنداح من حوله ، الى أن توسطت
الحلقة كرجل يسعى الى حتفه بظلفه ، ثم توقف يتلفت حوله .. يلمس
وجوههم في حنان وهم لا يباليون به ، بل يدورون حوله يرددون نفس
النشيد ، ويرجمونه حتى سال الدم من عقبه ..

وبينما الصفار يتراقصون ، انعطف أشي الله .. الى الجدول
الكبير ، ومضي يجدل من الشوك اكليلا قفز به الى منكب الرجل وأحاط
به رأسه فانغرز الشوك في فروته ، والرجل يتواثب محاولا الفرار ..

مخلوق غريب تراه فجأة في طرقات النجع ، تراه ثم لا تجده ،
يتبدى لك عبر النيل ، على شاطئ الجزيرة ، ولا يمر وقت طويل
حتى تراه يدب على الشاطئ الآخر ! يظهر ولا تعرف لماذا ، ويرحل
دون أن تدري سببا لرحيله .. كان يعرف الناس جميعا ، ويحفظ
أخبارهم ، ويتنبأ لهم بما سوف يحدث في غد قريب .. يستقبله
الرجال بالترحاب ، ويحاولون أن يغطوا عورته فلا يبالي بما يفعلون ،
ثم يتبدى مرة أخرى كما ولدته أمه ، الى أن كفوا عن محاولاتهم ،

وترمقه الفتيات فيفضضن البصر عما بين فخديه ، ويتبركن به ،
فبركته تحل بأى مكان يضمه ولو للحظة واحدة ! لقد بات فى خلد
النساء جميعا والرجال أيضا أن « كلو » ، ولّى من أولياء الله ، انكشف
الحجاب عنه يوم طرق باب الرحم ، وخرج الى الوجود ، ألم يدخل
منذ شهور بيت أحمد عوده - قبل عودته - وطاف بحجراته وفنائه
والزوجة تتبعه الى أن توقف عند سحارة ينفض عنها الغبار ، وعند
طبق من الخوص يتلمسه ، وعند كرباج طويل يلقي به الى سطح
الجيران ؟ ألم يتوقف عند صورة لأحمد عوده يتأملها ليتركها الى الفناء
.. يبارك الدواجن والحملان الصغيرة ، وينفلت منه ليعود عبر باب
الدھليز وهو يشير بيديه الى السماء ؟ ثم ألم تتسلم الزوجة فى نفس
الأمسية برقية عاجلة بعودة زوجها ؟! ومتى خاب « كلو » ؟ ولماذا
يخيب ؟ .. أليس من أولياء الله ؟!

هكذا عاش « كلو » ينتقل من قريته الى كل الدروب والشجوع
يستدير به الصغار ويشاكسونه .. ويفرزون الشوك فى أديمه ، فيتأوه
ويبتسم فى نفس الوقت ، ولا يمد يده ليؤذيهم ... فالعيال أحباب
الله ، أحباب « كلو » ، ثم يقبل الكبار عثرته ويترفقون به وينتظرون
الوحي من بين شفثيه ، ويتوقعون معرفة أحداث الغد منه ، فلربما
دارت هذه الخواطر فى أذهان فضل وأحمد عوده وأبى الذى توقف عن
العمل حالا سمع صيحات الاطفال الذين راصلوا غرز الشوك فى جسده ،
ثم قام فضل اليهم يلسع ظهورهم بخيزرانتة ، فتفرقوا وأصواتهم
ماتزال تملأ الجو بنشيدهم وتسبيحاتهم ..

أمسك به فضل من معصمه وقاده بين نظرات النساء وهن
يتصنعن الحياء من بدنه العارى ، وأجلسه على واحدة من مصاطب
النخيل ، تربع عليها ومضى يغمغم ويتلفت حوله ليتفرس فى العيون
الوالهة التى تراقب حركاته وسكناته ، ثم كف عن تقليب عينيه ،
وتحسس شعر رأسه وتأمل فناجين الشاي مليا ، ثم مد يده واختطف
فنجان داريا سكيئة وتفل ثلاثا فيه وأعاده وهو يأمرها أن ترتشف
جرعة بعد أخرى .

فتهللت أسارير داريا ، وقربت الفنجان من فم ابنتها ، فزام
كلو وعبس فى وجه شريفة يأمرها ألا تشرب ، فذهلت داريا وترددت
لحظة وأبعدت الفنجان عن شفثيها ثم عادت فشربته حتى الثمالة
حريصة على كل قطرة من الشاي تحلبها وتمتصها ..

وانتهزت جدتي الفرصة وراحت تشدني من كمي وهي تغمغم :

— تعال لكي تقبل يد « كلو » ..

ولاحظت ترددي فأضافت :

— ستحل بركته فيك ، وتسافر الى خالك في مصر .. الى

الازهر ..

ولا أدري لماذا انبعثت صورة الرحمانى في تلك اللحظة ، ولماذا تراقصت أمام عيني كلمات الشيخ طه ، اياك من هؤلاء .. لا تقبل الا يد أبيك والشيخ الذى تعلمت القراءة والكتابة على يديه .. اياك ..

فتوقفت عن متابعة خطوات جدتي وهي ما تزال تشدني وظلت المسكينة تناضل وأنا أقاوم دون أن أدري سببا للعناد الذى ركبني .. حتى هب الرجل واقفا وقفز فوق أعناق الرجال .. وأسرع الخطى والناس مدهولون حتى حاذى الجدول الكبير ثم الساقية وتوارى عن أبصارنا خلف بنائها الكالح المتشقق ، وهنا أطلقت الجدة آهة متحسرة ثم تركتني لتداعب شريفة التى بدت تعيسة منذ أن أبى عليها الرجل أن توتشف جرعة واحدة من فنجان أمها فلربما دل ذلك على أن شرا ما سوف ينزل بها ، بيد أن هممة النيل ووشوشة النخيل وأزير الفلوكة .. وخشخشة الغوايش الزجاجية الملونة « الاضانى » ومزامير الأطفال وبريق الحرز الرفيع فوق ذؤابات المناديل على رؤوس لداثها وصيحات حسن المصرى : عا .. عا .. يستحث بها الدواب ، ربما ردها عن خواطرها الحزينة .. فاستسلمت لدعابات جدتي ، وعادت تعمل وتغرز يدها فى أكوام البلح تساعد أمها ..

وفجأة تمايلت الأم وانحنى تمسك ببطنها وتتأوه وفى عينيها ألم ، وعلى جبينها تقلصات .. وفزعت الصغيرة حين أرسلت أمها قيثا أصفر ، فأحاطت أمها بذراعيها ، وساقتها الى مكان تستريح فيه وهي تنادى على بطة :

— ينسون يا بطة .. اسرعى يا بنت ..

فأسرعت هذه الى مركب باشرى لتعود بسرعة

ولامر لا أدريه تمايلت كل امرأة برأسها نحو داريا ، يرمقنها

بخناجر النظرات المليئة بالشك والريبة ، لقد فهمن ما لم يفهمه الرجال : تيوس لا يدركون شيئاً ، وهمست فضيلة ومن خلفها سبيلة زوجة المأذون : ملعونة .. نجسة .. ثم اتجهن بنظراتهن المتوهجة الى حسن المصرى الذى استند على كتف حمارنا ، ووقف يبرم شاربيه سارحا ببصره فى كل شيء .

وحارت الصغيرة فى أمر أمها ، فمنذ مدة يفشاها هذا القىء تعالجه بالكرأوية والينسون والحلبة المغلية دون جدوى ، حارت وقررت أمرا لكنها تريثت الى أن استعادت داريا أنفاسها فأنهضتها تستند على منكبها وانعطفت بها الى الطريق الزراعية وهى تهتف ببطة : امتعتنا .. خذى بالك منها ، ثم عادت بأمها الى دارهما هنالك عند السفح بينما النسوة يحدجن حسن المصرى بنظرات مسمومة ..

وفى نفس اللحظة كان « لورد » يعوى ويحاول أن يجرى فيرك بساقه المكسورة ، وعجبت من أمره بيد اتنى أدركت كل شيء حين رأيته يتعقب كلبة عبد الله الجزار التى توقفت غير بعيد رافعة ذيلها موجهة اليه نظرات بلهاء .

وحز فى نفسى أن الكلبة تغرى « لورد » فيلهث للحاق بها ، حتى إذا مادنا وكاد ينالها هربت منه ! فظل المسكين يحاول مرة بعد أخرى ، والكلبة بنت الكلب تعبث به مرة بعد أخرى الى أن تهالك وأستكان ، وخيل لى حينذاك أن فى غرته البيضاء بقعة سوداء .. وأن فى عينيه دمعة تكاد تسيل وهما ترمقان ساقه الجريحة فى أسى ، فرحت أطارد الكلبة وأقذفها بالطوب حتى ارتطمت عيناي بمشهد آخر شغلنى عنها ، مشهد جماعة متنافرة الثياب تتسلل من بين نخيل السواردة ، وتتجه الى النواء ، ثم تعرج علينا فى خطى ثابتة ... توقفت لحظة أراقبهم ثم أدت ظهري وعدت لافضى بالخبر الى المتجمعين هناك حول أكوام البلح ، فوجدتهم يشربون بأعناقهم الى الوافدين الجدد ، ويرمقون ملابسهم بانفعالات غاضبة حائرة تبدت على وجوههم ..

ومن فوق الرؤوس كان النسيم يعبث بهامات النخيل فبدت وكأنها تتقارب وترسل همسا خافتا متوجسا ، ومن تحت أقدامهم انتفض النيل فى حركة ضجيت لها ضلوع الشاطئ !

وفى حدقات العيون - خلال الاشجار - حلقت أسراب من الغربان تتجه الى الشرق ، وعصافير ترتعش أجنحتها ترسل زقزقة خافتة

يطويها نعيق الغربان الملقاة ظلالتها على الأرض وهي تولى الأدبار ، بينما استعاد لورد أنفاسه وتفرس في الوجوه البيضاء والطرابيش الحمراء والقبعات ، ثم أطلق عواء طويلا متصلا راح يرك بعده ليطارد فراشة صغيرة بين أحراش اللوبيا .. مطاردة يشس منها ، فتوقف في بلاهة يهز ذيله لشريفة التي عادت على الطريق ..

وجدت الصغيرة وجوه الفتيات والرجال والنساء مربدة ، تنظر في اتجاه واحد ، اتجهت إليه بعينيها ، فرأت رجالا غرباء ، يدبون على الشاطئ ، وفي صحبتهم العمدة والمأذون ومشايخ الحصص ، وقد ارتدوا أحسن ملابسهم ، ومن خلفهم شيخ الخفر على رأس عدد من رجاله في أزياء الخفر المعتادة ..

وعجبت شريفة من الملابس الغريبة التي تبدى فيها الغرباء فوفقت تراقب رجلين كانا يتقدمان الموكب كله ، أولهما ممتقع الوجه ، على رأسه شيء كالطبق الصيني ، وفي يده عصا ذات مقبض مثل رأس الثعبان ، يطوح بها وهو يتلفت هنا وهناك ، والثاني قمحي على رأسه طربوش أحمر ، ومن خلفهما شاب بملابس رثة وشعر منكوش يحمل علبة ملطخة باللون الأحمر تتدلى منها قرشاة صغيرة ، ظل يتفرس في كراديف النخل ومسيقان أشجار السنط ..

دنا الرجلان من موقف شريفة يتبعهما الآخرون .. يطئون أحراش اللوبيا بنعالهم الغليظة دون تحرج ، وودت هي لو صرخت فيهم لكنها أحجمت .. ثم تنحت لهم عن الطريق وأسرعت الخطى لتنضم الى بطة وغيرها ممن توقفن غير بعيد من رجال النجع ..

وتحفز الشيخ فضل ، ونفض أبي يده مرة بعد أخرى من التراب بينما علق أحمد عوده قلمه الكوبيا على أذنه اليمنى ، واختلس النظر الى ملابس المعفرة نادما على أنه لم يعمل حسابه لمثل هذا اللقاء .. فهاهم العمدة ، ورجال القرية قد اختاروا من السحارات أحسن ملابسهم ..

ولا أدري قيم كان يفكر الشيخ فضل ، فقد انحنى على الأرض ، وانشب فيها أنامله ، وعاد بها محملة بحفنة من التراب أخذ يتشممها ليتركها بعد حين تتسرب من بين أصابعه الى الأرض من جديد !!

وقبل أن ينفذ يده كان الرجل ذو القبة يتوقف بالقرب منه ، على مبعدة قليلة من أبي وخالي ، يلقي بالتحية في لكمة كادت تطلق

ضحكة من فم برعى الذى كان مختفيا وراء ظهر أبى ، ومن خلفه النساء والأطفال .

لقد أزاح الرجل قبعته وقال بصوت له رنين الذهب :

— السلام على أنتم .

وتلثم الرجال فأطبقوا شفاههم ، لا يدرون ماذا يقولون :
أيقولون له : عليكم السلام ياسعادة الباشا أم سعادة البيه أم ياخواجه؟!
ولاحظ الرجل ارتباكهم فقال وهو يتسم :

— مسكاجرو ..

فما أجاب أحد بل صمتوا وكأنهم أصيبوا بالبكم ، فران على وجه
العمدة خجل ، وتقدم ينتهرهم :

— انه يقول : السلام عليكم .. مسكاجرو فلماذا لا تردون ؟!

وفى نفس اللحظة عاد الرجل يكرر تحيته ويمد يده ففتح الله على
فضل واحمد عوده فصاحا على الفور :

— عليكم السلام ياسعادة .. يا فخامة ..

وضحك الرجل ضحكة عريضة أطبق بعدها على أيديهم يصافحهم
واحدا بعد آخر ، لا يبالي بالتراب العالق بأكفهم .

ثم استدار الى الخلف ليصرخ فى زميله :

— بركات أفندى .. بركات أفندى .

فتقدم الرجل يشد على الأيدي ، وعلى شفتيه ابتسامة عريضة
تشع من عينيه بطيبة وثقة بادية ، ثم أخلى مكانه لرئيسه الذى مضى
يتلفت حوله ، وهو يهتف فى مرح :

— الله ها الله فنتى كويس .. بلخ بتاع سنه دى .

وبدا أن الرجل يريد أن يتبسط مع القرويين ويذيب الخوف
المرتسم على وجوههم بينما هم مرتبكون لا يدرون ماذا يفعلون ، فقد
أخذوا على حين غرة ، وفى القبط حيث لا مكان يستريح فيه الضيوف .
كانوا يظنون أن الرجل وصحابه سيمضون فى طريقهم دون أن يشرفوهم
بالتحية ، وها هو الرجل يريد أن يكمل حديثه ، ثم جاء الفرج على يد
عبده الفرنساوى الذى أقبل لاهثا ، وتسلسل بين الرجال بسرعة فحاذى

العمدة ، وأسر في أذنه بكلمات أوماً الرجل بعدها الى الخواجة فاقترب منه يحيى برطانة غريبة فاستدار اليه والفرحة تتراقص على أرنبة انفه ، ثم أطبق على يد الفرنساوى يهزها ، والبرطانة نفسها تنطلق من فمه يرد عليها عبده الفرنساوى دون خوف ، دون أن يرمش له طرف ، ومن حولهما رجال النجع يتغامزون ويعجبون بصاحبهم الفرنساوى الذى لا يهاب الانجليز ، ويلوى لسانه برطانتهم ، لسوف يتندرون بالحادث طول عمرهم . انفرجت التكشيرات والتقطبة التى انعقدت على وجوههم منذ لحظات فراحوا يضحكون فى صوت خافت ، ويراقبون الغريب وهو يعبث فى جيوبه ويخرج غليونه ويطبق عليه بين شففيه ويشعله وينفث دخانه دون أن يتوقف عن الكلام ، بينما اشتبك العمدة فى حديث طويل مع بركات أفندى اخذ الاخير خلاله يشير الى اشجار النخيل والى الارض تحت أقدام الرجال ، والى الجزيرة والساقية ، والى البيوت هناك عند سفوح الجبل ..

وعند رأس الطريق كانت جماعات من رجال النجع ونسائه قد تجمعوا حائرين يراقبون الغرباء بعيون متوجسة ، ثم اطمأنوا قليلا حين تناهت الى اسماعهم ضحكات عبده الفرنساوى وشيخ الغفر ، فراحوا يتناقشون حتى تعالت أصواتهم حين تساءل أحدهم :

— ومن الرجل ؟

فقال نوح فى ثقة غريبة :

— ألا تعلم ؟ وأنى لك أن تعلم يا ثور الله فى برسيمه ؟ !

وغضب الآخر وقطب جبينه وصاح فى وجه نوح يتحداه :

— وهل تعرفه أنت يا جحش ؟

— كيف لا ؟ .. أننى أعرفه .. أليس هو مدير أسوان ؟

وتمعن حموى فى الوجه الممتقع وصاح فى ثقة :

— كلا كما لا يفقه شيئا !!

فأربد وجه نوح وهو يصرخ :

— ما شاء الله يا حموى .. وهل تعرفه أنت ؟ أقول لك انه مدير

المديرية .

فأسكتته حموى بإشارة من يده وقال فى زهو :

— بل هو مدير خزان أسوان !

وضحك عبد الله الجزار من عبط الجميع وقال :

— وهل للخزان مدير يا « أفق » ! فراح حموى يزوم :
آخر الزمن .. أنا أفق .. أنت الهبيل يا عبد الله وليس غيرك . اياك
أن تسبني مرة أخرى والا ...

وكاد الاثنان يتشابكان بعد أن ارتفع صوتاهما فجأة ومن حولهما
رجال ألتجع يهدئون من روعهما وهم يرددون :

— عيب يارجاله . ماذا يقول العمدة عنكم .. ماذا يقول الغرباء
.. عجر .. حلب .. صعايدة !!

وأحتج حسن المصرى بفمغمة صغيرة استدار بعدها يبتعد عن
الرجال الذين واصلوا صراخهم وأخذوا يتدافعون .

وأوماً العمدة الى الخفر والجنود فراحوا يدفعون القرويين
ويشهبون الهراوات في وجوههم ، فيزومون في غضب دون أن يتراجعوا
الا خطوة أو خطوتين .

ولاحظ الرجل الغريب ذو القبعة ما هم فيه فابتسم ثم صاح :

— جناب العمدة .. خلوا ييجوا هنا !

فتركهم شيخ الخفر بعد أن أمر حموى بالابتعاد عن المجلس فان
ثيابه كانت متهرثة تكاد لا تستر عورته ، فانزوى خلف نخلة يتطلع الى
المشهد من مكانه بينما الآخرون يقتربون من الغريب ، والعمدة يتجههم في
وجوههم .

وأشعل الرجل غليونه من جديد ، وربت على كتف الفرنساوى
ورطن معه مليا قال بعده الفرنساوى :

— المستر هيس باشا مدير مصلحة المساحة والرى يريد أن
يكلمكم .

وسادت الهمهمة لحظة انبرى الرجل بعدها يحدثهم في هدوء ،
وعيناه تلمعان وتتفرسان في الوجوه السمرء الطيبة تقرأن ما يرسم
عليها من انطباعات ، ظل الرجل يتكلم ويتلفت من حين لآخر الى العمدة
والى عبده الفرنساوى ويلقى اليهما بكلمة ثم يعود الى حديثه .

واستمع الناس الى كلماته باحساس متبلد كأن شيئا مما قاله لا يعنيه ، فقد أفاض الرجل بلكنته المضحكة عن الملك فؤاد المعظم وصدقى باشا ، ومحمد شفيق باشا وكيل وزارة الأشغال ، وحبهم المفرط للنوبيين ، والرحمة التى تفيض من قلوبهم ، وأنهى اليهم أن بركات أفندى وصحابه من الأفندية ضيوف فى القرية ، سيمكثون عند العمدة ، ويسجلون الأطيان والنخيل حتى تستقر الحكومة على تقديراتها الأخيرة للتعويضات !

وانطلق الرجل يضحك مرتين أو ثلاثا أثناء حديثه وبالذات عندما كان يتملق شعور الناس ، وعندما ذكر أنه صديق حميم للنائب على بيك أبو زيد ، وفى نفس الوقت لسفرجى باشا الملك ، وعندما أكد أنه يحب البلح مثلما يحب التفاح ، وعندما تريت ليلتقط حبتين من التمر ، نفخ فيهما ثم ازدردهما فى بساطة أذهلت الناس من حوله ، فمضى الشيخ فضل يفمغم ويتهامس مع أبى ، وخالى يحاول أن يسكته .

كان واضحا أن الرجل يتقرب اليهم ، ويفضى اليهم بدخيلة نفسه دون أن ينفذ الى قلوبهم اذ يبدو أن كل واحد كان يفكر فى الكارثة وفى الطوفان ، فهاهو بركات أفندى الذى تحدثوا عنه طويلا على المصاطب يقف خلف الخواجة ومن حوله رجال يتأبطون دفاتر طويلة ذات جلدات سمكة . ويبدو أن وجه المستر هيس قد ذكر أبى بوجوه أخرى أيام السلطة حين كان يعمل فى الكونتنتال . . نفس الوجه أعاد الى ذاكرة الشيخ فضل سحنة رجل آخر تشبه وجه هذا الرجل . سحنة فصلها فى يوم من الأيام عن جسدها بفأس ، هنا تحت هذه الشجرة التى يجلس المستر هيس على مصطبتها . ومن يدرى فربما كان هذا المستر هيس قريبا لذلك الآخر !

وانتهى الرجل من حديثه . وهب واقفا وعاد أدراجه الى النوء الشرقى ، الى الرفاص الذى كان لا يزال راسيا هناك ، وقفز اليه وهو يلوح لبركات أفندى والعمدة ويهتف فيهم :

— سازور معبد « أبو سمبل » وأعود . .

ثم بعد صمت :

— انتهوا من عملكم فى أسرع وقت . .

وظل الرجال صامتين يراقبون الرفاص وهو يقلع ثم يتوسط النيل ويجتازهم ، فانقلبوا يتهامسون ثم يصخبون ويضحون بالضحك

وهم يلومون أنفسهم . لقد دارت عشرات الأسئلة في خواطرهم : متى يكون الطوفان والى أى مكان يذهبون ، وهل سيمنحون أرضا غير الارض وبيوتا غير البيوت ، وشتلات نخل ؟ أم سيتركونهم للضياع ، وكم سيكون التعويض عن كل نخلة وفدان وبيت ؟ ..

كانوا يريدون أن يعرفوا من الرجل كل شيء ولكنهم صمتوا .. صمتوا جميعا كما يصمت البكم ! وتوهم بعضهم أن الفرنسيائى حينما رطن معه تكلم بالنيابة عنهم ، ثم شعروا بالحسرة فان الرجلين قد تكلما ضويلا عن لندن وشوارعها وهايدبارك وغوردون : أمور لا يدركون عنها شيئا ، وما بهم حاجة الى ادراكها .

اتهموا بعضهم ، ثم تناسوا كل شيء الى حين ، وعادوا يدكون المكيال ويفرسون أيديهم فى البلح المكوم ، بينما انطلق برعى يقلد الرجل ، والاطفال والفتيات الصغيرات من حوله يضحكون .. كان قد عرى دومة صغيرة من لحائها وثقبها ثم دفع فيها قطعة من البوص مضى يمتص نهايته وعلى رأسه طبق من الخوص ، كبسه الى أذنيه ومنديل أحمر عقده حول رقبته وترك نهاياته تتدلى الى كرشه . وطاب له أن يلوى لسانه مثل عبده الفرنسيائى فألقى نظرة جانبية على شريفة فوجدها مهتمة به وبحركاته ، فداخله سرور انقلب بعده ينادى وهو يشير بأصبعه :

— خامد .. نو خامد .. خامد .. ييس !

واراد أن يواصل رطانته بين ضحكات الجميع فصاح وهو يضرب على فخذه بكفه : خامد .. فاشيه ترانتاريه يا خامد ..

ورنت الضحكات داوية من جديد على نفس الشاطئ . رنت ومازال الرفاص يلعب على صفحة النيل ويستدير عند الطرف الجنوبي من الجزيرة الخضراء .





بخطى ثابتة متناقلة الى النتوء الشرقى على الشاطئ وفوق
رأسها عمرة كبيرة على جانبها زخارف ، وفي يدها مقطف
صغير . وعلى رأس الطريق ، قبيل انعطافها الى النتوء ،
وجدت نفسها وجها لوجه أمام فضيلة فألقت عليها بتحية الصباح فردت
فضيلة عليها بابتسامة مأكرة وسألتها :

— الله .. هذه البلدة أحسن من غيرها .. الى أين يا داريا ؟

فضحكت هذه ضحكة جافة مقتضبة وقالت :

— منذ زمن وأنا لم أزر خالتي في « عافيه » في البر الغربى ..
المركب هناك .

فسكتت الاخرى لحظة قالت بعدها :

— مع السلامة . لا تغيبى . سلمى لى على خالتك .

— سبعة ايام وأعود .. خلى بالك من شريفة .

— فى الصون يا داريا .

واستدارت أم شريفة ومضت الى النتوء بينما عادت فضيلة تحدجها
بنظراتها وتفكر فى أمر داريا : لماذا تسافر الى خالتها العجوز بعد ذلك
القاء ! الموسم شغال فى أوجه ، وما زالت لها نخيل لم تقطع بعد !
عجائب ! ولكن مالى أنا بالناس .. ربنا وحده علام الغيوب .

ومرت ايام سبعة عادت بعدها داريا غائرة الخدين ، منهوكة
القوى رغم الهدوء الذى شمل أعصابها ، وتلاقت فى طريق العودة من

الشاطيء بواحدة وثانية وثالثة من نساء النجع مضت تبادلهن التحية ،
وعلى شفيتها ابتسامة واهنة ، فأخذت تحدجها بنظرة مسمومة لتعقب
من وراء ظهرها :

— نجسة .. ماذا فعلت في عافية .. خالتها ! هيه .. خالتها !

فترد أخرى : دائما تعيين في الناس يا فضيلة !

— يوه .. أنت دائما هكذا : مثل اللقمة اليابسة في الزور !

— والله انت عبيطة .. رأيتها تقىء .. وحسن المصرى بشواربه !

وظللن يتحدثن عن داريا بينما هي تنعطف عند الطريق العام الى
دارها وفي رأسها دوامة : التعسفات يتقولن على أنا ، والله اننى أشرف
منهن جميعا ، آه لو كان جمال هنا ! ثم تفكر قليلا وتتهدد لتهمس
لنفسها : كلا .. خير له ولى أن يكون بعيدا عنى فى مثل هذه الايام ،
فحسن المصرى ليس الا رجلا شرسا ، قتال قتلى ، لقد سر اليها بذلك
فى ساعة صفاء ..

ولاقتها شريفة بفرحة ، وقادتها من يدها الى المصطبة الداخلية
وهى تسأل :

— كيف تركت خالتك ، جدتى ؟

— بخير يابنتى ، تدعو لك الليل والنهار بالعريس ..

— كبه ! وانت اما تزال بطنك

— لا شيء .. أرينى ماذا فعلت فى البيت .. غبت عليك .. آه
يا بنتى ..

— استريحى على صدرى ... مابك يا أمى ؟ ..

— لا شيء غير جمال .. لو كان هنا ..

ثم بعد دمتين سالت على الخد أمسكت بذقن ابنتها وهمست :

— اذبحى دجاجة واسلقها لى ، أما زال عندنا ينسون ؟! ..

واضطجعت فى مكانها بينما انهمكت الفتاة فى اعداد شوربة دجاج
وحلبة مقلية تجرعتها المرأة وهى تتحدث دائما عن جمال وعن الفائزة
البيضاء التى تصيده فى مصر ، ثم قامت وطاقت بصوامع البلح وذرت

عليه رمادا من الكانون وعادت تستسلم لنوم عميق بينما ظلت الفتاة حائرة في أمر أمها ، والقيء الذي يصيبها ولماذا أصرت على الرحيل الى عافية دون سبب ، رجتها حينذاك أن تأخذها معها لترعاها في الطريق اذا ما فاجأها القيء ولكنها أصرت أن تذهب وحدها ، وها هي تعود شاحبة الوجه غائرة الخدين متشققة الشفاه مثل الارض البور .

واصابها الملل فتنهدت وأسندت رأسها الصغير ونامت ساعات الظهيرة تحلم بجمال وعودته فلربما تستعيد الام صحتها وشبابها حين يعود .. ولم يكتمل الحلم فقد أفاقا معا - هي والام - على صوت حاد يملأ النجع كله وينداح الى سمعيهما من خلف مئذنة الجامع - عبر الخرابة الملاصقة .

وروعت الفتاة وشبت على قدميها الا أن داريا ابتسمت وهمست:

- لا تخافي . امرأة جاءها المخاض !

ثم أصاحت السمع وقالت :

- الطلق والصوت لامرأة لم تلد من قبل . آه .. انها حجوبة زوجة الشيخ أمين .. فهذا هو شهرها التاسع .

وهذات شريفة ولكنها ظلت قلقة تسأل نفسها : أهكذا تتألم كل أم .. أهكذا تألمت داريا يوم جمال وفي يومى انا ؟ ثم : هل أتألم انا مثل حجوبة في يوم من الأيام .

وأصابتها رعشة وقشعريرة عند هذه الخاطرة فطردتها بهزة من رأسها ثم رفعت عينيها الى أمها فوجدتها تحديق فيها مليا ثم تقول :

- عجلي يا شريفة الى بيت حجوبة وسوف ألحق بك هناك ..

فهبّت الفتاة من مجلسها صامتا واسدلت الطرحة على رأسها واتجهت نحو الباب واستدارت لتقول :

- استريحى انت فانك متعبة ..

- لا يا ابنتى ! فالعتاب ثقيل على النفس . سأغتسل ثم ألحق بك .. أما انت فأسرعى فقد يحتاجونك هناك .

وبعد لحظة دقت شريفة بقبضتها على باب بيتنا الصغير ودلفت منه لتشاهد منظرا مفعجا .. حجوبة جاحظة العينين ، منتفشة الشعر ،

لامعة الوجه بخطوط من العرق ، تطلق صرخات متوالية وتستند الى جدار ثم تنكفئ وتحبو على الأرض ، لترقد وتكبش في التراب وتحثوه على رأسها وتركل وترفس بقدميها في اتجاه معاكس لاهتزازات بطنها !

وبين يديها الست آسيا ، المولدة وشقيقتها هي وبطة وجميلة وبقية نساء العائلة يتمنين من الله أن ينتعما بالسلامة .

استندت شريفة على كف الباب تغالب احساسا بالغثيان ، فظلت تردد : وونور .. وونور .. يارب .. ورات من بين سحابة الدموع بطة وجميلة وشقيقتي حجوبة يتحركن ويطلقن بخورا في فناء البيت ، ويتنقلن بسرعة بين المطبخ والفناء وفي أيديهن صحاف تتصاعد منها البخار ، والست آسيا المولدة تنهرهن بينما حجوبة تطلق صرخاتها وتتكئ على الجدران ثم تنفرج ساقاها وتحتهما طشت كبير ، وتترك مكانها وتنكفئ على الأرض وتحبو من جديد . مسكينة .. يا الله .. انها تتألم وتخور مثلما تخور بقرة ، ولا تدري شريفة كيف تغلبت على الغثيان والشعور بالاغماء ، فقد وجدت نفسها تتحرك مع بطة هنا وهناك ، وتنفخ في الكانون ، وتطيع أوامر الست المولدة ، وترمق حجوبة في اشفاق ثم تألف النظر اليها وتشارك في حديث الاخريات ..

قالت امرأة في التسعين :

— مسكينة . أمها ولدتها بعد ثلاثة أيام من الطلق !

فوجدت نفسها تقول دون وعي :

— لا يا شيخه . ستلد اليوم باذن الله .

— ان شاء الله بحياة النبي محمد عليه الصلاة والسلام .

ورقدت حجوبة علي الأرض ، وقد أطبقت شففتيها تصر على أسنانها ثم هدأت وبدت كأنها لا تعاني شيئا وقالت في صوت مختنق :

— لعنة الله عليه !

وإردفت بعد آهة طويلة :

— هو السبب في كل هذا .. يستريح هو .. وأموت انا !

وتلفتت حولها وأشارت الى النسوة واستطردت :

– الرجال قلوبهم من الصخر لا تعرف الرحمة .. انهم السبب .
وعادت تطلق آهاتها الحزينة بينما انبرت آسيا المولدة تقول وهي
تطرق بلسانها :

– كفاك معرا . أنت سمحت له بملء الجراب ثم تشتمينه !
ثم اعملت يدها في بطن الزوجة وهي تقول :
– اعدلى نفسك .. دعيني أقوم بشغلى .
ثم من بين شفيتها المزمومتين :
– ساعة حظ في الليل ثم تندمين .. ألا تذكرين ساعة الحظ ؟!
وانبرت سبيلة زوجة المأذون تهاجم :
– كلهم بلا رحمة .. مثل الثيران ..
وضحكت فضيلة وقالت :
– تماما مثل التيوس !

وقهقهت زوجة حموى ثم همست لنفسها :
– أما زوجى انا فمثل الديك ينقر بسرعة ويمضى لحال سبيله .
لا يترك اثرا .. كم اتشوق لجنين أحمله في بطنى !!
ومضين يهاجمن الرجال فى جلبة غطت على اتين حجوبة ، فأشارت
اليهن المولدة تأمرهن بالسكوت وقالت فى سخرية :
– اسكتى أنت وهى . كلكن تشتمن الرجال ومن يدري ماذا
كانوا يفعلون بكن ليلة البارحة .. ومن يدري ماذا سيتم الليلة ..
أوف .

وانبرت سبيلة تقول وهى تشمر كمها الواسع :
– وأنت ؟
فاستدارت آسيا المولدة فى حدة وصاحت :
– اخرسى يابنت .. قطع لسانك .. قلة حيا ..
وأدارت الحديث مرة أخرى الى الرجال ويدها تتحرك فى بطن
الزوجة :

– والرجال أيضا لا يصدقون .. قلت لهم عشرات المرات أن
القيء علامة الحمل الا اذا كان عندها برد في البطن ، أو أكلت شيئا
مسموما .. اخص على الرجال .. داهيتهم داهية لا تنتهى !!

وتنبهت شريفة الى الكلمات الأخيرة ومضت تفكر : القيء والحلبة
المغلية والينسون ؟ الا اذا كان عندها برد في البطن ، أو أكلت شيئا
مسموما ! عجيبة .. لماذا قيء أمي ؟ .. وأرسلت نظرة الى الباب
فوجدت أمها تدخل وتحى وتجلس بين النسوة ذابلة العينين ، ثم عادت
الى دوامتها : مستحيل .. أبى مات منذ سنوات ..

كلا .. كلا .. أمي عندها برد في البطن وسألف شالى الاحمر على
بطنها اليوم حتى لا يغشاها القيء من جديد .
وأفاقت على صرخة حادة أطلقتها حجوبة لتجد المولدة تنتزع قطعة
من القماش الابيض من يدها هي ..

وعلى المصطبة الخارجية جلس أبى ، متقلص الجبين ، تتشنج
أصابعه على سبخته الطويلة ، ومن حوله رجال النجع ، يهدئون من
روعه . بينما صرخات حجوبة تنطلق وتنغذ الى قلوبهم مثل جراح غائرة
فيهب من مجلسه ويكاد يقتحم الباب ثم يتردد ويعود الى مجلسه
يهذى ويخطر ف !

– يارب .. انها تموت .. دعونى اقوم فأجهز الكفن !
فينتهره فضل فيهدأ ثم تنطلق الآهة الطويلة الممدودة ، فيعود
الى حديثه عن الموت ، ويزيح عمته الى الخلف ويمر بمنديل محلاوى
كبير على صلخته وهو يهتف غاضبا :
– كفى يا مسكينة .. نامى .. لا تمزقينى بصراخك ..
ستموتين !

وتغرورق عيناه بالدموع ، فيدعوه الرجال الى ذكر الله والتذرع
بالصبر ويرددون حكايات طويلة عن أمهات تعذب ثم قمن بالسلامة ،
ولم يكفوا عن أحاديثهم الا حين ارتفع صوت المؤذن بالمغرب ، فلم ينهضوا
من مجالسهم ، بل ظلوا يرتشفون فناجين شاي أقبلت بها بطة عليهم .
وفجأة هدأ الصراخ ، وعمت فى الفناء الداخلى جلبة وصخب قام
ابى بعدهما ومضى يتسلل الى الباب ، وهو يكاد يسقط اعياء ، يحسب
أن الموت قد أراح زوجته من العناء .

وقفز فضل اليه يسنده ويدعوه الى ذكر الله ، ثم رنت من الغناء
زغرودة طويلة مطبوطة ، اقتربت الخطا بعدها من الباب ، ثم فتح هذا
الباب وأطلت منه بسمة عريضة تلمع في ظلمة المساء ، بسمة تكشف
عن أسنان متآكلة في فم المولدة والعرق لا يزال يتصبب على جبينها .

وتنحى لها فضل فاندفعت الى أبي تدفعه في صدره وهي تهمس :

— جدع يا أمين .. جدع . مبروك !!

ونظر اليها الرجل في ذهول وقال بصوت يعزقه البكاء :

— الله يبارك فيك .. أهى بخير ؟

— ولا الثور ..

وصمت الرجل ، فمدت يدها تهزه كأنما توقظه من نوم عميق :

— الا تسمع ؟ أقول لك مبروك .. ولد .. يا .. أمين !

فراح الرجل يردد : ولد ! بالله .. ولد ! .. أحقا ما تقولين ؟

ثم مد يده وأمسك بمعصمها وقادها وهي تتعثر الى المتجر ودس
في يدها ورقة خضراء ، وقمع سكر ، وشكرها وودعها وهو يقول :

— تعالى يوم السبوع .. وفي الطهور .

— باذن الله .

وانجهت الى الباب فاصطدمت بها بطة تقول في كلمات متعجلة :

— تعالى يا خالتي .. نسينا الذرة !!

وعادت الى الغناء ، وصبتا كيلة كاملة من الذرة في عمرة كبيرة من
الخصص الملون ، ثم شدتا المولود ووضعته على الذرة تعمدانه وأمه
تراقبه من خلف جفونها المسدلة .

ثم مدت بطة يدها الى المكحلة وعبثت فيها قليلا ثم قربت المولود
من جبين المولود ورسمت عليه في عناية شديدة صليبا مضت تتأمله ثم
أعادت المولود الى أمه !

وفي غمرة الفرح تناست حجوبة وبطة خصامهما ، وبدتا صديقتين
تجمعان على حب الانسان الجديد ، تتلقفانه وتعنيان به .

وجاء يوم السبوع وتنادى الناس في النجع الى بيتنا ، وارسلوا
اغانيهم على تقرات الدف ، وشربوا ثم اكلوا ووقفوا صفيين يرتلون المولد
وبردة الميرغنى حتى كلت أقدامهم فاتكأوا على العنجرييات ، وعادوا الى
احاديثهم عن الطرابيش وبركات أفندى والمستر هيس باشا ، يرددون
نوادره مع عبده الفرنساوى .

وعند الاصيل نهض رجل من رجال العائلة وتسلق نخلة أفضت
به الى سطح البيت ، فتخير مكانا مرتقعا منه ، ورفع يديه الى اذنيه
وكأنه يؤذن للصلاة ثم نادى في النجع ثلاثا باسم أخى الصغير منغما
يتردد في النجع ثم يرتد من الصخرة المعلقة في كتف الجبل وينداح بين
اشجار النخيل :

— محمود امين !

الموسم يزدهر ، ويبلغ أوجه من الصخب والضجيج ..
وتحت كل نخلة كومة من البلح ، وكومة أخرى من النساء
والأطفال ، والنقار بينهم يبلغ أشده ..



— النخلة غرسها حمزىلى جدى وانت تلهفين في كل موسم

نصيبى ..

— نصيبك ! جدى هو الذى رواها والارض أرضه ..

— أنا حفيدته ومن صلبه ..

— من صلبه ! من صلبه ! ولكنك لست الابنة جارية .. ابنة

مراسيلة ! ..

وتقوم المرأة الاولى وتنشب أظافرها في عنق الاخرى :

— أنا ابنة جارية يا شر .. يا بنت الكلب !!

— أنا بنت كلب .. أنا ! وهذه الأبعدية .. أبعدية أبي !

وأشارت الى قيراطين منطرحين خلف الجدول الكبير بعد أن خلصت نفسها من برائث الأخرى . ثم وقفت فى مكان غير بعيد تردح وتحكى عن أمجاد أسرتها ووزجها بينما الأخرى منكسة الرأس تنتظر دورها ، والأخريات يحاولن تهدئتهما عبثا ، ويتوقف حموى عن التكيل ، وينتزع عصا من الجريد الأخضر ، يهوى به على النسوة ، فيتفرقن وهن يعولن بينما يأخذ فى بعثرة كومة البلح وشفتاه تصبان سيلاً من الشتائم والسباب ثم يتوقف على كومة أخرى من البلح يحدجهن بنظرات غاضبة وبكلمات تصيب كل واحدة فى شرفها ومقامها :

— نسوان ! .. نسوان !

ويصمت قليلا وهو يجر على أسنانه ثم يضيف :

— كيلة بلح واحدة .. لا عقل : ماشية .. غنم .. كلاب ..

ويثريث ريشما يزدرد بلحة استطابها ويقول :

— عام أول نالك أنت ..

وأشار الى عجوز يبرق الحناء على شعرها ..

— نالك قدح .. قدح واحد .

فاقتحمت حديثه بحدّة :

— بل قدحان ..

فيتميز غيظا ويصرخ فى وجهها :

— اخرسى يا ضلالية . وانت نالك ربع كيلة ، والأخرى نصف !

ثم تعيرين غيرك : بنت جارية ! وكيت وكيت .. والأبعدية .. هاها ..

أبعدية يا ستى ! وكأنما أنتن قريبات الحواجه .. اسفخص عليكين ..

بنات الكلب ! .. هيه ..

ثم نزل من كومة البلح وطفق يجمع البلح الذى كان قد بعثره فتغامزن ثم تحركن ببطء اليه وأعملن أناملهن بعناية فى جمع كل ثمرة خشية أن تتبدد ، وهو يرمقهن بنظرات غاضبة فى أول الأمر ثم بنظرات باسمة يسترحن لها فيعدن الى تقارهن الأول لكن فى أصوات خافتة ..

ومن فوق رؤوسهن ، وعلى نخلة ملاصقة كان فخذنا نوح يتدليان ،
ويداه تتحركان بالشرشرة بينما العصافير تطير أمام بريقها وتهرب الى
اشجار السنط القريبة ، ثم توقف نوح لحظة عن قطع السباطات
وتشذيب القحوف ومد أصبعها الى فمه يمتصه بين شفثيه ليبصق دما ،
فقد انغرزت « سلاية » حادة فى جلده ، وأراد أن يستريح قليلا فسكن
لحظة وأخذ يصيح السمع الى النساء والثرثرة الدائرة من تحته . حول
كومة البلح ، وكاد يصيح بهن فى صوت غاضب :

— وأين نصيبي ؟ !

ولكنه تريت حتى خلص جلبابه من الشوك ثم مضى ينتقل بقدميه
فى خفة من كردوف الى آخر حتى قفز بينهما ، بساقين عاريتين يسيلان
دما من خدوش انتشرت عليهما وجلباب أزرق شمره الى أن بلغ به
الركبتين ، وشده الى خاصرته بحبل غليظ من الليف الحشن ، يحز
فى جلد بطنه ، ومن فتحة الجلباب — عند الرقبة — بانت ضلوع صدره
وتجاعيد عنقه النخيلة التى تحمل رأسا صغيرا أشيب ، وفما واسعة
خلا من بعض أسنانه ومنخرين أفطسين ، وعينين صغيرتين تلمعان
فى وجه أسمر وتشهدان بالطيبة وان اتقدتا بالغضب فى تلك اللحظة :
غضب اختمر منذ الليل ، حين طفق يفكر فى هؤلاء النسوة والممل الذى
أصابه من طول لجأجه معهن فى كل موسم ، ييكرن الى بيته ، ويترقن
على الباب ، وتفتح لهن مندوحة الصغيرة — ابنته الوحيدة — ويبددن
حلاوة النوم من عينيه حين يصرخن من فتحة الباب وكأنه أصم : نوح
.. يانوح .. اليوم قطع نخل أصيلة عثمان فى النجع القبلى فينهض
ويتبلغ بكسرة جافة وكوب شاي ثم ييكر الى هذا النجع ويظل ينتظرهن
ساعات طويلة حتى يتكرمن بعد طول تمهل بالمثل تحت النخلة ، ويظل
يعمل ويكدح ويشقى كأنه عبد ثم يلقي فى طرف جلبابه بحفنتين من
البلح تتناقضان فى كل موسم ! ثم يرمقنه بنظرات حاسدة تقول : حفتان
كاملتان يانوح !

ومضى نوح يبرطم يائسا من لجاجتهن

— بنات الكلب ! أيجسبن أن النخلة تلقح نفسها ؟ لولاي لما أثمرت ،
أيجسبن أن السباطة تلقى نفسها بين أيديهن ؟! عجايب ! وتعال قسم
لنا يا نوح .. انت عجوز وحضرت القسمة وأنا لا أزال طفلة ، ألا تذكر
كم حفنة كانت أمى تأخذ ؟ انك تذكر فأنت عجوز ! كنت فى سن ابنتك
مندوحة ، عروسة ، وانت كبير تتسلق النخلة مثل العفاريت ، تعال

يانوح ، أليست هذه النخلة من غرس جدى ؟ كلا .. بل رواها عثمان
ولكن الارض أرضه ! بنات الايه .. لقد أصابنى الملل .. ليتنى أكف
عن تسلق النخيل .. ولكنى أعشق النخيل ، وانغراز السلالات فى
سمانة ساقى لا يهم !

انه ينتظر هذا المشهد منذ البارحة وقد حدث ما توقعه ، اذ
استعدرن به يتكلمن فى نفس واحد ، لا يبالين بحموى وتهديداته فصرخ
نوح فيهن ؟

— لا اذكر شيئاً .. أريد نصيبى الآن .

ويظل نوح يردد :

— نصيبى أريده الآن !!

فتنبرى له ذات الشعر المصبوغ بالحناء :

— وهل أنكرنا نصيبك ؟ ستأخذه بزيادة حبتين .

— ياسلام .. يافرحتى بالحبتين ! أريد اليوم كيلة كاملة ..

— كيلة ! وماذا فعلت حتى تأخذ كيلة كاملة !

— عشر نخلات ثم لا آخذ كيلة . أتستخسرين كيلة على نوح ..

طيب يابنت الأمائل .. طيب ..

ورمى بالشرشرة جانباً وأخذ يلوح بيده يهددهن :

— طيب ... ابحنى عمن يقطع لك بقية النخيل ؟

صحيح ! من الذى يمكنه أن يحل محله ؟ هناك غيره ولكنهم لا يقربون
نخلة اعتاد نوح أن يتسلقها ، كلهم تعلموا على يده .. كلا .. تعال
يانوح ، لا تغضب .. ولكن الكيلة شيء كبير ! تعال ياعجوز . خذ نصف
كيلة ..

ويقبل فى نهاية الامر ويقسم بينهما ثم ينطرح على المصطبة ويخلو
لذكرياته : دنيا .. مات أصحاب النخلة وهامم الورثة يتقاتلون على
حفا من التمر ، والخواجه ذو الوجه الاحمر جاء ليسجل كل نخلة !
وضحك ضحكة جافة أعقبها سعال حاد هز جسده النحيل فارتطمت
قدماء بحافة المصطبة فاتكأ على كوعه ، وعاد الى ذكرياته ..

عشرون سنة مضت وهو يتسلق كل نخلة فى هذا النجع ، زوجته

المسكينة ماتت تاركة له مندوكة : صغيرة لا تعي شيئاً ، الا أنها كبرت
وأصبحت راعيته والساهرة على راحتيه . أترأه يعيش حتى يزفها الى
زوج ؟ أم أن الأجل قصير ؟ رحمتك يارب . لا أريد شيئاً من الدنيا ،
أرحني منها بعد أن تتزوج مندوكة فاتها يتيمة لا أعمام ولا أخوال ..
وحيدة في الدنيا ! ومضى يهز رأسه ويمد أصبعه بسرعة الى أذنه يحجب
عنها ضجيج المزامير ، وصخب الأطفال ، ثم يعجب من أمر الصغار .
انهم يسألونه في كل يوم ! كيف تعرف عمر النخلة يانوح ؟ .. هذا سر
حفظته عن أبي .. ولماذا تريدون أن تعرفوا ؟ حتى الرجال الكبار
لا يصدقون حين أقول لهم : هذه النخلة لن تثمر بعد عامين ! خير لكم
أن تستفيدوا من جذعها وسعفها ؟ فيهزؤون بعوسهم مكذبين ! وأرفع
عيني مرة وأصعد النخلة وأصرخ قيههم : هذه النخلة عمرها مائة سنة
فلا يصدقون ! عجائب ! ..

لقد تحول نوح على مدار السنين الى رجل خير بأشجار النخيل
يحبها ويعشقها ، ويتكلم عن خصائصها ، وينام الليل والنهار في
ظلالها ، ويطارد الثعابين التي تأوى اليها ، وينوش العصافير والغربان
والبوم عن شواشيها وعراجينها ، ويحدد عمر كل نخلة بتصعيد
نظراته على ساقها . ولكم ألححت عليه أن يفضي الى بصره فأبى وألح
في إباطه .. سرقت له مرة باكو دخان من الدكان لأغريه فردنى بلطف
بعد أن أخذ الباكو ووضعه في جيبه ..

وانتهى النصارى بين النسوة ، وعاد نوح الى تسلق شجرة بعد
أخرى ، يهوى بالشرشرة على اعناق السباطات ، ومن حوله صخب
وضجيج ومهرجان من الألوان ، وأقدام فتية تروح وتجيء بين التتوء
الشرقي وسفينة باشرى ومساومات مع رجال من قبائل « البشارية »
بييعون الدخان الأخضر المهرب من حدود السودان : عراة الأجسام الا من
مئزر يستر عوراتهم ، وشملة بيضاء واسعة تنسدل من أكتافهم ، حاسري
الرأس الا من شعر مثل حبات الفلفل ، ترك حتى طال فتشابك ، ثم دهن
بالزيت والشحم وغرس فيه سواك ، ينيخون بجمالهم ، وعيونهم تتلفت
هنا وهناك في يقظة ، خشية أن يرسو رفاص ينزل منه رجال المركز
فيسوقونهم الى السجن بتهمة تهريب الدخان والبانجو من السودان ..

أناخ واحد من هؤلاء جملة عند جدار الساقية .. فأقبل عليه
رجال النجع ، ومن بينهم أبي الذي اعتاد أن يبيع هذا الدخان في
متجره .

ومضى الرجل بقامته الفارحة وشعره المنعقد فوق رأسه وكتفيه
العاريتين ، وقدميه اللتين دسهما في صندل متشقق - مضى يرمق رجال
النجع في كبرياء وأنفة وكأنه اله لا يقبل فصلا . شنوا يازول ! .. هذا
الدخان من أرض الجبل . أحسن دخان في السودان ، لصق بلاد
الاحباش ! .. سافرت به عشرين يوما بلياليها بين الجبال ، عشر كيلات
بلح سكوتي بكيلة من هذا الدخان .. ماذا تقولون : بشير باع لكم
بخمسة ، حمار والله أو غشاش ، أنا لا أغشكم مثله ، بشير يستغفلكم
ويخلط الدخان بورق السكران .. شنو ؟ .. ما أبيع اليوم يازول ..
بعد أيام أبيعه بعشرين كيلة هنا أو في النجع الآخر !! ..

واذعن أبى ورجال النجع واكتالوا الدخان وهم يعطسون ، ثم
ركب الرجل جملة .. عا .. عا .. وانطلق به بين أشجار النخيل وهو
يقنى « واحد وأربعين بنت اللبيب عبد الله . ما حامت فريق ، ما جالست
بالحلة .. نهذك برتكان .. حاجبك هلال هلا .. شوفتك تسند اللي
ادوه الشهادة وولى .. ما حامت فريق ، ما جالست بالحلة ، والجمل يخب
به حتى توارى عن الأنظار ..

وحينذاك أسرع الرجال لاختفاء الدخان الذى اشتروه بعبد أن
اوكلوا الينا مراقبة الطريق وصفحة النيل ، وبينما نحن نحدق بأبصارنا
الى الشمال انطلق على الشاطئ عواء ممطوط ، لوينا له رقابنا ، فاذا
ببرعى قد تناسى نفسه ، وارتقى ربوة عالية ، ورفع عقيرته يطلق عواءه
.. ومن خلفه اش الله يردد نفس العواء .

ومن خلال العواء تسرب الى آذاننا نغم جميل كنا نتوقعه منذ أيام
.. دم .. دم .. ترائقتا .. طبول يتداح صوتها في الوادى وينفذ الى
قلوبنا .





استيقظت النجوع على دقات الطبول ، تتناهى الى أسماعنا
بين النخيل ، فتهتز أجسادنا الصغيرة معها ، ونجتز ذكريات
موسم العام الماضى ، بقلوب متشوقة وعيون تلمع فيها رغبة
فى الجرى ، لولا مشاغل صغيرة تشدنا الى أكوام الرجال والنساء تحت
أشجار النخيل ، نفس المشاغل التى الهت الكتاب عنا فى هذه الأيام .

١٢

وضربت باشرى كفا بكف وأخذ يجمع حاجياته ويضمها فى صناديق
ليبارح النجع ، فقد انتهى موسمه ، وبدأ طواف الحلب فى القرية ،
وهو يعلم أن الصغار لا يقربون مركبه عندما يلوح هؤلاء فى القرية من
طرفها الشمالى .

وتوقف برعى عن تفريط عناقيد البلح مع خاله ، وجنح الى مرتفع
انطرح عليه مرتفقا كوعه يرسل أغنية خافتة تردد فيها اسم شريفة مرة
أو مرتين ، وسرعان ما انضم اليه بكر ثم جلق واش الله وراحوا يشترثون
من حوله وهو لاه عنهم لا يشاركهم الا بكلمة مقتضبة بين الحين والآخر .

— فرقة الشيخ حمدان هى التى دخلت النجع الشمالى ..

ولأمر لا أدريه ارتفع صوت صالح جلق محتدا ..

— لا يا بكر .. قلت لك انها فرقة الشيخ مسعود .. ضع أذنك
على الأرض واسمع : أليس كذلك يا برعى ؟! ..

فأشاح برعى بوجهه ولم يقل كلمة واحدة وانتهر أش الله الفرصة:
وانبرى يقول : لا حمدان ولا مسعود ..

وسكت وكأنما قال الكلمة الفاصلة ، ثم رأى فى عيون الآخرين
حيرة وتساؤلا : أغير أش الله رأيه ؟ .. ألم يعد من أنصار فرقة الشيخ
مسعود !! انهم يذكرون كم تنازعوا على الفرق وتمنوا أن يأتى اليوم
الذى تتجمع فيه كل هذه الفرق لتسابق خيولها وحميرها فتفوز
واحدة من الفرق ويفوز أنصارها من كل نجع ..

كان أش الله من حزب الشيخ مسعود ... لكنه بالأمس فقط
خلا برعى الذى طفق يحدثه عن فرقة الشيخ « أبو رحاب » فى حماس
شديد ، الفرقة التى فيها « فكيهة » ضاربة الرمل والودع ، والشيخ
الشاذلى كاتب الحجابات .. لقد غير برعى رأيه ونقل عواطفه الى هذه
الفرقة التى كان منذ عام يحقر من شأنها .. لماذا ؟ هذا ما لم يفهمه
أش الله ولا أحد .. الا أنه فكر بالليل واستقر هو الآخر ، وصب
عواطفه فى نفس هذه الفرقة .. لكنهم على كل حال سوف يتابعون كل فرقة
ويتمتعون بمباهجها ..

— ماذا تقول يا أش الله : لا حمدان ولا مسعود !! ..

— نعم يابكر .. لا حمدان ولا مسعود .. أبو رحاب ..

— لماذا ؟ ..

وهنا فقط ارتفع برعى برأسه واعتدل فى جلسته ، فالتفتوا اليه
فى انتباه شديد فقال :

— لماذا ! ؟ لأن « أبو رحاب » أحسن ..

فسكتوا جميعا وأصاخوا السمع مرة أخرى فاذا بدقات الطبول
ترتفع دقة بعد أخرى حتى أصبحت واضحة فصاح برعى :

— هم فى نجع « السواردة » ..

فتقاذف أش الله وبكر وصالح وأخذوا يصرخون :

— الحلب ! الحلب فى السواردة ..

وكنت منذ الضحى منهما مع أبى أمسك له فوهة الزكيبة ، ريثما
يدك المكيال ويفرغ البلح فيها ، ويهتف مع كل كيلة : الله واحد ماله

ثاني ثم اربعة ، سبعة ، عشرة ، ويتوقف ليرد على احتجاجات النسوة ، كنت بأثسا أراقب برعى وشلته في شغف ، واستمع إلى كلماتهم .. واكاد أترك الزكية وأعدو إليهم ، وقد بان نفاد صبرى في قدمي اللتين بدتا وكأنهما تتحركان وتركضان ، وفي التواء رقبتي ، وفي السهوم الذي تجلى في عيني ، وقد لاحظ أبي ذلك فأخذ ينتهرني ويأمرني بالانتباه لعملي .. قاطعته مرة بعد أخرى حتى كانت الصرخة الأخيرة .. الحلب في السوارده .. فلم أتمالك نفسي حينذاك وتركزت الزكية فجأة ، منتهزا فرصة انهماك أبي في لجأجه مع النسوة ، وانتقلت في هرولة الى شلة برعى التي كانت تتقاذز وتصرخ وتنادي: هيا بنا يا حامد .. هيا .. فأخذنا نعدو على الطريق الزراعية ، نسابق بعضنا حتى انعطفنا عند الطرف الشمالي من نجع السوارده على الشاطئ ، وترثنا قليلا نصيخ السمع ثم عاودنا الركض الى أن لاحت البيارق في عيوننا ، وتبدى الموكب في الساحة الممتدة أمام دكان حسن شاهين ، وهناك كان مصطفى ابن التاجر يركب حصانا من خيول الحلب يرقص به ، فملأنا الغيظ عند مرءاه ، وبدا واضحا لنا أن الحلب قد باتوا ليلتهم في هذه الساحة مكرومين وأصبحوا ليعاودوا طوافهم بالتجوع ..

توقفنا نراقب مصطفى يتشبث بعرف الحصان في خوف ، ويدور به بين صفوف من الناس ظلوا يرمقونه في اعجاب ، فقد أصبح مصطفى هذا منذ شهور حديث الناس في القرية بعد أن قرر أبوه أن يهجر الكتاب وأن يلحقه بالمدرسة الابتدائية في الدر - عبر المنحنى الشمالي ، فلم يعد يتخذ من الجلباب الأزرق زيا ، بل استبدل به جلبابا من البوبلين المقلم بياقة تنسدل على كتفيه ، وأطال شعره الناعم حتى كاد يغطي مؤخرة رأسه ..

وتعالت أصوات الطبول فجاء فتوقف الحصان وترجل مصطفى عنه وأسلم لجامه لرجل طويل القامة يكبس رأسه في لبدة صفراء ، ظل ممسكا به حتى ظهر الشيخ على عتبة المتجر عريض المنكبين ، مستدير الوجه ، على رأسه عمة خضراء لفها بإحكام حول طربوش مغربي واسع . حليق الذقن والشارب ، تنسدل على جسمه جبة رمادية فوق قفطان من الشاهي كبت لمعته ، وما أن وقعت عينا برعى عليه حتى صاح في مرح :

— الحمد لله .. الشيخ « أبو رحاب »

ومضى يلکز اش الله بكوعه ويقول لبكر :

— الم تقل لك .. لا حمدان ولا مسعود !

فأطرق بكر ثم قال :

— سوف يأتيان بعده .. أسبوع ثم ..

لكن برعى لم يعره انتباها بل شدنى من ساعدى ، وبدانا ننتقل
فى الساحة وتلقى نظرة على الموكب كله .

كان الشيخ قد ترك عتبة المتجر ، وامتنطى صهوة جواده الذى
ازدانت غرته بقطع فضية وأخرى بلون الذهب ، حولها أجراس صغيرة
تصلصل كلما أدار الشيخ رقبته باللجام أو كلما هز الجواد رأسه ،
منتشيا بدقات حافريه الأماميين على الأرض ..

وعلى شعره البنى الداكن الذى ينعكس عليه ضوء الشمس فيبرق
تناثرت قطرات من العرق تلمع كلما رفع رأسه ولاك لجامه بين شذقيه
ليرسل حممة وصهيلا ينسجمان مع دقات الطبول ، وعلى السرج من
مقدمته سارية متوسطة فى نهايتها يرق أخضر مطرز بكلمات مذهبة
متشابكة مثل الطرة وفى اطار المثلث زيق أحمر تتدلى منه شوارب
صفراء ، تتناسب مع لون الكلمات المتماوجة على البيرق كلما تماوج مع
النسيم ليلقى ظلالة المراقبة على وجه الشيخ وجبته .

ومن حول الحصان وعلى بعد خطوتين منه رجلان قصيرا القامة ،
عريضا البدن ، بجلبابين باهتى اللون ، من الزفير المقلم ، ولبدة صفراء
عليها عمامة بيضاء ضئيلة الحجم ، بذؤابات صغيرة مبرومة . وعلى عنق
كل منهما سير غليظ من قماش خشن يحز فيهما ، يتدلى على الصدر
ويشد على البطن جانبا بها الى الجانب الأيسر طيلة كبيرة ينقر عليها
بمطرقتين تنتهيان برأس مستدير من الجلد الأسمر يمسكهما فى خفة
وبراعة بيديه اليسرى واليمنى ويميل رأسه الى الجانب الأيسر . ومن
خلفهما رجل آخر مرصوص القوام بنفس الزى ، يحمل دفا ينقر عليه ،
وآخر يزامله وفى فمه ناي يصفر فيه منتفخ الأوداج ، جاحظ العينين
لامعهما ، ثم بقية الموكب : الشيخ الرقاعى : طويل القامة معروق الرقبة ،
أسمر الوجه ، بعينين حادتين مثل عيني الصقر ، وجبهة عالية تطل
عليها عمة خضراء باهتة اللون ، يهز رأسه ، وهو يزوم شفتيه ويضمهما ،

ثم يربت على « مرجونة » من الخوص محكمة الاغلاق ، ويهتف كلما
خطا خطوتين : حاسب ! حاسب ! مدد يارفاعي .. حاسب من الحنش !

وفي مقدمة الموكب رجل متوسط القامة بوجه احمر على صدغيه
ورسم عصفور يحمل ربابة ويعزف عليها ، ويرسل ابياتا من الشعر ..
اول ما نبدي نصلى ع النبي المختار ، يختلط بصوته المبحوح صوت
جميل .. صوت امرأة ملفوفة القوام ، بجلباب طويل من الفوال يضيق
عند الصدر فيشرئب النهدان ويكادان يقفزان في العيون ، ثم يستوى
الصدر بعدها الى اعلى حتى بدايات عنق تحمل وجها ما يزال شابا ،
قمحي اللون ، بوشم أزرق على الشفتين ، وشم يمتد من الشفة السفلى
الى الدقن في ثلاثة خطوط متوازية ، وفي الوجه المستدير عينان واسعتان
مكحولتان ، تلمعان تحت جبهة مشرقة تتسعان وهي تمط صوتها الجميل
أبين زين أبين ، وأوشوش الذكر ..

ثم عشرة أو اثنا عشر رجلا آخرون بأزياء متنافرة ، ومهن شتى
يتقدمهم الشيخ الشاذلي كاتب الأحجية ..

أخذ هذا الموكب يتحرك الى أن حاذانا الشيخ الشاذلي فرمقه
برعى في تطلع وثبت عليه نظراته وهمس في اذني :

– ألم أقل لك ؟ .. الشيخ الشاذلي سيحقق لي أمييتي .

– أمنية .. أية أمنية ؟

فضحك وربت على ظهرى وهمس مرة أخرى :

– مازلت صغيرا لا تفهم !

والتهب وجهى وأحسست بالمهانة ، وأردت أن أحتج عليه الا أن
الموكب المتحرك ، والطبول الداوية ، والبيارق المتماوجة وأصوات
النساء والرجال .. كل ذلك قد جرفنا نحن الاثنين فتبعناه بعيون
والهة واقدام نشطة .

أخذ الموكب يتحرك وينعطف عند كل طريق ويتوقف عند كل
بيت ، الفارس الشيخ يرقص بحصانه ، والربابة تتقدم الى ربة البيت
وتغنى ثم تتقدم فكية ضاربة الرمل ، وتفرش على الرمل وتوشوش

الذكر وينفلت الرقاعى من الموكب ، يتلصص على الجحور والشقوق فى
أبييت ويخرج وهو يحكم أغلاق مرجونته ، ويفمز لامرأة أخرى تزحف
مع الموكب ، دون عمل نستبينه نحن .

وتتقدم ربة البيت بحفان من التمر لاتباع الشيخ ولفكيهة وللربابة
والرقاعى ، ثم تحمل صغيرها الى الشيخ ، فيردفه على الحصان من
خلفه ثم يهزم الجواد ، فتدق الطبول دقة خاصة يدق معها الجواد
بحافريه على الأرض فى دلال فتاة صغيرة « دلوعة » ، ويظل الطفل
يضحك مع رقصاته منتشيا حتى يمله الشيخ : كفى ! ثم يتحرك الموكب
ليتوقف عند بيت آخر ، ونبين زين وأول ما نبدى ومدد يارقاعى ..

وعند الكتاب دنا برعى من الشيخ الشاذلى ولمس ثوبه ثم سال
فى حياء :

— أبيتون فى نجعنا ؟

فنظر اليه الرجل مليا لعله يتذكره ثم أطلق ضيخته : الله ..
الله .. الله ..

ومال عليه يسأل : أين ! ..

فأشار برعى الى الجنوب ، الى نجع الزينية فاتجه اليها الرجل
بعينه كأنه يقيس الأبعاد ، ثم قال فى رزاة قبل أن يتراقص :

— ان شاء الله .. ان شاء الله .

وتقدم خطوات وعاد الى برعى يسأل :

— ولماذا تسأل يا ولدى ؟

— أريدك ..

فلمس رأسه بيده يباركه ثم مضى يذكر الله ويهتز مع النغمات
والطبول الداوية ..

الموكب يزحف ويزحف الى أن بلغ نجعنا وأطفال كل النجوع
يتراقصون حوله ، ويقلدون كل رجل فى فرقة الحلب التى توقفت
لحظة عند الدكان ، باعت فيها كل ماجمعه من بلح ، بينما تقدمت
انا والتصقت بأبى أوحى للشيخ اننى ابنه . فأردفنى من خلفه على

جواده الراقص ، وأنا أنظر الى الآخرين من أطفال النجع في زهو .. ثم
توقف الموكب على عتبة بيتنا ..

وعلى العتبة استندت جدتي وأمي الى كتفى الباب ، ومن خلفهما
- في الدهليز - شقيقتاي ..

وفجأة والجواد لا يزال يتراقص بي انطلق الرفاعي بصيحته
الداوية .. مدد .. مدد .. مدد ، وانفلت يعدو ، ومرجونه تهتز على
جانبه ، حتى توقف أمام جدتي وأمي يشير اليهما بهزات من رأسه
ان يفسح الطريق . كان يتشمم بأنفه هنا وهناك ، ولما لم تفهماه فتح
المرجونة فأطل منها رأس ثعبان فرعت له الشقيقتان . وتنحت الجدة
والأم عن الباب عندما بدا الثعبان يتلوى على يد الرجل ..

وفي اللحظة التي تنحنا فيها عن الباب انطلق الرفاعي الى داخل
الفناء يدور هنا وهناك وهو يطلق صرخاته : أخرج يا ملعون ، حتى عاد
الى الدهليز وتوقف عند الجحر الذي اغترفت منه بطة حفران القمح
هنا أساييع ، وهو يسب : يا ملعون ، يا عدو الله .. اخرج ، ثم مضى
يتمتم برهة وشقيقتاي تطلان من فوق كتفه حتى اطل من الجحر ثعبان
أخذ يتلوى برأسه .

فمد الرجل عصا صغيرة لف رأسها بقطعة من القماش الناعم
وألقاها في فم الثعبان ، وشدها بسرعة ثم مد يده وأمسك بالثعبان وهو
يلعنه وألقى به في المرجونة .

واحست بطة بنوبة اغماء فانزوت في الركن الآخر من الدهليز بينما
تركت جميلة الدهليز كله الى الخارج تبعد عن البيت الى الساحة ،
وتوقفت عند حلقة من النساء استدن بذات الوشم .

وقدمت جدتي قدحا كاملا من التمر للفرقة ، دار الحصان بي بعدها
مرتين .

ثم ترجلت ومضيت في خطى مرحلة الى حلقة النساء . وهناك
رايت فكهة تفرش الرمل وتخطط عليه وتغنى بصوت حلو : ايين زين
ايين .. واوشوش الذكر ..

وهمست أختي في أذني :

- أتريد أن تكشف على بختك يا حامد ؟

قلت : نعم

فأعزت الى فكيهة التي جذبتني من كمي وأوقفتني الى جانبها
وسألت :

— اسمك

— حامد

— أمك ؟

— فاطمة

— آه .. حامد بن فاطمة

ومضت تخطط على الرمل ثم تفرست في عيني وفي وجه شقيقتي
كالترددة .. ثم قالت :

— حامد .. في بختك شيء غريب !

فسألت جميلة في جزع :

— خير !

— خير .. لكن هناك خطوط أخرى غريبة !

— قولي يا فكيهة .. كله خير ان شاء الله . فجابهتني ذات الوشم
الأزرق وقالت عابسة الوجه :

— ستقف يا حامد مرات ثلاثا امام المحاكم !

فهتفت أختي في هلع :

— محاكم !

— محاكم .. محامي .. يتزوج أو يطلق

ولم أفهم انا شيئاً مما تقوله فكيهة ، الا أن خالي أحمد عودة كان
يطل علينا في هذه اللحظة فاستمع الى كلماتها وقال في صوت حاد :

— ماذا تقولين يا مجنونة ؟ !

فاستدارت اليه في عنف .

— مجنونة حرام عليك .. الرمل هو الذي يقول .

فمد يده ودفعتها في رأسها ثم وطئ الرمل بقدمه وأمرها : قومي
من هنا وابتعدي قبل أن ..

- وأمسك عن وعيده حتى جمعت أدواتها على عجل ومضت الى نهاية الطريق وفرشت رملها من جديد .

ثلاث مرات أمام المحاكم ؟ وبلى فربما تصدق الملعونة .

وصل المساء ، وعسكر « أبو رجاب » وفرقته في الباحة أمام بيت الشيخ جعفر .. في نجع الجراب ، باحة من حولها أحراش نخيل تطل على مستنقع من الماء الراكد انعكست عليها أضواء خافتة من كلوب رفوانيس علقت على غصون اشجر .

ومن كل مكان ، من كل نجع ، توافد الناس ، الرجال والنساء والأطفال على معسكر الحلب .. يقايضون ويشترون ويقيمون حلقات الذكر ويصيخون السمع الى شاعر الربابة يحكى لهم عن « أبو زيد الهلالي » وذياب بن غانم .. وعنتر الاسمر ..

وعلى حافة المعسكر من الناحية الشرقية ، تحت شجرة جميز باسقة يطل منها فانوس جلس الشيخ الشاذلي .

ويبدو أن برعى كان يبحث عن هذا الرجل .. فقد اتجه اليه وهو يحمل كيسا من البلح القاه تحت الشجرة . وجلس اليه صامتا حتى فرغ الشيخ من غمغماته ثم أدلى اليه بسره فقال :

- وما اسمها يا ولدي ، ما اسم صاحبك يا ولدي ؟

- شريفة ..

- بنت من ؟

- ابراهيم عثمان .

- كلا .. أمها يا ولدي ؟

- داريا .. داريا سكينة !

وتأمل الرجل وجه برعى مليا ، وفتح كتابا ثم نظر الى وجهي .. وفهمت انه يأمرني بالانصراف .. فابتعدت قليلا ، وربضت عند مكان قريب أستمع منه الى كلمات متفرقة من همسات الشيخ

- خذ .. ورقة من الحجاز .. اكتب .. مرة .. على ذراعك ..

ثم قدم له برشامات ثلاث صغيرة ومسح على رأسه بيده وهو

يهمهم .

— وفقك الله يا بنى ..

ثم انصرف برعى الى حلقة الذكر بعد أن اخفى هدية الشيخ
فى جيبه .. فوقفت عند الحلقة أراقبه وهو ينتشى بذكر الله .

ولأمر لا أدريه حانت منى التفاقة الى الطرف الآخر ، وهناك
رأيت حسن المصرى يستند الى جذع نخلة .. ويحرك يديه فى اشارات
خفية تتبععتها بعينى ، فذهلت من نفسى حين رأيت فكيهة ذات الوشم
الازرق تزين نفسها على عجل ، ثم تتحرك فى بطء وفى حذر حتى تسالت
اليه فقادها الى حيث لا أدري . هنالك خلف المستنقع ولربما انكفاً على
الارض وتدحرجا كما تدحرج مع شريفة بين عيدان الدرة . ولربما قبض
على فخذها كما فعل بشريفة . ربما .. الا أنها عادت بعد ساعة «
ومرت بى ، وفى عينيها بريق .. تسوى شعرها بيد بينما اليد الاخرى
تحمل كيسا .. ومن خلفها حسن المصرى الذى انعطف الى حلقة الذكر
وانهمك فيها .

وعند الظهر فى اليوم التالى سئمتا الفرقة .. بعد أن طاردناها
أبى حدود القرية .. وعدنا أنا وبرعى ندب على الطريق فى خطى
متشاقلة . أمام بيت شريفة ، وفجأة قلت لبرعى :

— قادها الى المستنقع فى الظلام .

فتوقف برعى واستدار ناحيتى وسأل :

— من ؟

قلت : حسن المصرى ..

قال : لا أسألك عن الجلف .. من هى ؟

وتريشت حتى أتذكر اسمها فعاجلنى :

— لماذا لا تنطق ؟ !

وأمسك برقبتي وهو يهدر

— قل لى .. أهى شريفة ؟!

فتحشرح صوتى وأنا أقول :

— كلا .. شريفة لم تكن هناك بالقرب من حلقة الذكر .

— بل كانت هناك مع أمها ..

- لم أرها .. لم أرها ..
- انت تكذب .. قل لى من هى ؟
- فكيهة ..
- فأرخى يديه ثم قال :
- ابن الكلب .. الحلبي ابن الحلبي .. تعال معى يا حامد ..
- الى أين ؟
- الى بيتنا ..
- لا يا برعى .. لا أريد أن أتأخر
- بل سنتغدى معا فى بيتنا .
- ولم أستطع أن أفلت من أساره .. وهناك فى الحاصل الصغير فى بيته أعد برعى محبرة وقلمين من البوص ، ثم أخرج ورقة بيضاء من جيبه ومد يده لى بشرط منها وهو يهمس حتى لا تسمعه أمه :
- اكتب ..
- فأمسكت بالقلم وأنا أسأل : ماذا اكتب ؟
- اسمها ..
- فكيهة !
- آه يا ملعون .. ياغبى .. مالى أنا وفكيهة .. اكتب على الورقة بخط جميل ورفيع اسم شريفة ثلاثمائة مرة .
- وعجبت لأمره ، بيد أننى أطعته وأخذت أكتب حتى فرغنا معا عند الأصيل .. وقمت لأنصرف ولكنه جذبنى من كعى وقال :
- كلا .. ليس الآن .. سنذهب معا الى حاكم الاسكافى ..
- لماذا ؟ لقد تأخرت يا شيخ .
- كفى لكاعة واتبعنى .. اياك أن تقول لأحد عما فعلناه ..
- أسمعت ؟
-

نعم سمعت .. ولكن لماذا يكتب اسمها ، ثم لماذا يخفي عن الناس كل ذلك ، ولماذا يقودني الى عم حاكم الاسكافي ، وأحسست انه سيضربني اذا لم أجب فتلعثمت .

— حاضر .. ليصبنى الله بالعمى والكساح اذا قلت لأحد .

فهرز رأسه وتقدمني الى أن دلفنا معا الى بيت الاسكافي وورشته الصغيرة ، فهش في وجهينا .

وأسر برعى اليه برغبته ، فمضى الرجل يعمل حتى أحاط الورقتين والبرشامات الثلاث بكيس من الجلد بينما انصرفنا نحن نداعب « نور » الصغير ابنه ، ندغدغه في جنبه ، فينقلب ، ويرسل ضحكات مرحة ويبرطم بكلمات غير مفهومة ، مضى أبوه يفسرها لنا ، حتى أقبلت أمه فاختطفته من بين أيدينا وهي تنتهرنا :

— ستقتلون الولد ! ..

— يقتلونه ! دائما تخافين عليه ! دعيه .. لن يقتله أحد ..

— طبعاً .. طبعاً .. انت لا تخاف عليه كما أخاف .. لم تتعب في ولادته ..

وتركها الرجل وسأل :

— وما هذا الحجاب يا برعى ؟ ..

وسكت برعى فاستطرد الرجل :

— من الذي كتبه لك .. الشيخ يعقوب ؟

— كلا .. الشيخ الشاذلي ..

فأطلق الرجل ضحكة ثم قال :

— نصاب .. يكتب حجابات للذخفين !

فذهل برعى لكنه قال :

— عمتي فضيلة جربت حجاباته ..

ومد يده واختطف الحجاب واحتضنه فعدنا أدراجنا حتى توسطنا الطريق العام وفجأة تركني برعى واتجه الى تحويشه عبد الله الجزار ..

فوقفت أتأمله ثم عاودت سيرى دون تعجل .. حتى وجدت نفسى أمام بيت
سعدية .. وقبل أن أجتازه برزت سعدية ولوحت لى بيدها وهى تقول :
حامد تعال يا حامد .. تعال هنا !

— ماذا تريدین يا سعدية ؟ .. ربما ترسلین بى فى مشوار كعادتك
.. كلا .. لن أذهب فى أى مشوار .. أنا متعب اليوم .

ولكننى رغم ذلك تقدمت نحوها حتى حاذيتها وسألت — هیه .. ماذا
تريدین ؟

— تعال فى الداخل .. فأنا خائفة ..

— خائفة .. مم تخافین ؟ ..

— أمى ليست هنا .. وهناك عقاريت فى الحاصل ..؟

— عقاريت ! ..

— نعم وهم يخروشون فى الحاصل طول الوقت ..

وأمسكت بیدى ، واندفعت بى الى الداخل ، وأنا أحاول أن أفلت
منها ، ثم توقفت فى الديوانى أمام سحارة أمها ورفعت الغطاء قليلا ثم
مضت تعبت وجسدها يخفى عنى ما تفعله .. ثم استدارت الى ووضعت
فى فمى مصاصة أخذت ألوكها وهى ترمقنى بنظرات غريبة ! وطوقتني
بذراعيها ، ثم رفعتني الى صدرها .. ومضت تضغط على صدرى بنهديها ،
وتحتك بى وأنا ألهث وأحاول أن أنشب أظافرى فى عنقها .. « المجنونة »
ماذا تريد سعدية منى ؟ .. انها تخنقنى وأنا أصرخ : دعينى ! دعينى ..
اتركينى يا بنت الكلب ! ..

فلا تبالى بل تظل تمرغ صدرها بصدرى .. وتطوقنى بقسوة ، وتكاد
تهشم ضلوعى وتلهث كما تلهث الكلاب ، والعرق البارد يسيل على
وجهى ..

وأحسست أن زمنا طويلا قد انصرم منذ طوقتني بذراعيها فمضيت
أتساءل :

متى تنتهى المجنونة من لعبتها السخيفة هذه ؟ .. ثم غامت عينها
وتراخت يداها حتى ارتقت على السحارة وتركتني وهى تهمس :

— هبيل وعبيط !

ومدت يدها بالطرحة تمسح العرق من وجهي وهي تبتسم وتهمس :

— ألا تعرف هذه اللعبة يا عبيط ؟

قلت : أى لعبة ..

— لعبة حلوة ! مسكين .. انك لا تعرفها .

ونظرت مليا في عيني ثم قالت :

— اياك أن تقول لاحد .. خذ ..

وملأت طاقتي بحفنتين كبيرتين من الحمص . وأحسست أنها تقترب

منى ، وخفت أن تكرر لعبتها ، فقررت أن أهرب ..

وفي هذه اللحظة فتح الباب الخارجى .. وسمعنا معا صوت أمها :

— سعدية .. يا بنت يا سعدية ..

وقفت وحدها على الشاطئ الرملى ، لا تفعل شيئا غير

مراقبتنا ونحن نتيارى في العوم .. ونغوص في الماء لنظهر

فجأة في مكان آخر أو نغير شريحة الماء الضيقة ، الى شاطئ

الجزيرة ونسلق نخلة مائلة ، ونقفز منها الى النيل ، نتحداه بعد أن

شاخ وهزلت قواه ، وجلا عن مساحات واسعة من مجراه لينحسر

في شريط ضيق يلمع تحت وهج الشمس رائقا من الحمرة الداكنة التي

تشوبه أيام الفيضان ..

ومن حول المجرى الضيق — على الشاطئ — بدت الارض خالية من

كل خضرة ، الا سعف النخيل فقد أنشبت الحريف أظافره في كل شجرة

أخرى وعراها من ثيابها المخملية ، بينما بدا النتوء ربوة عالية ، من حولها

على الجانبين أخاديد عميقة من الرمل تتخللها برك صغيرة من الماء تخلفت

فلم تستطع اللحاق بالنيل في هروبه أمام الحريف ، برك تربض من خلفها

أراض عاطلة من كل زينة ترعى فيها القطعان دون رعاتها الذين تركوها
تسرح وعادوا يلعبون السبيجة والطاب في ظلال الاشجار والبيوت .

ولولا صرخاتنا ، وعبثنا وأجسادنا العارية السمراء ، لبدت القرية
مكانا مهجورا لا يتنفس فيه أحد غير الاطفال والفتيات الصغيرات ..

فقد استقر آباؤنا في البيوت يستريحون ريثما يعودون لحث الارض
وبذر القمح . لم يعودوا يخافون علينا من النيل وسطوته .. ولم نعد
نحن نهاب منه ، فاننا نستطيع أن نخوضه أو نعبه على أقدامنا ، الا في
موضع الدوامة والصخرة الناتئة التي انطرحت عليها الشمندورة الحمراء .

حتى الفتيات بتن ينزلن اليه ويلعبن كما تلعب ، ويجمعن قطع الحصباء
الملونة ، ويتعلمن العوم ، مستعينات بطوفة أو « قرع » يعلقنه حول الظهور
بحبال من الليف ، يطفو بهن فوق الماء ، الا مندوكة فانها أبت أن تنزل
الى الماء وان بدت سعيدة في وقفها هنالك على الشاطئ الشرقي تراقبنا
دون أن تسمح لنفسها بالنزول والعوم معنا .

تعلمت أن « نوح » اباهما سيضربها اذا ما ابتل ثوبها الجديد الذي
اشتراه من كده طوال موسم قطع النخيل ، ولكن بخيتة وسكينة أخذتا
تهتفان لتخلع ثيابها الجديدة وتتركها على الرمل ، بينما تسلل اليها اش
الله من خلفها ودفعها الى الماء فكادت تسقط فيه غير أنها تشبثت بعارضة
« الفلوكة » ورفعت جلبابها الى صدرها وهي تصرخ :

— أتركني يا اش الله .. أقول لك دعني .

فصاحت نبيهة :

— بشرط أن تنزلى الى الماء ..

فترددت لحظة ثم قالت :

— أتركوني وسوف انزل ..

وتركها اش الله وهو يهتف بها :

— احلفي برحمة أمك ! ..

— ورحمة أمي ! ..

ثم تخلت عن ثوبها ، وارتفعت في الماء متهيبة الى أن اعتادته ،

فمضت تعوم في المجرى الضحل وتحاول أن تسابقنا عبثا ، ثم سئمت
وقالت في مرح :

— جعنا ولا بد لنا من الأكل ..

فأطلقت سكينه ضحكة صغيرة سكبتها في الماء ثم قالت :

— مفجوعة .. لا تشبعين ! ..

— وأنت .. ألا تريدان أن تأكلي ؟ ..

— ولكن ماذا نأكل .. أنترك كل هذا اللعب ونعود الى البيوت ؟ ..

— كلا .. تعالوا نصطاد سمكا ..

فرحبنا باقتراحها وانطلقنا الى برك الماء وارتكزنا فيها على اعجازنا ،
كل اثنين يمدان سيقانها منفرجة ، يحجزان بينهما مياه البركة
الضحلة ، ويعبثان بالأيدي في الماء ويلتقطان الأسماك الصغيرة التي
تخلفت في البرك ، فبست فريسة سهلة ، تنوش أفخاذنا بزعانفها الصغيرة
ثم تقفز محاولة الفكك ، فننقض عليها ونرمي بها الى الشاطئ الرمل
لتجمعها مندوهة عارية الجسد ، بينما ركزت سكينه قطعة من الصفيح
مسطحة على كانون صغير أعدته وقبست له النار من قمينة الفحم التي
أقامها بشير عثمان خلف جدار الساقية ، فقد اعتاد أن يبيع فحما يصنعه
من خشب السنط بعد كل موسم ..

مضينا نصطاد صغار السمك ونشويها ونلتهمها دون أن نبالي
بالشوك .. حتى امتلأت البطون ..

وبينما نحن نحفر في الرمل ، نتصيد منه الماء البارد ، بدا على
الشاطئ شبحان يتحركان من خلف التتوء في اتجاهنا ..

وهنا تنبهت مندوهة لعري جسدها ، فاندفعت الى ثيابها ولم تجدتها
قمضت تصرخ :

— يا عيب الشوم ! أين ثوبى .. جلاييتى يا هوه ! ..

وصاحت بها سكينه ..

— ومن يدرى يا مندوهة .. أين جلاييتك ؟

وراحت بخيثة تضحك وتقول :

— الملائكة أخذوها ! ..

— الملائكة ! انهم لا يسرقون .. قولي الشياطين ..

— طيب .. الشيطان هو الذى أخذها ..

وتلفتنا جميعا الى « بكر » الذى جلس على الارض يشيح بوجهه
بعيدا ..

وكان الشبحان يقتريان ، والفتاة تكاد تجن وتحاول أن تخفى نفسها
في مكان ما ، ثم تخلت عن فكرة التوارى ، واندلقت على بكر تخربش جسده
لتجبره على استرداد ثوبها ، والفتى يقسم انه لم يأخذها ..

واجتمعنا من حولهما نحاول ان نحمل « بكر » على الاعتراف ، غير
انه لم يتخل عن عناده الا حين أشارت الفتاة الى الشبحين .. فرأينا بركات
أفندي والعمدة على مقربة منا ، وقد انهماكا في الدوران حول زكائب سكر
وقمع مرصوصة بعناية على الشاطيء ، هنا فقط قال لها بكر :

— والحلاوة ..

ودفعته بقدمها وهي تقول :

— الحلاوة ! خذ يا ابن الكلب .. أين جلابيتي ؟ ..

— الحلاوة ! ..

— طيب .. ماذا تريد ؟ ..

وصمتت وهي تتوارى خلف أجسادنا ثم قالت :

— سمارة ! ..

— كلا ..

— طيب .. فغ أسرقه لك ؟ ..

— عندي فخان ..

— ماذا تريد يا ألدغ ؟ ..

— تتزوجينني الآن ! ..

— الآن ! ؟ ..

– الآن ! ..

– لكن أبى يقول اننى سأتزوج حين أكبر !

– يا غشيمة .. نتزوج فى لعبة العروسة .

وتلفت الجميع نحوى ، فان مندوحة ، أبت دائما أن تتزوج غيرى فى
هذه اللعبة لكنها قالت :

– طيب .. سأتزوجك اليوم وأتزوج « حامد » فى نفس الوقت ..

– أنا الاول ..

ونظرت الى ، ثم قالت :

– موافقة ..

– أحلفى ..

– ان شاء الله أعمى ويصيبني الكساح لو لم اتزوجك اليوم قبل
حامد ..

– وتموتين ..

– وأموت يا رب ، وونور ..

واطمأن بكر وجرى الى الفلوكة ، وأخرج جلاية الفتاة ، والقى بها
أمام قدميها ، ثم مضى يحجل فى الارض الرملية ، وهو يرسل أغنية عن
مندوحة عروسه ، ويرمقنى فى زهو ملأنى بالغیظ فانعطفت على مندوحة
أقول :

– أنت يا كذابة .. لن تتزوجيه قبلى ..

– لكننى سأموت أو أعمى أو يصيبني الكساح ما لم أتوجه قبلك ! ..

فجززت على أسناني وأنا أقرر أمرا أنقذه حين يأتى أوانه ..

وكنا قد قطعنا مسافة من المجرى الجاف واقتربنا من الشاطئ نحاول
أن نتفادى بركات أفندى والعمدة ولكن صوتيهما كانا قد ارتفعا ، فتوقفنا
تحت الجرف الطينى نستمع الى ما يقولانه :

– ولماذا يتركها الشيخ أمين هنا ؟ ..

– اعتاد التجار ذلك . ينقلونها – على راحتهم – يا سعادة البية ..

وصمت بركات أفندى هنيهة ثم قال :

— ألا يخشون من اللصوص .. ففي الغارات سكر وقمح ! ..

ورن صوت العمدة عاليا ، وكأنه يفتخر :

— لصوص ! ليس في بلدتنا لصوص ..

وبانت الدهشة واضحة في صوت الآخر :

— ألا يسرق أحد هنا شيئا

— السرقة عار ..

وطفق يتحدث في كبرياء عن الامن في قريتنا .. لا سرقات يا سعادة
البيه ، الا الاطفال الصغار فيسرقون أفخاخ بعضهم أو الرطب أول ظهورها ،
أما الكبار فانهم لا يسرقون .. والا وصمت القبيلة بعار كبير ، ولا جرائم
قتل يابركات بيه ، مرة واحدة قتل فيها مدرس من بحرى حمار زميله ،
وليست هناك في القرية الا مشادات صغيرة بالنباييت لا يجرح فيها أحد ،
ولا تشج رعوس ! ..

— عجيبة يا حضرة العمدة .. كنت في أبنوب الحمام ، والدم هناك
للركب والرصاص في كل مكان .. الاطفال .. حتى الاطفال يلعبون
بالبنادق ، لقد سرقوا منزلي أمام عيني ، بعد أن أوثقوني ، وكموا فم
زوجتي ؛ وحشروا الصغار في المطبخ ..

— وأين أبنوب هذه .. ليست من قرانا ؟

— في أسيوط يا حضرة العمدة .. أبارك الله .. خسارة أن بلدتكم
هذه لن تعيش .. أنا معجب بأخلاق أهلها ، الصراحة ، والذي في القلب
يرتسم مباشرة على الوجه ، ولا سرقات ولا رصاص ، لم أصدق للأمور ،
وهو يروى لي عن الامن في المنطقة ، سأقابله وأعتذر له ..

وسر العمدة بهذا الحديث ، وتقافز مثلنا نحن الأطفال ، وهو لا يعي
بنفسه ، فمضيينا نكتم أنفاسنا حتى لا يسمعا ضحكاتنا ، ولكن العمدة
توقف فجأة وقال :

— ولكنك تشكو يا بركات بيه من العمل !

— وماذا أفعل غير الشكوى ؟ .. أهل القرية طيبون ولكنهم يتنازعون

عند تسجيل النخيل والأرض فيعطلون عملنا ..

وسكت ريثما أشعل سيجارة وقال :

— ألا تذكر الرجل ... اسمه ...

— الجزار ... عبد الله الجزار ...

— والآخر ... اسمه فضل ، أبى كل منهما تسجيل قيراطين من طرح البحر باسم الآخر ، مدعيا انهما من أملاكه ، والقيراطان يواجهان أرض الجزار وقطعة صغيرة من أرض فضل .

— الليلة ستحل المشكلة ؟ مجلس الضلع سينعقد ...

— ولكن العمل يتعطل ، والمستر هيس سيعود ويسود عيشتنا ...

— سود الله وجهه ! ...

ثم بعد صمت :

— الناس يقولون انه كلما تعطل التسجيل كلما تأخر الطوفان ، ولذلك فأننا لسنا متعجلين ...

— صدقني يا حضرة العمدة ، سجلنا أم لم نسجل ، سوف يأتي الطوفان بعد أشهر ... ويضخ الماء فوق نفس المكان الذي تقف عليه ... بل في بيتك وبيوت الآخرين ...

وأردف بعد صمت :

— أنتم طيبون ، ولكنكم لا تعرفون مصالحكم ... وهذا الرجل الذي تسمونه بدر أفندى وكيل البريد يملأ رؤوسكم ... الحكومة قوية ، وصدقني باشا اذا صمم على شيء لا يتنازل أبدا ... ألم يدفن عمال العنابر أحياء ... فهل يبالي بكم ؟ ...

— سمعت ذلك من أحمد عودة .. لنا الله .

— والانجليز يتعجلون ...

— ولماذا يتعجلون على خراب بيوتنا ... خرب الله بيوتهم .

— القطن يا حضرة العمدة .

— ومالنا نحن ؟ نحن لا نزرع قطنا هنا !

وطفق بركات أفندى يشرح للعمدة وهما يتبعدان في خطى متناقلة ، فظللنا نحن نراقبهما حتى تواريا ، ثم ران علينا الصمت ، وانقرزت حيرة

وقلق غامض في ضلوعنا ، فمضينا نعبث بأقدامنا في الرمل ، ولا نكاد نلفظ كلمة حتى ضاقت مندوهة بالصمت فقالت :

— مازلت جائعة .. تعالوا نصطاد السمك من جديد ..

فصاح بها بكر :

— بل نلعب لعبة العروسة يا مندوهة ..

فهللنا ، ودبت الحيوية في موكبنا الصغير ، والتقط اش الله قطعة الصفيح وأخذ ينقر عليها، ويردد على ايقاعها مقاطع أغنية الزفاف .. بينما نخب فوق الرمال ، ونتجه الى غابة صغيرة من غابات أشجار النخيل ، ذات ظلال وأرقة ، يتشابك فيها السعف والجريد ، بحيث تبتد الغابة وكأنها سقيفة تظلل الارض كلها من حولنا ..

أسرعت مندوهة بعد أن لكزها بكر بكوعه الى جذع شجرة سنط باسقة بين النخيل .. واستندت اليه ، واصطفت لداثها من حولها يسدلن شالا أحمر على وجهها ، ويطلقن الزغاريد بأصوات مرسعة ويعرنها غواثش وحلقانا تتزين بها ..

وتقدمت سكيئة وبخيتة ووقفنا عند ممر ضيق بين نخلتين، تحجبان العروسة عن عيوننا .. وتوصدان الطريق اليها ..

ومن بعيد أقبلنا نحن نرف بكرنا الذي أسدل على رأسه وكتفيه وصدره عمة بيضاء طويلة .. وعلق على ساعده خنجرا اصطنعه من جريد النخل ، وتأبط كرباجا طويلا من الجريد الأخضر الطرى شذبه وطواه تحت ابطه في عناية بالغة .

بدا بكر سعيدا مرحا ، ينقل خطاه في خفة ونحن من حوله نطرقح بالكرابيج فوق رأسه الى أن دنونا من بيت العروسة ، فتوقفنا قليلا نتغنى بمندوهة وجمائها الأسر ، وبالفتي الفارس وأبعدية أبيه !

وتحركنا من جديد بموكب الزفاف حتى بلغنا الممر الضيق، فتصدت سكيئة وبخيتة لنا .. تحولان بين العريس وبغيته ، فظللنا نحاورهما ونهددهما فلم تباليا ، بل تمادت بخيتة وقالت في صوت حاولت أن تقلد به صوت عجائز النساء :

— المعلوم يا بكر !؟

وغمزت بعينها وأردفت :

— الأميرة بنت الأمرا لا يدخل عليها أحد بدون المعلوم ! •

فتقدم منها بكر وعيث في جيبه ، ثم القى بخمس قطع من الحصى الملون والقواقع في يدها ، وهو يعد في فخار :

— عشرة •• عشرون •• خمسون قرشا !

ثم توقف ، فهزت الفتاة رأسها في اصرار •• فعدنا نحاور ونداور بينما مندوهة منكفئة عند الجذع ترمقنا في حياء تتصنعه ، وعلى رأسها نبيهة تقف مثل وقفة الخادم تروح عنها وتعديل من وضع شالها ، وتبدو صارمة الوجه ، تزم شفتيها حتى لا تضحك ثم تفتحهما لتطلق زغرودة صغيرة تعود بسرعة بعدها الى وشوشة سبيلتها العروسة ••

ومضى بكر يعد من جديد :

— ستون •• سبعون •• ثمانون ••

وتوقف فهزت الفتاة رأسها من جديد فاستأنف بكر : — تسعون —
جنيه !

وهنا تنحنا عن الطريق ، وهما تطلقان زغرودة حلوة ، فانطلقنا بموكبنا ، وقد رفع اش الله من صوت نقراته على الدف ، وتعجل بلحن أغنيته ، فأصبحت هادرة كاللوج ، ثم ترققنا على رأس مندوهة ••

وصلى بكر ركعتين ، ثم وقف ، على بعد خطوة واحدة منها ، ومد يده بين تهليلنا الى ذؤابة مرتفعة من شعرها ومسها وهو يقول :

— انت زوجتى الآن •• مبروك ! •• زوجتى على سنة الله ورسوله ! •

فلمعت أسنانها الدقيقة من تحت الطرحة السوداء بابتسامة بيضاء الا أنها أطرقت بسرعة في حياء ، دون أن تنبس بكلمة واحدة ، بينما صديقاتها يتغامزن ويشرن اليها من طرف خفى •• من وراء ظهر العريس :

— اياك •• اياك •

وأشرن بالسبابة الى الشفاه ، في هسهسة فهمتها مندوهة ، فزمت شفتيها تكتم ضحكة ، وأشاحت بوجهها بينما بكر يحاول أن يظهر بمظهر الرجال ويهدر كما يهدرون :

– تكلمى .. أين طاجن الحمام ؟!..

وانبرت خادمتها تهمس فى اذن العريس :

– الاميرة تطلب المعلوم !..

فصاح بكر :

– لا معلوم ولا حاجة .. اخرسى انت !..

وانتزع كرباجه الطويل ، وفرقع به فوق رأس العروسة ، يكاد
يلسعها لكنها تفادته بحركة خفيفة الى الخلف ، مطلقة آهة خافتة لتزم
شفتيها وتطرق من جديد ..

ومضى بكر يحاول ، وهى لا تبالى حتى فقد صبره فأمسك بمعصمها
ورفعها اليه ، يريد أن يضمها الى صدره ، فتمنعت فى دلال ، بينما لداتها
يشجعنها باشارات وتلميحات وكلمات خافتة ، وخادمتها تتدخل بينه
وبينها ..

وأذعن بكر ومد يده الى جيبه ، ودفع الى يد الخادمة بالمعلوم ..

– خذى .. عشرة .. عشرين .. خمسين ..

ثم قبض يده وقال فى توسل :

– تكلمى يا ابنة الاكابر .. تكلمى ..

فهزت الفتاة رأسها ، ولوت الخادمة شفتيها تستشوى المعلوم ،
فأسقط فى يد بكر ، ومضى يهتف من جديد :

– ستون .. ثمانون .. مائة ..

وهنا هتفت بخيته :

– كفى يا مندوكة .. كفى !..

فافتر ثغر العروسة عن ابتسامة ثم قالت وهى تشير الى زوجها :

– وماذا تريد ؟.. الطاجن ؟.. هناك ..

ثم أومأت الى الخادمة فى دلال :

– هاتى عشاء ؟..

وارتدت الى جذع النخلة تستند عليه وهي تروح عن وجهها بفضله
الشال ، تنتظر الزوج ريثما يفرغ من عشاءه ، لكن اش الله انبرى يقول :

– بلا لكاعة .. هيا يا بكر آنت وراء بطنك أم زوجتك ؟ ..

وتدخلت بخيطة تهمس :

– لو كانت شاطرة لما تركته ينصرف عنها الى الطاجن ..

واندفع صالح جلق ليقول :

– ولو كان للمغفل عينان لما تركها ..

فالتهب بكر بالحماس واندفع اليها – تعالى .

فهمست وهي توميء الى خادمتها – ماذا تريد ؟ فتفرس بكر فيها

وقال :

– الرطب الحلوة من شفتيك ..

وتلقت نحونا ووجدنا نشجعه فأردف :

– والدوم الاخضر من صدرك ..

فابتسمت وقالت :

– ألا ترى ؟ الدنيا نهار ، وفي الليل تطيب الرطب والدوم ..

فمد يده واختطفها من بين صويحيباتها واحتضنها وهي تصرخ وتتمنع ،
ونقرات الدف تعلو ، تمتزج بها زغردة طويلة .

وأشار الفتى اليها أن نجلو عن بيتهما السعيد في الحال ، فخطونا الى
الحلف ، وتوارينا بين أشجار النخيل ، ومكثنا نتسمع الى الوشوشة التي
تدور بينهما ، الا أن عيشة التي كانت تتلصص وجدت بكرا يحاول أن
يفشى عروسه كما يفشى الرجال نساءهم بينما هي تحاول الافلات منه ،
فاندفعنا اليه نحثر التراب على رأسه ونحول بينه وبينها ..

وتوقفت مندوهة تنفض التراب وتبتسم لتقول :

– فلنرف « حامد » الى عيشة ..

وصاحت هذه : كلا .. ليس اليوم .. فقد تأخرنا ..

وصاحت مندوهة من جديد : كلا .. زفوه الى أنا ..

واتكأت الى الجذع من جديد ، وأنا أتأملها فى غيظ واتمم : سأنتقم منك يامجنونة .. لقد رضيت بىكر قبلى ، سوف ألسع جلدك بالكرباج .

وانطلقت الى الشاطئ مع رفاقى ، ثم عدنا فى زفة كبيرة على نقرات الدف وترانيم اش الله ، واجتزنا الممر الضيق بين النخلتين الى أن توقفنا على رأس منوهة ، فلم أبال بشيء بل اندفعت بيدي الى ذوابة الشعر ، وهى تطرق فى حياء ، وقبل أن تلمسها يدي مزق الصمت شيء يشبه العويل أخذ يعلو ويعلو ، ويملاً الشاطئ ، تمتزج به أصوات رجال مبحوحة تسب وتلعن ..

وانتزعت العروس نفسها وانطلقت تعدو .. وانطلقنا نحن من خلفها ، والعويل لا يزال يعلو ويعلو ويرج المكان كله ..

والتقت أبصارنا ونحن ما زلنا نعدو بالعمدة يولينا ظهره ،
فوق ربوة مرتفعة . كان هائجا يلوح بيده هنا وهناك ،
ويصرخ بكل ما يملك من قوة :

١٤

— آه يا ولد .. يا ابن الكلب .. امسكوه .. بلد بهائم .. لا شيء
يا بركات بيه .. لا تخف ، انت وصحابك .. تفضلوا من هنا .

وأشار الى مصطبة عالية ، تحديق بمجموعة من أشجار النخل ، وتلفت يتابع اشارته فلم يجد أحدا ممن يوجه اليهم كلماته المشجعة ، وابتأس حين رآهم يركضون هنا وهناك ، يتعشرون بالجداول وينهضون ليركضوا من جديد ولا يبالون بالتراب الذى علق بشياهم ، حتى بركات أقنذى أسلم ساقيه للريح ، وترك قبعته تنزلق وتتمرغ فى الوحل الأسود ، ومضى

يقفز من جدول إلى آخر حتى أوفى على الشاطئ وألقى بنفسه إلى
الفلوكة الرابضة ، وتوارى عن الأنظار في خن الفلوكة ..

والعويل ما يزال يعلو ، لا يقطعه الا أصوات سباب ولعنات وآهات
تنبعث من تحت سحابة كبيرة داكنة تنعقد فوق أشباح ، ترتفع الهراوات
والنباييت في أيديها . وتهوى في سرعة على رؤوس أشباح أخرى .
فتسجها أو تلقى بأصحابها إلى الأرض ، يهدرون بالأنين ويسفون التراب .

وثمة أذرع ترتفع بالنباييت تطوح بها في الهواء ، فتبعث هسيسا
ينقلب إلى صفير ينتهي إلى ارتطام ، وصوت تكسر إذا ما اعترضت طريقها
هراوات غليظة ، تمتد أفقيه على الرؤوس تحميها لتنفذ هي الأخرى ،
وترتطم بجماجم الرؤوس وتهشمها .

ومن كل درب ، في كل لحظة ، هرع إلى الساحة رجال ونساء ،
الرجال يندفعون إلى جوف السحابة الداكنة ، يطوحون بنباييتهم ، ويهزون
بها على الرؤوس ، ولا يدري المرء كيف أمكن لكل واحد منهم أن يميز
خصومه في الزحام ، لينهالوا عليهم دون غيرهم ..

أما النساء فاندفعن إلى الأخريات ، يطلقن نفس العويل المتصل
الطويل ، ويتراشقن بالحجارة ، والألفاظ الجارحة ، ألفاظ مثل الشياطين
تلسع الأعراض والأنساب ، وأكف مثل المخالب تتشابك بالصفائر
فتتجندل على الأرض ..

ولم يشعر العمدة في يوم من الأيام بمثل المهانة التي شعر بها في
تلك اللحظات ، فمنذ ساعة كان - هو وبركات بيه - يتحدثان عن الأمن
في القرية ، والكلمات لاتزال تطن في أذنيه : حتى المشادات لا توجد ..
ولا جراح .. ولا نقطة دم تسيل .. أعوذ بالله .. أبنوب الحمام .. مجلس
الصلح سينعقد الليلة .. ثم ها هم أولاد الكلب يلطخون شرفه ! ويصفعونه
أمام الأغراب ! الحق على أنا .. لم أكن حازما معهم مثلما كان أبي ، ولا
يجدى معهم الا الكرباج والفلكة ، ومندرة السلحليك المظلمة ، لا بد من
الحزم مع عبدالله الجزار بالذات .. أنزل عن هذه الربوة التي أقف عليها !
وأدخل في هذه الدوامة بنفسى لاجر جر الجزار وفضل وأقيدهما بنفسى ؟ !
تأخر الغفر .. ها هم يركضون وينعطفون ، ومن خلفهم العسكرى يخب في
التراب بحذائه الثقيل .. ويتعثر في جلبابه .. ابن الكلب كان ينفذ في
نومه ثم أيقظوه .. لكاعة ! لماذا لا يأتون بسرعة ؟ لقد وقع الطربوش ..
اتركه يا ابن الإيه واسرع ..

ثم التفت فجأة الى الساحة ، وعويل النساء ما يزال يخترق أذنيه ،
ويتغلغل فى كل ذرة من أعصابه ، ورأى السحابة تزداد كثافة واتساعا ،
ولمح النبأيت تعلو وتهوى .. واستمع الى كلمات السباب ، ثم صاح
فجأة :

— ملعون أبوك يا حموى .. امسكوه !

وأشار الى أول غفير وصل الى المكان :

— آه يا ابن « سبيلة » ادخل وامسك حموى .. كتفه .. اسرع
باولد .. ماذا تنتظر .. تعال .. مطر حى .. أدخل وهات حموى
واكسر ضلوعه .

وقبل أن ينهى أوامره اندفع الى الدوامة من الناحية الاخرى شاب
طويل نعرفه نحن الاطفال جميعا ولا نميل اليه : البسطاوى زعيم اطفال
نجع السواردة ، وفى يده نبوت طويل .. وسرعان ما سمعنا تكسره
وارتطامه فوق الرؤوس .. ولا ندرى لماذا عدل العفريت عن الرؤوس
فانحنى ، وأخذ يهش بالنبوت على سيقان الرجال ، يدور به مثل المجنون ،
يضرب هنا وهناك دون رحمة ، ومن خلفه صوت عبد الله الجزار يهتف :

— عفارم يا ولد .. عفارم يا ابن الاخت .. برافو !

ثم أطلق آهة، هرع اليه بعدما حموى «البطاح»، فهكذا اعتاد الناس
أن يلقبوه ، ليستند ويطمئن عليه ، ثم انطلق بهراوته يضرب هنا وهناك
دون رحمة ، والدوامة تزداد اتساعا . والغبار يزداد دكنة وظلاما ، فالحفر
والعساكر الذين طفقوا ينفخون فى صفاراتهم دون أن يفعلوا شيئا ، كانوا
قد دخلوا الدوامة ... وراحوا يدورون بين المتنازعين ، يحاولون الامساك
بأحد ، ويفلتونه فجأة حين يشعرون بأزيز نبوت ينهال على أكتافهم ،
ومضى العمدة يصرخ فى رجاله وأبناء قبيلته الذين جاءوا يفضون النزاع
الناشب ..

— أمسكوهم .. اقبضوا عليهم جميعا .. لا تتركوا واحدا منهم ..

ثم استدار الى الناحية الأخرى ، فان قطعة من الحجر الصلد مرت
لصق أذنه اليسرى وأطارت عنته فاحتدم غيظه وراح يسب ..

— وانتن يا .. ماذا أفعل بكن يا بنات الكلب ..

وتفرس فيهن وهو يهدر ..

- وانت يا عجوزة يا كركوبة .. ماذا تفعلين يا مجنونة ! انت
يا فضيلة ..

ثم دوت صرخة عالية من الدوامة انطرح بعدها الشيخ فضل على
الارض يمسك بساقه ويتأوه :

- كسرتنى يا ابن الكلب .. الهى يكسر قلبك يا بسطاوى ..
وفى هذه اللحظة أطلق صالح جلق صرخة :

- برعى ! برعى ! ..

فقد اندفع هذا الاخير ، الى الدوامة ، فى نفس اللحظة التى كان
فيها العساكر يجرجرون خاله الى الربوة ، ومضى يصول ينبوته ويفسح
طريقه بضربات طائشة هنا وهناك ، حتى دنا من البسطاوى ودهمه من
الحلف ، وأمسك به من رقبته وطرحه أرضا ، ثم برك عليه ، ومد يده الى
عنقه يخنقه ، ففتح البسطاوى فمه ، وهنا كف برعى عن ضربه ، ودفع
بيده اليسرى حفنة من التراب الى فم الآخر الذى أخذ يصرخ :

- برعى يا ابن البهيم .. سأقتلك .. لو كنت «جدع» اتركنى ..

ورنت ضحكة فى صفوفنا نحن الأطفال .. فقد احسبنا براحة
عميقة ونحن نرقب برعى زعيم نجعلنا يجندل البسطاوى ويحشو فمه
بالتراب .. لم تكن قد نسينا مشاداته معنا .. ولا تربصه بنا عند كل
منعطف ، ولا سرقة شراكتنا ، وهامو برعى يجثم على صدره .. ويحشو
فمه بالتراب :

وتحمس اش الله وهتف :

- أيوه .. البسطاوى سيقتل برعى ! .. الحيبان يهدد ..
ها ها ها .. أرفعوه من فوقى وسوف أقتله ! هيا ترفعه يا بكر ! ..

وضحك بكر ، وقفز ينكت رأسه فى التراب ويرفس بقدميه فى
الهواء ، ومضينا نضحك بينما الكبار يتأوهون . ثم انطفأت الضحكات
فى الحلق ، فقد أهوى أحد العساكر بهراوة على رأس برعى القته على
الارض ، فأخذ يجرجره الى الربوة حتى طرحه الى جانب خاله الشيخ
فضل ! ..

واصابنا الفزع ، ولا أدري ما الذى دفع بكرا وحفزه ؟ ربما الضربة

التي تلقاها برعى هي التي دفعته الى الانقضاض على «ميروك» أحد صغار
«السواردة» نجح البسطاوى بضربه ويخربش وجهه ..
ودون أن نعى تجمع الصغار من كل مكان وتشابكوا يتضاربون
بالايدى وبجريد النخيل .

ظللنا نتضارب ونحشو بعضنا بالتراب .. ثم توقفنا فجأة لنجد
العمدة قد بارح مكانه ، والحفر يحملون الشسيخ فضل ، على أكتافهم ،
ويوثقون يد حموى وبرعى والبسطاوى .. ويسوقونهم لينعطفوا بهم فى
السكة السلطانية الى بيت العمدة ، فتوقفنا عن التضارب .. وخطونا
بسرعة الى السكة نتعقبهم . وهناك عند المنعطف وقفت شريفة منكسة
الرأس ... ترمق برعى فى حنان والعساكر يسوقونه مكبل اليدين ،
أصفر الوجه وازدادت حيرتها حين رأت البسطاوى ، ولمع فى عينيها بريق
غضب واحتقار اخفتهما بسرعة ، فانه من أبناء عائلتها وأن كانت
تكرهه ..

وقفت تشيعهم جميعا حتى ابتعدوا ... فانخرطت فى البكاء لحظة
استدارت بعدها وبارحت المكان ، تتعثر فى جلبابها الطويل .

ومن خلف جذوع النخيل ، ومن خن الفلوكة انبثق بركات أفندى
وبقية الموظفين ، ينفضون التراب عن ستراتهم ، ويمسحون العرق المتصبب
على جباههم ..

وتنحنينا لهم عن الطريق ، لكنهم توقفوا على رأسه حائرين ، لا يدرون
الى أين يتجهون ! وزاد الصمت بينهم لحظة وهم يتأملون ميدان المعركة ثم
تمتم بركات أفندى :

— شريحة أرض صغيرة ثم ..

وانبرى بديع أفندى يقول ..

— لا شيء غير قوة من الجيش .. لابد من ضباط وعساكر ..
والمصيبة أن علينا تسجيل آلاف أشجار النخيل ، داهيتنا سوداء ، لن
نتهى من عملنا الا بعد سنوات ..

وتقدم عزوز أفندى ، الموظف الصغير من بركات أفندى وغمغم ..

— والمستر هيس سيعود ويسود عيشتنا .. متى نعود من هذا

المنفى ؟ ..

فهز الأخر رأسه وهمس !

- كل نخلة يعقبها نزع ، كل قيراط .. القريب ان العمدة منذ ساعة فقط كان يحدثنى عن الهدوء الذى يشمل قريته ..

صاح عزوز افندى فى طيش ..

- ثور الله فى برسيمه .. ومن أدراه ... ثور وحكموه فى بلد !! ..

ووجه بركات افندى نظرة صارمة الى عزوز افندى وأمره :

- اياك أن تردد مثل هذه الكلمات .. فانهم يسمعونك ..

وأشار الينا نحن الذين توقفنا نراقبهم .. الا أن عزوز افندى لم يبال بنا ، بل أطلق ضحكة ساخرة وراح يقول :

- أتحسبهم يفهمون ؟ ..

وطاف على وجوهنا بنظراته ، ثم أشار الى بكر :

- انت يا ولد .. أتفهم ؟ .. انت يا حمار !

واستدار الى بركات افندى وقال وهو يشير الينا من جديد :

- أرايت ؟ انهم لا يفهمون شيئا .. حيوانات لا تعرف غير ..

ودار على عقبيه ليواجه صحابه ضاحكا ، وفى هذه اللحظة ارتفعت يد بكر ، وانطلقت منها حجرة صغيرة أصابت مؤخرة رأس الافندى فتأوه بينما أطلق بكر ساقيه للريح ..

واعتدنا فى هذه الأيام أن ننفلت من الكتاب عند الظهر ، ونجرب سراعاً الى بيت العمدة فى النجع الشمالى ، لتجتمع أمام دهليز السلحليك وننادى :

- برعى .. برعى يادولحظ ..

فيرتفع صوته من خلف الجدران غليظا خشنا :

- أيوه يا حامد .. وأين بكر وصالح ؟!

- هنا ..

ثم نُسب على أقدامنا ونروى له أخبار النجع ،
وفي اليوم قبل الأخير سألنا برعى من خلف الجدران :
- وساق الشيخ فضل ..
فقلنا له بعد صمت :

- بخير .. يتوكأ على عكاز ويزك بقدمه ، الشيخ شيخ محمود الحلاق
يؤكد انها ستشفى عما قريب ..

وهنا ارتفع صوت حموى والبسطاوى :

- والجزار .. هل أصابه شيء !؟

فأجاب بكر :

- لا يا برعى ..

وساد الصمت لحظة ريثما انعطف شيخ الخفر عند الركن الشمالى ،
ثم ارتفع من خلفنا صوت يقول :

- ستخرجون باكر يا حموى .. برعى .. كيف حالك يا ولدى ..

وعرفه برعى من صوته فصاح :

- الحمد لله .. طيبون ياعم حاكم ..

حاكم الاسكافى هو الذى كان قد تسلسل من خلفنا ليفضى بهذه
الأخبار الى الذين عاشوا فى السلحليك منذ أيام سبعة طويلة :

- لقد تم السلاح ، وقبل الجزار رأس الشيخ فضل بحكم المجلس ..

فسأل حموى ..

- والأرض ..

- أجل بركات أفندى تسجيلها ، الى أن يسأل رؤساءه .. الشيخ
فضل هو الذى أرسلنى لك يا برعى ، بعد أن سمعنا انكم تتشاجرون هنا
مثل الأطفال الصغار ..

وبان الخجل فى صوت برعى ، وتذكر ليلة الأمس ، حين حاول أن
يفشش أظافره فى عين البسطاوى لولا حموى الذى حال بينهما ... آه
لو تمكن من ابن الكلب .. آه لو رأته يا حاكم وهو يتكىء على كوعه ،
ويرتفع برأسه ثم يسأل تماما كما يسأل الرجال :

ثم نغم حموى ، أصحیح يا عم حموى ؟
ويسكت ليلقى نظرة على برعى ثم يردف :
- أصحیح أننا اخوة فى الرضاع .. شریفة وأنا ؟ ..
وحار حموى ثم قال :
- لا يا ولدى .. من الذى أدخل هذا فى منك ؟
- يقولون !
- لا تصدق .. أنت ولدت فى مصر ! .. وولدت هى هنا ! ..
فأطلق البسطاوى ضحكة وقال :

- اذن ، يمكن أن أتزوجها . كادت المسكينة تقتل نفسها حين
رأتنى أساق .. أما غيرى .. أما أنت فإن أحدا لم يسأل عنك غير
زوجتك .
وأدرك برعى أن البسطاوى يعرض به ، فهب من مكانه وأمسك به
وهو يهدر : اخرس يا كلب .

ثم مد قدمه وضرب بها فى ساق الآخر ، وانكفاً على الارض وراح
حموى يصرخ ويستنجد بالخفر ، قدفع الباب ودخلوا وفرقوا بينهما
وساقوهما الى العمدة الذى مدهما فى الفلكه ، وأوسعهما ضرباً وهو
يلعن خاشهما .

وعاد برعى يدب فى طرقات النجع ، متوتر الأعصاب ، يتحرش
بالبسطاوى ، ويثور كلما رأى خاله يزك على قدمه ، ويعكف على
العرقى ، « يطفح » منه ولا يبالى بتهديدات أبيه العجوز .

ومرت أيام ، دون أن يفكر برعى فى زيارة «داريا سكينة وشریفة»
لعله غضب من حديث البسطاوى وتعريضه به وبها ، لعله فكر طويلا فى
صلة القرابة التى تربطها بعائلة البسطاوى ، ولعل الهواجس ملأت قلبه
من ناحية حسن المصرى ..

كل ذلك كان يحول بينه وبين زيارتهما ، الا أن رغبة عارمة فى
رؤيتهما اجتاحت قلبه فى أحد الايام ، وهو يلقي بكومة من الدريس على
سطح بيته ، فقد تذكر فى هذه اللحظة كلمات شریفة :

ولماذا لا تأتي أنت أيضا ؟ .. أمي تقول ان سقف البيت . ،
وأمام عينيه في الفناء كان جذع طويل ممدا . فلماذا لا يحمله
الى بيتها ، والفرصة مواتية .. فقد رأى من مكانه فوق سطح البيت
داريا سكيئة تترك بيتها منذ لحظة ولن يجد هناك غير شريفة ، الا اذا
كانت بطة شقيقة حامد هناك فهي صاحبها بالروح ولا تفرقان .

ووجد نفسه يهبط من السقف الى الفناء ، ويحمل الجذع . ويتسلل
به مارا بأعمدة التليفون ، ثم يدق بقيضته على الباب ، ويدفعه بقدمه
ويدخل ، ويلقى بالجذع على الارض ثم يهتف :

— دستور يا أهل البيت .. إحم ..

ومن الدهليز برزت شريفة ، حاسرة الرأس منبجعة الصدر حتى كاد
جلبابها يتمزق عن الصدر ..

حارت قليلا لكنها تماكنت نفسها ، وقالت

— اهلا .. حمد الله على السلامة ..

وبأن في صوتها رنة عتاب فانتهر الفرصة وقال ..

— هاتى السلم ، ودعيني أصلح السقف .

ورآها تستدبره ، وضفirtاها تهتران على عنقها وظهرها ، ثم تقبل
وهي تجر جر السلم الطويل على الارض لامعة العينين ، منفرجة الشفتين عن
ابتسامة واهنة ..

وتذكر السحر الجميل واستنادها الى جذع النخلة هناك . والفانوس
المنطرح عند جذع آخر . تذكرها ناضجة ، رخصة القوام مثل الرطب ،
وشاقته الابتسامة الحلوة التي رقت على شفيتها واستدارة رديها وتكور
صدرها ، ثم التهببت حواسه فجأة ، فألقى بالسلم جانبا وأمسك
بمعصمها بقسوة وهو يتمتم :

شريفة .

— هيه !

قالتها وهي تشهد وكأنها تعنى :

— أعدت الى فعالك مرة أخرى .. ماذا تريد ؟

وتفرس الفتى فى وجهها وقال :

— شريفة .. ألم أقل لك ..

وصمت ريثما يبتلع ريقه ثم أردف :

- حسن المصرى !

وبانت الدهشة فى عين الفتاة ، وأحست بالكلمات الغاضبة تصرخ فى جوفها : مالك تسأل عنه ؟ .. ولماذا تأمرنى ؟ لست أختك وراحت تنظر الى الارض وقدمها تقوص فى الرمل :

وتأملها الفتى مليا ثم غمغم :

- لا تزعلي ، فأنا زوجك .. أقصد .. سأكون زوجك ! أم انك تريدن البسطاوى ؟

فأسرعت تقول دون وعى منها :

- البسطاوى ؟ .. لا أريد البسطاوى .. أنا لا أطيقه ..

- واستدركت - ولا غيره !

وأضافت بعد صمت :

- لكنه من أقاربنى

وهمست لنفسها - ما من رجل قال لفتاة ، سأتزوجك .. انهم يفكرون فى الزواج ثم يقررون ، ولا يقربون الفتاة ، بل يتقدمون الى أهلها ويستعدون للزفاف ، أما هى فقد تكتفى بفنجان شاي بالنعناع تقدمه ثم تنزوى عن عينيه ، وها هو برعى يفتحها فى الزواج ، مجنون ! لو كان جمال هنا لما تجرأ ، ولكن مالك تلتكئين ؟! .. لماذا لاتقولين له .. لا .. لماذا تتركينه فى حيرة ؟ .. ربما كنت تميلين اليه ؟؟ .. كلا ..

ثم حانت منها التفاتة عابرة الى وجهه ، فأحست بنفس الشيء الذى أحست به وهى تواجه حسن المصرى بين عيدان الذرة ، ثم واصلت تفكيرها ، وقد قفزت صورة هذا الرجل أمام عينيه ، وربما أحست بخدر غريب يدب فى كيانها ، ويلتهب عند فخذها ، فى الموضع الذى فركه حسن المصرى منذ شهور هنالك بين عيدان الذرة .. آه من تلك القبضة .. انها ماتزال تنز من جسدى مثل الجرح ، ثم ينتقل الى القلب فى ألم استعذبه وأحبه !

وغامت عيناها وهى تفكر ، واهوت بيدها على فخذها تتحسسها وتهديء من روعه ، وظلت منحنية فى صمت تستند الى السلم بيد وتلك فخذها باليد الأخرى ، ثم أفاقت على صوته :

— شريفة .. ما بك ؟ أريضة أنت ؟!

فأسرعت تقول متلعشة :

— لا شيء .. لا أعرف ، لا أريد أن أتزوج .

ثم ارتفعت برأسها وشدت من قامتها واندفعت برأسها الى الخلف تحاول أن تبعد وجهها عن مرمى أنظاره ، فبرز نهداها ، وبدأت جميلة تنغرز في قلبه بآلاف الصور البديعة ، فلمعت عيناه ببريق غريب ، أدركت كنهه : نفس البريق الذي رآته في عين حسن المصري .. أدركت كنهه فتراجعت خطوة الى الوراء وانعطفت بوجهها تريد أن تستدير وتتركه الى الدهليز الداخلي ، الا انه اندلق عليها فجأة ، وجذبها من منكبها وضمها الى صدره بقوة ، فأحست بأنفاسه تلفح وجهها ، وبرائحة العرقى تفوح من فمه ، وأفادت على صوتها يصرخ صرخة مطوطة ارتبكت لها .

وازدادت حيرتها وارتباكها حين فتح الباب الخارجى فى هذه اللحظة وأطلت من فتحته « داريا سكيئة » بوجهها المستدير الاسمر ومن خلفها عم نوح . كانا عاثنين بعد تسوية حساب بينهما فى المتجر منذ قطع البلح .

وبدت الحيرة والاضطراب واضحين فى عين برعى ، ودون أن تدري كيف واثتها الفكرة راحت تبحث عن أكذوبة تعلق بها صرختها الطويلة وقد وجدتتها عند برعى فتبرعت بها .. وجدته يشير الى السلم ، منعنيا على ساقه يفركها ، ويتأوه ، فاندفعت تقول بسرعة وفى ألم ..

— أمى .. عجل .. وقع المسكين من السلم .

يا لله .. انها تحبني وتريدني . والا فلماذا تكذب ؟ أم انها تخشى الفضيحة أن تنكشف أمام نوح ؟!

رغم ذلك فقد وجد نفسه سعيدا ، ومضى يمثل دور انسان كسرت ساقه ، فتأوه كما يتأوه خاله ، حين أخذت أنامل نوح تدلكها بعناية فائقة ، وراحت الفتاة وأمها تجريان بين الغرف ، تعدان ماء فاترا وزيتا سخنتاه ، تدهنان به ساقه .

ومكث برعى ساعة أو تزيد هنالك حتى شرب شاي العصر ثم نهض واتكأ على عصا ، وبارح البيت يزك على ساقه اليمنى ، ثم القى بعكازته ، وأسرع الى بيته وهو يطلق قهقهة عالية سمعتها وأنا أمام المتجر .



أخذت أطوح بالكيس فوق رأسي ، وأصفر وأنا أراقب الطريق ، على واحد منهم يشق الدرب الحالى بقامته ، يحمل بلطته الصغيرة وكيسه ، وينتظر في هذا المكان مثلي الى أن يأتى الآخرون .

١٥

تأخروا . وها هي الشمس تتخطى الظهر ، وتخطو بأشعاعاتها الى الأصيل دون أن يبدو واحد منهم ، حتى برعى الذى انقطع عن الكتاب منذ شهور . وعد بمصاحبتنا في رحلتنا الشهرية المعهودة الى قمة عالية في الجبل ، تماما خلف الصخرة المعلقة على كتف الجبل ، خلف مثذنة الجامع ، ففي مغارة صغيرة هناك منجم جير نقتطع منه بالبلطة قطعاً بيضاء نطلي بها « الواحنا » قبل أن نخط عليها بالحبر آيات القرآن ! ..

وفي المغارة ، وبالذات منذ الأصيل ، ترف الخفافيش بأجنحتها وتكاد تلطم وجوهنا ، ولقد أخذ برعى منذ شهور يهتم باصطياد هذه الخفافيش يدقها مسحوقاً أسمر وهو يتمتع بكلمات مبهمة عن شريفة !

ومرت لحظات طويلة ثم سئمت الانتظار ، فأطلقت من جديد عواء الذئب أقلد برعى وأوش الله . كررته مرة بعد أخرى دون أن يستجيب أحد لندائى ، فاستندت الى جدار البيت أفكر فى الأزهر والشيخ الرحمانى وبركات أفندى وقلمه العجيب . فقد رأيت هذا الأفندى مرة يجوس بين أشجار النخيل ، يتأبط دفتره طويلاً يتوقف به عند كل نخلة يسأل عن صاحبها ثم يخرج قلمه الأسود اللامع ، ويرفع عنه الغطاء ويشير بسنه

الى الصفحة ، فيظل يكتب ويكتب دون عناء ، دون أن يغمس طرفه في
المحبرة كما نفعل نحن ، في الكتاب ، بأقلام البوص ..

قلم عجيب ! لا يحتاج الى حبر ! ولا يتوقف عن الكتابة أبدا حتى
أصبح حديث كل أطفال النجع . كنت أول انسان عرف سره الغريب ،
ومن أين يتسلل الحبر الى سنه ؟ فأخذت أحكى لهم عنه فى كل يوم ،
وأزعم أن خالى عثمان سيرسل لى قلما مثله من مصر فى يوم من الأيام
حرصت الا أحده ، ولم أفض لأحد كيف عرفت سر القلم العجيب الا
بكر فانه تحدانى مرة ، وهو يسخر منى :

— أنت تكذب .. أنت لا تعرف شيئا عن قلم بركات أفندى .

وملأنى الغيظ فقلت :

— أنت ألف كذاب .. عبده الفرنساوى هو الذى قال لى .

— عبده الفرنساوى ؟ .. وماذا قال لك ؟ وهل يعرف ؟ وترى
لكى أثر انتباهه وتشوقه ورحته أحكى :

— فى القلم مكان للحبر .. بداخله دواية . والرجل يملأ هذه
الدواية كل يوم فى الصباح .

وتفرست فى وجهه ثم أضفت ..

— وأنا أعرف اسم القلم أيضا .

— لا يا شيخ .. وحياة أبوك ..

— وحياة أبويا اسمه أبو نوس « قلم أبو نوس » تعال نصنع قلم
أبنوس شبيها له !

وانكبنا على أعواد البوص الجافة نفرغ جوفها ونبريها ونملؤها
بالحبر ثم نحاول الكتابة .. ولم نعدل فى نهاية الامر الا منذ عرفنا ان
البوص يتشبع أو يندفع بالحبر مرة واحدة على ملايسنا ، وكراريسنا .

منذ ذلك التاريخ والقلم « الأبنوس » لا يبارح مخيلتى . كنت أفكر
فيه وأنا آكل ، وأهتم به وأنا نائم ، والح على أبى أن يشتري لى قلم
أبنوس فاضطر وكتب لخالى عثمان يطلب منه أن يرسله فى طرد هدية
لى فعشت أترقب وصول الباخرة والطرود فى كل أسبوع الى أن سئمت

.. الا ان صورة هذا القلم ظلت تنبثق امام عيني كلما خلوت لنفسي ،
ولهوت مع أترابي .

ولا أدري لماذا عاودني التفكير في تلك اللحظة في تلميذ المدرسة
مصطفى ؟ ، .. ربما دفعني الى تذكره ادعائه مرة انه يملك مثل هذا
القلم في المدرسة ، تخيلته يمسك به ، ويدفعه الى الكتابة دون توقف ،
ثم يحكم غطاء ويعيده الى جيبه الصغير ، مزهوا بنفسه كأنه ابن العمدة ،
ودون أن أدري سمعته أقول :

– أبوك – انعل أبوك .. لأبو أبوك !

فعجبت لكلماتي غير أنني تناسيتها بسرعة ، ومضيت أشب على
قدمي ، وأشرئب بعنقي ، افتش في الطريق ..

ومن بعيد ، لجت « أوش الله ويكر » يتأبطان كيسين ويدبان على
أرض الطريق ، ومن خلفهما برعى ، يدفعهما دفعا وكأنهما معزتان
صغيرتان جافلتان .

اقتربوا مني وهم يتلاحون في أصوات عالية برعى : بلا لكاعة .

بكر : تأخرنا ولا فائدة اليوم من تسلق الجبل ...

والتفت الى أش الله يطلب تأكيدا لكلامه الا ان برعى لم يترك
الفرصة لأحد بل قال : – حامد ليس في كيس كتبه قطعة واحدة من
الجير .

فهزرت رأسي أو من على كلماته ، فاندفع بكر يقول :

– سأهديه أنا قطعة ..

واسقط هنا في يد برعى فصاح في ملل وغيظ :

– والخفاش .. أنا أريد خفاشا الليلة .. ويتبرع أوش الله يقول:

– في هذه الحراة خفاش يطير في كل مغرب .

– أين ؟!

– هنا ..

وأشار الى الحراة الملاصقة لبيت داريا سكيئة فانطلقنا جميعا
بأبصارنا اليها وأوش الله لا يزال يشرح .



كان واضحا اننى وأوش الله وبكر وصالح جلق نخشى تسلق الجبل
فى الاصيل ، فسوف تغيب الشمس وتظلم الدنيا .. ونحن على قمة
الجبل أو عند سفحه . وقد نضل طريقنا .. أو تصادفنا الضباع والذئاب
التي يقشعر بدنى حين أذكرها !

وأراد برعى أن يكذب أوش الله ويدفعنا دفعا الى الجبل الا ان
شيئا بدا فى بداية الطريق جعلنا نتوقف ونطيل التحديق ..

كان مصطفى « تلميذ المدرسة » بشعره الناعم الرجل ، وطاقيقته
التي تنزلق الى الخلف وجلبابه البولين ذى الياقة يقبل علينا ،
وقد أرخى لجام حماره الابيض الفارة والذي اسدل مصطفى على سرجه
فروا طويلا بنى اللون يتدلى على جانبيه ..

لقد تبدل مصطفى وأصبح انسانا آخر غير الفتى الذى اعتدنا
تمريره فى التراب حين مشاداتنا مع أطفال « السواردة » .. تبدل منذ
أن ترك الكتاب وهجر القرية .. وعبر المنحنى الشمالى الى الدر ..
والتحق بالمدرسة الابتدائية هناك .. تبدلت ثيابه وعاداته . فلم يعد
يجرى مثلنا فى الطرقات .. لم يعد يلعب فى النيل .. ولم يعد يشاركنا
التهام قصاع الفتة فى « المياتم » بعد طقوس المرحمة .. لم نعد نراه الا
يوم الخميس فى العصر أو يوم الجمعة اللذين يقضيهما أمام متجر أبيه ،
متكئا على دكة طويلة يتصفح كتابا أو مجلة مصورة . وتبدل موقف
الناس منه منذ أن أصبح حديثهم : الافندى جاء ، والافندى راح .. الافندى
نام .. الافندى فى الحمام .. مشغول فى استذكار دروسه ! هذا الولد
المفصوص الذى اعتدنا حشو فمه بالتراب أصبح مثل بركات افندى ،
حديث القرية ، فالصغار يحسدونه أو يهزءون به . والكبار يتندرون
بأقواله وافكاره الغريبة .. فالارض كروية .. هذه الارض التي ترتفع
البيوت والجبال فوقها تدور وتدور دون أن تقع ! وهى كروية مثل النوم
أو البيضة .. يا لله !! والعفاريت والجن لا وجود لهم .. والشمس حين
تغيب لاتنام .. بل تصحو فى مكان آخر .. والقمر ساهر الى الابد !!

ولم يعد هو يبالى بنا ولا بالكتاب وشيخه . بل تناسانا جميعا منذ
أن رحل .. وها هو يقترب ، وفى صدورنا يتكون شعور غريب بالتحدى
والتطلع الى مساجلته وهزيمته .. ومعرفة كل شيء عن مدرسته .. فلماذا
لا نلاقيه فى هذه اللحظة ؟ لماذا لا نعترض طريقه ونشبع فضولنا الدائب

الذى لا يمل ؟ .. نفس الفضول الذى يتحرك فى صدرى وفى صدور
كل الصغار .

فى هذه اللحظة ماتت رغبة برعى فى تسلق الجبل .. واطمان
بكر واوش الله وتغلبت أنا على ترددى .. وقررنا - وكأننا لم نتشاجر
منذ لحظة - أن نهجر رحلتنا وأن تبقى لحظات مع صديقنا القديم ..
فانتصبنا فى عرض الطريق نسد عليه السبيل .

أخذ يدنو حتى توقف فجأة ، يقلب الطرف فى وجوهنا .. وفى
عينيه خوف بالغ تبدى فى اتساعهما وفى رعشة يده باللجام .. ثم
حاول أن يفلت منا الا أن برعى أمسك باللجام وهو يقول : علام العجلة
يا مصطفى ؟ .. تفضل ، فارتبك الغلام وتلعثم :

- ماذا تريدون .. معى جوابات من البوستة .

وقلت له ، وعيناي تنزلقان على هندامه وعلى جيبه الصغير :

- كيف حالك يا مصطفى .. لماذا لا نراك ؟

وقبل أن يجيب انبرى بكر يهتف ، وهو يزمق السرج والفرو .

- ولا حمار الملك .. انزل حتى نمتحنك لترى أينما أجدع .. أنت

أم نحن ؟ !

فتلفت الفتى من حوله ولم يجد مناصا .. فترك السرج وقفز الى
الأرض .. ثم تخير مكانا نظيفا جلس عليه وهو يرمقنا بنظرات حائرة ،
بينما استدرنا به خشية أن يفلت منا ، وران الصمت وبرعى يحدجه ،
وأنا أتلصص على جيبه الصغير فوق صدره ، وفى الجيب الآخر حتى
أخذته الهيبة فسأل .

- ماذا تريد ؟ ليست معى أية حلوى ... فتلعثمت وأطرقت

برأسى أدارى خجلى وابتلع ريقى .. ثم قلت هامسا :

- لا أريد حلوى .. متى كنت آخذ منك ؟

ورفعت عينى الى وجهه أسأل :

- أين القلم الابنوس !؟ .. انما أبحث عنه ..

- أبنوس .. آه .. فى المدرسة .. فى « البر » ،

فأطلق برعى ضحكة ثم صاح ..

- كذب .. ليس عندك قلم أبنوس ..
- أنا كذاب .. طب والله العظيم .. أنا عندى قلم ..
- أبنوس ؟
- أيوه .. أبنوس ..
- أسود مثل أبنوس بركات أقندى ؟
- أكثر سوادا منه ! ..
- ثم تقدمت نحوه أرجوه :
- وحياتك يا مصطفى .. دعنى أراه يوم الجمعة .. أريد أن أراه .
- فرمقنى وهو يبتسم فى ارتباك وقال .
- لا .. لا .. أنا لا أحمله معى أبدا .
- ولماذا لا تأتى به لنراه يا ..
- وقبل أن أنهى كلماتى انتهرنى برعى بينما انطلق بكر يقول :
- كيف وجدت الدر يا مصطفى .. أهى أحسن من بلدتنا ؟
- ألف مرة .
- فاحتد برعى : اخرس .. بلدنا أجده بلد فى الدنيا .. ناسها
- أجده ناس ..
- ثم طامن من صوته وهو يقول : وكتاب الشيخ طه أجده من مدرسة
- الدر !
- فتأمل الغلام وجوهنا وكأنه يسخر منا نحن البلهاء .. ثم مضى
- يتكلم عن مدرسته التى تفضل الكتاب عشر مائة مرة .. ألف مرة :
- فهناك لا نفترش التراب ونكتب عليه ..
- وعلام تكتبون اذن ؟ وأين تجلسون ؟ اننا لا نصدق ..
- سؤالان انطلق بهما بكر وأوش الله ، أجاب عليهما الغلام فى هدوء :
- نكتب على التخته بالطباشير ، وفى الكراريس بريشات معدنية
- جميلة .
- وما هى التخته يا مصطفى ، والطباشير ؟ .. فمضى يشرح ونحن
- من حوله ذاهلون .. وهناك لا يمد التلاميذ فى الفلكة .. ولا يأكلون
- اليخنى الذى ينفخ البطون بل يأكلون الصلصة والعنب .

وسأله برعى : الا يضربكم أحد بالكرباج ؟
 - اذا أخطأنا يفرك الشيخ مرسى آذاننا بأصابعه .. ويضربنا مكي
 أفندى بالمسطرة على أطراف أصابعنا .. وكذلك المصرى أفندى ..
 فقهقه برعى وصرخ فى نشوة :
 - هنا ضرب .. وهناك ضرب .. كتابنا أجدع ..
 - ولكننا نتعلم هناك الجغرافيا والتاريخ والحساب والانجليزى !
 ومضى يلوى لسانه ، ويلوك الفاظا غريبة كتلك التى لاكها عبده
 الفرنساوى .. والمستتر هيس فى تلك الظهيرة بين أشجار النخيل .. ثم
 سكت ليتأمل دهشتنا ، وعلى وجهه أمارات النصر .. كان يرمقنا وكأنه
 يقول : ألم أقل لكم : المدرسة أفضل من الكتاب عشر مائة مرة .
 الا أن برعى تحداه وصرخ فى وجهه :
 - وماذا يهمنا نحن .. لماذا نتعلم الانجليزى .. كلام نصرانى ؟
 ثم اردف بعد صمت :
 - وعلى كل فاننا نعرف الكلام النصرانى كما تعرفه أنت ..
 ومضى يلوى لسانه وهو يقول لى :
 - خامد .. ييس يا خامد ..
 وقطب جبينه وهو يصرخ فى بكر :
 - قلت لك « نو » يا بكر .. أما انت يا مصطفى فلست الا فاشيه
 ترانتاريه !
 وخجل الغلام ونحن نفرق فى الضحك .. وتريث حتى عاد الهدوء ..
 فقال فى صوت حائق :
 - وهل تعرفون الكسور .
 فقال برعى بسرعة : الكسور .. هاها .. كيف لا نعرف الكسور .
 غشم .. جبر الكسور على الله .. ها .. ها .. أحم ..
 وجاء دوره فضحك طويلا ثم استدار وهو يقول :
 - أنا أسألكم عن الكسور العشرية . أتعرف يا حامد كيف تكتب
 ٥ ر ؟
 خمسة من عشرة المسألة أبسط مما تظن يا مصطفى . أتحسب أننى

لا أستطيع كتابتها ، أنا الذى كنت أتفوق عليك دائما فى الحساب ..
عجائب !

ومددت يدي وسويت التراب وكتبت « خمسة من عشرة » وصحت
ـ والباقي خمسة .

فأطلق الفتى ضحكته من جديد وقال :

ـ الكسور العشرية ! إنك لاتعرفها ، حتى الشيخ طه لا يعرفها ..

وبسط راحته على التراب وسواه وكتب الرقم بطريقة غريبة أذهلتنا
جميعا .. ثم مضى يشرح معنى الكسور العشرية والاعتيادية ثم رسم
خطوطا أخذ يضع نقاطا فوقها هنا وهناك ..

ثم تأمل الرسم لحظة وقال فى نشوة وزهو :

ـ هذه مصر ، وهذه هى اسوان وهنا الدر .

فغفر برعى فاه ، وانكبينا على الارض جميعا نسأله :

ـ وأين بلدتنا ؟

وأشار الفتى الى نقطة صغيرة وقال :

ـ هنا ..

وحملتنا بعيوننا وعدنا نسأله : وأين البيوت .. وأين الجزيرة
والجبل .. وأين الكتاب يا مصطفى .. والنيل وأشجار النخيل .. وقبة
الحاج مكاوى .. اتحسب أننا نصدقك ؟ .. نقطة صغيرة مثل حبة القرطم
نسميها بلدة ؟ .. اتحسب أننا معاتيه يا معتوه ؟

ولم يستطع برعى أن يحتمل .. بل بان الشر فى عينيه .. كما
تحفز بكر وأوش الله يناوشان الفتى ويسبانه .. وهو يحاول أن
ينفلت ليتعلق بلجام حماره ويهرب من حصارنا .

أما أنا فقد احسست بالاشفاق عليه .. اذ امتلأ قلبي بحب كبير
نحوه .. وباعجاب لا حد له دفعنى الى التنحى عن طريقه .. وترك
الفرصة له .. فانفلت من قبضة برعى الذى انطلق خلفه يريد أن يدفعه
عن حماره لولا أن ظهر حسن المصرى عند المنعطف عائدا بركوبتنا من البئر
القبليّة عند نجع المحراب بعد أن سقاها هناك .. فقد أبى حمارنا دائما
أن يشرب الا من مياه الآبار .. فاعتاد حسن المصرى أن يسوقه فى كل
أصيل الى ذلك النجع ويعود به يمتطيه دون سرج أو فرو .

وبينما كان مصطفى يبتعد عنا توقفت أنا في الطريق اعترض طريق
حسن المصرى وأنا أهتف به :

— عم حسن .. اركبنى !

ولم أكن أدري لماذا اعتاد حسن المصرى أن يضحك كلما سمعنى
أردد هذه الكلمات .. كان يضحك ثم يستعيدنى ليعاود الضحك من جديد
الا انه كان يردفنى من خلفه فى كل مرة ولا يتركنى الا أمام بوابة بيتنا
الكبير ..

وتوقعت أن يتوقف بحماره ليردفنى خلفه .. فاذا به يتسهم فى
وجهى قائلا : ليس الآن فعندى مشوار أعود بعده !

فأخرجت له لسانى وعدت خلفه أريد اللحاق به الا أنه ابتعد
بسرعة وتركنى ألثمت مستندا الى عمود التليفون .. أراقب الآخرين
ينصرفون .. وتنصرف معهم ظلالهم الطويلة التى ألقتها الشمس المائلة
الى الغروب وتختلط بالظلال المديدة لاشجار النخيل وأعمدة التليفون
والبيوت ومئذنة الجامع .. حتى ظلال العصافير والحمام كانت تبدو هائلة
تمتزج بالصور الغريبة التى انبرت تصرخ فى جوفى : مصطفى فى الدر
وفى المدرسة ولا يمد فى الفلكة .. ولا يجبر على حفظ القرآن بالكرباج ..
مصطفى لا يكتب على الارض باصبعه بل يمسك بريشات معدنية للرقعة
وللثلاث والنسخ .. ويعمم كلماته بحروف التاج .. والصلصة الحمراء
بدل اليخننى ... أتراهم يفترون الارض فى الأزهر ؟ أذكر أن الشيخ
الرحمانى روى لابى مرة عن شىء مثل هذا فى الأزهر .. أتراهم هنالك
أيضا يمدون فى الفلكة ولماذا لا أذهب الى المدرسة مثل مصطفى الذى قال
لى وهو يتعلق بلجامه :

— ابى كان يكلم اباك ويسأله : لماذا لا يذهب حامد الى المدرسة ؟

فسأله فى لهفة ؟

— وماذا قال أبى ؟

— سيبحث بك الى الأزهر لتعود كما قال أبى مثل الشيخ الرحمانى
الذى لا يعرف الا كرشه واناجر الفتة ..

وددت لو بقى ليكمل حديثه معى .. الا أن برعى وملاحقاته دفعته
دفعاً .. فاستحث دابته وانطلقت به فى اتجاه نجح السواردة ..

ومضيت أنا أقفز من ظل شجرة الى ظل أخرى وأنا غارق في أفكاري الصغيرة بينما الشمس تردف نفسها خلف التلال الغربية لتزف وتنام في فراشها الرمل الوثير • كلا يا حامد •• انها لا تنام بل تظل تحلق في سماء أخرى ؟ كيف ؟ •• عجائب يا مصطفى •• في المدرسة يمكنني أن أعرف •• هل الشمس تنام في الليل أم تصحو في مكان آخر ؟ وهل الارض مثل الدوم كما يقول مصطفى •• أم هي مبسوطة مثل سطح البيت ••

أمسكت هذه الدوامة بي • وأنا أمشي متناقل الخطأ بعد أن غابت الشمس •• ولف المساء كل مكان في النجع بظلامه الشفاف •

وعند الباب وجدت « بطة » ترتفق كتف الباب وتحقق في وجهي وهي تقول :

— أين كنت ؟ •• أبوك عند جدتي ••

فقلت لها :

— وأنا مالي ••

— ملة تمل جنابك •• انه ينتظرك يا قليل الحيا •• تعال ••

وأمسكت بكم جلبابى وأخذت تشدني وأنا حائر اتساءل : لماذا ينتظرنى أبى •• وارتعشت من الخوف •• فقد يكون الشئخ طه قد عاود شكواه منى •• ولعل أبى يريد أن يعاقبنى بلسعات خيزرائته ؟

ووددت لو أفلت كفى وانطلقت الى بيت خالى أستجير به •• الا أنا كنا قد دلفنا الى الدهليز •• ولم تعد هناك الا فرصة الافلات الى الفناء الداخلى •• والفرصة متاحة لولا بطة التى تتشبث بذراعى لا تريد أن تتركنى •• فالمسرجة لا تنير الا الركن الذى فيه عنجريب جدتي •• تلقى بنورها الباهت على وجهيها وعلى رأس أبى وعلى أمى التى كانت ما تزال منكفئة في ركنها مطرقة ترسم خطوطها الازلية •• كما أن أبى كان منهما في حديث طويل مع جدتي •• فلم ينتبها لدخولنا ولا لوشوشاتى وأنا أعاند بطة وهي تعاندني وتشدني من ذراعى اليهما •

وفجأة استطعت أن أخلص نفسي منها وانطلق لأعبر الدهليز •• وأخشيء خلف الصوامع هنالك في الفناء الا اننى ارتطمت بصفيحة فارغة عند الباب الداخلى فرفع أبى رأسه وصرخ :

— حامد .. تعال هنا يا حامد !

قاسقظ في يدي .. ودفعت بطة في صدرها بضمة فراحت تشهق
وتشكو بينما مضيت أنا متثاقيل الخطا الى أبي أنحنى على يده وقبلها
فجذبني اليه وهو يقول :

— أين كنت ؟ برعى سيفسذك علينا ..

وأردف بعد صمت :

— الشيخ طه يشكو منك .. لم تعد تحفظ شيئا .. بل تنسى كل
شيء حفظته ..

وخيل لي لحظة أنه سيطرحني أرضا .. وينهال على بخيزرانتة الا أنه
تحول عني وصرخ في وجه جدتي :

— أنت تقسدينه .. تربية نسوان .. وعلى أنا اللوم ..

فصاحت بحدة في وجهه وعضلات وجهها ترتعش :

— أنا .. وأنا مالي ؟ .. خذه عندك في بيت زوجتك !

وهنا رفعت أمي رأسها في انكار شديد .. وحدجت أمها بنظرة
قاسية .. بينما واصل أبي حديثه :

— خذه عندك ! وكأنك ترضين .. الولد يضيع وأنت السبب ..
أنت السبب !

وانعطف نحوي وأمسك برأسي وهو يهمس :

— لا تخف .. لكن عليك أن تختم القرآن لتلتحق بالأزهر ..

وسكت هنيهة يتأملني ثم قال :

— ستعيش هناك عند خالك عثمان .. فهو يحبك وان كان يكرهني !

فصاحت الجدة تحتج :

— لماذا يكرهك ؟ حرام عليك .. أليست المسيحة الكهرمان التي

في يدك هدية منه .. ولماذا تحشو رأس الولد بهذا الكلام الفارغ ؟ أسأت

معاملة أخته أم الولد في مصر .. فغضب عليك عامين ثم رضى عنك ..

ولم تعر أمي هذه الكلمات أى انتباه .. بل مضت تخطط في

الرمل كعادتها دون أن ترفع رأسها بينما اقشأ أبي يقول :

— نهايته الواد لازم يروح الازهر ،

وأردف بعد صمت وكأنه يقدم رشوة :

— البيت سجلته باسم حامد يا فاطمة .

ولوح لأمي بيد بينما الأخرى تعبت بالسبحة الكهرمان ، فلهجت
جدتي بالشكر والدعاء لأبي بطول العمر أما أمي فقد اكتفت بحركة واحدة :
رفعت رأسها قليلا وتفرست في أبي بنظرة لاهى بالراضية ولا هى
بالغاضبة ، ثم عاودت الانكماش والانتواء على نفسها :

وترك أبي قصة البيت ، وعاد يؤنبنى ويشرح لى أحلامه ..

— يا سلام على الازهر يا ولدى ، يا سلام حين تعود بالجبة والقفطان،

فيقبل الناس يدك وأنت متكئ على المصطبة فى أجازتك ..

ونظر فى وجه جدتى مليا ثم همس :

— ادعى لى يا ست عيشة بطول العمر الى أن أراه فى هذا الزى ..

ادعى لى أن يطول عمري مثل ابيك الحمزيلي .

كل انسان كان يتمنى على الله أن يطيل عمره مثل جدى الحمزيلي .
جد أمي والد جدتى عيشة . رجل نحيل القامة حاد العينين . لم تتأكل سنة
واحدة من فمه ، ورغم أنه كان قد بلغ المائة كان ما يزال يتزوج ويزرع
ويقلع فى « عنيبة » ، وجدتى فخورة بأبيها ، تحبه وتزوره وتعود محملة
بالهدايا فى كل موسم . وما أن ذكر اسمه حتى رفعت عينيها الى السقف
ومضت تدعو له أولا ، ولنفسها ولأمي ولنا ثم لأبى فى نهاية الأمر .

وهنا كانت شقيقتى جميلة قد أقبلت من المطبخ بفنجان القهوة
لأبى . فأحسست وهى تقف الى جوارى بالأمن ، وشعرت انها ستقف الى
جانبى ، اذا ما أفضيت بما كان يدور فى صدري ، ففى كل لحظة كانت
الكلمات ترتفع الى حلقى ثم تحتبس نفسها هنالك لا تبارحه هاربة من
وجه أبى ومن الأزهر أمنيته العزيزة . فى كل لحظة كانت صورة مصطفى
ومدرسته ترتفع أمام عيني وتقف بينى وبين أبى كأمل أتطلع اليه ، بينما
يتراءى لى هذا الأزهر الذى يتحدثون عنه خرابة واسعة ذات أعمدة متشعبة
مثل « الكره نوج » يتحلق فيها جماعات معمة فاغرة الافواه والكروش
تلتهم قضاع الفتة فى نهم وتتلقت هنا وهناك ، وتهشم ضلوع كلاب
ذوات غرة بيضاء فى رأسها مثل « لورد » جماعات تشبه الرخمانى طولا

وعرضاً • فى كل لحظة أصرخ صامتاً : لا يا أمى ، لا يا جدتى ، أنا لا أريد
الازهر ، بل المدرسة هنالك فى الدر مثل مصطفى وفوزى ابن عمدة ابريم •
ابن عمدة وابن تاجر • أنا لست أقل منهما وليس مصطفى اشطر منى •

هذه الأفكار مع الخوف من أبى كانت تعتلج فى صدرى وتنضح على
وجهى عرقاً بارداً لاحظته جميلة وانحنى على فى حنان الأم ورفعت رأسى
وأدارته الى الضوء ثم قالت فى صوت هادىء وهى تتأملنى :

— حامد •• أريض أنت ؟ ••

فصرخ أبى فى وجهها :

— دعيه وشأنه • كفاه تدليلاً ، انه ليس مريضاً ، بل يفكر فى مصر
وفى خاله وفى الازهر بعد أن يختم القرآن ••

لكنها أصرت على موقفها وانشأت تهمس :

— ألا ترون العرق على وجهه •• دائماً يشكو من بطنه •

وبدأت تنصرف الى المطبخ وهى تهمس :

— سأعد لك فنجال حرجل !

ألا انى أمسكت بيدها !

— لست مريضاً يا جميلة •• ابقى معى •• فأبى يحدثنى عن
الازهر ••

فأذعنت وافترشت الارض بجانبى بينما مضى أبى يقول :

— ألم أقل لكما •• انه يفكر فى الازهر وليس مريضاً ••

ثم التفت فجأة الى بطة التى شرعت تفرك بالرمل اثناء نحاسياً فقال
يأمرها :

— انت يا بنت ، عليك بالحوش ودعينا نتكلم •• قلة حياء ••

فمطت شفيتها ولوت بوزها وانحطت الى جانب أمها تنفض يديها
من التراب وترمق أباهما بنظرات غاضبة ••

وعلى حين غرة وأنا أمسك بيد جميلة انفجرت الكلمات من حلقى
فجأة وجدتنى أصرخ : وأنا اتزحزح من مجلسى قليلاً الى الخلف هارباً من
رمى عصاه ••

— أبى •• أنا لا أريد الازهر !

بوعلى الدهشة وجوههم وانبرى الرجل يقول :

- هيه .. ماذا يقول الولد ؟!

وتلعتمت وأنا أقول من جديد :

- لا أريد الأزهر !

فضرب كفا بكف وأدار عينيه فى لا شىء ثم صرخ :

- ما شاء الله .. ما شاء الله .. وماذا تريد اذن .. اتريد أن
تعمل سفرجيا .. أو مرمطونا .. أو فلاحا فى الأرض ؟

وهنا صاحت بطة وقد رفعت رأسها واشرابت بعنقها :

- جدع يا حامد ، بلا أزهر ، بلا مدارسى .. دعه معى يا أبى فى
الغيط .. بلا مياعة ودلع وتعليم .

فرد الرجل عليها بقلظة :

- اخرسى يا بنت الـ .. غورى من وجهى .

فزامت لحظة ، وغمغمت ثم سكنت بينما انبريت أقول فى صوت
خافت كأننى أريد ألا يسمع الرجل كلماتى :

- بل أريد أن أدخل المدرسة .. مدرسة مصطفى .. فى الدر ..

فمد يده وصفعتنى فأطار صوابى فقبضت على حفنة من التراب
نثرتها فى وجوههم دون تمييز ، وانطلقت أعدو الى الفناء ، ومنه الى جذع
النخلة التى ترتفع لصق الجدار الفاصل بين بيتنا وبيت خالى وتسلقته
بخفة دون أن القى بالا الى لورد الذى أخذ يزوم ويخدش ساق النخلة
بمخالبه ويهز ذيله كأنما يسألنى :

- لماذا تهرب .. والى أين ؟

ومن جذع النخلة القيت بنفسى على سطح البيت ، وتكومت على
مخزمة من الدريس أبكى وأراقب من خلال سحابة الدموع هلالا باهتا كان
يرتفع فى السماء ، واصبغ السمع الى هدير أبى وتوسلات جدتى ، والى
نداء بطة وجميلة اللتين اندفعتا الى الحوش تبحثان عنى فى كل ركن ..

سارتا في الطريق العام • والشمس ترتفع فوق البيوت ،
وتبرق على قمم الاشجار ، وعلى كتفيهما فأسان ، وفي يديهما
مقاطف من ليف النخيل • وعلى جبينها امارات جد • وتوقعتا
نهارا شاقا تقضيانه تحت وهج الشمس بين الحقول ••

وتعثرت الكبرى وكادت تنكفئ على الارض • ثم تماسكت وخلصت
جليابها الازرق الداكن الطويل من العاقول واستدارت تقول :

— شهلى ، فقد تأخرنا !

وترددت الاخرى لحظة ثم همست :

— ألا يعترض أحد علينا ؟

— كلا يا ابنتى •• اتفقت مع الجزار ليلة أمس ، والبسطاوى وعد
بمساعدتنا ••

فمنذ شهر قررت داريا أن تزرع قطعة أرض •• فراحت الى الدكان
وجاءت تستعطف أبى ليخلي بينها وبين قيراطيها المرهونين حتى يشتت ••
فلجأت الى عبد الله الجزار :

— ديونى تراكمت يا عبد الله ، ولاشئ فى البيت ، اعطنى قيراطين
أزرعهما أنا وابنتى •• لو كان جمال هنا ••

وتأملها الرجل قليلا ثم قال :

— أنت تزرعين ؟!

— لماذا لا أزرع •• أنت تعرف أننى كنت أزرع أيام المرحوم •• وقبل
أن يسافر جمال •• القيراطان كنت أزرعهما قبل ان يأخذهما التاجر ••

— ومن أين أعطيك الارض ؟ الارض ضيقة ياولية !

ثم أطرق قليلا بينما راحت تهمس :

- المرحوم قريبك ، وشريفة ابنتك .. استرنا .. ربنا يستر
ولايك ..

ورفع الرجل رأسه وكأنما قرر شيئا ، وأشار لهما الى قطعة أرض
صغيرة تنطرح خلف الجدول الكبير .. بالقرب من ساقيتنا .. قطعة أرض
غائرة بعد أن اتخذت معجنا .. تنضح الاملاح على سطوحها ولا تنبت
الا العاقول .. قطعة تلاصق أرضه ومن أملاك زوجته ..

وفرجت « داريا » وعادت في جنح الليل الى بيتها بعد ان استعارت
فأسيين من حسن المصرى .. وانتهت الى ابنتها بالبشرى ..

وها هما تدبان على الطريق ، تريدان ان تنقلا طينا من الجرف الى
قطعة الارض الغائرة ..

وتساءلت شريفة :

- ترى هل يساعدنا برعى أم انه سيغضب ..

ثم أفاقت على صوت امها الضاحك ..

- من أجل عين تكرم ألف عين يا بنتى ! ..

البسطاوى يريدك ..

وصمتت الفتاة .. وغرقت من جديد فى أفكارها الحائرة ، وحسن
المصرى ، ألا يساعدنا ؟ كلا .. انهم جميعا مشغولون لشوشتهم فى هذه
الايام ..

وتنحنت « داريا » عن الطريق وتبعتها شريفة ، فمن حولهما كانت
قوافل من الحمير تروح وتجيء بين الحقول وسفوح الجبال وحظائر المواشى
.. تنقل السباح البلدى من هذه الحظائر .. ومن الأنقصاص الأثرية
القديمة المنتشرة عند السفوح ، ومن خلفها اطفال يهشونها بعضى صغيرة
من الجريد الاخضر ، وعلى وجوههم عرق يختلط به الطين والغبار والذباب ..
وعند كل حقل كانت بعض الحمير تتوقف وتلقى بأحمالها ثم تعود ومن
خلفها او على ظهورها نفس الاطفال يستحثهم آباؤهم الذين أخذوا منذ
الصباح ينحنون ويهوون بالفتوس ويخربشون الارض ويعزقون ويسوون
ما بين البتون والجسور ويرمون الجداول الكبيرة والقنوات الصغيرة
المطموسة ..

ثم عاودتا سيرهما لا تنبسان بكلمة حتى حاذتا الرجال الذين كانوا يكدحون لا يبالون بسياطد الشمس ، تفكران فى العمل الشاق الذى ينتظرهما .. والارض من حولهما كانت ماتزال ترقد متشقة عارية .. وليس فيها الا العاقول والشوك البرى والنجيل . وأعشاب برية لا يقطع عليها السبيل الا شرائع صغيرة هنا وهناك من الباذنجان وأحواض الفجل والبصل الاخضر والحس بأوراقه العريضة الالامعة فى وهج الشمس .. وخافت داريا أن يشمت فيها الرجال .. فمضت تتلفت اليهم ، تلقى بالتحية ، تداعبهم وتعرض عليهم المساعدة فيضحكون ، بينما زمت الفتاة شفيتها كارهة لمداعبات أمها وغزل الرجال فيها ..

— كيف الحال يا أمين ؟

— الله .. ستزرعين يا داريا ؟

— زرعى سيكون أجدع من زراعتك !

— باذن الله .. لو اشتغلت . لكن قطعة الارض مالحة .

وأردف حسن المصرى :

— لو كان فى الغراب خير مافاته الصياد ؟

— غراب .. يا غراب البين .. بدل الهذر تعال ساعدنا ..

ثم انحنتا على قطعة الارض الغائرة ، ومضتا تغالبان الملح بمقاطف من الطين والوحل تجلبانه من الجرف .

وبين كل نقلة وأخرى من السباخ كان البسطاوى يمنحهما نقلة من الطين الاسود .. يرشدهما الى العزق والتيتين .

ومضت داريا تشمر كمها الواسع وجرجار جلبابها وتمسك بالفأس وتتأفف ثم تبصق فى راحة يدها وتهوى بالفأس وتتوقف لتلهث ثم تعود الى العزق والتسوية فى سرعة .. حتى يتعب قلبها فتتوقف قليلا ملقية برأسها الى الخلف بينما تستند بيدها على مقبض الفأس وتتأمل الرجال من حولها وتتنهّد :

— شريفة .. استريحى يا ابنتى .. لو كان جمال معنا ؟

فزرت الفتاة عينيها وراحت تهوى بالفأس وكأنها لا تسمع كلمات أمها :

— قلت لك استريحى وامسحى العرق الذى يسيل على وجهك ..

– ألم تقولى اننا سنزرع ؟

– ولكنك تهلكين نفسك يا ابنتى ..

– أمر الله .. ماذا تفعل .. ارادة ربنا ..

وجالت الام بعينيها .. تعجب للحماس والنشاط اللذين دبا على الارض من حولها : برعى ينحنى ويقوم فى سرعة ، لايبالى بسياط الشمس ولا بالعرق ، ومن خلفه أبوه يسوى .. بينما أمه تبذر القمح والفول والشعير ، ومحيى بن الشيخ جعفر يجرى خلف أبيه هنا وهناك . يرقع الارض بأكوام من السباخ يتصاعد الغبار منها ، وبطة تبتن وتسوى الجسور ، بينما حسن المصرى يرسل أغنياته الصعيدية ، والفأس تتأرجح فى يده وكأنها قطعة عصا رخوة .. يطوح بها ، والشيخ أمين يخطب خبطتين ، ثم ينهض ويتكىء على مقبض الفأس تماما مثلها ، ويمسك بخاصرته وأنا أجرى اليه أخبط خبطتين ثم أمسك بخاصرتى مقلدا أبى ، فتضحك داريا وتعود الى اجهاد نفسها . فتمل ثم تراقب شريفة وتفكر فى الشتاء وليالى الجوع فيعاودها الحماس فتنحنى من جديد .

حتى أحمد عودة رآته يقفز من فلوكة أقلتله من الجزيرة وقدماء ملطختان بالطين وعلى كتفه فأس .

ومر بهما وهما غارقتان فى العمل :

– هيه .. داريا .. ماذا تفعلين ؟

– ازرع يا أحمد ..

– عال .. ماذا تزرعين .. أعندك تقاوى ؟

– كيلة قمح أخذتها من خالك الشيخ أمين .

– الله ها الله .. يظهر ان خالى يريد أن يتزوجك .

– ولماذا لا تتزوجنى أنت ؟

– تتزوجك نحن الاثنين .. كلا .. بل يتزوجك هو وأتزوج أنا

هذه !

وأشار الى شريفة فأطرقت وأشاحت بوجهها بينما راحت أمها تضحك وهو ينصرف بعد أن شجعها وارشدتها الى مكان عند السفح تجلب منه السباخ .

التعب والارهاق يشمل الرجال والنساء والاطفال ولكنهم سعداء ..
ولا يخلو الجو من دفيء يرسل نقراته .. وأغنية عمل يتردد صداها بين
أشجار النخيل .. وصيحات يرسلها عم رمضان نجار السواقي ، وهو
يشد ضلوع الساقية بسيور من الجلد نداها بالماء منذ الليل .

على الجباه آثار تعب ولكن العيون تبرق بفرحة غريبة .. ببهجة
تدفع الى العمل والى مزيد من الارهاق .

فكل رجل وكل امرأة كان يمكنه أن يتخيل حبة القمح التي يبدرها
وقد رواها الماء وشدها حرارة الشمس لتنبثق وتشق الأرض برؤوس
خضراء صغيرة ، كل انسان كان يمكنه أن يتخيلها وهي تنمو وتستوى على
سوق نخلة ، وتهز رأسها للنسيم ، ضاحكة مثل الاطفال ، ثم تشب عن
الطوق فتشتد عيدانها وتراقص في الغيطان - في اتجاه الريح - أمواج
خضراء متلاحقة ، ثم يكتسب حفيفها خشونة وبحة تختلط بصرير الجنادب
ونقيق الضفادع ، نشوى بنسيم الليل وندى الصباح ، ثم تبرز سنابلها
كللهود تمتلئ باللبن .. يتحول مع لفع الشمس الى حبيبات دهنية
متسقة في ابداع ترسل شواربها الابرية الدقيقة وتتطلع الى السماء .

وتبلغ النشوة مداها عند فضيلة ، وآسيا المولدة وأصيلة .. عند
كل طاعن في السن أو صغيرة مثل شريفة وبطة .. عند كل امرأة أو فتاة
حين يتصورون الحب الذي يبذرته في الأرض المعزوقة حبوبا وفيرة يفصلنها
عن التبن بالتذرية ، ويطبقن عليها الرحي .. يحولها الى دقيق ناعم يعجن
في المواجير الفخارية . ويدحى على الدوكة فطائر لذيذة تقدم في الصباح ،
يخف بها في السلطانيات لبن يشوب بياضه الطازج غسل البلح بحمرته
الداكنة ، فيغرزن فيها الايدي دون رفيق ، ويلعن الاصابع ويمصصنها
في حمد وشكر لله ، أو يفتلن هذا الدقيق .. « شعيرة » جميلة يقدمنها
للرجال في السحور من كل رمضان .

كل حبة تبذر .. كل فأس تهوى .. كل جدول يرمم .. كل حبة
عرق تلمع على الجباه تتحول الى أحلام وردية تدفع الايدي والاذرع ، وتقيم
الاصلاب ، فيندفعون ، لا يكادون يستريحون لحظة واحدة ، حتى داريا
وشريفة اندفعتا في حماس بالغ .. تردمان وتسويان التراب .. كادتا
تسقطان من الاعياء لولا برعى الذي انتهى من عمله وقدم لهما يد العون ..
حتى حسن المصرى هوى بفأسه في شريحته الصغيرة يساعدهما ..
فمصمص أبى شفتيه وحاول أن ينتهره لولا أنه انشغل عنه بمشادة صغيرة

بين حجوبة وبطة كادت تؤدي الى نفس النزاع القديم ففصل بينهما وأمر
حجوبة أن تعود الى البيت بصغيرها محمود ، الا أنها تشبثت بموقفها من
الارض .. فهي تحب الارض وتعشقها وتتأملها وهي تعزق وتعاني ،
وتقضي فيها الساعات وهي تخضر .

ولاحظ أبى عنادها فتركها ثم امتلأت عيناه بالدهشة وهو يرى
الشيخ فضل يتجه الى الجدول الكبير ، يتوكأ على عكاز ويترك بساقه
الجريحة ، فمضى يراقبه فى حزن حتى حاذاه فابتدره غاضبا :
حرام عليك يا فضل .. لماذا لا تستريح ، ساقك يا فضل ..

ولم تتحرك شفتا فضل بكلمة بل تقلص وجهه .. ولوح بيده فى
وجه أبى .. ومضى يترك الى أن جلس على حافة الجدول الكبير يتمتم :

— دنيا !!

ثم غرق فى دوامة أفكاره الحزينة بعد أن أشار على برعى بترقيع
شريحة من الارض ازدادت ملوحتها ربما قال لنفسه : أنا طريح الفراش
وغيرى يعمل .. حتى داريا وشريفة تعملان ..

وسقطت دمعة ساخنة على ظهر يده مسحها بسرعة .. وعاد من
جديد الى أفكاره .. منذ عام ، منذ عشرات السنين عاش فضل على هذه
الارض يفلحها فتجود بما لا تجود به أى أرض ، فليس فى القرية كلها بل
فى كل القرى المجاورة رجل له مثل خبرة فضل فى الارض .. هو الذى
اعتاد أن يخوس فى الارض يتأملها ليقول فى ثقة : أريحوا هذه
الشريحة .. ازرعوها فولاً ، وهذه شعيراً .. أما التى على يمين الجدول
فازرعوها قمحاً .. لا بد من تسميد هذه الشريحة قبل الجدول بالرماد
وبتراب الكفرى .. هذا السباخ لم يخمر ويقلب !

فضل قعيد الدار ، يترك بساقه ، وهو الذى لم يمسك أحد بالفأس
ولم يهو بها أحد على الارض بالسهولة ولا بالحدق اللذين تعود أن يهوى
بهما على الارض . هو الذى لم يشرب الحمر ليسكر بل اكتفى برائحة
الارض المحروثة .. يعبها فى رثتيه فيسكر .. وبالماء يترقرق وينزلق
من الجداول الكبيرة الى القنوات ، ويتأمل النبت الجديد الأخضر يشق
الارض وينمو ويتماوج فى قبضة النسيم ..

أما الآن .. الجميع يشفقون عليه ويتصحونه .. وليس فى مقدوره
الا أن يتكىء على المصطبة الداخلية ويتحرق شوقا الى الارض والى العمل

.. فلا يستطيع أن يتحرك ، فينتظر وينتظر الى أن تعود زوجته فضيلة ،
وتقص عليه قصة الحرث والعزق والجداول التي وسعت ، فيعنقها ويشير
الى أخطائها دون ما خطأ تشعر به ..

— دنيا !

قالها ورفع رأسه ليجد أبى يطل عليه فى حزن ثم يقول :

— تعشق الأرض يا فضل .. تموت فيها مثل أبيك ؟

فمضى فضل يقلب الطرف حتى استقر به على شريحة طرح البحر
التي قام النزاع بسببها .. فوجد لها مهمة .. فقد تم الاتفاق على
ألا يزرعها أحد الى أن ينصل فى الأمر .. هكذا أمر العمدة ..

وغاظه أن يجد الأرض السوداء الحسبة ترقد كما ترقد امرأة عقيم ،
فتحسر وأرسل تنهيدة روعت أبى فأسرع يهمس :

— لا تثقل على نفسك يا فضل فالأرض لم تعد لنا نحن !

فانتفض فضل يسأل :

ماذا تقول ؟

— الأرض سجلها بركات أفندى فى دفاتره ، الطوفان ..

ثم صمت وكأنه يغالب حزنا ثقيلا يرين على قلبه وأردف :

— سجلوها كما تسجل الوفيات فى الدفاتر .. آخرة الدنيا
وما الفائدة ؟ ولماذا نجهد أنفسنا ؟

وألقي بالفأس بعيدا فى يأس ، وانطرح على الأرض الى جانب فضل
الذى أنشأ يقول :

— احمده الله يا أمين .. احمده يا شيخ !

— الحمد لله .. نشكر فضله ..

— فضله كثير عليك .. فان لك متجرا باسم الله ماشاء الله يدرك
عليك وعلى أولادك خيرا .. زادك الله من فضله ..

ولوح أبى بيده وهسهس :

— وما فائدة المتجر لو جاع الناس .. واذا ما ضاعت الأرض

والنخيل .. بم يشترون .. بم يسددون ديونهم ؟!

ورمقه فضل فى نظرات مشفقة تقول :

— معك حق ..

ثم مد يده الى ساقه وتحسسها ثم أرسل آهة قال بعدها :

— أخشى من السوس يا أمين ..

فصاح أبى على الفور :

— سوس ! لا تيأس من رحمة الله يا رجل . جرح .. كسر بسيط

ثم تحدثنى عن السوس .

ثم مال برأسه وأردف :

— ولماذا لا تسافر الى مصر ؟

— مصر ! ماذا أفعل هناك ؟!

— الأطباء .. الحكماء ..

— الطبيب الله يا أمين .. ماذا أفادوا زوجتك فاطمة .. اتكل على الله

من دون عبيده !

وتنهَّد أبى فى عمق وهو يتذكر أمى وامراضها المستعصية . وانصرف

فضل عنه يصرخ فى حسن المصرى :

— أترك هذه الشريحة .. لاتبذرها قبل أن تسبخ بالرماد ..

وأراد حسن أن يداعب « فضل » فاتجه اليه وهو ما يزال يبذر

القمح ، فاستشاط الرجل غضبا وحاول أن يقوم اليه لينتزع منه مقطف

البذور ..

ثم راحوا جميعا يقهقهون وهم يتفرسون فى أقدام تتدافع من الارض

الزراعية الى السكة العمومية الى الشاطىء ..

وضحك فضل فى سخرية وصاح :

— الافيون ! مسكينات ! ..

فان كل امرأة فى الغيط كانت تلقى نظرة واحدة على الرجال ثم

تلقى ما بيدها وتلتقط أية قصاصة من الورق تصادفها ، تطويها وتدسها

فى صدرها .. ثم تسرع الى الجرف تسدل طرحتها على الرأس والنحر

وتمسح وجهها بيدها وتنفض الغبار العالق بثيابها وعيناها ترمقان شراعا

أبيض يخفق من خلال الأشجار ، فوق سفينة بيضاء صغيرة مزدانة بالبيارق

الملونة والأجراس الصغيرة المصلصلة .. الشراع مرخي الشاغل واللبان،
والمدراة ملقاة على الشاطئ .. والدفة منعطفة الى الغرب بينما المقدمة
جانحة على الشط .. وفوق مقبض الدفة « تندة » مستطيلة بيضاء
بزيق أحمر .. يدور حولها شراريب صفراء تنتهي بخرز رفيع لامع ..

ومن تحت التندة نقر دافئ على الدف وصوت رخيم يرسل أغنية
شابة تنداح خافتة على الماء فتجعد صفحته .. أغنية صفقت لها العصافير
بأجنحتها ثم حطت على الصاري ترمق التندة بعيون خرزية .

وعلى الموردة أمام السفينة تجمعن : كل واحدة تدس قصاصتها
في صدرها .. وتدس أحلامها في قلبها المكدود ، وتنسى إرهاق العمل
لحظة .

وتنبرى أصيلة وتنادى :

— هيه .. لماذا تختفى تحت التندة ؟

فلا يجيب أحد ، بل تتصل الأغنية ، فترمقها الأخريات في عتاب ،
ثم ينفد الصبر فتنبى أم سعدية تنادى :

— أنت يا حسين .. يا حسين يا فييس يا فشار أأنت نائم ؟!
فتسخر واحدة منهن :

— نائم !! يالك من عبيطة .. ألا تسمعيه يغنى ؟

ومضين يستمعن :

انت يا سمراء مثل الليمون
أنت يا رقطاء الفسراش
اسمعينى ضحكك العذراء
لترتد روى فأننى أموت
أموت يا رقطاء .. أموت

النقر خافت والآهة حرى ، والصوت عميق يسرى ويتسلل الى القلوب،
الى الروح كما يسرى الحذر اللذيذ ..

وسكت الصوت ، ورفع باب التندة ، وبرزت يد سمراء دقيقة ..
ثم رأس .. ثم رجل خطا خطوتين وتوقف على حافة السفينة يرمقهن في
فضول وإعجاب .. وظله يرتدى على صفحة النيل ..

بدا فى وقفته على حافة المركب رجلا فى الأربعين ، أسود اللمة الا
شعرات قليلة بيضاء .. مستدير الوجه ، حاد العينين ، متوسط القامة .
على رأسه عمامة عليها شملة داكنة الحمرة تتدلى على الكتفين وتنطرح
على الصدر معقودة الطرفين .. تحت الشملة جلباب مفتوح على الصدر ،
ينسدل فى اتساع ، بألوانه الزاهية حتى يغطى صفحة مداس لامع الحمرة
فى قدميه ..

وبرز حسين فييس من تحت التندة .. وانتصب على حافة المركب
يرمقهن فى اعجاب .

وتبسمت كل واحدة حين برز اليهن فأخذن يداعبنه فهو معروف فى
كل نجع .. يملأ مركبه بالقلايات والمناديل وعصائب الرأس .. وأنواع
العطور والبطارة ، يتوقف بها عند كل موردة ، فيقبلن عليه فى لهفة
ويشتريين ويدفعن فى الحال أو يؤجلن الى موعد آخر .

ولكن أحلى وأعذب سلعة يبتغيها عنده كانت تندس فى حلقه
وفى ذاكرته العجيبة وفى عذوبة لسانه .

كان الرجل يعرفهن جميعا : يعرف أحزانهن والأحداث التى جرت
لهن ، فينسج لهن منها أحلاما وردية جميلة ، يسكبها فى الآذان مسجوعة
فتخلب اللب وتبعث النشوة فى النفوس .

وأنشأت واحدة منهن تقول :

— سلام يا حسين ..

فلم يجب ، بل راح يتفحصها بعناية ليقول فى نهاية الأمر :

— ما شاء الله .. ألم يأت العريس بعد .. جمالك زاد وفاق كل
جمال !

فرن الشاطئ كله بضحكات ناعمة بينما أطرقت هى لحظة انغمست
بعدها فى الضحك تجارى الأخريات ، فليست الا عجوزا تطبق شفثيها
على خواء وتمضغ الكلمات مضغا يجعلها مثار تنذر الأخريات .. قالت :

— لا يا حسين .. لم يأت بعد . أمر الله !

وترددت قليلا ثم أضافت :

— لماذا لا تتزوجنى أنت يا حسين ؟!

فضحك وهتف بها :

— فى المرة المقبلة .. اسأل أبى وأرد عليك !

ثم التفت الى أم سعدية ، والى ورقة أبرزتها له ، فمد يده عبر الماء وتناولها وهو يقول فى نشوة :

— عال .. جواب .. سأقرأ لك ..

ومضى يقلب الورقة ويدقق النظر فيها ، ويعرضها لضوء الشمس ثم هتف فى ضجر :

— نبش فراخ .. مغفل هو الذى كتب الجواب .. نهايته سأقرأه لك ..

وجلس على حافة المركب وفرك عينيه ومسح عليهما بطرف شملته وانطلق يتلو كلمة كلمة ، فى لغة نوبية مسجوعة ، يرفع صوته لحظة ثم ينخفض به الى وشوشة خافتة ، ويرفع عينيه حيناً ، يجول بهما على الوجوه المحيطة به فى شغف ، وعلى الصيون العالقة بشفتيه :

— يا روحى يا جنتى .. سأعود .. سأعود مهما طال الزمن ، لأتربع من جديد فوق العنجريب .. لتتشابك ساقانا فى جنح الليل والأطفال نيام .. يا جميلة مثل نوار الفول ، يا جرة العسل المصفى ، يا زبدة حياتى ، كم أحن اليك .. أنا ظمآن .. ظمآن وكاسات الخمر لم تعد تشبع حسى .. تذكرى أيامنا تحت أشجار النخيل .. قبل الزواج .. كم كانت جميلة يا نور عيني .. لا تيأسى فسوف أعود لنسترجع أيامنا الحالية ، يا حمامتى الوداعة يا بلطية النيل الهائمة .. يا سمراء قلبى ..

وبدت أم سعدية ، وهى تستمع الى هذه الكلمات وكأنها تعيش فى حلم : غائمة العينين ، منفرجة الشفتين ، ويدها اليسرى ممدودة معلقة فى الهواء ..

مسكينة .. تعرف أنه ما من جواب يصل الى زوجة أو الى أية فتاة فى القرية بمثل هذه العواطف الجميلة المنمقة .. تعرف أن زوجها لم يبادلها كلمة حب واحدة .. تعرف أنه لم يصلها منه جواب .. ورغم ذلك فما هى تهيم فى الأحلام ، وتنتشى .. والأخريات من حولها يتغامزن عليها الى أن يأتى دورهن فتتغامزن هى عليهن ..

وتقدمت أصيلة بقصاصتها .. حتى سبيلة زوجة المأذون والتي

تعيش معه ليل نهار تقدمت بجواب أخذ حسين فييس يقرأه وينسج
لها أحلاما وردية جميلة .. ثم ألقى بقصاصتها الى الأرض فتلقفتها
ونظرت فيها فاذا بها قطعة ممزقة من المقطم تنعى رجلا فى اليوم ..
وأفاقت على ضحكات وصرخات فان حسين فييس كان قد التفت
فجأة الى « داريا » يقول لها :

— مالك تمطين بوزك ... أهو لا يريد ؟ • المغفل من الذى يراك
ولا يريد ؟ • تعالى هنا تحت « التندة !! » ..

وارتسمت ابتسامة واهنة على وجه « داريا » ، ثم تراجعت الى
الخلف وكأنها تخشى أن يقفن اليها ويضنها الى صدره ويعبر بها
السقالة الى المركب تحت التندة .. ولاحظ هو حركتها وهتف ضاحكا
فى سخرية :

— آه اننى أرى .. ما هذا التبن العالق بشعرك .. مغفل ..
قلبك على ظهورك فى حاصل التبن .. أو فى مربوط حمار ..
وأردف بعد ضحكة عالية رنانة :

— مسكين لم يستطع الاحتمال ..

ومدت المسكينة يدها دون أن تشعر الى شعرها تزيل التبن عنه،
التبن الوهمى الذى خلقته خيالات حسين فييس .. وأحجمت فلم تتقدم
بقصاصتها • وراحت تراقب وجه فتاتها شريفة التى توارت من الحجل •

وظل حسين ساعة أو تزيد يسكب فى آذان النسوة أنفاسا
جميلة وأحلاما وردية ، تذكر كل واحدة بأنوثتها المهدرة المهجورة بعد
أن تغيب الرجال وارتحلوا منذ سنوات ، فتتخيل أنامل الزوج على
فخذ جفت عصارته ، تتخيلها فى الكلمات العطرية الدافقة من بين
شفتيه •

وانتهى صف النساء من جواباتهن .. ولم تبق الا « داريا مسكينة »
التي مضت تقبل وتحجم بعد سخريته اللاذعة .. فنظر الرجل اليها
مليا ثم استعد لفتح صناديقه لتشتري كل واحدة ما يروقها من فلايات
وزجاجات عطر نفاذ ؟ الا انها استوقفته ودفعت اليه بورقتها الصغيرة
فقلبها وعرضها للشمس ثم اعتدل فى جلسته وأخذ يقرأ :

« أمى الحنون ، أمى التى أعبد وأطيع .. أمى يا أحسن أم فى الدنيا

.. سأعود عما قريب .. لا تصدقني تخاريف حسين النجار . اننى لم
أتزوج لا بيضاء ولا سمراء .. سأعود يا أمى الحنون . لقد كبرت شريفة
.. زوجيها من رجل شهم مثل حسين فييس ، ..

« جمال »

والتصقت بها شريفة بينما مضت هى تشرب الكلمات وتغرزها
فى قلبها ، وتنتشى بها وتسكر : اذن فانه لم يتزوج !! يخرّب بيتك
يا حسين النجار .. لماذا تكذب ؟ .. لا بيضاء ولا سمراء .. سيعود ..
سيعود يا شريفة !

وتنسى زمانها ومكانها وتهيم وتتأمل ولدها الحبيب عائدا يرتقى
بين أحضانها ، ويملا دنياها بالأمل والبهجة . متى .. متى يا ولدى
جمال ؟ ..

ويعود حسين فييس الى مزاحه .. ويأخذ فى عرض بضاعته :
الصندلية والجاولى ، والفلايات الحديد ومشابك الشعر والغسيل
والصابون الفرنساوى .. وعصائب الرأس والطرح الملونة من ماركة ..
أم التاجر .. فتشتري أم سعدية شيئا وهى ما تزال هائمة فى أحلامها
الوردية ، وتبتاع فضيلة شيئا آخر وتنفصل لتعود الى الغيط وتتبعها
داريا وابنتها . وتتجه فورا الى فأسها . وتهوى بها من جديد على شريحة
الأرض . تروم وتسوى بينما يراقبها حسن المصرى ، ويتأمل حركاتها
وانحناءات قوامها ، وهو يتكىء على مقبض فأسه ..

ويأخذ الشيخ فضل فى السخرية منهم ، فلا يبالين بل ينهمكن
فى العزق والتبتين ، لا يبالين به ، فانهن يعرفن الرجال وكيف يهزأون
بهن عاما بعد عام ، حين يحل حسين فييس فى النجع ، ويبيع لهن
أحلام الورد والعطر والمناديل من مختلف الألوان ..

انهم يستخرون ويتركونه ينصرف بمركبه . ثم يحل المساء ،
فيهرعون اليه ، يلتمسونه فى مرافق النجوع الأخرى ، ويسهرون
معه ، يفرقون آلامهم وهمومهم وخوفهم من الطوفان فى نقائات البانجو
وكثوس العرقى ثم يعود كل رجل الى بيته وقد قبس منه مرحا تستطيبه
كل زوجة عندما ينتصف الليل ..



رفع أحمد عودة رأسه وتأمل النتيجة المعلقة على الحائط
وطوى الدفتر الطويل وأسند القلم الكوبيا خلف أذنه ،
ونفض الى الجدار ، ورطب بلسانه اصبعه امتد به الى
النتيجة ، وقطع الورقة الأخيرة من شعبان وتمتم وهو يستدير لأبى :

— رمضان .. غدا نصوم ..

فيعبر أبى بنك الزنك وهو يمسح الزيت العالق فى يده بخرقة
بالية طوح بها بعيدا ثم قال :

— على خير ..

ثم جال بعينيه فى المتجر وتأسف على رفين خالين ، وتطلع الى
« داريا » التى استندت الى كتف الباب وفى عينيها دموع فصرخ فيها

— لولا رمضان يا داريا ..

— الله يخليك يا أمين .. البنت طرحتها مثل المنخل ..

وصمتت هنيهة لتضيف فى لهفة :

— مسكينة .. الصداع يشق رأسها .. لم تشرب شايًا منذ

الليل ..

فانشغل عنها أبى بأوراد يتلوها فلم تنصرف بل تعقبته :

— وجمال لن ينسانا يا أمين ..

فقطع الرجل تلاوته وقطب جبينه وزوى ما بين حاجبيه وهتف

لها :

— دائما جمال .. جمال ولا خبر عن جمال .. كلام فارغ !

وعادت هي الى كتف الباب تعتمد عليه وفي صدرها احساس بالاغماء
.. وفي قلبها حزن ينغرز الى الأعماق .. فتغالب دموعا تصعد الى العين
فلا تنجح بل تطلقها في صمت دون أن تعول .

وران الصمت لحظة قطعتة هي بكلمات متهدجة :

— الدنيا رمضان يا أمين .. اتق الله في الشهر المقترح .. لماذا أصبح
قلبك كالصوان .. لماذا ؟

وتلفتت الى أحمد عودة تستعطفه :

— خالك يا أحمد .. كلمه وحياة أمك خديجة .. كلمه .. ما الذي
جعله يتبدل ويقسو علينا ، كان المرحوم صاحبه بالروح ..

وقبل أن يفتح أحمد فمه ارتفع صوت أبي :

— مثل الصوان ! عجائب ! .. تحسبيني أعمى يا وليه ..

فصاحت على الفور : بعيد الشر عنك يا أمين ..

فلم يبال بها ، بل انطلق يهدر :

— تركت « حسن المصري » يعمل عندك : في البيت وفي الغيط ..
وتركتك ترعين أغنامك في أرضي .

— أغنامي : أخذتها أنت ولم تبق الا معزة واحدة ..

— وهو الذي يخفي لك ذرتي ويحملها الى بيتك ، والجذع سرقة ليصلح
سقف بيتك .. أتحسبيني لا أرى .. وكل هذا دون مقابل .. والديون
تتراكم عليك ، ولماذا تريدین طرحة جديدة وجلاية جديدة .. على قدر
لحافك ..

فصاحت به : لم يعد هناك لحاف يا أمين .. البنت تعري جسمها ،
استرها يا أمين .. الله يستر بنتك جميلة وبطة ..

وتهدج صوتها بالبكاء ثم رفعت صوتها :

— أمين ، أمين يا كلثومة ، بنتي منذ أيام لا تترك البيت .. تمزق
جلبابها عند الصدر ، رقعتة فانتسل الجلباب عند الرقعة وتحول الى
شراريب ، وفوق الفخذ خرق واسع يكشف فخذها .. حرام عليك ..
حرام !! ..

— حرام .. حرام وأنا مالي !

ورغم ذلك فقد لان قلبه وغمز لحالى الذى عبر بئك الزنك ومد يده الى
رف ، عادت منه محملة بأثواب من الشيت والدبلان يعرضها على البنك
وهو يقول :

— تعالى يا داريا .. فالدنيا رمضان ، وربنا أمر بالستر .. تعالى ..
أهلا وسهلا يا حسن يا مصرى .. أعدت من الجزيرة ؟

— عدت قبل أن أكمل عملى فان برأسى صداعا أليما ..

— سلامتك .. تعالى يا داريا ..

فنظرت مليا الى رأس حسن المصرى لترى الصداع الذى يشكو منه
ثم تقدمت ، تنتقى قطعتين من الشيت وطرحتين تلفهما بعناية ، وتأمل
الرجل وهو يقيد ديننا جديدا فى الدفتر الطويل فتنقم عليه بينما أبى يقول
لها :

— خلاص يا داريا .. اتركينا لأشغالنا ..

— والسكر والشاى يا أمين ؟!

وهنا يعود أبى الى تقطيب جبينه ويصرخ فيها :

— كفاك دلالا يا وليه .. كبرت ومع ذلك تتدللين مثل الفتيات
الصغيرات .. ليس فى الدكان سكر ولا شاى .. تعالى بعد يومين ..

— يومين ! .. البنت ستموت من الصداع يا أمين ؟! ..

ثم تسكت وهى تحاول أن تفهم اشارات حسن المصرى ، وتتنهد
وتتخلى عن السكر والشاى وتنصرف وهى تفكر فى قسوة التاجر ..
لماذا يكذب ؟ .. عندهم سكر وشاى .. ومع ذلك ينكر .. رأيت « بطة »
ابنته تخرج من باب الدكان وفى يدها قرطاس سكر وشاى .. سأذهب
اليها وأستلف « تلقيمة شاى » الى أن يفتح الله علينا أبواب رزقه ولربما
حمل الينا حسن المصرى بعضه فيغنيننا عن مد اليد ، وونور .. لماذا
لا ترحمنا يا رب ... وونور ..

وتناهى الى سمعها وهى تنصرف صيحات الأطفال وتراعى لها على مد
البصر فى كل الطرقات هالات مستديرة من الضوء تبرىق فى غبش المساء ،
فتذكرت « جمال » فى صغره ، كان يلح عليها فتجلب له سلبية طويلة يشعل
طرفها يوم رؤية الهلال ويطوح بها فوق رأسه ويدور بها وهو يرسل
صيحات .. تماما مثل هؤلاء الأطفال .. حتى البنات يلعبن بالسلب

المشتعل .. ما أسرع ما يكبرون ويهجرون .. وما أجحد الأبناء ! ليتهم لم يولدوا .. ليتنا .. ولكن علام الندم ؟! ..

ودنت من عتبة الباب ووجدت شريفة بجلبابها الممزق تطل من الباب حائرة كأنها تفكر في سر غامض ، فمنذ لحظات جاء كلو عاريا وجلس في الفناء والحاصل وأمسك ببراد الشاي هنيهة وهي تدور من خلفه ثم بارح البيت ، دون أن تنال منه نظرة واحدة ، دون أن تمسك بيده وتضعها على رأسها .. لعل الصداق يتلاشى ..

وارتسمت ابتسامة صغيرة على وجه شريفة وهي تتلقى أمها وتلقف منها الشيت والطوحة ... ولكن البسمة تلاشت حين لم تجد الشاي والسكر في يد أمها .. وكادت ترفع يديها الى السماء وتدعو على الشيخ أمين وتلعن الصداق ولكنها تأنت ومضت الى الداخل لتشعل فانوسا تعمل على ضوءه طول الليل فتخيط جلبابها لنفسها ..

ومن المئذنة العالية خلف بيتنا يرتفع صوت نوح يسبح ويكبر ويعلن في النجع كله رؤية هلال رمضان .. ويهتف في كلمات منغومة :

— يا عباد الله .. وحدوا الله ..

ويهبط درج المئذنة في أناة وعند الباب نستقبله نحن الصغار بالتهليل والصياح ونستدير به .. نرج الأرض بأقدامنا ، ونطوح فوق رأسه بهالات الضوء ثم نسرى خلفه في الطرقات ندق بقبضاتنا على كل باب .. وحدوا الله .. يا عباد الله ..

وبينما نحن لا نزال ندور يقودنا عم نوح : يا عباد الله ... وحدوا الله .. شهر البركات والصيام .. مرحبا بك يا رمضان ! ارتفع صوت يقول :

— لا مرحبا ولا حاجة .. زمبليطة فاضية .. بهائم ..

كلمات غريبة ارتفع بها من خلفنا صوت مبجوح .. كلنا نعرفه ونعرف صاحبه ، فعلى ناصية الطريق عند ملتقى نجعنا بنجع المجراب تراءى المحامي لنا ، يطوح بخيزرائته في الهواء ، ويشق الطريق بقامته الطويلة .. قامته النحيلة ، ويحرك يديه المعروقتين البارزتين من أكمام واسعة ذات حفيف متصل كلما اتصلت الخطى ..

ويرمقه نوح في غضب .. ويستعيز بالله ، ويحاول أن يتفاداه ..
لكنه لا يملك نفسه فيسأل :

-- لماذا تكفر بكلام الله يامحامي .. ؟

فيرسل ضحكة ساخرة ويهتف :

- أكفر .. ما أصنى فؤادك يا عجوز .. تور الله فى برسيمه .

فيتلعثم نوح ويرتبك ثم يهمس :

- التيران ستدخل الجنة .. أما انت فجهنم تنتظرك .. هداك الله
ياولدى .. هداك الله ..

ويدفعنا من جديد فى الطريق الا أن المحامى يستوقفه :

- بالله عليك يا نوح .. لماذا تصوم رمضان ؟

حقا .. لماذا يصوم الناس رمضان يا نوح ؟ سؤال غريب ...
لأنهم يطيعون الله ، لكن لأى غرض يا نوح ، ما الحكمة يا نوح ..

- الحكمة .. الحكمة ..

ويتوقف لحظة ثم يقول : وفى صوته احساس بالنصر :

- ليشعر الأغنياء والموسرون بجوع الفقراء .

فيعاجله المحامى :

- وانت غنى ؟

- كلا يا ولدى لكن الغنى غنى النفس ..

- وهل أنا غنى ؟

- أغناك الله .. لماذا تحسد الناس ..

- أنا لا أحسد .. لكن .. لماذا لا نترك الاغنياء يصومون ليشعروا
بجوعك وجوعى ؟ خمسة او عشرة ميسورو الحال فى البلدة كلها ...
يصومون هم وحدهم .. أما نحن .

ويرسل قهقهة عالية حين يلاحظ ارتباك الرجل الذى أخذ يستعيز
بالله من الشيطان الرجيم ، الشيطان الذى سكن جسد هذا الشاب ..

نوح يعلم .. كل الناس يعرفون أن الفتى لا يفيق من خماره منذ
أن حط رحاله فى النجع بعد غربة طويلة : فى لسانه فصاحة ينفر منها

الناس ، كثير التذمر ، يحن الى مصر لكنه لا يجد سبيلا الى العودة ..
فقد طرد من هناك ، طرده شباب نجعه هناك وتخلصوا منه لكثرة
مشاجراته ، وهرب اليها مرة مخالفا نصيح رجال نجعه هناك في مصر ،
فأعادوه من جديد ليستقر في النجع ويفكر في مصر ومباهجها حيث عمل
ساعيا في مكتب محام كبير ، تلقى القانون على يده وحضر معه المحاكم
يحمل دوسيهاته فحفظ كثيرا من جملة الطنانة ، مضى يتفاحص بها في
المقاهي .. ثم مله عملاء المحامي فطرده ، فراح يتسكع في المقاهي ويشرب
الطافيا والسبرتو والبوظة اذا ما ضاقت به الحال ، يلعب القمار وهو
يثرثر فيخسر كل قرش معه حتى ساءت حاله قطفق يستدين ويتهرب من
دفع ديونه ..

وانتهى به المطاف الى القبوع في مقهى شجرة الدر بعابدين يرتع
الذباب على وجهه والقمل في ملابسه ..

وعافه الناس هناك ، ثم تخلصوا منه في سخاء !! استداروا به مرة
وساقوه الى الموسيقى ، اشتروا له ملابس جديدة ، ودسوا في جيبه
جنيهات قليلة ، ولم يتركوه الا بعد أن قطعوا له تذكرة الى البلد متعهدين
بنفقات عيشه في النجع ، فعاش فيه ، يتفاحص على الرجال والنساء
ويحضر مجالس الصلح ، ويترافع فيها بصوت داو حتى أبعد عنها ...
فاكتفى بكتابة جوابات النسوة الى الأزواج الغائبين ، وبقراءة الصحف
للناس على المصاطب وكتابة شكواهم الى المسئولين .. كان يكتب بجرأة
ويفصل كل حالة ، ويعتقد أن كلماته تعزل المأمير اذا ما ظلموا .. وتخيف
الحكومة وقد تسقطها اذا ما عاندته ..

طافت هذه القصة برأس نوح وهو يدفعنا الى الطريق نهل من
خلفه ، وراح يرويها لنا بينما توقف المحامي يرمق « نوح » بنظرات
محتقرة متعالية .. ثم هتف :

— لا ضرر في رمضان .. ففيه أشهى الاطعمة والسهرات ..

— هداك الله يا ولدي .. يرزقك الله ..

— بهيمة .. ما أصنى فؤادك .. اننا دكنا الجبال دكا دكا ..

ثم رسم شيئا في الفضاء بحركة من خيزرانتة ومضى الى حال
سبيله .. بينما واصلنا نحن هتافاتنا خلف « نوح » : وحدوا الله يا عباد
الله ...

وكعادتهم فى كل رمضان ، يتجمع رجال النجع فى العصارى ، فى الساحة الممتدة بين الدكان والشونة يسلون صيامهم بقراءة الأوراد جلوسا على الأبراش الخوصية الملونة ، ومن حولهم صوان نحاسية صفراء رصت فيها القلل القناوى ذات الأغطية النحاسية البارقة فى وهج الشمس الغاربة ، بينما تنهمك فضيلة فى المطبخ شأن كل زوجة ، فى التشطيبات الأخيرة لمختلف الأطعمة التى تقدمها فى الإفطار لزوجها ، وتفكر فى جارتها أم سعدية وفنونها فى الطهى ، وفى تعليقات الرجال فى الساحة على شطارة هذه أو تلك فى نوع محدد من الطعام ، فتتفنن وتبدع ، وتشعر بالزهو حين تتناهى إليها كلمة طيبة قالها الشيخ فضل أو شليب فى طبق قدمته ، وتحس بالحزن حين تتسرب إليها كلمة استهجان قالها أبى أو أحمد عودة :

— لماذا لم تغسل القلة • والأبريج ساخن • فتطرق وتشتم ابنتها الصغيرة ••

— ياللعار • كسفتينا يابنت !! بلى الأبريج فى الماء البارد وزيدى السكر قليلا ، ولماذا لم تقدمى لهم شعيرة يا بنت فى رمضان المفترج •

فتلوى الفتاة شفتيها وتذرف دمعة ثم تعزم زيارة بطة أو سعدية لترى كيف تعدان افطار الرجال ••

فمنذ شهر أو يزيد استعدت كل امرأة لهذا الشهر : تتلقى طرود قمر الدين ، وتقتل الشعيرة من دقيق القمح ، وترعى حقول الفجل والطماطم والبصل والرجلة لأعداد السلطات والمشهيات اللازمة وتفرك بالرممل أغطية القلل لتلمع ، وتدفن حبات الليمون فى الطين ، تعصر منه قطرات فى الماء ، وتخمر دقيق الذرة تدحو منه إبريجا شفافا مرزا تنقعه فى ماء مسكر ، تملأ منه سلطانيات بيضاء ، وتتركها فى مهب النسيم ثم تقدمه شرابا مرطبا للزوج أو الابن يتبلغ به فى المساء ويبل به ريقه بعد صيام مرهق أما هى فقد تتجرع رشفة من هذا الأبريج ، وقد تكتفى بالماء القراح أو بحفنة من التمر تزدردوها •• المهم أن يرضى الرجال المتجمعون فى الساحة ، المهم أن تسلم من سخرية فضل وشليب والمحامى ، ومن ثرثرة الولد الصغير « سعيد » شقيق سعدية الذى يتخذ مكانه — من دون كل العيال — بين الرجال ، يستمع الى نوادرهم ويتلصص على كل اثناء ، وينقل كل كلمة الى أمه • فتكون الفضيحة التى تسرى كالنار ••

لكنها تلقى نظرة على ما أعدته وتتنهد فى ارتياح وتهمس لنفسها :

– ولا فضيحة ولا حاجة ! ما زلت أقدم أشهى طعام لزوجي
وضيوفه ..

وتلقى نظرة أخيرة لتتأكد ثم تأمر ابنتها :
– هيا فان الشمس تكاد تغيب !

وتلقى بقطع الحبز « الكابيد » في الفالكا .. فتعوم على « الباميا »
.. وتغطي الفالكا وسلطانية الابريج والسلطة بأطباق خوصية مزخرفة،
ثم تخرج تتقدم ابنتها ، وقد حملت الفالكا على رأسها دون أن تسنده
بيدها ، فاليمنى مشغولة بسلطانية الابريج ، واليسرى ممسكة بطرف
الجلباب خشية أن تتعثر في الجرجار الطويل وتصرخ في ابنتها :

– هاتى انت طبق السلطة .. عجلي .. مالك تقفين مثل العبيطة ..
وتخطو على الطريق خطوة خطوة وتتوقف على حافة الساحة وتهمس :
– هوى .. هوى !!

وتظل تردد : هوى .. هوى دون أن تذكر اسم الرجل ، فيبتسم
أحمد عودة ويقول :

– يا سلام يا ست فضيلة .. مكسوفة مثل العروسة !!
فيضج الرجال بالضحك ، وترمقهم الزوجة فى غيظ وتهمس :
– هوى .. هوى .. الاكل سيبرد ..

فينهض برعى بسرعة ويتلقى عنها ما تحمله ، فتعود متثاقلة تصيح
السمع الى كلمات الرجال ، وتستنكر صوت عبدالله الجزار الذى تعالى
بقهقهة بائخة ..

وفى الساحة رفع الشيخ فضل غطاء « الفالكا » وهو يتلمظ وأعاد
ونظر ليرى الشمس الغاربة تكاد تختفى بين غابات النخيل ، فيعاود
التسبيح بينما أبى يتوضأ ويتجه هو الآخر الى الشمس يرجو أن تغيب
بسرعة ، فلا تبالى به بل تخرج من بين الاشجار كرة حمراء تلقى اشعاعاتها
الذهبية على السعف ، والكراديف .. وترسم ظلال البيوت والناس
طويلة ..

وسعيد الصغير يجلس بجوار الشيخ جعفر الذى تحفز نافذ الصبر
من الشمس التى لا تريد أن تغيب ويسب عم نوح الذى لا يرضى أن يؤذن،
فيميل الى الصغير :

– ولد ... كيف حال أمك ؟

– الحمد لله ..

– وهل تصوم أمك ؟

– تصوم ..

– وأنت ؟

ويتردد الصبي قليلا قبل أن يقول :

– أنا أيضا أصوم والله والله العظيم ..

فيضحك الرجل ويمسح على شعر الصبي ويسأل ضاحكا :

– ومن الذى يغطى أمك بالليل .. قل لى يا ولد من يغطيها بالليل .

فيصمت الولد ولا يجيب بل يطرق برأسه فى حياء ، ويعتزم ترك
الساحة والركض الى أمه ، لكنه يواصل جلسته ، فأمه ستضربه
وتصرخ فى وجهه ! أألسـت رجلا ، أبوك مسافر .. وأنت رجل البيت ،
تحل محله فى مجالس الرجال ! اياك أن تلعب كما يلعب الاطفال ...
اجلس كما يجلس الكبار .. كل كما يأكلون ، اشرب مثلما يشربون ،
وصل حين يصلون ، وحاذر أن تضيع ملاعقنا هناك فى الساحة ..

وها هى أمه تقبل بالأكل ، وتتوقف عند حافة الساحة وتنادى :

– هوى .. هوى ..

لعلها تتخيل زوجها ، فلا تذكر اسمه ، فالصبي هناك ليمثله ..
ويضحك فضل وأبى وينهض اليها أحمد عوده ويتلقى عنها طعنها وهو
يهمس :

– أتعرفين ماذا قال جعفر لسعيد ؟

– ماذا قال ؟ لعنة الله عليه ..

– سألـه من الذى يغطيك أنت بالليل ؟

فترسل ضحكة وتسب الشيخ جعفر .

– رجل ضلالى ! لا يصوم رمضان !

– والله أنا صائم .. أما زوجك هذا فهو المفطر ..

– ويشير الى الصغير : أما انت فلا تصومين .

– أنا ! فشر .. زوجتك هى التى لا تصوم .

– والله انها تصوم حتى فى الليل .. لا ترضى أن أمسها بحجة الصوم .. والمصيبة انها تصوم كل شهور السنة ! ..

فتضح الساحة بالضحك من جديد ، وتنسحب أم سعدية هائلة تبتسم لنفسها ..

وتختلج الشمس ثم تصفر وتكىء على الرمل وتغيب وتنطفئ ، فيرتفع صوت نوح بالآذان وتنطلق معه صيحات الأطفال ، وقبل أن يكمل تسبيحته تندفع الايدى الى سلطانيات الابريج ، وتعب الأفواه ثم تزدرد حفنة من التمر ، ويقوم الرجال للصلاة ، ثم يعودون فى شوق الى السلطات وآنية الاكل ، ويرين الصمت لحظة ، لا يسمع المرء فيها غير صوت المضغ ، وخيرير الماء فى الحلوق ، ثم يرتفع صوت الشيخ شليب :

– قال النبى :

– عليه الصلاة والسلام ..

– قال : تحدثوا على الطعام ولو بثمان أسلحتكم ..

ويصمت ريثما يرسل لقمة الى حلقه ويضيف :

– كنت فى الدر وهناك اشاعات تدور فى المقاهى :

وينتظر حتى يسأله الناس ، ولكنهم يواصلون المضغ ويصيخون السمع ، فيطول الصمت ولا يقطعه الا فضل بسؤال :

– هيه ماذا يقولون يا شليب ؟

فيزدرد الشيخ شليب لقمته ثم يقول :

– فى مصر كادوا ينسفون بيت صدقى باشا ..

فلا ينصتون بل يندفعون جميعا ..

– الله يخرب بيته !

ويتردد عم نوح ويهمس :

– اللهم أعمر بيوت المسلمين !!

فيسكته الشيخ فضل بإشارة من يده ويسأل :

– وهل قتلوه يا شليب ؟

– لا يا شيخ .. عمر الشقى كما يقولون طويل ..

ويمضى الشيخ فضل يسرد قصصا عن الطاغية ، أسر بها صفوى

الذى يعمل فى بيت الباشا : وبرغم ذلك فهو يبطش بالشعب ويهشم
رعوس الطلبة بالرصاص ، ويكسر ضلوعهم وسيقانهم ..

ويصمت قليلا ، ويلمس ساقه الجريحة ويحجج الجزار بنظرة قاسية
ثم يتشغل بالمضغ بينما صوت شليب يرتفع من جديد ..

- وفى مصر .. الشوارع تموج بالمتظاهرين يهتفون بسقوط
الباشا ..

- فى داهية .. الله يخرب بيته ..

فتلمع عينا المحامى ويهتف :

- اذن فسوف يستدعون النحاس للوزارة !

ولكن أحدا لا يسمع اليه بل الى شليب الذى استرسل :

- وعشرات الصنایعية فى السبتية قتلوا أو دفنوا أحياء فى أماكنهم
وهم يهتفون بسقوط الباشا ..

وهنا يصيح الجزار :

- عفارم .. يموتون من أجلنا ! يرحمهم الله ..

ويتدخل أحمد عودة فى الحديث :

- لا يا عبد الله ، انهم يتظاهرون فى سبيل الدستور .

وينتهى الافطار ، ويواصل الرجال أحاديثهم الشجية عن الارض
والطوفان ، وبركات افندى أثناء رشقات الشاي ثم يقومون لصلاة
التراويح ..

وتمضى أيام رمضان تباعا ، ينامون فى النهار ، لا يعملون الا قليلا
ويسهرون الليل كله الى السحور ، بين حلقات الذكر والاستماع الى
القرآن يتلوه الشيخ يعقوب عليهم فى الساحة مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع ،
وقد يديرون أقراص الحزمة بمليم يادره ، أكل الباشوات والأمرا ، أو
يستمعون الى أساطير البطولة ، يتلوها عليهم المحامى أو المأذون من كتب
صفراء : غزوة أحد .. غزوة بدر .. أبو زيد الهلالي سلامة .. وعنترة ..

ويستقر رأى أبى فى إحدى الليالى أن يفخر بى أمام الناس فيسره
فى نفسه الى أن تنتهى صلاة العشاء فيصفق بيديه ويدعونى :

— حامد .. ولد يا حامد .. تعال هنا ..

فأهرع اليه أخشى أن يكون الشيخ طه قد شكاني اليه من جديد ،
ولكنه يقربني اليه ، ويمسح على رأسي وهو يتمتم بالدعاء ، ثم التفت
وتناول كتابا أصفر وضعه في يدي وأمرني :

— اقرأ لنا يا حامد ..

وارتبكت وأنا أزن الكتاب الاصفر وأقلبه لأقرأ عنوانه :

« قصة سيف بن ذي اليزن » ..

وشجعني فضل بنظراته فمضيتُ أقرأ قصة هذا الرجل : فارس
مقدام يحارب ويجندل الابطال ، ويعشى مجاهل الغابات والأحراش ،
ويصاول الوحوش ثم يقرر أن يكتشف منابع النيل ، فخط به سهل
وشال به جبل ، جبال القمر . وهناك يحمل حملا الى الجنة .. وفيها
ينابيع النيل ..

وفقر الرجال أفواههم وهم يستمعون الى قصة النيل : واستثيرت
حماستي ، فاندفعت أقرأ واقراً : أفهم بعض ما أتלוه ويغمض على فهم
معظمه ، لكن القصة رغم ذلك كانت جليلة واضحة ، فالرجل نفسه ،
سيف بن ذي اليزن ، يتوقف في ذهول وخشوع أمام عيون ثلاثة ، ترتسم
في شكل ميمات ثلاثة ، تسيل منها المياه وتتجمع وتجري في أرض الجنة ،
ثم تنفذ الى أرض الدنيا من حيث لا يدري ، وتشق السهول الى
السودان والى مصر ، تحمل الحضرة والرفاء للمسلمين ولأهل الكتاب
من غير المسلمين ..

ويدقق الرجل ويفحص في الميمات — ميمات العيون — فيجدها
ميمات البسملة ، فيخر ساجدا لله شكرا على آلائه ونعمه ..

وأحسست انني وأن الرجال المستديرين بي يخرون سجدا مثله
يشكرون الله ، فقد عرفنا من أين ينبع النيل ! والى أين يتجه ؟! ولماذا
يسيل بالخير في وادينا ؟ كشف عجب أزال الحيرة التي ارتسمت دائما
في ذهني كلما وقفت على شاطئ النيل ..

انهم يكتشفون الله في النيل فيحبونه ولكنهم يخافون منه كما
يخافون من الله نفسه . أليس مبعث رحمة .. وفي نفس الوقت مبعث
نقمة اذا ما فاض أو غاض ؟

وتوقفت عن القراءة : أفرك عيني ، وأنا غارق في الميمات الثلاثة
وسحرها العظيم ، لكن « الشيخ فضل » يلكنني بكوعه ويهمس :

— اقرأ يا ولدي بارك الله فيك ..

والرجل .. سيف بن ذي اليزن ، يقطع وهادا أخرى ، وينزل في
بلاد : وجوه أهلها سوداء مثل القار ويتساءل : لماذا اسودت البشرة ..
لماذا لم يخلق الله الناس جميعا بيضا مثل القمر .. ثم يروى :

« في غابر الأزمان نام النبي نوح عليه السلام في خباء أعده في
الصحراء ، يسهر عليه ولداه سام وحام ، ثم هبت الريح واصطفق بآب
الحيمة ، واصطفقت معه ثياب النبي ، فتعرت ساقاه ثم فخذاه وبانت
عورته !!

« ولا يبالي حام بمقام أبيه ، فيشير الى العورة ، ويضحك ساخرا
فيلاحيه سام وينتهره فيرتفع صوتاهما بالللجاج ..

ويستيقظ النبي ، فيدرك ما هما فيه ثم يرشق حاما الذي لم يرع
حرمته بنظرات غاضبة ..

« ويبدو أن الغضب قد استبد بنوح ، اذ رفع يديه الى السماء وقال:
رب يا ذا الجلال .. رب يا من وهبتي نعمتك .. رب ..

ويرتفع صوته حادا حائقا يختلط بالريح المعولة ، ويقول :

« رب .. لتجعلن وجه حام ولدي الجاحد أسود مثل القار !!

وعلى الفور بدأ وجه الولد يتحول ، يربد ويغبر ثم يسود ، حتى
أصبح لامعا مثل الأبنوس ..

« ولم يكن غليل النبي قد شفى بعد ، فقد ارتفع صوته مرة أخرى .

« رب يا ذا الجلال .. وليكن أولاده جميعا سود الوجوه ..

ثم احتدم وأردف :

« وليكونوا جميعا خدما عند سام وأولاد سام ، في الحل وفي الترحال

.. آمين ..

فردد سام من خلفه : آمين .. بينما أطرق أخوه الى الأرض
كاسف البال نادما على ما بدر منه ، ثم طرده النبي من أرضه ، فحط به
سهل وشال به جبل حتى كان في هذا الوادي الذي توقف فيه

سيف بن ذى اليزن .. يدب فى طرقاته ، يلمع تحت وهج الشمس كما يلمع الأبتوس ، بين جماعات بيض الوجوه ، يحارون فى أمره ، ويتجمعون حوله ثم ينفذ الله أمره ، فتقع عينا أميرة البلاد - ابنة الملك - على الأبتوس اللامع فتجن به وتشغفه ، ثم تضمه الى قصرها وتتزوجه !

وجاء الابن الاول أسود مثل القار ، والثاني والثالث ، وجاء الاحقاد سودا مثل جدهم ، يلمعون فى وهج الشمس مثل الأبتوس حتى امتلأ بهم الوادى الذى سمي باسم السودان فيما بعد ، ..

وتوقفت عن القراءة ، ولم يلكنزنى الشيخ فضل ولا غيره !! لم يأمرنى أحد بمعاودة القراءة ، فقد كانوا يعلمون جميعا يقية المأساة !! أليسوا هم جميعا سود الوجوه بأمر النبى ، بأمر الله سبحانه وتعالى ؟ أليس أبناء حام من النجع : جمال وخالى عثمان ومحمد يعملون فى الحل والترحال خدما فى مصر عند أولاد سام ؟ خدما فى كل مكان عند أولاد سام !! صدقى والملك وبركات أفندى والمستر هيس ؟ .. أليسوا جميعا من أولاد سام ، أما عبده الفرنساوى ، أما هم فليسوا الا من أولاد حام الذين غضب عليهم النبى ، فاسودت وجوههم مثل جدهم حام !! ..

لقد تحققت النبوءة واكتملت حتى أوفت ، بل انها لم توف على غايتها بعد !

وعلى وجه فضل كان يرتسم ألم .. وهو يتذكر أهله جميعا الذين يعملون فى مصر ، عند أولاد سام .. ولعل فضلا كان يتساءل :

- ماضرك يا سيدنا نوح رضوان الله عليك ، ماضرك لو عفوت عنه ؟
ويبدو أنه كان ينكر الأسطورة كلها اذ مد يده فى غضب وانتزع الكتاب منى وهو يهمس :

- قم فتم يا ولدى .. لقد أتعبت عينيك !!

وقاموا جميعا يصطفون لصلاة التراويح ؛ بينما أتجهت أنا بخطى حزينة الى دهليز بيتنا .. وارتيمت بظهرى على العنجرىب الى جانب جدتى أقص عليها قصة الميمات الثلاثة ، وحام وسام فلم تتركنى أكملها بل أمرتنى :

- نم يا ولدى ولا تفكر فى مثل هذه الأمور .

فأطبقت شفتى وأخذت أفكر : ترى كيف كان حام .. أكان مثل

الشيخ فضل أم مثل أبي ، أم في لون جدتي هذه التي ترقد الى جانبي
فوق العنجريب ..

ثم شملني النوم وأنا لا أزال غارقا في أفكارى ، فاذا بى أرانى فيما
يرى النائم واقفا على حافة جبل ، أراقب الميمات الثلاثة وعيونها ، الا أن
العيون كانت تفرز لهيبا أحمر ، يتدفق مثل السيل ويخترق الوديان ،
ويشق مجراها ليسيل أمام نجعنا ، أمام الساقية والفلوكة الرابضة عند
الموردة ، واذا بى أنتقل فجأة الى هودية الساقية أراقب بقرتنا ، وهى
تدور وتدور ، ثم أفزع على صوت عويل ومرأى طرحة تعوم فى اللهب ،
فأرى شريفة تغوص فى السيل ، سيل اللهب ، للمرة الثالثة !!

فأقفز من الهودية كالمسحور وأرمى بنفسى بين أمواج اللهب لأنقذ
شريفة فأرتطم بالنار ، وأفيق على صرخة داوية تنبعث من حلقى وترج
الدهلز كله ..

فى الأيام الأخيرة من رمضان يتطلع الناس الى العيد بأمل ،
ويراقبون السماء فى لهفة ، ينتظرون ليلة القدر التى هى
خير من ألف شهر ؛ فتنحول رؤوسهم دائما بعد صلاة
التراويح الى الفضاء ، وتحقق العيون فى كل نجمة ونتوقع أن تنشق
السماء عندها عن القدر نفسه !

فيواصلون السهر ، وقد أعدوا دعاء موجزا مقتضبا يهتفون به
جميعا دفعة واحدة أمام القدر حين يتجلى لهم !

ويندرون عند الشونة فيتساءل أحمد عودة :

— ماذا تطلب من القدر يا فضل لو تجلى لك ؟

فيتنحنح الشيخ فضل ويهمس :

- ومن قال لك انه سيتجلى لى ! النحس يلزمنى يا أحمد ..
- ليس شيء على الله ببعيد يا فضل .. هب انه تجلى لك فماذا تقول للقدر !!
- فيصمت الرجل ولكنه يرمق ساقه الجريحة فى ألم ، فلا يلج عليه أحمد عودة بل يتركه ليداعب المحامى ..
- وأنت يا أستاذ .. النفسك تدعو أم لنا جميعا ؟
- فيتمخط ويبصق ، ثم يتنحنج ليقول فى صوت يدوى فى الساحة :
- لا جدوى .. سيان بعد الطوفان أو قبله .. الفقر هو الفقر والبؤس نفس الشيء ! فلماذا نتعب القدر معنا ؟
- لا يا شيخ .. كفاك فصاحة ! ألا تريد أن تتزوج بدلا ... ثم يصمت اذ يقاطعه المحامى :
- القدر لم يمنعنى من الزواج .. المصيبة التى نحن فيها هى .. ما أصنى فؤادك يا أحمد .. مالك بليدا لا تفهم ؟
- ويسكت ويبتلع زيقه ثم يضيف :
- سأقول جملة واحدة : اللهم مر الطوفان أن يكف أذاه ، ويسر الآخرون هذه الكلمات فى نفوسهم ، سيهتفون بها للقدر فى سرعة الى جانب أمنياتهم الشخصية ..
- وينصرفون الى شئون العيد ، ويدلفون الى المتجر ويقطعون أمانارا من الدبلان والبفتة والباتستا والشيت والطرح الملونة وقдра من السكر والشاي ، ويعودون الى بيوتهم ظامئين يقولون لأنفسهم : أيام خمسة ثم ينتهى الصيام ويهل العيد .. مرحى !
- الحركة دائبة بين الدكان والبيوت وجزارة عبد الله ودكانة عم شاهين الترزى . والفتيات فى البيوت يطرون ، وينظفن كل ركن فى البيت ، لاستقبال العيد ويسهرن على ضوء الفوانيس ، لكشكشة الجلابيب عند الصدر وتطويقها بزيق أحمر ، ويجددن تسريحة الشعر بعد بله بمنقوع الشاي ، والصغار ينشرون جلابيبهم على الصدور ويقذفون بها بعيدا ..
- جلابية صالح أحسن من جلابيتى .. أريدها بياقة ..

ويمزقون بالموسى مداساتهم ثم يلحون فتتوسل الام عند حاكم الاسكافى ليعد زوجا آخر.. وأين جيب الساعة؟! وأين الجوذلان والكاتينة والسلسلة .. اما الطاقة المزرکشة فمخبأة فى السحارة ..

حتى أُمى تنسى خطوطها ، وتنصرف لمشاغل العيد ، وتراقب ابنتيها وهما تعدان ملابس العيد لها ولجدتى ولنفسيهما فترشدهما وتنهاهما عن تحزيق الجلباب عند الصدر ، والكشكشة فى الجرجار يجب أن تكون عريضة حتى لا تجمع التراب والشوك ، ويجب أن تتسع حتى لا تشتبك بالخلخال ، ثم يخى يا بطة طاقة حامد واطويها حتى تلمع .. تقول هذا وترمقنى فى حنان وتشمل وجهى بنظرتها الطويلة المشفقة ثم تسأل :

— حامد .. ماذا تمنى على الله فى ليلة القدر ؟

حقا ماذا أتمنى ؟ المدرسة ؟ .. أى شىء ؟ حسرت كيف أجيب ثم قررت مثل المحامى أن أطلب من القدر أن يكف الطوفان أذاه ، لكنها انشغلت عنى قبل أن أجيب لتلقى نظرة على جميلة وهى تجرب جلبابها .

واذا ما كان المساء خلوت الى بطة أوشوش فى أذنها :

— ماذا تمنى يا بطة فى ليلة القدر ؟ ..

فتركت الابرة فى الغرزة ومالت بوجهها وقالت :

— أمنا يا حامد مريضة .

أمنا مريضة ! .. يالى من غبى ! .. لماذا لم أفكر فى هذا ؟ .. سوف نطلب من الله أن يمن عليها بالشفاء ، فلا تنتابها الاغماء ولا ترسم على الأرض تلك الخطوط .

واستقر الرأى واتفقنا أنا وبطة أن نسهر كل ليلة فى فناء البيت وأن ننام مباشرة بعد الافطار وننسحب بعد أن نصحو الى الفناء نتلفع بحرام ثقيل لنتنظر طاقة القدر حين تفتح .

قررنا أن نحظى وحدنا بشرف هذا الدعاء ، فلم نفرض به لأحد .. لا لأبى ولا لشقيقتنا .. وحين تشفى الأم سيكون فى مقدورنا وحدنا أن نتباهى ونحظى بأكبر قدر من عطفها .

وأخذنا منذ تلك الليلة ننام بعد الافطار ، ثم نصحو ونتوضأ ونصلى ونسهر فى الفناء ، ثم شعرت أننا بعيدان عن السماء ، فأخذنا فى كل ليلة نتسلق جذع النخلة ونهبط منه الى السقف ، ونرتكز هناك فى صمت

نرقب السماء ونتطلع الى الشرق والغرب وفي كل اتجاه • وقد تنام بطة
فالكزها بكوعى وقد أنام فتزغدننى هي لتوقظنى •

قلت لها مرة : ولكن هل يطلع القدر لنا نحن الصغار ؟ •• سيطل
على الكبار يا بطة وليس لنا ! قالت : كم أنت عبيط ! انه يطل على الصغار
ما داموا طاهرين • ألم نتوضأ ؟ •• ثم زغدتنى وهي تهمس : لا تشغلنى
فقد تنشق السماء وأنت تثرثر فلا نراها •• اصمت ولا تتكلم ••

والتصقنا تحت الحرام نلتمس الدفء ، وعيوننا تنفرس فى السماء
التي بدت صافية كعين الديك • زرقاء ، مزدانة بالقمر وبآلاف النجوم
تبرق هنا وهناك ؛ وتنهض اليها مئذنة الجامع : كتلة طينية سوداء ،
طويلة ، مدببة - يتصل النور بينها وبين الصخرة المعلقة على كتف الجبل ،
بينها وبين غابات النخيل ، والنجع صامت الا من همهمات عند دكانة
الترزى ، وأدعيات التراويح تنبعث من الجامع ، وضحكة خلية ، وآهة
مكتومة ، السماء كبيرة واسعة ، وقد خلا القضاء فى شهر رمضان من
مواكب الجن الذين يحاولون تسليق الملكوت الأعلى واختراق السماء • انهم
محبوسون فى قماقم بأمر الله ! بصرانا لا يكلان ، بل يتفرسان • ونحن
صامتان نكاد نسمع دقات قلبينا ، يفزعنا من أحلامنا سعال الجدة وهممة
جميلة ، فى منامها •

وفى منتصف الليلة الثانية قبل الأخيرة من رمضان ، كنا لانزال
نتفرس فى السماء ، ونحلق بعيوننا فى النجوم ، وفى الزرقة المعتمة
المحيطة بأنوارها الباردة •

وفجأة ، وبينما نفتح أفواهنا لنقول شيئا انشقت السماء عن خط
لامع بارق يجر ذيلا طويلا من خلفه ، ذيلا من النور الزاهى ، تزايدت
النجوم فيه وتلاشت الزرقة الصافية فى حواشيه •

وشملتنا نحن رعشة أفاقت منها بطة تصيح : حامد •• حامد ••
ليلة القدر يا ولد ؟ فذب الارتباك فى جسدى ، وأحسست بشيء يقف
فى حلقى مثل الحازوق ، أحرك لسانى فلا تخرج الكلمات من فمى ، ثم
تألفت الدموع فى عيني ، وبطة مازالت تصرخ : ليلة القدر •• آه ••
لقد اختفى كل شيء ، وعادت السماء الى زرقتها المعتمة ، وعادت النجوم
تتألق والقمر يسطع •• وحينذاك عاد لسانى الى حركته واختفى الحازوق
من حلقى فرحت أهتف ، واقفا على قدمى ، مطوحا بيدي للسماء : أمى ••
أمى •• أشف يا رباه أمى •• ثم اختنق صوتى بالبكاء ، وتهاويت على

سقف البيت ، وارتمت بطة فوقى وهي تبكى وتصرخ : رباه .. أشف
أمى يا رباه .

وصمتنا ، وفى قلبينا احساس بحزن ثقیل یجثم علینا ، وعلى الكون
كله ، حزن تضاعفه قتامة المئذنة والصخرة المعلقة على كتف الجبل ، حزن
یتسرب الى كل ذرة من جسدینا . ثم تحول الحزن الى ندم شدید ینینخ
على صدرینا .. ألم تغفل ؟ .. ألم نعجز عن الدعاء حينما انشقت السماء
لنا ؟ .. تعيسان منحوسان .. لم ننتهز الفرصة المتاحة .

وانكفأنا نبكى ونصرخ الى أن تنبهت جميلة التى استيقظت لتعد
السحور الى صوت بكائنا فراحت تنادى :

— من الذى يبكى فوق السطح .. من ؟

وصمتنا فجأة حين وقفت تحتنا مباشرة تستمع الى وشوشاتنا ثم
أصابها الذعر فراحت تهمس لنفسها : باسم الله .. باسم الله .. أعوذ
بالله من الشيطان الرجيم ، وأقبلت عليها الجدة من الداخل تقول فى صوت
متثائب :

— جميلة .. أين حامد .. أين بطة ؟

— ألیسا فى الدهلیز یا جدة ؟

— كلا .

وصمتت لحظة ثم أضافت :

— البنت العفريتة سحبت أخاها لتسهر فى انتظار ليلة القدر ..
شعنونة ..

ورفعت جميلة رأسها الى السقف وقالت : بطة .. أنت یا ولد ؟

فأجبنا بعد صمت ، ثم تسلقنا جذع النخلة من جدید الى الارض ،
وارتمیت فى أحضان جدتى وأنا أصرخ : ليلة القدر .. انشقت السماء
.. لكننا .. سامحینى یا أماه ، فأدرکت الجدة كل شىء من کلماتى
المتقطعة ، فتحسست شعرى وسأقتنى الى العنجریب ، ولم تتركنى الا
وأنا أغط فى نوم عمیق لم أفق منه الا حين طرق « نوح » بقبضته على
باب بیتنا یدعوننا للسحور ، ومضى ینشد فى طرقات النجع انشودة
الوداع : لا أوحش الله منك یا شهر الصیام .. لا أوحش الله منك
یا رمضان .

ومر يوم الوقفة في هرج ، وازدحم الناس على دكانة عبد الله الجزار
والتوزى ، وراج متجراً أبى ، وعاد الرجال من الحقول مبكرين يسوقون
دوابهم .. وانفض مجلس الافطار ورقد الاطفال ، وسهرت كل أم الى أن
غلب النعاس عيون الصغار ، فاقتربن منهم على أطراف الاصابع ، وفي
أيديهن زجاجات عطر تفاذ يسكين منها قطرة واحدة على الشعر ويفردن
القبضات الصغيرة المطوية ، ويلقن فيها بقطعة صغيرة من الحناء ، ثم
يلتفتن الى الأزواج يداعبنهم ثم يسلمن أنفسهن للنوم وعلى الشفاه بسمه ،
وفي العيون المغلقة تطلع الى شمس العيد ..

وسهرت داريا عند أم سعدية وعادت بقلب مثقل ، فخيال جمال
والبيضاء لا يبارح فكرها . صحيح أن جلبابيهما - هي وشريفة - مازالا
جديدين ، ولكن العيد ليس جلباباً فحسب بل لحوما مشوية ومسلوقة
وأنى لها بكل هذا ، ولولا الكوارع التى تخلى عنها الجزار لهما لما عرف
بيتهما « الزفر » فى يوم العيد . والعصيدة التى تقدم فى الصباح لا بد
لها من سمن وعسل . والعسل ميسور . أما السمن فحسبها ما استعارته
من أم سعدية .

دلفت الى بيتها فوجدت شريفة ساهرة فمضت تدرش معها الى أن
نامت الفتاة بعد قبضة من الحناء فى يدها ، وقطرة ماء كبتها على شعرها
بعد أن رجتها فى زجاجة عطر قديمة فارغة اختلستها من بيت فضيلة ،
وواصلت « داريا » تفكيرها فى جمال ، بينما حسن المصرى فى الشونة
ينطرح على برش ، يقلب طرفه فى السماء ، ويغمغم بأغنية صعيدية ثم
يصمت وفى عينيه حنين جارف الى قريته وصباه فى ليلة العيد ..





وعند السحر أفاقت أشجار النخيل من نعاسها ومضت
توشوش ، وتنبت عيدان القمح القصير على النسيم يعانق
خصورها الضامرة •

١٩

ومن خلال الغلالة الفجرية الرمادية الباهتة لا تتناهى الى أسماع
الكون ولا الى الأبصار الا همهمات وأشباح نفر قليل من الرجال تناثروا على
الشاطئ عاكفين فى ضوء فوانيس على المراكب الشراعية الصغيرة البيضاء،
يرتقون ثقباً فى الشراع ، ويعلقون فوق الصاري والشاغل والراجة -
بيارق ذات ألوان وأجراس صغيرة ذات صليل مثل صليل الفضة والذهب •

ثم أطلت الشمس وفتحت الابواب الموصدة ، وتغير لون النجم كله
اذ انتشر فى الطرقات كرنفال تنعكس عليه أشعة الشمس الصباحية الفاترة
كرنفال رجال ونساء وأطفال يندفعون الى سفوح الجبل ، فى زحام من
الاردية الملونة ، جلابيب طويلة تجر جر ذبولها خلف مداسات النساء
الحمراء ، جلابيب من الباتستا والشيت والقوال المقلم والحرير اليابانى
برسومه الصارخة وجلابيب بياقات وعباءات وقفاطين وعمم بيضاء ، «وطواقى»
عليها جمال باركة وأخرى رابضة ، وطرح تنسدل على جدائل بارقة بالزيت
يهتز طرفاها فوق النهود ، وآكف مخضبة ومناخر مثقوبة تتدلى منها حل
ذهبية مستديرة ، وقطع مثلثة تتراقص على الجباه ، ولبات صغيرة صفراء
تهتز على النحور فى نغم يوشوش وينسجم مع الخطى الصارخة برنة
الخلخال •



« داريا ، عاطلة فقد باعت مصاعها كله للتاجر منذ شهور ولم يبق لها الا خلخال صامت يضيق الخناق على ساقها ، تخب على الطريق وفي يدها ابريق .. تنسكب قطرات الماء من بزبوزه ، ومن خلفها شريفة تتعقب خطاها في صمت ، مطرقة مثل أمها ، تفكران في «جمال» وزوجه البيضاء.. تلك الفاجرة فلولاها لكان جمال هنا في العيد !

العصى المقوسة ذات المقابض النحاسية المعقوفة تنغرز في التراب لترتفع الى مستوى الاكتاف ، حيث يتأرجح كرباج مطوى تحت الابط ، ومصاحف صفراء تنبعث منها رائحة العتة والقلم .

وعند التقاء نجعنا بنجع الجراب ارتفعت همهمة أخذت تتضخم حتى أصبحت داوية : الله أكبر .. لا اله الا الله .. الله أكبر الله أكبر .. تنبعث في صوت عميق من حلق الشيخ عبد العزيز .. يرتلها من خلفه عشرات الرجال ، انضم اليهم موكبنا الزاحف ، فسرى التهليل والتكبير ينداح بين أشجار النخيل ، ويتردد في الوادي كرجع الصدى يرتد من الجبل .

من كل فج كان الموكب والتهليل يتحرك : من الغرب والشرق ، ومن النجوع القبلية ، والبحرية ، ولا يتوقف الا عند الجبانة . حيث يرقد أعزاء ، لا تدل عليهم الا شواهدهم : حجارة بيضاء مدببة ، وصبار متجهم ظاميء يطل على رجال راخوا ، رجال تسلقوا أشجار النخيل مثلما نتسلقها ، وعبروا النيل كما نعبر ، نساء شغلن هؤلاء الرجال في يوم . ووهين الحياة لزهرات سمراء دببت هي الاخرى على نفس الطريق ، زهرات ضاعت كما ضاع جمال في زحام المدينة الالهية .

وتوقفوا قليلا فوق الشواهد وترحموا ، وذرفوا دموع وفاء لاتباح الفرحة بالعيد الا بعدها ، ثم انفلتوا تاركين نساءهم يبكين على المقابر .. انفلتوا الى الساحة الرملية الواسعة الممتدة أمام قبة الحاج مكاوي ، يتخفون من مداساتهم ثم يفترشون الرمل الأصفر ، ويندفعون بحناجر ذاوية : الله أكبر .. الله أكبر .. لا اله الا الله .. الله أكبر ، الله أكبر . حناجر يتردد صداها على الجبل الشرقي ، وينعكس على القبة البيضاء وينداح على الرمل الأصفر .

ثم أنهى الامام ، تكبيراتهم ، اذ وقف ولوح بيده ثم نشر ورقة أمام عينيه وألقى خطبته التي نسخها من كتاب أصفر ، عاش في القرية يحمله تحت ابطه في غدوه ورواحه ، ثم انتهت الصلاة ، وتشابكت أيدي الرجال ،

وقفزت الامنيات الى الشفاه ، الا الشيخ «فضل» ، فقد حيا الجميع ، وأبى أن يمد يده الى عبد الله الجزار ، فاستشاط هذا غضبا وانتفض .

وكاد جلال العيد يتبدد .

ثم توقفوا على المقابر يرتلون آيات : الهكم التكاثر حتى زرتم المقابر .
واذا جاء .. والضحي ، ومن شر النفاثات فى العقد ، وراحوا يستمطرون شآبيب الرحمة على أرواح عزيزة تعيش فى دار الأبدية ، وانسلوا ينفضون أيديهم من كل حزن ويطلقون الضحكات الداوية ، ويشرقون بالابتسامات العريضة ترتسم على وجوههم الطيبة السمراء .

وعاد الكرنفال يدب من جديد على طرقات النجع ويتفرع هنا وهناك بألوانه الزاهية - وعند المنعطف توقفت جدتى تستقبل داريا ، وتهلل :

- داريا .. داريا «سكينة» كروج آجانلى .. تعيشين ياداريا أعواما سعيدة .. عدد الرمل والحصى .

فافتتر ثغر داريا عن ابتسامة مضيئة مشرقة وراحت تهلل :

- تعيشينها أنت وابنتك فاطمة وأحباؤك ، وأحباء أحبائك مدد الشهور والسنين والأعياد .

وتتعانقان ثم تنفصلان الى أخريات ، يسرى بينهما أطفال صفار يملئون الدنيا هتافا وصياحا مرحا فى أصوات مسرعة .

وتلتقى جدتى بزوجة حاكم الاسكافى وتبادلها أمنيات غالية ثم تنعطف على «نور» الصغير ترفعه الى صدرها وتقبله ولسانها يلهج : مبروك عليك ثوبك الجديد يا ولدى .. لتعش حتى يذوب غيره وغيره ، وليحفظ الله أباك وأمك ورعاك لهما يانور .

فيبتسم الصغير ويلتغ ثم يقفز الى الارض ويجرى ليختلط بالصغار الآخرين الذين مضوا يتقافزون وينسلون بين سيقان الرجال والنساء .

وعلى المصاطب ، أمام كل دار صفوف من الأوانى الفخارية ، تغطيها أطباق الخوص .. ثم تلال صغيرة من التمر والقشار الابيض ، والى هذه الاوانى تسابق الرجال والشباب يرفعون الأغطية عن الاوانى ، ويتأملون لحظة عصيدة تسيل فوقها - فى قنـوات - قطرات من السمن البلدى وعسل البلح ، فيأتون عليها فى سرعة مذهلة اذا ماراقت لهم ، ويتلفت

الشباب ، ويكبشون حفيات من التراب يدرونها فى سرعة على كل عصيدة
لا تروقههم ، وينفلقون ضاحكين الى صفوف أخرى •

وعلى عتبة باب بيتها توقفت داريا سكيئة ، وانقبض قلبها بالأسى
وهى تراقبهم يكبشون التراب وينشرونه على عصيدتها • خسارة أرهقت
نفسها فى الصباح لتعدها ، وقطرات السمن التى أراقت ماء وجهها فى
سبيلها ، والعسل •• كل ذلك نثر عليه التراب ! انقبض قلبها ،
وتهامست : يا لله •• غفارىت •• أولاد •• لو كان جمال هنا •• آه
يا قلبى !

ثم انسحبت الى الداخل كاسفة البال حزينة تدق على صدرها ،
تسب وتلعن صالح جلق ، وبرعى وسعيد الصغير

وسمعتها شريفة تقول :

— جمال •• لو كنت هنا يا جمال !

فابتسمت وهمست : ثلاث سنوات مرت على غيابه • وقبلها كان
جمال نفسه يعفر بالتراب مثلهم عصيدة الآخرين ، وكنت تفرحين لشقاوته
فاستدارت داريا اليها دون غضب ، فلعلها استعذبت الذكرى —
ذكرى ابنها الغائب ، لعلها أرادت أن تستعيد الذكرى حين قالت :

— فاكرة يا شريفة حين جاءت أم سعدية تشكو «جمال» فى يوم عيد
بعد أن عفر ما قدمته بالتراب •• كانت كاسفة البال مثلى •• حزينة مطرقة
مثل حزنى يا شريفة •

وتريثت لحظة ثم أضافت :

— وانت يا شريفة كنت ساعتها تنظرين اليها فى شماعة ••
بينما المسكينة تذرف الدمع •• قلة أدب •
فعبست الفتاة قليلا ثم قالت :

— وانت ضربتيني يا داريا فى يوم عيد •• ما كان من حقدك يا أمه ••
ما كان من حقدك !

— اسكتى يا ابنتى •• ولا تقلبى المواجه الهى يرزقك بمن يسعدك •

ثم مضت ترمق صدرها الناهد فى اعجاب وأردفت : كنت صغيرة ••
أما الآن فقد طاب الثمر للأكال •• الهى يسعدك يا بنتى ••

فضحكت الصغيرة ثم قالت فى تردد : لا أريد أحدا يسعدنى .. ثم لاحقتها الدوامة من جديد .. الأفكار والذكريات ، وجدت نفسها تفكر فى برعى وفى السحر الجميل وفى حسن المصرى

وتراخت عيناها لحظة وهى تلوك هذه الأفكار فى مكان ما خلف رأسها ، فنحت بيدها ضفائر ظلمت عينيها ، وهزت رأسها بعنف ثم استسلمت وانحنى تمسك بفخذها . ثم شدت من قامتها ، وألقت نظرة سريعة على صدرها متوهمة أن جلبابها تمزق عند النهدين الصليبين . فأسدلت طرحتها بدافع غريزى ثم أفادت من دوامة أفكارها على صوت داريا يطن :

– يوم زفافك سيكون يوم عيدى يا بنتى !

وصمتت فجأة وكأن شيئاً رهيباً ضغط على صدرها ، وشخصت ببصرها الى الفتاة ثم همست : شريفة ، تتزوجين بشرط واحد .. تبقيين هنا معى ولا ترحلين . وأشارت بيدها : هذا الديوانى سيكون لكما ، والدهليز ، أما أنا فهذا الحاصل يكفينى ، ولقمة صغيرة ، وفنجان شاي ، سأعيش معكما ومع أطفالكما الى أن أسلم الروح ، ستسمين أحدهم باسم جمال .. والثانى – وقاطعتها الفتاة قبل أن تكمل جملتها : لن أتزوج يا أماء .. لن أتركك ماحييت ! فتقدمت الام منها واحتضنتها وهى تهمس : لا شىء ينتزعك منى يا حبيبة .. ثم كففت دمة وواصلت حديثها : كفانى ما عانيت من جمال .. آه منك يا جمال . وتهدج صوتها واكتست عيناها قتامة رمادية محزنة : فقط لو أرسلت لى خطابا واحدا فى العيد .. طردا صغيرا لا يزيد عن قبضة اليد .. يا خيبتك فى ولديك يا داريا سكينه ، مات البكرى وصاع الثانى !

ومضت تبكى بينما الصغيرة تحاول تهدئة روعها فلا تملك نفسها ، بل تبكى هى الاخرى فى صمت بينما تسترسل الأم : الولد سر أبيه .. كان أبوه يهجرنى أعواما .. لا يسأل عنى . ثم يعود ليهجرنى من جديد .. لعنة الله عليه .. فتنتفض الفتاة وتتملص من أحضانها وهى تقول اتركى أبى فى حاله . انه هناك يتام فى قبره لهفى عليك يا أبى . لو كنت معنا .. وتهدج صوتاهما بالبكاء مرة بعد أخرى وقد عادتا الى أحضان بعضهما ، ثم تشعر داريا انها افسدت بهجة العيد على ابنتها ، فتنتزع ابتسامة ترسمها على شفتيها وتبعد وجه الفتاة وتنظر اليها مليا ثم تهمس : ابنة أمك يا شريفة .. جميلة .. وتلمس الكشكشة عند الصدر وتردد : فى

أيامنا لم يكونوا يسمحون لنا بهذه الكشكشة • فتبتسم الفتاة وتمسح دموعها بطرف طرحتها وتقول : أيامنا غير أيامكم •• أما رأيت جلابيه سعدية •• حتى أمها العجوز •• فتتنهد داريا وتقول : أيامنا يابنتي كانت أحسن : السمن في البيت •• والقيراطان •• كل شيء •• وأبوك •• وجمال •• وتوقفت عن الكلام مع صرير الباب •• واستدارت إليه بوجه متهلل تستقبل نسوة جئن للتهنئة بالعيد : نبوية التي رقصت يوم جواب حسين النجار والسيدة البيضاء «أم زين» وانفلتت شريفة تعد أكواب الشاي وعيناها لا تترك أن هذه الزائرة الجديدة : بيضاء ، جميلة •• تعدت الخامسة والثلاثين • شعرها فاحم ورغم ذلك ، ينسدل على كتفيها ورقبتها من تحت الطرحة الخفيفة ويلامس تقوية الجلباب الذي لا يختلف في شيء عن جلابيب نساء القرية الا في ضيقه هنا وهناك ، حتى انه امتلا بجسدها البض ، وانبعج عند صدرها وفوق ساقها • في عينيها ذكاء وشطارة تحدقان من وجهها الابيض المستدير ومن خلال اطار الكحل الثقيل ••

أم زين هذه أصبحت محط أنظار الرجال ، والنساء في القرية ، يرمقنها في اعجاب وفي غيظ في نفس الوقت • وقد أدركت هي مايعانيه فمضت تداورهن بذكاء غريب فألفتها كل واحدة ولأمر ما وفي بيت داريا سكينه مضت أم زين تعرض بزنوبة زوجة جمال وكأنها تعرفها : أما أنا فان زوجي لم ينس أهله أبدا ، كان يرسل لهم •• كنت أدفعه الى مساعدة أخته • كذابة والله • ولكنها تواصل رغم ذلك اطراءها لنفسها وتعريضها بزنوبة • تضغط على كلماتها لتصيب مرماها في قلب شريفة وأما •

وتمكنك بالفعل من قلبيهما فأنستا اليها ، بينما مضت تتحدث عن العيد في مصر ، ومباهج العيد والمراجيح وعن كل شيء تدريه أو لا تدريه حديث العالم الخبير ! ••

وتنتهي الزيارة حين يحل المساء ، فينصرفن للفرجة على حلقات الذكر وملاعب الشباب في ضوء القمر ، ويستمعن الى المنشد يعلو صوته : حتى ولا في يوسف •• في يوسف •• في يوسف والرجال يتطوحون ويندوبون في ملكوت السماء ، ويغيبون عن الوجدان ، دون أن تغيب رائحة العرق في أفواه بعضهم ثم يستريحون ويتربعون على الأبراش يحكون نوادر العيد ، ثم ينتفضون من جديد يرجون الأرض بأقدامهم الشابة والدف يتابعهم بنقراته الخافتة الهادرة تصاحب لعلعة صوت المغنى : سمراء

يا سمرء مثل الليمون • قد سئمت تلويحات يديك من وراء الشباك ،
فاهبطي من عليائك يا سمرء وناوليني يديك !

وخلف الابواب ، وفي الساحة نفسها ، عند الحافة وقفت بعض
السمرات يستمعن الى الكلمات العذبة وقلوبهن تهتز بالطرب •

وانتهت السهرة ، وشرع الناس ينصرفون ، والأقراص السوداء تدور
وتضغط على المقطع الثاني من خوجلي عبد المجيد - اسطوانات ميشيان !

ثم راحت الانوار الهامسة تخبو فانوسا بعد فانوس ، فرقد الرجال
في أحضان النساء ، اهبطي من عليائك •• ناوليني يديك •• اهبطي
لترقع الهمسات والضحكات الخافتة ، تتصل بين صدور متشابكة وذراع
تعبث بخصلات شعر على مفرق وجه أسمر ••

الضحى من اليوم الثالث ، النجع لا يزال يتبادل الزيارات ،
ونحن وقوف على الشاطئ بملابسنا الزاهية وجيوبنا منتفخة
بمناديل صرت فيها قطع الملابس والقروش والهدايا ••



وعلى مدى البصر فوق صفحة النيل مراكب بيضاء تخطر هنا وهناك ،
ونحن نهمل لها ، ونتقافز في انتظار دورنا للركوب والتجول في النيل ••
ورست مركب « عوض كتيه » على الموردة ، وتوقف الملاح على حافتها
ينادي علينا وهو يمسك بالشاغل ويهزه ، فتصلصل الاجراس الصغيرة ••
صليل الذهب والفضة ، ويهز الراجة فينتفض الشراع ، ويشد الشاغل
من جديد فيمتلي القلع بالنو ثم يتركه ليصفق وكأنه ينادينا ••

المركب مزدان مبرقش ، والبيارق ، تنعكس ظلالتها الخفاقة ، في
أغوار النيل ، في مياه الشتاء الضحلة ••
تواثبنا عبر السقالة الى المركب ونحن نهتف ••

- كروج آجا نللى ياعوض • كل عام وانت بخير يا عوض ..

- أكون نللى • وانت ياابنى وأبوك واهلك جميعا •

ثم فضضنا مناديلنا ووهبناه ملاليمنا ، وتوقفنا على حافتي المركب
نستند على الشاغول والصارى ونرسل ضحكات صاخبة تنداح عبر الماء
وترتد الينا فنفرح أيما فرح ..

وأمسك عوض كتية بالدف ينقر عليه نقرا خافتا ثم هادرا ينبه الذين
كانوا لايزالون يتسكعون ليهرعوا إليه ..

ثم رفعت السقالة واقلعت سفينة المرح • وأصواتنا تعلو بالضحك
والغناء خلف النقرات الداوية بينما صوته الرخيم العميق يغنى للعيد ..

ثم ألقى بالدف ، وبدأ يتلاعب بنا فوق صفحة النيل : يملأ الشراع
بالريح • ويدير الدفة فتميل المركب الى جانبها الأيمن وتكاد تغترف من
الماء البارد وتنقلب ، ويوشك الشراع المائل أن يمس صفحة الماء ونحن
نتشبث باللبان والأعراس خشية الانزلاق فى النيل ، بينما حلوقنا يشقها
الضحك المتصل ، فلا نبالى بصرخات العجائز على الشاطئ ودعائهم المتصل:
أن نعود ولا نتوغل فى النيل ..

ثم يرخى الملاح شاغوله فينفض النو ، وتنعطف الدفة وتستقيم المركب
لتجرى رخاء وتخطو كاليمامة هونا على صفحة النيل ، تحددوها أصوات
بأنغام حلوة ترسلها وراء نقرات الدف ..

وفجأة يندفع الرئيس بالمركب الى غابة من السنط متشابكة تميل على
الجرف ، فيكاد الشراع يعلق بها ويتمزق قنصرخ وتنبهه الى الخطأ الذى
يرتكبه فيبتسم لنا فى هدوء ، ثم ينعطف فى اللحظة الاخيرة ويوغل من
جديد فى النيل ، ويسرى بنا والدف فى يده حتى يرسو بنا فى ابريم ،
فى محاذاة دكانة أحمد عبد الله حيث نشترى علب الحلوة الطحينية
وصناديق الملبن والحلقوم والبسكويت ، ونعاود لهونا ومرحنا الذى
لا ينقطع ..

والى الشرق والغرب من كل اتجاه بدت مراكب شراعية أخرى ..
كل واحدة تقل أطفال نجع من التجوع ، يهللون ويملثون النيل بأغانيهم
وصيحاتهم المرحة ، ويلوحون لنا فنلوح لهم بتحية العيد ..

وعادت المراكب كلها فتجمعت عند الظهيرة فى خط واحد ، فى محاذاة

الشمندورة الحمراء ، ما بين الجزيرة والضفة الشرقية ، وراحت تتحرك
وتتقدم وتتأخر الى أن تراصت وكأنها طابور عسكري بديع ..

وعلى حافة كل مركب أطفالها المتحمسون يهتفون ..

— سنغلبكم ..

فيتحداهم الآخرون في صيحات دافقة ... وفجأة ونحن نفرق النيل
بصيحاتنا صدرت اشارة البدء على نقرات دف ، فشد كل نوتي شاغوله
وأدار الدفة .. وفغر كل طفل فاه ، وانتفخ كل شراع ، ثم انطلقت المراكب
تركض في خفة على صفحة النيل تسابق الاخريات .. وعلى حافة مركبنا
صمتنا في حزن ، فان مركبنا أخذت تتقاعس حتى أصبحت في مؤخرة
الصف . والمسافة مازالت طويلة ، فلا بد لنا أن نبلغ القرن الشمالي
للجزيرة ثم نعود عند الشمندورة قبل الآخرين ..

هذه مراكب الآخرين تحاذينا فيهتف أطفالها لنا : آفياالوجو ..
آفياالوجو (مع السلامة) ملوحن بأيديهم مرسلين ضحكات الشمامسة
والفرح ، فنرد عليهم في حسرة ثم ننقلب على « عوض كتية » نستحثه
ونشجعه . ونقدم له كل ما في جيوبنا من حلوى وقروش ، فيأخذها دون
أن يبالي بنا .. ونصمت قليلا ثم يجن جئوننا ، فنعود نستحثه ويظل هو
هادئا ينقر على دفة ، ويرسل نظرة مختلسة الى المراكب الاخرى ، ثم يهمس
لنا من بين أسنانه المسكة بالشاغول : ولا يهتمكم .. سنسبقهم . كيف
بالله عليك يا عوض .. فما نحن في المؤخرة ؟ .. ولا يهتمكم .. دعوها
تسبقنا الآن .. وبعد قليل سترون بعيونكم فتهتف له ونطمئن ، الا أن
المراكب كلها ظلت تتقدمنا ، فعاودنا القلق والحزن ثم عدنا نصرخ في
وجهه : شرف النجع كله في يديك يا عوض .. هيا يا عوض .. وحياة امك
يا عوض ! ..

ولا ندري كيف استطاع عوض أن يلتوى على صفحة الماء بمركبه ! ..
كيف أمكنه أن يتخير مجرى تيار مائي يندفع في سرعة شديدة الى
الشمال .. الى نقطة النهاية .. تيار خطر سريع الحركة أخذ يندفع
بمركبنا في سرعة مضاعفة ، وعوض لا يزال يعرض على الشاغول بأسنانه
ويهمهم . اصبروا يا عيال .. اصبروا ! .. وحاذينا أول مركب وتجاوزناها
ونحن ننقر على الدف ونهتف : آفياالوجو .. آفياالوجو .. فيلوحن لنا
في أسي .. ثم حاذينا لمركب لثالثة فالرابعة ، والشاغول لا يزال بين
أسنان عوض ..

وها نحن فى القرن الشمالى للجزيرة ، نستدير عنده ونملأ الشراع
بالريح ، ونعود نحاذى مركبا .. لا تزال تتجه الى طرف الجزيرة ..

وتوقفنا عند نقطة البداية من جديد . بينما الآخرون يجاهدون للحاق
بنا ، وظل أطفال نجعنا يرقصون ويهللون يقودهم عوض كتية بدفه وصوته
الرخيم ..

ثم مالت الشمس الى الغرب ، ورسى المركب عند الموردة . وقفزنا
الى الارض . وفى عيوننا بهجة وحسرة فى نفس الوقت ، على يومنا الاخير
فى العيد ..

وعلى الشاطئ وجدنا أبى « والشيخ فضل » يراقباننا حتى دنونا
منهما فصاح أبى بنا :

— خشيناً أن تغرقوا فى النيل .. اياك يا حامد أن تنزل الى النيل
مرة أخرى ..

فتبسم الشيخ فضل وقال :

— دعم يا أمين .. فهذه أيام العمر .. نشقى فى سبيل ساعات مثل
هذه .. ليست كل حياتنا أيام عيد ..

وأمسك بذراع أبى وابتعدا . هو يرك بساقه وأبى يمرج عصاه ،
بينما انفلتنا نحن نعود ، وننعطف الى السكة الزراعية ، من حولنا عيدان
القمح الخضراء ، ترسل حفيفها المتصل وتراقص على هبات النسيم ..

وقبل أن انعطف لأشرف على الطريق المؤدى الى بيتنا ، وجدت برعى ،
يتربع فوق ربوة مرتفعة عن الارض .. وراحته تعتمدان رأسه ، وعينه
تحدقان فى اتجاه واحد — لا يحيد عنه ، وعلى وجهه وقار ، اتخذ منه
اعتقاله فى السلاحك سمة من سماته ، فابتعد عنا نحن الصغار ، وعاف
مشاركتنا فى لهونا البرى بل مضى يجالس الكبار ، ويحك شفته العليا
بالشفرة يستحث شاربه على البزوغ ..

اقتربت منه فى حذر .. وألقيت عليه التحية فرفع رأسه ورمقنى
بنظرة غاضبة ورد التحية فى فتور ..

كنت أتوق الى الافضاء بأسرار فوزنا على الآخرين ، وبراعة عوض
كتيه ومخاطرته فى التيار ، الا أن وجه برعى كان ساهما واجما كأن
أحزان الدنيا تثقل على صدره ..

عجبت لأمره وقلت : مابك يابرعى ؟ .. فانفجر وكأن كلماتى رفعت
الغطاء عن رجل ظل يعمل ويحترق فى صدره .. انفجر بعد أن هب
واقفا على قدميه يصرخ فى وجهى : لورد ياسيدى ..

— ماله .. اكسرت ساقه الاخرى ؟ ..

— ليتها كسرت ياسيدى .. ليته مات .. هذا الكلب ابن الكلب ..

طاب لى أن أضحك من كلماته .. الا ان نظرتة الغاضبة ردت الضحكة
الى صدرى فكظمتها وأنا أقول : ربما نجس شيئا فى بيتكم ! ..؟ اغسله
سبع مرات .. فهكذا قال الشيخ طه ..

— كلا يالكفى الا تعرف ماذا فعل ؟ ..

— أصابنى الكساح لو كنت اعرف .. كنت فى المركب مع عوض
كتيه ..

فتفرس فى وجهى وكأنه لا يصديق ثم هدد : والله والله سأبلغ
السماوى عنه فيسمه ونستريح منه ..

— وحياتك يابرعى لاتفعل ، فانه غلبان .. الا تراه يزك بساقه .. ؟

وشدنى برعى من كفى حتى أجلسنى على الربوة ، وبدأ يقص على
قصته مع لورد : أتذكر الخفاش الذى اصطدته من الجبل .. جفتته فى
الشمس وصحنته حتى تحول الى مسحوق أسمر .. وأردت أن أسأله
لماذا ؟ لكنه اسكتنى بإشارة من يده واسترسل : وراقبت شريفة حتى
عرفت أين تقضى حاجتها .. ثم نثرت المسحوق فى نفس المكان أملا أن
تمر عليه بقدميها .. ، وسكت ريثما يبتلع ريقه فانتهزت الفرصة لاسأله .
ولماذا يابرعى ؟ .. فقال بصوت خشن : اسكت .. انت لا تفهم هذه الامور
المهم اننى نثرت المسحوق وتواريت هنا أراقب الجو حتى فتح باب بيتها
الخلقى وخرجت منه واتجهت الى نفس المكان ، لكنها انحرفت فجأة تتفادى
شيئا لم أكن قد رأيته .. فوق النقطة التى اخترتها كان لورد قد ظهر فى
نفس اللحظة وتوقف واستند الى الحائط بعجزه ومضى يتبول ..

وسكت بينما أنا حائر فى أمره : وما الذى جناه لورد .. وما الذى
اغضبك منه يابرعى ؟ .. مسكين « لورد » فرمقنى بنظرة غاضبة ثم انفجر
يقول بسرعة : لولاه لموت شريفة فوق المسحوق الاسمر ، لقضت حاجتها
عليه .. وحينذاك كنت أتوقع كما قال الشيخ الشاذلى أن تجن شريفة بى

فتجری الى وتطلب منى الزواج ، ولا تتركنى الا وأنا زوجها !! أرأيت ماذا فعل «لورد» .. لوردك الوسخ ؟ .. أرأيت ؟ .. ألا تدري يا حامد ان أمها تمنع من زواجها منى .. وان البسطاوى قريبها ويريدها لنفسه ، وشريفة نفسها لا تريدنى ! ..

ورويت له قصة رؤيتي لهما فى السحر بين أشجار النخيل .. فابتسم ثم غامت عيناه فأغلقهما وكأنه يسترجع ذكرى حبيبة دفنت فى أغوار سحيفة منذ أعوام طويلة ..

وفى نفس اللحظة كان باب بيت شريفة يفتح لتخرج منه ، وهى تحمل على رأسها جرة صغيرة ، تسندها بيدها اليمنى ، بينما اليسرى تمسك بجرجار ثوبها الطويل ..

تريث برعى الى أن حاذتنا شريفة فانطلق يتعقبها بينما هى - لامر لا يديره - لاهية عنه ، ربما كانت تفكر فى ليلة الامس حين زارهما البسطاوى مع عبد الله الجزار الذى لمح لتوددات برعى لها وحذرهما منه .. والا .. ثم قال انها محجوزة للبسطاوى ، وأمرها أن تكف عن الحديث مع برعى ، وغازها ان أمها انضمت الى عبد الله الجزار ، وانتهرتها وقالت ان برعى صايع لا يرجى منه نفع ..

تذكرت كل هذا وبرعى يتعرض لها فى الطريق فخشيت أن تراها عين فأعرضت عنه ، وأشاحت بوجهها وراحت تتعجل الخطى ، فامتلاً قلبه بالغيظ ، ومد يده يمسك بمعصمها ، فاخبطت يدها بسرعة ، وأمرته فى غلظة ألا يتعرض لها فى الطريق ، وهممت بشيء عن عبد الله الجزار ، فانبثقت صورة البسطاوى أمام عينيه ، وهو يعرض به فى السلجليك ، فجنى جنونه ، ورفع يده ولطم الفتاة على خدها ، فتوقفت ذاهلة تترنح حتى وقعت الجرة فانكسرت وسال منها غسل أخذ يتبدد فى التراب ، فتطلعت الى الجرة المكسورة ، والى وجهه ، وهو لا يزال يرفع يده ليهوى بها مرة أخرى على خدها فتفادتها ومضت تصرخ : اننى أكرهك .. لو كان جمال هنا .. انت شراننى وصايع كما قالت أمى ..

ودب الذعر فى قلب برعى حين تذكر « جمال » صديق طفولته ، وتسائل كيف سمح لنفسه أن يضرب أخت جمال ! ما الذى دفعه الى هذه الفعلة المنكرة ؟ .. انه البسطاوى الملعون . وأراد أن يقول كلمة رقيقة الا ان الفتاة كانت لا تزال تصرخ : انت صايع وضايح ، فصاح بها : اخرسى . أنا ماضربتك الا لأننى أحبك ..

تحبني ! فلماذا تضربني .. والله لو كان جمال هنا ..

– أقول لك اسكتي فلا يسمعنا أحد .. ثم هذا الحلبي ابن الحلبي ..

– الحلبي لم يضربني بل أنقذ حياتي من الامواج بينما أنت تضربني وتشتمه .

– اياك أن تذكرى اسمه أمامي .. اياك أن تكلميني عنه أو عن البسطاوى أو عبد الله الجزار .

ومد يده مرة أخرى ليمسك بها ، لكنها أفلتت منه ومضت تعدو الى الخرابة حتى دلفت من باب بيتنا الخلفي ..

وعاد غاضبا يتربح على نفس الربوة ، لا يحدثنى بل ينكت الارض يقدمه ويسب الدنيا ويلعن الناس ، فتركته الى الطريق المفضى الى بيتنا ..

وعلى ناصية الطريق رأيت شقيقات شعبان يدلفن الى بيتنا ، بينما فى الساحة الممتدة بين المتجر والشونة ، كان الشيخ فضل وأحمد عودة وأبى وآخرون من النجع يتجمعون حول «الاهرام» يطالعونها فى اهتمام . فتوقفت خلفهم أستمع الى ما يقولون ، وأحاول قراءة العناوين العريضة فى الصفحة الاولى : مجلس الشيوخ يناقش التعويضات .. التعلية تتم بسرعة .. أراض جديدة للمنكوبين ..

وفى الصفحة الرابعة : تقديرات حكومة الوفد السابقة مبالغ فيها . أزمة البطالة مازالت شديدة .. الحكومة توزع الدقيق الاسترالى مجانا على الفقراء فى العيد . محاكمة عمال العناير .. صدقى باشا يصرح : المياه المخزونة ستحول رى الحياض الى الرى الدائم ، على سرى باشا يسافر الى مناطق التخزين تصحبه عقيلته عند السدة الشتوية الاولى .. المستر هيس باشا يعلن .

وبخط صغير على الركن الأيمن : شكوى من أهالى الدر بتوقيع بدر أفندى .. قدمم الشيخ شليب :

– اشمعنى ؟ .. وأين شكوانا ؟

فابتسم الشيخ فضل وقال وهو يعبث فى التراب : الدر عاصمة المركز يا شليب وفيها أفندية . شكوانا نحن شكاوى فلاحين لا يلتفت اليها أحد . فثار المحامى ، فانه هو الذى كتب الشكوى ، فصرخ : ما أصنى فؤادى .. وتفرس فى وجه الشيخ فضل ثم وجه اليه نفس السؤال : ما أصنى فؤادك يا فضل ؟

كان المحامى يلقى هذا السؤال دائما دون أن يتوقع اجابة من أحد،
فانهم لا يدرون ما الذى « أصنى » فؤادهم .. وما هى أصنى هذه ؟ هو
نفسه لا يدري ! .. أهو الخزان أم الرفافيس الصاعدة الهابطة فى النيل
أمام قرانا تحمل المستر هيس .. أم هى البرانيط والطرايش .

وتمخط الشيخ فضل وبصق على الارض بصقة صفراء ، وتلفت الى
جعفر شيخ « المجواب » وهتف : ماذا يريد المحامى أن يقول ؟ فهز الشيخ
جعفر كتفه دون أن يجيب .

ثم قاموا لصلاة العشاء ، فتركهم ودلفت من باب الدهليز لأجد
شقيقات شعبان يتحدثن فى همس مع جدتى ، بينما أمى منزوية فى ركنها،
ترسم خطوطها المستديرة .

وحين دخلت كانت « مسكة » تقول :

— على خيرة الله .. بعد اسبوعين ان شاء الله ..

وهمست جدتى .

— ان شاء الله .

وسكتن حين دخلت جميلة عليهن تحمل العشاء

صفحة النيل ناعمة ملساء تبرق برماح من النور تنثال عليها
مائلة هنا وهناك ، ثم يهب النسيم ويركض برقة فوق سطح
الماء فيجعه ويحيل المجرى كله الى جسد بديع راقص، يترقرق
فى العيون مثلما يترقرق فيها موسيقى الألوان المتبدية على شاطئ
الجزيرة . وعلى الضفة الشرقية أمام نجع صغير من فجوع أبريم ..

نوار الفول الابيض يتسق مع خضرته المخملية ، وسنابل القمح
توشوش ثم تهتز مثل رعوس العذارى ، وتتطلع فى طموح الى أشجار





النخيل الباسقة المظلة على ساقية ، تربع جابر شقيق شعبان فوق هوديتها،
يلسع البقرتين بكرباج رفيع ، فتدوران في سرعة بينما الصبي يلسع
ظهريهما ، مفتونا بالقواديس الحمراء التي راحت تتواثب مع السلبة أمام
عينيه في سرعة محمومة ، لتغوص من جديد في البئر العميقة .

ثم ترتفع يد أخيه نعمان من فوق سنابل القمح الغضة تلوح له
كفى ! فيقفز من الهودية ، ويعترض طريق البقرتين فتتوقفان ، ثم يصعد
على الترس الكبير، ويحل وئاق البقرتين ، ويهبط بهما من مصطبة الساقية
ويقودهما الى الحظيرة القريبة المنتصبة خلف الجدول الكبير . والتقى به
نعمان على باب الحظيرة فسأله :

- انتهينا بسرعة .. أروينا الارض كلها أم ..
- كل الأحواض والحمد لله . نحن هنا منذ السحر ..
- أنمت فوق الهودية كعادتك يا جابر ؟
- كلا . عيناك منتفختان وأنت فى حاجة الى النوم ، سهرت طويلا
بالليل .

- الواجب يا جابر . شعبان سيتزوج ولا بد من أداء الواجب .
- الحمد لله . فكل شىء على ما يرام .. وهل سيأتى الافندية ؟
- سيأتون . ولا بد أن يكون الحفل جديرا بهم . ذلك هو ماجعلنى
أسهر بالليل . فقد رجائى شعبان أن أبذل كل جهدى فزرت عبده
الفرنساوى فى بيته ، فى منتصف الليل أطلب منه أن يشرف على المطبخ،
فالرجل شاطر وخدم الخواجات كثيرا ويمكنه أن يقدم أشهى طعام .
وصمت ريثما يغلق باب الحظيرة على البقرتين ، ثم فرك يديه وهو
يقول : وأبلغت السفرجى باشا رجاء أبى أن يكون ضيفنا فى هذا اليوم
ليتصدر المائدة مع أبى الى جوار عمدة ابريم وقته وبقية الضيوف ، فهو
يعرف آداب المائدة ، وفى امكانه أن يروى لهم نوادره فى السراى وهم
يأكلون ..

- سيكون أبى فخورا بضيوفه .
- هو جدير .. أليس شيخ حصة .. أما شعبان فسيكون سعيدا
للغاية .. هيا .. هيا لثلا نتأخر .
وانطلقا فى الطريق الزراعية بين صفيين من عيبدان القمح والفل
بتحدثان عن نوادر ليلة الجلوة والنقوط والاغاني التى ملأت النجع ليلة
البارحة :

- رأيت العروس ؟
- نعم .. بنت ناس طيبين .. الحمد لله ..
وأسرعا الخطي حتى بان لهما البيت الكبير بأسواره وأشجار النخيل
المطلة فوقه ، ترمى ظلالها على الباحة الممتدة أمامه ، تنعقد فوقه سحببات
من الدخان يعرفان أنها تنبعث من الكوانين المشتعلة منذ الصباح يشرف
عليها عبده فرنساوى ، يشخط ويلقى أوامره بكلمات نوبية متعثرة ..

وفى الباحة نفر من شباب العائلة ينهمكون فى اعداد صيوان كبير يرتبون فى جوانبه أرائك وعنجريبات وكراسى ، ويفرشون بينها سجاجيد عريضة ، وأبراشا خوصية ملونة ، بينما أبوهما يلقي أوامره ويشير بخيزرانتة ، ويلتفت الى سفرجى باشا ويسأله : ألا ترى هذا المفرش لائقا ؟

– لائق جدا ولكن السجادة تحت المائدة مكرمشة ..

فتركه وصاح فى غلام صغير ..

– عبده .. تعال هنا .

وأنهى اليه أوامره ثم استدار يواجه الطريق المتعرجة ، من الشمال الى النجع ، يتطلع فى قلق ثم يلقي نظرة على الصيوان ويهتف : الحمد لله .. كل شيء قد أعد ، ستأتى معى على الضفة نستقبل الاغراب .. أم تفضل البقاء هنا يا أفندى ؟

ولم يجب الافندى على الفور بل انطلق فى الصيوان يدور بعينه فى كل ركن ويأمر بزحزحة عنجريب ، وينقل أريكة الى مكان آخر ، أو ينقل حفئات من الرمل الأصفر .. ثم هداه تفكيره وصرخ فى جابر الذى دخل الصيوان خلفه .

– أيمكن يا جابر أن تفرس هنا – على جانبي الباب – فروع شجرة : سنط أو آثل ، وعيدان فول بنوارها .

وفكر قليلا ثم قال :

– واياك أن يدخل أحد فى الصيوان بعد رش مدخله .

– حاضر .

فاستدار الرجلان وابتعدا عن الصيوان وافترشا مصطبة يتبادلان الذكريات ، وهما يشدان فى انفاس شيشة أعدها لهما جابر ، ويطالعان بداية الطريق المتعرجة من الشمال الى البيت الكبير ويتحدثان عن شعبان الذى يستريح فى الداخل تحف به الزغاريد والأغاني ونقرات الدف ، ويرحبان بين الفينة والاخرى ، برجال القبيلة ، الذين بدؤوا يحضرون من كل نجع ومن الجزيرة ومن القرى المجاورة ، وينزلانهم فى مكان غير بعيد من الصيوان .

ثم هب الشيخ عثمان واقفا يستقبل المأذون ويرحب به ، ثم يعودون

الى حديثهم المتصل عن الحفلة وبركات أفندى ، وأشجار النخيل التي لم تسجل ، والبيوت التي اعتبرت خارج الكنتور ، والاشاعات المتواترة عن التعويضات . وماذا قال العمدة للمستتر هيس حين زاره ، ثم لاح عند المنعطف الشرقي فى الطريق موكب صغير ، تخب دوابه بين حقول القمح، عليها رجال نجعنا ، فتحفزوا وأصلحوا من عمهم ، وتوقفوا عند بداية الطريق ، بينما انتصبت النسوة على عتبة الباب ، يتهيان لاستقبال الموكب الذى دنا حتى أشرف عليهن فانطلقت الزغاريد ، وامتدت أيدي المستقبلين تصافح ، ولهجت الألسنة بالترحيب :

— أهلا بك .. مرحبا بك يا أمين ..

— كيف الحال يا حاج عثمان ؟ ..

— الحمد لله .. وأنت يا احمد عودة .. والله زمان ..

— اعذرني يا حاج .. فالدنيا تلاهى .. الدكانة والغيط ثم القضية

— دائما تحب القضايا يا أحمد .. ليس فيها غير خراب البيوت ! ..
فضك منها يارجل ..

— حقا .. فضنا منها .. فاليوم يوم عمار بيوت .. أليس كذلك
يا شيخ فضل ؟

فابتسم الرجل وزك بساقه حتى لاصق سفرجى باشا وحياء .

وبينما جابر وصغار عائلة العريس يسوقون دواب الضيوف الى المرباط التى أعدت لها ، اتكأ الرجال على مصاطب أشجار النخيل يشربون الشربات ، ويعاودون حديثهم عن التعويضات والمستتر هيس باشا وبركات أفندى ثم استدار أبى الى والد العريس يسأله :

— سمعت أنهم سيحضرون ؟

— طلبت من العمدة أن يدعوهم . سوف يقبلون ومعهم عمدتكم وعمدة بلدنا ومشايخ الحصة الآخرون فى رفاص .

— ذلك أفضل .. سيشهدون كرمنا واحتفاءنا بالضيف .. والحق أنك أجدر الناس ياعثمان .

— لا ياشيخ .. على الله التوفيق .

وأقبل شعبان — العريس — وحياء الجميع ، وجلس بينهم يتلقى

التهنئة حتى رن فى الجو صفير ينداح من النيل على الشاطئ ويتناهى الى
أسماعهم . فهب والد العريس وأبى وسفرجى باشا وأحمد عودة ، فنفضوا
ملابسهم وعدلوا وضع عمائمهم على الرؤوس ، ومضوا عبر الطريق ، ومن
خلفهم العريس ، يطوحون عصيهم ، بينما تجمع فى الباحة عدد من الشباب
يتوسطهم المغنى ، ينقر على دفة فى حماس ، ويرسل أغنية جديدة أنشأها
للمناسبة ، راحت تتردد من الحناجر ، وتشد النسوة والصغار الى حلقة
بدأت تتشكل حول شاعر القرية . . يرجون الارض بأقدامهم وصيحاتهم .

وعلى الشاطئ رسا الزورق البخارى ، وقفز منه بركات أفندى
ورفاقه ، ومن خلفهم العمدة ، فاستقبلوا بالترحاب .

وعادوا عبر أشجار النخيل ، وبين صفين من عيدان القمح حتى دلفوا
الى الباحة ثم الى الصيوان ، واستقروا على الأرائك يشربون وعبد
الفرنساوى يطل عليهم ويدلف الى البيت من جديد ليتبعه فى لحظة عدد
من الصبيان يحملون صحاف الأكل والطواجن يرصونها فى نظام بديع على
المائدة ، وسفرجى باشا يرمقهم ، ويشير بعينيه الى عبده فرنساوى ويدلى
اليهم بأوامر هامسة .

وانتهى الاعداد الصبور للمائدة حتى بدت كساقة من الزهور :
مفارش صغيرة مطوية الى جانب الاطباق الصينية اللامعة ، وعلى الشمال
واليمين ملاعق وشوك ، ودوارق زجاجية شفافة ، بينما صفت بجانب
المائدة حوامل تحمل قللا فخارية مأوها معطر بما الورد ، وفى الجو رائحة
بخور تتصاعد وتخلق خدرا لطيفا فى الرؤوس والأعصاب .

وقف عبده فرنساوى صامتا فى ركن ومن حوله الصبيان يحملون
مناشف على أذرعتهم ، وأمضى لحظة يحملق فى الصيوان ثم همس مبتسما :
مضبوط يا شيخ عثمان .

وهنا هب والد العريس ، وأشار الى الشبان الراقصين فكفوا ، ثم
استدار للضيوف يلقي كلمة ترحيب ويعلن بدء الحفلة اذ تقدمهم الى المائدة ،
فجلسوا يأكلون فى صمت حتى ابتدرهم بركات أفندى :

- نظام بديع ، وطعام شهى يا حضرة العمدة .
- سببه وجودك بيننا يا بركات بيه . . لقد نورتم .

وقال والد العريس :

- شرفتمونا وزينتم حفلنا .

ثم انفلت عبده الفرنساوى يقدم للأفندية نبیذا ، فمضوا يشربونه فى
نهم ، یمصصون بشفاهم ویعجبون من مذاقه ونكهته فى هذه القرية النائبة .

ثم انعطف الحديث حین قال سفرجى باشا :

— بركات بیه . . ماذا فعلتم بالبيت ؟

— ننتظر رد الحكومة .

— اذن فقد صنعنا . . يوم الحكومة بسنة !

— وماذا نفعل ؟

وضحك ثم أردف : ولماذا بنيت بيتك فوق السفح بعيدا عن الكنتور .

وتدخل عمدة ابریم يقول :

— وما الذى أدرانا بالكنتور والمنسوب ؟

فمال بركات أفندى الى أحد الأفندية يسأل :

— ألم تنبهه وهو يبدأ البناء ؟ .

— كلا . . كان البناء قد اكتمل . .

وقال أحمد عودة :

— وأشجار النخيل التى لم تسجل ؟

— ان شاء الله سيعمل لها ملحق حین یأتى رد الحكومة .

وسأل الشيخ فضل :

— وكيف تقدر التعويضات . . أظن النخلة بجنيه .

وقال عمدة قته :

— لا يا شيخ ، بل جنيهان . . النخلة هى حياتنا يا فضل .

— ولكنها ليست حياة الحكومة !

وأجاب أحد الأفندية :

— الفلوس شحيحة والأزمة متحكمة ، والجنيه ليس قليلا .

وتدخل عمدة ابریم يقول :

— ليتهم يعوضوننا عن النخلة بجنيه . . ولكن ماذا يفعل هذا الرجل

الذى لم يسجل بيته ؟

— بيته لن يغرق . . ويمكن أن يعيش فيه .

- أيعيش وحده فى الجبل بين الضباع والوحوش ..
- يمكن أن يشتري بندقية .
- وكف عمدة قته عن المضغ وصباح :
- بنادق .. كلا ، لا نريد بنادق ولا رصاص عندنا .. كفى مانعانيه من العصي !
- وأدار بركات أفندى الحديث فالتفت الى العريس يقول :
- مبروك يا شيخ شعبان .
- الله يبارك فيك ياسعادة البيه .. عقبال الانجال .
- ان شاء الله حين يكبرون .
- وانتهت الوليمة ، واثكأ الضيوف على الأرائك يشربون القهوة وينفثون دخان لفافاتهم ، ويراقبون من خلال فتحات فى الصيوان حلقة الشباب والنسوة الذين استداروا بالمغنى من جديد ، يرجون الأرض بأقدام فتية ، وألحان داوية وزغاريد ترتفع الى السحب .
- واستدار اليهم بركات أفندى ورفاقه يملثون عيونهم بمنظر الرقص ويعجبون بالألحان الساذجة البسيطة التى تملأ الجو من حولهم ، ثم ارتفع صوت الشيخ عثمان يقول :
- آن الأوان .. هيا يا شيخ صابر .
- فتقدم المأذون الى المائدة وجلس على كرسى يتصدرها ، وتقدم وكيل العريس والعروس ولبثوا لحظة صامتين يستمعون الى الشيخ يعقوب يرتل آيات من القرآن حتى ختم وقال : صدق الله العظيم ، ثم تناول شعبان مصحفاً مضى يرتل آيات منه فى صوت راعش ويتوقف طويلاً عند المقاطع ، فتستقبله بالتشجيع دقات من الزغاريد .
- ثم مد الوكيلان يديهما فتشابكتا تحت منديل أبيض ، ثم أخذوا يكرران ما يمليه المأذون عليهما :
- زوجت موكلى شعبان ابن الشيخ عثمان البالغ من العمر عشرين عاماً ، المسلم من جميلة بنت أمين هاشم ، المسلمة البالغة من العمر سبعة عشر عاماً .
- قبلت على سنة الله ورسوله .

فسجل المآذون كلماتهما في قسيمة الزواج ثم طلب منهما فوقعا بخط عريض • وتريث الشيخ عثمان في انتظار توقيع العمدتين كشاهدين ثم وقف يعلن في زهو :

— شعبان يا ولدي • • أشهد هؤلاء الناس جميعا • • أشهد الله من قبلهم على ما أقول •

ثم تلفت الى اليمين واليسار في زهو ونشوة وأضاف :

— وهبتك بنفس راضية عشرين نخلة •

وأشار الى جابر أن يكتب فمضى يسجل بينما انطلق أبوه يضيف وهو يترنج بالفرح :

— ويا ولدي • • وهبتك بنفس راضية قراطين في الحوض القبلي في الجزيرة ، لا ينازعك عليهما احد من اخوتك ، لا في حياتي ولا بعد مماتي •

ثم تقدم وعانق العريس وجلس يمسح وجهه بمنديل حريري ، بينما تقدم — بترتيب السن — أعمام العريس وعماته وأخواله وخالاته ، يرددون نفس الكلمات في زهو ، ويهبون أشجارا هنا وهناك وفي نجوع مختلفة ، وشرائع من الارض ، بينما الزغاريد تصاحب كلماتهم •

واستمع بركات أفندي الى كلمات الاهداء ، وتلفت الى زملائه ، ثم تطلع في عجب الى وجوه الواهبين والواهبات ، والى النشوة التي تعربد في عيونهم ، والزهو الذي يرفع رؤوسهم ويشمخ بأنوفهم وهم يعددون هباتهم ، فأخذ يسأل نفسه : وما فائدة كل هذه الهبات ؟! • كلها للسك بعد حين قصير ! لقد سجلتها في دفاتري • • كلها ستضيع • • يالكم من مساكين • لعلها العادة لا يستطيعون التخلي عنها ، العادة التي تحولت الى طقوس يجب أن تراعى تماما مثل مراسم الزواج الشرعية والرسمية ، وسيان ان تضيع الهبات وهي على ذمة واهبيها ، أو على ذمة الموهوب اليهم • • سيان ما دامت العادة تبعث كل هذه الفرحة والبهجة في نفوس الناس !! وتلفت الى عزوز أفندي يهمس واضعا يده فوق فمه :

— رأييت الى هؤلاء • • يا الله • • كم هم منتشون وفرحون !

— زادهم الله سعادة • • ولكن ما الفائدة يا سعادة البيه ؟

— الفائدة يا بني أن يفرحوا • • ألا تراهم فرحين ؟!

— رقصة ذبيح !

— ذبيح ، أو لا ذبيح كفانا أنهم سعداء .

ثم قام بديع أفندى ، ووجه آلة التصوير الى الحفل الراقص ، فأسر
العمدة بكلمة فى أذن بركات أفندى ، تلقت بعدها ليرى الوجوه حانقة
فأمسك بيد زميله وجذبه بشدة وحال بينه وبين التصوير .

ثم لبثوا ساعة يتحدثون ويشربون مشارب من كل لون استأذنوا
بعدها ، وقاموا الى الزورق البخارى بينما شرع موكب أبى ورجال نجعنا ،
يخب فى الطريق عاندين .

وعلى مسافة يسيرة من صيوان العريس كان بيتنا يعج بالناس ،
وجدرانته تهتز بالزغاريد ، وبصياح الاطفال ودعابات العجائز ، بينما حسن
المصرى وبرعى وغيرهما من شباب النجع ، يعملون فى الساحة الممتدة بين
المتجر والشونة ، يمهدون الارض ويفرشونها بالرمل الأصفر ، وبرذاذ
خفيف من الماء ، وينضدون الأرائك والكراسى التى استعيرت هى الاخرى
من بيوت النجع المختلفة ، وأنا مثل أم العروسة أروح وأجىء ولا أفعل
شيئا . . ألقى الأوامر ، فيبتسم لى حسن المصرى فى هدوء ، ويتركنى
لينشغل فى عمل ما . . فيمتلى قلبى بالغيظ ، وأعود مسرعا ، أدلف من
باب الدهليز ، لأجد البيت يموج بصفوف من النسوة والفتيات الصغيرات ،
يغنين ويرقصن حول العروسة أو ينهمكن فى المطبخ ، حتى حجوبة كانت
هناك تعمل وتبرق عينها من فرط النفخ فى النار ، تحت الكانون ، بينما
« بطة » تروح وتجىء بثيابها الجديدة ، وطرحتها الملونة ، تعجن أو تصحن
شيئا ، وتطلق البخور . وجدتى تسرع الى الحاصل وترفع غطاء السحارة
الكبيرة ، وتخرج شيئا ما تسرع به الى العروسة التى حفت بها شريفة
وبخيتة وسكينة يزغردن ، وينقرن على « الدربكة » نقرا خفيفا ، ثم
يوشوشن فى أذنهن بكلمات تبعث الخجل على وجهها ، فيتغامزن ويضحكن
ضحكات عالية ، لا يبالين بى وأنا أرمقهن ، بل اندفعن يلقين النكات على
رأسى حتى هربت الى الدهليز لأجد أمى تترك ركنها الازلى وتندفع الى
ابنتها العروسة تقبلها وتسدى اليها النصيح على مسمع من الأخريات ،
فتهز العروس رأسها . . وهى تقول : حاضر . لاهية عنها بأفكار تنوشها
منذ الصباح . .

انها تعيش فى قلق ، تخشى من المجهول ، من الليلة الاولى التى
تجمعها مع رجل . كانت تروح وتجىء منذ الصباح ثم تنزوى فى ركن
لا تبالى بالمحيطات بها من العجائز والفتيات . تبتسم لهن وتستمع اليهن ،

ذاهلة عن نفسها ، فهي منذ الصباح تستمع الى النصائح الغالية : تدخل امرأة عجوز .. خالة أو عمّة أو جارة ، تدنو منها وتقبلها ثم تهمس : مبروك يا بنتى .. الله يبارك فيك ..

اسمعى يا بنتى . ثم تمضى فى ثرثرة متصلة عما يجب عليها أن تأتى فى بيتها الجديد وعما يجب أن تدع .. عليك ألا ترفعى صوتك مادام الرجل قد حل فى البيت ، لا تطلقى العنان لصوتك ، تمنعى فى إبناء حتى يعرف عزتك .. أما حماتك فعاملها كما تعاملين أمك . أخوتك لا يجب أن يزوروك الا لما .. ولا يجب أن يدخل عشاؤهم على افطارهم ، وليقبلوا عليك بهداياهم . الدقيق والسمن والمؤن التى يظن الزوج أنها تفى أسبوعا ، دبرى أمرك حتى تفى أياما عشرة .. والغسيل .. الغسيل أهم شئ ، فالناس لن يقولوا شيئا عنه بل عنك . اشبعى قبل أن يشبع . امضى - وقاك الله شر المرض - دون أن يشعر أنك مريضة ..

ثم تشعر العجوز أن الفتاة لا تستمع اليها فتلمس كتفها وتقول : مالك تجلسين هكذا كالمأخوذة ، اربطيه وشديه اليك بولد ذكر . زوجك هو الأم هو الأب والشقيق ، فلا تفرطى فيه .. شرفه هو شرفك يا بنتى ..

وتحاول العجوز أن تسترسل ولكن العروس تنهض فجأة وتسرخ الحطى الى بطة شقيقتها فى أقصى الفناء وتهمس :
- تهلكن يا بطة .. اتركينى أساعدك ..

فالتفتت الصغيرة اليها بحدة ، ورمتها بنظرة صارمة وهى تصرخ « اسمعى ياستى .. اسمعى ماذا تقول العروس .. يا شيخخة الزمى مكانك واستريحى » .. ثم فى شيطنة « ستتعبين الليلة كما يحلو لك ! » .

وأسرعت الجدة اليهما وهى تضحك وتأمّر فى صوت حازم : جميلة ، ارجعى الى مكانك .. يا عيب الشوم .. ماذا يقول الأغراب عنا ؟ وهنا لاحت الأم تحاول أن تلعب دور أم العروسة ، تذرع الفناء ، وتبتسم لهذه ولتلك وتتلقى التهنة .. وترد بكلمات رقيقة .. ثم تترنم بأغنيات شبابها .. فهذه ليلتها هى ، وليست ليلة أحد غيرها ، ليلة بكريتها .. أول العنقود ..

لقد غير زفاف ابنتها من حياتها المنزوية فراحت تتحرك فى خفة ، وتشارك فى العمل بينما تراقبها الجدة وتحول بينها وبين الكوانين المشتعلة

والتقت العروس بى فى الحوش فاستدارت الى تسألنى : متى تكبر
يا حامد وتصبح رجلا لافرح بزفافك .

ولم أترك لها فرصة الكلام فقد صحت فيها غاضبا : أنا كبير .. أنا
رجل !!

فضحكت وانقادت لشريفة التى همست فى أذنها : تعالى الى المنصة .
تعالى نجرب ، وقادتها بين الضحكات الى آخر الديوانى حيث رفعت منصة ،
على يمينها باب ضيق لحاصل صغير ، تراهى فيه طشت واسع للحمام ،
وقطعتان من الصابون ولوفتان . وعلى شمالها ، وفى مواجهتها ، وعلى
جانبى الديوانى كله أرائك مرصوفة ، مفروشة بملاءات بيضاء ووسائد
مريخة ومساند ومتكئات ، وفوقها وعلى الجدران أطباق خوصية وأخرى
صينية مزخرفة منكفئة على وجوها ، وصورة كبيرة للامام على ، يركب
فرسا ويدفع رمحا طويلا فى فخذ عمرو بن ود العامرى ، وأخرى للهلالي ،
بشاربيه اللذين يشبهان شاربى حسن المصرى ثم مرآة متوسطة تعكس
ألوان الأطباق والرمل الأصفر وخضرة السعف الذى انتشر معقودا فى
أركان الديوانى .

وفى الركن الآخر من الديوانى باب صغير يدلف الى بيت الأدب ،
تواريه ستارة ثقيلة تكنس أهداياها الأرض ..

وقفت أتأمل كل هذا وشريفة والعروسة تتغامزان ، بينما سعدية
تلح : هيا .. اجلسى يا جميلة ودعينا نجرب .. وحين ترددت العروس
اندفعت سعدية وجلست على المنصة ضاحكة مطرقة ، وأسدت شالا واسعا
على رأسها وهى تهتف :

— تعالى يا حامد .. هيا تزوجنى ..

وراحت شريفة تدفعنى الا أننى أفلت منها ووقفت فى نهاية الديوانى
فرحن يضحكن ثم توقفن فجأة على صوت جلبة وصخب فى القناء ، أسرعنا
بعده نتدافع عبر الباب الى مصدر الصخب . ويبدو أن العروس تنبأت
بما حدث فانكفأت على الأرض تبكى : فالأم هى التى كانت متكومة على
الأرض . وراعنا أن الدخان كان يتصاعد من رأسها فاندفعت اليها أرتمى
على صدرها ، فدفعتنى حجوية بعيدا ، بينما جدتى تنتزع طرحة اشتعلت
أطرافها ، من فوق رأس أمى وتهمس ، الحمد لله : كل واحدة الى شغلها
.. بطة .. لا تبكى يابطة ، ثم رفعت عقيرتها وأطلقت زغرودة طويلة ،

تاركة خالتي أمينة بايا تسكب قطرة من العطر النفاذ على رأس أمي ، فتابعتها
الأخريات بالزغاريد ..

وانكفأت أنا على أمي أناديها ، وفجأة تذكرت ليلة القدر ، وندمت
وشعرت بنفَس الاحساس ، في صوت بطة المختنق وهي تنحنى علينا نحن
الاثنين .

ومن بعيد كان صوت جدتي يتردد : يا بنتي .. أمك بخير .. قومي ..
نفسي ثيابك من التراب .. عيب .. الدنيا غيمت والمساء يحل ، والرجال
أتون .. قومي واغسلي وجهك .. طيب تعالى .. وشاهديها بعينيك ..
ماذا يقول الناس ؟ وينضم صوت شريفة الى صوت العجوز ثم صوت
داريا : يا بنت يا « جميلة » .. أمك بخير ، طرحتها هي التي .. أرادت
من فرحتها بك أن تشعل الكانون ففاجأتها نوبة الاغماء في غفلة منا ..
لو رأتك أو سمعتك تعاندين هكذا ، سيفاجئها الاغماء من جديد .. هيه ..

هذه الكلمات الأخيرة جعلت « جميلة » تفيق لنفسها ، فنهضت تتجه
اليها في خطى متعثرة حتى أطلت في خوف ، ثم اشتركت مع خالتها في
تدليك صدر أمها ، وهي تنادي : أمي .. أمي .. أنا جميلة .. أنا
العروسة ، أفيقي .. وفجأة فتحت أمي عينيها ، وانتزعت ابتسامة أشرقت
على وجهها ، ثم هبت واقفة وارتمت على صدر ابنتها ، وهي تهمس :
سامحيني يا جميلة .. ما قصدت شيئا .. سامحيني ! مبروك عليك ، ثم
أمسكت بها من خصرتها وطوقتها بذراعيها الأخرى ونحن من حولهما
واجمون ، ودلفت بها الى الديوانى فعاود الغناء ضجيج الصاخب ..

ومرت لحظات عادت الأم بعدها باسمه تتحرك في خفة ، تحذر أن
تدنو من الكوانين المشتعلة ، خشية أن تفسد الحفل من جديد ، الا أنها
لم تعد ، لتنزوي في ركنها الأبدى ، بل مضت تنتقل هنا وهناك ، وتترنم
من جديد بأغنيات شبائها ؛ فانطلقت الضحكات من جديد في الديوانى ،
وفي الدهليز ، وعاودت الزغاريد ترن في النجع ..

ولاحت التفاتة من بطة الى حجوبة ، فمضت تتفرس فيها لتضبطها
متلبسة بالشماتة ، لكنها وجدتها تروح وتجيء في حركة دائبة وعلى
شفتيها ابتسامة بيضاء مشرقة ..

وامتلا وجه بطة ، بالدهشة حين رأتها تمسك بالدف وتميل الى
ركن ومن حولها بعض النسوة والفتيات تنقر عليه في خفة وتنغم في

صوت خافت بالمقطع الأول من أغنية الزفاف ، ثم ترتفع بها فى نغمة عالية
حلوة ، وتسكت مشيرة الى الأخريات ، فيندفعن فى أصوات جميلة :

لى أنا وحدى يا أماء ..

يا أماء ،

لأحبائى يا أبتاه ،

يا أبتاه ..

لك وحدك يا أختاه ،

يا أختاه ،

ثم ينخفضن بأصواتهن ليرتفع صوتها من جديد :

لى أنا وحدى يا أماء ،

هذا الثوب الناصع مثل البدر ،

هذا العطر السارح فوق الورد ،

والحناء اللامع فوق الكف .

يا أماء .. يا أماء

فينطلقن من جديد .. لى أنا وحدى يا أماء .. لأحبائى يا أبتاه ..

ويعدن الى النغمة الهامسة ، بينما يهدر صوتها فى طبقات عالية :

وليعو كما تعوى الذئبان ..

بين الكتبان من وخز البرد

من لايفرح مثلى

فى اليوم الناصع مثل البدر

يا أماء .. يا أماء ..

فيتلقفن النغم منها ، ويملأن البيت بشفافية غمرت قلب أمى

بالنشوة ، فاندفعت ترقص وتدور حول نفسها ، وقد أمالت رأسها على

المنكب الأيمن مندفعة به الى الحلف قليلا ، بينما يدها اليسرى تمسك

بجرجار ثوبها الزاهى ، والنسوة يصفقن لها ، ويرددن على نغمات الدف :

لى أنا وحدى يا أماء

يا أماء .. يا أماء ..

هذا الثوب الناصع مثل البدر ،

هذا العطر السارح فوق الورد ..

النيل هو الحياة ، صاخبة أبد الدهر ، هو الحياة الهادئة ناعمة
على مر الزمن .. فالنيل والهواء والشمس ، وعرق الجباه
يحول التراب الأصفر الكالح الى خضرة مخملية باسمه ..

وعلى ضفته فى قرينتنا تصلى الناس لله فاطر السموات والارض ولكنهم
فى نفس الوقت يعبدون النيل عن حب ، حين يرضى ، ويتقربون اليه عن
خوف حين يطغى ، ويتغنون بقوته .. وينشدون مزاميره حين يهب الحياة ..

لم يكن فى مقدورى حينذاك أن أصدق أن هناك من يستطيعون العيش
فى بقاع نائية .. لا يسيل النيل فى نجوعها .. ولا أن أتصور أن فى
مقدور الناس فى الصحراء أن يتزوجوا دون أن يطهرهم النيل من آثامهم ..

فقد وقر فى ذهني منذ تلك الأيام أنه ليس أجمل من النيل .. وهو
يحتضن فتیان قرينتنا فى حنان دافق فى أمسية دافئة أو باردة قبل أن
يزفوا الى زوجاتهم ..

فليس فى الدنيا أجمل من الفتى النوبى فى ليلة زفافه وهو يغوص
فى النيل عاريا كما ولدته أمه ، لايبالى بلسعات البرد فى الشتاء ولا بمخاطر
الموج الأحمر أيام الفيضان .. ليس أجمل منه الا .. الا النيل وهو
ينساب هادئا بعد أن يعمده لحياته الجديدة ..

أليس « شعبان » جميلا ونقيا ، وهو يرمق النيل فى خشوع ، على
الضفة الشرقية ، يلفه غبش المساء ، وينعكس عليه وعلى رفاقه وعلى
الماء والساقية والأشجار والتربة السمراء نور قمر باهت مازال يرتفع
فى السماء ..

كان لا يزال بملابس الجلوة ، مخضبة عند الكم والذيل ، يبقع حمراء
ومن حوله عشرات من رفاق صباه ، ينظرون اليه والى الرجل الاسود

الذى وقف فى صبر نافذ يحمل صرة كبيرة ، وفاتوسا لم يشعل بعد ، يستمعون الى الكلمات الخافتة التى راح شعبان يتمتم بها : رب وفقنى ، هب لى من لدنك رشدا .. رب اجعل لى من زوجتى مسكنا ومستقرا ، واغفر لى ذنوبى .. وامنن على فى ليلتى هذه .. رب فلتكن السعادة لى ولأهلى ولزوجى .. واعمر بيتى بنديتى يعيسدوتك ويخرون سسجدا أمام جبروتك يارب ، ومد يده ، ومسح بها على وجهه وشفقتيه ، ومر بها على شعره من تحت عمتة البيضاء ، وخيل لى ولرفاقه وهو يهمس أن النيل يستمع الى رجائه ويفتح ذراعيه له ولهم جميعا .. فاستأنف دعاءه من جديد .. الا أنهم استلوا كراييجهم فجأة وفرقوا بها فوق رأسه كأنما ينبهونه ويوقظونه من غفوة طالت به .. ومضى أحدهم يسخر :

– يبدو أنك لا تعرف العوم !

واستطرد آخر :

– عاش فى مصر طويلا .. غشيم ! ..

فتنمر العريس لهم وقال :

– أتنسون أننى فى صباى كنت أسبقكم جميعا ؟ ! ..

– كنت .. أما الآن فانك تخاف من لسع البرد !

ثم انهالت دفعة أخرى من الكراييج فوق رأسه ، تطن فى أذنيه دون أن تمس منه شعرة واحدة .. فلم يتزحزح .. الا أنهم مضوا يصرخون فيه : اخلع ملابس الجلوة والا ..

– مهلا .. اتركونى أصلى ..

– بل اخلع أولا ثم صل كما تريد .. صل بعد أن تفتسل ..

فأسلم أمره ، والتفت الى حامل الصرة يأمره أن يستعد ثم مضى يتجرد من ثيابه قطعة .. قطعة يلقي بها الى الرجل فيتلقفها فى لهفة ، ويحول بينها وبين الآخرين الذين أسرعوا يحاولون اختطافها .. فهى هديته ..

– انها هديتى .. فملابس الجلوة لحامل الصرة ..

– ليس كلها يا حمار ..

– بل كلها يا أسيادى .. دعوها لى ..

وانضم جابر اليه ينوشهم بكرباجه بينما العريس يواصل تجريد

نفسه من كل ملابسه ، حتى وقف عاريا تماما ، يستر عورته بيده ، ويتأمل النيل الذى بدا باسمه يضحك ويهش له ، تعال يا ولدى .. تعال أضحك الى صدرى العريض .. تعال يافتى الحبيب :

وتتوالى الصيحات : انزل .. انزل .. أرنا شطارتك .. والكرايبيج تطن فى أذنيه ، فيقذف بنفسه الى النيل .. ويرتطم بالماء البارد .. ولا تصدر منه آهة واحدة ، فذلك عار لا يحتمله أى رجل ! ثم يألف البرد ويحرك يديه وقدميه فى الماء ويوغل فى النيل ، ثم يغوص ليظهر فجأة فى مكان آخر .. ويعاود الاختفاء والظهور من جديد ، وكأنه يقول لهم أرايتم .. ما زلت كما كنت .. ثم ينقلب على ظهره .. فوق سطح الماء .. ويرقد كأنما على فراش وثير .. ويحرك قدميه فتخلقان دوامة من الزبد الأبيض ، والرفاق على الضفة يهللون ، برافو .. برافو يا شعبان .. فيواصل فنونه فى السباحة ، يثبت لهم أنه مازال قارس النيل ، لكن صوت النقر على الدف والتصفيق على الأيدي كان ينداح اليهم من النجع ، مؤذنا بتجمع الناس وابتداء الزفة ، فيتواثبون مع الايقاع على الشاطئ ، ويهتفون بالصلاة على الرسول ، ويكبرون ثم يصرخون فيه : أخرج .. فقد آن الأوان ..

ويتمهل شعبان قليلا ، ثم يغوص تاركا خلفه دوامة صغيرة .. ليظهر مباشرة أمامهم .. فى الماء الضحل .. يبطش بكفه ، فيشير رذاذا من الماء ، يتطاير الى وجوههم ، فيواصلون الهتاف بالصلاة على النبى ويردفون : أخرج والا نزلنا لك وضربناك حيث أنت .. لا تتهرب .. فقفز الى الضفة ليتلقى لسعات الكرايبيج دون أن يتأوه أو يتوسل الى أحد ..

وتلقت الرفاق الى حامل الصرة يستحثونه ، فأشعل فانوسه ومضى يفك الصرة فى تمهل عجيب ، والعريس الذى خرج من النيل يرتعش من البرد ويمد يده ، فتأوله بشكيرا كبيرا اختزنه شعبان لمثل هذا اليوم ، ثم مضى يناوله قطعة بعد أخرى .. والكرايبيج لا تزال تنهال على جسده وترف فى براعة وتلمس بدنه لمسا رفيقا لا يخلو من التلسع .. آه يا ابن الكلب .. انك تلسعنى .. أريد الملعون أن يجرحنى ليلة زفافى ! ولكن لماذا تشكوا ؟ ألم تفعل مثلهم من قبل .. أبوك لم يتأوه يوم زفافه منذ أربعين عاما حتى لا يحملك عارا .. وابنك لن يتأوه ، فتجلدوا ياك أن ترسل آهة واحدة .. ولكن هل يتركوننى أذف الى عروسى والدماء تسيل من حسدى .. يا للعنة .. هذه ليست تقوية القلب بل فتحة الكم يتحشر

فيها رأسى • اسرع يا رجل فانهم سيمزقون جسدى بالكرابيج ، الملعونة
تكة السروال يجب أن تتدلى من الامام لا من الخلف •• اخلع وانبس من
جديد •• أتراها يا رب هادئة عاقلة كما تقول مسكة أم انها •• على كل
أهلها ناس طيبون •• لا أدري كيف سيكون موقفها من أبى •• سنفتح
سويا متجرنا •• آه يا للملعون •• هات الطاقة أولا يا جدع •• لا بد
منها قبل الشال والعمة ، واختطفها بسرعة وضغطها فوق رأسه ولف عليها
العمة فى أحكام •• واسدل عليها الشال •• ولم يبق الا أن ينتعل ، فاتكأ
على كتف أخيه جابر •• وغسل قدميه فى الماء ثم دسهما فى المداس
الاحمر البارق فى ضوء القمر •• والكرابيج لا تزال تطن فوق رأسه
وحول رقبتة ••

ثم توجه الى النيل وانحنى عليه مفتر الثغر •• ووجهه الاسمر
المستدير يلمع مختفيا فى زحام أبيض من الشقة والعمة والجلباب الطويل
حتى بدا فى الاطار المخمل ، نواردة قطن بيضاء تفتحت فى جنة خضراء •
واستدار - ومن حوله رفاقه - يتقدمهم الفانوس بضوئه الباهت •
وانعطف الى السكة الزراعية ، تحرسه العصى المشرعة والكرابيج الصاخبة
بفرقاتها •

وراحت أشجار النخيل تميل وتهمس كأنما تحييه ، ومضت عيدان
القمح توشوش كأنما ترفه ، بينما الرفاق يهللون بالصلاة على النبى ••
فتختلط أصواتهم المرحية بالضجيج انذى حملته الريح اليهم من النجع ••
ضجيج الاقدام التى ترج الأرض أمام الصيوان ، والطار الذى يهز الاعطاف
فى الساحة الممتدة أمام الدار •

ومن بعيد ، من خلال الاشجار لاحت لهم الفوانيس تتحرك لاستقبالهم
عند المنعطف •• ثم أحاطت بهم الجموع تدفعهم دفعا الى الساحة حيث
توقف الشيخ عثمان متهلل الوجه باسماء فى دعة •

وتقدم شعبان الى أبيه ، وانحنى على يده يقبلها ، ويمسح بها جبينه
ويطلب منه الدعاء •• فمضى الرجل يتمتم : بالرفاء والبنين يا ولدى ••
بالرفاء والبنين !

ثم أمسك بيده ، وأداره فى اتجاه الطريق المتعرجة الى الشمال ••
ثم دفعه الى وسط الموكب ، وهو يهمس : الى السعادة يا بنى •• وفقك

الله • وقر عينيك بذريتك • فالتف الشباب به ، اخوته ثم أولاد عمه • •
فأصدقاؤه من النجوع المختلفة ، رافعين عصيهم متقاطعة فوق رأسه •

وأمسك الشاعر بزمام الموقف يواجه العريس رافعا دفه فوق رأسه
ينقر عليه بشدة ويحجل بخطاه الى الخلف • • ويحدو الموكب بصوته
الدافئ مزهوا بقامته المديدة وعمته المزركشة • • والعطر النافذ المنبعث
من أردائه ، تختلط به رائحة العرقى المتناثرة من بين شفتيه مع الكلمات
المنغومة المتكورة في حنجرتة العميقة والتي تتدفق لتنسكب سحرا في
الاسماع • • الكلمات قديمة ، لكنه يجددها ويحورها مع المناسبة ويلوى
اسم العريس ، واسم عائلته وصفاته وصفاتها، ويذيبها في النغم الراقص
• • فتطرب القلوب وتميل الاعطاف ، وتتلشى تجعيدات جباه العجائز
وتبدو انفتيات أكثر نضارة في وهج الفوانيس والمشاعل المرتفعة فوق
الرؤوس ، وتبرق عيون العائلة في زهو • • عند مقاطع تتغنى بأمجادها
وبساتينها وسواقيها يسلكها المغنى جميعا في شجرة النسب العريقة
المتدة الى الحجاز •

ولا ينسى علم العريس فيمجد حسن تلاوته للقرآن في الصيوان • •
ويصف خطه الجميل ورسائله البديعة المنمقة ثم يطمئن الى انتظام الموكب
فيلقى بالدف الى صاحبه ويكتفى بالغناء يتعالى الى القمر وينصب منه الى
الاسماع • • لا تقطعه الا زغاريد أخوات العريس يطلقنها • وهن ينثرن
العطر فوق ثيابه •

ثم انعطف الشاعر بالموكب ، ودار به الى الطريق الضيقة الطويلة
التي تصطف البيوت على جانبيها ، فتستقبله الزغاريد على عتبات البيوت •
وعند بداية نجع - أول نجع - تقدمت عجوز تحمل عصا طويلة •
تعرض طريق الموكب • • وترفع يدها وترزم شفتيها بها ، وتطلق زغرودة
مملوطة ، وتحجل حتى تتوقف أمام العريس تباركه وتدعو له ، بينما
قطع الذهب المتراقصة حول عنقها وعلى صدرها تنهامس وتختلط بصوتها
العجوز •

ثم استدلت الى الشاعر، فتوقف عن ارسال غنائه ، وفضت منديلا
وألقت اليه بقطعة فضية ، وهمست في أذنه باسم ابنها الغائب فارتفع
صوت المغنى يهتف :

- دائما • • حسن بن سكيمة دائما • •

فرددت الحناجر هذا الهتاف ثلاثا .. ومضى الشاعر بعدها يقنى للعريس وللفتى الغائب، بينما انفلتت العجوز ترقص وتدور حول العريس حتى انهكت قواها ، فأمسكت بيده وقادته .. فانقاد الموكب خلفه الى عتبة بيتها ..

وهناك قدمت للعريس « سطل » لبن وهى تهمس :

— مباركة لك زوجك يا ابن أختى ، ولتكن حياتكما صافية صفاء هذا اللبن ، حلوة حلوة هذا التمر ..

ودفعت بحفنة من التمر اليه ازدد منها واحدة ، وهو يتمتم بالدعاء لعمته العجوز .. ثم عاود الموكب مسيرته المرحية . لتعترض طريقه خالة أو جدة .. فتدفع « النقوط » وترقص على أغنية يرسلها الشاعر حولها وحول رجالها المغتربين . حتى يرهقها الرقص .. فنتقدم بسطل اللبن وحفنة التمر . ثم ترسل الزغاريد لتتبع الموكب فى سيره ، الا أن شيئاً ما حدث جعل هذه الحالة العجوز تقطب وتستدير بسرعة الى النسوة تسبهن ، وقد ارتفعت اصواتهن فى صخب وهى تزغرد ، فامتلاً قلبها بالغيظ دون أن تدرك مسبباً لصرخاتهن .

ثم راحت تضحك وتسخر منهن . حين رأتهم منكفئات يتمرغن فى التراب ، تحاول احداهن ان تنهض فتتعثر ، وتوقف الجميع يسخرون بينما الاطفال يتقافزون مثل الشياطين .. ويضربون بأكفهم على أفخاذهم .

فلقد انتهز الاطفال توقف الموكب فانسلوا وراء ظهور بعض النسوة وربطوا ذيل جلباب هذه بذيل تلك ، ووقفوا يراقبون من بعيد ما يحدث لهن حين يتحركن ..

وتحرك الموكب وأسرعت واحدة منهن ترقص فاذا بها تنكفىء على الارض ، تتبعها أخرى حتى تشكل طابور أسود على الأرض يصخب ويسب الاطفال ..

وتوقف الشاعر عن الغناء وأرسل ضحكة عالية وهتف :

— ولماذا تصرخين يا سكينه .. ارقصى وأنت فى الارض ..

فصاحت سكينه هذه ضاحكة :

— فلترقص أمك يا ابن الكلبة :

وضع الموكب بالضحك ، ثم عاود زحفه النابض بالبهجة ، لينعطف
عند أول نجع فى قرية العروسة • يبدأ بأحراش كثيفة من نبات الحلفا ،
وأشجار النخيل المتلاصقة •

لاح فى بداية النجع شبح يزك بساقه • فوق يراقب الموكب عن
كتب ، ثم لوح بيده الى أشباح كانت تتحرك بين الاحراش • • اشباح
اندفعت بالهراوات والكرابيج الى الموكب وهى تطلق صيحات الحرب •
فساد الهرج • • وتعرض اخوة العريس وأصدقائه لهذه الاشباح يدافعون
عن الموكب بصيحات حرب أخرى • • وكرابيج تطن فى الهواء • والعريس
يبتسم وكأنه كان يتوقع هذه الحرب المفاجئة •

وتقاطعت النباييب فوق الرؤوس ، والتوت الايدى بينما النسوة
يضحكن ، والشيخ الذى يزك بساقه يلوح بيده من جديد ويصرخ :

— هيا • •

فانطلق من بين الاحراش عواء رهيب • • عواء ذئب تكرر مرة ثم
أخرى • • فألقى فى نفوس النسوة والاطفال رعبا جعلهم ينكمشون ويحتمون
بظهور الرجال الذين تحفزوا • • يتفرسون فى الاحراش • فاصطدمت
عيونهم بجسد متكور يمشى على أربعة ، يزوم ويطلق عواءه ، فتقدموا
بهرواتهم بينما تجمعت الكلاب تنبح •

وكادوا يهوون بعصيتهم على رأس الذئب • • الا أنه انتصب على
قدميه • ورفع هراوة غليظة بدأ يشق طريقه بها ، بينما صاح جابر :
يا لله • • انه برعى اللعين • ودنا الشيخ فضل يزك بساقه ويهتف فى
مرح :

— برافو • • غلبناهم • • برافو • •

فالتفتوا اليه ضاحكين ، ثم استداروا الى العريس ، فوجدوه فى
حماية شباب نجع العروس •

لقد أعد هؤلاء هذه المعركة الهزلية منذ الصباح • • وكنوا منذ
الاصيل فى الاحراش ليتسلموا الموكب عنوة واقتدارا • • مدللين بذلك
أن العروس ذات منعة ، ورجال يذودون عنها ويحمون زوجها •

وهمس والد العريس للشيخ فضل :

— عفريت يا فضل .. هكذا كنا نفعل في أيامنا .. أما في هذه
الايام فبهجة الزفاف أعمال صبيانية وأغان لا نفع فيها !

— لكنها أيام سعيدة ، وما كان في أيامنا يموت الآن لنجد غيره ،
ألا تعرف أن أمثال هذه المعارك الهزلية كانت جدية في قديم العصر ..
أيام الفروسية .

— عجباً .. وبالسيف والرماح يا فضل ، ولكن هل كانت هناك
ذئاب تقف على قدمين وتحارب ؟!

— كلا .. هذا شيء من « تفانين » برعى !

وتوقفا عن الهمس والشاعر يلعلع بصوته .. ويذكر لأول مرة
واكراما لنجوع القرية التي دخلها الموكب اسم العريس مشقوعا باسم
العروسة .. كان يردد في نغم هادر لتردد الجموع من خلفه :

**انت يا اختاه انت
يا شعاع البدر انت**

ثم تكف الجموع ، فينطلق صوته العميق :

**جاء صيادك ألقى بالشبك
يا حماما طار في أوج الفلك
فاضحكى للسعد يا أخت القمر**

وينقر على الدف لتردد النساء والرجال من خلفه :

**أنت يا اختاه انت
يا شعاع البدر انت**

فيخيل للرائي أن الكون كله بمباهجه ومسراته قد ذاب في هذا
الموكب البديع .. وجوه الشباب من كل نجع باسمه ضاحكة .. يهزون
الارض بأقدامهم .. والسمراوات في أبهى زينة .. والعريس الذي تبدي
زهرة بيضاء في واحة سمراء ، وأشجار التخيل التي حلق البدر فوقها ،
تلقى بظلالها الراعشة على الارض تحت الاقدام والبيوت الطينية ، وهي
تبدو سعيدة راقصة في عيون الراقصين، والنجوم الباهتة . ومثذنة الجامع
خلف بيتنا ، وشريفة التي تركت العروس ، واستقبلت الموكب عندما
أشرف على النجع ، و « داريا » التي انضمت اليه أمام بيتها ، وسعيدة،

والعطور النفاذة ورائحة العرقى ودقات الطار ، والكلمات الجميلة الصادحة ،
تنفذ الى القلوب ، وتكتسح ماغلفها من ركام التسجيلات ، وشجن الحديث
عن بركات افندى والمستر هيس .

فالليلة ليست لهما ، ولا للطوفان، فالليلة لشعبان وعروسه، الليلة
ليلة القلوب فلتفرح غير مبالية بأيام الشجن والحزن والطوفان .. كل شيء
بدا بهيجا في تلك الامسية الجميلة ، كل شيء كان يبدو سعيدا كلما اقترب
الموكب .. وارتفع صوت المغنى وانسكب جليا واضحا في آذاننا نحن
الذين توقفنا بالكلوبات والفوانيس نستقبله عند ناصية الطريق يتقدمنا
أبى وخالى والمأذون والشيخ طه .

وتجلى الموكب فى أبهته ونضارته حين دلف الى الباحة الممتدة بين
المتجر والشونة ، وتوقف أمام الباب العمومى ، باب بيتنا الكبير يستدبر
الارائك والكراسى التى رصت فى الساحة ..

وتقدم أبى ، فحيا العريس واقتاده مرحبا به فى كلمات رقيقة ، ثم
بأهله وبضيوفه ، وأحله على منصة عالية يحف به أهله - أبوه واخوته -
بينما انهمكنا أنا وحسن المصرى وأوش الله تقدم الشربات ، وندعوهم الى
مائدة قريبة أعدناها للضيوف ، ولا يزال الموكب يغنى ويرقص . ويردد
اسم العروسة ، ويتغنى بجمالها وطيب أخلاقها .. انت انت .. أنت أخت
البدر أنت .

وتوقفت بين الشاعر وصاحبه أراقب الموكب المهتز وأفكر فى شقيقتى
.. ماهى فاعلة فى هذه اللحظة وهى تستمع الى كلمات الاطراء التى يسكبها
الشاعر ؟ .. أتراها منتشية أم حائرة شأنها منذ الصباح ؟ .. ووددت
لو دلفت لأراها فى هذه اللحظة .. الا أننى تذكرت أن خالتي أمرتنى أن
أكف عن مضايقتهن . فبقيت أراقب الموكب الراقص ثم مدت حركة رأيت
بعدها الرجال والشبان ، يقفون فى نصف دائرة يكملها نصف آخر من
النساء والفتيات الناهدات .

ثم غير الشاعر ايقاعه على الدف الى نغمة مصفقة فانفصل عن الرجال
عدد من الشبان يقودهم برعى يتأرجحون ويدقون على الارض بالقدم اليسرى،
ويصفقون مع الايقاع . ثم يدقون عليها بالقدم اليمنى ، زاحفين كما يزحف
الحمام ، شامخين بأنوفهم ، دافعين مناكبهم الى الشمال واليمين ، يرمقون
الفتيات الصغيرات ، حتى توسطوا الحلقة ، وما تزال اكفهم تصفق ، وتهز
الساحة ولا تزال أقدامهم ترج الارض .

وفجأة وحين تعالى الايقاع انفلتت شريفة من بين النساء ..
انفلتت مثل نواره الفول .. ترقص وقد أمسكت جليابها عند الخاصرة
بيدها اليمنى تطوح بها ، وأمسكت طرف الطرحة بيدها اليسرى ، تنطى
بها عينيها حيناً ثم تسفر عنهما حيناً آخر ..

ومضت تدور وتدور ، وتتقدم الى صفوف الرجال . والشبان الزاحفون
يضيقون الحناق عليها حتى بدا المشهد وكأن كل واحد منهم يريد أن يطبع
قبلة على جبينها ، وهي لا تزال تميز ، وتدور ، وترمقهم بنظرات ترسلها
من خلف جفون مسدلة ، هذا هو برعى يرج الأرض بقدمه وعلى عينية
بريق .. انه لا يستحي بل يهمس : شريفة ! لكنها لا تبالي بل تمر به في
سرعة خاطفة .. وتترىث عند آخر ، ثم تعود وتدور فيرج الأرض ويهز الجو
بتصفيقه ويشمخ بأنفه ويقترب ثم يهمس : شريفة ! فلا تبالي .. فيزداد
غيظه ويرمق الآخرين الذين يضيقون الحناق عليها ، فلا يتخلى عنها بل
يتراقص بحيث يكون أقرب انسان اليها هي انتى تذكرت حسن المصرى في
هذه اللحظة فأرسلت الى صفوف الرجال الذين لم يشتركوا فى الرقص
نظرة عابرة تبحث عنه ، فوجدته يبرم شاربيه .. ويرسل نظرات والهة
الى امرأة أخرى خلف ظهرها .. فاستدارت ترقص حتى ايقنت أن نظرات
حسن المصرى انما تتجه الى داريا سكيئة أو الى البيضاء « أم زين » ..
فارتسمت فى عينيها نظرة حائرة .. ثم راحت ترقص .. وحناق الشبان
يضيق عليها وكأنهم يريدون اختطافها ، يضيق حتى تكاد أناملهم أن تلمس
صدرها المنبجج وتكاد شفاههم أن تلامس شفتيها لم يغير ضارب الدف
ايقاعه فيتراجع الموج الزاحف وتراقص هى . وكأنها تخطو على الاثر ..
وتفرش الأرض بجرجارها الطويل : وتراجع فى خفة حتى تلقى بنفسها
بين أحضان لداتها من الفتيات اللاتي استقبلنها فى اعجاب .

وهمست سعدية :

— يا سلام يا شريفة .. لو رأيت برعى وهو يرقص :

— ماله ..؟

— كاد أن يأكلك كما تؤكل العجوة !

فابتسمت شريفة وهمست :

— فليأكلك أنت !

ودهشت حين سمعتها تقول :

- يا ريت .. ليته فعل .. لكن هل تسمحين ؟

فأشاحت بوجهها ، ثم ردت اليها مصاغها وانفلتت من الصف تسرع الى باب الدهليز ، فقد وعدت شقيقتي ، جميلة ، أن تكون بجانبها ساعة الزفاف .

كادت تغيب ، وراء الباب ، لولا أن حركة في الموكب جعلتها تستدير وتتوقف على العتبة .. وتطل على الجمع الراقص لتري ما يدور هناك .

رأت صف الشبان يزحف كاللوج الصاحب ويضيق الحناق على راقصة أخرى أمعن النظر فيها حتى ارتسم الذهول على وجهها ، فانها لم تكن سعدية كما ظنت ولا بطة ، بل أمها داريا سكيئة ! ففتحت فاهها واستندت الى كتف الباب لتراها وهي تنثنى في دلال فتاة صغيرة في الرابعة عشرة تدق الارض بقدميها ، وتتوقف لتغمض عينا وتفتح أخرى . وتلوى عنقها وتميله الى الخلف لينبعج صدرها ، ثم تلقى الارض من جديد وتهز صدرها ، وتتقدم وتسعى كما يسعى الحمام ، لكن في سرعة خاطفة ، وطرحتها تتطاير فوق رأسها ، تنسدل منها لتلامس رديفها بينما الجرجار حول قدميها يتحرك كما يتحرك ذيل طاووس ، والخلخال لا يرسل إلا رنيناً خافتاً يبعث النشوة في قلوب الرجال فيهتزون ويزدادون تصفيفاً بالأیدی .. يالله .. يالله . ان في داريا دلالة وجمالاً وليونة جسم مازال يغري الرجال ويسحر قلوبهم .

وعند هذه الحاطرة تلفتت شريفة الى حسن المصري ، وغازها أن وجدته يقتل شاربیه ، ويحدج « داريا » بنظراته الوالهة التي ارتسم فيها نفس البريق الذي ارتسم فيها بين عيدان الذرة ، فأصابها ما يشبه الدوار ، وشعرت بالتهاب لذيذ يشمل فخذها . محل قبضته اللعينة ! فاستدارت ملقية رأسها الى الخلف . وصفت الباب خلفها وعبرت الدهليز بسرعة الى الفناء ثم الى الديوانى حيث ارتمت لاهثة بالقرب من شقيقتي جميلة التي تهيأت على منصتها في انتظار الزفاف ، متلفعة بشقة بيضاء خفيفة ، ومن حولها بعض الفتيات يستمعن الى الاغاني المنداحة اليهن من خارج البيت .

وعرفن من شريفة أن « داريا » هي التي ترقص في اللحظة التي دخلت فيها الفتاة ، وأنها ترقص كما ترقص أية فتاة . وودت جميلة لو تركت شقيقها وتلصصت عليها لحظة لتري كيف ترقص .

وتعالت الهتافات ، وتعالى النقر على الدف فان « داريا » ظلت تحوم في الحلقة وترف ، مسدلة الجفنين مائلة الرأس قليلاً ، تميس وتهز الاعطاف ،

وتنسحب خطوة خطوة حتى ارتمت بين أحضان النساء ، باسمه لامة
بحبات العرق .

توقفت بجانب « أم زين » تلهث وتمسح العرق بطرف كمها ، وترفع
عينها لتراقب الاعجاب في عيون زميلاتهما ، فاذا بها تواجه جسدا عاريا
يطل عليها بعيتين ساجيتين وفم مفتر يتمتم : واحد .. أحد .. فكادت تصرخ
لولا أنها عرفت فيه « كلو » الذي مد يده ولمس ذراع البيضاء فالتفتت هذه
اليه تشهق وتشيح بوجهها وتنكمش ملتصقة بجسد « داريا سكيمة » .

ظهر كلو فجأة في النجع ، وسرى على ايقاع الدف ، فتوقف خلف
النساء ، يلقي نظرة على داريا وهي ترقص .. ويبدو انها أثارت اعجابه
فتسلل الى مكانها يريد أن يقول كلمة ، يريد أن يباركها الا أن عينيه
استدارتا الى أم سعدية التي مضت ترقص ، فمضى يبتعد وهو يصفق ويدق
الأرض بقدميه ، والأطفال لاهون عنه ، ثم توقف عند باب الدهليز ورفع
يديه الى السماء وهتف :

— واحد .. أحد .. صمد !

ودلف الى الداخل مسرعا فارتطم بجذتي .. وعبر الدهليز الى الفناء
في خطوات مسرعة ، ثم اقتحم الديوانى على العروسة وصويحاتها ..
وانحنى عليها يمسح بيده على رأسها وهو يتمتم : واحد .. أحد ..
مبروك .. والفتاة ذاهلة سعيدة في نفس الوقت ..

وأفاقت على صوتها الذي كان يقول : بطة ، شربات لكلو .. اسرعى
يا بطة ، الا أن كلو قد انفلت يعدو ويطوف بالفناء والمطبخ والدهليز ..
ثم خرج من الباب لا يلوى على شيء في نفس اللحظة التي كانت أم سعدية
تنهى فيها رقصتها ..

ثم توقف الدف عن ارسال دويه فارتفع صوت ينادى بالصلاة على
النبي ! صوت نعمان يقود الى الباب العمومي موكب العريس واخوته
وأصدقائه .

— أما الباكون فليواصلوا رقصهم وغنائهم ..

فتعالى النقر من جديد بينما موكب العريس يتوقف على الباب الخارجى
الذى أوصد دونه بجسدين عملاقين من أتباع عائلة العروسة يعترضان
طريق الموكب فى عناد ، لا يباليان بالوعيد ولا يستميلهما وعد ..

ظل الموكب يناوشهما وهما لا يتزعزجان قيد أنملة ، وأبى يضحك
ويصدر إليهما أوامره فلا يبتعدان .. ثم تقدم الشيخ عثمان ودس شيئاً
فى أيديهما ، فابتسما وهتفا بالدعاء للعروسين ، وتنحيا عن الطريق ،
فمضى الموكب يعبر الدهليز وهو يرتل نهج البردة ويهيمهم بالصلاة على
الرسول .

وفى الفناء توارى شبح أمى فهى حمة من واجباتها أن تختفى كلما
لاح زوج ابنتها ، ولا سيما فى الايام الاولى ، فراحت تراقب الموكب الذى
أوصد هو الآخر دونه بجسدين لامرأتين هما زوجتا العملاقين الآخرين ..
وقفتا تعترضان طريقه فحاول شابان من نجع العريس أن يقتحما الطريق
عليهما الا أن العريس أشار عليهما أن يتنحيا عن المرأتين .. ثم تقدم منهما
ونفحهما ريالين .. زغرتا بعده وتنحسا عن الطريق ، فاندفع الموكب الى
الديوانى المضاء .. بين التهليل والتصفيق .. والشبان يصفقون أو
يطوحن بعصيتهم ، وجابر يتلاعب بكرباجه كأنما يحاول أن يبعث الرهبة
فى قلب شقيقتى التى أطرقت على منصتها ..

وأخذت أنا أخطو بقامتى القصيرة بين سيقان الرجال أحاول أن
أستشف ما يبدو هنالك على منصة شقيقتى أشب على أطراف أصابع
قدمى وأشرئب بعنقى واستند على كتف جابر ..

ولا أدرى لم شملتنى حيرة فى تلك اللحظة ، ثم سألت نفسى ترى ماذا
تفعل شقيقتى جميلة هنالك تحت الشقة .. أراها تبتسم أم تراها حائرة
يملاً الخوف قلبها .. أم أنها هادئة كما عهدتها الناس ؟

ورفعت رأسى لأملأ عينى منها وهى على المنصة ومن حولها الفتيات
وهن يتهاوسن ويشرن الى العريس الذى بدا مثل الملاك فى ثيابه البيضاء ،
ملاك أسمر ، مجنح بشملة بيضاء ترف من حوله وهو يتحرك بخطى ثابتة
وعلى ذراعه خنجر وتحت ابطة كرباج طويل وفى يده المخضبة بالحناء سبيحة
طويلة ووجهه الاسمر المستدير لا يكاد يبين من تحت عمته الكبيرة
البيضاء ..

وأردت أن أقلد الكبار ، فمددت عنقى ، وأطلقت صيحة بالصلاة على
النبي ، ولكن كرباج جابر الذى ظل يطرقع به التف حول عنقى ولسعنى
لسعة ، كتمت الصيحة فى حلقى حتى أننى تعثرت ووقعت على الارض ..
أبكى والعن جابر الذى انحنى بسرعة ، ينتشلنى ويجس على عنقى ليطمئن .
واحتضننى بعد أن أيقن اننى لم أجرح ..

وذرفت أنا دمعتي ثم مسحتهما بطرف جلبابي واندسست من جديد
بين الرجال أتجسس رقبتي .. وأراقب الموكب الذي توقف فجأة أمام
المنصة ، أمام العروسة التي راحت وهي مطرقة تختلس النظر من تحت
شقتها البيضاء التي برزت من فتحتها ، وفوق الرأس ذؤابة من الشعر مثل
عرف الديك ..

لعلها كانت تفكر في حياتها الجديدة ، في رجلها الذي تراه ماثلا أمام
عينها .. ما له لا يتقدم فتنتهي من كل شيء ، من هذا العذاب اللذيد الذي
سيقت إليه منذ ساعات طويلة .. تقدم يا رجل واتركني أدلف الى هذا
الحاصل الذي على يميني فأتحفف من ثيابي وأستريح كما تستريح مخلوقات
الله .. تقدم فأنني أريد أن أخلص الى حامد الذي جرحه كرباج جابر لكن
العريس لا يبالي بها بل يتجه الى القبلة ويصلي في أناة ، ينهض ليواجهها
لحظة صامتا لا يدري ماذا يقول والصيحات تتعالى من حوله .. ثم تشجع
ومد يده في بطة .. ورفع الشقة البيضاء وامتد بيده الأخرى الى ذؤابة
الشعر المرتفعة فوق رأسها ومسها مساً رقيقاً ، وتراجع بيده وهو يبتسم
للرجال الذين مضوا يتواثبون من حوله ويقودونه من يده الى عنجريب
بمساند مريحة يتكئ عليها بينما الفتيات والنسوة المحيطات بجميلة
ينهضنها ويسرعن بها الى الحاصل ..

ووقفت أنا مترددا : أأمضي اليها أم انضم الى هؤلاء الذين اصطفوا
في الديوانى ينشدون « النسيب » من اشعار المرغنى ، ورائحة العرقى
تفوح من أفواههم ..

ولم تطل حيرتى اذ وقفت بطة على عتبة الحاصل تهمس وتشير ..
حامد انت يا ولد تعالى .. العروسة تريدك ! فألقيت نظرة على
شعبان ثم تسللت الى الحاصل لأجد العروسة واقفة فى الركن المقابل
للباب تنتظرني . فتحت ذراعيها حين رأتنى ، فارتيمت على صدرها وأنا
أقول مبارك .. مبارك .. فلم تجب بل رفعت رأسى بيدها ومضت تتجسس
رقبتي فى حنان وتهمس ! أخرجت يا حامد ؟

ولا أدري لماذا طال صمتى فانبرت شريفة تقول :

— يا شيخه .. بلا وسوسة .. لم يجرح كما ترين ..

فلم تطمئن العروسة بل مالت على تخلع جلبابي لتتأكد من ان
جرحا لم يصبنى ، واطمأنت ثم استدارت الى سحارة صغيرة رفعت

غطاءها. ودفعت الى يدي بعلبة من الملبين ، وطبعت على جبيني قبلة وهي
تقول ..

— اذهب الى شعبان فانك رجل ..

ورأيت سعيدة تقترب مني وتمد يدها تختطف علبه الملبين مني
فاستدردت ونظرت الى باب الحاصل أعبره بينما ارتفعت أصواتهن
بالضحك ..

لم يعد ساهرا في النجع الا بيتنا تتسرب منه أضواء خافتة
الى الشارع الملاصق ، والينا في الساحة ..

٢٣

العروسان ساهران وحدهما في الديوانى بينما أسهر أنا في الساحة،
أمسك بنبت أطول من قامتي ، وأتلفع بشملة صوفية ، أراقب الطريق
العام بينما جابر وبرعى يراقبان الناحية الشرقية من البيت ..

وبينما نحن نقص نواذر الزفاف لاح في الظلام فجأة شبّح ثم
اثنان فثلاثة فتحفزنا نحن وشرعنا أسلحتنا .. ثم ركض برعى وجابر
الى الناحية الشرقية واشتبكا في سرعة خاطفة مع شبّح كاد يتسلى
الجدار .. طرقة كرباج ثم آهة سريعة وأصوات ركض ومطاردة عادة
بعدهما يهيسان ..

— المجرم البسطاوى جاء يتلصص على العروسين .. قليل الحياء ..

— لو كان فى نجعنا لضربته حتى تسيل الدماء منه !

— كفاه ما ناله من لسع كرباجى ..

وتذكرت فى تلك اللحظة نواذر تحكى فى قريتنا بعد كل زواج :

تسلقنا الجدار وفتحنا كوة فى السقف فوق سريرهما مباشرة ورأيناها
رأى العين وسمعناها وهى تصرخ .. رأيناها تدفعه فى صدره وتوقعه
على الأرض .. لقد غلبته !! عجيبة ! .. فلانة غلبت فلانا .. أما فلانة
فانها لم تنطق بكلمة واحدة الا بعد المعلوم لم تبال بتهديداته ، ولا
بالخنجر الذى استله ، ولا بعصاه التى مضى يهشم الأطباق بها .. أطباق
الخوص والصينى .. استمرت تطبق شفيتها حتى أذعن لمشيئتها ..
أما فى الساعة الفاصلة فانها أطلقت صرخة حادة وغابت عن الوجدان .

تذكرت كل ذلك وعرفت لماذا نقف نحن حراسا على البيت ، ففكرت
عينى اطارد النوم ، وشددت قبضتى على النبوت وأنا أصيخ السمع الى
برعى وهو يحكى لجابر قصة غرامه وعذابه ثم رن فى النجع صوت ..
نوح يؤذن لصلاة الفجر .. وسمعت برعى يسأل جابرا ..

- متى يخرجان . الآن أم بعد طلوع الشمس ؟

- بعد قليل ..

- فسألت أنا ..

- والى اين يذهبان ؟

- الى النيل !

- فى هذا البرد الشديد ! لماذا ؟

فضحك برعى وقال وهو يغمز لجابر .. انها لا يشعران بالبرد .

ولا أدري لماذا خجلت من سؤالى بعد هذه الكلمات ، فانزويت أراقب
الباب ، والليل من حولى يخلع شيئا فشيئا جلبابه القاتم . يكاد يميظ
اللاثام عن وجه السحر الفاتن ، فبانت رؤوس الاشجار جليلة واضحة .
وتحركت الاعشاش قليلا ، وبكرت عصفورة فشقشقت مرة واحدة وسكنت
وأنا ما أزال أراقب الباب ، وأفرك عيني وأوسع من حدقتيهما

واتبعت صرير الباب فجأة ، فقفزنا الى أقدامنا وفتح الباب ، فلم
أر الا خالتي أمينة بايا ومعها « مسكة » شقيقة العريس ، تقفان على
عتبة الباب ، وتختلسان النظر هنا وهناك على ضوء فانوسين يحملانهما .
وكانهما تخشيان شرا على العروسين فى صباحهما الاول : ثم انبرت
الخالة تسأل :

- هل مر رمضان النجار من هنا ؟ ..

وأجاب برعى بالنقى وهمس لجابر : رمضان التجار هذا عينه تفلق
الحجر ، وهى تخشى أن تقع عينه الحاسدة على العروسين فى أول صباح
يظلان فيه على الكون معا ..

واستكشف الطريق ثم همس : لا أحد فى الطريق .. تعالوا ..
فتنحنا عن الباب ، وخطرتا الى الساحة تحملان فانوسا . ومن خلفهما
العروسان بنفس ثياب البارحة ..

وسرى موكبهما ونحن من خلفهما .. فى السكة الزراعية المتعرجة
بين عيدان القمح المتمايلة على أنغام النسيم وبين أجسام النخيل حتى
أوفت بنا الى الموردة حيث الفلوكة لا تزال رابضة تحتك بالجرف وتئن .

توقفا على الشاطئ ، والفانوسان يرسلان بريقهما رماحا تنثال على
سطح الماء الراكد الصافى ، ورماحا تنطلق لتنعكس على الشمندورة التى
كانت لا تزال ترتطم بسلسلتها تحاول الافلات .

والليل لا يزال يخلع جلبابه الداكن .. ويكشف شيئا فشيئا من
هفائن الصباح .. ليفيق الكون على ابتسامته الساحرة ، ابتسامته المتألقة
على شفة الشفق الاحمر .. المنكشفة رويدا رويدا عن ثنايا بيضاء تبرى
لتنعكس بريقها على سطح الماء ..

والنخلة العجوز التى استراح المالك تحتها تهمس :

- أرايت يا ابنتى ؟ للمرة المائة أرى الأزواج الجدد يقفون على
الشاطئ فى صباحيتهم الاولى رأيت أباهما وأماها ..

فتضحك النخلة الصغيرة وتعود النخلة العجوز التى استراح
المالك تحتها تهمس :

وهنا وقف فضل وفضيلة منذ ثلاثين عاما . أما النيل . فقد رقد
هادئا رقدة الاله ، جبارا كعهد الناس به يرتعش لحظة - كعجوز يهرش
رأسه مفكرا وينتفض عند الدوامة ، ثم يبتسم للشبابين الواقفين على حافته
فى خشوع وتبتل :

ثم انحنى شعبان على الجرف ، وخيل لى أن النيل قد ارتفع قليلا
ليلتقى به ، انحنى وتمتم بدعاء : فغمس يديه فى الماء ، وارتفع بهما الى
وجهه تمسحان عليه .

ثم استدار الى «جميلة» يهمس : هيا .. فمالت هي الأخرى وشربت جرعة ثم مسحت على وجهها وهي ترتعش من البرد ووقفت تدعو لزوجها ولنفسها ولنا نحن أهلها بينما استغرقت الحالة ومسكة في دعاء مشترك متصل أفاقتا منه على صوت شعبان يقول :

— حسينا ، فالشمس تكاد تظهر .

وانطلقنا نحن الى الغيط وجمعنا حزمتين من عيدان القمح والفول بنواره فتأبطاهما ، وعاوردا سيرهما البهيح نتقدمهما نحن الى أن أسلمناهما للديوانى الذى لن يفتح الا فى الظهر ثم يغلق ليفتح فى المغرب . فيتوافد الناس يهنئون ويقيمون حلقات الذكر وينقرون على الدف ..

وتوافدت النساء على جدتى فى الأيام الاولى يهنئن ويقدمن مساهمتهن فى نفقات العرس ، فتأمرنى أن أكتب فى دفتر طويل خصصته لهذا الغرض :

— داريا سكيئة : خمسة قروش . أصيلة : عشرة قروش ، بنت الایه دفعت لها عشرين فى زواج ابنتها فلماذا تدفع أقل ، فتهمس خالتي : معذورة يا عائشة .. مسكيئة ..

وفى اليوم السابع خرج شعبان — ولأول مرة .. يطوف بالنجوع ويتلقى التهئة والهدايا . أزواجا من الحمام والدجاج وأطباقا خوصية ملونة ..

وتتالت الأيام وجميلة لا تزال قعيدة الديوانى لا يسمحون لها بأن تعمل عملا ما .. يكفيها أن تتمنى شيئا فتجيب على الفور ، وتنهض بطة أو شريفة لانجاز ما تريده ..

دارت بطة طوال شهر العسل كما تدور النحلة : تخدم وتكنس وتغسل وتعد الطعام .. وتحلم فى نفس الوقت بزفافها .. وتستعيد فى نشوة ذكريات هذا الشهر لتحقيقها يوم زفافها . فقد أرسل حسنين — ابن عمها — من القاهرة الى أبى يطلب يدها هي الأخرى .

وانقضى أربعون يوما خرجت بعدها العروسة تتلقى التهاني والهدايا ثم ران فى عينيها وجوم يستمر لحظة ثم ينطفئ حرت فى سببه ، فقد أسرع الأيام بنا وتقرر أن تبارح جميلة بيتنا الى بيتها الجديد ..

وجاء يوم الوداع • ومنذ الضحى مضت العروس تطوف بكل ركن
فى البيت ، تتأمل الجدران والصوامع وتركع عند مربط نعاجها ومعيزها
وتربت على ظهر خروف أصفر « كرجاوى » • • وتناجى « لورد » وهو
يزك بساقه خلفها •

وتتعجلها « مسكة » فتقول جدتى :

— دعيها يا مسكة فالوداع مؤلم • • انها ترحل عن بيت عاشت فيه
طول العمر • •

ثم التفتت الى جميلة تقول :

شعبان زوجك بح صوته يا جميلة • • • أسرعى • •

فنهضت العروس وارتمت على صدر جدتها وهى تفص بالبكاء وتبذل
الوعود : سأزورك مرة كل أسبوع • • زورونى انتم ، لا تتركونى
وحدى •

وتردد صوت شعبان ينادى عليها فاستدارت بعد أن عانقت أمها
واستمعت الى نصائحها متجهة الى الباب والى يمينها بطة • •

أما أنا فقد كنت فى هذه اللحظة أراقب المشهد المؤلم بعينين
دامعتين وفى قلبى دوامة من الذكريات والغيرة والالام لقد طافت جميلة
بكل ركن فى البيت • • بكل نعجة وخروف ، بكل صومعة وجدار ودجاجة
وديك • • بكل انسان الا أنا • • أنا الذى لسع الكرياج رقبتى ساعة
زفافها • أنا الذى سهرت الليل وبرده فى سبيل حمايتها ! • •

كانت تتجه الى باب الخروج لتذهب الى الابد دون أن تودعنى وكدت
أصرخ : جدتى • • امسكيها • • دعيها تقول لى كلمة واحدة • • ولكننى
أحجمت وأخذت أغمغم : اذهبنى • • لن أزورك • • انت لا تحبيننى • كنت
أحسبك • • لن أراك بعد هذا • • سأهرب من البيت كلما جئت لتزوريه
• • والله والله العظيم • •

وأفقت على صوت الجدة وهى تطلق زغرودتها المتشرخة ، وفكرت
أن أجرى الى « جميلة » وأعترض طريقها وأمنعها من الخروج • ثم ترددت
وقررت أن أختفى فى القناء • • وبينما أنا استدير دارت « جميلة » على
عقبها تواجه الدهليز والأهل وعيناها غائمتان لا تريان شيئاً ، لا تريان
هذا الولد الصغير الذى يحدق فيها ذاهلاً عن نفسه ناقماً عليها • •

وظلت ساكنة تحديق في كل شيء ، وطال صمتها حتى ظننت أنها
أخرجتني من قلبها الى الابد ، فخطوت أعبر الباب الصغير المفضي من
الدھليز الى الفناء الا أن صوتها الرقيق ارتفع يقول : حامد .. حامد ..

فأسرعت نبضات قلبي .. وأدرت جسدي كله لمواجهتها ، ففتحت
ذراعيها وأسرعت الى تحتضنني والدموع تسيل على خديها : ثم راحت
تهمس وأنا أتمرغ على صدرها ، حامد .. تعال معي .. زرنا في كل
يوم .. لا تخف فالطريق عامرة بالناس ..

كان صوتها الحبيب يترقرق في قلبي وهي تهمس .. حامد ..
يا شقيقي يا ابن أمي .. لا تنس .. ثم لمست بيدها صغيرتي المسدلة
خلف أذني اليسرى وقالت : لقد كبرت يا حامد .. ولا داعي لهذه
الضفيرة .. قصها عند « شبيكة » .. والخروف الأصفر ربيته أنا لمثل
هذا اليوم .

وتردد نداء شعبان فطبعت قبلة على جبيني ثم نهضت ، وفي عينيها
دموع وألقت نظرة جديدة على كل شيء . واجتازت الباب الخارجي
لتنضم الى موكب وداعها .. الموكب الذي رافقها يحمل أمتعتها ، الموكب
الذي استقبل في نجعها بالزغاريد .

وهناك ، وقبل أن تخطو العروس أولى خطواتها في البيت ، أمرها
الشيخ عثمان والد العريس بالوقوف لحظة فترشت الى أن ألقى الشيخ
بخروف كبير عند قدميها وذبحه وأسال دمه على العتبة لتخطو فوقه
العروس .

وعاد بنا الأصيل -بعد أن تركنا العروس في بيتها الجديد - الى
نجعنا .. وعند مشارفه تلكأت وانفصلت عن أبي ، واستندت الى جذع
نخلة أفكر في مصيري بعد رحيلي هذه الأخت وبعد أن تتزوج بطة ، ثم
تداعت الصور وتمثل لي بركات أفندي وقلمه العجيب ، ومصطفى
ومدرسته ، وأخذت أقارن بينه وبينى ، بين مدرسته وكتابي .

وفجأة وكأنما كنا على موعد برز مصطفى من جانب الطريق فأخذت
ألوح بيدي وأجرى حتى لحقت به .

تضافحنا ثم مضينا نتسكع ونثرثر في كل شيء : لقد نقل الى
السنة الثانية وسيمتحنونه بعد شهور وينتقل الى السنة الثالثة فالرابعة
ثم القاهرة .

حدثني عن العنب اللامع ومذاقه الحلو « واليوسف أفندي » فتحلب
هريقى ، وتمنيت لو وافق أبى فأكون معه فى نفس المدرسة ..

ووجدتنى أسأله ..

ألا تحس وأنت هناك بالشوق الى أختك وأمك ؟ فهرش فى رأسه
وقال فى وقار ..

— أحس به .. لكننى أراهم مرة فى كل أسبوع .. الخميس
والجمعة ؟

— وهل أستطيع أن آتى معك ..

وقبل أن يجيب أضفت :

— لأرى المدرسة والدكاكين والمركز ...

فقال ببساطة متناهية :

— ولماذا لا تدخل المدرسة ؟

وأجبت فى حزن ، أبى لا يريد ، فصمت الفتى واستأنفنا سيرنا ،
فى السكة السلطانية لصق أحراش الحلفاء ، والمساء يرخى قنابله ،
الرمادية على النجع وعلى أعمدة التليفون والبرق .

والصقنا أذنيننا بهذه الأعمدة ، نصيحخ السمع الى كركرة جوفها ،
كانت الكركرة تعلو فى جلبة حتى خيل لنا أن جموعا من الناس تتلاحى
على مقربة منا حول أشجار لم تسجل وبيوت لم يدونها بركات أفندى ..

وربما كان بدر أفندى الذى طال الحديث عنه فى نجعنا يتحدث ..
وهنا وجدتني أسأل مصطفى .. وهل تعرف بدر أفندى . وقبل أن
يخرج مصطفى يده من جيبه ليحجب وهو يلوح بها تناهت إلينا صرخات
محتدمة ترتفع من نفس المكان الذى ارتفعت منه منذ شهور .. يوم
كسرت ساق الشيخ فضل ..

فتساءلنا : ماذا جرى هنالك ، دون أن نتحرك أو نعدو كما عدونا
خلف مندوحة منذ شهور ..

وأجاب أحد العابرين ، وكأنما كنا نسأله .. شريحة أرض لا تستحق
يارة واحدة ، عمك الشيخ فضل والجزار يقتتلان بسببها ، وبصق على
الأرض فى اشمئزاز ثم أردف : لعنة الله على الأرض وعلى الناس ، ومضى

فى اتجاء الجامع بينما مرق من جانبنا فى سرعة نبوت طويل يحمله برعى
وهو يبرطم بكلمات غير مفهومة فأخذنا نهتف ونصيح به ..

- برعى .. برعى !

فلم يبال : بل انعطف هائجا مثل الثور الى السمكة الزراعية
المتعرجة ..

٢٤ هبت الريح وامتلا الشراع ، فأقلعت السفينة بنا ، تعبر النتوء
الشرقى ، وتتجه الى الطرف الشمالى للجزيرة ، وأنا أحرق
فى الشاطئ وأفكر فى هذه الرحلة التى أعد لها أبى منذ
الأمس ، حين تذكر كلمات العروسة فى الدهليز يوم الوداع فأمسك برأسى
وتلمس صغيرتى الطويلة بيده ونادى :

- عيشة .. غدا موعدا مع « شببكة » ..
فأجابت ، وبسمة الرضا ترتسم على شففتيها : شىء الله يا شببكة ..
وانبرت تعد الفطائر والهدايا ، بمساعدة « بطة » .. ولم تأو الى
فراشها بالليل الا بعد ان حزمت بعض الامتعة وأعدت كل شىء لرحلتنا
هذه الى « شببكة » ، هذا الشيخ الذى أقيم له مقام مرتفع ، على قمة جبل
عالية فى « الدر » ، يتبرك به الناس من كل قرية ، يذبحون له القرابين ،
عند الطهور أو الزواج ، أو يوفون بنذر قطعه على أنفسهم ، ويعودون
والرضا يشع من عيونهم ..

مجرى النيل يتسع ، والشاطئ يصعد فى بطن ، الى الجنوب بينما
حسن المصرى يهدى من روع الحروف « الكرجاوى » الذى ربط بحبل الى
الصارى ، فمضى يشغو ويحاول الفكاك من وثاقة .. ويحتك بظهر جدتى
التي استدبرته ، لاهية عنه ، فى حديث متصل مع أحمد عودة ، وأبى عن

شبيكة ومعجزاته .. والحديث كله زهو وقخر .. فليس شبيكة الا جده
أكبر لعائلتهما . كان وليا مقربا الى الله ، يعبر النيل في قفزة واحدة ..
أو يخطو على سطح الماء في يسر ، تماما كما يخطو الناس على الارض ،
أو يتكىء على فرو يعوم به في المجرى ، يهبط أو يصعد به في النيل دون
حاجة الى معدية أو فلوكة ، أو يتغلب في الجبال حيث لا زرع ولا ضرع
ولا ماء .. ويتكل على الله في الهجير ، فتظلل الغمامة .. وتمطر له السماء
فيرتوي ، وتقح الطيور مشوية عند قدميه ..

مضيت استمع الى حديثهما في سرور بالغ مزدوج ، فسوف أزور هذا
الولي ، وأقص صغيرتي عند أعتابه ، وأكل من لحم هذا الخروف الذي
سيكون مباركا بفضلته ، فتزداد قوتي لأصبح في قوة برعي ، فأصرع
البسطاوي وعبد الله الجزار ..

وفي نفس الوقت ، يمكنني بعد زيارته أن أرى مدرسة مصطفى في
الدر ..

أدرت هذه الامنيات في ذهني ، وأنا أصدق في المجرى الواسع ،
فحرت في أمر « شبيكة » الذي كان يعبره في قفزة واحدة .. ربما كان
المجري في أيامه ضيقا ضيق جدول ساقيتنا الكبير ، ربما كان هو كبيرا
كبر الجبال ! ..

ووجدتني أسأل جدتي في فضول : كيف أمكن له ذلك يا جدتي ،
فقالت: باذن الله يا ولدي . وقهقهه أبي وقال: كان رجلا طويلا واسع الخطوة
قويا يشرب كوز سمن في الصباح وآخر في المساء ، أيام كان كوز السمن
رخيصا . ثم انطلقوا يتحدثون عن أيام زمان ورخص أيام زمان: كان الربيع
رخصا تلخه الإبقار .. فتدر اللبن والسمن ، والارض خصبة تجود
.. وأشجار النخيل عفية تهب في كرم ثمارها .. أما الآن فكل شيء
في حكم العدم : لماذا ؟ .. كثر الناس .. أم ان الله ناقم علينا ؟

وتنهد أبي وهمس : وأيامنا هذه أسعد من أيام هؤلاء .. وأشار
الى ، فانبرت جدتي تقول ربنا موجود .. فعاد أبي يقول :

— ألا ترين ؟ .. هذه الاراضي لن تكون لنا ..

وأشار الى الشرق ثم التفت الى الضفة الغربية واردف : وهناك
ليس الا الرمل الاصفر .. لا زرع ولا نبات ..

فأدركنا رجوسنا الى الضفة الغربية : صفراء قاحلة عالية • تنحدر من
كتبان الرمل والتلال الصغيرة المتناثرة، وتنتهى على الجرف بمغارات سوداء،
يسيل من أطرافها ماء بارد يصب في المجرى ، ولا يمتد خلفها غير الصحراء
الحالية الا من « كرن نوج » القصر الأثرى الرومانى • القديم بقمة المتلثة
والذى أشار اليه أبى ليقول فى صوت غاضب :

— خبرنى يا أحمد .. أيمكن أن ينبت شئ فى هذه الضفة القاحلة؟ •

— اذا أراد الله ..

وردد عوض كنية النوتى كلماته وأردف :

— باذن الله ..

الا أن أبى قاطعه بقوله :

— لكنه لم يرد ، فجعلها صخورا وكتباناً وأخاديد .. أنظر بالله

عليك ، أنظر ما وسعت عيناك أن تبصرا ، هل تجد الا نباتات الموت ..

الا الصبار .. حتى العاقول لا ينبت هناك •

وفرك أحمد عودة يده وأشعل سيجارته من عقب لفافة حسن المصرى،

وجال بطرفه فى الضفة الغربية وقال :

— لم يجرب أحد حظه هناك بعد ..

وأمعن بناظره ثم أردف : أى أرض يمكن أن تجود مع الخدمة ..

وبدون خدمة يمكن أن تتحول الارض الحصبية السوداء الى أرض قاحلة

شاحبة .. حتى هذه الضفة الصفراء يمكن أن تخضر ..

فصاح أبى : هذه مغارة شياطين لا تأنس اليها الحضرة .. لا يأنس

لها الا السحالى والثعابين والضباع ، والصبار والعفاريت ..

فاستعازت جدتى ، ومضت تطوف بيديها على رأسى ترقينى ، وهى

تتمتم بينما واصل أبى حديثه : شتلات النخيل ستختنق فى قبضة

الصخور .. كلا .. لا مقام لنا هناك .. لو طاوعتمونى لاخترنا مكانا

بعيدا ولطاب عيشنا وعيش أبنائنا ..

وهنا ولأول مرة منذ اقلعت بنا السفينة تدخل حسن المصرى فى

أدب ليقول : ولماذا لا ترحلون ؟ ..

وعاد يعبث بالشاغول ويدير الدفة وأذنه تتلقف سؤال أبى :

— والى أين يا مصرى ؟

فأجاب على الفور ودون وعى : الى الصعيد • أرض الله واسعة ••

وحدجه أبى بنظرة ثم قال فى صوت مستريب :

— ولماذا لا ترحل الى السودان ؟ هنالك اخوتنا نفس اللون ،

والقبائل لها نفس الجد ، والأرض واسعة ••

وفكر حسن لحظة : وتمثل له الصعيد بمطارداته وبوليسه وأدغال

قصبه فارتعش صوته وهو يقول :

— الرأى رأيك يا أمين •• الجنوب أحسن !

وأمن أبى على كلماته ، وراح يروى خبرا سمعه من أحد المداحين

السودانيين : المهدي يرحب بالنوبيين فى السودان ••

واعترض أحمد عودة يقول :

— الميرغنى وليس المهدي هو الذى رحب بنا •

ثم انتصب مستندا الى الصارى ، يحدق الى الشمال والشرق ،

فقد عبرنا المنحنى الشمالى •• ولاخت لنا الدر ، فظل أحمد عودة عينيه

وحدق فى الجبل ، فرأى نقطة صغيرة مثل الحنافس تتحرك وتعبّر الجبل ،

من طرقه المتعرجة •• وقال وكأنما رأى ملامح الناس : ذلك هو الشيخ

فضل والجزار ومعهما •• آه •• من الذى معهما ؟ •• الولدان برعى

والبسطاوى ، يقودهم الشيخ جعفر الى المركز ••

واستدار الينا يقول : نفذ صبر العمدة فساقهم الى المركز ••

وهمست جدتى :

— وعلام البيهدة •• كان الاولى أن تعقدوا الصلح بينهما ••

وهتف أحمد عودة :

— لم يوافقا • لعنة الله على بركات افندى ودفاتره ••

ولم يكمل جملته بل تنهد وألقى بسسيجارته للأمواج فى صبر

نافذ ••

وفى هذه اللحظة كانت الدواب السارية على الجبل قد اختفت عن

انظارنا ، بينما السفينة تتجه برأسها الى شواطئ الدر التى بدت بمبانيها

ونجوعها ، كبيرة ذات حقول صفراء متماوجة ومآذن عالية ترتعش في
حدقات عيوننا كلما اهتزت المركب بنا على صفحة النيل ..

ورست بنا المركب في معاذاة غابة من النخيل تتبدى قبة شببكة
البيضاء من خلالها سامقة هنالك الى الجنوب تبعث الرهبة في النفس ..
ومن أمامها .. الى الشمال والشرق وفي امتداد سفح الجبل والسهل
كانت تمتد نجوع « التتراب » والتنكياب (الغرياب) والبزرجناب ونجوع
الحليلية والكرباشية والسرودية ..

وبينما خالى أحمد عودة يعدد أسماء النجوع والقبائل مدت السقالة
فنزلنا الى الشاطئ لنجد في استقبالنا الشيخ غلاب أحد أقارب العائلة .

بتنا عند هذا الرجل ليلتنا ، وصحونا في الفجر لنتجه الى الجبل ،
حيث القبة البيضاء المطلة على الكون قاتمة في غيش أضواء الفجر .

وعند السفح المزدحم بالناس الذين وفدوا من كل قرية يتبركون
باعتاب « شببكة » ، دون أن يتناولوا ليبلغوا قبته توقفنا جميعا . جدتي
وأبى يتضرعان الى مقام الولي أن يسعدنا ، ويفضون الى سددته برغبتنا
التي دفعتنا الى عبور الجبل ، فتقدموا بنا الى مكان قريب من القبة ، وهناك
نحر الحروف الاصفر وسالت دماؤه على الصخور قربانا لولى الله ..

ثم امتد مقص واجتز صغيرتي التي لفتها جدتي في قطعة من الحرير
الأصفر دستها في صدرها وهي تتمتم بالدعاء ..

وفي ضحى اليوم التالى عاد أبى مع جدتي ، بعد أن تركنى فى الدر
مع أحمد عودة وحسن المصرى بعد أن توسلت وتضرعت اليه ..

وما أن غابت المركب عن أنظارنا حتى بدأنا نحن نوغل فى القرية
نحو الشمال يقودنا الشيخ غلاب الى أن حاذينا كوبرى « أبو زقان » ،
فتوقفنا عليه برهة نتأمل الاخدود العميق الذى يتفلى تحت السكوبرى
لينحدر من الجبل الى النيل ..

وسأل حسن المصرى :

— هل يرتفع الماء فى هذا الاخدود ، فيصلح لرى الارض ..

فقال الشيخ غلاب :

— كلا .. هو يابس طول العام ..

وأضاف - كأنما تذكر شيئاً :

- مرة واحدة منذ سنوات ، انحدر من هذا الاخدود سليل جارف
حطم الاشجار والبيوت وكل نبات ..

وابتلع ريقة واستطرد :

- ويات الناس في العراء وجاعوا .. لكن الله جبر بخاطرهم فتبرع
الناس في مصر والاسكندرية والمدن المختلفة بالوف الجنيهات لاغاة
المنكوبين ..

- عقارم ..

- لكن المنكوبين رفضوا هذه الألف ..

- عجائب يا شيخ غلاب .. عجائب !

- رفضوها واشتروا ايداعها في خزانة مديرية أسوان لتنفق
من ريعها على أبناء النوبة المتقدمين المعوزين في المدارس ..

وهز حسن المصري رأسه في اعجاب ، وأراد خالي أن يقول كلمة الا
أنه صمت وهو يلح الشيخ فضل يرك بساقه ومن خلفه عبد الله الجزار
وبرعى والبسطاوى يقودهم الشيخ جعفر وبرعى حثيثا الى الكوبرى
يريدون عبوره مثلنا ..

وألخوا بالتحية حين اقتربوا منا ثم استداروا يهثوثنى على قص
ضفيرتى وتبركى « بشبيكة » وزياراتى لمقامه !

وسارت الجماعة تعبر الكوبرى ، وأنا من خلفهم أستمع الى كلماتهم:
قال أحمد عوده يسأل : وماذا قال المأمور يا شيخ جعفر ؟ فأجاب هذا :
ألم أقل لكم انه رجل طيب ؟ لقد نصحننا بالصلح ، فالتفت أحمد عوده
الى فضل والجزار يسألهما : أليس الصلح أفضل لكما بدلا من البهدة في
المركز ، وقبل أن يجيب أحدهما انبرى البسطاوى يقول : وكيف يتم
الصلح .. أليس الشيخ فضل محقوقا ؟ فابتدره الرجل : اخرس يا ولد
.. دع الكبار يتكلمون .. حتى عبد الله الجزار نهره بشدة .. فزم
شفتيه وتراجع خطوات وانحاز الى الناحية الشرقية من الطريق وهو يغمغم،
بينما استأنف الشيخ جعفر يقول : ونحن الآن في طريقنا الى بدر افندى
.. فقد دعانا الى بيته ليتدبر الامر بنفسه .. كان مع المأمور واستمع الى
المشكلة فقرر أن يتدخل في الصلح .. أتأتى معنا يا أحمد ؟ ..

وأشار الى بيت الرجل وقال :

— حجة وتجارة .. فتتعرف على الرجل فقد ذاع صيته ..

وقبل أن تدلف بنا الطريق الى كوبرى « أبو زقان » اقترب برعى منى ، وعبث فى جيبه ثم دفع بيده ، أمام عيني بعقد جميل من الخرز يلمع ، اشتراه بالامس من الدر ، وهمس فى أذنى : أليس عقدا جميلا يا حامد ؟ .. فقلت : ليس أجمل منه .. هل اشتريته لأمك ؟ فهمس من جديد : كلا يا عبيط ... سأهديه الى شريفة !

فتذكرت على الفور مسحوق الوطواط و « لورد » واللطمتين اللتين أغضبتا شريفة ، وصراخها فى وجهه : أنت صايح .. وتبسمت فى ياس .. ويبدو أنه أدرك ما جال بخاطري فقال فى صوت خافت .. كلا يا حامد انها ستنسى الحادث ، ولن تعود الى ذكره فهى تحببى أنا وليس هذا الجلف ، وأشار الى البسطاوى الذى كان بعيدا عنا يخب فى الطريق كأنه ليس واحدا من الجماعة السارية فيه ..

ووصلنا الى ميدان « أبو زقان » ..

الميدان صغير ومستدير الا أنه يغص بأشجار الجميز الوارفة وذقن الباشا والأتل الملقية ظلالها على أديمه المتجدد بأقدام السابلة ، ونحتها أزيار فخارية حمراء ..

ووقفت أتأمل الميدان والمباني المرتفعة أمامه ، تفتح أبوابها عليه ! « مكتب البريد » حيث يعمل بدر أفندى • يخرج ويدخل منه أناس من أشكال وألوان مختلفة .. وبينما نحن ننعطف أمام هذا المكتب سمعت خالى أحمد عودة يقول :

— حسن : خذ حامد معك الى السوق .. وعد به بعد ذلك الى بيت بدر أفندى .. هناك تجدنا ..

فأمسك حسن بيدي ودار بى فى الميدان ، حول مبنى البريد الى أن حاذينا حائطه المقابل لرصيف النيل ومرساة الباخرة التى ترد من الشمال مرة فى كل أسبوع تحمل البريد والطرود والمسافرين ..

وأمام المرساة مباشرة ، وفى مواجهة النيل كانت المحكمة والمركز يتصل بينهما وبين مكاتب الموظفين فناء واسع ينتهى الجانب الشرقى منه بسلحليك وسجن صغير ليس فيه سجين واحد ..

واستدار يـ حسن الى شارع جانبي اطل علينا فيه بناء كبير ،
حصل منه صوت جرس ونحن تكاد نعبث الطريق أمام بابه الكبير ..

فتذكرت أحاديث مصطفى عن هذا الجرس الذي مضى يصلصل في
دوى يفوق صلصلة عشرات الاجراس الصغيرة المعلقة على صارى المراكب
الشراعية في يوم عيد ..

أيقنت أنتى أمام المدرسة فتلكأت ثم طلبت من حسن أن نتوقف
قليلا فقبل على مضض ، فرحت أنا أراقب المدرسة في فضول ..

ومرت لحظة بعد أن سكنت الجرس ثم فتح الباب الكبير ، ليندلق
منه الى الشارع عشرات من الصغار في سراويل قصيرة مختلفة الالوان
يتأبطون كتباً ، ويمسكون في أيديهم مساطر وأقلاماً ، ويلكزون بعضهم
بعضاً ، ويتقازفون في شيطنة غريبة ، فيملئون الشارع ضجيجاً يصم
الأذان ..

ثم فتح الباب من جديد وخرج منه الى الشارع أربعة رجال استرعوا
انتباهي : اثنان في ملابس مثل ملابس بركات أفندي ، يتوج الطربوش
رأسيهما والآخران يتخذان زى الشيوخ : جبة زاهية وقفطانا لامعا
يشدانها الى الحاصرة بحزام عريض ، أحدهما حليق الذقن والشارب ،
ما يزال في مقتبل العمر ، بينما الآخر قد تخطى مرحلة الشباب ..

ومضى الأولان يتهامسان بينما ابتسم الشيخ الاول الشاب لنكتة
أرسلها زميله ، غير أنه زم شفتيه فجأة ثم صرخ في صوت أمر ارتعدت
له مفاصل :

— خليل . انت يا ولد يا خليل . تعال هنا .

فدعر الصبية الذين كان الشارع يموج بهم ، ورمقوا زميلهم الذي
كان يتوالب في الشارع ، ويشوط بحذائه الاسود ذى الرقبة العالية
حجرة صغيرة أخذ يدحرجها من أول الشارع الى آخره ، وهو يحجل
ويصرخ في مرح اختنق فجأة على شفتيه حين دوى صوت الشيخ فتوقف
عن لهوه ، ومد يده بمنديل يمر به على طرف الحذاء ، يزيل خدوشا
بيضاء أحدثتها الكرة الصخرية ، قبل أن يقبل على الشيخ مطرق الرأس ..

وأمسك الرجل بشحمة أذنه اليمنى ، ومضى يفركها في قسوة بينما
الغلام يستجير : والنبي يا شيخ مرسى .. وحياة ابنك صالح . لن أعود
الى تمزيق حذائي .. لن أعود .. والنبي ..

وقال الشيخ : ارحم أمك المسكينة ..

وأهوى أحد الافندية بمسطرته على رأس الولد وقال وهو يبتسم :

- خلاص .. الولد تاب .

ولم يستجب الرجل ، بل مضى يفرك ويفرك أذن الغلام الذي استمر
فى ارسال صرخاته : والنبي يا مكى افندى تبت .. والنبي يا شيخ يس .
الا أن هذا كان قد ابتعد مع الافندى الآخر ليدلغا الى مكتب التلغراف ..

اذن فهذا هو الشيخ مرسى الذى حدثنى مصطفى عنه .. كم هو
قاس هذا الشيخ !

ورمقنا الشيخ بنظرة مستفسرة وهو يتجاوزنا فهففت منه رائحة
عطرة الى أنوفنا ، ولكزنى حسن بكوعه وأمسك بيدي وانعطف بى . وأنا
ما أزال أصدق فى المبنى وأتساءل : لا بد أن الفصول هناك خلف هذا
السور ، وفيها الكراسى والادراج والطباشير والتخت السوداء المعلقة على
الجدران .. ولكن أين مصطفى ؟

ومضى حسن المصرى يصعد بنا طريقا متعرجا حتى استدرنا حول
المدرسة فلاحنا خلفها بحيرة ضحلة تحف بها أشجار السنط والأثل
والجميز ، وعمارة ذات طوابق ثلاثة يتعرج من خلفها طريق ترتفع على
جانبيه دكاكين متباينة الشكل .

وتلقانا أحمد شور .. صاحب المطعم بابتسامة عريضة فجلسنا
نلتهم أرغفة بيضاء وقطعا صغيرة من اللحم نتصيداها من طبق الفاصوليا
العائمة فى الصلصة الحمراء .

وخلصنا بعد ذلك الى مقهى حامد نشرب شايًا مرا ثقيلًا عافته نفسى،
وأردت أن أطلب من حسن المصرى شيئًا آخر الا أنه كان لاهيا عنى بأفكار
يجترها ، ولمحت على وجهه أمارات مثل تلك التى رأيتها ليلة « فكيهة »
أيام موسم البلح .

وسمعتة يتنهد ويشير الى الجرسون ويهمس فى أذنه بكلمات قال
بعدها : ابق هنا يا حامد وسوف أعود . وقبل أن أحتج كان قد ترك
المقهى بينما الجارسون يشيعه بتلعيب حاجبيه ويقول : آمال يا عم ..
« دنجل شوفو » وحررت فى أمر « الدنجل شوفو » هذه ولم أدرك معنى

لها الا بعد زمن طويل : مجرد مكان للسمر عند سفح الجبل يصخب
سحابة النهار بجواريه ويسهر حتى منتصف الليل على ضوء الكلوبات ،
وعلى أنغام الدف والحان تنبعث من أصوات مبحوحة : خديني باليمين أنا
راقدا شمال تفوح منها رائحة العرقى والحر . .

وعاد حسن بعد ساعة وأمسك بيدي ، فعدنا من حيث أتينا
الى ميدان « أبوزقان » ثم الى بيت بدر أفندي وانضممنا الى الجماعة التي
افترشت المصطبة الخارجية يحلقون بالاستاذ بدر ، كما ظلوا ينادونه
طوال جلستهم هناك .

رجل نحيل قصير القامة ، بشارب طويل يغطي شفته العليا ويرسم
ظلالا على وجنتيه الضامرتين وتضيف الى سمرة . . وعينين متقدتين
بالذكاء ، بان فيهما ألم ربما كان سببه مرضا يشكو منه .

والرجل يرتدى بدلة رصاصية وقميصا أبيض تسترخى ياقته
على بداية صدره ، بينما يلتف حول رقبتيه رباط تختفي أطرافه في
صدري من نفس لون البدلة . وعلى رأسه طربوش طويل أذاحه الى
الحلف قليلا فبانت صلعة خفيفة في مقدمة رأسه .

كان حين وصلنا يشد على يد شاب طويل تشوب سمرة حمرة
خفيفة . . كانت الريبة والقلق يكسوان وجه الاستاذ وهو يقول له :

— اياك يا حسين . . اياك والا . .

فما كان من حسين هذا الا أن زوى ما بين حاجبيه وزم شفثيه . .
وكرر الأستاذ تحذيره وأضاف :

— سوف أرسل لك بعد أن تصل الى مصر أمازلت تعيش في غرفة
السطح في عابدين . .

فهز حسين رأسه بالإيجاب وأسرع وهو يتمتم : غدا تروون عنى
الحكايات . . الصبر الصبر ! . . الزم الصبر !

وتريث الأستاذ الى أن اختفى حسين وعاد الى مجلسه مقطب الجبين ،
فبدا وكأن هموم الدنيا تنصب على رأسه . وخيل للمرء وهو يستعيد
حديثه عن الطوفان أن هذا الطوفان لن يحل الا به هو دون غيره من
عباد الله .

تحدثوا طويلا عن البيانات والشكاوى التى يكتبها صباح مساء،
خوق معالجته لمشاكل الطلبة المغتربين فى سوهاج وأسيوط والسعيدية
وحلوان وكلية كتشنر الطبية فى الخرطوم .

ويبدو ان الرجل كان قد عقد الصلح بين الشيخ فضل والجزار
فقد سمعته يقول وهو يشير اليهما : فى مثل ظروفنا يجب علينا أن
فتناسى كل شئ . يجب ألا نتنازع على شريحة صغيرة من الأرض ستكون
فى جوف الطوفان بعد زمن قصير .

وطلب منهم جميعا أن يقرأوا الفاتحة ، وما كادوا يقولون آمين حتى
قال الأستاذ . انت يا شيخ جعفر تعرف كيف تم الصلح . الجزار يزرع
الشريحة ويستفيد منها ، أما الشيخ فضل فتسجل الشريحة باسمه
جزاء لما اقترب الجزار حين كسر ساقه .

وحاول رجال نجعنا أن ينصرفوا بعد ذلك الا أن بدر أفندى قال
لهم : كلا . فأنا أريدكم فى مسألة أخرى ، وبدأ يستعد للكلام ، لا نه
قطع حديثه وهب واقفا يستقبل الشيخ مرسى والشيخ يس ومكى أفندى
والمصرى أفندى وبعض الآخرين أفسح لهم مكانا على المصطبة .

وأدار الشيخ مرسى عينيه فينا ، فقال الأستاذ بدر :

— لا مانع فانهم منا وليسوا علينا .

فبدأ الشيخ مرسى يتكلم ويسرد قصة طويلة عن المدرسة الابتدائية
فى الدر وكيف أنشأها رجال من النوبة يشكرون : حسن عجيب وعلى
بك خيرى ومكاوى الطرابيشى .. أنشأوها هى ومدارس النهضة النوبية
فى الاسكندرية من ملاليم وقروش جمعوها من النوبيين ، وجلبوا لها
المدرسين ، ثم سعوا عند رجال الحكم والانجليز متشفعين بكل رجل
يعرفونه حتى ضمت الوزارة هذه المدرسة اليها وبدأت منذ سنين تنفق
عليها وتبعث بالمدرسين وتدفع مرتباتهم ...

وسكت الشيخ مرسى بينما يرتشف جرعة من الشاي فواصل مكى
أفندى حديثه :

— والآن فان الوزارة تريد أن تغلق المدرسة .

وبدون وعى صاح الشيخ فضل :

— ولماذا ... لماذا ؟

فتلفتوا اليه وأساريرهم تهلل لهذا الاهتمام الذي بدا من الرجل
ثم استرسل مكي أفندى :

- الحكومة لم تقصر بقدر ما قصرنا نحن - أقصد النوبيين - فانهم
لا يرسلون أولادهم الى المدرسة .

وتدخل الشيخ ياسين يكمل الحديث ..

- الحكومة تقول - عدد التلاميذ في المدرسة لا يتجاوز السبعين
وتزعم أنها لا يمكن أن تتحمل نفقات مدرسة كبيرة وترسل مدرسين
الى أقاصي البلاد ، الى المنفى - فانها تعتبر بلادنا منفى - وقد أنفرتنا
انها ستخلق المدرسة ما لم يتضاعف عدد التلاميذ ..

وسكت الشيخ ياسين ليتمخط ، فتدخل بدر أفندى يسأل ..

وماذا ترون ... أنرسل شكوى .. ولما نرسل الشكوى ؟

- وقال الشيخ مرسى - الشكوى لن تفيد والاساتذة يقولون بحظين
لا ثالث لهما - نسعى لتصبح المدرسة داخلية مجانية وأن نقوم فى نفس
الوقت بدعاية واسعة فى مختلف القرى ليرسل الناس أبناءهم الى
المدرسة ..

وقال بدر أفندى - الرأيان مناسبان لكن أولهما صعب وان كان فى
امكاننا استغلال النكبة التى ستحل بنا فى سبيله . أما الحل الثانى فيمكن
القيام به منذ هذه اللحظة ..

والتفت الى رجال نجعنا يسأل - أليس عندكم كتاب ؟ .. فهزوا
رؤوسهم بالإيجاب .. ثم التفت الى أنا وسأل - ما اسمك ؟ فأجبت وأنا
أتلثم ثم تغلبت على ارتباكى وقلت : وأنا أريد دخول هذه المدرسة ،
فتهللت أساريرهم ، واستدار الى الشيخ مرسى يسأل : ولماذا لا تأتى ؟
قلت ان أبى يريد ارسالى الى الأزهر ، وتدخل أحمد عودة يؤكد : أبوه
يصر على ذلك ، ولكنه باذن الله سيدخل مدرستكم ...

وارتفع صوتا فضل وجعفر يؤيدان خالى . واكتفوا بهذا القدر
وتركوتى وأنا ما أزال أحاول الكلام وعادوا يتحدثون عن الحلول المناسبة
وانتهوا الى الكلمات التى أكدها بدر أفندى :

- سنرسل الى مصر ونكتب فى الصحف ، ونكتب الى الناس فى

كل القرى نستحثهم على ارسال ابنائهم .. وعليكم انتم في قريتكم ان
تقنعوا الناس ..

فأمنوا على كلامه رغم انهم يعتقدون أن الناس في قريتنا لاهون
عن المدرسة وشئونها ، ولا يعرفون عنها شيئاً وانهم مشغولون ببركات
أفندى وبالمصيبة التي يتوقعونها ..

وتهامس المدرسون قليلا مع بدر أفندى واتفقوا على كل شيء بشأن
المدرسة ، ثم عاد الحديث من جديد الى الطوفان فقال بدر أفندى :

– الناس يجب أن يهتموا بمسألة التعويضات .. وبالأماكن التي
يرحلون اليها عندما يتم الطوفان .

وارتفع صوت الشيخ جعفر يسأل :

– ولماذا يقيمون الحزان ليخربوا بيوتنا ؟! أراضيتهم واسعة ..
فلماذا لا يغرقون جزءا منها ؟!

وابتسم بدر أفندى وقال :

– الحزان يبني في أنسب مكان يا شيخ جعفر .. وبناؤه امر
لا بد منه .. فسوف تروى مياهه أراضى واسعة يقتات منها ملايين
الناس ..

وقال جعفر من جديد :

– سيعم الخير هناك ونموت نحن من الجوع .

– هذا يجعلنا نطالب بأرض جديدة .. وتعويضات مجزية ..

وتنحنج وابتلع ريقه وحل رباط ياقته واستطرد .

– لكن يبدو أن حكومة صدقي لن تصل بنا الى بر الأمان . فهي
تعرف أن الناس عاطلون يتشوقون الى المليم والقرش .. فتتسفف وتعمل
على تخفيض التقديرات الأولية التي أعدتها حكومة الوفد للتعويضات .

وهنا تدخل في الحديث الشيخ عبد الغفور رئيس لجنة الوفد
بالدور :

– لا شيء .. لا شيء .. صدقي لن يقدم لنا شيئا .. الداهية

ابن الداهية .. حتى الدموع لن يذرفوها علينا .. لو كان النحاس
ياشأ لتبدل الحال .

وانتهز الجزار فرصته فقال بصوت خشن :

— آه .. لو كان اللورد كرومر ..

فقاطعه أحمد عودة بحدة : لعنة الله على كرومر .

فسكت عبد الله الجزار على مضض ، ثم راح بدر أفندى يعدد أسماء
قرى تزمع الحكومة أن تبيعنا فيها أرضا جديدة . تكلموا عنها وكأنها
أماكن رهيبة : الطود والزينية ، ودار السلام وجبل السلسلة فتساءل
الرجال :

— وهل يقبلنا الناس .. وعاداتنا ليست مثل عاداتهم ..

وأنشب الشيخ فضل أنامله في التراب .. واشتمه وتركه يتسرب
من بين أنامله وقال :

— والأرض هناك ليست مثل أرضنا ..

فاندفع عبد الله الجزار يسأل :

— ولكن لماذا لا نرحل الى السودان .. المهدي يرحب بنا هناك .

فانبرى الاستاذ يتكلم في حماس :

— مجرد اشاعات .. صحيح ان السودانيين اخوتنا ، صحيح
الأراضي واسعة هناك ولكنها تموت من العطش ، والذين يحكمون هناك
ليسوا الا انجليز حمر الوجوه يكرهون الجميع : المصريين والسودانيين
ويكرهوننا نحن سواء بسواء .. انهم يريدون استغلال نكبتنا لينقلونا
الى السودان .. ثم يدعون على مصر حقوقا ، أنسيتم حادث السردار ؟؟
— لعنة الله عليهم ..

وبصق في اتجاه الجنوب وأضاف :

— لعنة الله عليهم ..

ولم ينته الحديث الا بعد أن نادى بدر أفندى على ابنه كامل الذي
هرول اليه ، فأمره أن يسلم بعض البيانات للضيوف .

وعندما هب رجال نجعنا وقوا يشدون على يده ويودعونه قال
لهم :

— ماذون قريتكم يأتى كل أسبوع هنا .. يمكنكم أن ترسلوا أى شكوى عن طريقه .. واذا وصلنى أى شىء من مصر أرسله اليكم مع الماذون .. وسأوصى بكم عوض أفندى وكيل البريد فى ابريم .. شرفتمونا .

ولا أدري لماذا أصر أحمد عودة على عبور الجبل فى الظلام ، اذ لم نترث الا ساعة .. استأجرنا فيها دابتين ومضينا جميعا نشق طريقنا عبر الجبل حتى حاذينا شبيكة . فتوقف الرجال عند مقامه يقرأون الفاتحة ، ثم أخذت حوافز الدواب تنقر على الأرض الجبلية الصلدة وهى ترتفع على كثيب وتنخفض بنا فى أخاديد ، لا نصادف فى الطريق الا شجيرات الصبار القاتمة ، وآثار أقدام الضباع ، وهياكل عظيمة تبرق فى ضوء القمر .

وتشبثت بظهر خالى فى خوف حين اندفعوا يقصون نواذر صادفتهم فى رحلات مثل هذه مع الذئاب والثعالب والثعابين .. وقبل أن ننحدر فى نهاية الجبل — عند مشارف القرية — قال الشيخ جعفر :

— الخير هو ما تم يا فضل ..

فصاح الشيخ فضل :

— الحمد لله .. الخير فيما اختاره الله .

بينما صمت الجزار صمتا مرييا ثم قال :

— على خيرة الله ..

ولم ينبس البسطاوى ولا برعى بكلمة .. فان أحدا لم يصلح بينهما ، وانحدرت بنا الدواب تخب فى الطريق العام حتى اقتربنا من النجع ، وصرنا عند مشارفه ، وحينذاك ارتفع صوت لورد ينبج وكأنه يرحب بنا ، ومضى يتفرس فينا ثم هدأ حين ميز أشخاصنا ..

ودلفت الى الدهليز وألقيت نظرة على أمى متكورة فى ركنها ، ثم صعدت الى العنجريب . ووجدت جدتى قد أفاقت على صرير الباب .. وهمست فى أذنها : سأدخل المدرسة يا جدتى ، فهكذا قال بدر أفندى . فمدت يدها وتحسست موضع الحصلة وقالت : ان شاء الله .. ثم الآن يا ولدى ، فطبعت قبلة على جبينها .. وارتميت الى جانبها ألوك ذكريات اليوم السعيد .

وتواتر الحديث في النجع عن مصر ، والأندية النوبية فيها
وعن الاشاعات المتعاقبة والتقديرات المجحفة للتعويضات
والتهب احساس الناس بالظلم ، فنفتوه على صفحات طويلة ،
يكتبها المحامى أو مأذون القرية أو يحملها اليهم هذا المأذون أو برعى من
بدر أفندى ، يتلونها على المصاطب وفي الساحات أمام المتاجر ، ثم
يوقعونها ويرسلونها الى المسئولين في القاهرة .

كان برعى يتريث في الساحة - في كل مرة - حتى تتم التلاوة ،
ثم يحملها الى مكتب البريد في ابريم ، حيث يتم تسجيلها وارسالها .

وقد بدا برعى في هذه الأيام .. مزهوا بمهمته الجديدة ، فخورا
بها ، يتعالى علينا نحن صغار النجع ، فلا يجالس الا الكبار ، ولا يحلو
له الا حديثهم ، وان كان لا يفهم منه الا القليل .

تعلم برعى الكثير من كلمات بدر أفندى وارشاداته ، فبدأ يهتم
بالمشكلة عموما .. لا يشوب تفكيره الا القلق الدائب الذى يفترس قلبه
على مصير حبه ، والا التفكير الدائم في شريفة .

اعترض طريقها بعد يومين من عودته من الدر وأهداها عقد الخرز
اللامع ، فتقبلته بسرور ، وتناسست اللطمة التى أوجعتها ، ولكنها رغم
تقبلها هذه الهدية ونسيانها لقسوته لم تعد تراه كثيرا ، فهو في غالب
الأحوال يستقل مركبا شراعيا يحمله هو والمأذون الى الدر ، ويرحل
اليها عبر الجبل ، وقد يلتقى في الدر بصديقه أحمد محمود وبعض
من الشبان أمثاله يفدون من مختلف القرى لنفس الغرض : يحملون
الرسائل والبيانات الى بدر أفندى ومنه .

ما زال برعى صغيرا .. الا أنه فارغ الطول يملأ العين بالثقة .

لا يتكلم الا فى حزم ، فقد تعلم كثيرا من خبرة الحياة بعد أن هجر الكتاب ،
وتنحى عن مشاغباتنا نحن الصغار مع أطفال النجع الآخر .

ورغم كثرة تنقلاته مع المأذون ، فانه ظل يسهر على زراعة أبيه
ويساعد خاله « فضل » الذى ساعد على حالة ساقه ، وبدأ اهتمام البنات
به يشتد حتى أن سعدية كثيرا ما كانت تعترض طريقه ، وتتبادل معه
الدعابة دون حرج ، حتى الكبار من رجال النجع بدؤوا يعاملونه كما
يعامل الكبار ، الا أنهم رغم ذلك كانوا لا يتركونه يتصرف الا وفق
مشيئتهم فانحصرت مهمته فى نقل الرسائل الى الاستاذ بدر أو الى مكتب
البريد فى ابريم .. مجرد مرسال !

وقف مرة أمام مكتب البريد فى ابريم .. يطل من الكوة المفتوحة
فى الجدار ، ويحمل فى يديه عددا وافرا من العرضحالات مضى يتصفحها
ريثما يفرغ له عوض أفندى ، فلاحظ أنها خالية من توقيعات الرجال ..
لقد نسي المأذون ذلك .. ولا بد له أن يعود .

وتردد لحظة ثم سأل عوض أفندى :

— انتظرنى فأعود الى البلد ثم أرجع ؟

فابتسم الرجل فى وجهه وسأله : ولماذا ؟ ألا تريد أن ترسل
هذه الشكاوى ؟!

— أريد إرسالها ، ولكن أسماءهم ليست هنا كما يحدث فى كل
مرة .. هل يمكن إرسالها بدون الأسماء ؟

فهر الرجل رأسه بالنفى وأعاد الاوراق اليه وهو يهمس :

— ولكنها يا ولدى مستعجلة ! ونحن مستغلق المكتب بعد حين
والنجع بعيد .. وغدا الجمعة !

واستند برعى الى الجدار حائرا لا يدري ماذا يفعل .. أيعود به
بعد غد أم ...

وكاد اليأس يديره على عقبه ليعود الى النجع ، لولا صديقه أحمد
محمود الذى ظهر فى هذه اللحظة ، وحياء بحرارة ثم لاحظ حيرته ، فمضى
يتندر بالتبوية المرتسمة على وجهه فازداد وجومه وحيرته حتى سأله
أحمد :

— فيم هذا العبوس يا برعى .. أمات أحد ؟ فهمس برعى كلا ..

لكن الأسماء ليست هنا .. والمكتب سيفلق بعد لحظة ولا أدري ماذا أفعل !

وتمعن صديقه فى الأوراق ثم قال :

— ولماذا لا توقعها انت بدلا منهم ؟

فارتسمت الدهشة على وجهه وهو يسأل وهل هذا ممكن !

وتردد ثم أضاف :

— أنت لا تأخذ المسألة مأخذ الجد يا أحمد !

واتسعت عيناه بالدهشة مرة أخرى حين قال صديقه :

— ممكن وأبوه يا جدع .. ألسن رجلا مثلهم ؟ فيم يتميزون عنك ؟
.. أنت تعرف القراءة والكتابة .. وامضائك خير من بصمات الأصابع

— ولكن الرجال سيثورون ، خصوصا الشيخ أمين ، فهو رجل
موسوس ، والجزار سيظن اننى عملت فيهم ملعوبا .

— كلام فارغ ، وقع ولا تبالي .. المهم أن تصل هذه الشكاوى ..

وتردد برعى لحظة ، ثم تنهى إليه صوت وكيل البريد :

— ماذا قلت ؟ .. أهلا بك يا أحمد .. أوجدتها حلا .. أم أغلق

المكتب وانتهى ؟!

فحزم برعى أمره وتناول الأوراق واستدار بها الى الكوة وركبها
على حافتها ، ومضى يبلل القلم الكوبيا بلعابه ، ووقع على كل واحدة
باسمه فى خط جميل واضح .

وتردد قبل أن يسلمها وسأل : ولكن هل ترضى الحكومة باسم
شباب صغير مثلى ؟

فصرخ فيه أحمد :

— ما زلت تخطر يا برعى ! ومن أدراهم أنك صغير ؟

فسأل برعى من جديد :

— وهل يكفي اسم واحد ..

وذهل حين امتدت يد صديقه تختطف الأوراق منه ، ليوقعها

باسمه فى سرعة غريبة وهو يضحك : اسم واحد .. اسمان ماذا يهـم ؟
طبعا الاسماء الكثيرة افضل .. لكن ماذا أفعل الآن ؟ ..

وقبل أن يسلمها أمال ورقة منها الى ضوء الشمس الغاربة يقرؤها
بسرعة ، ثم رفع رأسه وسأل : من الذى كتب هذه الشكوى ..
فأجاب برعى :

— هذه كتبها الشيخ صابر • نقل فيها جملا من خطبة للنحاس
باشا !

فابتسم أحمد وقال :

— انها شكوى قاسية الكلمات تهاجم صدقى باشا وتتهمه بالخروج
على البريد ، وعلى المسلمين .. عفارم .. هكذا تكتب الشكاوى والا فلا
.. لم يتعود المأذون أن يكتب مثل هذه الشكاوى فكيف واثته هذه
الفصاحة والجرأة على الحكام ؟!

ثم ناولها جميعا لوكيل المكتب ، واستدارا يتحدثان عن بدر أفندى
وشهامته ، وتواضعه رغم أنه أفندى كبير « قد الدنيا » ، ولقد التقيا فى
بيته كثيرا .. أو فى الطريق اليه عبر الجبل .. واجترا ذكرياتهما فى
الدر مع شبان صغار مثلهم التفوا بهم هنالك ، شبان من مختلف القرى:
عبد العال من « الجنينة » ، ميرغنى والحارس من « أرمننا » ، واسحق من
« توماس » .. كلهم كانوا مثلهما يحملون رسائل الرجل الى قراهم •

وانفلت أحمد فى حديث طويل مشحون عن المشكلة التى يعانى
منها النوبيون • كان ينسى نفسه ويتكلم بلغة القاهريين ، ثم باللغة
النوبية حين يستمهله برعى أو يستفسر •

كان أحمد يكبر برعى بعامين • وكان يعى بالقضية كلها ويعرف
حدودها • وصل فى دراسته الى الثالثة الابتدائية فى الدر ثم قطعها
عند وفاة أبيه ، ورحل الى مصر أعواما ثلاثة عاد بعدها الى القرية ، ولم
يبارحها منذ سنتين ، يداوم الاطلاع على الصحيفة التى لا تصل الا فى
الباخرة مرة فى كل أسبوع ، ولا يخلو جيبه من كتاب .. يخطب فى
كل المناسبات ويندد بصدقى ، ولا يخفى ميوله الوفدية ، بينما برعى
يكاد لا يعى شيئا ، لا يكاد يحس شيئا ، غير أن مصيبة ستحل بقريته ،
ان طوفانا مثل طوفان نوح سيبتلع داره ودار شريفة .. أما لماذا
سيحل الطوفان • ومن أين يقبل وكيف ، ولماذا يتمهل رغم كثرة الحديث

فنه .. وماذا يفعل اذا ما حم القضاء ، فليس الا أنوارا غائمة في رأسه ، الا انه كان يدرك أن هذه الشكاوى والعرضيات انما ترسل الى أصحاب هذا الطوفان ، بعد أن يوقع عليها رجال النجع والنجوع الأخرى ، وها هو اليوم قد أناب نفسه عنهم ولربما وضع الله يده في أضعف خلقه ، فاستجاب لشفاعته !

هذه الشكاوى تسترحم حيناً في رقة ثم تشتد وتعنف حيناً آخر كما هو الحال في هذه المرة ، وتتكلم طويلاً عن التعويضات وتطالب بتجنيهاً أربعة للنخلة الواحدة . وتلح في طلب شراء أرض جديدة في أماكن خصبة وعامرة .. أو تستفسر عن البقاع الجديدة التي ينتقلون اليها .. وقد تعترض على بلاد في الصعيد حددتها الحكومة .

وقد سأل برعى صديقه في هذه الأمسية عن هذه البقاع ، واسترعى انتباهه أن رأى صديقه يختلف عن رأى بدر اقتدى ، فلقد همس صديقه كما همس الجزار : خير لنا أن نرحل الى السودان ، فهناك أناس طيبون ، وجوههم مثل وجوهنا .

ورفع برعى رأسه في دهشة وسأل :

— وماذا يهم ذلك ؟

— ماذا يهم .. كيف يا برعى ؟ .. انك لم تسافر بعد الى هناك .. في السودان لن يعيرنا أحد بسواد وجوهنا كما يفعلون في القاهرة . — وماذا يفعلون ؟

— يضحكون علينا في الطرقات .. هناك رجل اسمه علي الكسار ، يسمى نفسه بربرى مصر الوحيد ! والعيال يجرون خلف أكبر كبير هنا وهم يصرخون : البربرى أهو .. البربرى أهو ..

فانطلق برعى يضحك ويقهقه حتى أمال رأسه الى الخلف فقد تذكر كيف طارد هو وبعض صبية النجع رجلاً أحمر الوجه يسمونه عدو الشمس ، وراحوا يرمونه بالحجارة وهم يصرخون الأحمر أهو .. وعجب لأمر الناس يبيحون هنا ما لا يبيحونه هناك فالوجوه السوداء شاذة في القاهرة .. أما هنا فالوجوه الحمراء هي الشاذة غير المألوفة ..

وصمت وهو يتخيل نفسه في شوارع القاهرة والعيال يحيطون به مثل الشياطين ، ويختطفون طربوشه أو عمته ويتصايحون من حوله ، فوجد نفسه يغضب ويكور قبضته ويصرخ : أولاد الكلب .. لو فعلوا

بى ما قلت ، آخلى رقابهم ، أجلدتهم بالسياط كما كنت أفعل بأطفال
نجم السورداب فقط لو تجربأوا ..

وضحك أحمد مليا ، ومن الذى يتركك تفعل ذلك فهناك
البوليس والعساكر .

— العساكر ! وماذا يخيفنى منهم ..

وتذكر العساكر الذين رأهم فى الدر ، يدبون على الطريق ،
ويلهثون من فرط السمنة وكبر السن فسخر منهم ومن صديقه الذى
يحذره منهم ! ترى ماذا يفعل العيال فى القاهرة بجمال ؟

ومر أسبوعان ، ثم رأى برعى نفسه يدب على نفس الطريق لكن
خلف ركوبة خاله الشيخ فضل تتجسه به ومن حوله عدد من رجال
النجم الى مرساة الباخرة فى ابريم ؟ اذ قرر أن يسافر اليوم الى مصر
فى الباخرة العائدة من حلما ليعرض نفسه على الاطباء هناك ، فقد
عاودته آلام شديدة فى ساقه ، لم تجد معها الضمادات ولا التفصيد ولا
التجبير ولا الحمصة التى غرزها فى جلد ساقه لتمتص الدماء الفاسدة
وتأبى كثيرا لا يريد السفر رغم الحاح أبى .. ثم رضى أخيرا وركب دابته
واعتزم الرحيل متحسرا على نجعه ، وودع الناس وفى عينيه سحابة من
الدموع ، وفى ساقه وجسده ألم ممض .. ثم أقلعت الباخرة به ،
وعيون الناس معلقة بها حتى غابت عن الأنظار ..

وامتطى برعى ركوبة خاله عائدا وفى قلبه ألم يعتصر كيانه . حيرة
مستبدة . ترى ماذا يفعل « الحكماء » بساق خاله . الطبيب الله . ليته
استمع الى نصيحتى فلم يرحل . كم كنت أود أن افاتحه فى أمر شريفه
فهو على عكس أبى بشوش . وأين تقع المستشفى النمساوى فى مصر .
وكيف أرسل له الخطابات . هناك تمورجى من أقاربنا يعمل فى هذه
المستشفى كثيرا ما أرسل لنا زجاجات القطرة وبرشام الديك والششم
وأنواعا ناعمة ناصعة البياض من القطن .. سأكتب له .

وهل سيقدر لى أن أسافر الى مصر فى يوم من الايام كما سافر
خالى ، وكما رحل جمال شقيق شريفة . فابتعد عن الأهل والحلان . وعن
النجم كله .. لكم أحب النجم وأهل النجم .

وأرعى اللجام لركوبته ، وأرعى العنان فى نفس الوقت لافكاره ،
فعاش فى دوامتها ، يحترق بنارها . ووجد نفسه يتساءل : وما الذى

يربطنى بالنجع ؟ .. ليس كل شيء فيه جميلا ، ليس كل الناس أحيارا ، ولكنه رغم ذلك حبيب الى القلب . وها هو قد كبر ولم يعد يعبت كما يعبت الاطفال ، وها هم الصغار الذين أسلموه قيادهم من قبل يطيعون أو ش الله اليوم ، وما زال بكر يصيد العصافير ، ولم يعد هو بقامته الطويلة وشاربه الذى بدأ يطل على شفقيه جديرا باللعب مع العيال ، ولا الانطلاق فى طرقات النجع كما كان يفعل منذ زمن غير بعيد ، ولكنه بدلا من ذلك يخالط الكبار ويهز رأسه كما يهزون ، ويلف عليه عمة كبيرة كما يلفون ، ولم يعد فى وسعه أن يدخل أى بيت كما كان يفعل قبل أن يطيل هذا الشارب ويميل صوته الى الحشونة . حتى شريفه لم تعد تستدعيه الى بيتها لاصلاح العنجريب أو السقف منذ أن أفسد لورد الجو بينهما . حتى العقد الحرزى لم يجعلها تدعوه الى كوب شاي ! تناهى اليه انها صدت البسطاوى كما صدته هو ، لكنها فى نفس الوقت / تفتح قلبها له . فما الذى يشده الى هذا النجع وهمومه ويلاوليه التى لا تنتهر ؟ .. كم أنت سعيد هناك يا جال فى مصر .. لكنك فى نفس الوقت ملوم فقد نسيت . ويلي يا جمال . فشريفه هذه التى تناساها هى التى تشده الى النجع بل أن النجع رغم كل همومه حبيب اليه بسببها ..

ولماذا لا يتقدم للزواج منها ؟ أهو عبد الله الجزار الذى يحول بينه وبين بغيته ؟ أم أن شريفة نفسها لا تريده .. أم هو أبوه الذى يعارض رغبته ؟ انه حائر حقا فى أمر هذه البنية ، لعل حسن المصرى يشغل بالها ويداعب أحلامها فهى لا تصده رغم استنكاره هو لدخوله بيتها ؟ والبسطاوى رغم صدودها يغشى بيتها المرة بعد الاخرى . كم هو حائق على أبيه الذى قال فى سورة غضب حين عرف رغبته : ولماذا تتزوج هذه الفتاة البائسة ؟ .. أمها نجسة ركبته الديون يا برعى . فضك من هذا الحديث ولا تذكره مادمت حيا . ثم لمح الى حسن المصرى والى الجزار وقرابته لها . وأراد هو أن يتمرد لكنه سكت على مضض وقد ازداد تصميمه على الظفر بأمنيته .. بشريفة يضمها الى صدره ..

وها هو الرجل الوحيد الذى يشفق عليه ويوافق على زواجه من شريفة حبا واکراما له وفى نفس الوقت مكيدة منه للبسطاوى والجزار قد رحل الى مصر .. فمن له بعد رحيله ؟

وفي اليوم الخامس من رحيل فضل أفاق برعى من نوم القيلولة والشمس تكاد تغيب ونظر في الديوانى ثم قام وغسل وجهه وارتدى جلبابه البوبلين المقلم ذى الكمين الواسعين ، ونفض الغبار عن عمته ولفها حول طاقيته المزركشة ، وأمسك بعصا ذات مقبض نحاسى ، وأغلق الباب خلفه وتحول إلى الطريق يهيم فيها فوصل إلى المتجر وألقى التحية على أبى وإبتاع قرطاسين من السكر والشاى ، ودسهما فى جيبه وانصرف بينما أبى يتأمله ويفكر فى الأمارات الغريبة البادية على الفتى ليغمغم لنفسه والفتى يختفى عن ناظريه : لقد كبر وأصبح رجلا . فيه الكثير من خاله الشيخ فضل - أعاده الله بالسلامة . انضجته مشاويره إلى الدر وإلى مكتب البريد فى إبريم . وتنهد وأردف : ليت حاسدا ينمو كما نما هذا الصبى ..

ومضى الفتى الأسمر يغذ سيره إلى بيت داريا سكينه ، غارقا فى أفكاره إلا أنه توقف فجأة اذ لمح شبحين عند نباتات الحلفا على يمينه ، يلفهما غيش المساء ، شبح رجل ينحنى على فتاة ، يمسك بها من يدها وهى تقاوم فى دلال ، فاقترب منهما فى حذر إلا ان قدمه داست على أعواد هشة ، فشعرا به وانفلتا هاربين ، واختفيا عن ناظريه ، وتركاه ذاهلا يتساءل : ترى من هو .. والآخرى من هى ؟ .. لعله البسطاوى .. ثم أسرع دقات قلبه ترتفع إلى رأسه مثل خنجر حاد يمزقه حين قال لنفسه : ولعلها شريفة - الملعونة بنت الملعونة .. اذن فهذا هو ما ترمى إليه .. العبت مع البسطاوى ؟ ولكن لماذا تظلمها .. أأنت على يقين ؟ .. كلا .. لعل الشبح لغيرها .

وقرر أن يطمئن فساقته قدماه فجأة إلى أرض نباتات الحلفا ، فنخاضها مختصرا الطريق ، واستدار حولها ليلحق بهما وهما يوليان ، فاذا به وجه لوجه أمام البسطاوى . أما الفتاة فقد انعطفت إلى الحراية الملاصقة لبيت داريا سكينه واختفت فى الظلام عن ناظريه .. جن جنونه .. انها اذن شريفة مادامت تندس فى الحراية لتدلف منها إلى البيت .. بنت الكلب .. فلتكن الفضيحة .. ولكن على أن أتأكد .

وهنا تخلى عن مطاردة البسطاوى وهروا إلى بيت سكينه وطرق الباب طرقات عنيفة جعلت داريا تطل من فرجته ويدها ملطختان بالعجين ! تأملت وجهه فى استطلاع ، فدفع الباب ونحاهما عن طريقه وهو يقول : خذى هذين القرطاسين ، ثم اندفع إلى الديوانى وهو ينادى : شريفة .. شريفة ، وداريا تسرع من خلفه مذهولة .

وتوقف فجأة أمام المصطبة الداخلية ، فلقد فوجيء بها راقدة على شفيتها ابتسامة .. اذن فلقد ظلمتها ، ومن أدراك يا مفعل ؟ لعلها تتصنع النوم ، وود رغم ذلك لو انكب عليها يقبلها لكن وجه داريا ، كان يطل عليهما ثم رفعت صوتها تسأل :

— ماذا هناك يا برعى ؟

فالتفت اليها مرتبكا وتلعثم :

— لا شيء .. فقط سمعت انها مريضة فقالت وهي تشهق :

— بعيد الشر .. أنهكت نفسها ونامت هنا منذ العصر ..

فتراجع الى الحلف ، يكبت الرغبة العارمة في صدره ، وقال وفي صوته حشرجة : خالتي .. أريد شريفة .. فقالت : شريفة أختك .

فقال دون وعى :

— لا أريدها أختا !

وأضاف بعد تردد : أريدها مع أمي في البيت !

فقالت وفي صوتها استطلاع : ولكنكما مازلتما صغيرين !

فوجد قامته تشرئب ، وسمع صوته يصرخ : لست صغيرا ! فقالت مستسلمة : أبوك يمانع .. ثم هناك البسطاوى والجزار .. فهما من اقاربنا ولهما الكلمة يا برعى !

فقال على حين غرة : البسطاوى .. اسفخص عليه .

ولاحظ دهشتها وأضاف : البسطاوى يدور ويلف حول كل البنات . رأيت منذ لحظة .. ثم كف عن حديثه ..

واستيقظت شريفة على صوتيهما ولكنها واصلت رقادها تصيخ السمع اليهما ، فأدركت مغزى زيارة برعى وحارت في أمر نفسها : ترى بم تجيب لو سألوها ؟ .. فبرعى من شباب النجع ولن تجد خيرا منه .. لكنه ضربنى ومرت بيدها على الحنك الايسر ، ثم لمست العقد الحرزى حول عنقها فأحست بالراحة للمسه ولكن شيئا ما طفق يلتهب في خدها فهي لا تزال تشم رائحة العرق وعيدان الذرة . والشاربين والتقبضة العنيفة .. تبسا لك يا حسن المصرى فلقد تذكرت نظراته الوالهة الى أمها داريا سكينه يوم زفاف « جميلة » وهي ترقص وتدور في الحلبة كأي فتاة صغيرة ! انه غريب

لا تعرفين أصله ولا فصله • هل ترضين بالزواج منه •• انه حليبي وأبيض ولكن ماذا فى ذلك ؟ ألم يتخذ جمال من بيضاء غازية زوجة له فى مصر ؟ •

ترى ما الذى يمكن أن يقوله جمال لو عرف أن أخته تتلهف على حسن • ؟ كل الناس ظالمون •• حتى جمال ظالم لا يرحم •• ألم ينسنا ؟ ألم ينس أمه ؟ •• وجاءها صوت برعى یرن فى الديوانى : البسطاوى حمار ، فقالت لنفسها : صحيح • لكنه قريبى هو والجزار يا برعى •• لقد وهبنا الجزار قيراطين مالحين • الزرع قد مات •• أكله الملح ولكنه سيصبح فى الموسم المقبل • لهما فى عنقنا جمائل •• لا تصخب هكذا فقد طلب البسطاوى يدى فصددته كما صددتك أنت ، الا انهم مازالوا يلحون • أنا أعرف انه يلاحق سعدية •• كم أتمنى أن يتزوجها فأخلص منه •• فهو ثقیل على القلب •• ثم انعطف بها تفكيرها الى أمها ، ترى ما الذى تفكر فيه داريا ؟ انها توازن لتختار •• البسطاوى فى نظرها أوفق زوج •• فهو ميسور الحال بينما برعى فى نظرها ولد صايع •• انها لا تعرف اننى أمقت البسطاوى !

وتناهى اليها صوت برعى : لماذا يا « داريا » سأكون هنا فى موضع جمال ! ستعيشين معنا •

تناهت اليها هذه الكلمات فأيقنت أن العبوس قد ران على وجه أمها ولربما قالت لنفسها : فى موضع جمال !! ليس هناك انسان يمكن ان تجعله داريا فى قلبها موضع جمال !

وارتفع صوت أمها راعشا يقول :

— ولكننا لابد أن نسأل : « جمال » •• وربما صبرنا قليلا لنرى ماذا يكون وراء البسطاوى ! •

وكفت عن الكلام فقد تجددت الطرقات على الباب وتناهى اليها صوت الجزار ، فأسرعت شريفة تخرج من الباب الخلفى فتبعها برعى ، وهى تمشى بسرعة متجهة الى بيتنا هاربة من الجزار فانشرح صدره وناداهما من خلفها ثم هرول حتى لحق بها وقال :

— شريفة •• أسمعت ؟ أم كنت نائمة طول الوقت ؟ •• لماذا تهربين من الجزار ؟ ••

قالت فى صوت ناعس :

— أنا لا أهرب .. انما أردت زيارة بطله . فهي تريدني ان أكون دائما بجانبها منذ أن رحلت شقيقتها « جميلة » فكرر عليها سؤاله الاول : أسمعت قولي لداريا ؟

فأشاحت بوجهها ثم قالت وهي تقفز فوق حفرة تجمعت فيها مياه متسخة : سمعت ، ولكنني لا أريد ان أتزوج .. ثم أشفقت عليه حين وجدته مقطبا وقالت : ربما أفكر في الامر ! .. ولكن .

فمد يده ليمسك بها الا انها انفلتت منها تجرى الى بيتنا . وأراد أن يلاحقها ، الا انه توقف ذاهلا عن نفسه .. ثم انبعث يسبها ويسب أمها .

وقال لنفسه من شدة الغيظ : سعدية أجمل منها وقريبة المنال . لماذا لا أتزوجها كيذا في شريفة وأمها ؟ . ياسلام .. ربما تفكر في الامر ! كأنك بنت العمدة أو بنت بركات أفندي ، وكأنني عبد حقير ؟! سعدية أجمل . ناهدة، عفريته تلعب بالبيض والحجر . ست بيت . فلأتزوج منها لأرى شريفة تذوى من الغيرة .. وتولول كما تولول الثعالب في الجبال ، حين يشتد بها البرد والجوع ..

وأطرق لحظة ثم قال لنفسه متحسرا : لكن سعدية تحتك بكل الشباب .. حتى حامد الصغير لم ينج منها .. رفعتة الى صدرها وغامت عينها كما قال حامد .. وربما كانت سعدية هي التي كان البسطاوى يميل عليها منذ لحظات .

سعدية الأخرى بنت كلب !

وبخيته ؟! .. انها جارية بنت جارية . لا تلاثمني . أما بطة فقد طلبها ابن عمها حسنين وسرعان ما تتزوجه وتنزع معه الى مصر .. كلا ليس أمامك الا شريفة .. ولكن علام تتكبر هذه الفتاة . سيسبقني اليها البسطاوى ، والجزار يتحدث الآن مع داريا في هذا الامر هنالك حيث تركتهما . والله والله ساكتب لجمال .

وهنا توقف حائرا ، فهو لا يعرف عنوانا له في مصر .. ثم انعطف فكره عند ذكر مصر الى خاله الذي رحل وتمنى لو عاد في هذه اللحظة . وقرر أن ينزل من غد الى غيط خاله ليرويّه فانه لم يرو منذ أيام طويلة وسيهلك الزرع من العطش .

مجرد التفكير في خاله الشيخ فضل أعاد اليه هدوء نفسه فاستكان ،

وألقي بالحجرة الصغيرة التي كانت في يده بعيدا ثم ترك الحراية الملاصقة
لبيت داريا سكينه ، واتجه الى بيت المأذون في نهاية النجع ليسأل عن بدر
أفندى ، فقد مرت أيام طويلة دون أن يعرف شيئا عنه .

انتهى من رى أرض خاله ، ونفض يده من الطين ثم غسلها في المياه
المتبقية في الجدول الكبير . الغريب انه لا يرى أحدا في الحقول ، فالوقت
وقت الظهيرة . . . وقد آووا الى بيوتهم ليتناولوا طعامهم . . .

وظل عينيه بيده ونظر في اتجاه الشاطئ وتساءل : ولكن ما الذي
يجرى هناك عند الفتوة ؟ ومد بصره فرأى رفاصا راسيا تخفيه أشجار
التخيل والائل . . . ولم يستطع أن يعرف متى رسي ولماذا ؟

وقرر أن يعرف كل شيء ، فانطلق بالبقرة الى الحظيرة وأغلق عليها
الباب ، ثم انسل الى الطريق العام ورأى في بدايته الشيخ صابر مأذون
القرية . ومن حوله أربعة عساكر ، وغفيران . فاندفع اليهم يريد أن يسأل
المأذون عن الاخبار ، فانه لم يجده البارحة عند المساء في بيته .

ظل يمشي اليهم دون أن يلاحظ أن أحد الحفيرين ، يلوح له بيده ،
دون أن يلاحظ نظرات المأذون المحدقة ، بل ربما ظن أن المأذون يستدعيه
ليفضى اليه بأخبار الدر وربما حسبه سيستقل الرفاص الراسى على الفتوة
الى الدر مع هؤلاء العساكر الذين يعرف برعى اثنين منهم ، فقد رافقا
بركات أفندى ودخن البانجو معهما ، على مقربة من مصطبة العمدة . . .
فلماذا لا يسلم عليهما :

ودنا واقترب حتى حاذاهما ، فرأى لمحات من الخوف ترتسم على وجه
الحفيرين ، ولكنه لم يبال بل اندفع اليهما . وقال أحدهما شيئا باللغة
النوبية كرره حتى سمعه :

— كتتام ! . دافيمي ! . لا تأت ! . ابتعد ! . كتتام ! .

ولم يدرك برعى أن الرجل يحذره الا في اللحظة الأخيرة ، فاستدار
ليعدو الا أن اثنين من العساكر كانا أسرع منه اذ تقدما منه ، وأمسكا
به من معصمه بشدة ، تفوق قدرته على الافلات وأمرأه أن يتبعهما مع
المأذون الى الرفاص فقال في صوت جاف :

— لماذا ؟ .

— مطلوب في الدر ..

— من الذي يطلبنا ؟

فزَم العساكر شفاهم وهم يدفعون بهما الى الرفاص .. وفي اللحظة الأخيرة وعلى السقالة لمح برعى شريفة تحمل « الكوبيه » النحاسي ، وتنعطف في السكة الزراعية متجهة الى الموردة ، فصاح بها : وو شريفة .. وو شريفة داريا .

فتلفت لتراه بين العساكر ، وتوقفت ذاهلة لا تعي شيئاً وأرخت يدها دون أن تشعر عن الكوبيه ، فتدحرجت على الأرض ترتطم بالحصى ، والحجارة الصغيرة محدثة صوتاً امتزجت به الكلمة الأخيرة :

— خبر كاتيبي .. بلغى الخبر ..

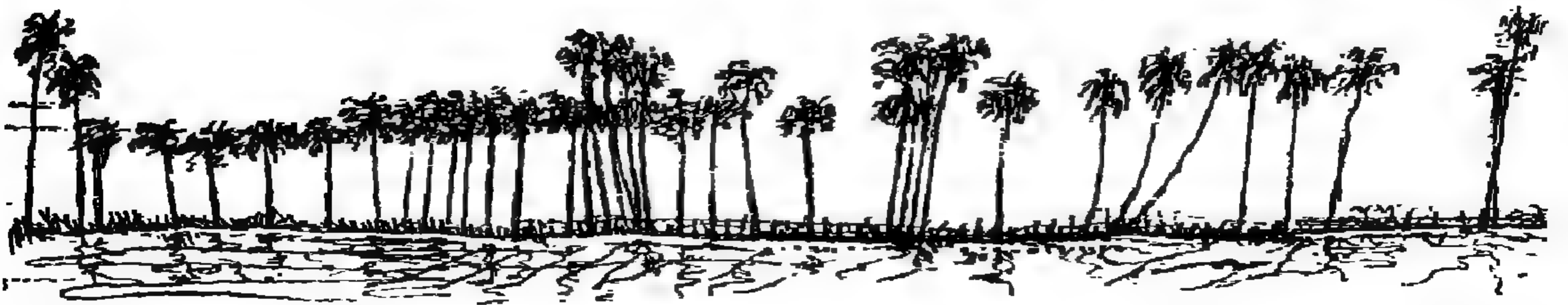
وأدار الرفاص قلاباته فحركت الماء ، وهي تجتاز به النتوء الشرقي وتحفر مجرى مائياً أبيض ينداح وينداح ويرتطم بالشمندورة الحمراء التي مضت تغالب السلسلة الغليظة ، التي تشدها الى القاع .

وقبل أن تنتهي شريفة الى النجع وتروى للناس مآثره بعينها كان الرفاص قد اجتاز القرن الشمالي للجزيرة وانعطف عند المنحنى الشمالي يتجه برأسه الى شاطئ الدر ليرسو .

وما هي الا ساعة حتى كان برعى والمأذون وأحمد محمود وعدد كبير من شباب القرى المختلفة يحشرون في سجن المركز هنالك في الدر . في حجرة وحيدة واسعة ذات باب حديدي غليظ مرتفعة النوافذ معتمة ، ليس فيها عنجريب أو دكة فظل برعى على قدميه ثم رقد على الأسفلت وفي ذهنه دوامة هائلة من الأسئلة :

لماذا جاءوا به ؟ وما الذي يريدونه ، ومتى يعود الى النجع .. ومن هو حسين طه هذا الذي أخذ اسمه يتردد ، بعد أن نطق به المأمور ؟ ..

ومضى يلوك على لسانه : حسين .. حسين .. حتى غمره النوم فتوسد ذراعه في سبات عميق ؟



قبل ذلك بأيام قصيرة ، وفي غرفة صغيرة ، فوق سطوح عمارة كبيرة تطل على شارع البستان وعماد الدين ، تمدد حسين طه على سرير سفرى صغير دون أن يكلف نفسه عناء خلع حذائه البنى اللامع ، ولا بنظفونه الرمادى ، وقميصه الناصع البياض الذى كشف .. من خلال فتحته على الصدر .. عن بشرة سوداء تتشرب بحمرة داكنة .

رقد وقد جحظت عيناه الواسعتان تحدقان فى السقف كأنهما تتأملان حشرات البق الزاحفة بين الأعمدة الخشبية ، تتخذ منها منطقات تقفز منها الى السرير فى مهارة فوق الوصف ، لكن صاحبنا لا يشعر بوخز هذه الحشرات اذ غرق فى أفكاره التى لا يستطيع المرء أن يدرك أغوارها الا اذا تأمل وجهه المدبب الأسمر المشرب بحمرة ، وشفتيه المنفرجتين دائما عن كلمات يهمس بها ، ويديه اللتين ، بين الفينة والأخرى ، .. يرفعهما من تحت رأسه ، ويكورهما ويطوح بهما فى الفضاء كأنما يطارد أشباحا تلوح له أو يهدد انسانا ما ويخيفه ..

انه يبدو وكأنه يعد خطبة نارية يلقيها فى مأتم سياسى بعد اغتيال أحد الباشوات أو كأنه سيطرد الانجليز بكلماته اللافتة !

واذا ما طافت عين المرء بالغرفة لرأى على جدار منها جاكته من نفس لون البنطلون ، وطربوشا طويل القامة بجانب طربوش أخضر . ومن تحت الجاكته - على الحائط نفسه - صفحة عريضة من جريدة « الجهاد » تشير عناوينها العريضة الى مناقشات فى مجلس الشيوخ تتخللها صور للوزراء ، ثم صورة كبيرة لدولة الرئيس ..

ثنى حسين ركبته فجأة ثم تملل فى مرقعة ، ونهض برأسه قليلا ، واتكأ بيده اليمنى على السرير الذى أخذ يئن ، ثم دلدل قدميه وجلس

واجما برهة انتصب واقفا بعدها .. وتراى ، وهو يذرع الغرفة الضيقة ،
شابا طويل القامة عريض المنكبين ، شعره يحاكي حبات الفلفل وعلى
وجهه أمارات قلق واصرار فى نفس الوقت . ثم تحرك لسانه ومضى يهمس :
قلت لهم أن الذى يألونه لن يجدى ، لابد من عمل حاسم .. يتكلمون
عن الدستور كثيرا ، ولا يفعلون شيئا جديا لاستعادته .

وتأمل السقف مليا واسترسل : أما الآخرون هنالك - وراء
الشلال - فإنهم لا يعرفون شيئا غير كتابة الالتماسات الركيكة الى مراحم
دولته .. تبا لهم من بلهاء ! ..

وصمت قليلا وهو يهبط الغرفة ويصعدها ، ثم توقف أمام مرآة
صغيرة يتأمل وجهه . ثم عاود حديثه الخافت المحموم : أما أبى فقد باع
نفسه .. تربى فى أحضان الانجليز فى السودان وعاد الى مصر حين
أحيل الى المعاش ليلعب لعبته ، بينما أهله هالكون بعد حين ..

وعاود تأمل السقف مستغرقا فى تفكيره ، وتذكر الاحاديث التى
دارت بينه وبين بعض الشبان من لونه ، من الذين يكتيون تلك
الالتماسات ، ومن غير لونه من الذين يتجدثون طويلا عن الدستور ..

- قلت لهم لا فائدة فيما تفعلون ..

- ولكن ماذا تريد منا أن نفعل يا حسين ؟!

وتفرس فى وجوههم كأنما يعجب من سؤالهم وصرخ :

- لابد من ضربة مميتة ، لابد من انسان جسور يريح الأمة منه ،
فهمس أحدهم : ولكن هذا يضر بالقضية .. هناك العشرات من أمثاله ..
وتذكر أنه فى هذه اللحظة .. عند هذه الكلمات تلفت حوله ليتأكد أن
الذين حوله شبان مخلصون ليس بينهم جاسوس ، واطمأن فقد كان هناك
عدد من أصدقائه وبعض عمال عنابر السبتية الحائقين على دولة الرئيس
فمضى يقول :

- لابد من انسان جريء .. أين النخوة والشهامة ياناس .. الى متى
نظل راكعين ؟ قلب أسد .. من أكل قلب أسد هو الذى يمكنه ، وكف
فى خجل حين تذكر أنه الوحيد من بين الجميع ، الوحيد الذى أكل قطعة
صغيرة من قلب أسد هنالك فى السودان .. عند بحر الغزال ..

ثم تزايدت تلك الوجوه من مخيلته ، وقد عاود هبوط الغرفة
وصعودها ، وانبعثت بدلا منها صور جلسائه فى النادى النوبى الذى

ينتصب خلف محكمة عابدين ، فى محاذاة كركون عابدين ، وفوق سينما
ايدىال الوطنية وتذكر تفرسه بعينين محمومتين فى وجوه كل الشبان
السمر الذين ظلوا يتكلمون ويمسكون بالقلم يهزونه وكأنه سيف أو
بلطة ! ثم يكتبون الالتماسات الرخوة ، ثم تذكر أيامه فى كلية غوردون
فى الخرطوم ، وكيف رفع العلم المصرى وأنزل العلم الانجليزى فى ١٩٢٤
أيام اللواء الأبيض .. ترى ماذا هم فاعلون بعلى عبد اللطيف .. مازال
يتذكر حديث أبيه عن النوبة المصرية حيث كان مولده ، والباخرة التى
أقلته مطرودا من السودان الى هذه النوبة .. مازال يتذكر خطب سعد
وكلمات بيرم عن فؤاد .. عفارم يابسريم .. أليس فؤاد هذا هو الذى
استدعى الجيش فترك السودان لقمة فى يد الانجليز ؟! لعنة الله عليه ..
وتذكر بدر أفندى ووقاره وكلماته الناهية التى كادت تثبط همته ..
تذكر يوم كان عنده منذ شهور فى الدر .. ثم هز رأسه بشدة ليطرده
صورته فللرجل سحر لا يقاوم ..

وتوقف فجأة أمام الجاكطة وتفرس فى صفحة الجهاد .. ثم انتزع
الجاكطة والطربوش الأحمر القانى وارتداهما على عجل ، وجس جيبه ثم
أوصد الباب من خلفه ومضى يهبط سلم العمارة ، وحيا مكوجيا على يسار
الباب وبقالا على يمينه ، واخترق شارع عماد الدين وانعطف عند ناصيته
الى شارع الساحة ومضى فيه حتى حاذى أرض شريف وانعطف الى اليسار
ومشى فى شارع عبد العزيز والتقى فى الطريق بصديق تبادل معه كلمتين
هامستين .

— آن الأوان ، ستنتظرني بالعربة ..

— بالتأكيد .. بالتأكيد ..

ثم مضى بعد أن شد على يده مسرع الخطى الى سوق هنالك فى أول
الموسكى دخلها فى حذر شديد يتلفت حوله ، ومر على الواجهات حتى وجد
ضالته فدخل ..

ولم يكن فى وسع المرء أن يدرك ما الذى كان يعنيه هذا الفتى الأسمر
حين دس ما اشتراه بين صفوف جاكته وشعر صدره .. كان شيئا لامعا
أخفاه بسرعة بعد أن خطا خطوتين بعيدا عن المتجر ، ثم أسرع الخطى فى
ميدان العتبة من حيث أتى ، وتوقف حتى اشترى جريدة « البلاغ » وعاد
سيره وهو يفر بسرعة صفحاتها الستة عشر ، وتوقفت عيناه عند صفحة
الأدب ، ورجع منها الى الصفحة الرابعة لتستقر عيناه على سطور قرأها

فتأكد من الخبر ، ثم طوى الجريدة وأودعها جيب سترته ، وعاود خطاه على مهل وهو يفكر .. أيذهب الى بيت ذلك الشاب في معروف ؟ زوجته البيضاء رفيقة .. ولكن مالى ومالهذه الزوجة ؟! فان على كاهله رسالة يجب عليه أن يؤديها على الفور ، وهو لا يملك وقتا لمثل هذه الترهات .. أما الزوج فلطيف ، خالى شغل منذ مدة طويلة . أسمر طويل القامة مثله ، ملابسه تكاد تكون مفصلة على قدمه وكسبه .. عال .. ورآه مرة مرة بالقفطان الأبيض يتوسطه الحزام الأحمر ، ورآه مرة في مناسبة أخرى بالبدلة المقصبة أيام عمل سفيرجيا في بيت أحد الوزراء في مصر الجديدة .. نفس البيت الذى التقى فيه بزوجته البيضاء .. ورآه ينفق عن سعة أيام « المكسب » أما اليوم فالأزمة متحكمة في مصيره وفي مصائر مئات بل ألوف من أمثاله الذين أصبحوا لا يفعلون شيئا الا لعب الورق في المقاهي والانتظار الى أن يستدعيهم أحد ليعملوا « ظهورات » في حفلة أحد الباشوات أو في وليمة من ولائم الذئاب كما اعتاد هو أن يصفها .. وقد مد له يد العون فأبى مرات وتقبلها مرات أخرى في تأفف ولن يخيب له اليوم رجاء .. وقد يمنحه هو جنيها كاملا يعوض به قفطانه اليوم مع الحزام .. لا بد إذن من زيارته في غرفته البغدادلى التى يعيش فيها مع زوجته البيضاء في معروف خلف المستشفى النمساوى منذ تركا شبرا هربا من أهل الزوج ، ومر بالنادى - خلف محكمة عابدين - وكاد يدخله الا أنه لعن خاش النادى وقرر ألا يدخله ولو للحظة واحدة حتى لا يزعزعوا إيمانه ..

وهشت البيضاء في وجهه وأعدت فنجانا من القهوة قدمته وهي تبتسم بعينيها الحلوتين فعف عن النظر إليها ، وجس مابين سترته وصدره ثم نشر البلاغ على طاولة ، وأخذ يقرأ في انتظار الزوج بينما هي تروح وتجيء قلب هذا الوعاء أو تسقط ملعقة أو تشعل وابلور الجاز ..

« البلاغ » تتحدث عن الأزمة : فى الصين يأكل الناس بعضهم من الجوع .. رئيس الصين يبكى .. فى أمريكا يرمون فى البحر الدقيق والتفاح والبن .. السلع تبور وتفسد على الأرصفة وفى المتاجر فى كل بلد .. البطالة بالملايين فى أوروبا .. هندرسون يصرح .. الوفد يطالب بدستور ١٩٢٣ ، مكرم يخطب فى جماهير طنطا .. مجلس النواب والشيوخ يناقشان التعويضات .. شفيق باشا لا يجيب .. آخر محاكمات عمال العنابر .. أرامل شهداء العنابر يقدمون شكوى .. أهالى الدر يشكون .. عامل يوزع منشورات .. قبض عليه .. « لا » هى الكلمة الوحيدة التى

يرددها : مصيره السجن ! صبرى باشا يسافر الى موقع الحزان .. مساحات جديدة من الأرض .. البولمان يعد لدولة الرئيس .. الى الثغر .

نم أمعن في قراءة مقال للدكتور طه حسين ، وآخر لعباس العقاد بعنوان : « ان كنت ريحا فقد لاقيت أعصارا » .. ثم خلس الى صفحة الفن ونجوم المسرح ومنيرة المهدي ودولت أبيض .. وبدأ أنه منزعج ، فما باله يقرأ كل هذه الخزعبلات .. وعاود الى صفحة الادب .. العقاد هائل الا أن في أسلوبه شيئا من اسمه .. طه حسين أجمل لولا أنه يعيد ويبدى فيما أعاد وأبدى ، ليته - هو - يكتب مقالا بمشاعره الملتهبة كالتهاب الشمس عند مدار السرطان الذى يمر « بكرسكو » قريته على مبعدة من الدر .. ليته ولكن من يسمح له بنشر مثل هذا المقال .. كلا .. الوقت ليس لكتابة المقالات « أخى ابراهيم طيب » أما أبى .. ليتنى لم أولد لمثل هذا الأب ، فهو يزهو بالبكوية تماما كما يزهو الطاووس بريشه !! ولا أدري ماذا سيكون رد الفعل عنده .. كل الناس سيعجبون بى .. ليتك يا بيضاء تكفين عن هذا الضجيج . ولماذا تأخر زوجك اللكعى . مازال العلم الاخضر الذى رفعه على مبنى كلية غوردون يرفرف فى قلبه وان داسه الانجليز بأقدامهم .. ويرتفع علم آخر هنا ..

وأفاق على الباب يفتح فى غرفة البغدادلى فوق سطوح العمارة ، خلف المستشفى التمساوى فى معروف .. نفس الغرفة التى تضمهما هو والبيضاء ..

وأقبل جمال ، نحى زوجته عن الباب وهو يقول : انك تذكريننى بشريفة وأنت تلحين .. حاضر ياست .. سأجد عملا فى أقرب وقت .. اليك عنى يا شيخه .. أقصرى الشر يازنوبة .. وتراجعت وهى تقول وكأنما كانت ناسية : الله ، الاستاذ هنا يا جمال . ينتظرك منذ ساعة ! فتهلل جمال وأقبل على حسين يحيى وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على وجهه الاسمر الشاب الذى يشبه وجه شريفة لولا بروز عظمتى الوجنة قليلا ؛ بل انه يشبهها تماما لولا طول القامة : شفتاه مثل شفتيها وأسنانه .. الا أنها مصفرة من أثر التدخين .

وخلص من التحية وانفلت اليها يقول . زنوبة .. شاي للأستاذ يازنوبة ؛ ثم جلس الى جانبه على كرسى بثلاثة قوائم والرابعة جريحة مثل ساق لورد .. الا أنه أسند الكرسي من جانبه الجريح الى الحائط واستدار يكرر : شاي للأستاذ .. فقال حسين - ياسيدنا .. متشكر .. الست قامت بالواجب .. شربت قهوة ..

— وماله .. لازم تشرب شاى ..

وحارت زنوبة اذ أنها لا تملك سكرا ، فقد نفضت السكرية فى
فنجان القهوة منذ حين . الا أنها تستطيع أن تستعير قالبين من الجارة غير
أن الاستاذ أراحها باصراره ، فعادت الى الركن الآخر تطرز مفرشا جديدا
تبيعه للسنت الرومية التى تسكن فى نفس العمارة ؛ بينما مضى الشابان
يتهاوسان ربع ساعة قام بعدها جمال وأعد لفة قدمها للاستاذ الذى وضعها
تحت ابطه وخرج ..

وما أن اغلق الباب خلفه حتى انبعث جمال يضحك ويقهقه ويفرك
يدا ييد ، فأقبلت عليه تهمس : ما الخبر يا حبوب ؟! فواصل قهقهاته غير
ملق بالا اليها فانحشرت فيه وهى تهمس ثم تضحك .. شربات والنبي
يا أسمر وانت تضحك .. فزاد من قهقهته حتى مدت يدها ووضعته على
فمه ..

كانت تتصرف وكأنها تملك زمامه تماما ، وحين رغب عن الافضاء
بسره قطبت جبينها الحلو وظهرت الغضب فأذعن وقال :

— تصورى .. الاستاذ ترك فى يدي جنيها .. جنيها كاملا ..

فابتسمت وغمزت وهى تقول : كتر خير .. ابن ناس .. أمك داعية
لك .. فقال فى نفور : أمى .. دعيها وشأنها .. المسكينة لم يصلها منى
خطاب منذ سنين طويلة ..

وأشاح بوجهه واردف : مسكينة داريا .. الديون ركبتهما كما يركبك
الزار .. فصاحت .. بعيد الشر .. أنا لا يركبنى الزار .. الذى يركبنى
هو خلو الشغل والجوع !! .. وأضافت بعد صمت : وما دام حسين أعطاك
جنيها فلماذا تسخر منه ؟ ..

— أبدا .. أنا لا أسخر منه .. أنا أضحك لانه أخذ القفطان الابيض
والحزام ..

فلم تملك نفسها وضحكت هى الاخرى ضحكا متصلا هوت بعده على
الارض وهى تقول : ربما يقيم حفلة تشخيص مثل على الكسار .. ليتنى
أراه بالقفطان فهو دائما شيك .. ليتنى أراه فى زى سفرجى ... اذن
لما اعتبرته أعلى مقاما من زوجى الحبوب جمال ..

— اخرسى .. قطع لسانك يا بنت ..

فلوت بوزها ثم زامت : عدنا الى الغيرة التي لا فائدة منها ، علام
الغيرة وربنا لم يفتح عليك بولد ؟ .. شاب ليس في صلبه أولاد ؟

— أنا ؟ والله انك انت العاقر .. لا تلدين .. مصيبة ..

— أنا .. فشر ..

وكادا يتشابكان الا أن ورقة الجنيه الخضراء على الطاولة استرعت
انتباهها فتلقفتها واستدارت الى جمال وارتمت عليه تقبله قبلة طويلة
امتصت غضبه فاستراح الى صدرها ثم خطا خطوة وأحكم اغلاق باب الغرفة
وأسدل على الشباك ستارة متهرئة بينما هي تمد يدها تزيع عن رأسها
منديلا برتقالي اللون ظل يحتبس شعرها ، فتهدل وارتمت خصلات ناعمة
منه على الوجه فمضت تنفضها بزفرات هامسة بينما مضى هو يطوقها
بذراعيه ، ويميل عليها ليطفئ الزفرات بقبلات دافئة ، نسيا معها الجوع ،
والنكد الذي يطالعهما في كل لحظة ، حين يتذاكران خيبات الامل التي
يلقاها جمال .. وهو يبحث عن العمل .. أى عمل منذ شهور طويلة ..

الساعة الثامنة والنصف في الصباح .. فناء المحطة مزدحم
يملؤه صوت القاطرة بدوى صاخب .. الناس يتدافعون ..
أبواق السيارات ، تنفذ الى الآذان من الميدان خارج المحطة
وتختلط باحتسكك الأقدام على أسفلة الارصفة .. الشيالون يروحون
ويجيئون مقوسى الظهر تحت أحمالهم الثقيلة .. الموظفون يبدلهم الحاكية
يصرخون هنا وهناك .. القطار الراحل الى الاسكندرية يصطف على اهبة
السفر .. وعلى غير العادة هناك عربات فاخرة ملحقة بالقطار يسطح لونها
الفضي ويبرق في ضوء الشمس بينما نفر من ضباط وعساكر البوليس
على رأسهم حكمدار القاهرة يتجهمون في وجوه الناس ، ويضربون حصارا
حول تلك العربات ، وثمة شبان لامعون يتلفتون في كل اتجاه بحركات

٢٧

مفضوحة ويسجلون في مفكرات صغيرة بعض الملاحظات ، الجو مشحون بالقلق والترقب ..

وداخل عربة من عربات البولمان الفاخرة ، عند مؤخرتها وفي الصدارة عدد من الحرس ، مهندمون لامعون يرعب الانسان مجرد لمسهم أو الاقتراب منهم . فوجوهم صارمة وحزينة في نفس الوقت ، يشخصون بأبصارهم في قلق وكأن أشباحا خافية تتلاحق أمامهم .. أشباح تتشنج أناملها على مقابض مسدسات صامئة خرساء وخناجر ومدى قاطعة .

ومن الحرس من كان يفرك عينيه ويوسع من حدقتيهما لتشمل نظرتة محيطا أوسع .

ومن أمام عربات البولمان عربة أكل تبرق كأنها دمية من الفضة ، وقد نهض على شرفتها وداخلها عدد وافر من الخدم والحشم والسفرجية بقفاطينهم البيضاء أو أرديتهم المقصبة بالذهب يزجون فراغهم بالتطلع الى وجوه الناس ويكادون يقفزون كلما رأوا رجلا أسمر يدنو منهم ، فجدير بهم لولا الرسميات أن يتخلوا عن مواضعهم ليحتضنوا أي انسان من بنى جلدتهم .

ومن بينهم شاب جاحظ العينين ، قلق النظرات يحاول أن يهدئ من روعه بتأمل القادين والرائحين في نظرات تعكس ألما باطنيا يعانيه ولهفة لا مزيد عليها .

وجهه الأسمر مسرح لكل أنواع الاضطرابات التي لا تكشفها الا عين خبير ، فانه كثيرا ما يوجه نظراته الى وجوه الآخرين على الرصيف مستغرقا فيهم كل الاستغراق ..

وكان واضحا أنه يتفادى النظر في وجوه أولئك الافندية المهندمين الذين ظلوا يتفرسون في الرصيف ويسجلون شيئا في مفكراتهم ، أما الضباط فقد كانوا لاهين عنه بتأمل اناس من شاكلة أخرى يتوجسون الخوف منهم .

وفجأة أحس الفتى بقلبه ينخلع من صدره ، وعيناه تطوفان في المشهد الجميل الذي كان يتحرك أمامه ، في الشعر الفاحم الناعم المنسدل على المنكبين في استرخاء مريح ، يحيط بهالته البارقة وجها مستديرا كالبدن لسيدة في مقتبل العمر .. كل ما فيها مرسوم بدقة وكأن فنانا تأمل الطبيعة في وجهها وجسدها وأزال عيوبها برتوش من روحه ..

كانت تسرى فى تمهل شديد وزهو بالغ تنعكس من عينيها الزرقاوين
بسمة هادئة ليست خليعة وان فاضت بالانوثة والاعتداد ، والى جانبها
امرأة فى منتصف العمر وأخرى كهلة تسيران فى خطى متمهلة وتحققان
دائما فيها هى ، وبين ذراعى احدهما قطرة جميلة ناعمة الفرو هادئة مثل
سيدتها ، تتفرس بغطرسة فى الغادين والرائحين ، وبدا واضحا أنها
الصديقة المدللة للهانم التى مسحت من عيني الفتى الأسمر كل قلق قطف
يملاً ناظريه منها غائبا عن كل شئ حوله .. ثم أفاق على صوت يهمس ،
ديدى هانم حرم على باشا المهندس وكيل وزارة الاشغال والمشرف على
تعلية الخزان . ست عظيمة ، اشتغلت فى قصرها ، لم تحاسبنا أبدا على
المليم كما تفعل الاخريات .. تنفق فى حفلاتها مئات الجنيهات ولا تبالي ..
فساتينها تصل من باريس .. آمال .. بنت ناس أكابر ..

وصمت الهمس حيناً ثم عاد يقول : أترى تلك القطرة ؟ انها «بوسى» ..
تتكلف فى كل شهر ما يعادل مرتبك ومرتبى لسنة كاملة . دكاترة وحقق
وحمام ساخن وخادم ..

أصغى الفتى الأسمر الى الهمسات الاولى وتاه من جديد فى أحلامه
الترقة الحلوة ، ثم استرد أنفاسه ومضى يعاتب نفسه ، انشغلت بهذا
العرض الزائل عن مشاغلك وهومك . قلت لهم ان أسلوبهم لا يجدى ..
ثم جس ما بين قفطانة الابيض وصدره واطمأن وجال ببصره فى الحرس
والشبان اللامعين على الرصيف .. سيكون للحادث دوى ، ثم يستريح
الشعب . وقد يكف الطوفان ..

وتنبه من تأملاته على هرج صاحب ساد فناء المحطة ثم الرصيف .
فرأى الناس والحمالين والباعة يدفعون دفعا بدباشك البنادق ويحشرون
فى شريط ضيق بعيدا عن العربات الفاخرة المتحفزة للانطلاق ..

وأطل الشاب الأسمر فرآه مقبلا ومن حوله عدد من ذوى الكروش
والثياب الانيقة والياقات المتصلبة حول الرقاب ، وأربطة العنق التى تنغرز
فيها على الصدر أحجار كريمة فى شكل دبابيس بارقة ..

كان يتقدمهم مهيب الطلعة ، ذكى الملامح ، حاد النظرات ، يتلفت
كثيرا هنا وهناك ، باسماء فى ثقة يشوبها حذر فسره الفتى الأسمر
بدكتاتوريته وخوفه من مغبة استبداده بالشعب ومأساة عمال العنابر ،
ومعركة الدستور ومظاهرات الطلبة الصاخبة وبشكوى الجائعين .

وحدق الفتى الأسمر فيه خشية أن يكون قد أخطأه ، وفرك عينيه ليزداد يقينا فاطمان .. فهذا الذى يمشى فى خشوع الى يمينه متأخرا عنه بنصف خطوة هو على باشا المهندس وكيل وزارة الاشغال ، وزوج الفاتنة .. أما الثانى الذى على يساره فهو وزير المالية ، والثالث محمد شفيق باشا وزير الأشغال نفسه ، أما هو فدولة الرئيس : صدقى باشا ، مخ كبير ، واقتصادى كفاء .. لكن خساره الحلو لا يكتمل .. لقد رآه من قبل فى هذا الزى وشاهد رقبتة هذه ، رقبة مليئة ، انه معجب بهذه الرقبة .. أحقا ما يروى أن زوجته تذيب شيشيا على رأسه كل ليلة ؟ مستحيل .. والا فلم كل هذا الاستبداد بالشعب ! ؟ .. انه ولا شك رجل قدير تحتاج اليه مصر لكن .. خسارة .. ليتته يعدل عن سيرته القبيحة .. اذن لأصبح أفضل أداة فى يد الشعب .. فى وجه قصر الدوبارة والسراى .. لكن ذيل الكلب لا يستقيم حتى ولو .. ذيل الكلب .. تعبير جميل .. الغريب أن لهذا الذيل رقبة سميكة ولذيذة فى نفس الوقت .. ومد يده عند هذه اللحظة وتحسس ما بين القفطان والصدر فكاد يجرح يده .

واستقر دولة الباشا فى مقعده وأشار الى أحد الضباط وأصدر اليه أمرا صدع له على الفور .

ثم دق ناقوس صغير وسعلت القاطرة ومضت تنفث دخانا غيم لحظة على سماء المحطة ثم انطلقت أسوار المحطة وأعمدة البرق والأبنية والعربات فى الشارع تعدو فى سرعة جنونية الى الحلف .

وأخذ السفرجية يروحون ويجيئون ، يوازنون خطاهم مع حركات القطار ، ويحملون المرطبات الى الهانم ودولة الرئيس ورفاقه ، ثم يعودون بالأكواب والأواني الفارغة . وقد رسموا على شفاههم ابتسامات لا تفارقها أبدا ماداموا فى الخدمة .. قد تفارقهم وهم بين أطفالهم .. أما الخدمة فلا .. لقد تدرب كل واحد منهم على مهنته حتى أتقنها بعد شقاء ، ومر باختبارات عديدة عرف منها كيف يقدم صحاف الأكل والمرطبات فى رشاقة ، وكيف يهمس بالشكر حين يستقر البقشيش فى يده ، وكيف ينأى بنفسه بعيدا فى اللحظة التى يهم فيها الباشا بالحديث الهامس الى من يصاحبونه وان تعلموا على مر الزمن - كيف يفهمون الكلمات المتناثرة التى تصل الى أسماعهم وكيف يربطون بينها ويدركون مقاصدها .. كانوا يطالعون وجوه السادة فيدركون فى لمحة واحدة أهم غاضبون ناقمون فيبتعدون ؟ أم راضون فيقبلون عليهم بالخدمة الطيبة والطاعة والانحناء المدروس ثم يتشفعون بهم فى ساعات الصفاء .

لكن الباشا فى هذا اليوم متكور الوجه عابس لا يبتسم ، يشرب كوب
الماء المثلج فى لحظة على غير عادته ويقذف به بعيدا فيلتقطونه وبيتعدون
عنه ..

ومن خلف الباشا فى العربة ومن أمامه فى الصدارة مضت العيون
اليقظة تراقب كل حركة وتقفرس فى كل وجه ، وصاحبنا - الفتى الأسمر -
يعد الدقائق والثواني ويحس كل دقيقة تمر أن شجاعته تتسرب منه
وتخونه لتحل محلها رقة انسانية لا لزوم لها فى مثل هذا الموقف : رجل
وانسان مثله .. فيلسوف اقتصادى ورئيس وزارة وزعيم حزب وزوج
وأب تجرى الدماء ساخنة فى عروقه .. خلقه الله وقدر له الحياة ثم يأتى
هو - حسين طه - متسللا ليقوم بفعلته ..

وود فى لحظة لو انه تخلف هنالك على الرصيف .. على نفس
الرصيف الذى مشت عليه الفاتنة .. آه .. أترانى أعيش حتى أراها من
جديد ؟ ! .. ثم اختلطت بصورتها صور أشجار النخيل .. نخلته بالذات
التي افترش ظلها فى كرسكو - قريته - وصور الشواذيف والسواقي ،
فضاغت الملامح الآسرة فى ملامح أخرى متجهة عابسة تذرف الدمع .. تلاشى
وتزایل كل ما هو جميل فى قبضة القدر المحتوم ، ثم تخيل النادى القابع
خلف محكمة عابدين ، واستعاد صورة العلم الذى رقرق يوما ما هنالك فى
السودان ، وتذكر برقية الملك يستدعى فيها الجيش من السودان واستعاد
مناقشات الدستور وعمال السبتية الذين دفنوا أحياء فغلى الدم فى صدره ،
وتدفق فى عروقه فمضى يدق دون وعى منه على صفحة معدنية مدمسوسة
بين قفطانة وصدره .. ثم ألقى نظرة من الشباك على الحقول والأشجار
والدواب المسرعة لتختفى وراء العربة ثم القطار كله : هذه الحقول الواسعة
ترويهامياه يعرف هو منبعها .. رآها وهى ما تزال شابة تتدفق وتنحدر
فوق الصخور فى هدير أبيض .. رآها تتلاطم عند المفرق فى الخرطوم ،
فى المكان الذى يتزاوج فيه النيل الأبيض بالنيل الأزرق الهابط من هضاب
الحبشة موطن أمه ، وهى نفس المياه التى تسيل أمام قريته كرسكو تكاد
لا تروى الا شريحة ضيقة تختنق ما بين الشاطئ والسفح ، وهى نفس
المياه التى يعترض خزان أسوان مجراها فتتراجع بنفَس المياه التى يريدون
لها : زوج هذه الفاتنة ودولة الرئيس ومن خلفهما الاسياد الحمر - أن
تراجع فى طوفان هادر يكتسح كل شئ أمامه .. وغدا حين يتم ذلك
سيتمسح نطاق هذه الحقول وتزدهر وتحبل مثنى وثلاثا فى السنة الواحدة
وتصب الخير فى جيوب هؤلاء الاندال من الباشوات .. بينما الآخرون من

الشعب هنا وهناك يشرفون على الهلاك .. أنا أفهم أهمية الخزان وصرورته ولكننى أفهم أيضا أهمية أن يتم هذا كله فى ظل حكومة دستورية، حكومة من الشعب .. أن يتم وعلى الدست أناس يحسنون تدبير مصائر الناس وخصوصا اذا كان هؤلاء الناس يضحون بكل شىء ، بكل ما يملكون .. يالهم من اندال .. انظر بالله الى وجهه الاحمر الطلى طلاوة وجوه النساء ، يوشك الانسان أن يعتقد بأن شعرة واحدة لم تنبت على خده .. ومد راحة يده اليمنى ومر بها على خده .. ثم همس لنفسه : يالهم من ناعمين هادئى البال .. كلا .. وجه دولة الرئيس لا ينم عن الهدوء ، فالذين فوقه يركبونه ويرهقون بدنه ، والذين تحته يهزون الكرسي فيكاد يמיד به .. أنا واحد من الذين تحته فليعرف من أنا بعد حين قصير ..

ولكن كيف يمكننى أن أترك هذه العربية الملعونة بعد أن ؟ .. ودفعه السؤال الى القاء نظرة من الشباك ، فحذق ببصره وأطال فاذا بالعربات تعبر شبرا البلد ثم تصل قلوب وتجتازها دون أن تلقى بالا اليها .. وها هى تقترب من بنها .. اذن فقد مضت أربعون دقيقة طويلة منذ بدأت الرحلة المشثومة ! يبدو انها رحلة الى جهنم ، وقد آن له أن يستريح من السر الذى يثقل صدره .. ثم أما كان الاوفق لى أن أتفق مع شبان آخرين الى جانب الشاب الوحيد الذى ينتظرنى بعربته عند محطة بنها ؟! غلطة .. لكم أنا ساذج ؟!

السر الذى يحتضنه منذ شهور يكاد يخنقه .. وها هو يكاد يهمس به لهؤلاء الآخرين من ذوى الوجوه السمراء .. أتراهم يخونونه أم سيكتفون بتثبيط همته ؟! آه لو أدركوا ما أنا فيه ، وما أنا اليه ؟ اذن لاشفقوا على ولوسدنى فى صدورهم اذا ما قدر لى ، ولكن صه .. انهم يسمعونك ..

وابتسم الرجل الاسمر الكهل ذو القفطان المقصب بالذهب ، فى وجهه ، وقدم له سيجارة اختفى بها خلف ساتر يتلغ دخانها فى عصبية، ترى لماذا لم يسأله أحد من هؤلاء السمر عن اسمه رغم انه جديد بينهم ؟! لماذا لا يقولون لى .. من أنت .. ربما ظنوا .. ربما ..

هذه محطة بنها تبدو من بعيد ولا بد له من اراحة صدره ، فتحسس ما فوق صدره ، وتحفز واستجمع كل شجاعته ، ولم يعد يذكر شيئا غير الظلام والامواج المتلاطمة التى تحيق بأشجار النخيل - وتصفع الشاطئين فى هدوء قاتل .. لم يعد يتذكر وجه الفاتنة ولا زنوبة .. كل شىء قد

انحصر فى مخلوق واحد هو هذا الباشا الذى يسترخى هنالك فى مقعده
الوثير وفى هؤلاء الضباط الذين يتفرسون فى كل وجه وفى وجوه بعضهم،
وفى رقبة الباشا ..

وجاءت اللحظة الفريدة التى كان يتعجلها ، فقد تراجع كل السفرجية
الى الخلف يسدلون الستائر لاستقبال غبار المحطة المندفعة الى القطار ، ثم
رن نداء : ميه يا ولد . صوت دولة الرئيس ! فتقدم بسرعة وحمل كوب
الماء على صفحة فضية غطاها بمفرش أبيض مطرز الحواشى .. وممر أمام
المرأة الكبيرة ، فرأى وجهه من خلالها كتيبا لا يليق بمواجهة الباشا فوسع
ما بين شذقيه ، وأبرز أنيابه البيضاء .. وتقدم خطوة خطوة ثم نقل
الصفحة من يده اليمنى الى اليسرى .. المهنة وأصولها تقضى أن يقدم كل
شئ باليمنى .. ما من سفرجى فعل ما أقدم عليه ، الا أن يده اليمنى هى
القادرة على انزال الضربة ، فلا بد من اخلائها من الصينية ومن الحمل الذى
لا لزوم له ، فليس من حق هذا الباشا أن يشرب .. كفاه ما شرب فى دنياه
وليرو ظمأه هنالك فى جهنم .. لعنة الله عليه والرحمة لى يارباه .

وغاب كل شئ عن ناظريه ، الا رقبة الباشا حتى حسب انه ما من
أحد غيره فى العربة .. وغير تلك الرقبة ، فأخذ يدنو وهو يحمل الماء فى
يسراه ويمد الاخرى فى حذر الى فتحة قفطانه على الصدر ، ويستقر بها
على مقبض البلطة الصغيرة اللامعة ، وتراءى له الباشا فى هذه اللحظة
غافلا عن كل شئ منهمكا فى تصفح جريدة ، فرنسية أو انجليزية لا يدري ،
مليئة بالارقام ، فتشجع ودنا منه فى خطى متعثرة وعيناه تتقدان بالعزم .

وفجأة ودون أن يدري لماذا .. تذكر الفاتنة فاختلطت صورتها
بصورة الرقبة ولكنه هز رأسه بشدة ليطرد هذه الصورة ثم وجد نفسه
على بعد خطوة واحدة من الباشا فانطلق بيده اليمنى من فتحة القفطان
ودفعها بالبلطة الصغيرة الحادة فوق رأس الباشا المائل الى الامام ..

وتخيل الدم ينبثق من تلك الرقبة تخيله يسيل ، وتخيل أعمدة
الصحف وصورته ، صورة وجه أسمر وشعر مثل حبات الفلفل الى جانب
صورة الباشا ، ثم أهوى بالبلطة فى قسوة ولكن يده شلت فجأة ..
امسكت بها قبضة حديدية هائلة . قبضة تلوى ذراعه بقوة خارقة ، ثم
امتدت قدم وضربت ساقه ضربة قاسية تدحرج بعدها الى الارض وفى اذنيه
رنين البلطة يصلصل حوله .. ثم أحس انه يهوى الى بئر سحيقة الاغوار،
وان كابوسا ثقيلًا ينبخ على صدره ! ولولا هذه الركلات اللعينة والرفسات
فى بطنه واضلاعه لنام !

وحانت منه التفاتة جانبية الى مكان الباشا وهو يتفادى احدى
الركلات فوجده ممتقع الوجه زائغ النظرات ، والعرق يتصبب على جبينه
ورقبته بل ومن ياقة قميصه الحريري ، كان الباشا يرتعش ولا يلفظ بكلمة
واحدة الا ان يده اليسرى كانت تشير اليه هو فى عجب واستنكار فالباشا
لم يتصور فى يوم من الايام أن تأتيه الضربة من واحد مثله ، بوجه اسود ..
لقد توقع الشر دائما الا من الوجوه السوداء ، فانه لم يعتبرهم فى يوم من
الايام اناسا يتناولون للتفكير فى أمور الدنيا وفى الظلم ويفكرون فى
الانتقام .. توقعه دائما من وجوه أخرى بيضاء رسم عليها القدر ماركة
حزبية مسجلة .. كلا .. لا بد أن هذا الشاب الاسود مجنون ! والا فما
الذى دفعه الى هذه الجريمة .

وفى هذه اللحظة وحدها تذكر الشكاوى والعرضحات المكدسة فى
الوزارة مرسله من الدر ، ومن تلك القرى النوبية النائية ، وتذكر انه
لم يقرأها أبدا .. ربما كانت هي السبب

واحس الفتى الاسمر والباشا يشير اليه بخوف شديد ، وبرعشة تدب
فى كل ذرة من جسده .. هناك فقرة من سلسلة الظهر .. فقرة خلف
القلب مباشرة تنبض بعنف كأن مسمارا ضخما قد دق فيها ، وحلقه قد
جف ولسانه لم يعد يتحرك .. لماذا كل هذه الرعشة .. أنا خائف بعد
أن تخيلت نفسى بطلا أم أن الغضب من الفشل هو الذى يشير كل هذه
الشحنات الرعدية فى مفاصلى ؟ كلا فائنى ما أزال بطلا .. انه السجن
المؤبد .. بل انه الاعدام ولكننى لا أبالى ..

واستسلم لحزن مباغت ، وأحس بقبضة باردة تعصر قلبه وتشل
منه وتجمد فروة رأسه .. يالى من أبلة غيبى .. ما الذى اتى بى الى هذه
العربة الملعونة ..

وداسته الاحذية وأدمت الركلات واللكمات وجهه وجبينه .. كليته
كادتا تتمزقان ، فان أحد الضباط مضى يدفع حذاءه المدبب فيهما حاول أن
يصرخ ولكنه لم يسمع صوتا أو صرخة تخرج من حنجرتة فاستكان لمصيره ،
واستسلم للركلات فلا بد لها من نهاية .. كم يسود أن تنتهى كل هذه
المهزلة .. ويا للمصير الذى يحاكى لون التراب .. سأموت وسوف يعيش
الباشا ولن يكف الطوفان رغم ذلك أو ربما كان بدر أفندى على حق ..

وتوقفت العربات عند بنها وشعر ان نبض قلبه قد توقف : وأحس

• بلمس الكليشات البارد حول معصمه وهم يدفعونه دفعا الى رصيف المحطة
ويحيطون به من كل مكان ••

قبطان جمال تمزق ، أما الحزام الاحمر فقد انتزع منه خشية أن
يشنق نفسه به • والطربوش أصبح عجينة متكورة شائهة ••

وعلى الرصيف رأى الفاتنة شاحبة الوجه فبدت فى ناظره بشعة
لا جمال فيها ولا سحر • كانت نظراتها جامدة هالعة وفى نفس الوقت
مزدرية ••

ومر أمامها والعساكر يسوقونه فانكششت الى الخلف كما ينكمش
المرء حين تقع عيناه على ثعبان أو عقربة أو خنفسة حقيرة • فاطرق برأسه
والجنود يدفعونه دفعا ويصفعونه على قفاه : ابن الكلب •• يا بربرى
الكلب •• وديتنا فى دهية ! ومن خلفه كان كل السفرجية ، حتى الرجل
الكهل يساقون مقبوضا عليهم والى جانبهم بعض عمال القطار ••

والناس على الرصيف حشروا فى شريط ضيق مضوا يتطلعون اليهم
كما يتطلع الناس الى موكب غريب يعرض للفرجة ، ويتبعونهم بعيون
متسائلة حتى استقروا والكليشات فى أيديهم فى مكتب الضابط القضائى
فى المحطة ••

واقبل الباشا بعد أن استعاد رباطة جأشه وتفرس فى وجهه ثم لكزه
بطرف خدائه وقال فى نعومة : ولد يا بربرى •• من الذى حرضك

•• -

ورن صوت الباشا من جديد ••

- والله سأعفو عنك •• طيش شباب لا أكثر •• سأعفو عنك ••
لو ساعدتنى ••

ثم سأل فى ذكاء وهو يغمز بعينه ••

- أهو النحاس • دعنا منه •• أهو الجندى مضبوط •• هو بالذات
الذى حرضك ••

وهنا هز الفتى الاسمر رأسه بشدة ، وأجاب فى صوت واثق :

- كلا •• فان أحدا لم يحرضنى ••

- هل انت مصر على هذا يا ولد ؟••

— مغفل .. تريد أن تتستر على المجرمين !

— لا أتستر على أحد .. أنا وحدي المسئول ..

فبصق الباشا في وجهه ، وهب واقفا واتجه الى القطار في نفس اللحظة التي اقبلت فيها قوة كبيرة بقيادة حكمدار بنها اقتادت المتهمين فهكذا أصبحوا يلقيون الى عربة كبيرة حشروا فيها حشرا ومن حولهم سناكى مشرعة تلمع وبنادق ومسدسات تسدد فوهاتها الى صدورهم ..

وأمسست القاهرة لتلمح بطرف خفى ساهر عربة كبيرة تحمل وجوها سوداء تمر بهم على ميدان بوابة الحديد تماما أمام كازينو البسفور ثم تعبر بهم فوهة شارع أبو اصبع لتتوقف بحمولتها عند بوابة سجن الأجانب ..

وألقي بهم جميعا في زنازين ضيقة انفرادية لا يرون ضوء الشمس الا من خلال النوافذ ولا يسمعون من جوف القاهرة الا همهمة العربات وقاطرات المترو وزفير قطارات السكة الحديدية ..

وفي كل يوم كانوا يأتون ويرهقونهم في سين وجيم .. واتخذ حسين طه سياسة الصمت لا يفوه في كل مرة الا بكلمات بسيطة .. كنت وحدي .. لا أحد .. الباكون مظلومون .. ليس فيهم من يعرفني .. تسلمت وحدي الى العربة .. القفطان .. اشتريته بنفسى .. هؤلاء لا يعرفون شيئا .. لم يحرضنى أحد .. أنا بنفسى قررت .. بنفسى نفذت .. أخطأت .. أخطأت حين فشلت ..

وفي احدى الامسيات عاد حسين الى السجن من حيث كانوا يحققون معه ليجد عددا أكبر من الزنازين مشغولة بأناس آخرين وبنفس الوجوه السمراء ومن خلال ثقب المفاتيح تطلع خلصة اليهم فلم يتعرف عليهم .. فقد كانوا اما منكفئين على وجوههم واما مولين وجوههم الى النافذة .. بعضهم كان ببدة والآخرين بجلاليب وعمائم .. ولكن كيف أتوا بهم ومن أين ؟ أهم من رجال النادى النوبى القائم خلف محكمة عابدين أم انهم من الاسكندرية ؟ لا يدري الا الله .. حتى سيد جمال الذى تسلم اليه ؟ لم يقل له شيئا ... وقد وعده أن يتلقى رسائله .. يا له من شجاع . لعنة الله على الفشل ، جر معى وفي ضربة واحدة كثيرين من الأبرياء الى هذا المأزق الذين يعيشون فيه دون ما ذنب ارتكبوه . وعلى عاتقى أنا وحدي تقع مسئولية انقاذهم ليجاهدوا حتى بطريقتهم العقيمة .

وحز في صدره انه قابل أباه في التحقيق في موقف شائن لا يقبله

العقل .. فقد دخل الرجل عليه فهب واقفا ليحييه والكلبشات في يديه
فاذا بالرجل يشيح بوجهه ثم يستدير ويبصق على وجهه ويخرج .. لكنه
توقف عند الباب واستدار اليه والى وكيل النياية والحرس وفتح شفتيه
ليعلن في صوت مرتفع تبرأه منه هو : هذا الولد الجاحد المجرم ! ! ثم
انطلق خارجا لا يلوى على شيء ودون أن يودعه . أتى بجسده الضخم وقد
علق نياشينه على صدره ، لم ينس مدالياته التي حصل عليها في السودان
من الحاكم العام قبل أن يحال الى المعاش ..

هذه النياشين أصبحت جدارا بينه وبين أبيه ، لئنه سرقها حينما
كانا في السودان وقذف بها في النيل عند المقرن .

وبكى وهو يتذكر أباه وكلماته القاسية وترك الدموع تنثال دون
أن يحاول إيقافها ، ثم استلقى على السرير ملصقا ظهره بالملاء البيضاء
ووسد رأسه على راحتيه . ومضى يحلق في السقف ، ثم أحس بظلمة
باطنية غريبة أسدل عليها جفنيه فوجد نفسه يهوى في حب عميق تملؤه
وحوش ضارية تصرخ في وجهه تعلن براءتها منه .. ثم صك أذنيه صوت
غريب يصرخ عاليا في كلمات واضحة ، فأخذ يصيح السمع حتى وجد فيه
صوته هو .. كان يهتف في اصرار ..

— أنا وحدي المسئول .. أنا وحدي أنا .. وحدي .

وضاع صرير الباب في دوى صوته ، ثم أطل عليه السجان وهزه من
كتفه ففتح عينيه وسمعه يقول في صوت أجش : اسكت حتى لا توقظ
الآخرين .

فهب جالسا على سريره يسأل في اصرار : ومن هم الآخرون .

لكن الصوت الأجش كان قد بارح المكان فلم يجد الا الباب الغليظ
والصمت الأسود فارتدى على سريره من جديد ، جاحظ العينين مقطب
الجبين حائرا لا يدري متى سيكون الفجر .





عرفوا سبب اعتقالهم ، وايداعهم في سجن الأجانب . حاول أحدهم اغتيال صدقي باشا، في عربة البولمان وقشل، وربطت الحكومة بين الحادث وبياناتهم وشكاواهم المختلفة ، وبرقيات بدر أفندي الساخنة ، فساقوهم مكبلين بالحديد من الدر ومن أسوان والقاهرة والاسكندرية الى هذا السجن ، بعضهم مازال في « سلاحليك » مركز الدر ، بينما البعض في حجرة مركز أسوان .

وفي زنزانه ، الأولى على يسار الداخل من بداية السجن ، بدا فتانا الأسمر وقد نضا عنه قفطان جمال ، وعاد الى بدلته الرمادية . كان يستيقظ قبيل الصباح ، ويصلى ثم يؤدي بعض التمرينات الرياضية ، ويتناول افطارا خفيفا ، يقوم بعده يذرع الغرفة وهو ينفث دخان سيجارته ، ويتوقف بين الحين والآخر عند الباب الغليظ الموصل يطل من خلال ثقب فيه على الردهات المحدقة بفناء السجن ، فيلمح في بعض الاحيان طرف بدلة أو زر طربوش ، أو عمامة بيضاء ، وقد يلمح لماريا رفيعا مدبيا ، يجتاز أمام الباب بسرعة ، ليوصد بابا آخر خلفه . كم ود لو استوقف واحدا منهم ليصرخ بكلمة تشجعه أو ليتلقى منه همسة تسوق الراحة الى قلبه .

وأبى : ما زال سادرا . . فهل قرر أن يجحدني الى الأبد ؟ تبا له ! فهو لا يعرف معنى للأبوة ! فلماذا انجبني اذن ؟ لأعاني في هذه الحياة القاسية ؟؟

وفي إحدى سرحاته الفكرية تذكر بدر أفندي ، فأطل من ثقب الباب ، فلمح طربوشا يتوقف أمام عينيه لحظة ، فصرخ عاليا : أنا حسين . لم أقل شيئا عنكم ، ماذا قلتم أمام النيابة ؟ ثم توقف عن الصراخ ، فقد تحرك الطربوش بعيدا ، وانزوى وترك نفسه فريسة

• لا فكاره وارثد الى سريريه وارتمى عليه في يأس ، وانثنى يحدق في مصباح
النور وخيوط العنكبوت التى التفت حوله ، ولم يدرك أن بدر أفندى
يقبع فى الزنزانة التى على يساره وأن الأستاذ سليمان عجيب هنالك .
والا لظل ينقر لهما على الحائط كما كان يفعل فى الخرطوم مع رفاقه
فى السجن .

ثم دفعته الذكريات الى الحزان ، ثم الى الشطآن الثعبانية التى
تظللها غابات أشجار النخيل والى ميدان أبو « زقان » فى الدر ، الى
بيت بدر أفندى ، وتذكر حديثهما هنالك على المصطبة فى إحدى
امسيات . فقد ظلا يتحاوران ، هو بحماس فائر ، والرجل بحكمة
لا تخلو من الحماس ، ينهاه وقد رفع سبابته الى وجهه ، عن ارتكاب
انحماقة التى اعتزمها ، وهو مازال يذكر الكلمات التى صرخ بها فى وجه
الرجل :

— منطق عجائز يا أستاذ بدر !

ولم يفضب الرجل ، بل قال له فى هدوء :

— حسين — انت مازلت صغيرا !

وهز رأسه فى عجب وأردف : اذا ما قطع الذنب ، ظلت الأفعى
تنفث سمها يا حسين .

وقاطعه هو فى حماس : لست أنوى قطع الذنب ، بل الرأس .
الرأس . أسمعنى ؟

واجابه الرجل فى هدوء : تخال الذنب رأسا يا حسين . مازلت
بعيدا عن الفهم .. دعك من هذا الحديث الذى لا طائل تحته .

— وأى شئ أهم مما نحن فيه ؟

— هذا البيان . أعد صياغته ، واكتبه بخطك الجميل . واذا
وجدت بيتين من الشعر لحافظ ابراهيم ... خرج البيان قويا . خذ .

وتناول البيان منه ، ومر عليه فى سرعة ، ثم أعاده ويده ترتعش
كأنما لدغته عقربة ، ثم قام لينصرف غاضبا ، وخاف بدر أفندى من
مغبة غضب الشاب فقال كأنما يذكره بشئ : وأبوك ما رأيه فى كل هذا
الامر ؟

فاستدار اليه وقال فى صوت حائق : أبى ! انه رجل الحكومة ولا
رأى له .

تذكر كل ذلك وتسائل : ترى ماذا يقول الرجل عنى وهو جالس على مصطبة هنالك فى الدر ؟ ثم فغرفاه فجأة وقال لنفسه . . . كم أنا ساذج ! لا بد أنه هنا . الطربوش الذى رأيت من ثقب الباب لا بد طربوشه ، وسليمان عجيب ! هل تركوه دون اعتقال ؟ كلا فهو وفدى يؤمن بالنحاس إيمانه بنفسه ، ولكن النحاس بعيد عن الحسك ، ولا طائل تحته الآن . ثم ما للنحاس ولتلك القرى النائية ؟ ماذا يهمه غرقت نى أليم تلك القرى أم اخضرت ؟! يقولون أنه كان قاضيا فى الدر ويروون عنه الأساطير . حكم على نفسه مرة بغرامة . . بالعدل ! ولكنه الآن لا يفعل شيئا غير الخطب ، هو ومكرم . الا أن تقديرات حكومته الأخيرة للتعويضات كانت تبدو مجزية .

ونهض الى الباب واتكأ عليه يفكر فى الذين من حوله فى الزنانات الضيقة . ماذا يقولون عنه ؟ وما الذى أفضو به أمام النيابة ؟ أتراهم قالوا كل شيء هرف به هو فى المنتديات ؟ وفكر لحظة ليقول : كلا لا يمكن . وتخيلهم وهم يواجهون الناس فى الدر ، فى القرى بعد أن يعترفوا عليه ، فعاد يؤكد : كلا لا يمكن !

ثم اختلطت صور الرجال بصور زنوبة وجمال ، ثم صورة الفاتنة التى تفرست فى وجهه بازدراء ، وهى تلاحظ الكلبشات فى معصميه على رصيف بنها - ترى هل يعود فىرى ذلك الوجه ؟ وهل يلتقى بزنوبة يوما ؟ مالك بها ؟ دعها وشأنها فانها لغيرك . ثم خطر له سؤال : ترى لماذا لم يتزوج وقد بلغ الثلاثين ؟ ومضى يستعرض حياته وانتهى الى قرار . خير له أنه مازال أعزب بلا زوجة وأولاد يقللون ويقيدون حركته ! وماذا هم فاعلون به ؟ أيلفون الحبل حول رقبتهم ؟ . . أم يرسلونه الى الليمان فى طره ، تلسعه سياط الشمس وتهرى كتفيه الحجارة ويعشى الجير عينيه ؟ أليس الموت أفضل ؟! لعنة الله على الفشل . وتذكر على عبد اللطيف وما يعانيه فى صبر . . فقال ليتنى فداؤه وتخيل نفسه فى دور بطولى ، يفتدى فيه هذا الزعيم الذى سجنه الانجليز ، فاستسلم لخيالاته حتى هدأت نفسه ، ثم أصاح السمع قليلا ، فقد ظن أن صوتا يعرفه قد تنهى الى سمعه . . صوت بدر أفندى . . . تماما فى الزنانة التى على يساره يطلب ورقة وقلم .

وأسرعت قدمان ، وفتح باب ، ثم أوصد ، وهذا الصوت المرتفع ، وبدا هو ينقر على الحائط الا أن أحدا لم يستجب له !

فقد انهمك الرجل ، يكتب شكوى من سوء المعاملة ويطلب مصحفا

يقراً فيه . وطوى الشكوى ، ثم بدأ يكتب جواباً الى ابنه كامل ، وهو
يهمهم لنفسه كالمجنون .. لقد نفذ وعيده . لكم نهيته . ليت استمع
الى النصيح . خسارة !

وتذكر الرجل نجع النجيلية « فى الدر وأبناءه وصعد زفرة حارة
ثم مضى يملأ على القلم عبارات حارة يضيفها الى الشكوى : قتل فرد جريمة
لا تغتفر ، أما وأد أمة فمسألة فيها نظر !!

وفى الترنزانة الأخرى الملاصقة الى اليسار بدا عجيب شاباً أبنوسى
الوجه فى ملامح فتية ذكية ، وقامة طويلة ، يحدق فى فضاء الترنزانة
ويفكر فى المصيبة التى حلت به وحلت بهم جميعاً ... ففرقلت كل
مشاريعه ومشاريعهم .

ونودى على حسين فتلصص عليه من ثقب الباب وهم يقودونه
للمرة العاشرة الى النياية وعاد الى سريره وغرق فى تأملاته وتذكر أيامه
وهو يعمل مدرسا فى « الدر » ويستذكر دروسه فى القانون ، مجهداً
نفسه حتى نال الليسانس ، ثم تذكر أيام طوافه فى الحملة الانتخابية
هنالك فى القرى النوبية ، ومازال الهتاف له يطن فى أذنيه : الطير
يقول : سليمان عجيب . الطير يقول ... ومازال يتذكر أيامه الأولى
فى مجلس النواب بين زملائه النواب وهم يتفرسون فى وجهه الأبنوسى ،
ويتندرون به ، وتذكر اجاباته اللاذعة الساخرة حتى ألفوه والفهم فى
نهاية الأمر !

وتساءل : أترانى أحقد على حسين ؟ وأجاب بسرعة : كلا ، فليس
الا بطلا ضاقت به الحيل فانتهى الى الفشل . وتغصا لأبيه ! . أهذا
أب ؟! وهرش رأسه متفكراً ، ثم همس .. الولد فى حالة صعبة لابد
من محامين أكفاء يرسلهم الوفد .

ثم مد يده الى حلقه ، اذ أحس بظماً شديداً ، ظماً يكاد يقتله ،
فدفع بالماء فى جوفه دون جدوى ، فان الظماً الذى يعانيه لا يقتله الماء
القراح . لعنة الله على هذا السجن ، وعلى صدقى وعليك يا حسين .
لقد حرمونى من جلستى فى بار اللواء . ثم غامت عيناه ، ومضى يوقع
يقدمه على الاسفلت ، ويغمغم : يا خفافيش أقبل الصبح وشيكا فادبروا
... ثم راح يوقع التفاعيل على أصابعه !

وفى مكان غير بعيد ، وعلى سرير فى إحدى المستشفيات رقد الشيخ
فضل يتأوه وقد حسر عنته عن رأسه ، فان ساقه راحت تنز الما ،
ولعنة الله على الأرض وعلىك يا عبد الله الجزار .. عند نهاية الساق
آلام شديدة يحس بها تصعد الى كل جسمه والى نافوخه .

لقد أفاق منذ لحظة من تأثير البنج ، ولم يكن قد علم بعد أن
الأطباء قد انتهوا من بتر ساقه ، والغريب أنه أحس منذ افاقته بالألم
فى نفس الساق ، أحس بثقلها تحت البطاطين وبخدر مؤلم يسرى فيها
وفى الأصابع ..

وبالأمس زاره أقاربه يحملون الهدايا ، ويواسونه بكلمات طيبة ،
ثم انصرفوا بعد أن منحوه قطعة فضية كثيرة « يمشى حاله » بها فى
المستشفى ! لقد زاره شقيق عبد الله الجزار الذى يعمل بوابا فى عمارة
فى الزمالك ، وقد بعث ظهوره فى مخيلته ذكريات قفزت به عبر المدينة
والحقول الشاسعة والكبارى والجسور والشريط الحديدى الى الشلال
ثم الى النجع نفسه . ما الذى جعله يتذكر زوجته « فضيله » وبرعى ؟
ربما ظهور شقيق الجزار ... وربما هذه الممرضة الرومية هى التى
جعلته يتذكر امرأته فمضى يعقد المقارنات بين النساء فى مصر وفى البلد ،
والغريب أنه فضل نساء قريته على جميع نساء العالم !

وتداعب ذكرياته الى داريا سكينة وشريفة والحاح برعى عليه قبل
أن يرحل ليسعى الى أبيه فيقبل زواجه من الفتاة ... لكن هذا
« العكروت » لم يرسل حتى جوابا واحدا . ترى ما الذى أعاقه ؟ أترأه
ما يزال يجرى خلف شقيقه ؟ أم أنه اشتبك من جديد مع البسطاوى ؟
أننى قلق وحائر . ولكن ما الذى يجعلنى ألومه ؟ فأنا منذ أسبوعين لم
أرسل خطابا واحدا ... لقد ظلت أبحث عن جمال ، حتى حسين
النجار لم أستطع الالتقاء به ليرشدنى الى مكانه ، وها أنا طريح السرير
فى المستشفى .. قالوا : انهما عزلا من شبرا .. الى أين .. ؟

ثم قفزت صورة برعى مرة أخرى الى ذهنه ، فهو يحب الفتى ،
قفزت لأن أحد المرضى سعل فى عنف سعالا يضغط على صدره ، فتذكر
على الفور : دولحظ دولحظ .. ومضى يعنف برعى فى مخيلته : لماذا
نم يرسل ليستفهم عنه ؟ ... أنا نفسى لم أرسل لهم أن الأطباء قد
قررنا ..

ومد يده ... يتحسس ساقه فلم يجدها فامتلا بالتقرز والرعب ،
وتصور نفسه يسعى فى النجع على ساق خشبية ، فاظلمت الدنيا فى

دينيه ، واشتد آينه حتى سعت المعضة اليه تبسم وتهديء من روعه .

ولو أوتى الشيخ فضل بصيرة تجتاز الابعاد لعبرت به مصر كلها وقفزت به فوق التلال ، وافتحت أمام عينيه باب السجن الصغير خلف مركز الدر ، ليرى هناك فتاه منطرحا على الاسفلت بعيدا عن نجعه يجتر أحزانه .

لقد سمع فضل ، وهو طريح ، أن رجلا ... شابا أسمر حاول أن يغتال صدقي باشا ، فانتشى للنبا ، وان عاودته الكتابة للفشل . أما أن يقبض على برعى بسبب هذه المحاولة فأمر لم يكن يمكنه أن يتصوره .

وهنا لك فى الدر ، فى الزنزانة الوحيدة المتصقة بالسحليك جلس برعى فى نفس اللحظة على الأرض معتمدا رأسه بين راحتيه يفكر فى الأحداث التى جرت لهم .

أدرك بعد التحقيقات التى أجريت معه بحضور الشيخ مرسى أن حسين طه حاول قتل رئيس الحكومة ، أن بدر أفندى قد سيق مثله الى السجن فى مصر . وفهم أن اسمه الذى وقع به على البيانات مع أحمد محمود سبب اعتقاله هو واحد وبعض الشباب الذين اعتاد الالتقاء بهم عند بدر أفندى منذ شهور . انهم يسألونه فى المركز هل يعرف حسين طه وهل يعرف دولة الرئيس . أى رئيس هذا الذى يتكلمون عنه ؟ انه لا يعرف الا رجال النجع : العمدة وداريا سكينه وابنتها شريفة وألبسطاوى وبعض هؤلاء الشبان . نعم انه يعرف بدر أفندى ، قالها رغم تحذير المأذون له . ولكن ما شأنه بدولة الرئيس ، انه لم يسمع حتى باسم حسين طه الذى يرددونه فى أسئلتهم !

وتذكر وهو يعتمد رأسه بين راحتيه كم كان جسده يرتعش وهو يجيب على المأمور بكلمات متعثرة مختلطة ، ولا يدري لماذا كانوا يضحكون كلما قال كلمة بالعربية ، عربية حسن المصرى . كان أمام المأمور مثل الأبله تكاد دموعه تخون رجولته ... آه لو رآته شريفة على هذه الصورة ، أذن لا انتهت كل أحلامه ، ومازال يذكر أن المعاون كان يردد بعد كل كلمة يلفظ بها هو : أنت بجم ولا تفهم شيئا ورغم ذلك ،

ورغم أنه لا يفهم شيئاً فقد أبقوه هنا مع أحمد محمود الذى يفهم ، ومع المأذون وصحابه الصغار من مختلف القرى .

ولم يشعر الفتى فى الزنزانة بجوع ولا بظما ، فقد تكفل أهالى أندر برعايتهم ، يحملون اليهم طعامهم ، وبراد الشاي الساخن باللبن فى الصباح وفى الضحى ، وفى الأصيل بعد القيلولة .

وزارهم من النجع أحمد عوده والشيخ أمين ، حتى البسطاوى جاء مرة وقال أن المحامى قد سيق مكبلا بالحديد الى أسوان ، والنجع كله يطالب العمدة بالتدخل عند المأمور للإفراج عنه .

ظلت الصور الغريبة تنثال على مخيلته مشوشة مختلطة ومرعبة ، توهم معها أمورا لم يختبرها أحد فى قريته . جبا يلقون به فيه حيا كما فعل أبناء يعقوب بيوسف الصديق الذى عاش فى السجن سنوات طويلة بعد ذلك !

وهؤلاء الصحاب والمأذون ، يكونون معه فى نفس الجب ؟ أم يدفعون بهم الى قاع النيل أحياء فتنهشهم الأسماك وتتلاعب الدرافيل بأجسادهم ؟!

ومد يده ، وستر بها عينيه حتى لا يرى تلك الصورة البشعة التى تراءت له ، صورة رجال من نجعه يصرخون والأسماك تعض فى أجسادهم ، ثم تهالك على الأرض ، بينما المأذون يروح ويجىء فى تعمة دائمة يرتل من سورة يس يتعلل بها ويبعث الشجاعة فى قلوب الآخرين

ثم أطل من الباب الضيق وجه حموى ، جاء لزيارتهم يحمل لهم أخبار النجع . الشيخ فضل لم يرسل جوابا بعد ، سعديه وبخيته وداريا يسلمن عليكم ، زوجتك سبيله يا شيخ صابر بخير كلنا ، حتى العمدة كل يومين هنا فى المركز ، وقد أكد أنه زاركما ، حامد وأوسن الله وبكر يريدون أن يأتوا معكم .

وتوقع برعى أن يردد الرجل اسم شريفة ، ولكنه لم يفعل ، فعاوده اليأس ، ولم يعد يستمع الى كلمات المأذون ، ولا الى المناقشة التى تدور بينه وبين أحمد محمود عن انطوفان والتعويضات والرحيل عن المنطقة ، فان قلبه كان يغالب حنينا الى النجع والى المتجر وحامد الصغير . وتذكر حسن المصرى . الحلبي طليق وحده هنالك ! خلا الجو له وللبسطاوى ليعبثا كما يريدان فى غيبته . وعند هذه الحاطرة رفع رأسه فجأة الى

المأذون يسأل : أيمن لحسن المصرى أن يتزوج من البسلة ؟ فعلت
الابتسامة وجهه المأذون ساخرا من هذا السؤال الصبياني ، لكنه رأى
الاصرار في وجه برعى فأجاب : كلا الا اذا كانت جارية • ولكن لماذا
تسأل ؟ وتردد برعى لحظة ثم همس : لا شيء ، فقط أردت أن أعرف •
ولكزه أحمد محمود ، وأضاف : أبدا • مستحيل ، فأحمد يعرف حب برعى
لشريفة وغيرته الشديدة ، ولذلك فانه مضى يتندر به بينما انزوى هو
في ركنه ليستمع الى اصطخاب الموج ، ووشوشة أشجار النخيل خلف
السلاحليك ، ثم اختلط بكل ذلك صوت قلابات باخرة وخفقات شراع •
ولا يدري لماذا استقرت مخيلته على صورة شريفة ملقاة على التواء
الشرقي ممزقة الثياب ، تتنفس في صعوبة وهي تغالب الموت • وتساءل
ما الذي بعث بهذه الصورة الى ذهنه ؟ أهى مريضة ؟ ولماذا لم يرد حموى
أن يذكر اسمها ؟

وأغفى ليجد يده في المنام تمتد لتلمس خصلة شعر مرتفعة فوق
رأس شريفة ، مثل ذؤابة الهدهد وفي ليلة زفاف ! •



وعبر الجبل والمنحنى الذي يفصل الدر عن القرية ؛ كان الناس
واجمين ؛ يتساءلون عن مصير الأولاد • زوجة المأذون تكاد تقتل نفسها
من الحزن عليه ، وأم برعى كادت تقذف بنفسها الى النيل ، الا أنها
اكتفت بالدعاء من الله أن يبتلى بالكساح كل الذين تسببوا في المصيبة
التي حلت بولدها ، شالت النيلة والرماد على شعرها ، وراحت تجوس
الدروب من نجح الى آخر لتنتهي الى دار العمدة ، تربض عندها باكية
لحظات ، وتشد شعرها الأشيب ، ثم تهب فجأة لتعود ، حتى أقسم زوجها
ألا تبارح دارها • • والرجل نفسه يعجب كيف تم له أن يعزم ويحلف
بالطلاق • لقد نهض من مجلسه على طرف المصطبة قرب الباب ، نهض
في عزم حين رآها تلطم خديها ، وتهب منطلقة الى الخارج ، فاعترض
طريقها ، وحاولت التملص منه ، لكنه فتح شفثيه في عزم واشرب على
كعبيه ، ومط عروق رقبته وأطلق صوته المتشرخ : على الطلاق ثلاثا لو
خرجت من البيت ! وفغرت هي فاهها ، وهمست : الطلاق ! يا الله ! خمسون
سنة لم يطلقني فيها والآن ، الطلاق ! انه يمزح ، لكنها رأت في عينيه
شرارة الغضب ؛ فدارت على عقبيه مسلحة قيادها له ؛ ترتعش كلما
تذكرت كلمة الطلاق ، بينما أحس الرجل أن الشباب قد تجدد في

فى عروقه ؛ وأن كلمته مازالت العليا فى البيت ، واعتاد منذ ذلك أن يقول لها اذا ما بكى : اخرسى يابنت .. ، فتخرس ، وتمسح دموعها بسرعة قبل أن تسيل على خديها الأجوفين ؛ وتسدل الطرحة على شعرها الأبيض ، ولا تعود الى البكاء الا حين يسارح البيت وهو يتوكأ على عصاه .

وتتألت الأيام بالناس وهم يتوقعون فى كل ساعة أن يرتد المأذون وبرعى والمحامى اليهم ، ثم اعتادوا الانتظار ، وعادوا ينهمكون فى مشاغلهم ، فان عيدان القمح كانت قد نأت بحملها من السنابل ، فعادت الخقول تزدهم بهم من صباحية الله الى مساءه ، ثم يعودون مرهقين يتسألون عن المأذون والمحامى وبرعى فتى النجع الصغير .

ثم تباعدت الايام ، حتى وجد أهل برعى والمأذون أنفسهم مضطرين الى انقراء الناس ليضموا علائهم ، وعرفوا قيمة برعى فى هذه الايام فاقسم أبوه ألا يغفل له اذا ما عاد سالما ، وأن يسلمه كل شئون البيت وأن يتهاون معه الا فى مسألة شريفة . ألم يكسر أقاربها ساق خاله ؟! وكم نحن مشتاقون الى هذا الخال . ماذا فعلت مصر بساقه ، ولجأت فضيلة الى أبى ، فأعارها حسن المصرى يساعدها فى ضم القمح ، ورفضت أن يمد لها البسطاوى يد المساعدة . ألم يكسر ساق زوجها ؟! وعكفت داريا وشريفة على حقلهما الصغير ، وضمتا العيدان المتناثرة . فقد أكل الملح معظم العيدان ، ولم تحصدا الا كيلتين ، ثم مضتا تجهدان نفسيهما عند الناس لتحصلا فى نهاية اليوم على ربع أو نصف كيلة ، وقلباها مازالا ينزان بالآلم . كانتا تستريحان عند الظهر وتتذكران جمالا وتبكيان حظهما المنكود .

ولا يدرى المرء ما الذى ينتاب شريفة بعد أن غاب برعى ؟ أتناسته ؟ أم أنها تذكرته وبكت عليه ؟ . لقد ازداد جمالها فى الشهور الاخيرة ، فاكتمل جسدها واستدار وبرز نهذاها ، وتحولت عن تضفير شعرها فى جدائل تلتصق بفروة رأسها ، وتركت له العنان لينسدل على ظهرها فى ضفيرتين كبيرتين بعد أن اتخذت من شعر البيضاء « أم زين » نموذجا لشعرها .

كانت تبكر فى الصباح ، وتغسل وجهها بقطعة « الصانلايت » الصغيرة التى تخفيها فى السحارة ، ثم تبل شعرها بالشاى من الغلاية ،

وتمشطه فى عناية بالفلاية التى اشتريتها من حسين فييس وتحلى جيدها بالعقد الحرزى - هدية برعى - وتسدل طرحتها ، وتمضى خلف أمها لتكدح طول النهار ثم تعود فى المساء غاضبة عابسة نسيب لا تدريه « داريا سكينه » . فقد تشبب فى صدرها صراع تعرف مأتاه وتجهل المخرج منه ! فهى دائبة التفكير فى ديون الشيخ أمين التى لا تنتهى ، وخيل لها أنها لو تزوجت أراحت أمها ونفسها من عناء كل هذه الديون . وقد يئستا من جمال وحوالاته التى لا تجىء . وفوق ذلك فإن جسدها بدأ يسومها العذاب ، فقد سهرت يوم زفاف جميلة طول الليل تفكر فى كل ما يمكن أن يحدث بين رجل وامرأة . ثم تلك السيدة البيضاء وأحاديثها الشيقة عن الحب فى مصر !

وما زال حسن المصرى يرتاد بيت البيضاء ولا يدخل بيت شريفة الا لما . انه يتحاشاها لأمر لا تدريه ، بينما الشوق يقتلها الى لمسة واحدة مثل التى أفلتت منها بين عيدان الذرة . كانت تتخيلها ، وتشعر بخدر لذيذ يسرى فى كل جسدها ، فيبتهج صدرها فى سداجة ثم تنتبه لنفسها ، وتعض على شفتها السفلى ، وينشط من جديد عقلها المكدود ، وتقرر أن برعى أنسب زوج لها ولكنه فقير غلبان . وربما حملها التفكير الى البسطاوى فتقبله زوجا فى خيالها ، يبسط عليها حمايته ، فأهله موسرون ، وهو من أقاربها ، وما الفرق بينه وبين برعى ؟ الا أنها تحترم برعى لشجاعته ولرجولته . ثم يقفز قلبها الصغير الى القمة ، يصرخ : أنا هنا . ماذا تريدان أن تفعل بى ؟ حسن المصرى هو كل شىء . فتعود الى التشوق لقبضته على فخذها ، فيعاودها الخدر اللذيذ ، فتربك خطاها ، ويختلج جسدها برعشة مفاجئة .

لاحظت ذلك جدتى وهما جالستان حول الرحى ، فهمست لها: قومي يا بنتى ، أعدى لنفسك فنجانا من الشاى . مالك ساهمة حائرة ؟ أتفكرين فى جمال ؟ يحرسك الرب يا ابنتى . جمال سيعود بعد حين ، لا تهلكى نفسك من أجله . قومي يا شريفة فسوف تعود بطة لتساعدنى . قومي أنت .

وقد زاد من آلامها تلك التعاسة التى بدأت تخيم صباحا ومساء على وجه أمها . «داريا» قد تركت شئون البيت على عاتقها ، ولم تعد تذهب الى المتجر ، بل ترسلها هى لتلاقى الشيخ أمين وديونه . أمها لم تعد تنشط فى العمل كما كانت تنشط من قبل ، فسريرا ما تتركه وتجلس لتندب حظها ، وتدعو على جمال ، وقد تنهال عليها هى بالسباب المقذع حتى ودت

المسكينة لو خلصها أحدهم حتى ولو كان البسطاوى ! البسطاوى الذى شدد من تعرضه لها فى كل مكان ، يتودد اليها لا سيما بعد أن غاب برعى عن الميدان .

وكادت تستسلم لولا وقاحتها التى لا تبارى ، فقد أراد الكثير مما لا تستطيع فتاة شريفة أن تمنحه . انه لا يأبه أبدا بالقليل والقال ، ويعتقد أن قراطيس السكر والشاى تمهد طريقه فى أى مكان ومع أية فتاة . البسطاوى قبل ذلك كان يترك حديث الزواج لخاله عبد الله الجزار . أما الآن فانه هو الذى يثرثر عنه ، ويمد يده الى صدرها وهو يقول : ما المانع أن تكونى زوجتى ؟ فتبتعد عنه ، وتختفى من طريقه وهى تلعن وتسب أباه .

وتراكت الهموم على رأسها حتى وصلت الى حالة من اليأس فى أصيل أحد الايام بعد نزاع بينها وبين الشيخ أمين حول ديون أمها، وقررت أن تغرى البسطاوى ليتزوجها بسرعة حتى يريحها من كل شىء ! وطدت العزم على ذلك ، الا أن هذا الامل نفسه انهار تماما فى أصيل اليوم التالى ، حين ساقتها قدماها الى المرور بالقرب من تحويشة عبد الله الجزار .

كانت تمضى الى جانب سور التحويشة الذى يحيط ببستان نخيل يملكها الرجل . ودون أن تدري وجدت نفسها تطل من السور الى الداخل ، فرأت بين أشجار النخيل شبحين يتهامسان : فتاة حاسرة الرأس سقطت طرحتها على منكبيها فى اهمال ، تستند الى جذع نخلة ، وتلقى برأسها الى الخلف ، فينبعج صدرها ، تياهة بشبابها الغض ، وأمامها وعلى مد الذراع منها شاب طويل ينحنى عليها . ثم تقدم هذا الشاب خطوة صغيرة جعلت جسدها محشورا بينه وبين جذع النخلة .

ولم تدر شريفة ما الذى جعلها تتوقف وتستمع الى همساتهما ، فقد ملأ ما سمعته قلبها بالألم والخوف والسأم .

كان الفتى يقول لها : سعدية : هيينى قليلا - فترد الفتاة لاهثة : من أى شىء يا بسطاوى ؟ فيصمت الفتى ، وكأنه يستجمع ارادته ويهمس : من الجنة ياسعدية ! من عجوتك الطرية ! ويكف الفتى عن همسه ، ويقترب منها يكاد يهصرها ، فتهمس : حسبك . . . أطلب الجنة من شريفة ! أنت تجرى وراءها . . . رأيكما بعينى . التهمها كما تلتهم العجوة الطرية . صدرها مثل صدرى ووجنتها . . . بل هى أحلى منى . . . لكنها رغم كلماتها هذه كانت تميز بقدها وتتمسائل مبعدة خصرها ، مدنية ، فى نفس

الوقت ، وجهها من وجهه ، بينما يتقلص وجه البسطاوى ويريد ويتحول الى ذئب مفترس ، فلا تولى هاربة ، ولا تزيد على كلماتها الا بأهة متدلة ، ونلمات أخرى عن شريفة : قلت لك دعنى . امضى الى شريفة . انها تنتظر ك فى البيت ، فى الحاصل أو فى الخرابة الملاصقة لبيتها . أنت غشيم ! شريفة تلعب بك وبرعى وحسن المصرى . ألا تراهما فى بيتها ؟ لماذا لا تذهب اليها ؟ انها أجمل منى ! وكلكم مفتونون بها .

وقال البسطاوى ، وكأنه يستنكر كلماتها : شريفة ! وأين شريفة منك ؟ انت أجمل ألف مرة منها . ومد يده الى صدرها ثم أردف : أنت بيضاء مثل البدر . أما هى . فليست الا جارية سوداء ، هى قريبتى ، ولكنك أجمل منها . أمها نجسة ، لقد طلبت منى أن أستر عورتها ، ووسطت عبد الله الجزار ولكننى رفضت . تعالى ياسعدية . وانهاى عليها فقامت عيناها ، ومدت يديها تحمى ما بين فخذيهما ، بينما هو يمد يده ليعتصر رمانتيها .

وفى هذه اللحظة أفلتت شريفة قبضتها على باب التحويشة ، فوقعت على الارض ، هى والباب ، فانبعث دوى من ارتطامهما ، فتنبها ، وراحت سعدية تعدو ، بينما وقف البسطاوى يتلفت حوله ، ثم أطلق العنان لساقيه خلف سعدية .

ونفضت شريفة الى قدميها ، وأحست بدموعها تنسال على خديها . ابن الكلب . . يقول أنه رفض الزواج منى ؟ . أمى طلبت منه أن يستر عورتى ؟ سعدية أحلى منى ألف مرة ! لست الا جارية سوداء ! آه لو كان جمال هنا ! وأين برعى ليحشو فمه بالثراب ؟ . حسن المصرى وبرعى يعبثان بى !!! بنت الكلب !

وكان فى ظاهر يدها خدش تسيل منه الدماء فأخذت تمتصه بين شفتيها ، وهى تغوص فى دوامة أفكارها : ليت برعى هنا ، وهل رأتنى سعدية ؟ أم انها لم تتبين وجهى ؟ وهل رأتنى البسطاوى ؟

وعادت وهى تشعر بالحمى تسرى فى جسدها ، وقلبيها ينتفض بالغضب وبالحنين الى برعى ، مسكين . . انه محبوس ، ولا أدري متى يعود !؟

واستدارت عند المنعطف لتسجد نفسها وجها لوجه أمام البسطاوى الذى أخذ يتعرض لها ، فأشاحت بوجهها عنه ، ثم لکته فى صدره ، ومضت تعدو ، حتى وجدت نفسها منطرفة على المصطبة الداخلية تجهش بالبكاء .



ومن جديد عادت الشمس الملهبة تجلد ظلال النخيل ، وترهق
الأبدان وتميل بها الى الدعة بعد كدح متصل منذ الصباح •
ومن جديد طوق جيد كل نخلة بعقود حمراء تشوبها نقط
خضراء سرعان ما تحولت الى صفرة باهتة ، ظل لونها يميل الى الاحمرار
حتى جفت العناقيد ، وتيبست الثمار فناعت بحملها ونفضتها الى الارض •
ثم أهلت الفوانيس في السحر تتصيد ما بين أشجار النخيل ، لتعود
خابية النور أمام ضوء الشمس •

واخضرت الجزيرة ، حتى لم تعد تبين الا كباقة خضراء ، ونشرت
وريقات اللوبيا خضرتها الطاغية في كل مكان ، ورسست المراكب السوداء
على المرافئ ، وتسلق عم نوح كل نخلة ، وتجمع الناس تحتها يحتضنون
السباطات المتساقطة ، ومشى الدواب بين الشاطئ والمتاجر ، وانطلقت

المزامير ، ووشوشت الغوايش الزجاجية على المعاصم ، وسرت الطوافي
الزاهية في كرنفال ، ودخل « الحلب » قريتنا من الشمال الى الجنوب ،
وانتقى حسن بفكيهة ذات ليلة ، وشطب صفحات من دفتر الاستاذ
واليومية بالكوبيا ، ونقل سطور الى دفاتر أخرى ، وصرخت المشاجرات
في الحلق ، وبكت داريا سكينه حظها العاثر ، فابنتها لم تعد تميز بين
الحقول وأشجار الحقول ، بينما سعديه تنتقل مثل الفراشة ، والبسطاوى
من خلفها كأنه ذيل جرجارها ! « شريفة طريفة الفراش تشكو داء لا تدري
الأم مصدره ولا نهايته ، فمضت تهلك نفسها بين أشجار النخيل لتعود في
الاصيل تضم الفتاة الى صدرها في حنان بينما تنشج الصغيرة : خلاص
يا أماء .. لا فائدة ترجى منى ، فتقول من بين الدموع : بعيد الشر
يا ابنتى . ما زلت مثل جمار النخل . لا تخافى .. لو أكلت شيئا .
وتدنى ملعقة خشبية ملأتها بالعصيدة من قم الفتاة ، فتنحى بيدها
وتهمس : رأيت فى المنام يا أماء أننى أقضم حزمة من الحلبة الخضراء ،
فتتركها فى يد « بطة » وتسرع وتجرى بين الحقول ، والظلام يغشى النجع ،
وتعود لاهثة لترمى بالحزمة بين يدي فتاتها ، بينما تدخل جارة تهمس :
الحمد لله . مالك يا ابنتى سليمة بعافيتك . باسم الله ما شاء الله !

فتهمس المسكينة وهى تغالب آلامها : الحمد لله يا خالتي فضيلة :
ثم تسيل دموعها على خديها ، فيلصقون لبخة القرطم على جبينها ويقولون :
سخونية .. لا شئ غير سخونية ، تزول باذن الله .

وتتسمع خالتي أمينه بايا الى دقائق قلبها من ظهرها ، وتدير عينيها
لتؤكد لنفسها أن الفتاة فى خطر ، ولكن شريفة لا تعرف ما بها . انها
لا تحس بألم ما فى مكان محدد من جسدها . كل ما تحس به هو أن
شعرها يتساقط على الوسادة وفى يدها ، فتبكي وتشعر بالهزال ، وتحس
أنها مقبلة على الموت ، وتروح أحيانا فى غيبوبة ، ثم تهلوس : سعديه ..
« البسطاوى » .. التحويشة . الجنة .. يالفخنى .. يده كانت قاسية بين
عيدان الذرة .. اشطبها يا أمين وحياة ابنك حامد .. برعى .. أين
برعى ؟ .. مسكين يا جمال ! وتطلق صرخة ثم تفيق لتحقق فى النسوة
المحيطات بها .

وتسألها أم سعديه : مالها سعديه يا ابنتى ؟ فتسكت شريفة ، بينما
سعديه تراقبها بعينين واجفتين من خلف رأس أمها ، وتشير اليها وكأنها
تقول : لم أقل شيئا عنك .. أسترينى حرام عليكى يا شريفة . أنت
تموتين وسوف يحاسبك الله ! غير أن شريفة لم تفهم شيئا ، بل مضت

تحديق في وجه سعدية ، وتتمنى أن تكون هي يدها مرآة لتقارن بين وجه
سعدية ووجهها • وتحديق أم سعدية في وجه ابنتها وتتنهد في حيرة •

وتقترح فضيلة استدعاء جمال ظريفة ليقيم زارا لشريفة ، فتتضرع
هذه اليهن ألا يفعلن • فجمال ظريفة يتطلب نفقات كبيرة ، فيكتفين بتعليق
حجاب على ضفائرها وعنقها ، ثم يلهثن هنا وهناك بحثا عن الوصفات •
وجاءت الست آسيا المولدة ، ومضت تعتني بها كأنها ابنتها غير انها
لم تتماثل للمشقاء •

وفي إحدى الامسيات ، وهن من حولها ، رنت زغرودة هتفت سعدية
بعدها : المأذون وبرعى دخلا النجع منذ لحظات ، ففتحت شريفة عينيها على
هذه الكلمات ، وتآلق بريق غامض فيهما ، وعاودها التفكير فيما رآته
بعينها في تحوشة الجزار وفيما سمعته بأذنيها ، وتمنت لو انتقم لها
برعى قبل أن تموت •



وخرجت القرية كلها الى مفارق الطرق تستقبل المأذون ورفيقه
الصغير • وراحت أم برعى تعدو وتركض حافية وقد انتفش شعرها الابيض
حتى ارتمت في أحضانها والهة تبكي بحرقة ، والفتى يربت على ظهرها ،
ويطلب منها أن تكف عن البكاء ، فهو لم يعد طفلا صغيرا • بينما مضت
زوجة المأذون ترمق زوجها في ذهول ، وتدفع أناملها في جسده تتأكد من
وجوده حيا أمام عينيها •

سارت خلفه تقول : هوى ••• هوى ••• لا تنطق باسمه ولا تشكو
فهى راضية ، لم تشعر بجوع عند غيابه ، فقد تكفل الناس بها ، لكنها
شكت شيئا غريبا لم تكن تحس به أبدا ، شكت طوال غيابه حنينها اليه ،
الى لمساته ومداعباته ، وهاهى تمشي خلفه كما يمشى عبد وراء سيده ،
يلمس ثيابه بيده ، وتتمنى أن يتركه الجميع ليفرغ لها •

ورأى الناس برعى فأيقنوا أن شيئا ما قد تغير فيه ، شيئا ما لا تخطئه
العين وان كانت لا تستطيع أن تسميه ، شيئا مرتسما على ملامحه وحركاته
يرسل ومضات من بين حدقتيه ، فانه اليوم أميل الى الصمت ، وقد تزايد
عنه الوجوم ، وامتلا قلبه بجرأة وثقة في النفس عاد بهما من تلك
الزنازة •

جلسا عند الساحة أمام المتجر ، وأديررت فناجين الشاي ، وأفرغت
كنوس الحديث •• والله سلامات ، كفارة ياشيخ صابر •• كفارة يابرعى،



والسجن للرجال • ماذا فعل - العساكر بكما ؟ أشربتما شايًا هناك أم أنهم تركوكما للصداع ؟

وطفقا يرويان التوارد عن المأمور والمعاون والشاويش عتريس وبعزق أبو رحاب • وقالوا ان المأمور كان يمر عليهم ويحييهم واقفا ، ويسألهم عن أحوالهم ، الا أنه كان يضحك كثيرا مثل المجانين ! وقال صابر ان المأمور قال لبرعى : أنت بجم فضحك برعى وهتف : بل قالها لك يا شيخ • قل الحق ولو على نفسك ! وضحك الناس ، بينما أخذوا يتبادلان النظر ، والناس ترمقهما في اعجاب ، فان ابنين من أبناء النجع قد عادا من رحلة غير مأمونة العواقب ، بعد أن تعاملتا مع الحكام •

ولحنى برعى أندس بين الصفوف ، وصوب نظره الى وكأنه يسأل : أين شريفة ؟ وشعرت بنفور منه ، فانه لم يعد برعى الذى أعرفه منذ الصغر • قد تحول الى شيء آخر لا أستطيع العبث معه كما كنت أفعل منذ عام واحد •• قد شد على يدي كما يفعل الكبار ، ولم تصافح قدمه قدمي • ولم يرسل التوارد التى اعتاد أن يرسلها • أصبح معتدا بنفسه منتشيا ، ولكنه ، رغم ذلك ، بدا قلقا فى مجلسه ، تدور عيناه فى الغبش تستقران على وجه فتاة ، وتعودان الى تكرار نفس السؤال : أين شريفة ؟ وخيل لى أن أرنبة أنفه كانت تتقلص ، وأن البريق الذى فى عينيه ينطفئ ويخبو فى تلك اللحظات • ثم نفذ صبره ، وأدناى منه وكاد أن يوجه السؤال المرتقب هامسا ، لولا أن لاحقه الرجال بالاسئلة عن التعويضات والطوفان وصدقى باشا • انهم كبار ، ولكن فتاهم الصغير قد خالط الحكام ، وتحدث مع الشاويشية العالمين ببواطن أمور الحكام • ولم يشأ هو أن يترك المأذون يتكلم فمضى يشرح : التعويضات ستكون قليلة • لا يا شيخ • الحكومة ليست فقيرة • ولكننا نحن الفقراء وبعيدون هنا • وقال المأذون : والبعيد عن العين بعيد عن القلب ! لا يا أخينا • ربنا معنا • ولكن بدر أفندى سيزيد التعويضات • مسكين بدر أفندى ساقوه مكبلا بالحديد الى مصر ! وهتف المأذون : المهم أن نجد أماكن نستقر فيها بعد الطوفان •• سنعيش هنا • وأشاروا الى السفوح • لا يا ناس ••• أنعيش مع الضباع والذئاب ؟ • بل نستطيع أن نستقر فى «كران نوج» على الضفة الغربية •

ولأول مرة تراءى كران نوج بصحاريه المترامية من حوله كمسكن لهم ، فالطوفان لن يبلغ الصحراء ، والمعيشة هناك أفضل من الرحيل • سوف يستطيعون مشاهدة نخيلهم غارقة تهتز بجريدها الأخضر فوق الماء • كلا • الطود أفضل وكوم امبو • دعونا نشهد بلاد الله والقطرات !

وبرعى حائر فى أمره وأمرهم جميعا ، ويود لو تخلص منهم ليندفع
لا الى بيت أمه بل الى بيت شريفة • وتدور عيناه فى الناس ، ثم يطمئن
حين يرى البسطاوى وحسن المصرى بينهم • وصرخ أحدهم : ليت الخزان
يتهدم ••• لا ياشيخ •• تفرق مصر اذا ماتهدم ؟ • مصر أم الدنيا ، ملح الله
فى أرضه •• وفيها أولياء الله ! ولكن لماذا لا يحولون الماء المتراجع خلف
الخزان الى الصحراء من خلال الخيران ؟ ، أمر الله • هكذا أراد الله ولا راد
لقضائه •

وفى هذه اللحظة لاح المحامى من بعيد يطوح بعصاه ، وينسل بين
أشجار النخيل ، يتجه اليهم بخطى ثابتة ، فتهللوا وهبوا واقفين يستقبلونه
بالأحضان : كفاره •• حمد الله على السلامة • بينما مضى هو يعانق
الآخرين • ثم جلس الى جوارهما يروى ، فى لغة فصيحة ، كيف أفرج عنه
مند يومين فى بندر أسوان ، وكيف استقل رفاصا رسا به عند النتوء
الشرقى •• رفاصا عائدا الى حلغا يقوده « كنزى » يعرفه •

وطفق يروى كيف جعل الحكمдар يرتعش شارباه • كانا يهتزان مثل
ضفيرتى فتاة صغيرة • ومضى يروى الكثير عن المحاكمات التى سيجرونها
لحسين طه وقص لهم قصته كاملة ، قصة محطة بنها ، والبلطة الصغيرة
اللامعة ، وكيف رحلوه من بنها الى مصر • بنها بلدة صغيرة مثل بلدتنا •
كلا • انها بندر كبير ولها حكمدار مثل حكمدار أسوان •

ثم دس يده فى جيبه وأخرج ورقة عريضة أجفل برعى حين رآها •
ومضى يقرأ فى الصمت الذى أحاط به : بيان من النادى النوبى بالقاهرة •
نريد تعويضات مجزية وأرضا ومساكن جديدة • ومضى البيان يعدد
المظالم ، ويطالب بمحاكمة عادلة لحسين طه أبو زيد الذى يتهمونه بمحاولة
اغتيال صدقى باشا •

واستمع الناس الى البيان واجمين ، وهم يتطلعون الى وجه المحامى ،
ولا يلاحظون أن شيئا ما قد تغير فيه ، شيئا لا يستطيعون تحسديده ؛
والبيان يهدر على شفتيه يرسم صورة قاتمة لمصير ديارهم • ستتهدم
الدور ، وتغوص ملايين أشجار النخيل ، وتنبش الامواج جثث موتانا ،
وينتشر البعوض والبلهارسيا والانكلستوما وأمراض العين ، ويعم الوباء ،
وتفسد الاخلاق ، وتكثر الهجرة • خراب وقطران وزفت لا قطران ولا
زفت بعدهما • حياة مهيبة لا تليق حتى بالثعالب • والأرض كلها ستمتلئ
بالدود يسرح فيها • كل شئ سيكون عفنا تزكم رائحته الأنوف •

وانقض السامر في منتصف الليل ، والوجوه صارمة حزينة يزيد
من حيرتها ضوء الفانوس الباهت والشوارب الغليظة التي لم تشذب .
وأوى المأذون وبرعى الى داريهما ، بينما انطلق المحامي الى دار العمدة .

وأبت أم برعى أن تتركه يبارح البيت في الصباح ، وأقسم الاب
أن يمكث الضحى واليوم كله في البيت ، فالناس سيأتون لزيارته : كفارة
يا برعى . سلامات ، والله سلامات . فمكث طول النهار على مضض ،
يشدون على يده ، ويشد على أيديهم ، ثم سمح له أبوه أن يشرب قليلا من
عرقى البلح . فكم كان الرجل ذو التسعين فرحا بابنه ، يأمره أن يحكى
للناس قصته مع المأمور ، فيعيد تلاوتها ، ويزيد عليها في كل مرة من
خياله ، فيقول الرجل مؤنبا : نسيت هذه في المرة السابقة . أعدها .
فيعيد وهو يفكر في الوقت نفسه في اللحظة التي ينتهى فيها أبوه من زهوه
حتى يبارح البيت . فقد كان مهموما بعد أن أسرت اليه أمه أن شريفة
ترقد في الفراش مريضة منذ مدة طويلة ، فراح يعد الثوانى والدقائق .
ثم انتهى به مطاف الحكايات الى القيلولة ، فقام يحاول النوم عبثا ، الى أن
استحالت الشمس في الافق الى لهب أحمر ، الى قرص يلقي ظلال الاشجار
طويلة على الارض ، فارتدى جلبابه « البوبلين » وترك الدار ، واتجه في
خطى ثابتة ومر بشجرة الجميز يطوح بكمه الواسع ، ويهز عصاه ،
ترى كيف حالها ؟ وكيف ستلقاه ؟ أمكفئة على وجهها تبكى أم راقدة على
ظهرها وقد جحظت عيناها ؟ فهكذا رأى المحومين يفعلون . وهل حقا
ركبها الجن كما قالت له أمه . . أم . . ؟

واقترب من البيت ، ورأى داريا سكينه تنقلت وتخرج من الباب
دامعة العينين لا تلقى اليه بالا ، فتركها وأحس بقلبه ينقبض ، وألقى نظرة
متلهفة الى البيت ، فوجد شيئا ما حزينا يخيم عليه مع ظلال المغيب ، فما
من ضحكة بل وجوم ! وأمسك بالباب من ضبته الخشبية ودفعه فصر
صريرا موحشا . نقطة واحدة صغيرة من الشحم كافية لاسكات هذا الباب
عن أنينه . واستمع الى عرق ينبض خلف أذنه اليسرى ، فضغط عليه
بأصابعه ، ثم دخل من الباب الى الدهليز .

ورآهن في نهاية الدهليز ، كومة من الثياب السوداء تبرز منها
أكف معروقة تروح على كومة أخرى تنطرح على « عنجريب » .

وأحس بالكلمات تتكور في حلقه ، وتتراحم ، ولا تريد الفكاك من
بين شفتيه ، الا أنه تمكن في النهاية أن يبتلع ريقه ويهتف : احم . دستور

يا أهل البيت • فتلفتن نحوه بعيون ذاهلة ، وابتسمن لتحيته ، ثم
أطرقن ، فدنا منهن ، ومال على الفتاة : يقول شريفة •• شريفة •

وحملت بعينيها • كانتا واسعتين كبيرتين تبرزان بشكل مخيف في
وجه معروق زال عنه اللحم حتى بان نحيلاً يملأ كف اليد ، وحاولت أن
تنهض بعد أن أرسلت شهقة جافة إلا أنها تراجعت الى الخلف ، وارتمت
على الوسادة من جديد •

— شريفة • مابك يا شريفة ؟

وصمتت قليلاً ثم همست : لا شيء • حمد الله على السلامة • ثم
عادت الى الصمت تبتلع ريقها ، وتتنفس في صعوبة ، ثم أغلقت عينيها •
فتلفت الى الأخريات • فأشرن اليه : سخونية بسيطة ستزول •• لا شيء
غير ذلك •

وود لو انكب عليها يقبلها ، لكنه تراجع الى الخلف يتمم بأدعية
حفظها من المأذون هنالك في الزنزانة بينما أطلق العنان لدموعه ، واستمع
الى صوت فتاته وهي «تجض» من الألم ، فأحس أن الارض تميد به ، فلم
يستطع البقاء لحظات أخرى ، فانطلق الى الباب • وفي الطريق أمسك
بقطعة حجر صغيرة تعثرت فيها قدمه وقذف بها في اتجاه لورد الذي كان
قد أقعى ، ولوى ذيله بين ساقيه الخلفيتين ، ومضى يرفع رأسه الى
السماء ، ويعول عويلاً محزناً انقبض له قلبه ، فطارده حتى ابتعد به عن
بيت شريفة •



وتصوموا أسلاك البرق بين القاهرة والقرية ، وتصعد
البواخر في النيل ، وتهبط بين الشلال وحلفا ، ترسم على
الشاطئ ألوانا شتى بثرياتها ، وتذيب الضوء في أغوار
النيل .



والأيدي تتناقل وريقات صفراء ، برقيات من مصر ، من أناس
عائدين الى الوطن ، ورسائل كتب على أغلفتها : فوق الشلال . حضرة
المحترم . . من أعيان « قته » ثم تحت العنوان بخط مائل رقم عريض
لا أدري لماذا أصررنا دائما على كتابته على كل غلاف فوق خط متعرج ينتهي
بذيل . . . بدوح ١٢٤٨ .

وسألنا أحمد محمود مرة عن بدوح هذا فضحك ثم قال : تعال
نسأل عوض أفندي . . وكنا حينذاك أمام مكتب البوستة نستلم خطابات
أهلنا .

قلنا للرجل : لماذا نكتب بدوح ١٢٤٨ على كل ظرف ؟ فتأملنا قليلا
ثم قال :

— بدوح هذا ياولدى هو اسم الجن الذى يحمل البريد بين البلاد .

وازدادت حيرتى وقلت : لكن البريد يأتى فى الباخرة . فلم يجب
الرجل ، بل تركنا وانحنى على أوراقه ، ومضى يهمهم ، بينما انصرفنا
نحن نحمل رسائل ذويها . . والرسائل كثيرة فى هذه الايام . وهى بشأن
منازعات حول شريحة ضيقة من الأرض يدلى فيها المغتربون بآرائهم
ويفوضون فلانا لفض هذه المنازعات . هكذا كان مجلس العائلة فى مصر
يحكم ، وحكمه لا بد أن ينفذ ، فتتلاقى رعوس أهل الخير فى النجع ،
وتتم المصالحات بقبلة يطبعها رجل على رأس رجل آخر لمجرد أنه أكبر منه
سنا . ثم يعود الوثام ليتجدد النزاع من جديد .

والبرقيات تعلن اما عن وفاة عزيز يقام له مأتم يثرثر الناس فيه
عن الطوفان والأراضي الجديدة ، واما عن قدوم عزيز مقرب .

وفي أصيل كل احد من الاسبوع يترقب الناس في نجعنا أن تصل
الباخرة ، وينتظرون مقدم الشيخ فضل بعد ابلاله من مرضه .

ووصلت البرقية تعلن قيامه من مصر ، فطلبت واجهة بيته من جديد
وفرش الديوان بالرمل الأصفر وأعيدت أطباق الصيني الى موضعها على
الجدران وأخرجت فضيلة ، منذ الظهيرة ، كل هدمها من السحارة ،
وهبطت بها الى الشاطئ ، وركزت على الجرف صخرة صلبة مستديرة ،
ثم وضعت عليها قطع الثياب ، ووقفت عليها تدلكها بقدميها ، أو تفركها
بقطعة حجر أخرى . ونشرت الملابس على غصون الأشجار ، وانتظرت حتى
تجف تراقب الأصيل ، وحل المساء فجمعت غسيلها ثم واجهت النيل تدعو
الله وكأنها تعتقد أنه يسكن في أغوار النيل ، تدعوه أن يصل الزوج
الغائب سالما ، ثم تلتفت حولها ، وتلتقط قطعة من القرميد الأحمر مضت
تحك بها كعبيها ، تصنفرهما في قسوة حتى احمرأ بعد أن زالت كل
الشقوق الجارية فيهما . كل زوجة يمكنها أن تتحمل أية قسوة مادامت
تنتظر زوجها العائد من مصر .

ومر يومان ، اذن بعدهما في الناس أن الباخرة تجتاز المنحنى
الشمالي ، وتكاد تبلغ النتوء الشرقي ، فهرع الناس الى المحطة النيلية في
ابريم ينتظرونها .

داريا أيضا تنتظر ، فقد اعتادت منذ شهور أن تنتظر الباخرة وجمال
رغم أن أحدا لم يعلن لها مقدمه . كانت تقف على الشاطئ تنتظر وفي
عينها دمة حائرة ثم تعود مهيضة الجناح تداوى ابنتها . وألف الناس
محنتها ، فبكوا مثل بكائها ، وحار الناس حيرتها ، وهاهي ترقب الباخرة
بعينين والهتين ، تمنى أن ترى جمالا على ظهرها .

دنت الباخرة ، وتمخطرت على النيل حتى رست عند المرفأ ، ومدت
السقالة ، وفي مقدمتها وقف الشيخ فضل بقامته المديدة ، لم يتغير من
قسماته الا تجاعيد صغيرة أضافت شهورا مضنية قضائها على سرير
المستشفى الى عمره . وخطا خطواته الأولى ونحن نراقبه ثم تعثر ، وكادت
ساقه تنفلت منه الى اليم ، لولا أن تداركه عوض افندي . فردة واحدة
من مداس أحمر أخذت تلمع في احدى قدميه . أما الاخرى فكانت حذوة
حديدية تلمع هي الاخرى ، وتبدأ منها ساق خشبية اعتمد الرجل عليها في

اصرار ، فراحته تدك على خشب السقالة ، وتبعث رنيناً حزيناً في قلوب الجميع ، حتى تزاومت الدموع في العيون .

وبدا الشيخ فضل متجهماً ، تتقلص عضلات وجهه ، رغم محاولاته المتكررة ليرسم بسمة على شفتيه يستقبل بها أرض الوطن .

إذن فهذا هو الشيخ فضل ، رجل النجع ، والذي رحل منذ شهور يساقين ، أحدهما جريئة عاد بدونها وبساق خشبية يشدها إلى فخذه بسيور من جلد وقماش ، يرك عليها فوق السقالة ، ويخاف عليها خوفه على لحمه ودمه .

وانتهى إلى الشاطئ وتوقف لحظة ، واندفعنا إليه نحتضنه ونرمق ساقه الأخرى في نظرات متلصصة خشية أن نجرح أحاسيسه ، ونفسد عليه بهجة العودة من الغربة بسلامة الله .

ولاحظ وجوم الناس ، فأراد كعادته ، أن يبده فابتسم في عيونهم ، وشرع يتندر على نفسه ويوبخ الناس : مالكم حزاني ؟ أمات الناس جميعاً أم اختطف الذئاب عيالكم ؟ يا للتكشيرات ... مثل تكشيرات القروء ! أم أن الطوفان حل بكم دون أن ندري ؟ وصمت وجال في الناس بناظره ثم أردف : أم انكم حزاني من أجلى ؟ وانحنى ، وكشف الجلباب عن ساقه الجديدة ، وأضاف مبتسماً : مالها ، حلوة ورخيصة .. لا تكلف شيئاً . رمضان نجار السواقي يستطيع أن يصنع لكل واحد منكم سيقاناً جميلة مثلها ، قصيرة .. وطويلة .. ومتوسطة - إذا أردتم وبالتفصيل وحسب الطلب ، ثم لاحظ أن الوجوم مازال يرين على الوجوه فأطلق ضحكة وأضاف : ثم هي لا تقبل الجروح ، ولا يسيل منها الدم ، ولا ينبعث منها الوجد ، وإذا كسرت يمكن إصلاحها بمسمار هنا أو هناك ، قلت لكم ان رمضان النجار ...

وانطلق المأذون يهتف : حمد الله على السلامة يارجل . ولا يهتمك يا فضل .. البركة فيك أنت يا مجدد . وأضاف أحمد عودة : إرادة الله ويجب علينا أن نقبلها ، فهتف الرجل في صوت لا يبالي : وماذا في يدنا لو لم نقبلها ؟ فصاح المأذون من جديد : استغفر الله يارجل ، لا يريد الله إلا الخير .. لعل مصيبة أخف من أخرى . من يدري ! أحمد الله يا فضل .

فضحك الرجل وهو يرك على ساقه الجديدة وصاح : الحمد لله على كل حال .. نحمده ونشكره .. تنفعني في خناقة أخرى . وبدأ الناس يضحكون ، فشعر بالرضا بينما تجاسر شاب صغير وهتف : لكن حين

تنام ، عليك يا عم فضل أن تخفيها في الحاصل أو « بيت الأدب » حتى لا تصل اليها فضيلة • وأدرك الرجل ما يعنيه الفتى ، فبادره على الفور قبل أن يضحك الرجال : ولكن قل لي يا ولد ، قل لي من الذى يغطي أمك بالليل ؟ ودوى الشاطيء بالضحك ، بينما تلثم الشاب وأجاب فى نبرة ضاحكة : انه أبى يا فضل ، انك تعرفه •• عريض وطويل يمكنه أن يغطي أى شئ ! فرنت الضحكات من جديد لتغوص فى ثنيات صفيح الباخرة وهدير قلاباتها ، وهى تستدير لتتوسط مجزى النيل ، وتصعد فيه الى الجنوب ، الى حلفا •

ولاحظ الناس أن فضلا يخاف شيئا ما على ساقه كما يخشى الناس على سيقانهم السليمة • اذ راح يخطو بها فى حذر مخافة أن تغوص فى الوحل أو تنغرز فى شق من شقوق الأرض •

واتكأ الرجل على برعى دو الحظ ، حتى أسلمه الى فلوكة عادت به الى الموردة ، فسرى منها ، مع الليل ، الى بيته ، فتحلق به الناس كما تحلقوا باحمد عوده يوم عودته - وسألته داريا سكيئة نفس السؤال : جمال ••• هل رأيت جمالا ؟ وعادت ، والحسرة تأكل قلبها ، لتكذب على شريفة الطريجة على فراش المرض • أبشرى يا شريفة ، الشيخ فضل قابل جمالا •• كلا لم ير زوجته البيضاء ! التقى به فى الطريق ولكنه « خالى شغل » ووعدته خيرا حين يجد عملا •• آه يا بنتى لو عاد جمال • شدى حيلك لتستقبله على قدميك •

والفتاة تعرف أن أمها تكذب ، فتصمت وتذرف دمعة ، وتغوص من جديد فى غيبوبتها ، بينما تدور الاحاديث فى بيت الرجل كما دارت دائما فى العامين الاخيرين حول المصير الذى يتوقعونه • وقال فضل :

- كان معى رجل فى الباخرة ، حزروا ، ولكل واحد منكم سيجارة ماكينه لو عرفتموه !

ومضوا يخمنون فى حماس ، ثم غلب حمارهم ، فسألوه : من هو ؟ فقال بعد ان لمعت بسمته : رجل عظيم •• كبير كبير الدنيا •• قالوا : المستر هيس باشا ! كلا •• أقول لكم انه رجل عظيم تقولون لى عن النصرانى • قالوا : سفرجى باشا الملك ؟ وضحك الناس جميعا فان سفرجى باشا لم يبرح القرية وكان من بين مستقبلى الرجل • وثاروا فى أمر الرجل الذى رافق الشيخ فضل فى سفره ، وقالوا ، وهم يضحكون ، لماذا •• لماذا تتعبنا وتصدع أدمغتنا يا رجل ؟ قل لنا من هو وفضك من هذا الملعوب !

وتبسم الرجل في زهو ، وقال بعد أن تنحنج ، بدر افندي • فلمعت
عيونهم في تطلع بينما استرسل : أطلقوا سراحه بعد أن أثبت براءته
بنفسه ودون محام ! وأعادوه الى وظيفته ، وسوف يتسلم كل فلوسه
من الشهور السابقة •

فحمدوا الله في صوت واحد ، وراحوا يرفعون أكفهم الى السماء ،
ويدعون للرجل ولذريته وذرية ذريته بالسعادة وطول العمر •

وقطع المأذون دعاءهم وسأل : وحسين طه ماذا فعلوا به ؟ أأفرجوا
عنه هو الآخر ؟ وصمت الجميع يترقبون الاجابة في لهفة ، وجاءت الاجابة
مخيبة لكل رجاء : سبع سنين اشغال شاقة !

فصاحوا في حزن : مسكين يا ولداه ! ومضى فضل يروي لهم كيف
ساقوا حسينا الى الليمان مكبلا بالحديد ، وكيف مشى بين صـفـين من
الجنود رافع الرأس ، والجرنالية يصورونه • حلقوا له شعر رأسه حلاقة
زيرو ••• مسكين •

— وهلا تشفع له أبوه ؟

— كلا بل تبرأ منه ، ونشر بذلك اعلانا في الجرائيل •

وانبرى أبي يقول : لعنة الله عليه •• ضناه وفلذة كبده ثم يتخلى
عنه عند الشدة ! وصرخ المحامي في أسي : ما أصنى فؤاده ، ثم أطرق
صامتا ، بينما راحوا يحدجونه بنظراتهم ، فانهم لم يسمعوا منه هذه
الكلمة منذ عاد من حجز أسوان •

ثم عاودوا حديثهم عن التعويضات ، وأجمعوا أن جنيهين للمنخلة
الواحدة تعويض يمكن أن يقبلوه •

ولحنى الشيخ فضل ، وقربنى منه ، وحدثنى عن خالى عثمان ثم
سأل :

— ألم تذهب بعد الى المدرسة ؟

— كلا يا عم فضل •• لم أذهب بعد !

ورمقت أبى بنظرة جانبية ، بينما مضى فضل يسأل : —

— ومازلت تذهب الى الكتاب ؟ وكيف حال الشيخ طه ؟

— نعم • أما الشيخ طه فقد كان مريضا حتى ظن أنه يشرف على

الموت •

وروع الرجل ، الا أن المأذون أضاف : لا تخف فقد تماثل للشفاء ،
وعاد يتربع على مصطبة الكتاب ، وان كان لا يزال يعاني من ضعف الصحة
.. انه الكبير يا فضل عافاه الله .

فصاح فضل : كبير ! أتحسبه عجوزا يا صابر .. لقد حضر وقعة
ال دراويش وهو لا يزال صبيا صغيرا . عافاه الله . لن أستريح الا بعد أن
أزوره . ثم التفت الى من جديد وسأل :

– وكيف حال عيشه جدتك ؟

قلت : انها بخير . كانت هنا ، ولكنها لم تستطع أن تراك يا عم
فضل .

– سلم لي عليها يا ولدي .. قل لها اننى سأتى لأشرب فنجال
القهوة .

فقد كانا صديقين يتبادلان قراءة الفنجال لبعضهما فى ساعات
الأصيل .

والتي قلت انها بخير هى التى ترقد الآن على عنجريب المرض تتأوه
« وتجنس » من الألم وتلمس ركبته اليمنى فى أسى وتحقق فىنا . فى
الأم وفى بطة وفى أنا .. كأنما تشبع ناظرها بنا ثم تهمس :

– لك الحمد يارب .. شكة ابرة ولا شىء غيره ثم لا أستطيع
الحراك ! لك الحمد يا رباه .. حامد .. ذلك ساقى يا حامد .

فأمضى أدلك ساقها وفى عيني دموع . ولا أدرى لماذا اعتبرت نفسى
مستولا عما حدث لها ! انها تموت ولا أدرى كيف أحتمل الحياة بدونها ..
أنا الذى اعتدت منذ الصغر أن أنام الى جانبها فوق عنجريب واحد تشدنى
الى خاصرتها بحبل متين خشية الذئاب ، أنا الذى اتخذت منها أما بعد
أن تباعدت عنى أمى ، وتباعدت عنها . ها أنذا أعرض على شفتى وأنا أدلك
ساقها كلما تأوهمت ، وأتذكر ما تسميه هى شكة الابرة . فلم تكن شكة
ابرة بل مصيبة لا ندرى كيف يمكن للناس أن يتفادوها فى حياتهم .

والشكة كانت بسيطة وسريعة ، ولكن قاتلة . كنا نعود معا فى
أصيل أحد الأيام – بعد عودة الشيخ فضل من بيت شقيقتى جميلة التى
كانت فى شهرها التاسع .

كانت تمسك بيدي وتروى لى حدوتة عن أميرة شكتها ابرة فذامت

سنبن طويلة حتى أيقظها أمير تزوجها ، وتريثت ريثما تنعطف في الطريق
الزراعي وتجتاز حرشا صغيرا تلتف به أشواك العاقول والحسك البرى ،
وفتحت شفتيها ، وهى تستدير نحوى لتكمل قصتها فاذا بهما تطلقان
صرخة داوية تنكفىء الجدة بعدها على الأرض تمسك بركبتها وهى تشير
الى الحرش ، الى شئ اسطوانى طويل لامع بلون الفضة يزحف ملتويا
الى حجر بين الأحرش .

وصرخت أنا فى رعب : يا لله . ثعبان ؟ ماذا جرى يا جدتى ؟
واختفى الثعبان فى مكمته . لقد داست الجدة عليه دون أن تدري ،
فانتقم لنفسه ، قفز الى ركبته ، وغرز فيها أنيابه ، ثم مضى مسرعا
ليختفى فى جحره ، بينما هى تتأوه ، وتشكو من برد يلسع ركبته .
وعدت بها الى البيت فانطرحت على العنجريب تظل عليها أُمى وبطة
والحالة أمينة بايا . . . بعيون والهة .

وقصصت عليهن ، وأنا أبكى ، ما جرى لجدتى ، فأسرعت الحالة
تستدعى رمضان النجار فأقبل مهرولا ، وفى يده موسى حادة فصد بها
ركبة الجدة بعد أن ربط ما فوقها وتحتها بحزامين غليظين ، ثم ألصق
شفتيه بالجروح الصغيرة يمتص منها دما يبصقه على الأرض مع السم
الناقع ، ثم انصرف بعد أن أمرنا بأن نسقيها محلول السكر والليمون .

لكن جدتى لم تستعد صحتها أبدا . بل مضت تذبل حتى غار
خداها ، وجحظت عيناها ، واحمرتا ، بل راحت يداها وساقاها تتراخيان
حتى أنها لم تستطع أن تحركها .

وزارها فضل ، وجاءت جميلة ، رغم آلام الحمل ، تسهر على رأس
الجدة التى راحت تتكلم عن الدنيا الغرورة ومتاعها الزائل ، وتنصح
الشقيقتين نصيح راحل لن يعود .

وأمرتني مرة أن أستدعى لها الشيخ طه ، فعدت به وهو يرسل
سعالا حادا . . . ويبصق . . . ويداه ترتعشان من اثار المرض الذى ألم به .
انحنى الرجل عليها يلمس جبهتها بيده الراحشة يحاول أن يهون
عليها الأمر ويعشماها فى رحمة الله الواسعة .

وصبرت حتى خلص من دعائه ثم قالت : ياطه . . . لى رجاء عندك
- قولى يا عيشة ونحن طوع أمرك .

فطفت بعينيها في وجهه ، وفي وجوهنا ، ثم قالت بعد آهة
أطلقتها :

— اقرأ سورة ياسين على قبري يوم أموت •

فارتبك الرجل وقال : بعد عمر طويل • قالت : زارتني روح أمي
ومضت تقبلني وتستدعيني الى زيارتها في بيتها الجديد ، فعرفت ان الاجل
قد دنا ، ولا فائدة ترجى من الدنيا •• عليك يا طه أن ترعى حامدا ،
وأن تمن على هؤلاء ، وأشارت الى الشقيقتين والأم وأضافت : ببركتك •

وتنحنج الرجل نحنحة باكية راعشة وهمس : أنهم أولادي ، لكن
لا تقولي كل ما تقولينه • بل أنا الذي أتمنى أن تروى أنت الصبار على
قبري حين أموت • لقد كبرت ولم تعد ساقاي تحتملان جسدي •

وأرسل سعالا حادا ملاً بالرذاذ وجوهنا ، ثم دعا لجدتي بطول العمر
وانصرف بعد أن لمس جبينها البارد بيده •

ومر شهر ، ثم مات الرجل ، فبكاه النجع ، وخرجت القرية كلها
تشيع جنازته ، وأغلق الكتاب ، فخلصت لجدتي أدلك ساقها ، وأسند
ظهرها على صدرى ، وأسقيها محلول السكر وهى تبكى الشيخ طه وترحم
على روحه وتأمرنى بزيارة قبره بابر يق الماء لأصب الماء على الصبار عند
رأسه وفوق القبر نفسه •

فاعتدنا بعد ذلك أنا وأش الله وصالح أن نزور المقابر صباح كل
جمعة ، نترحم على الرجل ، ونقرأ آيات فوق رأسه والصمت ، صمت
الموتى ، يلفنا من كل مكان •

وعدت مرة لأجدها ، مغطاة ببطانية ثقيلة ، ومن حولها الأم واجمة
وبطة بعد أن رحلت جميلة الى بيتها لتعود فى صباح اليوم التالى •

كانت تتنفس بصعوبة ، والبطانية من فوق صدرها ترتفع وتنخفض
فى حركة دائبة ملأت قلبي بحزن ثقیل أناخ على صدرى بكللكه ، فوقفت
على رأسها أذرف الدمع وأمرتني الأم ، بنظرة ، أن أقرأ شيئا ، فمددت
يدي ، ووضعتها على رأس الجدة •• ورحت أهمهم ، وترىشت الجدة حتى
أنتهى ، ثم أمسكت بيدي وهى تهمس فى صوت خافت متقطع : حامد ،
اقرأ سورة يس على قبري صباح كل جمعة •

وزارها الشيخ فضل ، والمأذون وأحمد عوده ، وذرفوا دموعا حاولوا

جاهدين أن يخفوها عنا ثم انصرفوا • وازدادت العلة عليها عند الظهر ،
وغشيت عينيها قتامة ، حتى أنها لم تعد تميزنا الا بأصواتنا • وواتتها
صحوة أمرتني فيها أن أستدعي أبي ، فأسرعت وعدت به ، فأمسكت
بيده وراحت تهمس : لا تقم للحزن على وزنا يا أمين اذا ماجاء حسنين •
يجب عليك ان تزوج « بطة » واياك أن تغضب بنتى مرة أخرى ، إنها
مريضة •

وأطلقت يده ، بينما مضى يقول : حاضر يا عيشة ، على العين والرأس
فأشارت الى بطة ، فدنت منها ، وأمسكت بيدها ، وهمست :

– أقسمي بحياة أمك ألا تؤجلي زواجك بسببي •

– لا تقولي شيئاً يا أماء ، ستعيشين ، وأى فرح يحلو لي بعد أن
ترحلي يا جدة ؟!

وبكت الفتاة في حرقاة الا أن صوت الجدة عاد حازماً رغم خفته :

– احلفي يا بطة بحياة أمك •

وازاء اصرار الجدة أقسمت الفتاة بصوت باك فاستراحت الجدة
وقالت : –

– روحى ستزغرد لك من بيتى الجديد • • هناك فى الجنة !

وصعدت بنظرها الى السماء ، ثم فاجأتها اغمساء أفاقت بعدها
لتمسك بيد أمى وتهمس فى حشجة بادية :

– اياك أن تتركى البيت لضرتك اياك !

– لن أتركه • ألم أعش فيه معك ؟ ألم نبته معا طوبة بعد طوبة ؟

وأجهشت بالبكاء وهى تؤكد : لن أتركه لأحد •

– لا تتركه حتى يأتى الطوفان •

فقالت الأم فى هلع : ولن تتركه أنت يا أم • ستعيشين فيه
وتستردين صحتك • والطوفان ! لا طوفان • زارنى شبيكة بالليل فى
المنام ، وبشرنى أنك ستعودين الى قدميك وسخر منى حين سألته عن
الطوفان •

– رحمه الله ، فلقد كان وليا يتكشف الغيب له !

وعادت تمسك بيدي ، وتطلب مني أن أقرأ شيئاً على رأسها تخفف
آلامها ، فرحت أهمهم بالآيات التي حفظتها من نفس السورة التي طلبتها
من الشيخ طه ومنى بعد موته ، وطفقت هي ترمقني في اشفاق من خلال
عينها الذابلتين .

وأحسست وأنا أقول : حتى عاد كالعرجون القديم ، أن يدها تتشنج
على يدي ، فتلفت لأراها ترتدى على الوسادة ، وكأن رأسها قد انخلع عن
رقبتها المعروقة ، ثم تراخت اليد ، وأطلقت بعدها حشيرة هدت بعدها .

وذهلت الأم لحظة أطلقت بعدها صواتا عاليا دوى في النجع كله ،
ثم انكفأت على نفسها منزوية في الركن ترسم الخطوط المستديرة ، وتذرف
عليها الدموع في صمت مستسلمة لا تفعل شيئاً بينما الاقدام تتحرك من
حولها .

أما أنا وبطة فقد انكفأنا على الجدة نطوقها وننادي : أفيقي يا عيشة!
لا تتركينا ! حتى أقبلت الحالة ، وأمرتنا في حزم أن نتركها تستريح .
فعبرت باب الدهليز ، ومضيت في الطرقات أبكى ، والدينا تخال لي
ججورا مليئة بالسحالي والثعابين ، وبت منذ ذلك الحين أكره الألوان
البارقة بلون الفضة ، وملمس الثوب الناعم اذا كان من هذا اللون ،
تنزلق عليه اليد .

لقد ماتت الجدة صديقة الطفولة بسبب ثعبان ، فلماذا خلقتنا يارب
وخلقت الثعابين وكل هذه الهوام في نفس الوقت ؟

وبكى الناس عليها في النجع ، وراحوا يعددون مآثرها ، كرمها
وتقاها وبرها على الفقراء ! وطفقوا يتحدثون عنها في المآتم الذي أقيم لها
أياماً سبعة يزدهم فيه المعزون من النجوع الأخرى ومن « عنيبة » قرية
أبيها حيث ولدت . لقد جاء هذا الاب الذي بلغ المائة أو تزيد من عمره
يتلقى التعازي ومن حوله أشقاؤها !

وتحدث الرجال في اليوم السابع عن الطوفان والتعويضات ، ثم
عادوا الى ذكرياتهم عن الشيخ طه ، ومضوا يعددون أسماء الذين تعلموا
على يديه ، ويتكلمون عن صغارهم الذين يهيمنون في الطرقات بعد أن اغلق
الكتاب ، وتسائل الشيخ جعفر : ألا نستطيع فتح الكتاب من جديد ؟

وأجاب أبي : من الذي سيتولاه ويتولى الصغار بالرعاية ؟

فلا بد من رجل شيخ يدير الكتاب ، يتعهد بتربية صغارهم ، فالكتاب هو المكان الوحيد الذي يتعلمون فيه .

وكاد رأيهم في نهاية الامر يستقر على ارسالنا ، نحن الصغار ، الى كتاب الشيخ يعقوب في ابريم ، الا أن الشيخ شليب أهل عليهم في هذه اللحظة ، وألقى بالتحية ، وجلس الى جوار أبي والشيخ فضل الذي لم يكن قد اشترك بكلمة واحدة في المناقشة التي دارت حول الكتاب .

وفاجأته الفكرة في اللحظة التي انتهى فيها شليب من تحية الرجال فصاح بها على الفور : الحمد لله ، ليتول الشيخ شليب شئون الكتاب .

الكتاب في بيت الشيخ طه . وشليب صهر الرجل : زوج ابنته ، والمرحومان الشيخ طه وأبوه علما الناس في نفس المكان ، نفس الكتاب الملاصق لبيته .

ومن الحق أن شليباً لم يختم القرآن ، ولكنه يجيد القراءة والكتابة بخط حسن ويعرف الحساب . أليس تاجراً صغيراً ؟ سنتكفل بشئون بيتك ، لا تخف يا شيخ . . هناك تلاميذ كبار يكونون عرفاء لك .

ووافق الرجل ، وقرأوا الفاتحة معه . ومن غد يوم السبت يعاد فتح الكتاب ، ولكن لابد من حصر جديدة لفرشها . حاضر . . سنعد لك هذه الحصر في أسابيع قليلة .

وانتهى المأتم وحملنا ألوف القطع من الحصباء والزلط التي ترحمنا عليها منذ الصباح الى قبر جدتي . ثم عدنا واجمين من دار الأبدية تبلل الدموع عيوننا لنجد جابراً ينتظرنا في الساحة الممتدة أمام المتجر .

رأنا فهب واقفا في الحال ، وأقبل علينا وحيانا وهو يقول :

— مبروك جميلة رزقت بولد . . .



وكرت الأيام ، وتناالت الأسابيع ، والشهور ، وانقلب الشتاء
البارد الى ربيع أخضر ، ومع الأيام تأرجحت آمال الناس ،
وتصوراتهم ، بينما الأزمة تأخذ برقابهم وأسعار السلع
تنخفض ، والمقتربون يملثون المقاهى فى عابدين ليل نهار لا عمل لهم ،
يرتزقون منه ، يضيعون قروشاً قليلة يكسبونها من « الظهورات » فى
المقاهى وفى استطلاع ورق « اللوتريا » .

وأخذت البسواخر ترسو على المرافىء كالحلة خاوية لاتحمل أملاً
ما لقلوب الناس الذين اعتادوا انتظاره ، وألفوا ترقب الرسائل عند
مكاتب البريد ليعودوا الى النجوع وأيديهم خاوية ، فلا طرود ولا رسائل ،
حتى أصبح ما عاشت دارياً سكينه تشكو منه وتبكي له هم كل الناس منذ
باتوا فى مجاعة حقيقية ، فذبلت الوجوه ، وراح الاطفال يلتهمون البلع
المر قبل أن يصبح بسرا يستسيغ المرء مذاقه ، وأرسلت الحكومة صدقاتها .
بضعة أطنان من الدقيق الاسترالى « العلامة » تنال منه كل عائلة حفتين
أو ثلاثاً . وغل التجار أيديهم فوق أن رفوفهم خلت من السلع ، ولم تعد
أقلام الكوبيا تشطب الا سطوراً قليلة من دفتر الاستاذ واليومية ، وتكدس
ما تبقى فى رفوفهم من طرح وفوال وكريشه والسادة . وركدت سوق
السكر والشاي اذ لم يعد معظم الناس يشترونهما ، والذين يشترون
الشاي يكتفون بشربه وقد وضعوا بين أشداقهم ثمرة بلح أو تمرتين
يستحلبونها مع الشاي المر . تدر الشاي فى النجع ، الشاي الذى أصبح
أفيون الناس منذ أن ألفوه فى الصبا وفى المهود .

وهل تأتى الطوبة فى المعطوبة ؟ قد لا تأتى فى كل مكان ، ولكنها
تت فى معطوبتنا نحن فى هذه الايام ! اذ هجمت على القرى جحافل
: تحصى ، جيوش صفراء تطن فوق الروعوس ، وتحط الرحال على الجريد
السنابل وتأتى عليها فى لح البصر .

فمن الشرق ومن الجنوب ومن بين شعاب الجبال راحت أرجال الجراد
توغل في النجوع ، وتحجب ضوء الشمس وتتهاوى على الزروع ، ولا تبقى
على شيء أخضر .

ونلقينا نحن الصغار في النجوع أرجال الجراد الغازية بالترحيب ،
ورحنا نظاردها ، ندق على الصفيح لأن آباءنا يدقون عليها ، ونشعل النار
في العاقول والحسك لأن آباءنا يشعلونها ، ثم تقيم الولاثم حولها ،
ونزدرد الجراد الذي تتهاوى منه المئات والالوف في النار لتحترق ،
فنقرمشها ونحن نرسل صيحاتنا المرحة ، ثم نتقلب لنحزن كما يحزن
الآباء .

ومع الطوية التي نزلت في المعطوبة أخذ الناس يتطلعون الى الطوفان
والى التعويضات ، يتشوقون الى الملايم تشوقهم الى الحياة نفسها ، وأصبح
الجدل حول تقدير عادل للتعويضات يخفت ليحل محله التطلع والتشوق
اليها أيا كانت تقديراتها . لم يكونوا يريدون بالطبع أن يبيعوا أملاكهم
بشئ بخس ولكن البطون الجائعة بدأت تهيب العقول لقبول ما يأتي به
القدر ، فكيف يمكن لرجل مثل نوح تهرأت ثيابه وتعت ابنته الوحيدة
« مندوهه » أن يقاوم الى أن ترضخ الحكومة لتقدير عادل ؟ .

وأدركت حكومة صدقي ما كان الناس يعانونه من تشوف وجوع ،
فأوغلت في تعسفها ، فاعتبرت تعويضات الوفد مبالغا فيها ، ونهبها لأموال
الدولة ، فخفضتها الى الريح ، ومضت تلوح للناس بالجنيهاات الخضراء .

وأحس أبناء القرى المتعلمون في الدر ، وفي القاهرة وفي كل المدن
بما يعانيه الناس في كل مكان من يأس وجوع ، فراحوا هم ورسلمهم بداية
من رجال النادي النوبى ، فقير والباقر ، وعجيب وجمال والطرابيشي
نهاية الى الرجل الصامد في الدر : بدر افندى والمدرسون من حوله يكتبون
البيانات أو يطوفون بالقرى ، يحضون على المقاومة ، ويستصرخون الضمائر
أن تفيق لنفسها وللمصير البائس الذى يعد لها - وبدعوا الاتصالات
بالنواب والشيوخ ، ونجحوا في كسب عطف رجل منهم عمل مأمورا في
زمن مضى في الدر فعرف الكثيرين من أبناء النوبة ، وقف وحده في مجلس
الشيوخ يندد بتقديرات حكومة صدقي وتعسفها مع النوبيين ، واستغلالها
المشين للأزمة الاقتصادية ، فاعادت كلمات هذا الرجل - الشيخ أبو
الفضل الجيزاوى - أملا كان قد خبا في بعض القلوب .

وباتت دواوين الحكومة تغص بالمتشفعين ، والالتماسات ، وأصبح

المستر هيس ملكا غير متوج يجلس فى الجيزة على عرش مصـلحة الـرى
والمساحة ، يسعى اليه الناس ليزيد من تقدير تعويضاتهم ، فيهش ويتسم
لهم ، ثم يشير الى الطرابيش ، وكأنما يقول لهم : نحن الانجليز لا شأن
لنا بمشكلاتكم . هؤلاء هم المسـئولون ، ويلوى شفـتيه وهما تلوكان
الغليون فى حركة ذات مغزى ، فيعودون خائبين ، يصخبون ويجدفون ،
ثم يفرقون همومهم فى كتوس الطافيا اذا وجدوا الى ذلك سبيلا .

وبدأت الصحف لأول مرة تنشر صوراً لنسائنا متشحات بالطرح ،
وصورا لنخيلنا ومرافينا . . صور عجيبة . . كانت صور أناس وأشجار
وبيوت يرين عليها البؤس الذى يرين على وجوه أشقياء حكم عليهم
بالاعدام .

رغم هذه الهموم فان النجـع كان يـمرح لحظات يعود بعدها الى
الكآبة ، اذ يتزوج القليلون فى قريتنا أو فى القرى المجاورة الأخرى ،
فيتناسى الفلاحون آلامهم لحظات يتراقصون فيها . ثم بدأ بعض الرسل
يخطبون فى هذه الحفلات ، احمد محمود والشيخ صابر والمحامى يدعون
الى تعويضات عادلة ومعاملة طيبة لحسين طه فى سجنه .

واستمع « مداح » سودانى لهذه الخطب مرة ، وبدأت الحيرة فى
عينيه وهمس فى أذن جاره : شنو يقولون ؟

— التعويضات يازول والطوفان .

— وأين تذهبون اذا ما حل بكم هذا الطوفان ؟

— نرحل هنا وهناك .

فصلى « المداح » السودانى على النبى وقال بعد تفكير عميق :

— السودان واسع ياناس ، هناك فى رحاب الميرغنى تجدون البركة
والخير ، فلماذا لا ترحلون الى السودان ؟ حسابكم عشرة . الميرغنى ولد
النبى يرحب بكم .

وانبرت الاصوات تصلى على النبى وعلى آله وتبع التابعين « رضى الله
عنهم أجمعين » آمين ، الا أن القليلين هم الذين استطابوا فكرة الرحيل الى
السودان بينما دافع آخرون عن الهجرة الى الصعيد ، وصمتت جمهرة
الناس وهزوا رؤوسهم فى أسى . ان مجرد فكرة هجر ديارهم كان
يأكل قلوبهم ، فيطوونها على غيظ ، ويصمتون لا يريدون ملاحاة ضيف،
أو نزاعا يشجر بينهم أمامه .

وبدا أبى برما مهموما ، فالدكّانة توشك على الافلاس • ديونه تتراكم على الناس على أمل موسم جديد ، وديون عبد الراضى مختار فى أسوان والحاج على سلطان فى بولاق تتراكم بدورها عليه ، وتنتيح على صدره وصدر أحمد عوده •

وكانت حجوبة قد بدأت تشترك فى ادارة المتجر ، فعرفت هموم الرجل عن كُتب وراحت تبحث عن حل ، ويبدو أنها وجدت بعض الحل فى شخصى، فأشارت مرة بطرف خفى الى وقالت تسأل أبى : ولماذا لا يسافر حامد الى مصر ؟ لقد كبر •

ودهشت أنا ، وقلت لماذا أسافر ؟ أنا لا أريد الالتحاق بالازهر •
فقلت وعيناها تومضان فى خبث : اطمئن وسافر ، ولا تدخل الازهر •

قلت : وهل التحق هناك بالمدرسة مثل التى فيها مصطفى ؟
قالت ، بعد أن تفرست فى وجهى وقاست بنظرتها طول قامتى : بل ستعمل هناك مثل كل الناس ، وترسل طرودا الى أبيك •

وعجبت من حديثها فأننى لم أكن قد فكرت فى مصر من هذه الزاوية الغريبة ، أن اشتغل مثلما يشتغل جمال ، أن أتوه فى مصر مثلما تاه •
ورغم أن مصر ارتفعت فى عينى وهى تحدثنى ، بلدا غارقا فى بحار النور، وفى أردية قصيرة على أجساد النساء ، فأننى كرهت مصر ، وبدت « الدر » ومدرستها أجمل منها ألف مرة ، فقامت حانقا ، وعبرت باب المتجر الى الساحة ، والتقيت بخالى وارتيمت عليه أبكى ، فربت على رأسى فى حنان وطمأننى وهو يقول : لا تشغل نفسك ، فلن تشتغل فى مصر كما يشتغل جمال ، بل ستذهب الى المدرسة ان شاء الله ومسحت هذه الكلمات بعض شجونى فقبلت يده وهو يبتسم لى فى طيبة ورقة بالغة تعود أن يعاملنى بها منذ أن ماتت جدتى •

ومرت شهور ، واستحال البلح الأخضر فاحمر ، ونمت عيدان الذرة ، وناعت بالقناديل ، فتفتحت الآمال فى قلوب الناس ، ومضوا يتطلعون الى السماء خشية أن تهجم أرجال الجراد من جديد ، وراحوا يتناقلون ، وهم يدبون على الطريق الزراعى بين حقول الذرة أخبار التعويضات • لقد خفضت الى الربع ، ولكن ما زال القرار الرسمى بها لم

يصدر بعد ، والأخبار تتوى عن قانون لنزع الملكية ستصدره الحكومة مصحوبا بهذا القرار الرسمى عن التقديرات الأخيرة للتعويضات . ولم بعد بركات افندى يجوس الديار بدفاته ، فقد سجل كل شيء ولم يعد له عمل فرحل . والناس يقولون ان افندية آخرين سيحلون بالقرية بعد أن يصدر هذا القانون ليصرفوا التعويضات .

وفى انتظار صدور هذا القانون نشط بدر افندى ، والرسل يكتبون الشكاوى والعرضحات ، ونشط المأذون والمحامى وبرعى فى النجع يحضرون الناس على توقيع هذه الشكاوى .

وحل الحريف وضم الناس محصولا جيدا ، وجاء الموسم ، ودخل الحلب قريننا من جديد ، والتقى حسن المصرى بأخرى غير فكية ، وسار كرنفال الغوايش والمزامير بين النخيل ، ثم رقدت الأرض تستريح وتستعد للشتاء .

وبينما أعود مرة فى أصيل يوم من الحقول ، التقيت بالشيخ شليب على دابته . فحاولت أن أختفى ، لكنه لمحنى واستدعانى اليه ، فأقبلت ألثم يده ، ووجدنى ساهما فقال : أما زلت تبكى جدتك يا ولدى ؟ رحمها الله . لماذا أنت حزين ؟ عوضك الله عنها خيرا فى أببك وأمك . قلت ان حجوبة عادت تتحدث عن سفرى الى مصر . قال : حدثنى خالك عن الحاقك بالمدرسة ، وقد نهيتك عشرين مرة عن التفكير فى هذا الموضوع . أبوك نفسه لا يرضى بذهابك الى مصر لتشتغل ، فمازلت صغيرا .

ومد يده الى رأسى وفرك بها شعرى ، ثم سأل : وأين برعى ؟ هل رأيته فى مكان ما ؟ ابحث عنه ، واذا ما وجدته قل له اننى والشيخ صابر ننتظره فى الدكان .

فمضيت أبحث عن برعى ، ومازال حديث الشيخ يطن فى أذنى ، والتقيت فى الطريق بسعدية تعود من طريق النيل وعلى رأسها «كوبيه» نحاسى يبرق فى ضوء الشمس الغاربة وتسيل منها قطرات على نحرها فيلمع ، وعلى صدرها فتبل ثيابها .

ومن خلفها كان البسطاوى يسوق بقرة خاله الجزار ، يتبعها باسماء ويبدو أنهما - هو وسعدية - قد التقيا على الشاطئ بين النخيل بعيدا عن العيون ، فقد تطورت العلاقة بينهما حتى أن أم سعدية بدأت ترى فى البسطاوى زوجا لابنتها .

وسألت سعدية : هل رأيت برعى عند النيل ؟

قالت : لا • وأضاف البسطاوى : يقولون انه ذهب الى الجبل ، فتذكرت فى الحال غزوات برعى للجبل يبحث عن الثعالب ، فقد أشيع أن داء شريفة لا علاج له إلا اذا أكلت لحم ثعلب جبلى يشوى على نار هادئة فلم يعد برعى فى الشهر الأخير يلقي بالآلى المناقشات الدائرة عن التعويضات ، بل أخذ على عاتقه مهمة البحث عن هذا الثعلب واصطياده ليكون شفاء لشريفة حبيبة قلبه على يده هو •

لقد ضمير برعى وأصبح الدمع دائماً يتألق فى عينيه ، كلما تحدث الناس عن مرض شريفة الذى لاينتهى ، فقد تحولت المسكينة الى عود هش يكاد يطير اذا ما نفخت فيه ، وراحت حالتها تزداد سوءاً على مر الأيام ، فهاهو الربيع قد تحول الى صيف قانظ تحول بدوره الى الحريف دون أن تقوم من رقادها الطويل ! وجدير ببرعى وهو يرى فتاته تذبل أن يذرف الدمع ، وأن يسعى هنا وهناك ابتغاء وصفة أو تميمة عند الناس ، أو لصيد ثعلب برى ، ثم يعود من رحلاته ليطل عليها فى هلع فتشفق عليه وتهمس :

— ماذا تريد منى يا برعى ؟ ها أنذى أموت !

فيذرف الدمع ، ويتنهد ، ثم يشيح بوجهه ، ويخرج ، لينفلت الى السفوح ، وفى يده شرك كبير وفى جيبه خنجر حاد •

التقيت به عائداً من الجبل ، يحمل ثعلبا برىا يسيل الدم من رقبته فأنهيت اليه أمر شليب ، فهمس وكأنه يمشى فى مآتم : سألق به فى الحال •

وحينما دلف برعى الى الدكان ، كان الرجال يتحلقون بالشيخ شليب والمأذون يطالعون فى أصوات خافتة مرتعشة أرقاما اجمالية عن التعويضات • كانوا واجمين يثقل الحزن رءوسهم وقلوبهم وهم يطالعون الوقائع المصرية •

وصاح أبى ويده تدق على بنك الزنك :

— اذن فقد عملها الداهية !

وحملق خالى فى النخيل عبر باب المتجر وقال :

— لعنة الله عليه •

وبصق الجزار في اتجاه الشمال ، وسوى عذبتة حول اذنه اليسرى
رهتف : حكم الله ولا راد لقضائه ، فانبرى الشيخ صابر يقول : قضاء
الله يا رجل ؟! هذا ليس قضاء . الله عادل ورحيم . وتردد حموى
وأضاف كل شيء مكتوب ، والمكتوب لازم تشوفه العين ، وانفجر الشيخ
جعفر ، مكتوب ؟! مكتوب أن نموت يا رجل ؟ . لا يا شيخ . . . ليس الله
ظالما . أما الشيخ فضل فقد ربت على ساقه الحشبية ذات الحدوة الحديدية ،
وحملق في وجوه رفاقه وفي عينيه نبرات غضب ، فقد كان يكظم غيظاً
يهد الجبال ، بل بدا وكأنه يريد أن يصرخ ، أن ينطح شيئاً ما بدماعه ، أن
يضرب أحداً بساقه الحشبية ، أن تطول أظافره الى مخالف يود لو غرزها
في رقبة أحد الناس ، بينما أقبل المحامي وألقى نظرة على الارقام ، وصاح
- انا دكنا الجبال دكا دكا ! فباى آلاء ربكما تكذبان ؟!

وحملق في وجوه الآخرين ثم قال : ألم أقل لكم ؟ ثم انتزع ورقة من
فوق زنك البنك ومحبرة وقلما وأخذ يكتب محموما والرجال يلتقون به ،
كل يقدم اقتراحاً . ومضى هو يكتب ويكتب لايأبه بثرثرتهم حتى أوفى
على الصفحة ، وشرع يقلبها ليكتب على ظهرها فاستمهلته الشيخ فضل بعد
أن حبا قليلا اليه ، ثم أفضب أظافره في الارض ، وعاد بيده محملة
بالتراب يتجه به الى الورقة لينثره عليها حتى يجف الحبر ، لكنه تريت
وعرج به على أنفه يتشممه قليلا مقطب الجبين ، ثم ترك ذرات التراب
تسرب من بين أصابعه الخمسة في تودة وصبر حتى غطت الصفحة .
بينما المحامي ينتظره في صمت ودهشة .

ومن بعيد ، من بين نخيل نجع « السوارداب » كانت بعض الدواب
تدنو من الساحة ، وعلى ظهورها رجال بملابس متباينة ، ترجلوا مباشرة
أمام باب المتجر . كان بينهم الرجل ذو الشارب الطويل والقامة النحيلة ،
وقد استبدل بالبدلة جلباباً من الحرير الأبيض بياقة تنسدل بأذنين مدببتين
على جانبي رقبته ، وكان في عينيه نفس الاحساس بمرض عضال لا يفيق
منه ، ولكن ما من شيء آخر تغير فيه ، فالسجن لم ينل منه .

ترجل هذا الرجل - بدر افندى - ومن خلفه نفس الشيخ الذي فرك
شحمة اذن الغلام في الدر أمام المدرسة ، ومن خلفهما الشيخ ياسين .

وانبعثت المدرسة الى مخيلتي حين رأيت الشيخ مرسى ، وظننت أنهم
أقبلوا للحديث مع أبى بشأنى وبشأن المدرسة ، وأيقنت أن مسعى حجوبه

وما تعدده لى من مصير سيخيب فى هذا المساء ، الا أن ذلك لم يكن مقصدهم
فى تلك الأمسية •

وهب الرجال وقوا يرحبون بالضيوف ، ويفسحون لهم مكانا رحبا
على دكة عالية مرتفعة على يمين البنك ، ثم أدير ت فناجين القهوة فمضوا
يتحلبونها فى هدوء ، ثم انكبوا من جديد على الوقائع المصرية الى أن طواها
بدر أفندى ، وقذف بها على البنك ، وهو يصرخ : هذا هو الظلم بعينه:
ظلم لا يرضى الخالق ولا المخلوق •

وتفرس فى عيون الناس وهم يستمعون الى الشيخ مرسى يقول :

— يجب أن تقاطع لجان التعويضات حين تجيء فلا تصرف ما لم تعدل

التعويضات •

وهز الناس رؤوسهم بينما استطرد بدر يقول :

— الوقائع تقول انها ستنتشر القسانون فى عدد آخر ، وستنتشر

أسماء أعضاء اللجان ، وعما قريب سيأتون ، ويجب علينا ألا نتعامل مع
هذه اللجان فما رأيكم ؟ امنعوها بالقوة عن صرف ملهم واحد •

وهز المأذون وبرعى رأسيهما فى اعجاب شديد بالرجل الذى عاد
يسأل من جديد : ما رأيكم ؟ ثم أطرق لا ينتظر اجابة ، فقد كان يعرف
طباع القرويين ، فانهم مجاملون وقد يقولون : نعم • فتكون الاجابة التى
يقصدونها كلا ، وقد يهزون رؤوسهم فتكون علامة الرضا آ •

ورمق الرجل ، فى دهشة ، ساق الشيخ فضل وحدوتها الحديدية،
فسأله عن حاله • وأجاب الرجل يشكره ، ثم مد يده وكبش فى التراب
وعيناه تبرقان فى نبرات غاضبة تعبر عن اليأس والحزن •

وبين دهشة الضيوف وحيرتهم ، رفع الرجل يده وهتف فى صوت
دوى فى النجع : اللهم لا نسألك رد قضائك ، بل نسألك اللطف فيه •



وأخيرا جاء يوم قررت السماء أن تبتسم فيه لداريا سكينه وابنتها شريفة فقد أبلت هذه من علتها ، وأخذت تسترد نضارتها ، وبدأت الغمازتان ترتسمان من جديد على خديها ، وتكسيبانها جمالا يأخذ بالقلوب ، فيشرع البسطاوى يحوم حولها من جديد ! فصدته فى قسوة • وبدأت سعيدة رغم ذلك تظن بها الظنون ، تتهمها بأنها تتصيد البسطاوى منها •

ودون جدوى سعت بطة وبخيتة بينهما •

وعادت داريا تأمل أن يعود جمال ، فان الباخرة أخذت تصب فى القرى بصنوف من العائدين رحلوا منها منذ سنوات طويلة ، ولكنها كانت تعود فى كل أسبوع تندب حظها • وفى هذه الأمسية كانت داريا وابنتها عائدتين الى بيتهما من المتجر بعد حساب عسير بينهما وبين أبى • عادتا واجمعتين تتساندان • وبينما هما تحاذيان الحراية الملاصقة لبيتهما قفز بينهما شيء صرختا اذ لم تتبيناه فى غبش المساء لأول وهلة ، وظنت شريفة أن البسطاوى يقتحم طريقهما ، وظنت داريا أن غولا قد خرج عليهما من الحراية فشرعت تطلق صرخة داوية الا أنها حبستها ، فقد عرفت من صوته : واحد • أحد • صمد ، ومن الشعر الغزير المنسدل بين فخذه ، فاطمأنت بالا ، وابتسمت له فتتبعهما على عقبيهما حتى دلف معهما الى الدهليز ، فطاف بكل جدار ثم توقف عند كرباج طويل لم تغيرا مكانه منذ أن رحل جمال ، فانتزعه وطرق به فوق رأسيهما ، وطلب زيتا دهن به على الكرباج وأعاده الى مكانه ، وانفلت خارجا لا يستجيب لندائهما، فلبثتا صامتتين تتأملان رسم قدميه على الأرض ، وتحققان خلفه ، ثم ارتمت الأم فجأة بين أحضان ابنتها وهى تهمس من بين الدموع : شريفة ، تذكرنا الله • سيرسل جوابا •

ولم تلفظ باسم جمال ، لكن الفتاة أدركت ما تعنيه أمها فقالت :-
ليته أرسل يا أماء ، ليته .. فكم أنا مشتاقة الى أخباره .

وربتت الأم على كتفها وقالت : بل سيطلق البيضا يا بنتى .
سيطلقها ! قلت لك سيطلقها !

وراقبتها الفتاة عن كثب ، ثم قالت ، بشكل فجائي ، : ولماذا
لا تقولين يا داريا انه سيعود . فشدت الأم من قامتها ، وعجبت كيف لم
نواتها هذه الفكرة قبل شريفة ، لكنها احتضنت الفتاة ، ثم مضت تتحرك
فى البيت تحجل وترقص وتترنم : سيعود . قلت لك سيعود يا شريفة .
أما رأيته يطرقع بالكرياج فوق رأسينا ؟

وبدأتا تنتظران الباخرة فى لهفة ، ومع كل باخرة كانتا تفقدان
الأمم وتستسلمان لليأس وتعودان الى العبوس والبكاء فى اشفاق من
الأحداث التى كانت تتالى ، أحداث تتطلب سواعد الرجال .

واستدارت الشمس ثم لفظ عام ١٩٣٢ أنفاسه الأخيرة ، وولد
العام الجديد ، وعند مولده ، فى ضحى اليوم الأول منه غصت دار العمدة
بالناس من كل نجع . والدار فسيحة يتصدرها دهليزان ينتهى أحدهما
بالسلحليك ، والدهليز الأول فرشته العمدة بالعنجريات والسكنبات
المكسوة فى ألوان زاهية ساذجة وبكراسى الحيزران تتوسطها ترابيزة من
الحشب الأبيض عليها مفرش أبيض لم يتبقع بعد .

وعلى طول حائط هذا الدهليز - وفى هذا اليوم بالذات كانت
أوراق عريضة معلقة أقبل الناس يطلون عليها بأمر العمدة يقرءون فى
أصوات عالية أسماء سكان النجوع ، ويقرءون أمام كل اسم رقما .

ونادى أحدهم على اسمى وهتف : منزل . أربع غرف مسقوفة فى
حالة جيدة وحوش واسع ، اثنان وثلاثون جنيها . ونودى على جمال
ابن داريا سكينه : منزل خمس غرف وحوش غير مسقوف ، أربعة وعشرون
جنيها ، وقيراطان بالحوض القبلى بنجع الزينية ، عشرة جنيها . مائة
وخمسون نخلة ، ثلاثون جنيها .

وتتالت الأسماء والأرقام ، والقرويون يهزون رؤوسهم ، ويمصصون
شفاههم . بعضهم كاسف البال حزينا ، وبعضهم بهروا بالأرقام والجنيهاات
التي ترن فى الدهليز ، جنيهاات كاملة لم يلمسوها بأيديهم منذ عشرات
السنين ، وها هى تسعى اليهم . اذن فالديون ستسوى والأطفال سيكتسبون
والزيجات ستتم .

هؤلاء بدءوا يتطلعون فى لهفة الى تعويضاتهم كعلاج لجراح غائرة
فى صدورهم ويطونهم فمتى يصرفونها ؟

وبين هؤلاء كان يتجول رجل من القرية المجاورة ينظر اليهم فى
ازدراء . هذا الرجل توقف أمام الجزار ، ورمقه بنظرة قاسية ، ثم رفع
يده يسكتهم ، فاصاخوا السمع الى كلماته ، يالهم من بلهاء ! أهذه
هى التعويضات التى تتشوقون الى صرفها ؟! مجانين ! بيوتكم وأشجار
نخيلكم وسواقيكم وقبور موتاكم .. كل هذا مقابل لا شيء ؟!

فصاح به الجزار : وماذا تفعل يا وابور ؟ وصرخ حموى : يا سيد
أحمد وابور قل لنا ماذا تفعل ؟! الفلوس حلوة ونحن مدينون للتجار .
الفلوس تمشى الينا برجليها ثم نرفضها ؟ أهذا كلام يا وابور ؟! فرمقهما
الرجل فى احتقار وصرخ من جديد : مجانين . أنتم مجانين . فساد الهرج
من حوله ، وانبرى برعى والمأذون يصرخان فى الناس .

ويشتقان طريقهما الى الرجل ليقفا الى جانبه . وهتف برعى متذكرا
كلمات الأستاذ : يجب أن تقاطع التعويضات .

واعلى المأذون مصطبة الدهليز ومضى يقول : أتدركون معنى هذه
الأرقام ، النخلة بعشرين قرشا والغرفة بأربعة جنيهات والفدان .. ياهوه!
فدان الطين بأربعين جنيها !

وفرك الناس عيونهم ، ولجأوا الى وابور يستفسرون منه عن تفاصيل
الأرقام .

وابور هذا رجل متفتح الذهن . رحل كثيرا . ولا بد أن يفهم
المراء هوايته من اسمه ، فهو مولع بكل أنواع الماكينات والبواير ، وهى
شغله الشاغل ومدار أحاديثه فى القريتين : قنة وابريم . كان يدور
دائما على المصاطب والساحات ، وفى جيبه عينسات من التراب يتفرس
الناس فيها فيقول لهم : هذه عينة حديد تراب من حديد أسوان « وهذا
هو تراب الذهب من جبل العلاقى » . وقد بلغ شغفه بالماكينات حدا
جعل الناس يلقبونه بسيد وابور وهو صاحب الطاحونة الوحيدة المنتصبة
فى بداية ابريم . تطحن الغلال ، الكيلة بتعريفة أو بيضتين .

تراه دائما وفى جيبه ، الى جانب العينات ، قصاصات من الصحف
عليها صور آلات وماكينات ، وهو يحلم دائما بالمشاريع يقيمها من أموال
المنكوبين . هنا طاحونة ، هنالك جراج لاصلاح السيارات فى احسدى

المدن ، وقد تشترون أسهما في الشركات ، وقد تدقون الآبار الارتوازية في الجبال التي تنتقلون اليها ، وقد تتعاونون وتقيمون طلبات الميسام في قراكم الجديدة .

كان ينام ويحلم بهذه المشاريع ، ويصحو ليتحدث عن الماكينات والبوابير حتى لقبه الناس بسيد وابور .

هذا الرجل الذي ساد الهرج بسبب كلماته انفلت مرة أخرى بسبب الحكومة ، ويلعن أهل القرية الغافلين ، ويبين لهم مدى الغبن الذي أوقعته الحكومة بهم . كل التعويضات يا ناس ثلاثة أرباع المليون جنيه . وأشجار النخيل التي سجلت تبلغ وحدها دون البيوت والأرض مليوناً وسبعمائة ألف .

وحار الناس في الأرقام ، ولكن احدهم قال : اي والله صحيح . . النخلة بأقل من عشرين قرشاً ! فعلت المهمة ، وتصايح الناس ، وارفع صوت برعى من جديد : يجب أن تقاطع التعويضات .

— وكيف تقاطعها ؟

— لا تذهبوا الى مكان صرفها .

— واذا جاءوا الى بيوتنا ؟

— أغلقوا الأبواب في وجوههم .

وجاء العمدة يطلب منهم الهدوء ، فانصرفوا الى الساحة أمام الدار ليجدوا المحامي يصرخ : عملها اللص ابن الكلب . لا بد من رفع قضية على رئيس الحكومة ووزير الأشغال ، فتطلع وابور اليه في سخرية ، وأمره في هدوء : خذ . اقرأ هذه الورقة . فمرت عينا المحامي على الحروف المطبوعة وأحس أن الدنيا تظلم أمام عينيه . لقد صدر القانون رقم ٦ لعام ٣٣ وبمقتضاه تنزع ملكيات كل الناس . قانون يتلوى في بنود كثيرة أخذ المحامي يتلوها في صوت مرتعش . ليس من حق أحد أن يرفع دعوى على الحكومة بسبب نزع الملكية ولا بسبب تقدير التعويضات .

— وماذا نفعل إذن ؟

— نشكو الى الله ، نشكو اليه سبحانه وتعالى .

وأشار وابور اليهم يطلب الصمت ، فواصل المحامي قراءة الكلمات المطبوعة على الورقة ، ومن حق الناس أن يتظلّموا الى مهندس الري المختص والى لجنة إعادة التقدير ، فانفرجت بعض الاسارير ، فقد أدركوا أن في

وسعهم أن يتظلموا ، ثم انصرفوا متفرقين وجماعات والحيرة مرتسمة على وجوههم .

واتفق المحامي وسيد وابور على كتابة هذه التظلمات ليرسدها الناس موقعة باسمائهم الى لجان التظلم فى أسوان أو فى الجيزة حسيماً نص القانون ، وفى الطريق التقى وابور بداريا سكينه مطرقة ساهمة ، فمد يده اليها ورفع رأسها وهو يقول : مالك يا خالتي ؟ فلم تجب بل أجهشت بالبكاء فقال : ألم يصلك جواب من جمال يا خالتي ؟ فقالت : الناس جميعا يعرفون مصيبتى وخيبتى فى ولدى ، فلماذا تسألنى يا وابور ؟ كم أحبه ! سجلت كل شىء باسمه . فقال : ومن الذى يصرف تعويضاته اذن ؟ . قالت فى اعتداد : أنا داريا ، سأصرفها .

— لا يجوز ذلك فقد كتبت كل شىء باسمه كما تقولين .

— ولكننى أمه والعمدة يعرف . كل الناس يعرفون أننى أمه داريا . بنت سكينه عثمان زوجة المرحوم أبيه .

فضحك الرجل وقال : الحكومة لا تعرف شيئا من ذلك ، ولن تصرف التعويضات الا لجمال . فنظرت اليه فى ارتباك وحيرة ، ثم شهقت ، لطمت خديها ، وهى تهمس فى كلمات متقطعة : عبيطة . . طول عمرك عبيطة يا داريا . . رحت كالهليل وسجلت كل شىء باسمه ، باسم جمال الذى لا يعود ، جمال الجاحد . الهى يا جمال . . لكنها كفت عن الدعاء عليه ، والتفتت الى وابور الذى كان فى هذه اللحظة يسير الى جانبها وقالت : لكن العمدة سيقول للحكومة اننى أمه . فقال فى هدوء : صدقينى يا داريا . . لن تصرف الحكومة شيئا الا له أو لك اذا أرسل توكيلا باسمك .

وأحست المسكينة أن الدنيا تحاربها ، فانطوت على نفسها تبكى وتعول والمأذون يواسيها بكلمات طيبة ، وينصحها بأن ترسل له فى مصر بسرعة تشرح الأمر له ليعود ، أو ليرسل توكيلا . وانعطفت هى تركض الى بيتها ، بينما مضى المأذون وبرعى يتهامسان ويبحثان الطريقة التى يمنعان بها الناس من صرف تعويضاتهم ، وكعادته صاح برعى : نمنعهم بالكراييج . سنقف لهم فى الطرقات والعمدة نفسه سيكون معنا . .

وحين دلفت أنا من باب الدهليز فى الأصيل وجدت داريا سكينه وابنتها شريفة فى بيتنا تنتظران عودتى ومعهما البيضاء الست أم زين . وتهللت أساذير الأم حين رأتنى ، وأقبلت على ترجونى أن أجلس فى الحال ، وأسطر لها رسالة الى حسين النجار فى مصر ، فانتزعت ورقة من الكراسى التى أكتب فيها ، ومضيت أكتب بلغة متكسرة رسالة .

استرحام كلها دموع تملئها البيضا على قلبي كلمة كلمة : أمك داريا
 سكينه ترجوك يا جمال ، يا فلانة كبدي . ترجوك أن تعود . داريا لا تزيد
 شيئا منك ولا شريفة . كل شيء سجل باسمك في دفاتر التعويضات .
 والتعويضات لن تصرف الا لك . أمك يا جمال تنتظرك في كل أسبوع
 على المحطة ، وتعود حين لا تجدك ، وتبكي طول الليل بين أحضان شريفة .
 أمك يا جمال تحبك أكثر مما تحبك زوجتك ، فكتبت في دفاتر الأفندية
 كل شيء باسمك . البيت وأشجار النخيل والقيراطين المرهونين . أمك
 يا جمال تنزل كل يوم الى شاطئ النيل وتدعو لك . وإذا كان قلبك
 لا يطاوعك أن تترك زوجتك وتعود فارسل توكيلا ، وسوف أتسلمه وفي
 العين دموع وفي القلب حرقه يا جمال .

ملحوظة : شريفة كانت مريضة وشفيت والحمد لله وتهديك ألف
 ألف سلام .
 وعلى الظرف : مصر . عمارة بحري : حسين النجار . . بواب .
 مصر المحروسة . . بدوح ١٢٤٨ .

٣٣ - لا يا جمال . . اليك عنى فانك لم تعبد تحبني . . والا
 لوجدت عملا . . وأشاحت بوجهها . وحدثت في الجدار ثم
 أردفت : اتركني أعود لعملي ، ثم للممت بأناملها خصلات شعر
 تناثرت على الحدين ، ومضت تغالب الدموع ، وتندب الحظ العاثر الذي
 أوقعها في جمال الذي كان في هذه اللحظة يجلس على سرير تهرأت



مرتبتة تغطيها ملاءة بيضاء نظيفة تشوبها زرقة خفيفة ، يتأمل وجه زنوبة -
التي مضت تغمغم بعد أن ارتفعت الى السرير وفي يدها قطعة كبيرة بيضاء
من العجين تلصقها هنا وهناك على الحائط تتصيد حشرات البق .

كان يفكر فى حبه وغرامه الجارف لزنوبة ، الحب الذى لم يهدأ
بعد زواجهما فرقع رأسه يراقب جسدها ويزداد هياما بها وهى تتحرك
بيديها فوق رأسها ، فيبرز التهدان يتحديان القميص البمبي الذى حبست
فيه جسدها الفاتن ، ورغم افتتاحه بالجسد الفاتر فان الارهاق كان باديا
على ملامحه السمراء كما ارتسم يأس لا نهاية له فى عينيه .

فقد أخذت المسكينة تركب أعصابها وتثور لاتفه سبب ، وقد اشتبكا
بعد دقائق فأعملت أصابعها فى عنقه حتى خربشته وأسالت الدم من
منكبه ، ثم راحت تدق على صدره كما يدق الناس على باب موصل وتصرخ
بين دقة وأخرى .

- جمال . طلقنى يا جمال !! لم أعد أحتمل هذه الحياة .

- زنوبة . اعقلى يا بنت ، حكى مخك .

- واين مخك أنت ؟ . حكمه اذا كان لديك .

- لو كان فى دماغى منع لما تزوجتك وتركت كل اهل .

- اهلك ! وهل لك اهل ؟ ولماذا لا يساعدونك ؟

فامسك بها يحتضنها فتطامنت وقالت : ثم أنك لا تتركنى ، تأخذك
الغيرة فتأبى أن أعود الى عملى فى مصر الجديدة ، فى قصر الباشا . القصر
كان مباركا علينا نحن الاثنين . ألم نتعارف هناك يا جمال ؟

- عيب يا زنوبة . أنت حرمة وأولاد الحرام وأولاد الباشا كثيرون
وأخشى عليك منهم .

- تخشى على منهم ولا تخاف من الجوع ولا من البهولة ؟

وصمتت لحظة ثم أضافت :

- أتذكر يا جمال متى اكلنا اللحم آخر مرة ؟

- اصبرى يا زنوبة . اشتريت اليوم ورقة لوتارية . لعلها تكسب
ونأكل ما نشتهي .

- هىء هىء يادلعدى . لوتارية . موت يا حمار .

وشهقت وحدثت فى وجهه وأردفت :

اياك يا جمال • لماذا تأكل عيناك مصاغى ؟ • اياك •

— لا شىء يا زنوبه انما أمتع نظرى بصدرك الفاتن •

ومد يده الى الرمانتين ، وأضاف : تبارك الخلاق يازنوبه •

فصاحت فى يقظة : نعم ياسى جمال • كل منى بحلاوة • صدرك
وتبارك الخلاق ثم المصاغ ! • • جحا أولى بلحم تورى يا جمال • جحا أولى
يادلعدى •

وابتسم الفتى وتطامن ، فقد كان يعرف أنها تحبه ، وانها تستطيع
أن تضحى بكل شىء فى سبيل حبها ، وليست مشاجراتها الا أمرا طارئا
بسبب تعطله وسرعان ما تفيق من شجارها لترتمى فى أحضانه ، فيداعب
بأنامله صدرها وشعرها الناعم الجميل • لقد اعتزم اليوم أن يبيع مصاغها ،
وأراد أن يفتحها لولا هذا الصراخ المتصل الذى بادأته به ، فقرر أن يسلك
طريقه من خلال ذكرياتهما الحبيبة فمضى يتغزل بسداجته الريفية فى
كل ذرة من جسدها وهى تزداد صمما ثم تفرق وتفوص فى ذكريات ليال
دافئة أمضيها معا فى غرفتهما هذه وفى بيت الباشا قبل أن يتزوجا •

وألقت بقطعة العجين جانبا ، وغسلت يديها ، وارتمت الى جانبه على
السريـر ، فأيقن أن فرصته سانحة ، فمال عليها وطبع قبلة على جبينها ،
فتبسمت وكأنما تدعوه الى ثغرها ، فضمه بين شفثيه ثم مضى يهمس :

— عدت تلوين بوزك • • خبرينى بالله : أنت فى حاجة الى هذا
المصاغ ؟ جيدك عاريا أحلى عندى • • المصاغ يحجب عن العين نظارة
بشرك الصافية • ومعصمك عارين فىهما من الجمال فوق ما تتصورين • •

وقام الى الحائط ، وعاد بمرآة رفعها أمام عينيها وهمس :

— اخلعى هذا المصاغ وانظرى • • جربى •

فنهت يده ، وتنهدت ، ثم لفت عنقه بذراعيها ، ورفعت رأسها قليلا
عن الوسادة وقبلته وهى تقول : لا يا جمال • كله الا المصاغ • فراح
يهمس : فداك عيونى يازنوبه • عما قريب أجد عملا ، وحين ذاك أشتري
لك أضعاف هذا المصاغ • انظرى ، أليس من الموضة القديمة ، بلدى ؟

وساد الصمت لحظات مضت زنوبه تفكر فيها مقبلة جبينها • ثم
قفزت فى خفة ، من السرير الى الأرض ، وعقدت البرقع والعروسة

النحاسية المذهبة على أرنية أنفها ، والتفت بملاءتها ، وراحت تخطر أمامه .
ثم توقفت وهي تقول :

– افتح فمك مثل العبيط . لماذا تجلس هكذا تتفرج على ؟ قم واستعد
للخروج .

– الى أين ياغزالي المحبوب ؟

– الى الصاغة .

فقفز قلبه وشعر أن جوعه قد انتهى ، فقام على ساقيه واحتضنها وهي
تتملص منه في دلال . ثم صافقا باب غرفة البغدادلي خلفهما ، وتركها
معروف ، وعبرا ميدان سليما باشا ، ثم العتبة ، وعرجا على شارع الازهر .
والفتى الاسمر يتلفت حوله في حذر يترصد عيون الناس السابحة على
جسد زوجته ، ويكظم الغيظ حين أخذ الأطفال يصيحون من خلفهما سييب
النعجة يا خروف . . أما هي فلم تعد تأبه بمثل هذه المشاغبات ، بل كانت
تسر بها وترويه في الليل على مسامعه .

وازداد غيظه وهو يستمع الى صبيان المقاهي يتندرون بلونه ،
ويشبهونه في ردائه الأبيض ببرغوث غاص في كوب لبن ، وينعطفون
نحوها يطمون شفاهم في قبلات يرسلونها على الأثر : محبة في النبي . .

وتنقلا من صائغ الى آخر ، ساعة كاملة عادا بعدها وقد تعرت هي تماما
من حليها تمشي الى جانبه حزينة تفكر في مصيرها مع جمال ، هذا الفتى
الاسمر الذي تحبه ، والذي ساء حظه فلم يعد يجد عملا . انه يحبها حب
العبادة ، مقطوع لها فهو لا يعرف أهله ، ولا يزورهم منذ تزوجها ، ولا
يزورونه ، وليس هو المألوم . فقد أجبرته هي على هذا مستغلة جمالها وحب
العارم ، بل لقد حالت بينه وبين الاختلاف الى مقاهيهم ضنا بالقروش التي
يكسبها من شغل الظهورات ، واذا كان جمال لا يوافق على عودتها الى
قصر الباشا فمن فرط حبه لها وغيرته عليها ، وتبا للعمل في قصور
الباشوات . أبناؤهم شياطين . لديهم بنات صديقات وفلوس ، لكنهم
يتعرضون حتى للخادمة ، وبالذات اذا كانت جميلة مثلها ، ومازالت هي
تذكر الابن الاكبر للباشا حين حشرها في المطبخ يريد أن يعريها ، ويعبث
بها وهي تقاوم ولا تصرخ خوف الفضيحة . ثم دخل الطباخ فألقدها منه !
والابن الاصغر وأبناء العم كلهم أرادوا أن يعبثوا بها ، ولولا الصدف
العارضة لنالوا منها ما يريدون ، أما الآن فأنا ست لها زوج يصونها من
كل بهدلة . لعنة الله على الجوع .

وتساءلت وهما ينعطقان عند العتبة ، ترى أكنت على حق حين قطعت ما بينه وبين بنى عمه ومقاهيهم ؟ انه يحبهم ويحبني ويعاني من مقاطعته لهم ، ويتألم كلما تذكر داريا وشريفة . لو كان على صلة بهم لساعده في محنته . . . كنت عبيطة . حتى حسين الذي نفحهما جنيها عمل عملته السوداء مثل وجهه ، وغيب في الليمان يقطع الحجارة مثل زوج خالتي . كنت آمل أن يتوسط أبوه عند البية فيجد عملا لجمال . المغفل كان يظن أنني أغريه . كان ذلك واضحا في عينيه . . مسكين . . ظل أمينا على شرف جمال رغم كل ذلك . وكم كدنا أنا وجمال نموت في جلدنا بعد أن قبض على حسين . لقد استخدم قفطان جمال في ارتكاب جريمته ، لكن الحادث مر بسلام ، وأثبت حسين أنه جدع والحمد لله .

راحت تجتر افكارها صامتة ، وجمال يدب الى جانبيها ، يفكر في حظه العاثر الذي ألقى به في برائن هذه المدينة العاتية ، أما كان الأولى بي أن أعود الى أمي والى شريفة التي ربما تكون قد كبرت ؟ كم يحزن اليهما وكم تتعذبان بسببه ! ، فقد قطع رسائله عنهما ارضاء لزنوبة . سأرسل لهما دون أن تعلم . ومازال يغيظه أنه لم يثبت بعد فحولته بمولود . وحق في وجهها فوجدتها ساهمة ، فوضع يده على منكبيها وهتف . الصبر ياست . . الصبر وعمما قريب يأتي الفرج . فلم تجب بكلمة واحدة الا أنها انعطفت بوجهها اليه ، وتبسمت ومضت تتأمله . كانت قد عبرت بخيالها مجاهل لا تعرف عنها شيئا الا من أحاديثه الطويلة عن قرينه وأمه وشقيقته وتذكرت في هذه اللحظة أمها التي ماتت وهي تعمل في القصر العيني تمورجية . ماتت من « الموراتزم » وراحت تتساءل ، ترى ما شكل أمه ؟ وهل شريفة خفيفة الدم مثله ؟ أم تراها تغفر شعرها مثل لداتها ، هنا في عابدين ، بالرائحة الكريهة ، رائحة الصندلية ؟ .

ولا تدري لم أحست بالاشفاق عليهما في هذه اللحظة ، مسكينتان ! انني أتعذب من البؤس الذي أعيش فيه ، فما بالهما هتالك في آخر بلاد الله ؟ لابد أنهما جائعتان جوع خالتي في البلد بعد أن سجن زوجها . أرسلتا جمالا ليعمل في البيت حتى يقيم أودهما ، وها أنا قد أجبرته على قطع علاقته بهما ، مرة واحدة استطاع حسين التجار بواب عمارة بحري أن ينتزع جنيها منه أرسله لهما . مسكينتان ! رحمة الله عليك يا أمي . كنت تنصحين النساء دائما بحب أهل أزواجهن ، حسين التجار لا يعرف أننا في معروف منذ عزلنا من شبرا .

واحست أن قلبها يترز بالألم والاشفاق على أمه وشقيقته ، فتفرست

فيه ورأته مهموما طال وجهه وعيس ، انها تكرهه حين العيوس ، فميزة جمال الوحيدة هي خفة دمه ومرحه ورجولته . أتراه غاضبا عليها بسببه أمه ؟ . وفجأة ، وكنتيجة لتقلب نزواتها ، قررت أمرا طوت عليه صدرها . قسمة ونصيب . الفقر يذل الرجال ، لعنة الله على الفقر . وكادت أن تسر إليه ، وهما في الطريق ، بقرارها الجديد ، ولكن جمالا لكزها قبل أن تحرك شفيتها وهمس : تعالى ندور حول جنيئة الأزيكية من الجانب الآخر فنختفي من وجه حسين النجار فانه يغذ السير الينا . وحانت منها التفاتة الى الخلف ، فرأت الرجل يلهث وراءها ، وكادت أن تسرع الخطى الا أنها أثار دهشة جمال حين أخذت تتمهل في مسيرها ، بل تجره الى الخلف وهي تهمس : لماذا نهرب منه يا جمال ؟ عد الى أهلك . اننا لم نسرق . . فهمس في عجب : أعود الى أهلي . . ماذا تقصدين ؟ أتركك وأعود اليهم ؟ مجنونة . قالت : كلا . . سنختلط أنا وأنت بهم . انهم لم يسيئوا الينا في شيء . أنا التي أسأت اليهم . . . سامحنى يا جمال . .

وأطل حسين النجار عليهما ، وهو يصرخ في لهات : يا بني آدم ، أنا دخت عليك . بحثت عنك أسبوعا كاملا في كل مكان حتى رأيتك هنا في ميدان الأوبرا خذ . .

وعبث في جيب الصديري وأخرج جوابا ، فتوقف جمال ليقراه ، بينما اتجه حسين النجار الى زنوبة يحييها ، فلاقته بطرف باسم ، وقالت : لا فائدة من القراءة في الطريق ، تفضل الى مسكننا في معروف . . تفضل . .

وألقى جمال نظرة جانبية عليها تعبر عن الدهشة والعجب ثم ساروا في صمت حتى عبروا ميدان سليمان باشا ، ودخلوا معروف ، وارتقوا السلالم ، وبلغوا حجرة البغدادلي فوق سطح العمارة .

وأعدت هي فنجانين من الشاي ، وأتكات على السرير تستمع الى حديثهما عن البلد ، وجمال مازال ممسكا بالجواب . ثم فضه ومضى يقرأ والدموع تنالق في عينيه حتى أوفى على غايته ، فاعتمد رأسه بين راحتيه غارقا في أفكاره لايلقى بالا الى الرجل ولا اليها ، فتقدمت منه واختلطت الجواب ، وفحصت خطه المتعرج ، وتأملت كلمتين أذابتهما قطرات الدموع ، فرق قلبها ومضت الى نهاية الغرفة ، وتوقفت الى جانب المرأة الصغيرة فبدت وكأنها تتأمل وجهها هناك ، الا أنها مدت يدها الى صدرها ، وأخرجتها بمنديل صغير مطوى فضته ، وعادت تدفع بجنيه كامل الى يد جمال ، وهي تهمس في صوت متهدج : أكتب لهما يا جمال ، أرسل لهما

هذا الجنيه • قل لهما ان زنوبة ترسل لهما هذا الجنيه • هه يا عم حسين
ماذا تقول ؟ •

وفغر بواب عمارة بحرى فاه ، وعجب من تغيرها المفأجىء ، فزال
الحقد من قلبه وتنهد وقال : بنت أصل •• الرك على الأصل ••

وهمس جمال : سأرسله لكنهما تطلبان عودتى • ولا فائدة من
البقاء هنا ، ولن أغيب الا شهورا أصرف فيها التعويضات ثم أعود • يبلغ
كبير ولن يصرفه غيرى أو أمى اذا أرسلت لها توكيلا • مارأيك ؟ أم
تسافرين معى • خير لنا أن نسافر معا •

فتفرست هى فى حسين تقرأ على وجهه ما يجول فى خاطره ، فلم
تتبين شيئا ، وانثنت الى زوجها تثبت عليه نظراتها ، فانها تعلم ما الذى
يدفعه الى مثل هذا الحديث، أن تسافر معه • لماذا يريد أن يحملها معه الى
آخر بلاد الله ؟ انه يغار عليها ويخشى أن تعود الى قصر الباشا ، الى
الذئاب كما تعود حسين طه أن يسميهم • وقرأت الاصرار فى وجهه ولكنها
قالت بعد صمت : ياه ، بلدك بعيدة ، ستة أيام سفر بلياليها ! وردد
الضيف من بين أسنانه : لتكن فرجة وفسحة ياست • فضحكت معجبة
بكلمة ست هذه ، فكشفت عن ثناياها البيضاء ، وقالت فى دلال وقور :
ولكن هل يسرهما رؤيتى يا عم حسين ؟ قال : سيحبانك مادام جمال
يحبك ياست • ثم سكت الرجل موقنا أنه يكذب • فهما لن ترحبا بها ،
وان كانتا ستكرمانها اكرام الضيف حبا فى جمال ••

وتركهما الرجل بعد حين ، وترشت ريشما سمعت وقع خطاه على
السلم يتلاشى فمدت يدها تخلع حذاء جمال ، وتذلك قدميه ، وتدغدغ
باطن القدمين الى أن تعالت قهقهاته ، واستثير فنهض يدفعها فى صدرها ،
وفار الدم فى سرايينه وهى ترتكن على السرير وأحس بخدر لذيذ حين
احتكت أنامله بجسدها البض وبالرمانتين اللتين أثقلتا صدرها البديع ،
وهمست فى دلال : لا يا جمال ليس الآن ، ولكنهما رغم ذلك اندلقا على
السرير ، ثم مضى الهمس بينهما يملأ الحجرة الضيقة بسحر غاصا معه
فى غيبوبة ارتشفا من خلالها كأس الهناء ، ثم غرقا فى النوم وقد تشابكت
الصدور •

الذين قرأوا اسماءهم وهم فى دار العملة وأخذت بألبابهم
المئات بدأوا يقيقون ويحسون أن حياتهم كلها ، أن الأرض التى
عشقوها منذ الصبا ، وأشجار النخيل والبيوت لم تعد لهم ،
وأن فى الحكومة من يكيد لهم ، فبات الواحد منهم يسير فى الطريق الذى
يشق المزارع من الشاطئ الى السفوح الشرقية ويتأمل ذرات التراب التى
تشكل شريحته من الأرض ، ويتنهد كما يتنهد انسان رقد ابنه الوحيد
على فراش الموت ، ويعد على أصابعه ما يجتنيه كل عام من أرضه ومن
كل نخلة يملكها ، ويعقد المقارنات بينها وبين تقديرات الحكومة لأثمانها
فيحس بالغبن ، ويشعر بالثورة والعجز فى نفس الوقت ، ويسرى فى كل
بدنه احساس بأنه يستغفل ، فتجحظ عيناه ، ويتفرس فى شريحة الأرض
والنخلات من جديد ، ثم يلقي بنظرات ساهمة غاضبة فى اتجاه الشمال .

فهكذا شق الشيخ جعفر وأحمد عودة وأبى « أمين كلثومة » هذا
الطريق ، يسرون فى تودة لأن الشيخ فضل كان يمشى معهم بساقه
الحشبية فى حذر وبطء ، فان ملتقى هذا الساق بالفخذ أخذ منذ فترة
يسبب له ألما يثير فيه احساسا بالاغماء .

سار بينهم ووجهه يطالع الرجال فى ذلك الأصيل من شتاء عام
١٩٣٣ بمشاغل كثيرة فوق آلامه تعتصر قلبه وكان نصلا حادا قد غاص
بين ضلوعه . . وبدأ منظرهم وهم يسرون فى صمت منظر أناس عائدين
من المقابر ، فقد زموا شفاهم لا يتكلمون ، بل يحدقون فى عيدان القمح
النامية وشجيرات الفول المتمايلة وفى الأفق البعيد .

وبدت شفاههم وكأنها صمتت منذ لحظة قصيرة فهى منفرجة قليلا ،
ولعلمهم تكلموا كثيرا ، ووصلوا الى نقطة يحسن لهم السكوت عندها .
آيقولون لا أم يقولون نعم ؟ أيرفضون صرف التعويضات أم يقبلون ؟ كل

واحد منهم كان يصمت في انتظار أن يدلي الآخرون برأيهم ليزن الأمور على حقيقتها . أيمشون في ركاب بدر افندى وأنصاره أم ينكصون على أعقابهم في منتصف الطريق ؟ وماذا يكون مسلك الحكومة ؟ أتجرهم الى زنزانة المركز في الدر كما فعلت بيرعى والمأذون والافندى نفسه أم أنها ستترفق بهم احتراماً لحمة السن والمقام ؟ . وهل يجديهم فيما هم فيه ما يطالبهم به الأفندى وبيانات النادي في مصر والاسكندرية ؟ على بك أبو زيد ليس من رأيهم . أما الآخرون فيسيرون في ركاب الافندى ويحترمون رأيه . ولكن يبدو أن الأفندية ، وهم الموظفون الذين يضمّنون راتباً شهرياً ، لا يدركون حقيقة الأمور ، فالفلوس شحيحة وما باليد حيلة ، والجراد وسوء المحصول وانخفاض اسعار البلح والمجاعة . كل ذلك الذي يدفع الناس في كل التجوع والقرى فيوشكون للرضوخ ، كل ذلك لا يدركه الأفندية ولا يحسون به . انهم يمنون الناس بتقدير أسخى لممتلكاتهم ، الا أن الفلوس المعروضة ليست في علم الغيب بل في متناول اليد ، فيفلق التاجر أمين كلثومه وأحمد عودة وكل تاجر آخر فمه حين يستوفى ديونه، ويشطب قلم الكوبيا ولأول مرة منذ عشرين سنة آخر مسطر في دفتر الاستاذ واليومية حتى يقضى الله أمره .

كل واحد منهم كان يفكر بطريقته الخاصة . فالشيخ أمين وأحمد عودة كانا يفكران في ديونهما ، وسوف يستوفيانها على دابر المليم وزيادة اذا ما صرف الناس تعويضاتهم ، ولكنهما ، في الوقت نفسه ، يعرفان ما في التقديرات من اجحاف وغبن فيتأرجحان ، ويصمتان طويلاً ، ولا يدلّيان برأى ما خشية أن يغضبا الآخرين .

ولأول مرة منذ قطعوا حديثهم صاح الشيخ جعفر في نبرة غاضبة : ملعون أبو الدنيا وما عليها ! فالتفت اليه ابي في تحفز وكان أمه هي التي لعنت وصرخ : استغفر ربك يا جعفر ، فارادة الله ستكون . الله يارجل . . ولم يدعن جعفر بل مضى يجادل : الله الله . . دائماً تقولون الله . . انه رحيم بعباده ولا يريد بنا الشر . فازداد وجه فضل تجهما ، وتأمل في الرجلين وهو يكرز على أسنانه دون أن يقول كلمة واحدة بينما انطلق الجزار يقول : لن يكون في وادينا ربيع أخضر ، ثم صمت كأنما يفكر وأردف : والعلف اليابس لا يجدي . من أين اذبح لكم ؟ ونظر اليه ابي في عجب وهمس كأنما يردد الكلمات لنفسه : بع لنا لحماً ميتاً كما فعلت منذ شهور ! فغضب الجزار ، وصاح : لحم ميت ! حرام عليكم يا هوه . أنا مسلم أم نصراني ؟ والتفت الى الشيخ جعفر وأضاف : اللحم كان

جمل وبطة الغشيمة لم تعرف كيف تطبخه • وعلى أية حال كل اللحوم ستكون ميتة بعد الطوفان !!

وبدا واضحا أنهم يفيضون في الحديث عن أى شئ غير النقطة التى توقف عندها حديثهم • أيقبلون أم يرفضون ، رغم أن المسألة ملحة وعاجلة ؟ • لقد سمعوا « الشيخ صابر » يخطب الجمعة فى كلمات ومعان متصلة بحياتهم ترددت لأول مرة فى جامع القرية • تكلم عن الظلم ومقاومته ، وتحدث عن عمر بن الخطاب ، الا أنه فى نهاية الخطبة ردد آية احتار هو نفسه فى تفسيرها وتكييفها حسب المناسبة : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » • فمن هم هؤلاء المترفون ؟ ولا مترفون ولا حاجة يا شيخ صابر • قالها النجار وقالها العمدة وقالها هو بعد حين •

لقد اعتادوا حل مشاكلهم ، مشاكل القرية فى براعة ، الا أنهم اليوم يواجهون مشكلة معقدة • وعقول الافندية وحدها كما زعموا هى الكفيلة بحلها • وليت « حسين طه » نجح فى اغتيال صدقى باشا لاستراحو اذن من تصديع الأدمغة ولتلاشت المصاعب •

الشمس تذهب خوص النخيل وتصبغ السماء بشفق أرجوانى شفاف ينعكس فى ايقاع جميل مع النسيمات الرطبة التى تلمح وجوه الرجال • وهناك تحت الصخرة المعلقة على كتف الجبل فى محاذاة النتوء الشرقى شوهد طابور من الدواب يتحرك تنوء بحملها الثقيل ، ومن حولها رجال يحملون أثقالا أخرى ، ومن خلفهم الحفر والجنود • وبدت على ظهور الدواب والرجال مكاتب ومناضد ومقارن وأسرّة وصلت فى الرفاص منذ الضحى ، وأفرغت عند النتوء فى الظهر • وعلى ظهر جمل استقرت خزانة حديدية ثقيلة تسهر عليها بنادق مشرعة فى وجوه الناس الذين تجمعوا على عتبات البيوت يرمقونها بعيون ذاهلة • هنالك الفلوس ، على ظهر الجمل ، فلوس التعويضات يحملونها الى بيت العمدة • وهؤلاء هم الافندية الذين سيصرفون التعويضات • رجل قصير القامة أشيب الفودين ، عيناه تختفيان خلف عوينات سميكة يهبط بها اذا ما أراد تحديق البصر الى أرنبه أنفه • وظيفته رئيس لجنة التعويضات • مضى رفاقه ينادون عليه بالقب مختلفة : الأستاذ غطاس • غطاس بيه • غطاس افندى • سعادة البيه •

وغابت القافلة عن العيون ، لكن الرجال لم يتحدثوا عنها بل حار فى اذهانهم سؤال لم يلفظوا به : ما الذى يراه العمدة فى كل ما يدور

حوله وفي لجنة الصرف التي تمضي لتستقر في دواره ؟ هو والمشايع لم يقولوا كلمة واحدة الا الشيخ جعفر الذي مضى يصيح في كل مكان : يجب أن نفعل شيئا ، ولا يسميه ، ولكن أين هذا من رأى يديه العمدة ؟ أليس رأس أكبر عائلة في القرية ان قال نعم قالت العائلة معه نعم ، واذا ما نهى انتهت عن كل شيء ، ولكنه لا يفوه بكلمة واحدة ، بل يزم شفتيه ، وان كان البعض ، الذين يفهمون ، قد أدركوا من تلميحاته وحركاته أنه يشير عليهم بمقاطعة الصرف .

واشتدت حيرة الرجال ، وهم يراقبون الحزاة الثقيلة تهتز على ظهر الجمل ، وتمشي كأنما على قدمين لتستقر في بيت العمدة ، وأمعنوا النظر في وجوه بعضهم دون أن يقولوا كلمة واحدة . التقيت بهم عند البقعة التي تعلو فيها الأرض لترتفع الى السفوح ، وأقبلت عليهم فتلقاني أبي بوجه باسم ووضع يده على رأسي وقال : أين كنت ؟ قلت : كنت عند مصطفى أفندي ! فقطب جبينه وغمغم : أفندي ! مرة أخرى عند مصطفى ! ألم أقل لك عشرين مرة ؟ الشيخ شليب يشكو منك مرة أخرى . وألقى نظرة في اتجاه خالي وأردف : أصبح بليدا منذ التقائه بهذا الولد .

وتمنى الشيخ فضل نفس أمنياته القديمة ، وتحدث عن الازهر والجبة والقفطان الشاهي اللذين سأعود بهما ليتحلقوا بي في دروس الدين ، فأحسست ازاء ذلك بنفور شديد ، بل شعرت بالدموع تقفز الى عيني ، وأدرك أحمد عودة ما أعانيه ، فدفعني من ظهري وهو يقول : عد الى البيت . كلا يا فضل انه لا يريد الازهر ، وغمغم الجزار : يريد اذن أن يكون فلاحا . ولكن لن تكون هناك أرض يا ولدي حامد !!

ومال الشيخ فضل الى الأرض ، وأنشب فيها راحة يده ، وعاد بها تحمل حقنة من التراب تركها تتسرب من بين أنامله في اتجاه الريح ، وتمعن خالي فيما يفعله وهمس في صوت حزين : ستقتلك الأرض يا فضل ، فقال هذا : انا اليها راجعون . وواصل أبي حديثه معي : بهرتك المدرسة يا حامد ، وأضعت سنة بحالها دون حفظ ، بل ان الشيخ يقول انك تنسى ما حفظته .

وفكر قليلا ثم أردف كأنما وجد حجة قوية : والمدرسة في الدر أغلقت ، ولا ندري متى يعيدون فتحها ؛ يقولون ان الحكومة ستنتهز فرصة الطوفان وتغلقها الى الابد . وهمس خالي : لعلمهم يفتحونها باذن الله .

وزاد الأمر وضوحاً حين أكد : على كل فإن إغلاق المدرسة هو ما يتخوف منه الشيخ مرسى ، ولكننى كنت فى عنيبة بعد وفاة عيشة ورأيت رجال الحكومة يبنون المدرسة والمركز والمحكمة والسوق فى أرض قضاء بين عنيبة ومصمص .

وقبل أن أتحرك لاعود رمقنى الشيخ فضل باسماء وسألنى أتصرف التعويضات يا حامد أم ترفضها ؟ فضحك الجزار وسأل : انه صغير وما شأنه بالتعويضات ؟ وردد الشيخ فضل : البيت الكبير مسجل باسمه . ونظر الى الجزار فى حسد وهمس : اذن فأنت غنى ؟ فأرسل أبى ضحكة خافتة وقال : الغنى غنى النفس يا عبد الله . . ثم لكزنى خالى يمينه وهو يردد السؤال نفسه ، وتذكرت أنا كلمات برعى والمأذون وبدأت المسألة جلية فى مخيلتى ، مسألة بسيطة أهتف بها كما هتف بها برعى لكننى تريثت ، فلم أكن أعرف رأى أبى وخالى فحرت فى أمرى . لم أكن أحس بالازمة التى يعانىها الرجل ، ولم أعرف أن المتجر على وشك الافلاس . كل ما أدركته هو أن الرفوف تخلو يوماً بعد يوم وأن المنازعات تتزايد بين التاجرين وعملائهما . وقد أحسست مرة بنفور شديد من أبى ، يوم صحبته معى الى بيت داريا سكيئة يطالبها بالديون . . أصر على اقتياد كل ما استطاعت تربيته من معيز فى موسم الذرة فلم يبق لها ولابنتها الا واحدة كانت شريفة تدللها وتسميها معزتى . . معزة لامعة الشعر بغرة بيضاء على الجبين ، يتدلى من فكها الاسفل عثنون صغير كسا وجهها بوقار مضحك . حتى هذه كان أبى يريد أن يأخذها ، فبكت الفتاة ، وراحت تستعطف ، وانضمت اليها حتى تركها أبى ، ثم انصرف وهو يصرخ فيهما : كتر خيرنا . احمدا الله . وداريا تجيب فى كلمات متعثرة : كلها أيام ونصرف التعويضات ونسدد كل الديون يا أمين .

تداعت هذه الصورة فى مخيلتى ، وهم يرددون السؤال الذى لم يستطيعوا الاجابة عليه ، ثم برز برعى أمام عينى وهو يردد : التعويضات قليلة . فأخذت أجول بعينى على وجوههم فوجدت خالى ما يزال يبتسم لى وينتظر اجابتي على سؤاله ، فعزمت وقلت : ارفض صرف التعويضات . فضحكوا جميعاً دون تحفظ . . ثم ردد أبى : يا لكم من صغار لا تدركون من أمور الحياة شيئاً . وقاطعه فضل : انهم هم الذين سيلحق بهم الضرر يا أمين . فقد عشنا حياتنا ، أما حياة حامد والصغار فهى التى تتأرجح اليوم على كفة الميزان .

وأحسست بالاعتزاز ، فقد أصبح لى رأى أقوله تماماً مثل الكبار ،

وشعرت بالامتنان لأمي التي أصرت على تسجيل البيت الكبير باسمي
فلولاها لما سألني أحد ، هل أقبل صرف التعويضات أم أرفضها ؟
وشجعتني كلمات الشيخ فضل فقلت دون وجل : أنا لن أصرف
التعويضات الا اذا زادوها مائة جنيه . ونظرت الى الجزار وقلت : أما أنت
يا عم عبدالله فيمكنك أن تصرف ما دمت تريد ! . فانطلقوا مرة أخرى
ضاحكين ، وانكفأ الشيخ فضل على الأرض اذ افلنت ساقه الخشبية منه
حينما اهتز جسده بالضحك ، فأسرعوا اليه وأقالوه من عثرته ، فاتجه
لي ، وربت يده على رأسي وراح يردد : عفارم يا حامد . ولد من صلب
ولد . باسم الله ما شاء الله ، وكأنك بدر أفندي . لا أزهر ولا حاجة ،
ابعث به الى المدرسة يا أمين .

فتجهم أبي ، وانتهرني ، وذكر الرجال بقصة ضاربة الودع التي
أكدت أنني سأقف أمام المحاكم مرات ثلاثا ، فصرخ فضل الماساوي يقطع
أبي : حرام عليك يا أمين ، كذب المنجمون ولو صدقوا .

وانشغلت أنا عنهم بتصوراتي للمدرسة الجديدة والمصاعب التي
تقف في طريقي إليها ، وكنا قد بلغنا الطريق التي تنتصب أعمدة البرق
على جانب منها ، فتوقفنا قليلا عند الشؤنة نستمع الى صوت المؤذن
يدوي من فوق مئذنة الجامع خلف بيتنا ، فاخذ الرجال يتمتمون بالدعاء ،
ثم انصرفوا الى الجامع ، بينما انصرفنا أنا الى المتجر حيث كان «اشن الله»
يياشر العمل .

وعاد الرجال من الجامع ، وبينما كانوا يهبطون في الدرب المتعرج
أقبلت داريا سكيئة عليهم متهللة تتطاير طرحتها من حولها فتكسبها
صورة غامضة . كانت تصرخ : جواب يا شيخ أمين . جواب من جمال
ولدي ! ومن خلفها كانت شريفة تسرع لتلحق بها وعلى وجهها شك
وخوف . لعلها كانت تفكر في المأساة التي طالعتها في أول خطاب تلقيها
منذ عامين ، وانتهى أحمد عودة من قراءة الرسالة على ضوء فانوس ،
فاطلقت داريا زغرودة ملأت النجع كله ، ثم احتضنت ابنتها ، ومدت
يدها بالحوالة الى أبي وصاحت :

اعد لي معيزي يا أمين كلثومة . لقد أرسل جمال وسوف يرسل
في كل شهر . معيزي يا أحمد عودة . وصممت لحظة ، وتناسست معيزها
تماما ثم قالت : وسوف يعود يا أمين ، فالرسالة كانت تقول انه يفكر
في العودة . ولاول مرة عرفت داريا وشريفة مدى حبه للبيضاء التي

تصيدته في مصر ، ووجمتا قليلا عندما علمتا أنها هي التي أرسلت
الجنه لهما . .

وكما أن للحزن دموعا فإن للفرحة دموعا مضت تسبح على وجه
شريفة وهما تعودان الى دارهما في خطى راقصة .

وأطلت بطة من الباب عليهما تسأل ما الخبر ؟ فجذبتها شريفة الى
صدرها وهي تهمس : تعالى لتسهر سويا . ساساعدك في اعداد ثيابك
فلا تعتذري بها .

وسرى الموكب الصغير يطلق الزغاريد ، وعرف النجم كله أن جمالا
أرسل جنهها كاملا لأمه « داريا سكيئة » .

الساحات والمصاطب والمتاجر ومكاتب البريد في كل قرية
تحولت الى منتديات صاخبة يتجمع فيها الناس ، ويتحدثون
عن اللجنة وغطاس بيه وأمثاله في كل مكان . لكنهم ،
وكعادتهم ، كانوا لا يطرقون الموضوع مباشرة بل يدورون حوله بأمثال
شعبية يتعسفون في نسبة بعضها الى النبي ، وقد تسببها على شفاه
البعض : قال سبحانه وتعالى ، ثم يروون طرفا من أخبار مصر ، يرددونها
بأسلوب يجعلك تعتقد ألا صلة بينها وبين ما يعانون ، ثم يتوقفون عند
مشارف المشكلة ، ويظلون الى ساعات متأخرة من الليل يحجمون ويقدمون
حتى ينفد صبرهم .

وفي الصباح يملأون على دار العمدة ، ويطلون على مقسر اللجنة ،
ويستعينون بالله من الشيطان الرجيم ، ويتمنون على الله أن ينهي عذابهم
الذي بدا أزليا لا يزول .

وفي هذه المنتديات دار برعى والمأذون والمحامي ووابور كما يدور
النحل . واليهما قصد غطاس بيه مرة بعد أخرى ومعه رفاقه يحاور القرويين

ويداورهم ليلة بعد أخرى • كان يتنحنج ثم يبتلع ريقه ، ويهبط بعويناته الى أرنية أنفه ، ويعيد عليهم تلاوة القانون رقم ٦ لعام ١٩٣٣ :

— القانون يامحترم يقضى بنزع الملكيات نزعا كاملا الا في توماس وتوشكى غرب وأبو سمبل وبلانة وأرمنا ، هذه البلاد لن يكون النزاع كاملا فيها ، ولن يصرف الا نصف التعويض ، وهى البلاد التى ستقام فيها مشاريع صيفية للرى ، على حساب النصف الثانى يامحترم •

— وبلدنا يا أستاذ ؟

— البلاد الاخرى مثل بلدكم تنزع ملكيتها نزعا كاملا ، وتصرف تعويضاتها كاملة ، ولكم الخيار فى الرحيل الى أى مكان تفضلونه ، أو البقاء هنا على الجبل •

ويصمت قليلا ، ثم يهز عويناته على أرنية الانف ويستطرد :

— والحكومة ستساعدكم فى الانتقال اذا أردتم •

فيقول الشيخ فضل : ولكن التعويضات قليلة ، فيماذا تشير علينا ياسعادة البيه ؟

فيخلع الرجل نظارته يمسح عليها بمنديل ، ويشرح : حسب القانون يامحترم من حقا أن تتظلم الى لجنة المساحة ، وسوف تكون معنا هنا لجنة تظلمات خاصة • • صبرك بالله • • دعنى أشرح لك • • بعد أيام ستكون معنا هذه اللجنة قبل الصرف الذى سيتم بعد أن تسوى كل الحسابات • •

وتدخل المحامى هنا فى غلظة : ولماذا لا نرفع الدعوى على الحكومة نفسها ؟ ومتناسيا الكلمات المطبوعة التى تلاها على الناس بنفسه !

ولا يميل القرويون الى رأيه ، فانهم لا يدركون كيف يمكن للمرء أن يتجرا ويرفع دعوى على الحكومة نفسها ، فيوجهون اليه نظرات مؤنبة وكأنما يقولون : أسكت ياشيخ ، جعلت رقابنا مثل السمسم أمام البيه ! ثم يعلو صوت رئيس اللجنة — غطاس بيه — القانون يامحترم يحرم ذلك ، لكن المحامى لا يقتنع بل يكابر : أنا أعرف القانون أفضل من معرفتك له ، فيضحك الافندية فى أدب ليواصل رئيس اللجنة حديثه : لا يامحترم : القانون يؤكد أنه ليس من حق أى كائن أن يرفع دعوى على الحكومة بسبب نزع الملكية أو تقدير التعويضات • الدعاوى ممنوعة !

ويسود الهمس والهمهمة ثم تعلو الاصوات فيهب غطاس أنامله فى

وجوههم محذرا : .. اسكت يا محترم . استمع لكلامى أفيد لك ، لكنهم لم يسكتوا بل صاح صوت .. فماذا تفعل اذن ؟ يا .. يا محترم من حقكم أن تتظلموا . عشرين مرة وأنا أردد هذا الكلام .. نعلم فى المتبلم . وسكتوا موقنين أنه ليس أمامهم الا أن يحرروا التظلمات كما فعلوا من قبل ، وأن ينتظروا الرحمة من السماء واعادة التقدير من المستر هيس ومهندسيه . وبدأ التذمر واضحا على وجوههم ، فركب الخوف كل الافندية فعادوا أدراجهم ، وتلكأ العمدة يطالع وجوه الناس ، ويتركهم يطالعون وجهه ، ثم تبع الموظفين فى خطى مسرعة .

وأحس الناس أنهم يفوضون فى اليم عند دوامة هائلة لا تلوح لهم فيها حتى قشة تافهة يتعلقون بها . أحسوا انهم تائبون فى صحراء لا نهاية لها . صحراء من الأحاجى والألغاز والأرقام وبنود القانون ومختلف اللجان .

ولحق سيد وابور بالافندية عند مصطبة أخرى ، ووقف يستمع مليا الى أحاديثهم ، ثم هتف بالناس : اذن فليس أمامنا الا أن نعتصم أمام اللجنة ، ونرفض صرف التعويضات .. وفى انتظار ذلك علينا أن نغرق اللجان ورجال الحكومة بتظلماتنا .

فهز غطاس بيه يده محذرا ، ثم بارح المكان الى مصطبة أخرى ، ونشط المحامى ورفاقه فى هذه الايام فكتبوا التظلمات ودفعوا بها الى أسوان والجيزة . وأخذ بدر أفندى يحل فى هذه القرية أو تلك .. ساعة يحرض الناس على مقاطعة الصرف ويكتب لهم نماذج جديدة للتظلمات .

وجاء يوم كانوا يتوقعونه ، وفيه بينما الرجال يعودون بأبقارهم وفئوسهم متجهين من الغيطان الى السفوح الشرقية فى غبش المساء ، دوى صوت فى النجع ينادى عليهم : يا أهل الزينية يا أهل الزينية ! فركزوا الفئوس على الارض وأصاخوا السمع : يا أهل الزينية . ثلاثة أيام وبعدها ، فى يوم السبت اذهبوا جميعا الى بيت العمدة . وماذا سيكون فى بيت العمدة ؟ كانوا يعرفون الاجابة ، لكنهم كانوا يتساءلون على اجابة أخرى تنحدر اليهم من السماء . وظل الصوت يتردد فى النجع : من يوم السبت صباحا سبتبدأ اللجنة فى صرف التعويضات ، فانطلق السؤال يتصاعد الى الأدمغة ، انفجر كما انفجر البركان : أنقسطع أم نصرف التعويضات ؟ نصرف ونتكل على الله ! لا يا ابن الكلب نمتنع . انت يا داريا لن تصرفي قبل أن يعود جمال فاسكتى . اياك يا عبد الله ، اياك أن تفعلها ..

صبرك بالله .. ما هي الا أيام حتى تقبل الحكومة زيادة التعويضات !

وخرج الشيخ فضل من بيته بعد أن سمع النداء ، وأخذ يدب بساقه الخشبية في الدروب ، يطرق باب كل بيت ، ثم عاد وتربع في الساحة الممتدة بين المتجر والشونه ينتظر حتى أقبل الناس عليه ، فطفق يشرح لهم أهمية مقاطعة اللجنة . أعرف أن الجوع كافر ، لكن في امكاننا أن نصبر أياما . الديون ! سينتظر الشيخ أمين عليها .. لا تخافوا . الحكومة لن تعتقل أحدا الا اذا كان وحده . وماله ؟ السجن للرجال .. وهل يضيع حق وراءه مطالب ؟ امتنعوا عن الصرف وسيتم كل خير باذن الله .

وهز الناس رؤوسهم هزات اعتبرها فضل « رضا » وسر لها برعى الذي توقف عن كذب يراقب خاله في اعجاب وزهو . وكاد المجلس ينفض الا أن المأذون انبرى يقول : ولماذا لا نقرأ الفاتحة على ذلك ؟ فوجم البعض الا أنهم رضخوا في نهاية الامر ، ووضعوا مصحفا كبيرا ركزوا أكفهم عليه ، وقرأوا الفاتحة وأقسموا ألا يصرفوا الا معا ؛ وتمتموا : آمين . الا أن عبد الله الجزار تلكأ .. ثم وجد العيون تحقق فيه فقال : آمين في صوت خافت .

وهذه هي دار العملة ، فسيحة يتراعى خلفها بستان تهتز فيه أشجار النخيل وتنمو بعض الخضر تحت سيقانها ، وفي محاذاة الجدار المقابل للطريق العام تجرى مصطبة عريضة ترتفع عن الأرض ، وتطل عليها أربع نوافذ ، ينفذ منها ضوء الشمس الى الدهليز خلال الجريد المتقاطع . ثم الى غرفة السلاحيك ومعه نسيمات رطبية تهب من الحقول عبر الطريق العام .

وثمة تعديلات ادخلت على الدهليزين . فقد أعدا كمكاتب للموظفين ترفرف عليهما ستائر خفيفة أخذ الموظفون يطلون من خلالها على الناس ،

ستأثر تحجب في نفس الوقت نظرات القرويين عنهم .. والأرضية فرشت
يسجادتين عريضتين ، وتحت النوافذ مباشرة ، ومن حولها رصت مكاتب
وكراسي للموظفين ، أما غرفة السلاحيك فقد قسمت الى مكتبين خصص
أحدهما للخزانة ، بينما اتخذ غطاس بيه من المكتب الثاني مقرا يدير منه
أعمال لجنة التعويضات .

وعلى المصطبة الخارجية ، وفي غرفة الخزانة عساكر يقفون على أهبة
الاستعداد لتفريغ رصاصاتهم في صدر كل من يحاول الاقتراب من الخزانة
الثقيلة ، أما الخفر فقد ارتدوا جميعا ، منذ جاء الموظفون ، ملابسهم
المضحكة كاملة ، يمر عليهم العمدة وشيخهم ، وبعض مشايخ الحمص
يأمرونهم بالسهر على راحة الغرباء ، ويبعدون عن الضيوف جموع الناس
التي بدأت تطل في دهشة ، وتلح في السؤال عن المصير الذي ينتظرهم .
العمدة ومشايخه يحسون بالخرج ، فهم وكلاء الحكومة ورجال
الضبطية والمكلفون بأمن اللجنة وموظفيها ، وعلى عاتقهم اكرام وفادة
الغرباء ، ومواجهة أهل القرية لتنفيذ أوامر ضابط صغير جاء من المركز
ليلقى أوامره هنا وهناك مزهوا بشبابه ، قليل الخبرة بعادات الناس
وتقاليدهم .

العمدة والخفر والمشايخ من رجال القرية ، نبتوا وعاشوا فيها ،
يعرفون كل الناس ويدركون المصير الذي ينتظرهم والناس . أراضيهم
وقبور أجدادهم ذات الشواهد الحجرية البيضاء ستغوص في اليم كما
تغوص أراضي الآخرين ! ويكونون مثلهم المشاعر نفسها حيال الموظفين ،
وما دام الناس يجأرون بالشكوى من التقديرات المجحفة لتعويضاتهم فان
العمدة والمشايخ جديرون مثلهم بالشكوى ، وإن كانوا في الوقت نفسه
يدورون حول الموظفين في خبث ، ويولون لهم ويسهرون على راحتهم .

استدعى العمدة « عبده بتيت » ونفرا من الرجال عملوا في مصر
وتقاعدوا في البلد منذ سنين ، ورجاهم أن يشرفوا على راحة رجال الحكومة ،
فمضى واحد يعد لهم طعاما شهيا يتفنن فيه ، وراح آخر يعد لهم شرابهم .
قهوة وشايا . بينما انبرى آخرون يخدمونهم في المكاتب ، ورغم ذلك فان
العمدة حائر ، وخليق به أن يرفع يديه الى السماء أن تنقذه من الورطة
التي تردى فيها دون ذنب جناه . فمنذ أيام كان قد عبر المنحنى الى الدر
عن طريق الجبل ، واجتمع بين لقيف من عمد القرى الاخرى « ببدر افندى »
الذي حدثهم طويلا عن الطوفان والتعويضات ، وتعسف حكومة صدقي
باشا في تقديراتها .

وطاف بهم الحديث في كل مدار الى أن طلب منهم الرجل أن يقسموا قسما لا يرجعون فيه : أن يتركوا الناس أحرارا فلا يضغطون عليهم انه لم يحضوهم على مقاطعة لجان الصرف مقاطعة كاملة ، حتى تتخذ الحكومة موقفا عادلا يرضون عنه . والرجل كان لبقا ، فأدار الحديث في فطنة لمعرفته بظروفهم ، فلم يشر عليهم ولو من طرف خفي - بالامتناع عن صرف تعويضاتهم الا أن أحد العمد بدا أثناء القسم والحديث كله متمللا ، يتحرك كثيرا في مجلسه ، وينفث دخان لفافاته في عصبية ظاهرة ، وحين حانت الفرصة رفع صوته يسأل ، وهو يطرق برأسه الى الارض :

– ولكن يا أستاذ بدر . لامواخذة لو سمحت لي يا بدر أفندي .

واتجه بدر أفندي اليه في اهتمام وواصل الرجل حديثه :

– وماذا نفعل نحن العمد ؟ أنقاطح الصرف أم نقبل عليه ؟ فانك صيد العارفين بأوضاعنا ؟

ويبدو أن بدر أفندي كان يعرف الاسباب التي حملت الرجل على مثل هذا التساؤل ، فصمت طويلا وهو يدير حبات مسبحته ، ويحدق في عيون الآخرين ليقرأ في بريقها لهفة لسماع رأيه في العضلة التي يواجهونها . ثم مر بأنامله على شاربه المدبب في حيرة ومس رباط رقبته ، ومضى يتكلم في صوت هاديء رزين : اتبعوا ضماثركم . والناس على دين ملوكهم ، وخصوصا بعد المجاعة والجراد ، وانخفاض أسعار البلح كما تعلمون ، فهزوا رؤوسهم معجبين بالرجل الذي لم يؤثر السجن فيه ، وأحسوا أنه مثلهم – معرض للأخطار نفسها ، بل ان الحكومة قد تنتزعه من وظيفته التي تدر عليه مالا لا يستهان به ، وقد تقاضيه الحكومة وترسله الى الليمان كما فعلت بحسين طه منذ شهور ، وهاهو رغم ماكابه ورغم المرض الذي يعانيه يتحدث اليهم في حماسة ، ويتنقل من قرية الى أخرى يحرض ، ويشعل نار المقاومة في أناس يعرف أن الجوع يهز قواهم ومقاومتهم . انه رجل عجيب ، ولذلك فانهم عاشوا في تلك اللحظة يرمقونه في اعجاب واشفاق موقنين أنه لا يعمل لمصلحته بل لمصلحتهم جميعا ، فاستداروا الى وجوه بعضهم يطالعون فيها شيئا يريدون أن يتأكدوا منه ، ثم هزوا رؤوسهم وكأنهم قد وافقوا على كل كلمة قالها الرجل . ثم نهضوا بعد ذلك يعبرون الطريق العام ، ويجتازون الجبل الى قراهم ، وعلى وجوههم ترتسم امارات تشير الى أنهم سوف يتصرفون وفق ما أوصاهم الأستاذ به .

وليس عليهم الا أن يوعزوا للناس تلميحا دون تصريح ، مع الاندفاع

فى تكريم الموظفين حتى لا يظنوا بهم الظنون • ولقد أدار بعضهم على المصاطب ، وفى هدأة الليل ، أقراصا سوداء تهدل مثلما يهدل الحمام : عصفور حصان للولد • الحزمة بمليم يادرة • خذيني باليمين • • باليمين أنا راقد شمال •

وبرغم ما أحس به من راحة ازاء ضيافته وباطمئنان الموظفين فقد بدا العمدة واجما وهو يواجه من فوق مصطبته جموع الناس الذين ربضوا بعيدا عن الدار ، عبر الطريق يحملقون فى رؤوس الموظفين المرتسمة على ستائر النوافذ •

وطاف المنادى بالنجوع مرة أخرى ليلة أمس ، وتعالى صوته يطلب من الناس التوجه الى دار العمدة عند مشرق الشمس ليصرفوا تعويضاتهم • وظل العمدة موقنا ، مثل غطاس بيه وموظفيه ، أن أحدا من النجوع لن يمس عتبة الدار •

ولكنهم جميعا رجالا ونساء وصغارا كانوا هنالك منذ بزوغ الشمس ، لقد وفدوا لا من نجع واحد بل من جميع النجوع راجلين أو راكبين •

وتساءل العمدة : ترى لماذا أقبلت كل هذه الجموع ؟ ولماذا يتجمعون هنالك عبر الطريق • لماذا جاءوا يفترشون الأرض كأنما هم فى ماتم • • ولا يقتربون ؟ لماذا يربضون هناك مثل القطيع صامتين كأنهم سيعيشون هنالك الى الأبد ؟ أتراهم يخافون من الغدر ، ان يحنت أحدهم بالفاتحة التى قرأها على المصاطب فيخترق سياج المقاطعة ؟

وفى اللحظة نفسها أطل غطاس بيه من النافذة ، وألقى نظرة عجل على الجموع ، وعاد بطرفه الى التلغراف الذى ورد له ليلة أمس ، أسرعوا فى الصرف • انتهوا منه فى أسابيع فتوترت أعصابه ، وسب ولعن خاش الصرف والدنيا وهؤلاء السود الذين يحرنون كما تحرن الحير • أدمغتهم مصفحة ، أدمغة من حجارة لا تلين • ولكنه رغم ذلك يأمل أن يتقدم مخلوق واحد ، مجرد انسان ولو كان كسيحا ليكسر النحاس ويصرف تعويضاته ، وحينذاك ستدور العجلة فيتدفق الناس • ولا يستطيع أحد الوقوف فى طريقهم • وانتشى من هذه الحاطرة ، وابتسم لنفسه ، ثم عاود النظر الى الجموع ، واعتمد رأسه بين راحتيه وأغرق فى التفكير • ترى ماذا تفعلين وحدك الآن يانرجس فى مصر ؟ مسكينة ، وماذا تفعل أمك ؟ هيه هؤلاء الكلاب السود • ثم حانت منه التفاتة الى الخزانة التى كان قد فتح بابها

منذ لحظات يطمئن عليها ، فومضت الأوراق الخضراء الجديدة في عينيه .
ورأته فكرة قام على الفور لينفذها ، فمد يده الى رزمة كبيرة من الأوراق
الخضراء ودفع بها في جيب معطفه ، واندفع يعبر الطريق ، وعلى جانبيه
الضابط والحرس يتبعهم العمدة في وقار ، اندفع حتى دنا من الجموع ،
فتوقفوا عن اللغو الذي كانوا فيه منذ الصباح ، وهبوا الى أقدامهم ،
واستداروا بعيونهم الى موكبه الصغير ، ثم توسطهم الرجل ورفع يده
اليمنى فوق رأسه وحيا ، فردوا بهممة غامضة لم يفهمها لكنه شرع
يتحدث : « نحن هنا يامحترمون لخدمتكم ، جئنا الى بلدكم النائية هذه
لنكون تحت تصرفكم ، فلماذا لا تتكرمون بتيسير مهمتنا ؟ ! لنا ياجماعة
أولاد مثل أولادكم الصغار يتلهفون على عودتنا ، واذا تغيبنا طويلا طال
شقاء هؤلاء الصغار اذ يقلقون على مصيرنا ، أنتم تعرفون لوعة الغريب
على أولاده ، لماذا تنظرون الينا في غضب ؟ نحن لسنا الا موظفين مثل
أبنائكم ، نأكل عيشنا بالعمل ونعيش كثيرا حياة الغربة . »

وصمت بعد أن مس وترا داميا في قلوبهم ، بعد أن ذكرهم بأبنائهم
المغتربين والذين لا يعودون ، فأصاخوا السمع لمزيد من كلماته مشفقين
عليه : التعويضات سخية وليست مجحفة ظالمة كما يشيع البعض . .
اسألوا حضرة العمدة .

وأشار الى الرجل باحترام ، فهز هذا رأسه علامة الموافقة ، وترى
حتى استدار غطاس يبه ليواجههم ، ويغمز لهم بعينه : لا تصدقوه ،
اياكم أن تصدقوه ، بينما عاود الرجل حديثه في بطاء وثقة أكبر ، الا أن
الرجال عادوا واجمين لا يستبين الرجل على وجوههم أثرا واضحا
لكلماته ، أنظروا الى هؤلاء الموظفين ، كثيرون منهم يتقاضون ستة جنيها
وأقل ، تعويض عشرة أو خمسة عشر نخلة ! وأيادهم هي التي ستصرف
لكم مئات الجنيها مقابل هذه الأشجار وهذه البيوت الطينية وشرائح
الأرض الصغيرة التي تكدحون فيها ، وأشار بيده الى البيوت في غير
احتفال ، فسرت هممة في الناس وبدا الغضب على وجوههم الداكنة ،
وأحس الرجل أنه قد مس جرحا في قلوبهم ، فعدل من لهجته الساخرة ،
ومضى يحدثهم من جديد في لهجة ودية جعلتهم ينصتون اليه ، ويحدقون
في وجهه فاغرى الأفواه ، وقد ازدادت عيونهم لمعانا في اللحظة التي قرر
الرجل فيها أن يخاطب جوعهم فدفع بيده في جيبه ، وعاد بها تحمل رزمة
الأوراق المالية الخضراء ومضى يفرها أمام عيونهم ، أوراق جديدة لامعة ،
ترسل خفيفا مثل حفيف أوراق الأشجار ، مغرية وجميلة ، تنفذ الى

قلوبهم وأدمغتهم الحائرة ، فالكثيرون منهم ، الا الذين عملوا سعاة في البنوك ، لم يروا طوال حياتهم كل تلك الأوراق الخضراء الزاهية دفعة واحدة . لقد اعتادوا المقايضة ، كيلة بلح بكيلة ذرة وعشرون مترا من الدبلان بعشرين كيلة من التمر . أما العملات الفضية القليلة التي يحصلون عليها من أولادهم فقد اعتادوا أن يودعوها في سحاراتهم لا يصرفون منها الا عند الحاجة الماسة ، وهامهم يشاهدون فجأة رزمة كبيرة من الأوراق المالية الخضراء الزاهية وخيل لهم أن في وسعهم أن يشتروا بها الدنيا كلها ، فلماذا لا يطيعون هذا الرجل ؟ .. لماذا لا يصرفون ؟ .. نفس السؤال الذي تردد في أدمغتهم .. ينبعث في هذه اللحظة ، وينفجر في صدورهم ورءوسهم . وأخذت حناجرهم تتحرك ، وراحوا يتبلعون دقات اللعاب التي سالت خيال المشهد الجميل الذي ترقرق في عيونهم . وراحت داريا التي لم تقع عينها في يوم من الأيام على ورقة خضراء كاملة ، راحت تهمس :

— وونور ... يارب ... كم هي كثيرة ؟ .. وونور !

ولكزها الشيخ فضل ، وقال فيما يشبه الهمس : اختشى ياوليه . لا تفضحيننا ، فغضت من نظرها ، وانزوت في ركن تجتر أحزانها وأحلامها ، وتفكر في جمال ورسالته فمتى يعود هذا الولد العاق ؟ !

ويكاد عم نوح يندفع من بين الجموع ، ليختطف الأوراق الزاهية لولا نظرات العمدة والضابط والحرس الذين أحاطوا بغطاس بيه ، فاستكان وأخذ يبتلع ريقه في سكون ، ثم مضى يجتر ذكريات حياته القاسية . انه مازال يذكر أنه دفع لأهل زوجته مهرا خمسة أرادب من القمح ، وأنه تقاضى مهرا لابنته الكبرى التي ماتت عشرة أرادب .. كما أنه لا يتوقع أن يتلقى مهرا لابنته الصغيرة مندوكة أكثر من ذلك . فلماذا يعزف اليوم عن صرف التعويضات ؟ وارتفع صوته فجأة من بين الجموع وهتف :

— اتركونا ياناس نصرف تعويضاتنا ونستريح .

وأراد أن يواصل هتافه الا أن المأذون — الذي كان قريبا — مد يده وأغلق فم الرجل ، وقاده بعيدا بين نظرات مستنكرة وأخرى حائرة الى مكان قصي .

ولاحظ وابور ، الذي أقبل منذ لحظة ، أن غطاس بيه يكاد يمسك بناصية الناس ، فقرر أن يتحداه ، ولا سيما بعد أن سمع العمدة يهمس بالنوبية للواقفين من حوله ماراجارا ... كذب ، .. لا تصدقوه

فتقدم خطوتين الى الامام وتوقف على مسافة قصيرة من رئيس اللجنة وقال
فى صوت محموم :

- تسمح يا غطاس بيه ، كم تبلغ كل التعويضات ؟!
- تعويضات بلدتكم كبيرة وافرة والحمد لله .
- أريد أن أعرف تعويضات كل القرى فى اجمالها .
- ومن أدرانى يا محترم ؟ اظن أنها تبلغ حوالى ٨٠٠ ألف جنيه .
- ثم تقدم واجتاز « وابور » ومضى يلوح بالأوراق المالية أمام عيون
الناس . . الا أن « وابور » لاحقه : وهل هذا مبلغ كبير ؟ ، فاستدار الرجل
اليه وصاح : ياهوه . . مليون جنيه ! لو كانت لى لبنيت قصرا فى
الاسكندرية أنزل فيه صيفا وآخر فى أسوان أنزل فيه شتاء تماما كما
يفعل البارونات ، ثم وجه كلامه الى وابور .
- مليون أو ٨٠٠ ألف جنيه يا محترم قدر ميزانية اماره شرق
الأردن !

وهمهم الناس : شرق الأردن ! ماهى شرق الأردن هذه ثم ماذا تريد.
أن تقول يا وابور ؟! فضنا من هذا الحديث . غطاس بيه مازال يقول :
مبلغ كبير ثم تمتنعون عن صرفه وأخشى أن تحس الحكومة بأزمة مالية ،
يعجز فى الميزانية ، فتقتطع من تعويضاتكم والاشاعات كثيرة ولا يدري
الانسان ما الذى يأتى به الغد . وبدأ الناس يزومون ، بينما انتهز وابور
الفرصة وقال :

- وكم نخلة سجلتها الحكومة ؟ سجلت مليوناً وسبعمائة ألف.
نخلة . تعالوا نعمل حسبة وسنجد أن النخلة لم تقدر الا بعشرين
قرشا ، ذلك اذا تركنا البيوت والأطيان جانبا وقبور آبائنا وأجدادنا
كذلك . ثم واجه غطاس بيه ومندوب المساحة الذى ترك المكاتب منذ
لحظة ليقف الى جانب رئيس اللجنة وصرخ : معنى هذا أن الحكومة
تسرقنا !

- تسرقكم ! كيف تسرقكم الحكومة يا محترم ؟ ألا تعرف أنك تشتم
الحكومة ؟ . أخشى أن يغضب حضرة العمدة . أخشى أن يغضب حضرة
الضابط .

وهنا أحس العمدة بالتهديد ، فاندفع حتى تجاوز رئيس اللجنة

وأولاه ظهره . . ومضى يخاطب الناس بصوت أجش ، عميق آمر :
انصرفوا الآن . وأضاف ، باللغة النسوية : لا تخرجوني أمام هؤلاء
الأغراب .

فعادوا جماعات ومتفرقين يتواعدون على اليوم التالي ، ويفرقون في
دوامة الحيرة والارتباك ، فقد أسالت الأوراق المالية لعابهم ؛ بينما كلمات
وابور ألهمت عقولهم بسياط من نار : النخلة بعشرين قرشا اذا ما حسبنا
البيوت والاطيان خارج العملية كلها . . بالظلم !
وانكبوا في الليل يتجسسون على مقر اللجنة ويكتبون الشكاوى
والتظلمات .

وجاءت داريا الى المتجر وقد ربطت حول رأسها عصاية سميكة تتوجع
وتشكو من الصداع ، وتتردد في ذكر ما جاءت بسببه ، ولأول مرة منذ
شهور طويلة تنازل أبي عن لهجته القاسية ، وتودد اليها ، فلم يطالبها
بديونها !

فعادت وهي تحمل الشاي والسكر اللذين جاءت في طلبهما ،
ومدت يدها في طريق العودة وفكت العصاية السميكة من حول رأسها
كان الشاي وملمسه قد بعثا البرء في جسدها .

وجاء رئيس لجنة المساحة في رفاص وأرغى وأزبد . . وعاد بخفي
حنين ، وأعقبه مأمور المركز فعاد حتى بدون هذين الحفين ، ثم رسا رفاص
آخر نزل منه مدير المديرية ، وتلطف مع الناس فتلطفوا معه ، الا أنه لم
ينل غير وعود أبرق بها الى مصر ، ثم جاءهم النائب على بك أبو زيد ،
جاء وقد علق على صدره النياشين التي منحها له الحاكم العام في السودان
قبل أن يحال الى المعاش ويعود الى مصر لينضم الى حزب الحكومة فيكون
نائبها عن الدائرة . ولم يعرفه الناس بل مضوا يتهامسون : من هذا ؟
فأسر اليهم السفرجي باشا : ألا تعرفونه ؟! انه على بك أبو زيد . ولامر
غاب عن ذهنه وجددهم الصدر المرصع بالنياشين حين وقف أمامهم بقامته
الطويلة وجسده العريض وشعره الأبيض الوقور اللامع من تحت
طربوشه واجمين ، يستقبلونه في فتور ، ولا صوت الا ذلك المنبعث من
ضجة الحفر والجنود ، وترحيب العمدة والمشايخ . وتنحنح الرجل ، ورفع
يده بالتحية فاستجابت لها هممة خافتة أحس بها ثم تكلم : يا أولادى . .
سمعت أنكم ممتنعون عن صرف التعويضات . ويشيعون أنني لم
أساعدكم ، أنني لم أقف الى جانبكم . والحقيقة أنني لا أحب الكلام

الكثير . فقد تركت ذلك للشبان . الحقيقة أنني أسوى ليكم من تحت
تحت .

ووجد الناس صامتين ، يديرون عيونهم في وجهه ، فتلعثم ثم
قال : دولة الرئيس يحب النوبيين ، ولولاه لكانت التقديرات أقل
بكثير . حكومته تعطف على أولادها النوبيين ، ولا تسمح بانزال أى
ظلم بهم . انها أعدت لكم أراضى فى « الرديسية » وفى الطود ، وفى
دراو وكوم امبو وطمليات رى هنا اذا ما أقمتم ولم ترغبوا فى الرحيل .

واستمعوا اليه فى أدب وصمت ، فأحس الرجل أنهم راضون ،
فاسترسل فى كلماته ذات اللهجة السودانية حتى أوفى على غاية كلامه ،
وأخرج منديلا حريريا يمسح به جبينه ، وعيناه تتفرسان فى وجوههم ،
ثم زاموا وغمغموا - ولكنه ، برغم الغممة ، استمع الى كلمة واحدة
تتردد ، سؤال واحد ألقاه المأذون وبرعى فتترد بسرعة : أين حسين
ابنك ؟ وكيف تبرأت منه ؟ . فغضب ، ولكنه تجاهل الأمر ، واستدار
ومعه مرافقوه ، وانصرف الى دار العمدة ليرحل الى غير رجعة .

فشلت كل المساعي ، ودب اليأس فى قلب غطاس بيه . وفى قلب
مندوب المساحة والموظفين فأخذوا يزجون فراغهم بالتندر على الناس
ولعب الورق ، وهم يتطلعون الى الخارج عبر النافذة عل واحدا منهم
يقرب ويخترق سياج المقاطعة .

وقد خيل لغطاس بيه فى احدى الليالى - فى منتصف الليل -
وبعد أن آوى الى فراشه أنه سمع أصواتا تتهاشم تحت شباكه مباشرة ،
فأصاخ السمع ، ولم يتبين الا اسمه يتردد بين كلمات نوبية كثيرة لم
يفهمها ، ثم ارتفع صوت العمدة ينتهر امرأة راح صوتها يتهدج ، وكلماتها
تختنق بالدمع ، فقفز من العنجريب الى الارض ، والتف بعباءته ، وفتح
الباب ، وخرج ليكتشف الأمر بنفسه ، فاصطدم بالعمدة عند المدخل
العمومى متجهما يغمغم لنفسه بكلمات لم تصل الى مسمعيه .

ووقفا وجها لوجه برهة من الزمن . فالرجل قسدا بدأ يشك فى
العمدة . وخيل له فى اللحظة التى التقيا فيها أن امرأة ما جاءت لتقابله
هو فى الليل ، لأمر يتعلق بالتعويضات . وأدرك بقريزته أن العمدة قد
حال بينها وبينه ، فتميز غيظا ثم همس فى صوت مستريب : أين تلك
السيدة ؟

وبانت الدهشة والارتباك في الوقت نفسه على وجه العمدة ، لكنه قال :

— سيّدة ! وكيف تأتي سيّدة الى بيتي في منتصف الليل ؟ عيب .
ليس في البلد امرأة واحدة تلاقى غريباً في منتصف الليل . . . ولا يجب
أن يسمع أحد في البلد مثل هذه الكلمات من رجل كبير المقام مثلك . .
فاحس غطاس بيه أنه قد تورط في أمر يمس تقاليد الناس ،
وشعر بمكر العمدة فانسحب معتذراً عما بدر منه .

وترث العمدة حتى أيقن أن الرجل قد عاد الى مرقده ، وتسلسل خلفه
داره ليجدها هناك تبكي في صوت مكتوم ، وقد وقف على رأسها شبان
يهوثون من روعها ، ثم راحت تقول في صوت خافت حالماً رآته : جمال
لن يعود يا أحمد حسين ، وأشارت الى العمدة الذي انحنى عليها وقال :
عودي الى بيتك يا داريا فلن يصرف تعويضاتك أحد غير جمال . وسوف
أرسل له ، والغريب عيب أن تلجئي اليه . كيف سمحت لك بنتك أن
تأتي في منتصف الليل وحدك ؟ . .

— تركتها فائمة وتسلسلت ، فربما رق الرجل لدموعي وصرف لي .
— كيف تصرفين والناس جميعاً لا يصرفون يا ولية ؟
— انني جائعة . جائعة . والديون تتراكم على رأسي يا أحمد
حسين .

وأضاف شيخ الحفر : حرام عليك يا ولية ، لولا أن رآك حضرة
العمدة قبل أن تطرقي على الشباك لكنت الفضيحة . امرأة تقابل أفندياً
في منتصف الليل !!! لو كان جمال هنا لما فعلت ذلك . . اياك أن
تحضري هنا مرة أخرى . . لا نريد أن نراك هنا أبداً الا يوم نستدعيك .
فهمت أم لم تفهمي يا مجنونة ؟ . .

فقالت في صوت متشرخ :

— فهمت ، ومادام العمدة سيرسل الى جمال ليعود ، فليست بي
حاجة الى مقابلة الغريب .

وقامت تنصرف الا أن العمدة استمهلها ، وأشار الى ابنه ، وأسر
في أذنيه بكلمتين أسرع الفتى بعدهما الى الداخل ، وعاد ومعه الجارية
تحمّل على رأسها كيلتين من الذرة أسلمتها لداريا وقال العمدة :

— عودى الى اذا ما انتهيت من الكيلتين .

وتأبت داريا قليلا ، ثم انصرفت فى ظلام الليل وقد حملت هديتها على رأسها بعد أن أكدت للعمدة أنها ستسدد حين التعويضات ، وتسلمت الى بيتها ، وفتحت الباب لتجد ابنتها تتلفت هنا وهناك مذعورة حتى أنها هبت تستعيد من الشيطان حين سمعت صرير الباب ، فأدركت داريا مخاوف ابنتها فقالت : لا تخافى يا شريفة ، أنا داريا سكيمة .

وتفرست الفتاة فيما تحمله أمها ، وغرزت يديها فى الذرة ، ووجهت الى أمها نظرة متسائلة ، وقصت عليها الأم ما حدث خلف دار العمدة ، فلوت بوزها وهى تغمغم : آخر الزمن أصبحنا شحاتين .. لهفى عليك يا أبى .. لهفى عليك يا جمال .. افتضحنا ..

وراحت تنشج وتلطم خديها ، فانبرت الأم تخفف من لوعة الابنة الباكية :

— وماذا تفعل يا شريفة ؟ تزوجى البسطاوى !

فارتجفت الفتاة ، وانكفأت تبكى حظها العاثر . ولاح لها برعى وهى لا تدري أنه قد شهد ما حدث لأمها من مكان قريب ، وقد امتلأ قلبه بالحزى .

وراحت تبكى حتى أغقت . وفى الضحى كانت عند بطة تشكو همومها .. فقد أصبحتا صديقتين لا تفرقان . وقد ازدادت الألفة بينهما منذ بدأت بطة تعد ثياب زفافها تساعدهما سعدية .

وقضين اليوم كله يحكن الثياب ، ويخضسن فيما كان الرجال يخوضون فيه . تكلمن عن الطوفان فى سداجة ، وعن النخيل وشباب النجع ، وانبرت سعدية ، التى اشتهرت بلسانها المسحوب الطويل ، تقول :

— وابن عمك يابطة . هل رأيته ؟

— كلا ياسعدية

— غريبة . تتزوجينه دون أن تعرفيه ؟ .. وماذا تفعلين اذا ما اتضح لك أنه عجوز فى سن أبيك ؟

— وهل ترفضين اذا ما تقدم لك ياسعدية ؟

— أنا لا يكفينى عجوز ، أنا لا يكفينى الا شاب قوى مثل الثور ،
شاب سرح ، شارب من بز أمه ، أو من ماء البحر وهو قائم !

وترددت لحظة ثم قالت وهى تحدج شريفة بنظرة جانبية : شاب
مثل برعى ! •

فأخست بطة بالحرج وقالت بسرعة : أو مثل البسطاوى • علاقتكما
يا سعدية معروفة أما برعى فهو لغريك • لا تكونى طماعة ••

وضحكتا بينما لزمّت شريفة الصمت : فهى حاتقة على سعدية منذ
تحويشة الجزار ، منذ حديثها عنها وعن أمها مع البسطاوى •

والتفتت بطة اليها بوجه باسم وراحت تداعبها : مالك حزينه ؟
أتفكرين فى برعى فقالت الفتاة بسرعة : أصابك الله بالعمى قبل
زواجك • لماذا تخطر فى بهذا الكلام الذى لا فائدة فيه ! أنا لا أفكر فى
أحد • غيرى أولى بالتفكير •• موتى أنت من شدة التفكير فى حسنين ••
أهو عجوز أم هو شاب سرح مثل الثور أم صغير نحيل !

وأدركت سعدية أنها تعرض بها فتجهت وأرادت أن تثور ، ولكنها
خشيت أن تفضحها شريفة بقصة التحويشة وتصنعت أن الابرة قد
انغرزت فى اصبعها وراحت تتأوه وتمص اصبعها بين شفتيها ، لكنها لم
تملك نفسها رغم ذلك بل مضت تقول : ربما كان البسطاوى هو الذى
يشغل بعض الناس ، فحدجتها شريفة بنظرة قاسية جعلتها تطرق برأسها
الى الارض ، حينما راحت بطة تقول : سعدية ، أنت محقوقة •• أنت
تعرفين أنها تفكر فيه •• الهى يبتليك بمرض لا تفيق من •• لماذا
تكذبين ؟ انها لا تميل الى البسطاوى ولا تطيقه • فأنبرت سعدية تقول :
وما له البسطاوى ! شاب سرح • أليس رجلا مثل برعى وحسن المصرى •
فصاحت شريفة :

— معلوم • رجل ليس مثله رجال • خصوصا اذا ما حشر جسده
واحدة بين جسمه وجذع النخلة فى تحويشة الجزار •

وهبتا واقفتين وكادتا تشسبكان لولا أننى كنت قد فتحت باب
الدھليز ودلفت منه ، وفاجأتهما وهما تدفعان بطة التى توسطتهما ،
لتخلصا الى ضفائر بعضهما •

ودخل أبى ورائى ، فعدن الى الصمت فجأة ، وانهمكن فى تطريز

التياب ، ثم قامت شريفة وانصرفت ، بينما بقيت الأخرى حتى خرج
أبى من الباب الخلفى ، فارتمت على صدر بطة تبكى ، وتكذب شريفة
وتنعتها بكلمات بذيئة ملأتنى بالغيط فقلت :

— لا تصدقها يابطة فانها تكذب • سعدية طول عمرها كذابة •

فانتهرتنى بطة : فأمسكت بحفنة من التراب ضربت بها وجهيهما ،
وعدوت اجتاز الباب العمومى الى الطريق ، ثم الى بيت شريفة أروى لها
ماحدث •• وكيف دافعت عنها ، فأنحنت على ، وطبعت قبلة على جبينى
وهى تهمس :

— برافو يا حامد ••

وفى خضم الأحداث التى عاشتها القرية نزل حسنين فى بيت
ابن عمه فى النجع • فمنذ أسبوع رست الباخرة التى أقلته
من الشلال فى « عافية » على الضفة الغربية ، فى مكان لا ينأى
كثيرا عن كران نوج • ومنها عبر النيل على مركب شراعية بيضاء ، رست
به عند النتوء الشرقى ، فاستقبله رجال النجع وحملوه فى زفة كبيرة
لينزل ضيفا مكرما علينا ، وليستقر فى بيت ابن عمته صالح •

٣٧

طويل القامة مليء الجسد لامع السواد • وسيم الطلعة الى لونه
الأبنوسى البارق • يهش وييش فى وجوه الناس ولا يبخل عليهم بنكاته
ونواده • فهو يتمتع بموهبة نادرة فى التعرف على الناس والتودد اليهم •
يستدير به الناس دقائق ، ولا ينهضون الا واثقين أنهم أصداؤه منذ
عشرات السنين ••

عاش فى القاهرة طويلا يعمل فراشا مع أبيه فى السكة الحديدية ،
وتطبع بطباع أهل القاهرة ، حتى انك تحسبه برغم لونه الأبنوسى واحدا

منهم لا يكاد يختلف عنهم فى شىء • فالمرح يطفو من قلبه على وجهه •
ثم يجرى فى لسانه كما يجرى الماء طليقا فى الجداول • يرسل النكتة
البارعة فتنتعش القلوب ، وتزول من الجباه آثار الكد والشقاء الذى عاش
الناس فى نجعنا يرزحون تحته •

ولم يكن غريبا اذن أن يصبح حسنين فى الساعات الأولى من وصوله
ينبوع سمر لا ينهى • يستديرون به ويسألونه عن مصر أم الدنيا •
وعن التعويضات والتعسف فى تقديرها وظلم صدقي باشا ، وهل تجدى
شكاواهم أم لا ؟ • فاذا به يحول الساحة الى ضحكات عالية • فقد مضى
يقول :

— شكاوى ! تطلبون فيها تقديرا جديدا ؟ أتعرفون ما الذى
ستفعله الحكومة ؟ ستقدر عود القمح بجنيه كامل • وجذع النخلة
بمليمين •

قالوا كيف ذلك • • أهى عمياء ؟

والله انها عمياء عمى الدببة • اسمعوا ما حدث لى حتى تصدقوا •

وقال الشيخ فضل : وماذا حدث لك ؟

قال : أنا وأبى نعمل فى مكتب واحد ، وأرادت الحكومة أن تعرف
حسن كل واحد منا • وطلبت من أبى شهادة ميلاده • قال : اننى لا أملك
شهادة • أما أنا فقد أخفيتها •

— فماذا فعلت الحكومة • • هل طردتكما ؟

— أبدا • • أرسلتنا كل واحد على حده الى دكتور لتسنيننا •

— عال • • ريال والتسنين يكون على المرام •

وأطلق حسنين ضحكة وقال :

— وقرر الدكتور أن أبى يبلغ خمسة وثلاثين عاما •

— عال • • صغروه • • لا بد أنه دفع جنيها كاملا • • وماذا قال
دكتورك ؟

— قال ان عمرى خمسة وأربعون عاما !!

وضجت الساحة بالضحك ، بينما انبرى حموى يقول : تستاهل



لا بد أنك لم تدفع الا مليما • وقال الجزار : ولعلك أخذت منه
بقشيشا ، والله كلامك صحيح على الحكومة : مجنونة أو
غشيمة ..

واستدارت نسوة النجع به في بيت ابن عمته يسألن عن
الأزواج والأبناء الغائبين فمضى يلذعن بنكاته • فملأن الجو
ضحكا ناعما نديا • ينبع من القلوب .. وسأل احدهن :

— صدرك عال • رغم أن لك مثلا عشرة عيال ؟

فأطرقت برأسها ومضت تشكو من العقم .. قالت :

— وعدنى زوجى أن يستدعيني فى مصر ويعرضنى على
الحكما •



فالتقط حسنين فرصته السانحة وصاح :

— زوجك لاشك هو المعيب .. فقد جرب نفسه ..

ورفعت المرأة حاجبيها تتساءل : جرب نفسه ! يالهفى هل
تزوج ؟

— كلا لم يتزوج •

— فى الحرام ؟

— فى الحرام • فى الحلال • كله واحد • أنت مسكينة مع زوجك
فهو لا يغطيك كما يجب •

— وكيف يغطينى كما يجب يا حسنين •

— انتظرينى الليلة فى بيتك فى الحاصل القبلى وأفرجك ..

وراح يقلد ويحاكى التصاق المرأة بالرجل ويستلقى على ظهره بينما
انطلقن يضحكن وهن يشحن بوجوههن واصطبغ وجهى أنا بأمارات الحجل
فنهضت من مجلسى لكنه عاجلنى •

— حامد • تعال هنا .. لماذا تهرب ؟

وأمسكن بجلبابي وأنا أحاول التملص ، بينما ابتسم هو وصرخ :
– بلغ اختك يا حامد أننى أحب أكل الحمام المحمر ، ولست غولا
يأكل البنات • بلغها أن تكف عن التلصص من ثقب الباب • دعها تحضر
هنا • ولن أفعل بها شيئا أمام الناس فهى ابنة عمى •

فأطرقت برأسى خجلا بينما ظل هو يرسل نكاته • ذلك أن بطة
اعتادت منذ وصوله أن تختفى عن وجهه ولا تراه الا من خلف باب
متطلعة الى التعرف عليه ، فانها لم تره قبل ذلك • ولاشك أنها مازالت
تذكر الطقوس التى كانت شقيقتها تمارسها فى أيام الخطبة • ومازالت
قصة أمينة ماثلة فى ذاكرتها •

وبرغم أننى شعرت بتفور من نكاته فى هذه اللحظة فأننى أحبيته ،
فأخذت لا أفارق مجلسه أبدا وهو يتنقل من مصطبة الى أخرى ، ويناقش
الطوفان بطريقته غير المكرثة •

ودهش الناس حين تعرف حسنين ببساطة على غطاس بيه • فما رآه
حتى أقبل عليه يحييه : سلامات • ازيك يا غطاس بيه • واتضح للناس
أن « غطاس » هذا عمل فى يوم من الأيام صرافا فى السكة الحديد وأن
حسنين عمل فراشا معه فى سوهاج •

وراح غطاس يشكو لحسنين همومه ، فمضى يهون من مشاكله ، ثم
تحدث مليا عن نرجس الصغيرة العفريته : أنت الذى علمتها الشقاوة
يا حسنين • والله انها عفريته من بطن أمها •

وأصبح من الامور العادية أن يجدهما الناس يتمشيان فى العصارى
يتذاكران أيام سوهاج ومباهج مصر ويتندران على النجوع • والناس •
ويرسلان الضحكات • والناس برغم ذلك لم يظنوا بحسنين الظنون فانه
لا يملك ارضا ولا بيوتا هنا يتفق مع غطاس على صرف تعويضاتها أو يغدر
بهم فى سبيلها •

واعتدت أن أدور معه هنا وهناك ثم أعود لاقص على عروسه ومن
حولها شريفة وسعدية وبخيتة نكاته ونوادره فيضحكن • ويستلقين على
الظهور من فرط الفضحك • لكننى برغم كل هذا المرح كانت تعترينى
كآبة تدوم لحظة • تعترينى وأنا أفكر فى جدتى التى ماتت منذ شهور
فأعتقد أن الناس يغدرون بها بل يتزوجون • الا أن صورتها الأخيرة
وهى تحمل بطة على القسم ألا تؤخر زواجها كانت تسرى عنى • فأنبعث
من جديد أتحرك وأضحك مع الضاحكين ، وأفكر : حين أخلو بنفسى ،

فى البيت بعد أن ترحل بطة كما رحلت جميلة . انها مسترحل لا الى مكان قريب بل الى مصر البعيدة عنا بعد السماء . . من الذى سيعيش معى فى البيت الكبير غير أمى ؟ وكيف يمكننى أن أحول بينها وبين ثوبات الاعماء التى قد تلقى بها فى النار فتحترق ؟ .

ودامت السهرة فى بيتنا ساعات طويلة كنت واجما فيها . أفكر فى الذى يحدث أمامى من اعدادات نهاسيتها أن ترحل بطة وتتركنى وحدى . الا أننى وجدت بعض العزاء فى كلمات خالتى أمينة بايا . كلمات وجهتها الى حسنين .

— أنت تعرف الحال يا حسنين . البنات لا تستطيع أن ترحل معك على الفور . . لن ترحل معك الا حين يقترب الطوفان ، حتى لا تترك أمها وحيدة فانها صاحبة مرض .

قال : لتبقى معها الى الأبد فأنا لا أريدها بعد الزواج .

وضحكنا جميعا ولكنه استرسل : لتبقى حتى الطوفان . فقد نلت أجازة طويلة وسوف أمدّها ، وأنا هنا لتطول اقامتى وأتمتع بها . ولكن مالى أراها دائما متجهمة . أتظن أنها ستتزوج غرابا ؟ . بلغيتها يا أمينة أننى أحبها ضاحكة . وتساءلت أمينة بايا : وأين رأيتها ؟ هنا فى البيت من فوق سطح البيت المجاور . كانت تستحم .

— حسنين . كف عن الهذر فى موقف الجد . . انها ستغضب حقا ؛ والاشاعات . . ماذا يقول الناس ؟

— طيب . طيب . اسكتى فأننا لسنا فى مأثم . .

واسترحت أنا لهذا الحديث فسوف يطول بقاء بطة فى بيتنا بعد أن تتزوج ، ولم تبارحنا وترحل بسرعة كما رحلت جميلة . وألقيت على هذه نظرة جانبية فوجدتها سعيدة مشرقة تتحرك وقد حملت وليدها الصغير فى خفة . تهلك نفسها فى العمل . لا تستريح ولو لحظة واحدة ولا تنجو من نكات حسنين . قال لها مرة :

— اذا كان زوجك لا يعجبك . فأنا مستعد للزواج من الاثنتين ، فتواترت عن ناظره يوما كاملا .

وهاهى الشقيقة الكبرى تلعب دور الأم وترجى الى أختها النصائح فى حنان ، وتحسدّها عن مصر كأنما عاشت فيها ، وتقص عليها كل ما سمعته من زوجها عن هذا البلد الغريب .

وبانت السعادة مرتسمة على وجوه فتيات النجع سعدية • وشريفة •
وبخيته يكنسن ويجهدن أنفسهن فى اعداد الشعرية والابريج والفشار
وفى الغسل ، وكأنهن خادما لبطة •

سعدية وشريفة لا تتبادلان كلمة واحدة ولكنهما تتنافسان فى
العمل ، ولا تسمحان لبطة أن تمد يدها الى أى عمل حتى مضت تقول :

— كثر الله خيركما • انشاء الله ساكون خدامتكما يوم زفافكما •

ورمقتها سعدية بنظرة ساخرة ثم قالت :

— معارة •• مثل حسين فييس • ولماذا ؟ والله أنت معارة مثل
زوجك حسنين •• أتريدين الحقيقة يابطة •• لو طلبنى للزواج لارتيمت
عليه • انه يكبرك ولكنه طويل وعريض • يضحك طول الليل والنهار •
ليته تزوجنى يابطة •

وصمتت لحظة تتأمل وجه بطه التي مضت تضحك وأردفت •• أما
أنك خدامتنا فليس الا كلاما • فسوف تكونين فى مصر حين أزف هنا
الى زوجى •

وانتهزت شريفة فرصة صمتت فيها سعدية وقالت :

ستكونين فى مصر تلفين الملاءة الحريرية على جسدك ، وتستحمين
بالصابون • أبو ريحة • وتحت الدش وأما نحن فياعينى علينا • سنبقى
هنا نجمع « الجلة » ونشيل التراب على رءوسنا •

وراحت بطه تصرخ : والله •• والله يا شريفة •• أنا سأخدمك وأخدم
سعدية فى أى مكان • سأرسل لكما هدية من مصر أم الدنيا •

— كلا •• انك ستنسيننا يا شيخه • فمصر كبيرة • والدنيا تلاهى •
ألم ينسنا جمال ؟

وقطبت جبينها فأسرعت العروسة تهمس :

— لكن جمال رجل يا شريفة • كل الرجال ينسون وأما نحن البنات
فهيئات أن ننسى بعضنا •

وغمرت سعدية بعينيها ، وحركت حاجبيها ، وهزت أردافها فى
حركة ذات معنى وقالت :

— أما أنا فلن أنسى أحدا • لن أنسى الرجال • كل الرجال ••
حتى الصغار منهم • أليس كذلك يا حامد ؟ •

وأقبلت على تداعبني بينما انفلتت شريفة وبطة تبارحان الفناء •
وتعبران الدهليز الى الساحة لمشاهدة تفصيل جلباب أعدته شريفة
لاحدى الجارات • وتركثاني وحدى مع سعدية بينما جميلة والأم والحالة
منهمكات فى الديوان ••

كنت أنا منهما كما أيضا فى تنظيف صومعتى الصغيرة •• فاذا
يسعدية التى استدار جسدها فى انحناءات بديعة تمسك بى من الخلف
وتدير وجهى اليها ، ثم ترفعنى فى حركة فجائية الى صدرها وأنا أحاول
أن أتملص دون جدوى •

مضيت تفرك صدرها بصدري الى أن غامت عيناها ، وتركثنى فجأة
ثم تبسمت بسمة انسان يفيق من غيبوبة أملت به • وابتعدت عنى بسرعة
فى اللحظة التى انبعث فيها صرير الباب الخارجى •

وفى الأيام القليلة التى تلت انقطعت سعدية فجأة عن بيتنا ، وأملت
بنا جميعا دهشة حين أعلن فى النجح أن سعدية تستعد للزواج من
البسطاوى فى نفس الليلة التى ستزف فيها بطة !

وأخذتنى الحيرة •• ما الذى جعل البسطاوى يقرر الزواج على هذا
النحو الفجائى ؟ وهل يثس من شريفة ؟ وما هو احساس شريفة ازاء
هذا النبأ الغريب ؟ • ولم تدم حيرتى طويلا • لقد أفضى لى برعى بسرهما
وهو يستلقى على مصطبة نخلة من نخلات أبيه • أخذ يرويها فى هدوء
يال وعيناه تلمعان ببريق الفوز • ولقد شرع فى روايتها بعد أن سب
ولعن الجزار وحموى وأقاربهما الطماعين • تناولهم واحدا واحدا بالفاظ
تقدعهم • واتهمهم بالتحايل على الفاتحة ليصرفوا تعويضاتهم • فلقد
ضبط حموى يتسلل الى دار العملة ليقابل الموظفين فانكب عليه الشبان
يعنفونه حتى يبتعد عن المكان •

وجاء دور البسطاوى فأخذ ينعتة بالولد البسايظ الذى لا يجدى
فيما يجدى فيه الرجال رغم طوله وعرضه • انه ليس رجلا ••

قلت له : البسطاوى سيزف الى سعدية بعد أيام ويصبح رجلا له

بيت وله زوجة بينما أنت ماتزال .. ولم يتركنى أكمل حديثى بل
استشاط غضبا وصرخ فى وجهى : ألا تعلم أننى لو أردت الزواج من
سعدية لتزوجتها منذ سنة بأكملها .. أنت صغير ولا تفهم .. البسطاوى
.. هيه .. لا أخلاق ولا محافظة على شرف الناس .. لكنك صغير ولن
تفهم ما حدث بينهما ؟ .

وقطبت جبينى وأردت أن أنصرف غاضبا لتكراره أننى صغير الا أن
فضولا قاتلا تملكنى فمضيت ألح عليه :

— بالله قل لى ما الذى حدث بينهما يا برعى ؟ .. بالله عليك ..
فحدجنى بنظرة جانبية ثم قال فى وقار غاضب :
— حجاج العجوز ، جد سعدية ، وعبد الله الجزار ..
— أهما اللذان اتفقا على تزويجهما ؟
— أيوه .. أسكت حتى تعرف .. كانا يحران فى عصر يوم بمحاذاة
تحويشة الجزار ورأياهما هنالك .. فاتفقا ..
— ماذا كانا يفعلان هناك يجمعان البلح أو الوقود ؟ ..
— بلح ! أى بلح يالكفى ؟ ألا تعرف .. كان قد رفع ثيابها
واحترضنها وهى تلهث مثل الكلاب ، مستندة الى جذع نخلة ..
وتذكرت على الفور ماكانت شريفة تهرف به فى ساعات مرضها منذ
شهور .. سعدية .. البسطاوى .. تحويشة الجزار ! فقصصت له
قصتهما . فهز رأسه فى غضب وقال : اذن فانها لم تكن المرة الأولى ..
وشهدت برعى ، لأول مرة منذ شهور طويلة ، يضحك كما يضحك
الصغار ، فرحا لا تطيقه الدنيا ولا تسعه ، وكأنه هو الذى تقرر زواجه
بعد أيام . فقد استراح من البسطاوى ولن يعود هذا البسطاوى خطرا
على أحلامه وأمانيه فى شريفة .



تناسى الناس غطاسا ولجنته ساعات من حياتهم ، فاهتزوا على نغمات
الدف وهزوا السماء بتصفيق الأكف ، ورجسوا الأرض بأقدامهم .
وتراقصوا والبدر يبتسم فوق هاماتهم ، بل كان غطاس نفسه وبعض
موظفيه بين الذين أطلقوا صرخات الاستحسان .

وزف حسنين الى بطة ومد يده ومس ذؤابة الشعر المرتفعة فوق رأسها كما يرتفع تاج الهدد .. وتطلعت أنا الى موكب الزفاف في هذه المرة بخطى أكثر ثباتا وبادراك ، اذ كنت على مقربة من العريس نفسه ، ورأيت يده ترفع الشقة البيضاء وشهدت بطة مطرقة مسدلة الجفنين ، ورأيتها وهي تلوذ بنفس الحاصل في سرعة البرق .

وفي بيت أم سعدية حدث الشيء نفسه . تقدم البسطاوى في موكبه والدف ينقر من حوله ورفع الشقة البيضاء نفسها وسعدية تسدل جفنيها وترمقه من تحتها ثابتة الجنان لا ترتعش ولا تخجل . وربما أحست بنشوة غريبة تسرى في بدنها ، وهي تتلقى لمسة يده على تاجها الفاحم . ويقولون انها ابتسمت في رضا بعد أن استدار العريس .

ثم ضمها الديوان ويقولون : انها شاغبته طول الليل بفنون من الصمت والدلال حتى وضع في يديها جنيتها كاملا . استنامت بعده لغزله وتودداته . ثم أرسلت صرخة صغيرة أنهت حياتها كعذراء .

وفي الصباح حين ألت بها صاحباتها مضت تحكي لهن في مرح متأوه ما حدث بينها وبين عريسها في ليلتهما الأولى وكيف جعلته يجن بها ويضربها بالكرباج دون أن تبوح هي بكلمة واحدة ..

وشمرت عن ساعديها تعرض عليهن آثار الضرب ثم تساءلت : وماذا فعلت الأخرى ؟ لا نعلم شيئا فانها لم تقل كلمة واحدة عن ليلتها الأولى ، ولكنهن يعتقدن أنه تغلب عليها بنكاته ونوادره ..

ومضى السمر في بيتنا كل ليلة حول حسنين يتحفهم بنوادره وحكاياته بين رشقات الشاي ، ثم ينزلون دون أن يشعروا الى غطاس بيه ولجنته والى المشاكل المعلقة فوق رؤوسهم .. أيصرفون أم يمتنعون؟ ثم بعد الصرف هل يبقون أم يرحلون ؟ . وقال حسنين مرة :

— بلا بلد ، بلا كلام فارغ . أتركوا كل شيء واهجروا الديار . فسوف تصبح خرابا ينشق فيه اليوم . البلد تطهق وتقتل الانسان . كثيبة يدب فيها الحزن على قدمين .

وقالوا له : معلوم طول عمرك في مصر .. معلوم ياعم ..

— ياسلام على مصر أم الدنيا .. وجوه سمحة ومناظر تشرح القلب ..

ومد الشيخ فضل يده وأنشِب أصابعه في التراب ، ورَبَّت يده
الأخرى على ساقه الحشبية وقال :

– ولكن الأرض يا حسنين عزيزة • تماما مثل الأبناء •

– الأرض • الأرض • وماذا تملكون ؟ شرائح لا تزيد عن
أذن حمار • ثم تصرخون : الأرض • الأرض • وكأنما تملكون الأبعديات •
أنا بنفسى سأشتري أرضا فى الطود •

– وأين الطود • ؟

– بالقرب من الأقصر أبو حجاج •

– وهل يجرى النيل أمامها ؟

– كلا • النيل بعيد ••

– وهل فيها مشروع ؟

– ولا مشروع •

– اذن فالأرض قاحلة لا تنبت زرعاً • أرض بدون ماء ليست الا
تربة للموتى • ماتم • جسد بلا روح • ياشيخ فضك من هذا الحديث •
– ولكن الأرض هناك بتراب الفلوس •• الفدان بجنيهين ••
يا بلاش أرض شديدة لم تزرع منذ أيام نوح عليه السلام •

وأطرق فضل وكأنه قد تذكر قصة حام ووجهه الأبنوسى • وتفرس
فى وجه حسنين وكأنما هو حام بوجهه اللامع ثم رفع رأسه وقال :
– وهل نحفر آبارا فيها ؟

– كلا • بل ستقيم الحكومة مشروعا للرى ••

وقهقه الشيخ فضل • فانه لا يصدق أبدا أن حكومة الباشوات يمكن
أن تفعل شيئا غير اغراق الناس وسرقة حياتهم وكدهم • حكومة
لصوص •• وحرامية !

وعاد حسنين يلح عليهم أن يهجروا المنطقة كلها الى بلاد الله
الواسعة ، ثم مضى يتندر على ساق الشيخ فضل وعلى مهارة التجار الذى
أعدها له من خشب الورد • وأخذ يقلد فضيلة وهى تستعد لاحتضان
فضل فى منتصف الليل •• ما الذى تفعله المسكينة مع هذه الساق ؟
يقولون انها تدهن الساق بالسمن حتى تطيق ملمسه • ويشيعون أنها

ضاقَت بها مرة وأرادت أن تكسرها وترمى بها في النار لولا أن تداركها
الله برحمته في آخر لحظة .

وتلقى فضل دعابته بمرح ونادى عبر الديوانى ..

— بطة تعالى يابطة . اخبرى زوجك أن ساقى لا تؤذى أحدا .
تعالى . ورنث الضحكات ناعمة في الحاصل الصغير ..

وفي هذه اللحظة دخل القاعة برعى والمأذون واجمين موهومين
يصعدان الزفرات الحارة ، وحقق الرجال فيهما موقنين أن شرا مستطيرا قد
حدث في دار العمدة ، الا أنهم أطبقوا الشفاه ، ثم حاولوا المضي فيما كانوا
فيه من مرح . غير أن المأذون انفجر كما ينفجر البركان في وجوهم :
المنحوس ابن الكلب .. عملها ابن الكلب ! وران الصمت لحظة راح
المأذون بعدها يردد الكلمات نفسها . يصاحبها برعى بإيقاع حزين على
يديه يفركهما ويدق بهما على صدره . وضاق حسنين بهما فصاح :

— ما الذى حدث يا صابر ؟ ولد يا برعى ما الخبر ؟

والذى جرى كان مفاجئا . انغرز في قلوبهم كما تنغرز النصال
الحادة ، فقد هتف المأذون :

— عمدة (...) ياسيدى صرف ..

— صرف .. صرف .. فى داهية ..

قالها حسنين ثم صمت بعد أن لاحظ الوجوم والتحفز على وجوه
الناس من حوله . وجوه صامتة عابسة . ترتفع بعيونها لتراقب حركة
الشيخ صابر الذى ارتدى على دكة عالية يمسح عرقا تصبب على جبينه
رغم برودة الجو .. ودفع الشيخ فضل « برعى » فى صدره وقال :

— برعى .. قل لنا كيف تم ذلك ؟

وتطلع برعى الى الوجوه فابتأس فوق ابتئاسه ، وراح يحكى فى
كلمات متقطعة لاهثة ماتناهى اليه من أخبار الدر . منذ أيام رسا فى
الدر رفاص نزل منه المستر هيس ، الرجل الذى رطن معه عبده
الفرنساوى باللاوندى . وكان حانقا فمضى يصرخ هنا وهناك دون
جدوى : بات ليلته فى استراحة المركز . ثم بكر فى الرحيل الى
(كروسكو) . ليلتقى بالرجل .. كان يعرف أن العمدة متورط فى
مشكل ، فقد سجل باسمه أطيان جماعة من الكشاف ودأب على تعجل

صرف التعويضات عنها قبل أن يتمكن خصومه من إقامة الدليل على بطلان ملكيته لهذه الاطيان . ويقولون: ان المستر هيس عرف من الشكاوى التي أرسلها الكشف الى المركز أن عمدة (٠٠٠) سيقبل الصرف ، فزاره في بيته وسهر معه . ولم يبرح القسرية الا بعد أن عقد اتفاقا صريحا مع الرجل . يزيد الحاجة تعويضاته . ويتكفل بشطب كل القضايا التي ترفع ضده ، ويتعهد العمدة من ناحيته أن يفك الحصار المضروب حول اللجنة في قريته وأن يحض الناس على صرف تعويضاتهم .
- لعنة الله عليه . . نصراني ابن كلب . .

قالها الشيخ فضل ثم استدرك :

- ولكن الذنب ليس ذنبه . اللوم كله يقع على الرجل الذي باع نفسه . فأنبرى المأذون يقول :

- والمصيبة أن « بدر أفندي » حينما علم بالحادث عجل فالتقى به ، وراح يستعطفه بل عرض عليه أن يعقد صلحا بينه وبين الكشف . ولكنه وعد دون صدق . وفي الصباح عند طلوع الشمس عرض نفسه على رئيس اللجنة وصرف تعويضاته ومن بعده تقاطر الناس واحدا بعد واحد . وانتهت اللجنة من عملها في يومين وحزمت أمتعتها وهجرت القرية الى حيث لا يدري الناس .

- المتعوس ابن المتعوس . مأواه جهنم باذن الله . .

- بل سيكون الجزاء عادلا يافضل وعاجلا . سيصاب بالعمى في حياته ألم يحث بالفاتحة ؟!
وصاح المأذون :

- داهية أن يعرف الناس في بلدنا بالخبر فيتقاطرون هم أيضا على اللجنة !

فأحس برعى بندم شديد منذ توقف بحسن نية عند كل مصطبة يشرح الخبر ويذيعه ابتغاء فضح الرجل ، وتحذيرا للناس من مصيره الأسود . .

وران الصمت والوجوم ، وحاول حسنين أن يطلق إحدى نكاته . فاشاحوا عنه عابثين ثم قاموا ينصرفون واحدا بعد واحد . وعلى وجوههم أمارات حزن وقلق وحيرة تثقل صدورهم .
وناموا نوما قلقا حتى أشرق الصباح .

وقبل أن تنتشر أشعة الشمس في الوادى كان برعى ووابور والمأذون وعدد من شباب النجوع الأخرى قد ضربوا حصارا محكما حول دار العملة ، يحولون دون وصول الناس اليها ويراقبون الموظفين وتحركاتهم في صبر ، ويبتسمون حين يجدون العملة يطل عليهم من النافذة ليلقى اليهم بنظرة تشجيع .

فالجموع تنتظر اشارة البدء لتعبر الطريق الفاصل بينهم وبين اللجنة في سرعة البرق ولتطرق على أبواب اللجنة لتصرف وتستريح من كل هذا العناء دفعة واحدة .

فنسوا حقولهم . فلم يعودوا يروونها الا في الليل . ولاحظ واپور وهو يتنقل بين القريتين أن الحور قد بدأ يدب في النفوس . وأدرك أن الطعنة التي وجهها عمدة (٠٠٠) للقضية يمكن أن تنفذ الى كل الصدور . فأمسكت به حصى الشكاوى والتظلمات والتنقل السريع على المصاطب .

وألقى بدر أفندى بثقله في المعركة فمضى يتنقل بين القرى ، ولا يعود الى المكتب الا ليرسل البرقيات والبيانات الى كل مكان .

وعلى طول الخط وفي كل مكان كان الرفاص نفسه يرسو لينزل منه نفس الوجه الممتقع يضحك في وجوه الناس ، ويتندر معهم ويبدى اعجابه الشديد بعاداتهم وكرمهم وشهامتهم وينسبهم الى العرب والاتراك . فاستمال قلوبا وخطب ود القليلين بايغار صدورهم واثارة حفيظتهم ضد المصريين .

وفجأة وفي أصيل أحد الأيام والرجال يخترقون طرقات النجع عائدين الى بيوتهم وحقولهم بعد أن يثسوا من محاصرة دار العملة ، رفرق العلم الأخضر فوق سارية رفاص أبيض رسا عند النتوء الشرقى . وقفز منه الى الشاطئ الوجه الممتقع نفسه . فذب الذعر في قلوب بعض الناس يخشون أن يطب عمدتهم في « الحية » . المنصوبة له . بينما أمل الآخرون أن ينهى الرجل الأحمر عذابهم بكلمة واحدة .

ولكن الفريقين من الناس فوجئوا في صباح اليوم الثانى برحيل العملة مع الشيخ حسين الى الدر .

ومر يومان أشيع بعدها أن العملة قد رحل الى أسوان . فارتبك الناس . ثم عادوا يتجمعون صفوفًا حول داره يراقبون مقر اللجنة بقلوب واجفة مذعورة ، ينتظرون أية اشارة من ابن العملة الذى أخذ يصرف الأمور في غيبة أبيه .



وفي غيبة اعمدة عاشت القرية في مشاحنات وصدام لا ينتهي،
بينما في بيته تدب الحركة نفسها : غطاس بيه وموظفوه
يلعبون الورق . ويطلقون على الجموع من خلف الستائر .
والابن الشاب ، ابن العمدة ونائبه وزوجة العمدة يعيشون في رعب دائم
خشية أن يعود الوجه الأحمر من جديد .

وقد ظل الرجال والنساء يعسكرون أمام الدار في مجموعات
تتناوب الحراسة فلم يجرؤ أحد على اختراق سياج المقاطعة . الا أن
الرجال كانوا ينصرفون عند الأصيل ، يتناقلون الأخبار التي ترد اليهم
من هذه القرية أو تلك . . في شمال كرسكو وجنوبها ما زالوا صامدين .
وفي الغرب : توماس وعافية ما زالوا يقاومون . ثم دار الهمس عن قرية
في أقصى الجنوب عند حدود السودان . . حيث شجت الرعوس أمام مقر
اللجنة وسبق بعض الناس مكبلين بالحديد الى المركز . . . والبيانات
والشكاوى لا تزال تنهال على مكاتب الحكومة في مصر ، والبواخر لا تزال
تقذف الى المرافئ بأعداد كبيرة من الشبان العائدين لصرف تعويضاتهم ،
ولجان المساحة ومندوبو إعادة التقدير لا يتحركون ، بل يتركون الناس
يفرغون شحناتهم في بيانات وتظلمات تلقى فور وصولها الى سلة المهملات
ليحرقها الفراشون النوبيون والسعاة دون أن يعلموا من أمرها شيئاً ،
والمستر هيس وحده مع عدد من كبار رجال المساحة يتصرفون
بجرأة وينصبون الفخاخ لاغراء الناس . وما زال برعى والمأذون والمحامي
ووابور يكذبون الاشاعات بل يخلقون غيرها مؤكدين أن القرى كلها
صامدة ، ويتلون عليهم رسائل مشجعة تأتيهم من النادي في مصر . ومن
بدر افندى في الدر .

ولكن في أمسية من الأمسيات تناهى الى الاسماع فجأة خبر غريب

اهتز له الناس • لقد صرف الجزار •• عبد الله الجزار صرف تعويضاته
•• يا للملعون •• وكم صرف ؟ زاده مندوب المساحة خمسين جنيها ••
هكذا قال نوح في لهجة انسان يريد أن يعرف وقع الخبر على الناس • الا
أن برعى اعتلى مصطبة عالية أمام بيت الشيخ جعفر وصرخ : أنت كذاب •
الجزار لم يصرف • اياكم أن تقتربوا من دار العمدة •

وطوح بالنبوت فوق رأسه متهددا متوعدا وصاح من جديد :
كذابون • الجزار رأيته في الصباح • لم يصرف •• لم يصرف حتى العصر
وليس هناك صرف بالليل ••

واندفع صوت أجش يقول •• أنت نائم يا سيدنا في العسل ••
الكلوبات حولت الليل الى نهار هناك ••

— كلوبات ••! سنكسرهما • تعالوا نكسرهما ••

ودون أن يعي أطلق عواء الذئب رهيبا تردد صدهاء في النجع فأثار
نباح الكلاب ودفع « أوش الله » الى الوقوف على عتبة المتجر ليردد العواء
نفسه • ولسبب لا يدره على وجه التحديد انطلق برعى يسب ويلعن
العمدة ونائبه • ولم يسكت الا حين صباح به المأذون : العمدة ماله
يا برعى ؟ • بل أمسك به من كتفه يهزه ليفيق من النوبة الهستيرية التي
ألمت به : العمدة أبى أن يتفق مع الحواجة الانجليزى فساقيه الى اسوان •
الله يعينه • حتى أخباره لم نعد نعرفها • وظهر وابور في هذه اللحظة
ورأى « برعى » يطوح بالنبوت • يكاد يبطح الرؤوس ورأى الناس يتدافعون
حوله يحاولون انتزاع النبوت بينما المأذون يتعلق بذراعه ، وأدرك وابور
أن « برعى » هائج كالثور •• مجروح الكبرياء •• ألم يكلفه بدر افندى
بالحيلولة دون اختراق سياج المقاطعة • انه لن يصدق أن أحدا قد غدر
به • فمضى يصرخ : كلا أنتم كذابون • الجزار لم يصرف • وزمجر حتى
اختنق حلقه بالدموع وتهاوى على المصطبة وهو لا يزال يسب الناس •
لقد فاجأته حالة هستيرية عجيبة • المسألة كلها عنده مسألة كرامة
وجدعنة • لقد خانه الناس وخانوا معه بدر افندى • كلاب • بهائم تماما
كما وصفهم المحامي عشرات المرات • وليست هناك قوة تجعله يصدق أن
الجزار قد تجرأ وحنث بالفاتحة التي قرأها • واقترب وابور منه وهمس :
اهدأ يا برعى لنتدبر أمورنا • لقد تسرب آخرون الى اللجنة وأنت تصرخ
هنا كالجنون ، ثم أمسك به من كتفه ومضى يهمس من جديد : اهدأ •
يا ولدى ستجن • ما عليك أنت لقد سعيت وسعينا وقد نفشل • ألم

يفشل حسين طه ؟ كل الناس يخسرون . ألم تخسر أبدا يا ولدى فى لعبة
« الطاب » أو الحجلة ؟ فلم يجب الغلام بل ومضت عيناه ببريق غريب
هب بعده واقفا يصيح السمع ، ويمد بصره الى منعطف الطريق . فمن
هناك ارتفعت جلبة أخذت تعلو ، فاستداروا جميعا على أعقابهم يمعنون
النظر ، ويحدقون من خلال الظلام لتقع أبصارهم على نفر من الرجال
يستديرون بواحد يناقشونه الحساب فى أصوات عالية : ستعمى ما دمت
قد حنثت بالفاتحة . سيصيبك الكساح . خراب ذمة وبيوت يا رجل
يا ضلالى .

فاقتربوا منهم ليجدوهم مستديرين بعبدة الله الجزار ، يطل عليهم
بوجهه الكالح تلمع عليه حبات العرق رغم لفحات النسيم . كان خائفة
يحاول الافلات من الذين أحاطوا به . وفى عينيه أمارات خزي ومذلة .

وتفرس برعى فى وجهه وأدرك كل ما كان يعتمل فى صدر الرجل :
لا شأن لكم بى . اتركونى استرح منكم ومن العذاب . اننى لا أعرفكم .
لست من نجعكم وسأرحل بعيدا عنكم . ومد برعى يده وأهوى بها على
وجه الرجل فى لطمة قاسية بدأت بها معركة جمعت الناس من كل درب .
حتى البسطاوى ترك عروسه وجاء والحناء لا يزال يبرق فى كفيه يمسك
بهما نبوتا تطوحان به فوق الرعوس ..

وازدحم المكان وارتفع الصوت . ثم تمكن أحمد عوده ونوح
والشيخ جعفر من فض المعركة .

وتلفت الناس ليجدوا الجزار يعدو الى بيته ، وهو يضم الى صدره
قميصه ليطمئن على أوراقه الخضراء المودعة فى جيب الصدري . والتقى
به الشيخ فضل . فواجهه برعشة تشمل جسده . بعثتها نظرات الاحتقار
التي ومضت فى عينى غريمه الحادثين . فلم يبال بل مر به سريعا ليدلف
من باب بيته ويرتمى على المصطبة الداخلية .

وفى الطريق العام كان المحامى والمأذون وبرعى يسرعون الخطى فى
لهاث .

وهذه هى دار العمدة من جديد : الستائر مرفوعة . والكلوبات
تفرش الارض بنور كشاف حول الظلمة الى نهار . وهؤلاء هم الناس
يتسللون الى داخل اللجنة ثم يعودون واجمين وقد وضعوا أيديهم على
صدورهم ويتلفتون ، وكأنما هم لصوص يعودون بعد غزواتهم الليلية .

وانهال برعى ورفاقه بالسياط على ظهور الناس • فانبعثت آهات
وصرخات بعثت الذعر ، فى قلب الضابط الصغير ، فهب من مكانه الى
جانب الحزانة الثقيلة وانتصب على عتبة الدار ، يصدر أوامره ، فدوت
حلقات الرصاص وتطايرت فوق الرؤوس تشيع الفزع والرعب •

انبعث صوت الرصاص غريبا فى القرية • أول رصاصة سمع
الناس دويها • أول دوى من نوعه ردد الجبل صدها • انهم لم يسمعوا
صوتا مثله من قبل الا فى المدن • ذكرتهم تعى صوت الدوى على الطبول
وارتطام ألواح الحشب بالماء أو انهيار جدار : أما هذا الصوت البارق فانهم
لم يسمعه قط ، الا الذين عاشوا فى الصعيد أو فى قرى الوجه البحرى
أو العجائز الذين حضروا الدراويش •

انبطح المحامى على الأرض حين سمع الدوى • أما برعى فانه قد
التقط بشكل غريزى حجرا صغيرا قذف به فى وجه العساكر • وقلده
الرجال فانهال الزلط والطوب ودوت الرصاصات • وخذشت ساق برعى
خدشا بسيطا أثار جنونه • فاندفع الى العساكر فى مغامرة جنونية كادت
تقتله لولا أنه ارتطم بجسد المحامى الذى كان قد انبطح على الأرض ،
وسمع ، وهو يتمرغ فى التراب ، صوت نائب العمدة : حضرة الضابط
•• ما هذا يا سعادة البية ؟ اسحب عساكرك والا سوف يحدث ما لا يحمد
عقباه • وأشار الى الحفر الذين كانوا يسرعون الى المكان مصوبين بنادقهم
الى العساكر •

وأحس الضابط الصغير بحمق أوامره • فصاح فى رجاله : كفى
•• انسحبوا الى الخلف • بينما اندفع نائب العمدة يقول للناس : كفى
•• عودوا الى بيوتكم •

ثم شددت الحراسة على مقر اللجنة ••

وباتت القرية ليلتها ساهرة لا تنام وما زال بعض الناس متماسكين
لا يريدون أن يقتربوا الى مكاتب اللجنة فظلوا يقسمون على ذلك ، الا أنهم
برغم ايمانهم كانوا موقنين أن شيئا ما لن يوقف مد الناس الذين
سيصرفون منذ غد • ان جسر المقاطعة قد كسر الى غير رجعة !

وراحت داريا تدور هنا وهناك ، وتتخذ مظهر الحريصة على مصالح
النجع ، وتسب وتلعن عبد الله الجزار ، فحدق الشيخ فضل فيها مرة وقال

فى سخرية : نجسة • كل شىء باسم جمال ولا تستطيع المنكودة أن
تصرف • لو كان فى يدها لصرفت فى أول لحظة • ألم تكن هى التى
حاولت أن تلاقى « غطاس » فى منتصف الليل ؟

وانطلق حسن المصرى يحكى عن الرصاص فى بلاده : أما هنا
فطلقتان من الرصاص ••• لعب عيال! مضى يحكى والناس لاهون عنه وعن
الرصاص الذى بعث الرعب فى قلوبهم بمشاغلهم •• ماذا يفعلون فى غد؟
منذ أيام مضت بدت المقاطعة قمة صاعدة ، ثم أخذت الرياح تقتلع
منها الحجارة الصغيرة ثم الصخور الكبيرة وتزيح عنها الرمال حتى بدت
عارية تنخر العاصفة فى قلبها •

ولم يعد أحد يذكر اسم بدر افندى • ألم يخذلوه ؟ أولى بهم أن
يتناسوا الرجل ويتركوه يعيش آلامه وحده يتجرع مرارتها فى كأس
طافحة • وبدأ يتردد على الألسنة : الجوع كافر • ولو كان الفقر رجلاً ••
آه •• لو كان رجلاً • قالها المأذون فى حسرة ورددها برعى بعد أن حفظها
وكتبها المحامى فى رسالته الى النادى والى الصحف •

ومر يومان • ثم يوم ثالث ورابع • والجسر يتحطم واليأس يدب فى
قلوب دعاة المقاطعة فاستكان المأذون يصلى ، ويذكر الله وعاد وابور الى
طاحونته مهزوما يهز رأسه فى أسى ، ويلقى على الناس نظرة ازدراء •
أما برعى •• فقد مضى يفرق أحزانه فى العرقى يعب منه •• ثم يندفع
الى الارض •• يكدح طول اليوم • ويعوم حول شريفة •

وأخذ المتجر يستوفى ديونه • ولأول مرة شهدت فى درج البنك
عشرات من الأوراق الخضراء الجديدة تبتسم فى دلال وترسل حفيفاً ممتعا
كلما مستها يد • وأخذ قلم الكوبيا فى يد أحمد عودة يشطب السطور
الاخيرة فى نشوة ويمزق الصفحات • الوحيدة التى لم يمتد القلم الى
صفحتها هى داريا سكيئة التى راحت تعيش فى قلق متصل ، تعدو الى
مقر اللجنة ، تستعطف دون أمل ، وتعود خائبة تدعو على جمال وعلى
زنوبة ، وتمسك بخناق شريفة وكأنها المسئولة عن شقائها !!

وتلفت أبى مرة الى أحمد عودة : أنصرف نحن غدا يا أحمد ؟ قال :
صبرك بالله علام العجلة • دع الناس يصرفون وماذا نخسر لو صبرنا ؟
- لا شىء ولكننا - لو صرفنا - نستطيع أن نتدبر أمورنا •

وفى ضحى اليوم التالى • مضى بى أبى الى دار العمدة •• بعد أن ارتديت أحسن ثيابى •• وأنا أحس بنشوة غريبة • فسوف أصرف كما يصرف الكبار تعويضاتهم – لا فرق بينى وبين أبى ولا الشيخ فضل • حتى برعى لم يصرف مثلى أنا •

واخترقنا صف العساكر • وتخطينا عتبة الباب ، ودلفنا الى الدهليز لنجد الشيخ جعفر يطل على رأس غطاس بيه ويحدثه باهتمام فى مشكلة داريا سكيئة • ويبدو أن صبر غطاس كان قد نفذ اذ احتقن وجهه وقال :

– نقول لكم تور •• تقولون احلبوه •• يا هوه •• لا بد من توكيل
ثم رفع رأسه وشملنى بنظرة نافذة • وارتد يرمق أبى ويحييه
ويسأل •

– الاسم أظنه أمين •

– نعم يا سعادة البية •• أمين هاشم •

ثم أخذ يعيث فى دفتر كبير بسرعة غريبة وهو يهمهم حتى توقف عند صفحة عريضة فيها سطور قليلة يتصدرها اسم أبى ••• سطور بالاحمر والازرق وجنيهات وقروش وملاليم • أمامها خانات لم تملأ بعد •

ومد الرجل يده ووضع تحت صفحتين أو ثلاث شرائح من ورق الكربون ، وأخذ يكتب بسرعة ويهمهم بأرقام • ثم توقف ليقول :

– أليست هذه أملاكك ؟

ومضى يعدد عدد أشجار النخيل وغرف البيتين الكائنين بنجع الزينية والقراريط التى تملكها فى الحوض البحرى • وهز أبى رأسه بالإيجاب • فاستدار البية الى الحزاة الثقيلة وسحب رزمة من الأوراق المالية ، ومضى يعدها بسرعة فائقة جعلت عينى تتحركان بنفس السرعة • ثم وضعها فى يد أبى الذى أخذ يعدها بدوره حتى اطمأن ودفع بها فى جيب الصديرى •• ودفعنى الى الامام حتى أوقفنى أمام رئيس اللجنة : اسمك حامد ؟ نعم •• هو ابنى •• البيت الكبير مسجل باسمه •• ثمانى غرف • وحوش وأربع حجرات مسقوفة • البناية جديدة يا سعادة البية •

وأمرنا الرجل أن نوقع • ثم طلب منا أن نبصم فبصمنا ووقع جعفر شيخ الحصنة من بعدنا • ثم اندفعنا الى الخارج لنجد الشيخ «فضل» ينتظرنا فأخذنا ندب فى الطريق لنعود الى التجمع •

كنت أود أن أنطلق الى أمى بأقصى سرعة حتى أضع الجنيهاات الاثنين والثلاثين فى يدها ، فهى التى أصرت على تسجيل البيت باسمى ، وظلمت ممسكا بها فى جيبى فى حرص غريب . وبدلا من الاسراع الى النجع أصر أبى والشيخ فضل على تنكب الطريق العام الى شاطئ النيل يشيران الى البر الغربى . الى الرمال الصفراء والقفار المحدقة بكران نوج . . وقال فضل :

– يمكن أن نعبّر النيل غدا لنشهد المكان بأعيننا . .

وأجاب أبى : اذهب أنت يا فضل أما أنا فأننى أخاف من ذلك القصر . والقفر الذى حوله . اذهب أنت .

– سنعمرها يا أمين . الأرض الصفراء ستخضر . قلت لك اننى لن أرحل من هنا . ستمتد بيوتنا على البر الغربى . على تلك الارض المرتفعة التى لن يبلغها الطوفان .

وأخذت أنا أمعن النظر فى الهضبة المرتفعة حول كران نوج ، وأتخيل البيوت هنالك ، فسرت فى جسمى رعدة . ثم تبعتهما وهما يتحركان فى ببطء حتى حاذينا النتوء الشرقى ، وهنا قربنى أبى منه ومد يده الى جيبى، وانتزع جنيهااتى ودسها فى جيبه وأنا أحقق فيه مشدوها . كنت أفكر فى أمى . فهى التى أصرت على تسجيل البيت باسمى . فلماذا يأخذها أبى ؟ ، ولكنه طيب خاطرى حين قال : لا تخف يا حامد . قل لأمك اننى سأحتفظ لك بها الى يوم سفرك الى الأزهر . فسكت على مضض . . . وأردت أن أقول شيئا الا أن المشهد الذى فاجأنا فى النيل استرعى أنظارنا جميعا . فاستدرونا لنرى صنادل سوداء طويلة تقطرها بواخر صغيرة تصعد النيل . مزدحمة بأمثلة ثقيلة تكاد تغوص بها فى اليم .

وعلى النتوء كان مصطفى يراقب الصنادل ، ويلوح لها بمنديل أبيض فابتسم أبى وقال : هذا الولد مجنون . فأجاب فضل : لعله يلوح لأناس يعرفهم فى البواخر .

ودنونا منه وفاجأناه فأصيب بارتباك . قال لنا وهو يتلعثم : عزال المدرسة . . وصمت . ثم أضاف : الصنادل تنقل عزال المدرسة من الدر الى عنيبة .

– ولماذا ينقلونها يا مصطفى ؟

– الى المدرسة التى يبنونها فى عنيبه يا عم فضل . .

وضحك أبى ، ووقفا يراقبان الصنادل بينما انضمت أنا الى مصطفى أشد على يده فى حماس ، وشعرت وأنا أشد على يده أن عنيبة هى الأمل الذى يجب أن أسعى اليه .

وترشنا حتى غابت الصنادل عن أنظارنا ، وعدنا الى الطريق الزراعى نخترقه ، حتى أوفينا على السفوح المرتفعة حيث كانت تصطف بيوتنا الطينية . وتوقفنا عند باب الشونة فى ذهول فقد انطلقت داريا تخرج من بيتها وتندفع إلينا وهى تهتف .. أمين .. أمين يا كلثومة جمال سيعود . وسنصرف التعويضات .

وتلقيناها بالابتسام ، ثم تناولت منها البرقية وقرأت فيها : انتظرينا على المحطة : جمال .. فقال الشيخ فضل : داريا .. جمال لن يعود وحده .. لكنها لم تأبه بشئ . بل مضت تخترق النجع تصفق وتهتف وتزغرد .. ثم ارتدت الى بيتها .. ومن خلف الجدران تنهى إلينا صوتها : زغردى يا بنت يا شريفة .. زغردى يا بخيثة .. جمال سيعود .

وانطلقت الزغاريد فى دقائق حنونة . ودبت أقدام الناس تعبر الطريق الى بيت داريا سكينة . ومنذ الصباح ستطلى الجدران من جديد . ويرتب البيت لاستقبال العائد الجديد .

ولن تمضى أيام طويلة حتى يقف جمال أمام غطاس افندى .

وجاء اليوم الموعد ووقفت داريا وشريفة ولقيف من رجال النجع ونسائه على شاطئ النيل عند مرسى الباخرة . يظللون عيونهم بالأيدى ويراقبون حركة الباخرة التى ملأت النيل بأضوائها الزاهية وهى تعبر النتوء وتوسط النيل ثم تميل برأسها لتتطامن على المرسى بعد لحظات .

تساندتا بقلبين واجفين تتعلق عيونهما بالباخرة وكأن الحياة كلها

٣٩



تعيش على متنها .. كيف يكون لقاءه ؟ وهل يأتي وحده أم تأتي معه
البيضاء ؟ . تبا لهذه الفجرية لماذا تتبعه الى آخر بلاد الله ؟ .. ليتته عاد
وحده حتى نتمتع به وحدنا .

وتهادت الباخرة أمام عينيهما .. ثم أوقفت محركاتها وارتطمت
بالشاطيء واهتزت وهي تطلق نفيرا داويا اندفع الناس معه الى السقالة
التي مدت من الباخرة الى الشاطئ . وأطل جمال بوجهه الأسمر وبسمته
الوادعة اللطيفة وقامته المديدة . كان قد ترك طربوشه في مصر ولف على
رأسه عمامة بيضاء من فوق طاقة زاهية الألوان .

وتفرست داريا فيه وهو يلوح لها بيده فانخلع قلبها ، فالى جانبه
كانت فتاة طويلة بيضاء نحيلة واسعة العينين ترتدى جرجارا طويلا أعدته
في مصر وعلى رأسها طرحة خفيفة ملونة تنسدل فوق شعرها الفاحم
الجميل ، وتسترخى على كتفيها ، ويلتقى طرفاها على صدرها فوق رمانتين
بارزتين .

انها تتشبث به وتلقى نظرات سريعة على الشاطئ وأجمات النخيل،
وتبدو مذعورة كاسفة البال وكأنها تتساءل : ياه .. كل هذه الوجوه
السوداء التي لا تبين في الظلام .

وخطا بها جمال الى الشاطئ وهي ترتد الى الخلف كأنما تريد ألا
تبارح الباخرة . وعند السقالة ألقت داريا نفسها عليه تعانقه وتبلل وجهه
بالدموع وتصرخ : جمال .. حلم أم علم يا ولدى ؟! جمال أنا أمك
يا جمال يحرسك الله .. هل عدت حقا ؟ جمال .. أم أنا واهمة ؟ ..

وتوقفت زنوبة عند خطواتها الأولى على الشاطئ تمنع النظر في حاتها
وفي شريفة مرتبكة تسأل نفسها : كيف يكون استقبالهما لي ؟ انهما
ولا شك تكرهان زوجة أبعدت عنهما «جمال» سنين طويلة عاشتا خلالها في
حنين جارف اليه . يا لهذه الام لكم تحبه ! وما الذي تقوله تلك الفتاة ؟
انها ترطن ولا أفهم كلمة واحدة من كلماتها .. أتراها تسبني وتنفر
جمالا مني .. كلا انهما لم تفرغا لي بعد ..

وتنبه عبده بتيت الى زنوبة ، فأقبل عليها يقول أهلا بالست ..
شرفت البلد .. بلد جمال .. متشكرة .. محسوبك عبده الفرنسي
عم جمال . كيف حالك ؟ الحمد لله يا عم عبده .. بنتك زنوبة ..
خدامتك .

وتعارفا على الفور ثم جذبها الرجل الى جمال وأمه وشريفة وتنبهت
هذه اليها • ومضت تحتضنها في غير ود ثم جاء دور الأم التي حدقت فيها
لحظة ثم شددت على يدها في غير ود • فطمرت الدموع الى عيني زنوبة
وأخذت تحبسها حتى لا تسبب ضيقا لجمال •

الا انها استطاعت في أيام قليلة أن تألف البيت وجدرانها المتشقة
وأن تأنس اليهما • لقد هدأتا وأخذتا تكرمان وفادتها ولا تسمحان لها
بأى عمل • ومضى جمال يهون عليها ما تلاقيه من عنت أمه وشقيقته حتى
قررت أن تكسبهما الى جانبها بنفسها •

ولم يكن غريبا أن تقول شريفة لامها بعد اسبوع : لسانها مثل
السكر • وأشهى من السكر • فقالت أمها : مكاره يا شريفة • بنت
مصر •••

فقد مضت زنوبة تقص عليهما في كل ليلة نوادر مصر وحكايات
لا تنتهى عن سيدنا الحسين والسيدة زينب والسيتما واليتاترو
والترامويات حتى ألفتها وان ظلتا تنقمان عليها تصيدها لجمال وإبعاده
عنهما كل هذه السنين •

انها على كل حال ضيفتهما وزوجة جمال • وها هو قد عاد وكفاهما
أنه قد عاد بها أو بغيرها •

ودخلت الاوراق الحضراء الجديدة بيت داريا ، وراح جمال وجاء الى
المتجر يحاسب أبى ويسدد ديون أمه حتى استوفاهما على آخر مليم •
وارتسمت البسمة على وجه داريا وشريفة ولم تعد تترقرق في عينيهما
بل حلت الفرحة محلها •

واستجمعت شجاعتي مرة وقصصت على أمى كيف انتزع أبى مالى
وأودعه في جيبه فذرفت دمعين وعادت الى خطوطها المستديرة ترسمها
في أناة • حتى أصابها الكلال •• فنامت نوما متقطعا أخذت تهذى فيه
بكلمات مبهمه •

ورغم النفور الذى كنت أشعر به نحو بيتنا الكبير ، فقد أخذت
ألوذ به في هذه الأيام كثيرا •• أتمتع بدعابات حسنين ونوادره وأشاغب
بطة التى لم تكن قد ألفت نوادره بعد ••

وقد عاد الصفاء بيننا وبين حجوبة ، فان هذه قد اقتنعت أنه لا فائدة
ترجى من نزاع يستعر بينها وبين ضررتها حول بيت حكم عليه بالاعدام ،
بيت سوف يكتسحه الطوفان فلم تعد تغشاه كما كانت تفعل قديما .
ولم تعد تسخر من أمى واغماءاتها ، بل تجنبتنا ولا سيما بعد أن أيقنت
أن أبى قد نقل الى جيبه جنيهاً التى صرفتها تعويضاً عن هذا البيت
الكبير ..

فأخذت تنظر الى فى اشفاق وتقول : كل شىء الى زوال يا حامد .
البيت الكبير والبيت الصغير . فأهز رأسى وأداعب محمود الصغير ...
أدغدغ باطن قدمه فيضحك ويبرطم بأصوات مبهمه لا تفهم .

ولم تعد حجوبة تردد أحاديثها عن ارسالى الى مصر لأشتغل . فان
احوال المتجر تحسنت منذ أخذ الناس يسددون ديونهم . وعادت الرفوف
تزدحم بالطرح الملونة والقوال وبأنواع الحلوى المختلفة .

وبدأ الناس يتجمعون كل ليلة فى الساحة الممتدة أمام المتجر
يتحدثون عن المصير الذى يتوقعونه . وعن الطوفان . ومتى يكون ؟ ...

وعادت الحياة تجري كما كانت تجري . الرجال يتسلقون
النخيل . والأطفال يمرحون فى ظلالها ، والنساء ينزلن الى
النيل وقد ركزن على حوايات فوق الرؤوس كوبيهات نحاسية
يتوهج عليها ضوء الشمس ، وتسيل منها قطرات الماء تنحدر فوق النحور
وتبل الثياب وتلصقها على النهود .

وعلى الأرض التى تعرت من عيدان الذرة أكوام من العلف تجف ،
وتحزم حزماً صغيرة معدة للرحيل ، بينما المتاجر تعفر الشون بالرماد
لاستقبال البلح . وقد بدأت الطلائع الأولى للمراكب الشراعية السوداء
تصعد فى النيل لترسو على المرافىء من جديد . وعاد النيل الى ثورته

خببت أمواجه كاسرة تكاد تقتلع التتوء وتحمله بعيدا الى الشمال ،
وتضرب قوائم السواقي والشواديف ضربات عاتية تبعث الرعب في
قلوب الناس .

وعدنا نحن الصغار الى صوامعنا نعد لليالئ الساحرة حين تنطلق
الفوانيس ترسم هالات مضيئة حول أقدام فتية تدب حتى تصل الى
أجمات النخيل .

ووقفت أنا حائرا امام صومعتي الصغيرة لا أدري ماذا أفعل ؟ فقد
تزوجت الشقيقتان ورحلت احدهما بينما الأخرى تنتظر يوما قريبا ترحل
فيه الى مكان بعيد ، ولم تعودا تهتمان بالصوامع ولا بالفوانيس ، وقد
مات بعدهما في نفسى سحر الفجر والصومعة الصغيرة ، فضربت على
جانبيها بعنف وركلتها وأنا أقرر ألا شأن لى بعواء الذئب ولا بالسهر بين
النخيل . وما زلت أعدو الى الكتاب وأعود منه وقد دميت قدماى في
الفلكة ، اذ تحولت الآيات منذ لقائى بمصطفى الى طلاس لا تستقر في
ذهنى ، بل أصبحت اعافها واجترها لتتسرب من ذاكرتى حين يأمرنى
الشيخ بتلاوتها .

والقرية هي نفس القرية والنخيل هي ذات النخيل وساقيتنا
ما زالت تدور فيها بقرتنا والشواديف ما زالت تركع وتقوم . . ولم يتغير
فيها شيء غير ثقب في الدلاء رقت منذ حين .

ما من صورة تغيرت في قريتنا . حتى بيوتنا ظلت كما كانت . ما من
شيء تغير الا هؤلاء الشبان الذين عادوا من أرض الغربة وملأوا القرية
بنواديرهم ، والا زنوبة التي استقرت في بيت جمال تجتذب أنظار وأفئدة
الناس بما تصطنعه من حنو وعناية بالمرضى والأطفال . تغسل كل جرح
وتضمده وعلى شفيتها ابتسامة حلوة ، وتنال اعجاب الناس واحترامهم
حتى ألفوها وتمنوا لو عاشت معهم الى الابد ، غير أنها كانت تعرف أنها
لم ولن تتمكن من قلوبهم . فانهم لم ينسوا بعد أنها قد تصيدت في مصر
واحدا من شباب النجع كان جديرا أن يتزوج واحدة من بنات النجع ،
ولن تنسى داريا وشريفة أن زنوبة أبعدت عنهما جمالا سنين طويلة ذاقتا
فيها مرارة الحرمان والبؤس ولوعة الشوق .

كل شيء جائز وممكن الا زواجهما من جمال . وقد يحبها هؤلاء
الرجال وقد يشتهونها ويلتهمونها بعيونهم ، وقد يتمنون لو تمددوا الى
جانبيها ساعة من الليل الا أنهم رغم ذلك لا يغفرون لها ما فعلته بجمال ،

ولا جدوى ، لا فائدة ترجى اذا عن لها أن تصرخ فى وجوههم : أحبيته
وتزوجته وما زلت أحبه .. وفى سبيله أتيت الى دياركم النائية هذه .
لا فائدة . ليس عليها الا أن ترضى بما قسمه الله لها من رضا و إعجاب
هؤلاء القرويين . انها غريبة فى هذا الوطن ولولا جمال ، لولا أنها تخلو
اليه اذا ما جن الليل تبكى فى أحضانها لحسبت نفسها تعيش فى جحيم
لا يطاق . فأين مصر وجنات مصر من هذه القرية الكالحة الضيقة . الغريب
أنهم يحبون قريتهم هذه كما يحبون نساءهم . قالت لجمال مرة وهما فى
الفراش : أمك تكرهنى يا جمال .. فهمس بعد ان ثأب : كفاك تخريفا
يا زنوبة . انها لا تكرهك . فارتفعت كوعها ، وأطلت عليه تهمس فى
حزن :

- النساء يفهمن ما فى عيون الأخريات يا جمال . انها تمقتنى .
- انها لا تمقتك بل تغار منك ، فأنت بيضاء جميلة بينما هى سمراء
عجوز .
- حتى شريفة افتح عينى عليها فجأة فاضبطها تراقبنى خلصة وفى
عينها حيرة .
- أنت الملوثة يا زنوبة . لماذا تفتحين عينيك عليها فجأة . المسألة
يجب أن تترك للزمن .

ثم أطبق شفتيه وتظاهر بالنوم ، وأرسل شخيرا خفيفا من
منخريه . لكنها اكتشفت خدعته الساذجة فضربت ساقه بساقها وهمست
فى دلال : حان الوقت يا جمال — فمد يده الى صدرها يدغدغ رمانتيها ،
فضربت على يده وهى تقول : أقول لك ان الوقت حان ، فتمد يدك الى
صدرى ! يا لك من ماكر .. يجب أن نعود الى عشنا فى معروف ...
فضحك وسخر منها : قولى عشتنا يا شيخة . فزوت ما بين حاجبيها
وهمست : لا أطيق الحياة هنا يا جمال . التعويضات انتهينا منها .
وليستا فى حاجة اليك . قصمت مليا ثم لكزها وهو يقول : اسكتى فأنت
لا تدري شيئا ، يجب أن نبقى حتى تستقرا فى مكانهما الجديد . حينذاك
نعود الى مصر ونعمل ، فرقصت الفرحة فى عينيها وقالت : لنعمل ! اذن
فقد وافقت أن أعود الى قصر الباشا ولن تصيبك الغيرة . ففرك أذنها
وقال : كلا لن أسمع لك بالعمل . فتأملته على ضوء القمر المتسلل من
خلال الكوة وشهقت وهى تهمس : لا تعبس هكذا يا حبوب . ثم أخذت
الى الصمت لحظات غامت فيها عيناها وحملتها الذكريات عبر الكثبان

والحقول الى معروف ، الى كل مجالات مصر ، فأرسلت تنهيدة صعدتها من قلبها وقالت يا سلام كم أحن اليك يا مصر ، فتثأب وأمرها : نامى •
ملعون أبو الدنيا ، ملعون أبو مصر • نامى يا ست •

وفيما عدا جمال فانها لم تأنس لأحد من الرجال الا عبده
الفرنساوى • فكم استقرا على عتبة البيت يتذكرا مصر وشوارعها
والحفلات التى أقيمت فى مصر الجديدة وقصر البارون امبان وفى الزمالك •
واستهجن جمال فى أول الأمر صلتها بعبده الفرنساوى ، لكنه تطامن
بعد قليل • فزنوبة يكاد يقتلها الملل والسأم ، فلماذا لا يترك لها متعة
هذه الصداقة مع رجل عجوز تأنس اليه •

وفيما عدا زنوبة والشبان الذين وفدوا وحفلتى الزفاف والجنهيات
الحضراء فان كل شىء فى القرية ظل كعهدنا به اذا ما ألقى المرء نظرة عابرة
على الناس وحياتهم • أما اذا تعمق هذه الحياة فانه سيحس بالتغير الحقيقى
الذى أخذ يضطرم فى قلوب الناس • لقد عاشوا فقراء لكن باسمين ،
تغربوا كثيرا وتفرقوا وعانوا الآلام ، ولكنهم كانوا يعرفون دائما ، وهم
فى أرض الغربة ، أنهم عائدون يوما الى بيوتهم ليناموا نومتهم الاخيرة فى
جبانته العمومية •• أما اليوم فانهم يشعرون أن كل شىء ، ان حياتهم
كلها تتسرب قطرة قطرة •

فمنذ شهور كانت التوادى والنكات ، وحسين فييس وأحلامه
الوردية الكاذبة ونوار الفول وأريجه فى الحقول ، والموسم وفرق الحلب
وضاربات الودع والباخرة وتوقع الرسائل والطرود والخلود الى الزوجات
اذا ما انتصف الليل ، والدف وأنغامه ، هو الذى يصبغ الحياة بألوانه
الساحرة فيبسمون لها سعداء رغم الفقر والجوع • أما اليوم فان حياتهم
فى مهب الريح لا تراها فى عيونهم الا قلقا يلمع ، وهواجس تنوء الصدور
بها فتطفح على الوجوه غصونا تضيف الى السنين وتحنى الظهور ، وتقلص
الشفاه وتعجل بخطاهم الى القبر •

تأمل فى رفاق العمر هؤلاء الذين وقفوا على الشاطئ عند الموردة
يطلون على النيل يقيسون أبعاد مجراه ويقارنون بينه وبين المنسوب الذى
سيبلغه الطوفان •• تأمل فقد يطالعك وجه المأذون والجزار وفضل وعوده
بغضون كثيرة وشفاه مزومة ••

لقد أصبح الصمت داء يعانون منه ، فلا يتبادلون الا كلمات قليلة
عن مصر والنادى وبدر افندى طريح الفراش •

— مصيبة .. لا قبل للناس بها • شيء يكفر • حتى بدر افندى
أقعده المرض •

فانعطف الجزار برأسه في سرعة وقال : استغفر الله يا صابر ،
مصائب الغير أدهى وأمر • أجارك الله من عذاب الضمير ، وسكت ليطلع
نظرات التأنيب في عيون الآخرين : صفاقة ! حنت بالفاتحة • وعاد يتكلم
عن الضمائر ! واغتم حين قال الشيخ فضل : حقا يا صابر • لكل الناس
مصائب يبتلون بها لكن مصيبتنا من النوع « الذكر » الذي لا مثيل له •
وهز رأسه قليلا وعاد يقول : أن تغوص سفينة بمن فيها من نساء وصغار
في يوم عيد مصيبة ، أن يحترق بيت • لكن الدنيا تظل رغم ذلك بخير •

وحار الجزار وهتف متعجلا : مصائب وحرائق وخير — فضك
يا رجل من الفلسفة • فتجههم فضل في وجهه واسترسل : الدنيا تظل بخير
رغم ذلك • صبرك بالله يا عوده فأننى لا أتفلس • أجل الدنيا تظل
بخير ما دام هناك آخرون يقدمون العون ، ما دام اليتامى الذين غاص
آباؤهم في اليم يلاقون العطف منك ومنى •

وبصق ثم أنشب أظافره في التراب ومضى يرسل كلماته الحزينة :
الذين لم تحترق بيوتهم يساعدون في ضرب الطوب وحفر الأساس وتقليم
الجدوع وقيمون بيوتا للمنكوبين •

وصاح الجزار من جديد : والله اننى لا أفهم ما تقول يا فضل •
فهتف الرجل غاضبا • ومتى كنت تفهم ؟ ألم تحنت بالفاتحة يا رجل ؟
ألم تصرف قبل كل الناس ؟ لماذا تحشر نفسك في كل حديث ؟ واستدار
الى أحمد عودة ، حين أطرق الجزار برأسه الى الأرض ، وقال : لكن المصيبة
التي تتهددنا مصيبة لا مقييل منها ، فسوف يحل الطوفان بنا جميعا دفعة
واحدة • كل واحد سيكون مسئولا عن نفسه ، لن يتمكن أحد من مساعدة
غيره ، سنكون جميعا مثل السمك يهيج ثم تلقى الشباك عليه دفعة
واحدة •

وفغر الرجال أفواههم وأطبقوا الشفاه على كلمات ارتفعت الى
حلقهم ، ثم نفض الشيخ فضل يده من التراب كأنما ينهى حديثه •
وربت بهما على ساقه الخشبية ومضى يزك بها مبتعدا عن رفاقه دون أن
يقول كلمة وداع ثم تبعه الآخرون صامتين •

وفي المساء ، وعلى المصاطب وعند ساحات المتاجر ، كانوا يتجمعون ويتلاحون ويحاولون البحث عن أفضل الطرق لاستثمار جنيهااتهم الخضراء ، ويقفز وابدور بينهم فتحتدم المناقشة ، هاتوا قلوبكم وسوف تكسبون الذهب • مقهى فى أسوان • جارج فى الاسكندرية • بوفيه فى أحسن ميدان فى مصر أو الاسكندرية • قمينة للفحم من أخشاب السنط يا بشير عثمان •• بثر فى الغرب تزرع الأرض أو سوق فى القرية الفلانية بالأقصر ، يبتاع منها المسافرون ، لكن القطار لا يقف هناك • وماله ؟ سنطالب بإنشاء محطة هناك • طيب دعونا من كل ذلك • ألا نستطيع تربية الماشية •

فيشيحون عنه بوجوههم ولا يفكرون الا فى اختزان أوراقهم الخضراء فى السحارات • الا بشير عثمان فقد انحاز اليه وقرر أن يحفر بئرا فى الصحراء •

وغمغم نوح : لو اشترينا مليون شتلة نخل من السودان • ها • ها •• سوف تموت يا نوح والكراديف فى أحضانك ، فيصمت الرجل ويجتر أحزانه • بينما يلتفت أحمد عودة لأبى ويهمس : اشتريت أرضا فى الطود • ونشر خريطة من مصورات المساحة أمام عينى أبى ومضى يشير بعود ثقاب هنا وهناك : الحوض نمرة ٥٠ فى الطود • الفدان بجنيهين • فيمعن أبى النظر فى الورقة ولا يدرك شيئا مما يقوله ، واذا أدرك فانه لا يؤمن بكلمة واحدة من حديثه : صحيح أن الأرض بور لم تتركها المياه بعد • ولكن الفدان بتراب الفلوس •

ويكاد أبى يقتنع الا أنه يتردد وهو يذكر قصة حجاج جد سعيدية الذى جمعت العائلة له تعويضاتها فراح وجاء ورشا موظفى المساحة وعالين الأرض وعاد دون أن يقدم حجة تملك واحدة ، فظنوا به الظنون • انه فى مصر قابع فى الجزيرة يتشفع ، والأسرة تنتظر وتلطم الحدين متأملة حبات الذهب التى بدأت تبرق حول عنق زوجته العجوز • لقد خانهم الرجل • كلا ان الرجل لا يمكن أن يخونهم ، ولكنه مبذر والموظفون يضحكون عليه ويبتزون أمواله •• مسكين • لا يا أحمد • لن أشتري أرضا الآن • لكن الاسعار سترتفع بعد قليل •• كلا •• قلت لك اننى لن أشتري أرضا يا أحمد •

وقال نوح : كلا •• أنا لن أشتري فى الصعيد •• سوف يقتلوننا هناك • لماذا لا تشتري فى بلانه ؟ فى الجنوب بالقرب من « أبو سمبل »

هناك اخوة لنا ، ولن يبلغ الطوفان أراضيهم • أنا ومندوهه سنرحل الى
يلانه اذا قدر لنا أن نشترى هناك •

وهز أبى رأسه حائرا ثم قال لفضل : الغرب أفضل عند كران نوج •
فتبسم الرجل وربت على ساقه ثم على ظهر أبى وانصرف الى بيته •

وأقبل الموسم وما زالت الحيرة والارتباك يسودان عقول الناس ،
فاستقبلوه فى فتور ، واخترق الحلب قريتنا من شمالها الى جنوبها ، فلم
يحفل بهم الا الصغار وحسن المصرى الذى التقى بضاربة الودع فى الحراية
الملاصقة لبيت داريا سكيئة • وشكت المراكب الشراعية السوداء من الكساد
وران الوجوم على وجه باشرى فبدا حزينا لا يبارح سفينته الا لحظات قصيرة
يتردد فيها على دكانة أبى : النخل كيف يا شيخ أمين : ارادة الله • بعد
سنين لن تكون هنا نخلة واحدة • فى « دابود » الصخور تخنق كل شتلة
تحملها من هنا أو من السودان •

واستدار الرجال به يعجبون من حديثه عن النخل ولا يصدقون أن
أشجارهم سوف تموت ، لقد عاشت مئات السنين وسوف تصمد الى
الأبد • لا يا رجل • • لا تياس من رحمة الله • سوف تنتقل الى الغرب
ونراها من هناك ثم نلقحها وننتظر ثمارها كما كنا نفعل فى كل موسم •
وأراد الرجل أن يجادلهم لولا أن قاطعه الشيخ فضل : باشرى • نحن
فى حاجة الى مراكب شراعية تحملنا الى الغرب •

وحمى النقاش وهز باشرى رأسه وقال: بعد شهر أقود الى مراسيكم
مراكب كبيرة تشترونها • أما البيوت فى الغرب فانكم ستبنونها بأنفسكم •
كلا • • لن نتمكن • • نحن نريد أن نبنيها بسرعة • • اذن فسوف أتكفل
بذلك • • • لقد انتهى ألوف البنائين والحجارين من عملهم فى التعلية • •
وعادوا الى الكلح • • قريتهم • • اننى أعرف الكثيرين منهم • ناس
طيبون •

وتذكر حسن المصرى شيئا فتغضن وجهه وأربد ، وكز على أسنانه
سيبنون لكم بيوتا كالحة • الأفضل أن تأتوا بينائين من سوهاج •

ولم يبال به أحد الا باشرى الذى قال: لكننى لا أعرف السوهاجين •

وعند الأصيل من اليوم التالى أعد باشرى سفينته فجمع حبالها وفرد أجنحتها البيضاء وتوقف هو وولده على حافتها يطلون فى اشتياق على الشاطئ الأخضر ، الشاطئ الذى عادوا اليه عشرات المرات ، الشاطئ الذى لن يعودوا اليه بعد ذلك .

ثم أقبلت السفينة فأخذت أشجار النخيل تصعد نحو الجنوب فى ثقل شديد وأمسكت بالشرع غصون تقبله فى عناق حار ، وارتفع بحر ، ابن باشرى الى الصارى وأزاح الفروع وفك الشرع من اسارها فامتلا بالريح ، ومضت السفينة تجرى مع التيار حتى تجاوزت النتوء وألقت بنفسها بين أحضان المجرى الواسع ، والرجل ما يزال على حافتها ، يطل على الشاطئ الطينى الأسمر وعلى الرجال الذين وقفوا يلوحون ، بينما أطل « بحر » على النيل يدرس تعرجاته ودواماته . فقد قرر باشرى الحاقه بعمل ما فى رفاص أو يخت بأمل هفا قلبه اليه دائما أن يتمكن ابنه من قيادة باخرة من هذه البواخر التى تمخر النيل بين الشلال وحلقا .

وتريثوا حتى غابت السفينة السوداء وراء الأفق عند المنحنى فانعطفوا الى الطريق الزراعية يدبون عليها صامتين لا يتبادلون إلا همهمات قليلة غامضة .

وتبدى عند بداية الطريق شاب أسمر انحلت عمامته وتطايرت حول كتفيه ، تهتز كلما لكز حماره أو أوجع ظهره بكرباج قصير فى يده اليمنى ، فتلفتوا اليه ولحوا على وجهه أمارات حزن ثقيل ، وعلى ثيابه غبار سفر ، فتوقفوا يراقبونه حتى دنا منهم ، فتعرف عليه المأذون وصاح: أحمد .. ماذا وراءك يا أحمد محمود؟! أهو الطوفان يا أحمد؟

فلم يتوقف الفتى بل أسرع بركوبته يجتازهم ، الا أنه انعطف بوجهه اليهم وهتف فى صوت مختنق : انا لله انا واليه راجعون ... لقد انتهى الرجل . فصاح به الشيخ فضل : ماذا تقول يا ولدى ؟ من الذى انتهى ؟ فتلفت الى الحلف ، وهو ما زال يلكر ركوبته ، وقال فى حزن تلمع الدموع فى نبراته : بدر افندى . مات عند الظهر فى بيته ! ومضى لا يلوى على شيء بينما ترنحت قدما الشيخ صابر ، فجلس على الأرض يذرف الدمع بين كلمات حزينة دارت فى حلق الآخرين .

ومد الرجال أطراف أصابعهم الى العيون يكفكفون دموعا ساخنة
قالت فيها وأطرقوا بالرءوس خاشعين للقدر العاتى .. انا لله وانا اليه
راجعون .. لا حول .

وبدت القرية واجمة حزينة . وكأنها فى مأتم كبير وتحركت أقدام
وأسرجت ركائب مضت بالرجال عبر الجبل يجتازونه الى « النجيلية » فى
الدر ، الى بيت الرجل يلقون على جسده المسجى نظرة وفاء قبل أن يواروه
التراب .

وأقيمت المآتم فى كل نجع ، وأطلق برعى لحيته وهام فى
الطرقات شهرا كاملا .. ينطلق من النجع الى الجبانة يترحم
على كل الموتى . فهم أحباؤه بعد أن كره الأحياء ! ألم يخونوا
الرجل الذى افتداهم بحياته ؟ ألم ينقلبوا عليه ؟ .. تعسا لهم جميعا ..
لماذا يعيشون وقد مات الرجل ؟! الحياة ليست الا مقبرة .

غير أنه انقلب بعد وقت قصير ، فأزال لحيته وجال وصال فى
أماكن اللهو كأنما يفرق آلامه فى بحر عميق الأغوار، ولم يعد الناس يرونه
الا فى صحبة جمال والندمان من شبان مصر العائدين ، يفرقون همومهم
فى كئوس العرقى وأنواع أخرى من الخمر سألت فى قرانا لأول مرة
فى حياتها على جروف النيل . فقد رست على الشيطان مركب شراعية
مزدانة بالأعلام والبيارق تفوح منها رائحة غريبة تنبعث من دنان رصت
فى قاعها . وهرع اليها الفتيان من كل نجع وعادوا وبين طيات ثيابهم
زجاجات الزوتس والكونياك يتجرعونها على ضوء القمر ، قبيل اقامة
حلقات الذكر !

وانفلت برعى من نجع الى نجع، بل من قرية الى أخرى يزور صحاب

الزنزانة وفي رفقة المحامي وجمال • وعادوا يقصون النوادر والروايات
المضحكة عن النجوع التي زاروها والقرى حلوا ضيوفا على ندمائها •

ففي قرية الى الجنوب خبا نفر من الشبان زجاجاتهم في سلال من
الحوص الملون حملوها الى المقابر يفرغون الكئوس على مشهد من الاجداد
والاباء الراقدين ، ونيات الصبار المتجهم الحزين الذي نم يبال بضحكاتهم
العالية • ثم أخذ السكر بهم كل مأخذ فترنحوا هنالك وجلسوا يتبادئون
الزهو بالجنيهات الخضراء التي حصلوا عليها • سنصرفها في أيام تم نرحل
الى مصر ، لا ياشيخ • هل الدنيا الا الحمره • ماذا تقول ؟ والله انه ليتوضأ
بالحمر • • شخشيخ ركيه • • نعم رأيته سسكراة تترنج وتكاد تعري
نفسها أمام الحدم • أليست أميرة ؟ أمثالك هم الذين يدخلون النار • أما
هي ! • • أما هذا الرجل فولى من أولياء الله يشرب الحمر فتصل الى حلقه
محرقة ، ثم تتحول الى لبن لا اثم فيه • • اللهم لا تجعل خمرتي لبنا • •
مساكين هؤلاء الراقدون • • انهم لم يشربوا الا العرقى • • لا مؤاخذه
• • عن اذنك •

وقام الفتى يترنج وفي يده زجاجة كاملة ، انعطف بها الى قبر أبيه
حيث وقف خاشعا يتمتم : كم أنت ظامى يا أبتاه ! اننى أعترف بجميلك
• • لقد ورثت عنك كل هذا خذ • • اشرب يا أبى ! انك لاتعرف مذاق هذه
الحمر • • خذ • • انها لاتسكر • • كلا ليست زجاجة عرقى •

ومضى يهز يده بقطرات الحمر من الزجاجة التى أمالها فوق القبر ،
فوق الشاهد والصبار وقطع الحصباء : ولترتو عظامك حتى النخاع •

وضج برعى والمحامي بالضحك ثم تبجها ، يراقبان فتى آخر داكن
السوداء غليظ الشفتين مثقوب المنخر والأذن يتجه بخطى مترنحة الى أحد
القبور حتى توقف عليه فى غضب يتمتم : نخلتان وبيت واحد تهدم وقيراط
واحد ! لكم عذبتنى فى الحياة • • أنت لا تستحق غير الموت • وأهوى
بعنق الزجاجة على القبر يطعن أباه ، فى القلب والبطن حتى خيل له أن
الدماء تسيل من جسد أبيه •

ولقد سالت الدماء اذ تشرخ باطن يده وظاهره فتخضبتا بلون أحمر
ارتاح له الفتى ، فأطلق قهقهة عالية لم يفق منها الا وقطعة حجر صغيرة
صلدة ترتطم بصدره فتلفت حوله يسأل : من الذى يضربنى • ابن الكلب
• • أبى كان أحسن اب • أنا جدع • وهاج يريد البطش ببرعى • • وحار

الندمان فى الحجارة الصغيرة التى انهالت عليهم فى غبش المساء ، وظنوا
أن الأرواح تطاردهم ، فقاموا فى فزع يتعثرون فى طريق العودة • وهناك
عند منحنى السفوح لمحوا الجسد العارى ينقلت مسرعا الى البيوت ، وهو
يرمى بحجارته الصغيرة فى كل اتجاه • • واحد • • صمد • • أحد • •
طراخ !

وخيل لى فى تلك الايام أن برعى نسى شريفة وغرامه بها ولكنه انعطف
مرة الى سعدية التى راحت تميمس أمام عيوننا وغمز بعينية كأنما يقول :
مسكينة • • وقعت فى بسطاوى • انها غاضبة عند أمها منذ يومين !

وأطرق لحظة ثم قال : سوف أفاتح جمالا ، فاذا ما قبل تزوجت قبل
الطوفان • فهزرت رأسى تماما كما يهز الكبار رعوسهم وقلت فى وقار :
أسرع حتى لا تفلت منك • ففرك أذنى وهو يضحك وهمس : تفلت منى !
مستحيل أنا ورامها للنهاية • كنا على المصطبة الداخلية فى بيتهم حينذاك ،
وقد هبط المساء منذ لحظات يغشى الفناء بظلامه لولا نور خافت ترسله
مسرجة فى يد أمه التى مضت تتحرك بين المطبخ ومخدع الاب ، فنظر اليها
مليا واقترب وجلا وهمس : أمى • سأذهب لمقابلة جمال • ما رأيك ؟
فتفرست فيه وأشارت الى المخدع فى يد مرتعشة وكأنها تقول : الراى
رأيه يا برعى ، فارتد كاسف البال وانكفاً على المصطبة يفكر ثم هب واقفا
وارتدى جلبابه البوبلين وأمرنى : عد الى بيتك وإياك أن تقول شيئا عنى
هناك • سوف أذهب الى جمال • إياك !

وتأبط زجاجة كان يخفيها فى حاضل التبى وانفلت الى تحوشة
الجزار ، فقد تواعد جمال وندماؤه اللقاء هنالك بين أشجار النخيل •

وحياهم ثم انطرح على الأرض ومضى يقارعهم الكأس صامتا ، ويعب
الخمر دون أن يسعل كأنه مدمن قديم ، ويستمع الى نوادرهم عن مصر •
وعجب لهم حين قال أحدهم • مكثت طويلا هنا يازين • أأنت خالى
شغل ؟ كلا بل لقد سافر الكلاب الى سويسرا ؟ الكلاب ! أتراه كان
يخدم كلابا مثل لورد ؟ • ثم قهقه عاليا حين اتضح له أن ندمانه يلقبون
كل مخدمهم بالكلاب !! •

ثم أخذه الصنمت ومضى يفكر : سوف أفاتحه الآن • وكاد يهتف
بجمال ، الا أن شيئا ما أمسك بلسانه • ألا ترى يا مغفل أنه سكران

طينه ؟ • وراح يرمق جمالا باعجاب ويشرب وفي ذهنه دوامة الحيرة :
أيطلب يد أخته في الحال ؟ أم يؤجل ؟ ولكن ماذا سينعل اذا رفض ؟
ولماذا يرفض ؟ ألم يكن صديق صباه ؟ لكن شد ماتقير جمال • وتخيله
في أحضان زنوبة ثم تخيل نفسه في أحضان شريفة فتحلب ريقه
وانتشي ، ولعبت حميا الحمر في رأسه وأرسل أغنية جميلة استمع اليها
الرفاق في نشوة • حتى زين ابن البيضاء الذي لم يفهم كلمة واحدة من
اغنيته مضى يهمل له • عجباً لهذا الولد • ألا يعرف ما يدور بين أمه
وحسن المصرى • لكنها اشاعات •• مجرد اشاعات •

وعاد الى الكأس والتفكير : متى تنتهى يا جمال ؟ • ان فى قلبى سرا
أريد أن أنفضه عن صدرى فأستريح •• متى ؟ انك لاه عنى بنكاتك
ونوادرك عن الست الكبيرة العجوز التى ارتمت عليك تفوح رائحة الحمر
من بين شفتيها حين نام الناس فى القصر • والست الصغيرة التى وقفت
أمامك عارية •• أمامك فى الحمام دون حياء •

وحانت الفرصة حين مال جمال على زين يأمره : اجمع بعض
انكراديف يا زين واشعل النار • فالدنيا برد • فهب زين وبعض الندمان
واقترّب برعى يهمس : جمال ••• أريدك فى مسألة هامة •

— حاضر • فى الحال • اصبر •

وعب جمال كأسا ثم عاد اليه : هيه يا برعى ماذا تقول ؟ فجمع
شجاعته وكور الكلمات فى حلقه ليقتذف بها مرة واحدة ، الا أن شيئاً
غريباً حدث فى اللحظة التى حرك شفتيه فيها ، فقد انبعثت فى النجع
جلبة حبست الكلمات فى حلقه وأطارت نشوة جمال ورفاقه فهبوا من
مجلسهم يشبون على أقدامهم على سور التحويشة ويشربون بأعناقهم
متسائلين ؟

وانزعج برعى ، ولكنه قال هامساً : لا شيء يا جمال • انه كلب
يطارده العيال •

— كلا يا برعى • تأمل فى الساحة أمام المتجر • هناك رجل يصرخ
بكلمات عالية • تعال راقب الأمر بنفسك • اسمع ماذا يقول ؟

ودنا الصوت الداوى من التحويشة • واتضحّت نبرات الرجل •
نبرات محمومة تدوى فى النجع : ١٥ يوما •• انذار من الحكومة ، ١٥
يوماً !

واشرأب برعى بعنقه وأصاخ السمع واخترق غبش المساء بناظريه،
فراى الشيخ فضلا يعبر شريحة الأرض المزدحمة بالحلقا يزك على ساقه
الحشبية متمهل الخطى حتى تعثر بجداول مردوم وأفلت ساقه فانكفاً على
الأرض مرسلا آهة قصيرة أنشب بعدها أنامله فى التراب كأنما يبحث
عن شىء ضاع منه ، فقفز برعى من السور الى الطريق وأسرع اليه ومن
خلفه جمال ورفاقه ومضى يصرخ : ما بك يا خالى . أنت مريض ؟ ساقك ؟
هذه هى الساق . ولم يقل الرجل كلمة واحدة بل أشار فى اتجاه الساحة
الى الرجل الذى استدار به الناس وصرخاته الهستيرية : ١٥ يوما وبعدها
الطوفان .

ودلفوا الى الساحة فى اللحظة التى كان أحمد عوده يقول فيها :
عملها ابن الكلب . . احتفلوا فى أسوان بالسدة الشتوية الأولى ! وماذا
نفعل يا « وابور » ؟ وأجاب هذا فى صوت مختنق بح من صرخاته الداوية:
يجب أن نعزل بسرعة الى أى مكان حتى لا يفاجئنا الطوفان .

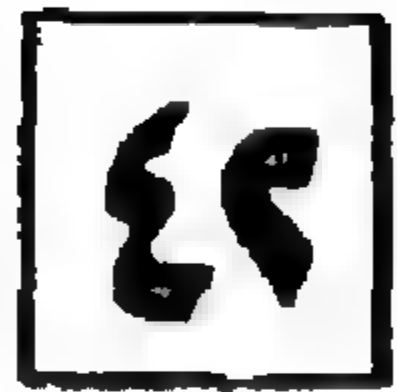
وران الصمت لحظة بدت فيها الوجوه مقطبة عابسة ارتسم عليها
ما كان يعتمل فى صدور الرجال والنساء من ألم وخوف : يا لله .
خمسة عشر يوما ثم نتفرق ! البعض الى الغرب وآخرون الى الصعيد أو
الى الجنوب ؟

كانوا واجمين . وكانوا كتلة من اللحم تسرى فيها شحنات الغضب
والحقد والعجز واليأس واختلاجات انبكاء .

وعبر باب المتجر بالقرب من الشونة تمايلت أشجار النخيل فى
أسى ترفو الى السماء فى حزن صامتة صمتا قطعتة نخلة سامقة : مدى
جذورك فى الأرض حتى لا تقتلعك الأمواج ، وأنت أيتها الصغيرة ارتفعى
الى السماء قليلا حتى لا تختنقى .

وفى المتجر كان الرجال يشربون بأقدامهم يطالعون فى أوراق
النتيجة المعلقة على الحائط يعدون على أصابعهم ما بقى لهم فى ديارهم
من أيام .

ولمعت الدموع فى العيون ، وأطرقت الرؤوس ثم انفلتوا يعبرون
الساحة ثم الطريق الى بيوتهم .



يمكنك أن تعتقد وأنت جالس على حافة السفينة الشراعية أن القرية خالية لا يتحرك فيها أحد ، فان غابات التخيل الكثيفة تحجب عن عينيك ما فيها من صخب واشجان تغور في الصدور وترتسم على الوجوه .

فمنذ أن تنادى الناس بالانذار ازدادت هذه الوجوه عبوسا ، ودب الشيب المبكر في بعض الرعوس . وراح الرجال والنساء يهرعون هنا وهناك . ويذرعون القرية من الشمال الى الجنوب كأنما يطوفون بها للمرة الاخيرة ، ويتلاقون عند مفترق الطرق ويتهامسون كأنما هم في مأتم : دنيا . سبحان مغير الأحوال . يفرجها الله . ويتطلعون الى السماء في ضراعة .

وأخذ المحامي وسيد وابور يعرضان طريقهم صائحين : علام هذا الجرى هنا وهناك ؟ استعدوا فالايام تجرى .

- وماذا نفعل ؟
- هدوا هذه البيوت . انقلوا أمتعتكم الى الغرب .
- لكن مهلة الانذار قصيرة .
- اشتغلوا وسوف نطلب مهلة .
- ممن نطلب المهلة يا وابور ؟
- من الحكومة .
- حكومة ! أية حكومة ! لن تسأل عن شكوانا .

وتوقفوا أمام دار العمدة حين شاهدوه مستنداً على كنية عالية



مفروشة يتسّم لابنه ولنائبه ويلقى اليهما بكلمات خافتة عن الانذار .
فترثوا حتى فرغ لهم فحيوه بقلوب صافية فقد أحبوه منذ رحيله الى
أسوان بأمر المستر هيس .

كان قد عاد قبل أن ترحل اللجنة بيوم واحد وعلى وجهه آثار
ما كابده في أسوان على يد الحكمدار والمدير الذين اتهماه بتحريض الناس
على مقاطعة التعويضات ، فتخلص من أسئلتهم بلباقة وبمزيد من التملق
والثناء . وأمره أن يعود ليكون أول انسان يصرف تعويضاته . . . حاضر
يا سعادة الباشا . . الأمر امرك !

ثم تعلل بمرض أصابه وبقي في المستشفى أياما حتى وافته الأخبار
تؤكد أن الناس قد بدءوا يصرفون فاتصل بالمدير والحكمدار وأوهمهما
أنه امثل لأوامرهما وأرسل للناس من فراشه ليصرفوا تعويضاتهم .

ثم عاد واللجنة تكاد تنهى أعمالها وكان آخر انسان تسلم أمواله
وما هو حائر مثلهم لا يدري ماذا يفعل .

وأفسح لهم مكانا على المصطبة يقلبون الأمر على وجوهه المختلفة
دون ترتيب في أول الأمر ، فان كل انسان كان يبدي رأيا ثم يعدل عنه .
كانوا يبدأون من نقطة وينتهون عند غيرها دون أن يصلوا الى قرار ما ،
حتى سئموا النقاش فأخلدوا للصمت لحظات استدار فيها الجزار الى
المحامي بعد أن أرسل رذاذا من فمه تنثر على وجه المحامي وقال :
سأبقى هنا أنا وصفارى . . هنا فوق الجبل . .

ولم يصدق أحد فان الجميع كانوا يعرفون أنه كذاب ويخفى أمر
رحيله المزمع الى مكان بعيد . فانه لم يعد يحب الناس كما أن الناس
لم يعودوا يحبونه فلماذا يبقى معهم ؟ ولماذا يرحل اذا ما رحلوا ؟ . .

وتفرس المحامي في وجه الجزار ومد أصبعها كأنما يريد أن يققأ
عينيه وصاح :

— الى متى تكذب يا رجل ؟ ابنتك أنبأتني البارحة أنك راحل الى
طنطا .

فتظاهر بالدهشة ثم أطلق ضحكة قال بعدها : والله أنك عبيط
يا محامي . . أتصدق فتاة مجنونة مثل ابنتي ؟ وتأمله برعى قليلا في
عجب ، ثم تفرس في وجه الآخرين وقال : وكيف يرحل الذين يريدون
الانتقال الى الصعيد ؟ فوجموا لهذا السؤال . صحيح أن غطاس بك قال

لهم مرة أن الحكومة ستساعدهم في الانتقال ، ولكن يوم الحكومة بسنة ، وقد يأتي الطوفان قبل أن تفكر فينا . فاستداروا الى العمدة يتوقعون اجابته .

قال : اطمئنوا .. لقد اتفق الحكمدار معى على ارسال صنادل تقلكم الى الصعيد .

قالوا : متى يا حضرة العمدة ؟

قال : أيام بسيطة ثم ترسو الصنادل على شواطئنا .

وقال وابور : عال بقيت المهلة . الا ترى يا حضرة العمدة أن نبعث ببرقية طويلة نطلب مهلة أخرى نرفقها بشكوى مفصلة .

واعتمد الرجل رأسه بين راحتيه ، مطرقا برأسه يفكر فيما قاله وابور ثم رفع رأسه ليقول :

اكتبوا البرقية والعرضحال فوراً . وسوف أطلب من المأمور بنفسى هذه المهلة غدا .

وهنا تدخل سفرجى باشا في الحديث بنحنحة عالية أدارت الرءوس نحوه ، فأنشأ يتكلم في أناة وصبر وكأن الطوفان لن يحل بهم الا بعد قرون . بسمل وصلى ثم انطلق يسرد ذكرياته عن القصر والكلمات النبوية التي تعلمها الملك على يده . وتكلم عن الباشوات وعاداتهم ، وماذا يشتهون وكيف يشربون : محمد محمود باشا صعيدى . قلبنى أحب تركية اسمها بلقيس ، والتحاس هليلى . أما زيور فيصلى وهو سكران . وصدقى مكار ولكنه انحنى أمام الملك وقبل أياديهِ يوم تولى الوزارة وانتهى الى أن المسألة كلها موكولة الى الله والوساطة وكتابة التماس الى مراحم دولة الرئيس والسدة الملكية .

ثم تمخط وسكت وراح يرمق الناس وكأنما قال الكلمة الفاصلة التي هم في حاجة اليها . ورغم أن ذكرياته جميلة ومغرية فان الناس لم يفهموا معنى لها ، لكن الجزار انبرى يقول : عفارم عليك يا افندى . قصر الدوبارة هو المكان المناسب لشكاوانا .

وابتسم العمدة ، فاطمان الجزار ، الا أن وابور اندفع يقول : الا قصر الدوبارة . أتريد يا حضرة العمدة أن يقول الناس في « الجرائيل » أننا لجأنا الى الانجليز .. لعنة الله عليهم . والتفت الى عبد الله وقال ضاحكا : يا عبد الله انك لا تنسى الشهرين اللذين خدمتهما في قصر

الدوبارة • فالانجليز انجاس • • • والله انجاس • بلا قصر الدوبارة • بلاها
يا أخى •

ثم انكب المحامى يكتب وأسرع برعى بما كتبوه بعد أن تأكد من
توقيعاتهم الى مكتب البريد فى ابريم • : فالمسألة مستعجلة يا ولد •
اياك أن تتأخر •

ويبدو أن نبيا ما قد طاف بالقرى يزين لها كتابة هذه الشكاوى
وبرقيات الاحتجاج • فانهالت على دور الحكومة فى أسوان والقاهرة •
ففى كل مكان ، فى القرى ومختلف البنادر والمدن تراحم النوبيون على
مكاتب البريد يرسلون الشكاوى والاحتجاجات عبر الاسلاك حتى بلغت
أربعين ألفا فى الأيام الخمسة الأولى تلقاها الموظفون دون اكتراث
واودعوها سلة المهملات •

وقد تجرا الناس فى الدر وفى بعض القرى فطالبوا بالافراج عن
حسين طه الذى أوصدت الأبواب فى وجهه فعاش مع المجرمين يقطع
الحجارة فى ليغان طره •

ويبدو أن الناس كانوا لا يؤمنون بجدوى هذه البيانات والشكاوى
فى منسيبتهم ، واثقين أن صدقى باشا لن يكثرث بها • ألم تنشر الصحف
صورته وهو يقص الشريط الحريرى فى أسوان ايدانا بالسدة الشتوية
الأولى •

لقد بدأت الجفون الحديدية الغليظة تنسدل جفنا بعد آخر على
عيون الخزأن الواسعة ذات الرموش الجرائيتية الصلدة • فراحت المياه
ترتد الى الخلف تفرق القرى الشمالية وتملا خور رحمة ثم تفيض على
الجانبيين ، وتسرع الى الجنوب تكتسحه شبرا بعد شبر • وها هو النيل
يرتفع مريد الوجه كالحا على الشطآن • ولن تجديهم برقيات الاحتجاج
فتيلا ، فالحكومة لن تبالى بها • فانفلتوا يقتلعون أشجار السنط ويكومون
أنعلف الجاف على الشاطئ • ويهدون سقوف البيوت وينتزعون
الأبواب ويتعاقدون مع أصحاب المراكب الشراعية ويتجولون على كثبان
الرمل فى الغرب حول « كران نوج » يتخيرون الأماكن التى سوف
يستقرون فيها •

وها هو حسن المصرى وبرعى وجمال يعملون منذ الصباح فوق

ساقيتنا يفكون تروسها ، بينما أنا جالس على الهودية المرتكزة فوق الأرض أرقبهم متطلعا الى النيل الذى عرفت منبعه وميماته السحرية رعيونها الثلاث فى مكان ما من أرض الجنة .

وغاصت بى ذكرياتى الى ماض بعيد فتخيلته وهو يتلع شريفة ، وتصورته هائجا مائجا يندفع دائما الى الشمال ويرتطم بالفلوكة التى ما تزال رابضة أمام عيني فى الموردة ، تواجه الجزيرة التى وقف « اشى الله » على شاطئها يساعد أباه فى اقتلاع شادوف من مكانه ، ثم يتسلق الجدار الى سقف يقتلع جذوعه ويلقى بها الى الأرض .

كل شىء فى قريتى يتهدم : السواقي والشواذيف والبيوت والحظائر : كل شىء يتلاشى .

واقفت على صوت جمال : حامد . اجمع هذه الحبال فسوف نحتاج اليها . فجمت اجمعها واكومها على الشاطيء وفى قلبى حزن ثقيل .

وحانت منى التفاتة الى الشرق فرايتهما تقيلان : زنوبة وشريفة . تحملان وعاءين نحاسيين يتوهج ضوء الشمس عليهما فيلقيان بريقا أصفر على وجه السمراء وسحرا غريبا على وجه البيضاء . ودنتا من الموردة . وتوقفتا تتهامسان : زنوبة . لا تقولى شيئا لجمال ، فان حسن المصرى غريب لا اهل له ولا هو من ولد العم ولا الخال . ولا هو من النجع . انه حلى وسوف يقتلنى جمال اذا ما عرف .. اياك يازنوبة .

— كلام فارغ . وهل كان جمال من جنسى ولونى .. انه القلب يا شريفة يميل فيتزواج الناس .

— لكن برعى يريدنى . أنظرى اليه ستدركين حبه .

— ولماذا لا يتقدم لجمال ؟

— تقدم لأمى فصدمته لعل البسطاوى يتزوجنى .

— ياه .. أوف .. ثقيل الدم . الحمد لله انه تزوج من سعدية .

— كان غريبا زواجهما الفجائى يازنوبة .

— ربنا أمر بالستر .

وتنبهتا لوجودى ، فأطبقتا الشفاه ، ومضتا تعبثان بقدميهما فى الماء ، بينما الرجال لاهون عنهما فى فك التروس والقواديس وتكويمهما على الجدول الكبير . لكننى دنوت منهما أتأمل وجه زنوبة الأبيض أتوسم

فيه وجه زوجة خالي عثمان في مصر . وقررت إن أسألها عن شيء ما
لأسمع صوتها الجميل . إلا أنني توقفت فجأة حين رأيتهما تتجهان
بصريهما إلى الشمال ترقبان خطوطا سوداء تتحرك على سطح الماء ،
وتنفث دخانا كثيفا يتعالى إلى السماء . ليتبدد في قبضة الريح .
وراحت الخطوط تكبر وتعلو وترج النيل بطنينها حتى بدت قافلة طويلة
من الصنادل تجرها بواخر سوداء صغيرة .

وتهشم قادوس في يد برعى وهو يصرخ : الصنادل يا جمال .
لقد جاءت الصنادل . ثم انطلق ينادى عبر الحقول . صابر .. يا شيخ
صابر . جاءت الصنادل يا صابر . ومن خلفه جمال وحسن المصري
يعدوان إلى التواء الشرقى ، فاليه كانت تتجه باخرة صغيرة انفصلت
عن القافلة بصندلها الطويل الأسود لترسو عنده . بينما القافلة تواصل
طريقها إلى الجنوب .

وصرت الأبواب في الجزيرة وتطلعت عيون النساء والرجال فوق
شاطئها إلى القافلة ، وانقبضت صدورهم فسوف تحمل هذه الصنادل
أعزاء تشتتهم في أماكن نائية .

واستلقى بحارة الباخرة على الرمل يحدقون في اتجاه زنوبة
وشريفة اللتين توارتا خلف جذع ، تتلصصان عليهم وعلى الباخرة
والصندل الطويل . بينما انهمك برعى يسأل عن الباخرة وكيف تتحرك
قلاباتها ، فتركوه حائرا دون جواب ، بيد أنه تأكد أن الصندل سيقبل
المهاجرين إلى الطود غدا أو بعد غد .

وعدنا أنا وبرعى في المساء نتحدث عن الباخرة والصنادل حتى
انعطفنا إلى الطريق العام . ومن هنالك لاحظنا ، في دهشة وعجب ،
شيئا غريبا يرفرف فوق متجر أبي : شريطا أبيض طويلا بين ساريتين
عليه كلمات عريضة باللون الأحمر .

وأدرك برعى سبب وجومي ، فأراد أن يبدد الصمت بكلمة فقال:
جاء رجال الصحة وأغلقوا المتجر . وهزئت رأسي في كبرياء وأنا أقول :
كلا . ألا ترى الباب مفتوحا ؟ .. وها هي بطة وزوجها يخرجان منه
ويعبران الساحة إلى دهليزنا . فأمعن النظر فيهما وفي الشريط ثم
همس : تعال نقرأ .. آه .. المحل .. ثم تمايل الشريط مع النسيم
فاختلطت الكلمات والحروف .

ودنونا من الساحة ودخلناها . وتوقفنا عند الباب نرتفع بعيوننا الى الشريط الأبيض ونقرأ الكلمات : المحل منقول الى البر الغربى . ٢٥٠ مترا قبلى كران نوج .

وأصابنى الوجوم رغم أن هذه الكلمات تكررت أمامى منذ يومين حين أمسك الشيخ شليب بكراستى يكتب : بعد أيام ينتقل الكتاب الى كران نوج .

وغابت الشمس وانسدل الظلام كثيفا على النجع وعلى الشريط الأبيض ، والعمدة ورجاله ما يزالون يدورون فى التجوع يأمرؤن الذين اعتزموا الرحيل بالتأهب .

وتجمع الناس من جديد فى الساحة يتساءلون عن المصير ويتناقشون فى أسعار النقل بالمراكب وظلم أصحاب هذه المراكب . وتوقفوا عن الحديث حين أطل عليهم مأذون القرية الشيخ صابر ، فأفسحوا له مكانا وتركوه يرتشف فنجان الشاي دون سؤال .. ثم مال عليه أبى يسأل : ومتى ترحلون يا صابر ؟ غدا باذن الله .. عند المساء يا أمين .

— حسنين سيسافر غدا . وسوف ترحل معه بطة .

— أيرحلان فى الصندل معنا ؟ .

— كلا — بل على الباخرة النيلية الى الشلال ومنها الى مصر .

وأحسست بانتقباض فى صدرى . بطة سترحل وأبقى أنا وحدى مع الأم وأمراضها . يا الله كم هى قاسية هذه الحياة . وطفرت الدموع من عيني فسالته حتى شعرت بمرارتها فى حلقى . وزاد من مرارتها تلك الكلمات الحزينة التى أخذ الرجال يتبادلونها : غدا .. يا صابر .. لماذا لا تؤجل الرحيل ؟ مصيبة .

— مشيئة الله . هكذا أراد ولا راد لارادته . كم أود أن أبقى معكم الى آخر يوم . لكن الصنادل ..

— وهل يسافر أبوك أم ما يزال مصرا على البقاء هنا ؟ .

— ما يزال ياعم أمين .

— والحاجة ؟

— ستبقى معه . انها تخاف من القاطرات والعربات والبواخر فلکم عانت منها أيام الحج .

— لعلها تريد أن تتركب « زبلن »

واستضحك الناس فلم يرسلوا الا ضحكات فاترة .

وقبل أن تبرز الشمس كان الرجال والنساء يتجهون الى بيت المأذون يقتلعون الأبواب ، ويحزمون الأمتعة ، وينقلون بعضها الى بيت أبيه .

وقبل الظهر كانت جدران بيته مثل جدران كران نوج ، معتمة رغم السقف الذى رفع ، فتأملته لحظة ، استندت بعدها الى جدار ارسل نسيجا خافتا اختلط بكاء سبيلة زوجة المأذون .

بدأت الشمس تميل وتتوارى خلف شواشى النخيل ، تملأ القرية بلون الذهب متوهجة على قضبان معدنية مفروسة فى الأرض ترسم الكنتورات المائية التى يبلغها الطوفان .

٤٣

وأخذ شىء ما يغيب فى عيون الرجال والنساء كلما تعرت بيوت جيرانهم من كل شىء متحولة الى كائنات ممسوخة ترسل الرعب فى العيون ، فان الشمس الغاربة تقرب معها ساعات الوداع فى المساء ، فمضوا يحبسون الدمع ، ويرسلون آهة بعد أخرى ، ويطوحون بعصيتهم فى الفضاء بينما شفاههم تتمتم .. لا اله الا الله . سبحانه الباقي وحده .. هيلاهوب . أسرع يا برعى . وأنت يا الله خذ هذا « اللحاف » ضعه فى تلك السحارة . حسن يا مصرى شد حيلك يا سبع ..

هكذا مضى الشيخ جعفر يصيح بنا ، ونحن نساعد الشيخ

صابر وزوجته سبيلة في حزم أمتعتهما ونقلها الى التتوء الشرقى حيث
رسا الصندل الطويل .

وانتهى كل شيء . فبدا بيت المأذون مهجوراً خاليا الا من التراب
وجحور تسرح العقارب والخنافس منها في كل اتجاه . ثبتت عليه عيون
الناس الدامعة في حسرة وأسى صامتين صمتا قطعه صوت المأذون :
تعالى . فقد آن لنا أن نسير . فجاءت مختنقة الخطا متثاقلة ، مطرقة
الراس وقد أحنّت قامتها النحيلّة ثم استدارت فجأة ورمشت بعينيها
اللّتين احمرتا بلون الدم ، وتلمست الجدار بيد بينما اليد الأخرى
تحيط بصغيرها المتشبث بصدرها في نهم ، ثم انحنّت على العتبة تقبل
مواقع الأقدام وتنشج في صوت مسموع : ليتنا بقينا .. لن ارحل
يا صابر ، ثم راحت تبكى أمها وأباها اللذين ماتا منذ أعوام : التعساء
يا أماه لا يلفون شبيكة . التعساء يا أبتى لا يفرحون . والغلاية ما من
أحد يرحمهم . من لنا غيرك يارب .. هىء .. هىء .. وونور ..
يارب ..

وأخذ الطفل يصرخ فلم تبال به . بينما زوجها يرمقها بعينين
جامدتين ووجه عابس لا يقوى على احتمال بكائها ولا على الاقتراب
منها .. انه لا يسمع حتى صرخات أحمد عوده : انتشلها من الأرض
يا صابر .. لا تركها تقتل نفسها من البكاء . فلم تبدر منه حركة
تشير الى انه سمع بل مال الى جذع نخلة استند عليه متهاكاً يبكى
هو الآخر .

ومن بين الجموع تقدمت فضيلة تأمر سبيلة في حزم : هاتى
الولد يا سبيلة ولا ترضعيه لبن الحزن . فتطلعت اليها في دهشه ،
وتركتها تنتزع الصغير من بين يديها ، فاستدارت به الى برعى ثم عادت
تحتضن سبيلة في قوة تنهضها وتسير بها في خطا متمهلة تهذى هذيان
الحمى : أين بيتى ؟ .. حتى مصاغى سرقه صابر .. والسحارة ..
سحارة أمى « هىء . هىء »

والرجال ، يرمقونها في وجوم وصمت ، ولا يفعلون شيئاً فقد
انشغلوا عنها بدموعهم يخنقونها بين الجفون . متأثرين بهذا الفراق
الوشيك ، وتوقع وداع اليم للشيخ صابر ، الرجل الذى احبوه ،
الرجل الذى عقد زيجات أبنائهم وبناتهم والذى عانى مرارة الحبس في
المركز من أجلهم .

وها هم يقتلعون أقدامهم ويسرون في خطا متثاقلة حول الزوجين ،
يسقطون الى الطريق الزراعية ويتوقفون حين يتوقفان لتأمل كل شيء
من جديد ، شرائح الأرض وساقية البئر والحلفا .. وأشجار النخيل .

ومن النجوع الأخرى سارت على نفس الطريق مواكب أخرى
تمضي متأنية . تتوقف بين الفينة والأخرى كأنما هي جنازات تحمل
نعشا ثقيلًا الى الجبانة العمومية .

وفي السكون الذي لف النجع .. السكون الذي لا تقطعه الا
نهيات سبيلة وصراخ وليدها انبعث صوت شائخ يركض على طول
الطريق : صابر . ولدى . خذنى معك يا صابر ..

وهمهم أبى : مسكينة .. العجوز تجرى لاهثة . توقف يا صابر .
فاستدار وتوقف ، حتى اقتربت العجوز وارتمت في أحضانه
تمرغ رأسها ب صدره ، ثم لحق بهما الأب ليمسك هو الآخر بكتف
المأذون ليرمقه بعينين دامعتين تسحان على لحيته البيضاء .

— مع السلامة يا ولدى .. مع السلامة .

— مع السلامة . سامحنى يا أبى . ودعتك فى البيت حتى لا أحملك
الأم الفراق .

وها أنت .. ما علينا . لماذا لا تأتيان معى ؟ ..

وانبرت العجوز تصرخ : سوف آتى معك وأترك العجوز وحده ..
سأتركه تركه .. ولم يصدق صابر كلمات العجوز فلسوف تتراجع . أنها لا
تستطيع مغادرة النجع .. انها تريد البقاء .. هنالك فى الغرب . لتطل
منه على النخيل والوطن القديم . أما أن ترحل فأمر صعب . انه
يتركهما وسوف يعود لاقناعهما .. ليته لم يشتر تلك الأرض فى الطود
.. ليته بقى . ولكن ..

واستأنف الموكب سيره حتى توقف على النتوء يواجه الباخرة
الصغيرة والصندل بين مواكب أخرى سبقته الى النتوء .

وولت سبيلة ظهرها للباخرة ، واستدارت تواجه قرينتها . مضت
تتفرس فى كل نخلة وفى الشمس الغاربة التى تذهب خوصها ، وظلال
الأصيل الطويلة . ولا يدرى المرء كم من الصور والذكريات انسالت على
مخيلتها فى تلك اللحظة .. لعلها تصورت نفسها طفلة صغيرة تلعب بين

هذه الجدوع منذ عشرين عاما ، ولعلها تصورته - زوجها - يلعب معها لعبة العروس في ظهيرة يوم تحت غصون هذه الشجرة : لكم مضى يقبلها حينذاك والفتيان يستحثونه . ولعلها تصورت القانوس في ساعات السحر .

وهنا بالقرب من هذا النتوء توقفا هي وصابر في صباحيتهما الأولى . ومن هذا الطريق عادا إلى بيتهما الجديد والشمس تدأب عيونهما بأشعاعاتها الدافئة . انها حياة كاملة تلك التي تتسرب في هذه اللحظة أمام عينيها . فهاهي تمضي على هذا الصندل إلى غير رجعة . تمضي إلى بلاد نائية لا تعرف شيئا عنها . لك الله يا صابر . لماذا تكبدنا كل هذا الشقاء ؟ أنت أدري بالذي قالته البيضاء . أنت أدري بقصص حسن المصري عن الصعيد . هناك لا يخرج من بيت إلا محمولات في نعوش . هناك يقتلون الناس في الظهر الأحمر . هناك الرصاص . وهؤلاء الأجزاء جميعا أحياء . حتى هذه التي تقبل نحوي في أحجام - لخصومة بيني وبينها لأنها لم تعز في أمي - حتى هذه يصعب على القلب فراقها .

وتذكرت أمها . فأرسلت نسيجا متصلا . . ليتني زرت قبرها أنيوم قبل الرحيل . ليتني فعلت ذلك قبل أن تلتهم الأسماك جسدها الطاهر . ولكن الأوان قد فات . ولا مناص من الرحيل . سامحيني يا أماد .

وألقت نظرة على الناس . على أمين كلثومة ، وأمينه بايا ، والشيخ فضل وفضيلة وبرعى وأبيه وأمه . . فاختنق صدرها وانقبض . الجميع كانوا واجمين . . وعيونهم دامعة . فان كل واحدة مضت تتصور نفسها وهي تفارق الأحباب . تنتزع من بين أحضانهم وترحل .

ومضت الشمس تغوص خلف كران نوج بينما طار سرب من الغربان ارتفع في حدقات العيون وأعولت الريح تصفر بين أجسام النخيل ، وتماوجت صفحة النيل وطفقت « الشمندورة » الحمراء تلمع وتتراقص عند الدوامة الهادرة . وتعالى صيحات الأطفال وصراخ النساء . وانطلق من الباخرة صفير مثل عواء الذئب . فأقعى لورد وأرسل نباحه الممطوط . وتعالى صوت الريان ، فوق ذلك كله ، في حزم : تعالوا فقد حل المساء - لابد من الرحيل . فاخترق نداؤه شفاف القلوب ، فأقبل كل واحد وواحدة يعانق صاحبه . وعلى مقربة

من الرجال صفار يبكون في عناد . صفار تعودوا أن يلعبوا في الساحات
معا حتى يغيب القمر ولن يلتقوا من جديد . فعرفوا الأسى والحزن
الثقيل في تلك اللحظة . فمذ غد في المساء حين يتجمع الصفار في
الساحات سيفتقدون لدائهم الذين رحلوا . وهذه فردوس وسعيدة
وأمنية يهاجرن فكيف لهم أن يعاودوا لعبة العروس بدونهن ؟ .

ولمحت طفلا صغيرا يتجه في أحجام الى طفل آخر من المهاجرين
بينهما خصام بداه في الكتاب ، وظننت انه سينتقم منه . الا أنه ارتدى
على صدره باكيا يقول : سامحنى يا فوزى . ما عليك يا صادق . . .
لكنك شتمت أمى . . وأنت شتمت أبى . . خالصين وافترقا والدموع
تتألق في العيون .

وارتمت بطة جميلة في أحضان المهاجرات وذرفن الدمع ثم عادتا
مسرعتين ، فبطة راحلة هي الأخرى في منتصف الليل مع زوجها الى
مصر ، ولسوف تقلع بهما الفلوكة الى المحطة النيلية . ومضيت أراقبهما
وفي قلبى أسى ، فأننى أعيش في ألم يشتد ساعة بعد ساعة منذ تقرر
رحيلها .

وانتزع حسنين نفسه وعاد ، بينما اقبلت سعدية تجر جر جلبابها
الطويل واتجهت الى حيث وقفت صديقتها خديجة مولية الباخرة
والصندل ظهرها واجمة تذرف الدمع وداعا للنجع وأهله وتعاقتا .
ثم خلعت سعدية عقدا خريزيا ، وأحاطت به عنق خديجة فارتسمت
بسمة مشرقة على ثغر هذه ثم مدت يدها الى بطن سعدية وقالت .
ولد انشاء الله . فتبسمت وهمست : ولد أو بنت . . كله من عند
الله . فلم تضع خديجة فرصتها المتاحة فقالت : أو من البسطاوى . . .
أما زالت غاضبة ؟ كلا فقد عدت اليه من أجل الجنين . . . برافو . . ومن
أجل . . . فأطلقت سعدية ضحكة عالية كانت هي الضحكة الوحيدة
التي أطلقت على الشاطئ منذ ساعات . . ويبدو أن يوما قد أفزعته
الضحكة الصافية فأرسل نعيقا مروعا انداح في السوادى يغطى على
صوت الشمندورة الحمراء المرتطمة دائما بسلسلتها .

وتعالى صوت الربان من جديد . . هيا . . لقد آن وقت الرحيل .
واستدارت الباخرة الصغيرة محركة قلاباتها فى دوى ، مرسله رذاذا من
الماء تعالى الى الشاطئ ، وشمخت بأنفها ثم أرسلت دخانا كثيفا مضت
معه تقطر الصندل الطويل الغاطس فى النيل ، فطبع الشيخ صابر قبلة
الوداع على جنبين أبيه وعلى رأس أمه . ثم التفت الى زوجته فى حزم :

تعالى ياسبيلة • وجذبها من كمها الواسع فتشبهت بالارض وارتمت
تنتحب وتقبل الوحل والطمى • ثم دفعتها أمانة بايا دفعا حتى وقفت مع
زوجها على حافة الباخرة تشيع الوادي بنظرات حائرة •

وقبل أن ترفع السقالة اندفع الجزار وراء رجل كان يبتعد متكئا على
ساقه الخشبية ، أمسك به من الخلف وقال متهدج الصوت : سامحنى
يا فضل • لعنة الله على الأرض • فرق فضل ولان وترك الرجل يحيطه
بذراعية ويبلل صدره بالدموع وهمس : القلب للقلب رسول يا عبد الله •
امض فى سلامة الله •

وأطلقت الباخرة من جديد صفيها طويلا مطوطا • ومضت تشق
النيل بقلاباتها وتترك خطا أبيض من ورائها حتى فارقت الشاطئ وأوغلت
فى المجرى العريض • ووقف المهاجرون على حافتها يلوحون وفى أصواتهم
دموع بينما وقفنا نحن على الشاطئ نلوح ونلوح حتى غابت الباخرة خلف
المنحنى الشمالى فعدنا أدراجنا وفى قلوبنا حزن ثقيل مثل الرصاص •
وفى عيوننا بريق غريب يلمع بالغضب • وبجانبي كان يخطو برعى وقد
أمسك بيدي لا يريد تركها حتى بلغنا الطريق الذى يحاذى بيوتنا •

وهناك فوجئنا بمشهد غريب • فان أعمدة البرق والتليفون كانت
قد هجرت الطريق • فلم يعد هناك عمود واحد • ولم تعد القاهرة تصوصو
لقريتنا • وتلفتنا لنجد الأعمدة منطرحه على الارض • متراخية الاسلاك •
فقد جاء عمال الحكومة منذ ساعة يقتلعون الأعمدة بسرعة يرتفعون بها الى
قمم الجبل الشاهق ويشدون بينها الاسلاك •

ولمحت حسنين يدلف من باب الدهليز فانطلقت خلفه لأجد أمى فى
ركنها ترسل نظراتها الحائية الطويلة الى بطة ثم ترتد بطرفها الى الارض
وتعبت بأناملها فى التراب • بينما الأختان توشوشان فى الركن الآخر
فانضممت اليهما واختلطت دموعنا ونهنااتنا تخلق جوا حزينا فى الدهليز •

ونهضت بطة واتخذت سمة الام ، ترمقنا من خلال الدموع وتأمّر
شقيقتها الكبرى : لا تتركى حامد وحده يا جميلة • حاضر يا بطة • • وأمى
اياك أن تغيبى عنها طويلا • فسوف يقتلها الحزن • • وأنت يا حامد • •

وانبرى صوت الاخرى يقول : اهتدى أنت بنفسك يا بطة ، فأنت
راحلة الى أرض الغرب • اياك أن تنسينا • اياك والعناد • زوجك هو الأب
والشقيق • أنت تعرفين أبى وزوجته • لا تعودى اليهما • حسنين رجل
مثل السكر • • اياك أن تفرطى فيه • • حامد ما يزال صغيرا ، وأبوك عجوز
وقد يفارقنا ، بل لقد تمكنت منه حجوبة منذ الآن ، ولا معين لنا الا الله •

ومن بعده زوجك وزوجى • حتى يصبح جامد رجلا • •
 وقلت هنا فى صوت متهدج : بطة • لا تخافى فانتى رجل •
 فتضاحكتا وأحاطتاني بذراعيهما وبللتا وجهى بالدموع •
 وجاءت ساعة الوداع حين تقدم الليل ووقفت الأم وجها لوجه • • • أمام
 بطة ابنتها الصغرى ، ترمقها فى دهشة وعجب لترتمى بعد لحظة على صدرها
 تبكي بكاء هز كل جسدها • وصممت لأول مرة أن تصحبنا الى الفلوكه
 والمحطة النيلية •
 وعلى المحطة وحين أهلت الباخرة ذات الثريات الكهربائية والعائدة من
 حلفا ركب شقيقتى الصغرى جنون • فانطلقت تبكى وتصفع كل من يحاول
 الاقتراب منها معتزلة العودة الى النجع فرارا من الباخرة ومن الرحيل • •
 ووقف زوجها حائرا لا يدري ماذا يفعل • ثم تدخلت أمينة بايا وأحمد
 عودة وأعادا العروس الجامحة الى صوابها • فانعطفت علينا تقبلنا لترتمى
 على صدر أمها لحظة سارت بعدها مطرقة الرأس الى السقالة الى أن وقفت
 على حافة الباخرة تراقبنا بعينين غائمتين •
 وغابت الثريات الكهربائية عن أنظارنا فأظلم الكون حتى بدا كل شيء
 قاتما حزينا • • كل شيء فى طريق عودتنا كان واجما • حتى الدهليز كان
 حزينا كثيبا معتما لولا المسرحة الصغيرة التى مضت تلقى ظلالها على
 السحارة الخشبية التى احتفظت فيها أمى بكل ذكرياتها الصغيرة •

لم يبق الا يومان • والناس يتحركون فى هلع ما بين السفوح
 والشاطئ وعلى ظهورهم أحمال ثقيلة يلهثون تحتها، يسرعون
 الحطى كأنهم فى سباق مع الثوانى والدقائق • والنيل يرتفع
 فى كل لحظة يكاد يبلغ قمة الشاطئ • وعلى صفحته عشرات المراكب
 تجرى بين الشرق والغرب غاطسة فى النيل الى غور بعيد ، تصفق
 بأجنحتها البيضاء وتجتاز التواء بأحمالها وتستدير عند الطرف الشمالى

٤٤

للجزيرة تاركة الشمندورة الحمراء وراءها لترسو على الضفة الغربية في
محاذاة كران نوح . وتفرغ شحنتها ثم تعود الى البر الشرقي حيث تجمع
الناس على أكوام من الأمتعة المختلفة : أبواب غليظة وسحارات خشبية
ثقيلة وجذوع نخل وحصر متعددة الأشكال ، وصوامع وأبراش وأطباق
خوصية ملونة وغلل وغرارات بلح .

وعلى الشاطئ الشرقي كان يحتدم الفصال بين الناس والمراكبية
الذين انتهزوا ضيق الوقت فراحوا يغالون في أجورهم موقنين أن الناس
سيرضخون لمشيئتهم . فما هي الا ساعات ويبتلعهم الطوفان .

وتريث عم نوح حتى رسا بمركبه فترك متدوهة عند العفش
- وخطا نحو المركب وقال : مرسال يا ولدى .. اتفقنا على اليوم . سوف
أدفع لك أجرك .

فعبث مرسال بالشاغول وألقى بالمدراة على الشاطئ وصلصل
بالهلب وغرسه في الأرض ثم قال في صوت أخنف : قلت لك على الأجر .
وأنت لا تريد أن تدفع . يحسن بك أن تتفق مع عوض كتية يا نوح .
فاننى مشغول كما ترى بعينيك .

وأطرق العجوز لحظة ثم انبعث صوته يقول : أنت تعرف يامرسال
أننى لا أملك عفشاً كثيراً : ثلاثة أبواب وسحارة صغيرة . علبة لا تسع
شيئاً وعنجريبين . وبعض الأبراش والأطباق ... أما مشيتى فقليلة ..
معزتان وخروفان صغيران ضاعران وأزواج من الحمام والدجاج .

وأضاف بعد تردد : وبقرة وحمار أصغر منها .

- قلت لك يا نوح .. للعفش وللماشية نقلة أخرى .

- تساهل معى يا مرسال . أنا رجل فقير .

- الله الغنى يا نوح .. أنا أفقر منك . كان جدى عبدا وأبى لم
أرث عنه شيئاً .

ومضى يفكر : العجوز يظن أننى استغفله .. ألا يعلم أن الشيخ
صادق صاحب المركب يحاسبنى حساب الملكين والموسم موسم شغل وقد
لا أجد عملاً بعد الموسم . لم يبق يا نوح الا أن تنقدنى كيلتين من البلح !
ثم ارتفع بصوته : قلت لك سبعة جنيهاً ولن تنقص مليماً . ثم تدخل
أبى زقيل مرسال أن يتقاضى خمسة جنيهاً . واستدار يساعد الشيخ

جعفر فى شحن أمتعته • ثم تريت لحظة شرب فيها فنجان شاي فى استهانة
شديدة فى رمضان ونقر على الدف وأدار الدف إلى الغرب وأوغلت المركب
فى النيل حتى تجاوزت التواء ثم استدارت عند الطرف الشمالى
للجزيرة •

وارتد أبى بطرفه إلى الشرق وتأهب لاستقبال حسن المصرى وأحمالا
ثقيلة جاء بها من بيت حجوبة • ثم انهمكا فى ترتيب العفش وربط النعاج
والمعيز حتى لا تفلت منهما فى الحقول المقفرة •

وعلى الجرف عند الساقية المتهمة كانت عائلة جمال تكوم أمتعته • •
بينما انكفأت زنوبة على الجدول الكبير تنرف الدمع وفى صدرها دوامة من
الذكريات والحيرة أفاقت منها فجأة على صرخات داريا تسبها • لقد عاشتا
منذ أيام الصرف فى تقار متصل حار له جمال متناسيا أنه السبب فى
نقارهما • ألم يرضخ لنزوات زنوبة فاختلس لها من أمه جنيهاً عشرة
أرضاء لزوجته وتعويضاً عن المصاغ الذى باعته فى مصر •

ولم تبال زنوبة بصرخات حمايتها • فاندفعت إليها هذه تدفعها فى
صدرها وعيناها تتقدان بالغضب • • انهضى إلى العمل • قومي يا بنت
يا زنوبة • • فاستشاط غضبها عند هذه الكلمات • لكنها أشاحت
بوجهها تطيل حبال الصبر • وأصمت إذنيها تفكر : بنت يا زنوبة ! متى
سمعت يا زنوبة هذه الكلمات ؟ بنت يا زنوبة ! تكررت هذه الكلمات على
مسمعيها صباحاً ومساءً هنالك فى قصر الباشا فى مصر الجديدة - كانت
الست الكبيرة تنادى من مخدعها يا بنت يا زنوبة فتسرع إليها خفيفة الخطى
بالكريم والبودرة • وهذه هى داريا التى تفوح منها رائحة الجلة والعرق
تردد نفس الكلمات • يا بنت يا زنوبة ! •

وكان صبر داريا قد نفذ ، فأهوت على خدها بلطمة أطارط صوابها •
فهبت مثل هرة برية متوحشة وأنشبت أظافرها فى عنق داريا ثم طرحتها
أرضاً غير مبالية بصرخات شريفة •

ودب الجنون فى رأس جمال ، وأمسك بكرباج غليظ أهوى به على
زنوبة فى ضربات أسالت الدم من ساعديها • فانطرحت على الأرض
تنشج : طلقنى يا جمال • طلقنى • فأنحنى عليها يأمر : انهضى يا مجنونة •
اغسلى يديك من الدم • انهضى •

ثم مال عبده الفرنساوى عليها وارتاحت لمرآه فاستقامت على عجزها

تشرب كلمات الرجل العجوز الذى مضى يطيب خاطرها بكلمات حلوة
اعتاد أن يلقيها فى آذان النساء .

وعاد جمال يقول : انهضى يا ست . دعينا نرحل . فهزت رأسها
بشدة وهى تقول : كلا لست راحلة . . . سأبقى مع عم عبده حتى أرحل
من هنا : طلقنى يا جمال . طلقنى . فابتأس وقطب جبينه وأحس بالغضب
على أمه يأكل قلبه . لكنه زم شفتيه وانصاع لعبده الفرنساوى الذى
غمز له بعينه . . . اتركها الى غد فسوف يستقل هو نفس المركب مع
الشيخ أمين .

وعند الضحى فى اليوم التالى وفوق نفس انشاطىء تهيأ أبى لصلاة
الفجر التى نام عنها فاتجه الى القبلة وروح يديه الى اذنيه ليحبر لكنه رأى
فى هذه اللحظة اش الله يندفع صارخا : عم امين . أمين يا كلثومة . .
فعدل عن صلاته . ومضى يرمى الغلام الذى توقف أمامه لاهثا يشده من
كم جلبابه . يريدونك هناك . عمتى فاطمة تصرخ وتضرب حسن المصرى
بالمغرفة . واستمع أبى الى هذه الكلمات فى دهشة . ثم غمغم : المجنونة .
بينما اندفعت أنا فى الطريق ، وانطلق هو من خلفى غارقا فى آلامه
وأفكاره . فلقد أبت أمى ، فى عناد ، أن يرفع سقف البيت وكررت للمرة
العاشرة أن الطوفان لن يبلغ بيتها . ألم يزرها شبيكة فى المنام يفضى
اليها بالنبا السعيد ؟ . فحاول هو مرة بعد أخرى أن يثنىها فلم يفلح .
فترك البيت الكبير معتزما خلع أبوابه ورفع سقوفه واقناعها هى بالرحيل
فى آخر لحظة قبل انطوفان بيوم واحد - اليوم - وهو الذى أوعز منذ
الصباح الى حسن المصرى أن يحتال عليها ويبعدها عن البيت بحجة ما
ليرفع السقوف والأبواب فى غيبتها . ويبدو أن حسن وبرعى قد اصطدما
بها فثارت ووقفت على عتبة البيت تنود عنه بمغرفتها .

كانت حاسرة الرأس مهوشة الشعر . تسد الباب بجسدها وتطوح
بالمغرفة وتنودهما عن البيت وتأمرهما فى كلمات غاضبة أن يبتعدا وتلعن
أباهما . بينما خالتى أمينة بايا وسيدة من الاعراب النازلين فى الجبل
الذى لن يبلغه الطوفان تحاولان تهدئة روعها .

وتجاهل أبى توسلات أمينة والأعرابية فاندفع يصرخ فى نبرات
غاضبة نافذة الصبر : ماذا تريدن يا مجنونة يا بنت ال . . فقلت باكيا:
كلا يا أبى . . دعها وشأنها . انها مريضة . قال : مريضة . انها مجنونة . .

أجرس أنت . فأحسست بوخز في قلبي من وقع هذه الكلمات ووددت لو
لف أبى عنها لكنه مضى يهدر بها وهو يتقدم نحوها في حذر بينما هي
تهيأت تطوح بسنوحها وتسدد ضربات عشواء إليه أخذ يتحاشاها . واقترب
منها وأنا ما أزال أصرخ : دعها وشأتها يا أبى . دعها نى . سوف . . . انها
مریضة . ولا أدري ان كانت كلماتي قد أثرت في أبى أم أنه حشى مغبة
ما كان مقدما عليه . فقد لان واستكان وتوقف يقول في صوت رقيق :
فاطمة . ألا تعرفين أن البيت سيفوض في الطوفان ؟ . سيتهدم يا فاطمة .
فلم تجب بل شددت قبضتها على المغرفة وراحت تراقب في صمت شبح
امرأة تبدى هنالك عند بداية نجع المجراب وعلى كتفها طفل صغير . فقد
كانت تتوقع زيارة من ابنتها جميلة .

وتريث أبى قليلا ثم استرسل في حديثه : هنالك في الغرب . . .
سأبنى لك بيتا جديدا لك ولحامد ، فتبسمت وكأنها تقول : خداع .
سوف تبنيه لحجوبة . فهي الزوجة الصغيرة . أما أنا فأتترك لى هذا البيت
. . . وارتفع صوتها يقول : لن يرفع سقف بيتى . . . سوف أعيش فيه
وسوف يبقى معى حامد . . . فانه رجل . . .

وتأملنى أبى فى دهشة وأنا أمسك بيده وأهزها وأهتف : دعها .
سوف أبقى معها . وتدخل برعى بكلمتين لم يبال بهما أحد . ثم تدخلت
أمنية بإيا تقول : عيب يا فاطمة . ماذا يقول الناس عنا اذا تركناك هنا
وحدك . كيف نتركك وحدك للطوفان ؟ حامد مازال صغيرا تعالى
يا فاطمة . وفى اللحظة التى كانت جميلة تدلف فيها الى الساحة متجهة
الىنا برزت حجوبة من خلف المرتفع الذى كانت الشبونة منتصبة عليه
تلوح بيدها وتصرخ : هوى . . . هوى . . . المركبان تستديران حول
الجزيرة .

ويبدو أن كلمات حجوبة ومرآها قد أثارا كوامن فى صدر أمى فقد
طوحت بالمغرفة فوق رأسها ثم اربد وجهها ، ومالت واستندت الى كتف
الباب ، وتهاوت على العتبة مرسله آهة خنقتها فى الحال أصوات ارتطامها
بالأرض ، وراحت تركز الباب وتذيب بين شفطيهما سائلا أبيض يغلى
كالحشرة وتكبش فى التراب . وانكفات عليها أبكى بينما أبى عابس
يندرف الدمع مستندا الى جذع نخلة وأخذت أمينة وجميلة - التى وصلت
فى نفس اللحظة - تدلكان جسدها وترشان الماء على وجهها . . .

ومرت لحظات حسبتها دهرا أفاقت الأم بعدها تتلفت بعينيها

الجاحظتين تبحث عن المغرفة التي كان حسن المصرى قد اختطفها وأخفاها
عن متناول يدها . ثم تأملت وجه جميلة المبلل بالدموع ، فأشفقت ثم
نهضت وأسلمت نفسها لذراع ابنتها . . فدلقتا من باب الدهليز .

وتبعتهما حتى توقفت الأم عند ركن فى الديوان فارتكنت الى الجدار
تقول : هنا جاءنى المخاض فيك يا جميله ! ولا أدري مالذى جعل جميلة
تقول : كلا يا أمى . لقد ولدتنى فى البيت القديم يا أمى . فقطبت الأم
ثم فرلت جبينها بيد وقالت فى ياس : انت صغيرة يا جميلة لا تدركين . .
كيف تعرفين وقد كنت حينذاك مثل كف اليد . وسكنت البنت حين
تحركت الأم لتتوقف عند ركن آخر : وهنا ولد حامد . أتذكرين ؟ مسكين
. . كاد يموت هنا بسببى . وأجهشت بالبكاء . حين تذكرت كيف ارتمت
على جسدى الصغير وهى ترضعنى وراحت فى غيبوبة طويلة . وتواريت
أنا خلف الباب دافع العينين بينما ابتعدت بها جميلة الى ركن آخر فى
الحاصل جلست فيه الأم تحكى على مسامع أمينة والأعرابية ذكريات حياتها .
كيف رفعت جدران هذا البيت ، وكيف ساعدت الزوج . ثم عن مولد
جميلة وزواجها وبطة ورحيلها وحامد الذى حرمة الله من حنانها .
مسكين . كانت تتكلم وفى عينيها دموع وحول شفيتها غصون وتجاعيد .
وسكنت لحظة ترشف الماء بصوت مسموع . فانبرت جميلة تقول : أمى
. . تعالى معى الى الغرب - فى خيمتى . لا تذهبنى مع حجوبة . . شعبان
طلب منى . فتفرست فيها لحظة . ثم هزت رأسها وقالت : يا بنتى لك
بيت تعيشين فيه مع زوجك ولى بيت ، هو هذا البيت .

وتريثت جميلة تفكر ثم قالت : واذا ما نجا البيت من الطوفان عدنا
اليه يا أمى ! . وبدا لها واضحا أن الأم لم تقتنع ، ولن ترضى بمبارحة
بيتها . فاستنجدت بخالتها والأعرابية ولبثن ساعة حتى وافقت الأم
العنيدة على حل . تسمح للزوج أن يخلع سقوف البيت والأبواب ويترك
لها الحاصل تعيش فيه مع حامد ، واذا لم يكن هناك طوفان عاد السقف
وأعيدت الأبواب والا فسوف أعيش لوحدى هنا .

وابتسمت الأعرابية وقالت : تعالى معى الى الجبل اذا ما جاء الطوفان .
تعالى معى الآن . فهزت رأسها تتمنع بينما قالت الحالة : غريبة . الشيخ
فضل يعتزم البقاء أيضا الى غد . . لا أدري ماذا جرى لعقول الناس .
الطوفان يسرع الى النجع . وهناك من يريدون البقاء . فقالت الأم : اذن
نسوف نسلى بعضنا حتى تعودوا من الغرب . .

وما هي الا لحظات حتى أخذ حسن المصرى وبرعى يهدمان السقوف
ويخلعان الأبواب بينما انهمك أبى ومرسال وعوض كتيبة على الشاطئ
يشحنون أمتعة البيوت الثلاثة فوق المركبين حتى بدتا فى نهاية الامر
قبتين هائلتين تربضان تحت الشراع الأبيض السامق .

ثم وقفنا على الشاطئ نلوح الى أبى الذى استقل سفينة عوض
كتيبة بينما استقلت حجوبة ومحمود الصغير مركب مرسال الذى أخذ ينقر
على الدف نقرات أخذت تنداح فوق الشطآن بين أجسام النخيل ثم تخفت
رويدا رويدا كلما تحركت سفينته توغل فى المجرى العميق، فى مواجهة
الجزيرة الغارقة لتجتاز النتوء الشرقى .

وها هو يهب واقفا على حافة السفينة الموسوقة يرتفع بنقراته
مودعا شطآن الشرق بألحان داوية : افياالوقو .. افياالوقو .. مع السلامة
.. مع السلامة .

ومن خلال نقرات الدف ارتفع صوت أبى يقول :

— لا تفارق أمك يا حامد . سنعود غدا لنقلكم الى الغرب . فتبسمت
أُمى ابتسامة واهنة وقالت :

— بل ستعودون أنتم جميعا الى البيت الكبير .

ومضت السفينتان تتسابقان حتى تجاوزتا النتوء الشرقى
وألقنا بنفسيهما فى المجرى العريض . ثم بدأت سفينة عوض
كتيبة تندفع فى سرعة أكبر تاركة مرسال فى سفينته يسب
الحظ العاثر ويلعن عوض كتيبة الذى اعتاد توريطه فى مآزق تجعله عرضة
لسخرية الكبار والصغار . فها هو ينفلت بحمولته فى سرعة وعليها الشيخ
أمين وحسن المصرى يرمقان سفينته البطيئة فى دهشة وذهول .

٤٥

فعند مؤخرة مركب عوض تماما تحت مقبض الدفة اتكأ أبى ، يمد بصره ويراقب حركة السفينة الاخرى ويمعن النظر فى شبح زوجته ، وفى الدست النحاسى الكبير القائم بين الأمتعة حتى ركبته هواجس أخذ يهز رأسه بشدة ليطاردها ، ثم انهمك فى تحريك سببخته الطويلة التى اصطنعها من حبات الخروع ، وغرق فى أوراد يتلوها بصوت خافت • ثم عاودته الهواجس فهب واقفا على قدميه ينادى عبر الماء •

— مرسال • شد حيلك يا مرسال •

فاستدار النوتى بجسده وصاح : الشدة على الله •

قالها فى غيظ ، ثم عاد الى همومه • بينما أخذ أبى يسلى صياحه بهمهمة غامضة وعيناه تراقبان التلال الغربية ، يتعجل مغيب الشمس فقد أمسك بحلقه ظمأ شديدا يكاد يدميه ويجرحه ، أو ترتدان الى مركب مرسال التى أخذت تتركأ ، وتأملان الدست النحاسى الكبير والشمس تتوهج عليه بأنوار متراقصة تجعدها الامواج العاتية •

وفى ذلك الدست كان محمود الصغير تطل عليه حجوبة وزنوبة تداعبانه ، وتخشيان أن ينفلت منه فينزلق الى اليم ، ومن حولهما أمينة بايا وعبداه الفرنساوى ينهمكان فى حديث عن مصر وزوج غائب لم يعد منذ سنين ، لاهيين عن المد العارم الذى يواجه السفن والقوارب المائجة فى المجرى العريض •

ورفع أبى رأسه الى السماء فوجدها مربدة تكتسحها ريح تهب نشطة من الغرب وتشتد لحظة بعد أخرى ، تسوق أمامها سحباً داكنة ، تحجب قرص الشمس المسائلة الى الغروب حيناً ، وتسفر عنها حيناً آخر ملقية أضواء باهتة على الخيام والرمال والقصر الأثرى الرومانى القديم •

فأحس بانقباض يعتصر قلبه بعث فيه ندماً أخذ به كل مأخذ : ليته استقل المركب الاخرى معهما •• مع حجوجة وابنه الصغير فليسا الا فى رعاية جمال وعبداه الفرنساوى • وعبداه لا يعرف كيف يحرك يده فى الماء بينما جمال مفتون بزوجه البيضاء مشغول بنقارها مع أمه • وهما هى



سفينته تتوسط المجرى الغربى العميق بعد أن استدارت حول القرن الشمالى للجزيرة ، وانفلتت متجاوزة الدوامة تتجه لترسو على البر الغربى وما هى الا خطوات حتى يشرع حسن المصرى وعوض فى تفريغ شحنتها على الجرف العالى ، وربما انتهيا من ذلك قبل مغيب الشمس ، بينما السفينة الأخرى ما تزال تتلكأ وتختفى عن عينيه خلف أجسام النخيل الغائصة - حتى خصوصها - فى الجزيرة التى وطئ الطوفان وهادها المنخفضة منذ الليل ، فجعل يشرئب بعنقه يبحث عنها ثم ضرب بيده على صدغه وقال : وما الذى جعلنى أوزع عفشى على المركبين ؟ لماذا لم أترك السفينة الأخرى لجمال والفرنساوى وأمينه . لماذا ؟ كان فى وسعى أن أشحن كل شىء هنا فتكون الزوجة والطفل الصغير معى . فليرعهما الله بعنايته . ثم تمتم بالدعاء وهو يخطو على السقالة الى الجرف العالى ، ليتوقف هناك لحظة يرمى الطرف الشمالى للجزيرة بعين واجفة حتى بان الشراع السامق مهتزا فوق الأمواج الهائجة ، فاطمان واستدبر الشاطئ ومضى فى خطى متثاقلة مرهقة الى خيمته التى أعدها منذ أيام يستريح قليلا حتى ترسو السفينة قبل مغيب الشمس ، فلسوف تحل حجوبة بعد لحظات فى الحيمة وتعد افطارا لصيامه . وقال : أغمض عينيك يا أمين علك تنام لحظة تفيق نشطا بعدها .

الا أن جفنيه لم ينسدلا على عينيه . حاول أن ينام ومع كل محاولة كانت المخاوف تنثال على قلبه رماحا غائصة ، مخاوف ضاعف منها هدير الدوامة وارتطام الشمندورة بسلسلتها ، ثم هذه السحب الداكنة الزاحفة الى الشرق والشمس التى كادت تغيب وفرقعات البيوت التى أخذت تنهاوى فى نجوع الشرق . ترى ماذا تفعلين الآن يا فاطمة ؟ وحامد ماذا يفعل ؟

واستقام جالسا على الرمل عند هذه الحاطرة : المخبولة . لماذا تركتها هناك ؟ تريد أن تهلك نفسها . فلماذا تركت الولد حامدا معها ؟ ثم ها هى الأمواج تشتد وتعلو وترتفع بحجوبة ومحمود وتنخفض . . وظلل عينيه بيده وامتد بصره فوق الأمواج وغمغم : يبدو أن حبلا غليظة تشد المركب الى قاع اليم فلا تتحرك ، فهى ما زالت هناك بالقرب من الدوامة وعلى بعد خطوات من الجندل الثانى فى النيل .

وهب واقفا على باب الحيمة يحدق فى المجرى العميق الممتد ما بين الجزيرة ورمال الشاطئ الغربى ، ولقد ارتفع الطوفان مثل جدران سميقة عالية والأمواج تتدافع لأول مرة من الشمال تكتسح الأمواج المستكينة

لزاحفة من الجنوب وتطأ الجروف في قسوة وتحاصر البيوت ، وتهوى
بالجدران مثيرة غبارا داكنا ينعقد تحت السحب تخترقها بصعوبة أسراب
من الأوز العراقي تسرع صامته لتحط رحالها على القصور هاربة من الريح
التي أخذت تعوى مثل الذئب . وها هي سفينة زوجته تتأرجح في قبضة
الأمواج والدوامة والسحب والريح . . لعنة الله عليك يا مرسال ! تحول
ركاب سفينتك الى اشباح في أضواء الشمس الباهتة البادية قرصا أحمر
ملتهب الحواشي تتكىء خلف التلال الغربية لتغيب .

ولا يدري لماذا أخذته غفوة النوم في هذه اللحظة ، تماما قبل مغيب
الشمس ، قبل أن يؤذن نوح . ولا يدري كم طالت غفوته ، لا يدري الا
أنه أفاق على جلبة ، على صوات يتعالى وينداح في المجرى العريض، فوق
هدير الأمواج وقهقهة الدوامة ليخترق طبلة أذنه ، ففرك عينيه ونهض
يجرى ، لا يبالي بالصخور الناتئة برءوسها من الرمل ترتطم بقدمه
الحافية وتدميها .

ومن حوله كانت الأقدام تتدافع من كل خيمة ، من كل نجع ، وخيل
له أن هناك جماعات من الناس تركض حتى من ابريم ، قرية الحيام
المترامية الى الجنوب من كران نوج .

وتوقف لاهثا على الجرف العالي يحيط به نسوة ورجال وأطفال
صغار ينوحون ، ويشقون الجيوب ويحثون التراب على الرؤوس ، ولح
الدموع في عيني داريا وشريفة اللتين راحتا تعولان وترسلان في نغم مختنق
عديدا مسجوعا تبكيان الأب الذي مات والأخ الذي اختنق وتلعنان زنوبة
قلولاها لما عاد جمال الى الشرق . . لولاها ! وغير بعيد ربضت أم عجوز
وأخت كهلة ، أم وأخت الفرنساوي تبكيان وتذرفان الدمع في صمت
بينما أخذت بنات الحالة تعولن . . بينما الرجال يجرون هنا وهناك ،
يتنادون عبر الحيام ويقفزون من الجرف العالي الى الشط المنخفض، ويفكون
قوارب من مراسيها ويضربون الماء بالمجاديف ويسبون بعضهم في صخب .
وفوق الموج أشعة بيضاء تنعطف نحو مركب مرسال متسمعين الصوات
والصرخات المنطلقة يخنقها عويل الريح المنطلقة فوق الرؤوس وفرقعات
البيوت المتهاوية في أقصى نجوع الشرق الى الشمال . ولا يدري لم توقف
هو دون حراك ؟ ، لم ترك أحمد عودة يصدر الأوامر وحده ؟ لا يدري أنه
ظل برهة ذاهلا ينظر الى النسوة الناحيات في ازدراء . نسوة لا يعرفن
الصبر . ثم تبدت أمامه جميلة مهوشة الشعر لاهثة فقد أخذت تجرى منذ
أن سمعت الصوات العالي وتقفز فوق كتيان الرمال ، حتى اندفعت الى

التجمعات الباكية ، وجالت بعينيها الدامعتين وأذناها تلتقطان نداءات
تنبعث من جوف الطوفان .. زنوبة . محمود .. حجوبة .. مرسال ..

رمقها في نظرة خاطفة ثم أرسل نظرة غاضبة الى النيل ، وأحس
بقوة هائلة تنبعث من باطنه ، ترفع قدميه من الأرض وتدفع به عبر
الجرف ، وقد تعالى صوته بالبكاء وتقذف به الى النيل .. يغوص .. ويلقى
به الموج على الشاطئ ليحتضنه حموى بقوة ويرفعه الى الشاطئ من جديد
ناحبا يبكي حظه العاثر ، يخرف ويسب ويكور قبضتيه يطوح بهما في
وجه السماء . ثم انكفاً على صدرها يبكي ويهتف .. لماذا يا رب .. لماذا
تركنتي يارب « وونور » أنا عجوز . خذني . عشت دنياى فخذني اليك .
محمود صغير .. صغير .. وأمه تحبه .. اتركهما يا رب .. لقد ماتت .
ماتوا جميعا . لقد انهارت جدران الشرق . جدران البيت الكبير على حامد
وأمه .

وتركها ورفع عينيه الى السماء - لماذا خلقتنا ! لماذا وهبتنى عيالى
لتأخذهم الواحد بعد الآخر ؟ الزوجتان والولدان ! وكل شيء . حتى
فلوس التعويضات .. لم يبق شيء .. لا شيء . وانطلق يعدو الى الجرف
وهى متشبثة به ، فتوقف ثم حذجها بنظرة كأنه لا يعرفها وشعرت
بالخوف حين تقدم اليها جاحظ العينين مرتعش الشفاه يتحسس ثيابها
ويقول : من ؟ جميلة ..؟ لماذا جئت ؟ اياك ان تقربى هذا المكان . عودى
الى بيتك . بيتنا منحوس . يوم جمعة وساعة نحس ! ابعدى .. كلا .
تعالى . ابقى الى جانبي . لم يبق الاك ، .. ثم توقف لحظة يبتلع دموعه
وقال فى صوت تخنقه الدموع وأين صغيرك .. أمات هو الآخر ؟ .
ما لثيابك مبتلة ؟ أنت الأخرى ؟ وبطة ! .. من يدرينى ؟ ربما تدرجت
فى هذه اللحظة تحت عجلات ترام .. يارب وونور لماذا أسلمتنا للشيطان؟
صليت كما لم يصل أحد ! صمت اليوم .. وما زلت صائما يا رب ..
أطعمت المحتاجين .. فلماذا تعذبني فى دنياى ؟ لماذا يا رب ؟ وونور .
وانكفاً من جديد على صدرها ينشج كالمجنون ، فارتفع صوتها هى
الأخرى بالبكاء يختلط بصوت بنات خالتها ، وتهيا لها أن كل كلمات
الرجل صحيحة .. من يدريها ؟ فالبيوت تتهاوى فى الشرق وربما انكفات
الأم فى نوبة من نوبات الاغماء وربما اندلق عليها حامد ، وربما انهارت
الجدران فى نفس اللحظة فاختنقا تحت الطين ! تحت الانقاض . وتخيل لها
الطوفان العارم طوفانا من التماسيح والثعابين تنهش جسد أخويها :
الكبير والصغير وجسد الحالة الطيبة الشفوق فانطرحت على الارض تسف

فى التراب ثم غشيها ظلام غريب .. نوبة اغماء .. أو غثيان لا تدري ،
الا أن أصوات العويل والنواح وصرخات مثل صرخات المجانين كانت
تتناهى الى أذنيها خافتة وتنبعث فى رأسها ، وتدق فيه مثل دقات المسامير ،
وليس هذا الا صوت أحمد عودة يقول شيئاً أخذت تقيق عليه : كان فى
لدىست مغشياً عليه لا أدرى • خذه وغطيه بحرام ثقيل • هب • هب •
مالك يا أمين ذاهلاً ؟

وفتحت عينيها ترى أباهما يحتضن كومة تقطر بالماء ، يندفع بها الى
الحيمة فانتصبت على قدميها وأطلت من الجرف تنهه وتكاد ترفع صوتها
بالبكاء الا أن وجهها الأسمر الطيب تنور بابتسامة واهنة ، فقد رأت أمينة
بايا خالتها «مبتلة الثياب» ملطخة الوجه بالوحل ، تتعثر مستندة على ذراع
برعى فوق الشاطئ ، فاندفعت تحتضنها وانفلتت مرة أخرى الى حجوبة
تعانقها باكية فبدت حجوبة متجلدة متماسكة ، بل لقد - ارتسمت على
وجهها فرحة تتسلل رغم الوحل والماء وهى ترمق الأب يجرى هارباً بما
يحملة الى الحيام فاندفعت خلفه تجرى تاركة زوجة الأب ، غير ملقية بالا
الى نهنيات أم الفرنساوى وشقيقته وهما تنكفئان عليه ، وقد تمدد على
الرمل لاهثاً يلتقط أنفاسه فى عسر ، ولا الى الجسد الأبيض ، الذى تعرى
تقريباً من كل ثياب - الا من السروال - والمنكفىء على كتف حسن
المصرى • بوجه شاحب مثل الليمونة المعصورة حتى آخر قطرة من الماء :
زنوبة ومن خلفها جمال يلهث ، وقد التصقت ثيابه بجسده •

.. ثم هدأت قرية الحيام وتبين من بين فرقعات البيوت فى نجوع
الشرق وهدير الدوامة وصوت ارتطام الشمندورة وأنين الريح ونعيق يوم
بين انقاض كران نوح صوت قلابات يخت كان يستدير عند الطرف
الشمالى للجزيرة ، وقد توقفت على شرفاته وجوه بيضاء مضت تسدد
نظارات معظمة الى الشرق والى الغرب تقيس أبعاد المجرى العميق الذى
جعل ينتفخ فى كل لحظة •

وتسللت من بين فرجات البوص فى الحيام أضواء نيران اشتعلت
فى المواقد تبعث الدفء فى أجساد الذين أشرفوا على الهلاك فى قبضة
الريح والبرد •

وأفاقت زنوبة لتجد نفسها على صدر جمال الذى أخذ يقبلها
فانتفضت تتخلص منه لتصرخ : طلقنى يا جمال .. طلقنى • عد بى الى
مصر يا جمال .. يا جمال ! بينما أطلت حجوبة على محمود الصغير الذى
كان يغط فى نوم عميق وتركت العنجريب وما تزال ثيابها مبتلة ، تتجه

الى السحارة وتخرج ثيابا أخرى الا أنها توقفت تصيحخ السمع الى كلمات أمين :

— مرسال • لعنة الله عليك • كدت تموت • • وكاد الناس يموتون •
لماذا لم تسد الثقب قبل الرحيل ؟ قبل الاقلاع بالركب • لماذا يا عبد ؟

فقد تبين أن ثقباً كبيراً ، سده مرسال بخرقة لطنها بالقار على عجل كان هو السبب فيما حل بالسفينة من نكبة • تسربت المياه خلاله الى جوفها وأثقلت خطاها ، حتى ارتطمت السقاطة بالصخور فانكسرت ، ثم مالت المركب جانحة فوق جنبها الأيمن ، تكتسحها الريح الى جذوع الأشجار الغائصة حتى خصورها في الجزيرة •

توقفت حجوبة عند السحارة ، وتريثت حتى أنهى الرجل كلماته فقالت : كتر خير يا أمين ! فلولا لما عاش محمود • لقد تشبثت بالدست الذى طفا فوق التيار وأنفذ حبلاً غليظاً فى مقبضه شده به الى الدفة وظل يحرسه الى أن أنقذ أحمد عودة ولدنا الصغير • وتشجع مرسال وقال : أتدري يا حجوبة أن يدى احتكت مرة أو مرتين بكيس الفلوس على صدرك • • لو كان غيرى • •

وشهقت حجوبة عند هذه الكلمات وامتدت بيدها تتلمس الكيس وتخرجه وتلقيه الى أبى فجعل يفتحه ويخرج الأوراق الخضراء • وهو يرسل آهة متحسرة • • فقد وجدها مبتلة وتكاد تتحول الى عجينة خضراء فتمهل وأخذ يعالجها هو وأحمد عودة فى صبر بينما استمر مرسال يروى : لو رأيت حجوبة يا أمين ممسكة بالصارى تصرخ أو أمينة التى تشبثت بمقدمة المركب والدم يسيل من رأسها فقد ارتطم بمقبض مجداف • أما عبده الفرنساوى فكان يرتعش ، بينما جنت زنوبة فى لحظة وألقت بنفسها فى النيل فارتطمت بالباب الحشبي العريض • • باب بيتكم الكبير ، وانحشرت بينه وبين المركب تصرخ • • ثم سكنت وحجوبة تسأل : باظت كلها يا أمين • قال : كلا • • اختلطت ألوان بعضها وتمزقت ورقتان • فداؤك يا حجوبة !

— فداء محمود يا أمين •

واختفت وراء ساتر من جذوع النخل تغير ثيابها ، وهى ما تزال تسأل عن الجنيهات التى تمزقت !

وفى الضحى ، فى اللحظة التى كانت مركب عوض كتيه تستدير

فيها حول الطرف الشمالى للجزيرة تسرى من الغرب الى الشرق ، الينا نحن ، تلمست حجوبة الأوراق المالية المنشورة على البرش العريض • ثم مضت تحشرها فى كيس أبيض وبين شفيتها أغنية بيضاء :

— لك وحدك يا أختاه ••

لك وحدك يا ولداه ،

هذا الثوب الناصع مثل البدر

هذا العطر السابح فوق الورد •

أنا وحدى هنا •• أنا والرعب والشاطئ المرتفع والنيل المتراجع •• أنا وأشجار النخل والوهاد المنخفضة التى أخذت المياه تغمرها ، وأطلال ساقية راحت الأمواج تأكل جدرانها فى كل لحظة •

٤٦

وليس ينسكب فى أذنى الا خريز الماء وهدير الدوامة — الى الغرب ، وارتطام الشمندورة بسلسلتها بينما النيل يرمقنى فى تحد بالغ وكأنه يتحفز لابتلاعى •

أنا وحدى هنا وأشعر أننى لاشئ ، قشة ضائعة فى مهب الريح او على قمة موج •• واننى لأسأل نفسى : لماذا أقف هنا ؟ لماذا أتيت ؟ قيل لى انك رجل • فرنت الكلمة فى أذنى رنين الطبل وخشيت أن أتراجع أمامهما : أمام أمى والأعرابية • ولكننى رغم ذلك وجهت نظرة حائرة اليهما فانبرى الشيخ فضل يقول :

— اذهب يا ولدى •• أما سمعت صرخات الأمس ؟ غرقت سفينة أبيك ؟ قبالامس ، فى غبش المساء تناهت الصيحات الى أسماعنا ، فتساندنا بعد تردد ومضيئنا نخب فى الطريق الزراعية حتى وقفنا على الشاطئ نرملق الجزيرة التى غطتها غلالة لامعة من الماء نظرة ذهول ،

ونحلق بأبصارنا علنا نستشف شيئا هنالك فى الغرب ، بين الخيام التى
بدت معتمة ضئيلة الا من أنوار باهتة .

ولم يصل الى أسماعنا الا هدير قلابات يخت يتحرك الى الجنوب
فى سرعة يكاد يجتاز الطرف الجنوبى للجزيرة .. أما بين الخيام ، فلم يكن
الا الصمت بعد صرخات داوية .

مكثنا طويلا عل سفينة أو معدية تعبر المجرى الواسع الينا ، فنعرف
ما الذى جرى للذين أقلعت بهم سفينة مرسال فى أصيل الأمس ! وقد ملا
السكون الذى لف الوادى قلوبنا بالرعب ، تضاعف منه همسات النخيل
وصرير الجنادب ونقيق الضفادع ونشيش ماء يتسلق الشاطئ المنخفض
من حولنا فى صعوبة أحيانا ، وفى يسر أحيانا أخرى . فرحنا نرتعش
ونتساند ونكاد نعدو هاربين عند أول حركة مفاجئة . فهناك فى أقصى
النجوع بدأت بعض الجدران تتهاوى فى دوى هائل ، فصرخت أمى صرخة
كتمتها لتقول : لهفى عليك يا أمين .. لهفى عليك !

وعجبت لأمر أمى التى لم أتصور أنها تحب زوجها أو تخشى عليه
من الموت ! ... كنت أحس أنها تمقته ولا تطيقه .. وهامى تبكى عليه فى
حرقة ، وتسأل فى الحاح عما جرى للمركب التى أقلته الى الغرب . ووقفت
أنا الى جانبها أبكى فى صمت بينما الشيخ فضل يحاول أن يهدىء من
روعنا : لا شيء يا فاطمة .. ألا ترين الغرب هادئا ؟ لا صوات ولا بكاء .
كان صخب ثم هدأ كل شيء . ربما مالت السفينة فتعالى صوات حجوبة
ثم أنقذوا جميعا .. تعالى .. تعالى نعود الى البيت .

وزاد بكاء أمى ونحن نعود فى الطريق الزراعية من هواجسى
فتصورت أبى يغوص للمرة الثالثة وتصورت أخى الصغير تنهش الأسماك
جسده وتخيلىت خالتى الطيبة تستقر فى قاع اليم ، وتراءت لى زنوبة
الجميلة جثة هامدة ، وبرعى وجمال .. كل هؤلاء الاعزاء .. ومضيت أتساءل:
كيف تكون الحياة من بعدهم . كيف تكون حياتى بعد أبى ؟ والمدرسة
ومشروعات حجوبة التى تصورتها ، لأمر لا أدريه ، تنجو دون غيرها من
الناس ، وتذكرت كلمات جميلة لشقيقتها : لا تفرطى فى زوجك فأبوك
عجوز وقد يفارقنا وحامد مازال صغيرا ! وتصورت حياتهما بعد ذلك اذا
ما مات فازداد نحيبى وغص حلقى بالدموع وأمى تربت على رأسى تحاول
أن تكسب صواتها رزاة وثباتا ، والأعرابية وفضل يهونان من مخاوفنا .
ودلفنا عبر الدهليز المتثلثم والذى لم يعد له باب واجتزنا الفناء المظلم

والديوانى الذى رفع سقفه لنستقر فى الحاصل الضيق طول الليل ،
ساهرين على ضوء مسرجة كاد زيتها يجف .

ومضى فصل يروى نوادر عن مصر - أيام بترت ساقه - ولا يكف
الا وهو يصيخ السمع الى فرقعة ينداح صوتها الينا من أقصى الشمال
ليهتف : دوار العمدة .. كل البيوت فى ذلك النجع المنخفض تتهاوى .
أما نحن فنجنعنا مرتفع وقد يمضى يوم كامل قبل أن يصل الطوفان الينا .

ولمعت عينا أمى ببريق دام لحظة ثم انطفأ وقالت فى همس : قهوة
.. لو شربنا قهوة بن ! فقامت الأعراية تفتش فى الحاصل .. وعادت
تقول : عندنا سكر ولكن ليس هناك بن ؟ فابتسمت الأم وأطرقت ثم
قالت : حامد .. هل تخاف من الليل ؟ وصمت فأردفت : بيت أم سعدية
قريب وعندها بن .

ورأت الحيرة ترتسم فى عيني فقالت : ما عليك .. لقد نسيت ..
ذهبوا منذ يومين .. وذرفت دمعين ثم سرت رعشة غريبة فى جسدها
تطامنت بعدها الى النوم . بينما بقينا نحن حول نار نستدفئ ونستمع
الى الفرقعات صامتين أو نعبّر الفناء لنطل على الساحة والمنخفض الذى
ترحمه الحلقا لنطمأن الى أن الماء لم يتجاوزها بعد ، ونعود وفى آذاننا
نباح « لورد » يختلط به صوت الدوى يتناهى الينا من الشمال وعويل
ريح تهب من الجنوب وتمسك بخناق النخيل فى قسوة فترسل أاناتها
عبر الساحة وتتمايل ليلقى القمر ظلالها مرتعشة فى البحيرة الضحلة
الصغيرة التى تشكلت فى أرض الحلقا .

وفى الضحى من اليوم التالى ، ونحن فى الساحة نرقب ، تراءت لنا
النجوم فى وهج الشمس الساطعة بحيرات صغيرة هنا وهناك ووهادا
تملؤها المياه وربى تحلق بها الأمواج ، فلم يعد بيننا وبين نجع السوارداب
الا شريط مرتفع يصل ما بين بيتنا والكتاب ، شريط تلاصقت عليه بعض
البيوت الخاوية متثلثة تنفذ الرياح وتلاطم بين جدرانها .

وهناك الى الجنوب بحيرات صغيرة أحاطت بشجرة الجميز ومياه
شفافه تغمر كل الحقول ، لم ينج منها الا شريط آخر مرتفع يصل ما بين
الشاطيء والسفوح المرتفعة التى أطلت منها على مساحات الماء الواسعة ،
تجرى طريق عاليه بينها وبين الجبانة العمومية حيث ارتفعت قبة الحاج
مكاوى .

وعدنا من جديد الى الحاصل . وعادت أمى تتمنى أن تشرب فنجانا

من الشأى وتطلب منى أن أجرى الى بيت سبيلة أو بيت داريا سكينه .
ثم تكف وتعض على شفتها السفلى وتهمس فى صوت داعم نسيت
مرة أخرى . . لقد رحلوا . . . والهفى عليهم جميعا .

ثم أطرقت برأسها قليلا وسألت فجأة : متى تأتى المركب يا فضل ؟
متى تغادر النجع فنرى كل الأحباب . . جميلة وابنها الصغير واختى
أمينة ؟

ومضت تتمتم ونحن نرقبها فى صمت : جاء الطوفان . . لكن شببكة
زارنى . . ربما غير رأيه حين رأى جميع الأحباب يرحلون . ثم كفت عن
تتممتها حينما انبرى فضل يقول : حامد . . اجر عبر هذا الشريط المرتفع
الى الشاطىء علك ترى يا حامد مركبا تعبر النيل أو تعرف خبرا عما حدث .

ورأى الرعب فى عينى فقال : لا تخف . . أأست رجلا ؟ . اجر وعد
فى لحظة . فأرسلت أمد نظرة حانية من عينيها الواسعتين مسحت بها
وجهى فى اشفاق ثم قالت : لا يا فضل . . سوف يخاف ، أو يفرق . .
دعه معنا .

وسخر الرجل منها وقال : حامد كبير يافاطمة . . ألا تريه رجلا ؟
فلم أنتظر بعد ذلك ، بل اندفعت متجاهلا تحذيرات أمدى أعبر الدهليز
والساحة الى الشريط المرتفع ، وأعدو الى الشاطىء ومن حولى أمواج تتدافع
والواح خشب تعوم وأطباق خوصية نسيها أصحابها يرتفع الموج بها
وينخفض وصفائح فارغة مثقوبة تعوم قليلا ثم تغوص ، وبيوت لم يتبق
منها الا جدار واحد . وأحراش نخيل قصيرة لا يبين منها الا أطراف
السعف ، فملأنى الرعب لكننى واصلت الركض ، وها أنذا أصل وأقف على
الشاطىء وحيدا يقبض الخوف على قلبى ويعتصره .

كل شىء غامض حولى ، والبيوت المتثلثة تبدو وكأنها تتمايل لتنام
رقدتها الأخيرة ، ومن خلقى عند السفوح تبدو مئذنة الجامع حزينة
واجمة . كل شىء يوحى بالأمس الحزين وبغد غامض لا أعرف لونه
ولا طعمه . أليس شيئا رهيبا هذا الذى يحدث أمام عينى وهذه الاشباح
والرؤى التى تنثال فى خاطرى رؤى مفزعة ، رؤى بدأت فى أصيل
يوم منذ أعوام ، وقفنا فيه نحن الصغار وعلى رأسنا برعى ، فوق هذا
الشاطىء نفسه، نترقب شيئا كنا نتوقعه: باخرة تحمل الطرابيش والوجوه
البيضاء . . ويخيل لى ، وأنا وحدى على الشاطىء أن وقفتى هذه بدأت
منذ ذلك الأصيل الذى لقنا فيه السكون . وبدأت أفهم أن لذلك الأصيل

صلة بما هو وشيك الانقراض على كل شبر فى هذه الأرض ، برحيل
الجزار ورحيل أبى وبرعى والمركب التى غاصت بهما !

الصور تزحم مخيلتى ، الصور تتعاقب .. سعدية وهى ترفعنى الى
صدرها ومصطفى الذى مضى يلوح كالمجنون للصنادل وأخت رحلت الى
مصر وأخرى الى الغرب ، وأم كانت ، حتى البارحة ، تهمس : غدا يعود
أبوك فالطوفان لن يبلغ نجعنا ، ثم عادت لتقول بعد ساعات : متى نرحل
الى الغرب ؟ ورجل يتشمم التراب ، وآخر ببذلة رصاصية وشاربين
مدببين يخطب فى الناس وآخر يحنث بالقاتحة .. وعساكر يطلقون
الرصاص وقطع الحصباء تتطاير فى وجوههم .

وأمامى عبر الجزيرة التى غطتها المياه تماما ، فلم تعد العين تعرف
حدودها الا بقمم الأشجار الممتدة فوق الماء خيام تتراعى فى الغرب حول
كران نوج يجرى بينها الأطفال يعتلون وينقلون أقدامهم فى الرمل ،
ونسوة ينزلن الى الجرف العالى ورجال ينحنون ويسوون الرمال لاقامة
خيمة جديدة . ويخيل لى أن أبى بينهم وكذلك خالى والشيخ شليب .

أنا وحدى هنا على الشاطئ والدموع تتصاعد الى عيني . وها هى
فرائصى ترتعد . ولكن الشيخ فضل قال لى : أنت رجل . فهل أعود أم
انتظر والام انتظر ؟ ان جولتى التى زعمها فضل تتسرب منى وتنسل
من خلال قدمي اللتين أخذتا تترنحان وتهزان جسدى ورأسى لتدور دوامة
الخوف بى كل مدار ، وترسم لى خيالات درافيل وتماسيح تشق النيل
لتلتهمنى فأستدير لأعدو فوق الشريط الضيق . لكننى أتردد . ثم
أتوقف موليا النيل ظهري ثم يهدأ روعى قليلا حين أرى لورد يركض
بساقه الجريحة فوق الشريط ولا يتوقف الا ليطارد ثعبانا يهرب من الماء
الزاحف الى جحر فى الجسر المرتفع .

وزام قليلا حين أفلت الثعبان منه ورفع ذيله ثم عاود زكه حتى
توقف أمامى يرسل أصواتا خافتة ويحرك ذيله ويتمسح بى . ثم توقف
فجأة عن كل حركة وأرسل بصره الى النيل فى اتجاه الجزيرة فاستدرت
معه لأرى مركب عوض كتيه تستدير عند الطرف الشمالى للجزيرة وتتجه
الينا بأنفها فاستعدت رباطة جأشى ومضيت ألوح للسفينة آملا أن يرانى
من فيها أيا يكونون .

وفى لحظات الانتظار الرهيبة أخذت أربت على رأس لورد وأتمنى
لو استطاع هو أن يمد ساقا فیربت على ظهري .

تم رست السفينة وقفز منها برعى بينما اش الله مايزال على
الصارى يصلح حبلا تقطعت .

تلقانى برعى ببسمة عريضة حين ارتعيت على صدره وسألنى :
كيف الحال يا حامد ؟ قلت : بخير . فى صوت راعش جعله يضمنى الى
صدره بينما أهمس : ماذا جرى بالامس فى النيل؟ قال : كاد أبوك يغوص
فى النيل ولكن الحمد لله نجونا جميعا . آه لو رأيت فلوس أبيك : خضراء
وكثيرة . . كانت مثل العجينة حتى فصلها أحمد عودة ونشرها على البرش
قلت ، والدهشة ترسم فى عيني : ولماذا نشروها ؟ فأمسك بأذنى
وقال : ألا تفهم . . حتى تجف .

– وكيف حال خالتى وزنوبة ؟ والكل . . ومحمود الصغير ؟ .

– بخير . كلهم بخير . . وأنتم . ماذا فعلتم بالليل . وماذا تقول
أمك الآن ؟

– لا أدرى . الا أنها لا بد راحلة معنا . .

– ولماذا جئت وحدك ؟

– الشيخ فضل طلب منى ذلك . هيه . . كيف حالك يا اش الله ؟ .

– بخير .

قالها ثم مضى يزك بساقه وهو يسأل ضاحكا : وكيف نام أبو رجل ؟ .
فضحكنا جميعا : حسن المصرى وعوض كتية الا أن نظرة صارمة من برعى
أعادتنا الى الصمت . بينما انتقل اش الله الى حديث آخر : والشيخ شليب
أقام خيمة الكتاب . فصحت فى وجهه . . متى أقامها ولماذا ساعدتموه ؟
وضحك برعى من الغيظ الذى ركبنى فصفق بيده متهللا ثم مضى يروى لى
قصة المركب . وفى اللحظة التى أخذ يقلد فيها صرخات زنوبة ، ويتندر
على حسن المصرى وحركاته الحبيثة وهو يحملها جثة تكاد تموت ، انطلقت
من الشرق ، من بين السفوح صرخات دافقة اقتلعت أقدامنا من الشاطئ
وقذفت بنا الى الشريط المرتفع نتسابق عليه حتى دلفنا الى الساحة التى
أخذت الأمواج تناوشها لنجد أمى والأعرابية على عتبة بيتنا جاحظة العينين
تصرخ وتشير الى مكان فى اتجاه نجع السوارداب . . وهناك رأينا المياه
تحيط بربرة صغيرة مرتفعة تقطعت السبل بينها وبين أى مكان فى
النجعين . وعلى الربرة الصغيرة المرتفعة كان الشيخ فضل يلوح لنا يائسا
فصرخنا فى صوت واحد : فضل !

كان قد ترك أمي والأعرابية وسار في أنحاء النجع يزور أماكن عزيزة على نفسه ، ولكن المياه اندفعت بسرعة في اللحظة التي كان ينعطف فيها إلى درب في نهاية النجع . وجثمت على كل مكان إلا تلك الربوة الصغيرة التي تراءى فيها رجلا ضائعا أفلتت منه ساقه الحشبية فوق حائرا ثم جلس يتلو آيات من القرآن ويلوح لنا بينما المرأتان تعولان .

وقفز لورد إلى الماء ومضى يسبح إليه حتى قفز إلى جانبه وزام ثم تحول عنه يهاجم خطوطا متلوية كانت تعدو هاربة : ثعابين وسحالي أخذ فضل يبتعد عنها . وأصابنا فزع شديد فان المياه كانت ترتفع وتآكل في كل لحظة لقما كبيرة من الجزيرة الصغيرة التي جلس عليها الرجل يرمق في حيرة ساقه الحشبية تعوم بعيدا عنه مع جحافل الماء وآلاف الأمواج التي أخذت تتسابق إلى كل مكان في النجع . وها هو بيت نوح يستقبلها ليتهدم جداره الأمامي في اللحظة التي كان يتهاوى فيها تماما بيت سعدية وجدران ثلاثة من بيت المآذون ، تتهاوى مثيرة سحابة من الماء تتطاير وغبارا يعلوا فوق القمم المتثلثة التي ماتزال صامدة .

وبدت نظرات الرجل من بين الغبار المتصاعد حزينة كاسفة تلومنا وكأننا لا نبالي به وبالجحيم الذي يعيش فيه . انه لا يستطيع أن يسبح منذ أن بترت ساقه . والثعابين من حوله تتلوى وتعلو هاربة . وركبتي خوف شديد وأنا أشاهد تلك الثعابين اذ ارتفعت أمام عيني صورة جدتي والثعبان الذي غرز أنيابه في ركبتيها .

ومن خلفي اندفع حسن المصري وبرعى يجران ثلاثة جزوع ربطوها بحبال قذفا بها إلى الماء ثم اعتلاها برعى والمصري ومضيا يجدفان حتى بلغا الربوة الصغيرة في اللحظة التي لم يكن قد بقي منها إلا مساحة ضئيلة تكاد تتلاشى . وتعلق فضل بعنق برعى ثم اطمأن فوق الجذوع التي استدار بها برعى .

وهمهم الرجل بكلمات لم تصل إلى سمعي ولا إلى سمع أمي والأعرابية اللتين وقفتا وفي عينيهما دموع ويداهما لا تزالان تشيران إلى نهاية النجع . إلا أن برعى قذف بنفسه في الماء بعد تلك المهمة . وعام حتى أمسك بالساق الحشبية وناولها لحاله .

وحين خطا الرجل أولى خطواته على أرض الساحة أطلقت أمي صرخة مرحة عبست بعدها وعادت تدلف من باب الدهليز وهي تغمغم : لعنة الله على الجزار .

وهمس فضل : تعالى يا فاطمة • هاتى هذا اللحاف • وارفع أنت
يا برعى هذا العنجريب • أما سقف الحاصل فاتركوه فليس بنى بال •
تعالى يا فاطمة •

واسبتدار بعد أن ألقى أوامره وأخذ يزك على ساقه فوق الشريط
المرتفع ثم تلقت خلقه ليجد أمى لا تزال فى مكانها لا تريد أن تتحرك •
كانت ترمق الجدران فى ذهول • وتطوف بعينيها على الساحة والمياه
المنداحة فيما دونها من الارض ، فتوقف الرجل وصاح :

— تعالى يا فاطمة • أنت ترين الحال • الطوفان لن يبقى على شيء •
وهتفت هى فى صوت باك : لنبقى قليلا يا فضل فما زال أمامنا
وقت ، فقال فى يأس : كفاك عنادا يا فاطمة يا بنت عائشة •

وهنا أحست أمى كأنما لدغها عقرب • اذ تذكرت أمها وتذكرت
انها لم تزر قبرها منذ أسبوع كامل • يا للقدر ! ها هى تريد أن ترحل
دون أن تلقى نظرة عليه للمرة الأخيرة ، فانقبض قلبها ومدت يدها
وأمسكت بيدي وهى تصرخ : سأزورها أنا وحامد يا فضل ثم الحق بكم •
وانفلتت الى الداخل تبحث عن شيء حتى وجدت ابريقا نحاسيا قديما ،
كنا قد نسيناه وعادت به الى منخفض وأمالته حتى ملأته بالماء وهى لا تزال
ممسكة بيدي ثم انطلقت تعدو فى اتجاه السفوح الى الجبابة وأنا من خلفها
ألهث وأخشى أن تطوقنا المياه فلا نستطيع العودة •

كانت الأعرابية قد تركتنا منذ لحظات وانعطفت قبل الجبابة الى بيتها
فوق الجبل ويبدو أنها كانت تراقبنا من كوة فى جدار بيتها المواجه لقبة
الحاج مكاوى • فقد سمعتها تهتف : عودا بسرعة • لكن أمى لم تبال بها •
بل مضت تركض حتى أوغلت فى الجبابة ووقفت على قبر أمها خاشعة
ترتل : قل هو الله أحد ، الآية الوحيدة التى تحفظها والتى تتعثر دائما
عند كلماتها • ثم أمرتنى أن أتلو على روح جدتى بعض ما حفظت ، فجلست
خاشعا عند الشاهد أرتل صورة الرحمن بينما مضت هى تتمتم : اغفرى
لى يا أماء • اغفرى لى يا عيشة •

ووقفت أنا أتأملها • ومن خلال سحابة الدموع التى رسمت كل
شيء فى عيني قاتما مظلما ، وجدتها بائسة تبكى ، وتهتز مع نهناتها •
فرحت أصرخ : كفاك يا أم • كفى • • • الماء يحيط بنا من كل مكان • •
ثم طوقتها بذراعى فلم تبال بى بل راحت تنسج بصوت مرتفع وتختلج حتى

أحسست أن فصلا حادة من الألم تنغرز فى قلبى ومؤخرة رأسى فارتفع صوتى بالبكاء يختلط بصوتها •

وفجأة ودون أن أدري وجدت نفسى أنطرح على الأرض وذهلت لأن أمى هى التى طرحتنى أرضا حين تحرك جسدها حركة غريبة تهاوت بعدها الى الأرض غائمة العينين يغلى السائل الأبيض بين شديقيها مثل رغاوى الصابون •

وأسقط فى يدى • فانكبت عليها أنادى : أمى • فاطمة • • أفيقى • وأتلقت فى حزن الى المياه المتدفعة نحونا : أفيقى لثلا نهلك • ثم رأيت الابريق النحاسى الذى صبت أمى منه الماء على قبر الجدة وفى حوض الصبار المتجهم الحزين منطرحا عند قدميها اللتين مضتا ترفسان على حافة القبر وتبعثران قطع الحصباء المنسقة فوقه • فالتقطته وملأته ماء ثم عدت أرش منه على وجه أمى دون حساب • أخذت أحرك الابريق فى حركات مجنونة وأنا أهتف : أمى • أفيقى يا أماء • ثم خيل لى أنني أسمع صوتا يهتف بى • • صوت جدتى • • صوت واحد من هؤلاء الأموات • • أم أنه الشيطان • • انه صوت مبجوح ناعم رغم ذلك • وخشيت أن أدور خلفى خوفا من مواجهة الرعب نفسه • فواصلت رش الماء على وجه أمى والتى كانت لا تزال ترفس بقدميها • ثم تبين لى الصوت وهو يقول : مسكين • ألم أقل لكما عودا بسرعة • وتنفسى الصعداء ، تنفس انسان أفاق من كابوس وأنا أرى الأعرابية تنكفى على أمى وتلك فروة رأسها بشدة •

ومن حولنا كانت الأمواج الصغيرة تتلاحق وتدور حول الجبانة لتحقق بنا من الغرب والشرق • ولم يعد أمامنا الا شريط مرتفع يصل ما بين الجبانة والشريط الآخر المتجه الى الشاطئ •

وعند حافة الجبانة وقعت عيناي على مشهد أثار فى نفسى شعورا بالغثيان ، فعلى سطح الماء كانت تعوم أكفان بيضاء وعليها بقع حمراء • ثم تهاوى منزل الشيخ جعفر الذى حجبت جدرانها عن عيوننا الشراع السامق المرتفع على الشاطئ فتكشف لى واضحا ، وأخذت أستعيد هدوئى بعد أن ألقيت نظرة على أمى فوجدتها هادئة لا تحرك قدميها بينما كف السائل الأبيض بين شفتيها بل كفت حشرجتها ، وان بدت كالميتة وراحاتها على صدرها تحاول الأعرابية أن ترفعها وهى تنادى : أفيقى • وعلى الشريط المرتفع بدا برعى وحسن المصرى يركضان نحونا ، وفوق رأسيهما بدت الشمس قرصا هائلا يغزو ضياؤه كل شبر ويعكس

صورتيهما وصور الجدران المتثلثة فى الماء المندفع حول الشريط المرتفع .
بينما بدت هنالك فى سماء نجع السوارداب أسراب شتى من الطيور تحلق
وترسل صرخات داوية وتترف بأجنتحتها مذعورة .

وفى الجو رائحة بول وروث بهائم وعفن انبعث من الجبانة نفسها
ضاقت به نفسى ، فأخذت أتعجل خطى برعى وحسن المصرى . فقد عزمتم
أن أطلب منهما أن يحملأ أمى وهى لا تزال فى غيبوبتها الى المركب . لكنها
أفاقت فى اللحظة التى وصلا فيها وجالت بعينيها فى وجوهنا . ثم
ارتفعت كوعها وجلست تتمتم : الحمد لله . بينما ملت أطبع قبلة على
جبينها وأضع ذراعى تحت ابطها وأنا أقول : هيا يا أمى .

فهبت واقفة وألقت نظرة على قبر الجدة وعلى قبة الحاج مكاوى
واستندت على كتفى وذراع برعى ومضت لاهثة الحطى تعتلى الشريط المرتفع
ومن خلفنا الأعرابية .

ولوحث الأعرابية لنا بيدها حين أقلعت السفينة . قابتسمت لها
أمى وضاحت : زورينا فى الغرب . فهزت رأسها وقالت ؟ سأزورك
عما قريب .. مع السلامة .

وألقي الشيخ فضل بعباءته على أمى . ثم مال على حافة المركب .
وأخرج من جيبه منديلا فضه وأخذ يرفع منه حفنة من التراب الى أنفه
يتشممها بينما عيناه تذرفان دموعا تنسكب فى النيل وشفتاه تتمتمان :
انا لله وانا اليه لراجعون .

اتخذ عوض كتية طريقا آخر لمركبه اذ لم يتجه بها الى القرن
الشمالى للجزيرة .. بل أدار دفتها واخترق بها الجزيرة نفسها بعد أن
طوى شراعها واستعاض عنها بالمدارة والمجداف .

واتجه حسن المصرى ببصره الى الشرق وأرسل لحنا جميلا اعتاد دائما
أن يغنيه .

— بلد حبيبي قصاد عيني ومش قادر أعديله .

وتجاوبت معه وهاد الشرق وجدرانه بفرقات هائلة أعقبته سحب
من الغبار ارتفعت الى عنان السماء .

٤٧

كنت متكورا بجسدى فوق العنجريب ، متلفعا بحرام ثقيل
يقينى البرد الشديد الذى أخذ ينفذ الينا من خلال البوص
وسقف الخيمة .

وأفقت فجأة على يد تهزنى ، ففركت عيني وتلصصت من خلال ثقب
فى الحرام لأجد أمى واقفة على رأسى تهمس : أفق يا حامد قبل أن يفيق
النيل ، لكننى ثنأبت وعدت الى النوم فمضت توقظنى فى اصرارها هامسة
فى صوت خافت : أفق يا حامد فقد أمرتنى جدتك فى الرؤيا . فأطارت
هذه الكلمات من عيني آثار النوم . وجلسع وأنا لا أزال متلفعا بالحرام
أحدق فى وجه أمى ، وأشفق من سعال متصل حاد يمسك بخناقها ، قالت
بعد أن تخلصت منه : جدتك تطلب منك أن تشرب من ماء النيل وهو
لا يزال نائما فى السحر !

وضحكت ضحكة قصيرة وهمست : وهل ينام النيل يا أماء ؟ فقالت :
كيف لا ينام ، انه يمشى دائما ويتعب ثم ينام ساعة يعود بعدها الى تجواله
وطوافه . . قم ودع الكسل يا حامد فالوقت يمضى .

— وكيف عرفت يا أماء أنه نائم فى هذه الساعة ؟
— جدتك قالت لى فى المنام : أسرع يا فاطمة . . دعيه يشرب الآن
قبل أن يفيق . . انه ينام يا ابنتى .
وتلفتت حولها خشية أن يسمعها أحد : سوف ترى كيف تشتد
عضلاتك وكيف ينمو جسدك لتصبح رجلا فى شهور قليلة !

ثم مدت يدها وجذبتنى اليها ، وأمسكت بيدي وخرجت من باب
الخيمة ثم توقفت تتأوه حين لفح البرد الشديد وجهها وراحت تسعل .
ومن باب خيمتنا التى تطل على خيمة الدكان ، ومن خلفها خيمة خالى

وخالتي ثم خيمة داريا سكيئة وفضل ، تبدت لى قرية الحيام المتلاصقة غافية
لا ينبعث منها الا صوت شخير يرتفع ويخفت ، والا همهمة غامضة تنبعث
من خيمة البسطاوى وعروسه سعدية .

كان لون السحر الباهت يصفى على الحيام صورا غامضة فبدت كأغنام
رابضة أو طيور عائمة لا أعناق لها !

ثم فتح باب خيمة وبرزت منه سعدية تحمل صفيحة ماء بينما وقف
البسطاوى ينير لها الطريق بفانوس رفعه فوق رأسه . وابتعدت عن الخيمة
خطوات طوحت بعدها بالماء من الصفيحة وعادت واختفت خلف البسطاوى
فتبسمت أُمى وغمغمت : فى رمضان يا سعدية ! وبعد السحور يا بنتى !
بينما مضيت أنا أتخيلها بين أحضان زوجها ، فتذكرت صدرها البض يحتك
بصدري ويكاد يخنقنى وأردت أن أقترب من خيمتها ، الا أن أُمى أمسكت
بيدى واندفعت تنحدر عبر الرمال الى الشاطئ . حتى توقفنا عليه فهمست :
آلا ترى : لنيل نائما يا حامد ؟ .. جدتك لا تكذب .. لا ترفع صوتك حتى
لا توقظه !

ثم دفعتنى فجأة وهى تقول : اشرب .. قلت : اشربى أنت ، متخيلا
أن جرعة يمكن أن تشفيها من أمراضها ، الا أنها أصرت : اشرب أنت أولا
فقد يستيقظ قبل أن تشرب منه . فملت الى الماء ورشفت منه ، ثم نهضت
أقول لها : اشربى أنت الآن يأمام .. فهو لا يزال نائما . فانكبت تشرب ،
بينما أخذ احساس غريب ينبثق فى صدرى ، احساس بعضلاتى تنتفخ ،
وبحلمة الثدي تتصلب ، وبصوتى يزداد خشونة . كان صوت رجل هو
ذلك الذى بدأ ينبعث من حلقى ، فعكفت على نفسى أتخيل قامتى الطويلة
وشاربى المدبب ويدي القويتين . وغرقت فى أحلام اليقظة الغريبة ولم أفق
منها الا على فرقعات هائلة فى الشرق فهبت أُمى بعدها فى فزع وواجهت
المشرق فانعكس ضوء الشمس الصاعدة فى عينيها ، ثم انحدرت بهما الى
النيل وقالت : أترى يا حامد ؟ .. انه يفيق من نومه . ثم أخذت تسعل
سعالا حادا هزكيانها ، وقفز بالدموع الى عينيها .

ورأيت النيل بالفعل يفيق كلما انعكست عليه أشعة الشمس ، وكلما
هب النسيم فأيقنت أن عضلاتى ستشتد وأن أُمى ستشفى من مرضها
ومن هذا السعال بعد لحظات قصيرة .

وارتفعت الشمس قليلا فتبين النيل لى على حقيقته : جدارا هائلا

مرتفعاً يملأ الوادى كله ويصفع الأشجار والسفوح والجروف العالية فى
هدوء قاتل ويكتسح الجدران التى لا تزال متبقية فى الشرق .

ويبدو أن أمى أدركت ماكنت أتصوره فقالت : حقا ان الطوفان كاسح
يا ولدى .. تعال ، وأمسكت بيدي وعادت أدراجها الى الحيمة ، ودلفنا فى
نفس اللحظة التى كانت تقول فيها حجوبة لأبى : لقد كبر يا أمين ولا بد
له من عمل ، وسمعه يقول : يا وليه اسكتى .. فتاح يا عليم .. اسكتى !
فحدجتهما أمى بنظرة متسائلة ثم أسرعت الى ركنها ، وتلفعت
بحرامها ثم رقدت تنام الى الضحى نوما يقطعه سعال مستبد يهز كل
جسدها .

الضحى من نفس اليوم وها هو الوطن الجديد يمتد أمام أبصارنا
تلالا صغيرة خلف صفوف ثلاثة من الخيام .. والتلال تبدو
بعيدة تحف برعوسها دوائر من نور الشمس تحوم فوقها
وتبعث الرعشة فى القلوب . وتحت أقدامها تركع كثبان من الرمل الأصفر
وهضبة تنحدر عبر الخيام لتطل على النيل فى جروف عالية ، والخيام ليست
الا أقزاما صغيرة من البوص وفروع السنط والجريد تتلاصق كأنها مذعورة
من التجهم المرسوم على الهضبة والكثبان والتلال .

وأمام بعض الخيام نسوة افترشن الأرض تلوك ألسنتهن مأساة الأمس
وتكف عن الكلام عند كل دوى فى الشرق لتصرخ : أمى ، هذا بيتنا يغوص
بالماء .

— كلا ... لابد هى مئذنة الجامع .

فترد أخرى من عتبة خيمتها : بل هى قبة الحاج مكاوى ، فتميز فتاة
من حفيداته غيظا وتصرخ : الشر لا يقوى على الحاج وقبته ، الشر لا يقوى !

— وكيف لا يقوى .. أليست القبة من طين وحجارة ؟

— لكننى رأيت فى المنام ملائكة بأجنحة بيضاء طوال القامة يتسورون القبة وينفخون فى الأمواج فتبتعد ، بينما جدى من قبره يبتسم لهم ويرفع يده الى السماء : الحمد لله يارب .. الحمد لك يا رب — بركاتك يا حاج .

ثم مدت يدها الى رأس جدتها العجوز ثقلى شعرها المخضب بالحناء بينما الصغار يخرجون من الخيام وينتشرون على الرمل ، يجمعون قطع الحصباء ويتشاجرون والشمس من فوق رؤوسهم ترتفع وترسل حرارتها الى الرمل رغم برودة الشتاء فينتقلون من قدم الى أخرى ثم يلعبون الحجلة . والأمهات يلقين عليهم نظرات مشفقة ويهمن : مساكين .. أولاد الفقر ! ثم اشتد صياح الاطفال فجأة واختلطت به كلمات مشهورة : واحد .. صمد .. اذ انطلق كلو ينفلت ويمرق من بين الخيام هاربا من الصغار الذين تسابقوا خلفه ليستديروا به الا أنه اختفى فجأة فهتفت داريا سكيئة : شريفة ماله اليوم يختفى بمثل هذه السرعة ؟

— من يدرينا .. لعله غاضب علينا !

— ولعله يحذرنا من شر .

فتصايحن بها من كل مكان : يا شيخخة ... أبعد ما حل بنا شر ؟

ثم ظهر كلو من جديد من بين الجدران الطينية المتثلثة ، جدران كران نوج ومضى يركض بين الخيام حتى توارى خلف التلال الغربية . ثم لم يره أحد بعد ذلك فى القرية .

الرجال يخشون أن تهب زوبعة تقتلع الخيام ، وها هم ينقلون الماء فى دلاء ويصجنون الطين ويشبتون قوائم الخيام ، وبين أفواههم كلمات واجمة حزينة ، فانهم لم يفيقوا بعد من أحداث الأمس . ثم انطلق صوت حاد يصرخ فى ألم فأداروا رؤوسهم ليروا عم نوح يحمل مندوحة الى خيمته وهى تتعلق برقبتة وتتأوه فقد لدغها عقرب وصاح فضل حين علم بالحادث : تستاهل .. قلت لها عشرين مرة ألا تلعب فى الجحور .

— ولماذا تلعب بالجحور ؟ بنت شعنونة !

فضحك أبى وقال : نوح أمرها بذلك ، فهما يبحثان عن جعارين

وتمائيل أثرية يرسلها الرجل الى مصر أو الأقصر • وقد يجدان كنزا تحت الأرض !

وقهقهه فضل ومضى يزك بساقه فوق الرمل هنا وهناك ثم توقف عند بقعة من الأرض تأملها قليلا ثم انحنى عليها ونشب أنامله فى الرمل وغاص بها ثم عاد بها بحفنة من التراب أخذ يتشممها مليا ثم استدار بوجهه الى برعى وقال :

— هنا يا برعى سوف أبني بيتنا الجديد ، ثم جال ببصره فى الأرض المنحدرة الى الشاطئ وقال من جديد : ومن هنا حتى الشاطئ ستكون لنا أرض • • قراريط ستة أو سبعة نزرعها !

واستمع أبى الى كلمات الرجل وأطلق ضحكة عالية قال بعدها : يموت الزمار • • • ماذا تفعل يا فضل • • والله ان الأرض ستقتلك ! فالتفت الرجل الى أبى وهمس : ماذا تفعل يا أمين ؟ لابد أن نقوم بشئ طوال الشتاء حتى ينحسر الطوفان عن الشرق فى الصيف • نفسى تتوق يا أمين الى حزمة فجل وقضمة بصل أخضر • ألا تتوق نفسك اليها ؟ ثم أشار الى ما حوله من رمل متجهما وهتف : ألا ترى يا رجل — هذه الأرض الضيقة الممتدة ما بين عاقية وعنيفة أمام الحيام ومن خلفها ، ما من نبتة خضراء واحدة • • تأمل خرافنا • • انها تقتات بالعلف الجاف • • وتجمع الورق المتناثر • • سوف تهزل وتموت •

وحملق أحمد عودة فى الرمال القاحلة ومضى يرسم خطوطا على الأرض مطرقا برأسه يتمتم فى صوت خافت : حتى العاقول والحسك اختفيا من الأرض • • ثم هب الى قدميه وأخذ يتجول فى الأرض ، يترىث قليلا هنا وهناك حتى توقف عند بقعة قال بعدها • • وهنا سنبنى بيوتنا الجديدة والأرض من هنا الى الشاطئ ستكون لنا • •

فصمت أبى وظل ساهما لا يقول شيئا •

وكانت صرخات مندوهة قد هدأت ، وتراءت الست آسيا على باب الحيمة تصرخ فى النساء : العقارب هنا بعدد الرمل يا بنات ولا بد أن ينتعل الصغار حتى بالنهار فهززن رعوسهن بينما عاد الصغار يتصايحون ويلعبون لعبة الحرب بعد أن صنفوا أنفسهم جماعتين : نحن الأفغان : ونحن الانجليز ! متسلحين بأكياس الرمل وقطع الحصباء ، نافخين فى صدورهم وأوداجهم يقلدون دوى قنابل لم يسمعوه من قبل • وراحت القلاع تنهاوى فى الشرق وفى الغرب وتعالص صيحات الصغار : نحن الأفغان • نحن الانجليز •

وقهقه أحمد محمود الذى كان يجتاز نجع الحيام بركوبته وصاح :
وما الذى أدراكم بالأفغان يا عيال ؟ فصرخوا فى وجهه : نحن الأفغان .
فلكز ركوبته حتى توقف أمام برعى عند باب خيمته وترجل ووقف لحظة
يتهامسان ثم دخلا ولعلهما كانا يتحدثان عن حسين طه .

وطفق فضل يرمق العيال فى اعجاب حتى انتهوا من معاركهم فصاح
ملوحا بيده لهم : تعالوا هنا يا عيال ، فأسرعوا اليه يتندرون على ساقه
الحشبية ، وهو صامت يبتسم لهم : يا عيال .. ألا تحبون أن تزرعوا شيئا ؟
فقال أحدهم فى شيطنة : نزرع حلاوة !

— حاضر يا ولدى .. بعد أن يصل طرد الحلاوة من أبيك .

— طيب ازرع لنا بلحة الآن .

— حاضر يا ولدى هذه نواة بلح تزرعها هناك .

ومضت الأيادى الصغيرة تنبش فى الرمل وتحفر وتهيب مكانا للنواة ،
وتريث فضل ثم قال : الزرع لا يصلح بدون ماء . أسرعوا بكوز ماء .

فانطلقوا الى النيل وعادوا بكيزان صغيرة ملأوها بالماء يصبونه على
الحفر من فوق يد الشيخ فضل الذى أخذ يغرس نواة البلح وحببات من
الخروع . ثم توقف ورفع يده الى السماء وهتف : ادعوا معي يا عيال ..
اللهم اجعل أرضنا خضراء .. ومر العصافير أن تشقشق فوق هذا الرمل
.. آمين .. وسرسعوا من خلفه بأصواتهم الرفيعة .. آمين .. وعادوا
يحجلون بينما برزت « داريا » على باب خيمتها ومن خلفها زنوبة وشريفة
وغمرت لهما بعينيها وقالت : سأشتري منك يا فضل ملوخية فى يوم
قريب .. تعال يا جمال ساعد الشيخ فضل ينوبك ثواب .. وقد يكون
لنا نصيب فى الأرض وهمست زنوبة : لا أرض ولا حاجة .. جمال سيعود
الى مصر .. أرض ؟

وانهمك أبى وأحمد عودة فى شئون المتجر فى خيمة واسعة رصت
فى جانب منها الصناديق والصفائح والرفوف بينما انتصب
بنك الزنك لامعا فى الجانب الآخر .

وتلفت أحمد عودة الى اش الله يأمره برعاية المتجر ، وانحدروا هم
مع الرمل الى الشاطئ حيث رصت جالات السكر والغلال يحملونها الى

الخيمة فوق ظهورهم وأنا ألهم خلفهم : أنا أستطيع حمل شوال يا أبى .
وقرر أبى فى لحظة أن يداعب رجولتى فركز على ظهري شوالا صغيرا بركت
به على الأرض وعرق الحجل يتصبب على جبينى بينما مضوا يهللون : أرنا
شطارتك يا حامد .. شربت من النيل وهو نائم .. ثم . وأخذت أنا أحتج :
الشوال انزلق .. أنا لم أقع .. بل هو الذى وقع ، حملونى غيره .. فلم
يبالوا بى ، بل انهمكوا مرة أخرى فى عملهم حتى فرغوا منه .

وفى الطريق الى خيمة المتجر اعترض طريقهم رجل صغير القامة
نحيل الجسد وقد أمسك بيد غلام صغير مضى يصافح الرجال فى شجاعة
والرجل يقول لهم : حفيدى سرور .

— ماشاء الله لقد كبر .. متى عدت يا سرور من الاسكندرية ؟

— منذ أسبوع .

— حمد الله على السلامة ... تفضل يا شيخ ابراهيم هناك فى الدكان .

قال : مرة أخرى يا أمين فأنا فى طريقى الى بشير ، فقد دعانى
لمساعدته فى البئر .

وصاح أحمد عودة : بشير أطواره غريبة يا ابراهيم .. ليس فى
رأسه ذرة عقل ، كيف حدثته نفسه بحفر بئر فى الجبل .

— الفلوس فلوسه ولا شأن لنا يا أحمد .

— العفريت وابور هو الذى يشجعه .

— لن يجد الماء الا بعد سبعين مترا .. أو ثمانين مترا !

وانشغلت أنا عن الكبار وأحاديثهم بسرور الذى مضى يحدثنى عن
الاسكندرية والحواجة « بيل » الذى يعمل أبوه فى قصره .

كنت أتأبط ذراعه وأمضى به على الرمل الى الشاطئ نراقب الجزيرة .
وأشار هو الى قمم أشجار فى وسط الجزيرة كانت تهتز فوق سطح الماء
وقال : تحت هذه الأشجار كان بيت جدى !

ومن حول الجزيرة كان الوادى كله قد تحول الى بحيرة واسعة هادئة
تقوم فوقها رءوس النخيل ، تنسل بينها قوارب صغيرة وقف على حافتها
رجال تلمع الشرasher فى أيديهم يكملون قطع سباطات لم يكونوا قد قطعوها
حين أخذتهم العجلة يوم انذار الطوفان .

وصاح اش الله في صوت مشرق : غدا الوقفة . وردد بكر من بعده : غدا الوقفة وبعده العيد . ورحوا يحجلون بين الخيام ويتصايحون بأغنيات العيد التي ابتسم لها الكبار في فتور . فانهم لا يستعدون للعيد ولا يفعلون شيئا غير لعب « السيجة » منطرحين على الأرض أو قراءة سيف بن ذى يزن من جديد . والتحديث في حسرة الى الوهاد الشرقية التي تحولت الى بحيرة واسعة . فالماء قد علا حتى أوفى على غايته متشاعنا مثل الجدران العالية ، وان لم يستطع اكتساح الهضبة الرملية التي استقرت عليها خيامهم .

لقد صاموا وهاهو العيد يطل عليهم دون أن يتأهبوا له الا ببعض الثياب الزاهية ، أما قلوبهم فواجمة حزينة تقفز على وجوههم السمراء ترسم عليها ظلالا من الأسى والندم الذي أخذ يتسلل الى شفاهم في كلمات يائسة كلما طافوا بعيونهم على الكثبان والرمال القاحلة .

هذا هو أبى يرفع رأسه بعد أن أكل كلبا من كلاب « السيجة » ويقول :

— ليتنا هجرنا المنطقة كلها وتبعناك يا حسنين الى مصر أو تبعناك يا صابر الى الطود في الصعيد .

وانبرى الشيخ فضل يقول ساخرا : الحال من بعضه يا أمين هنا صخور وفي الصعيد أراض قاحلة .. جرداء . لا ماء يركبها .

وعبث في جيبه وأخرج للمرة العشرين جواب الشيخ صابر يتلوه عليهم من جديد : لم أر النيل منذ وصلنا . الأرض ترقد أمام عيوننا ميتة .. الناس لا يتكلمون حتى تحيتنا . انهم ينظرون الينا بعيون حذرة واجفة نظرتهم الى غرباء . ربما أجد عملا كمرمطون في وينتر بالاس بالأقصر . كيف أبى وأمى ؟ . قل لهما يا فضل أنتى مازلت ادعوهما



للرحيل الينا . بدانا نكتب الشكاوى نطالب بمشروع للرى يجلب الماء
الى أرضنا ، والغريب أن الحكومة تطالبنا بالمال الذى فرضته على أرض
لم تسلمها بعد . سبيله بخير . العيد . عيد الفطر المبارك سيهل علينا
فى هذا البلد الغريب . هنيئاً لكم عيدكم فى البلد . ويبتسم أحمد عودة
عند هذه الكلمات ويقول : أى عيد يا صابر . النفوس لم تفق بعد مما
صدمها . عيد !

أين نصلى ؟ .. وليست هناك جبانة ولا قبة الحاج مكاوى ..
وأي ملاحينا ومراح صغارنا ؟ . النيل طام لا يمكن ركوبه . عيد !!
أى عيد هذا الذى نتحدث عنه يا شيخ ضابر ؟ . أنت لا تعرف ..
والله أنك لا تعرف .

وقال فضل يكمل الصورة الغريبة : ولا قمح نصنع منه الشعرية
.. ولا لبن .. وتدخل أبى : وماذا قال الشيخ عبد العزيز فى مسألة
الصلاة ؟ .

ومضى يتذكر كيف كانوا يبكرون قبل بزوغ الشمس الى الجبانة
ويشخصون بأبصارهم الى القبة البيضاء ثم يفتشون الرمل ويستمعون
الى الخطبة وينهضون بعد الصلاة الى المقابر يترحمون على أجداد
الآباء والأجداد . ثم يسمحون لأنفسهم بعد ذلك بالمرح والصخب أياما
ثلاثة بلياليها . وها هو العيد يعود وفى الصدور شجن وفى العيون
قلق لا يريم والقبة البيضاء واراها الطوفان . والبيوت قد تهدمت .
وأطنان الأمواج الصغيرة ترتع فوق عظام الموتى . فأين هم اليوم ؟ فما
من قبة وما من مقبرة يترحمون عليها . أنهم لم يختاروا بعد مكانا لصلاة
العيد وأرواح الاجداد لا بد تلعنهم . لماذا لم ينقلوا العظام معهم ؟ !

ورفع أحمد عوده رأسه بعد اطراقة دارت به فى دوامة الذكريات
وقال : ولماذا لا يصلى بنا الشيخ عبد العزيز هذا العيد ، هنا على
الرمل ، فوق شاطئ النيل ؟ و همس الشيخ فضل : قال ان من السنة
ان نصلى فى الصحراء خلف الخيام أو البيوت . فقد كان النبی عليه
السلام يفعل ذلك بعد أن يترحم فى الجبانة على القبور .

ولكن الجبانة لم تبدأ بعد . فما من أحد مات والحمد لله .

وقال الشيخ شليب : ترى من يكون صاحب أول قبر ؟ فأكل
أجل نهاية .

قالوا : اللهم ، اطل أعمار الناس .

وفي نهاية الساحة أمام خيمة المتجر كنت أنا وسرور في حديث متصل يفيض به عن العيد في الاسكندرية والمراجيح والحلوى وجنيئة الحيوانات والفيل أبو زلومة .

ومر العيد حزيناً كثيباً . اللهم الاصيحات بعض الاطفال وضحكات بعض النسوة في الخيام وبكاء طفل تهرأت ثيابه ، وصلاة قصيرة لاهثة بعد خطبة طويلة عن الصبر . وألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ترحم بها الناس على أجداث تخيلوها . أجداث مازالت ترقد في الشرق تحت أطنان الماء .

ثم مر شهران والناس لا يفعلون شيئاً غير لعب السبيجة واستعادة قصص الأساطير : حام وسام . . واللعنة التي أنزلها نوح على أبناء حام . . وغير ترميم الخيام والتفكير اليائس في انتزاع أرض من بطن الصحراء والكثبان ، والتأمل رغم ذلك باستخفاف في مجهودات بشير عثمان الضائعة . وهو لا يبالي بهم بل يمضي في حفر بئر عشرين متراً ثم ثلاثين دون أن يصادف ماء . . . بئر عقيم لا تلد الماء !

حتى الشيخ فضل لم يعد يفعل شيئاً غير تعهد حبات الخروع والتفكه على النساء والسخرية من المحامى ووابور وبرعى الدين مضوا يكتبون الشكاوى من جديد : نحن منكوبى خزان أسوان . . التعليق الثانية : نتوجه خاشعين الى السدة الملكية ! ويتشاجرون حول المطالب التي يسجلونها فى هذه الشكاوى والتي ينتهون اليها بعد جدال عنيف ليحملها برعى الى خيمة البريد فى أبريم .

وما زال برعى يفكر فى شريفة ويعترض طريقها كلما أمن من جمال، ويتردد فى طلب يدها منه خشية أن يصدده . ويعلل ترده بانتظار بناء البيوت . . فانه لا يمكن أن يتزوج فى خيمة ، كما أن جمال نفسه لن يهتم ، فهو مشغول دائماً بالنقار المتصل بين زوجته زنوبة وأمه ففدا مثل المخبول منصرفاً عن كل شئ اليهما يصلح ما تفسدانه ويتودد الى زنوبة عليها تهذا قليلاً . ولا داعى للعجلة فعما قريب سوف تبنى البيوت . فان باشرى قد أرسل جواباً يبشر فيه الناس باتفاقه مع المقاولين والبنائين والحجارين . وما هى الا أيام حتى يقبلوا ويملثوا قرية الخيام بالصخب والضجيج .

ومازلنا نحن الصغار الذين أصبح عددنا قليلا رغم انضمام سرور
ألينا نترنج في خيمة الكتاب . ونسرع اليه في كل صباح لا نعود منه الا
في القيلولة واكياس الكتب ترتطم بأفخاذنا ولم أعد أنا أحفظ شيئا .
فقد انشغلت في هذه الأيام عن كل شيء بأمرى التى ضاقت الشقة بين
نوبات اغماؤها والتى أخذ سعالها يشتد حتى انتهى بها السعال ذات
صباح الى أن تبصق دما أحمر بعث الفزع في قلوبنا .. قلبى أنا وقلب
جميلة التى هجرت خيمة الزوجية وعادت ألينا تسهر على أمها التى
مضت تدبل وتتضاءل حتى جحظت عيناها واسعتين بين عظمتى الوجنة
التى ضمرت .

وفي صبيحة أحد الأيام والشمس لا تزال آخذة فى الصعود ألت
بها اغماعة منكورة لم تفق منها الا بعد لحظات طويلة لتحملق مذعورة في
ديوننا تتلفت هنا وهناك فى أرجاء الخيمة كأنها تفتش عن شيء أضاعته
حتى أمسكت بيدي وقربتني منها على غير عاداتها ثم تساندت لتطبع
قبلة على خدى ولتربت على شعري وهى تجهد نفسها لانتزاع كلمات
تهمس بها فى أذنى : حامد يا ولدى . حين أموت .. فصرخت يائسا :
لاتموتى يا أماه . فقالت فى صوت متحشرج : الموت بيد الله يا حامد
ياولدى . قلت لاهثا : ليس الآن . لا تموتى . لا ترخلى كما رحلت
الجدة . فصمتت تغالب الدموع . بينما انتزعتنى شقيقتى وهى تقول :
مالك يا أماه تتكلمين عن الموت . مازلت شابة ! فانسعت عيناها وقالت :
تضحكين على وعلى نفسك يابنتى . لقد أصبحت جدة وشاب شعري
.. هه شابة ..

ومدت يدها الى حفيدها تتلمس رأسه فى حنان وتفرك شعره
بينما مضى الصغير يلعب بأصوات مبهمة فى حلقه . ثم عاودت حديثها
الحزين .. واذا ما انحسرت المياه فى الصيف لابد أن تبحث ياولدى عن
موضع القبر . قبر جدتك . أنت تذكره . وترحم عليها فلکم احبتك
يا ولدى ! أما أنا فقد دنا أجلى ولسوف ألتقى بها بعد قليل فى رحاب
الله ، ثم أستريح .. ووقفت ذاهلا مطرقا لا ادرى كيف أواسيها . بل
لقد كنت فى حاجة الى كلمة مواساة تنسكب فى أذنى ، فرحت أبكى
وانهنه فى صوت مسموع يح حين تذكرت ليلة القدر التى انبلجت لنا
فها السماء فانقلب شعورى كله الى ندم لا سبيل للتغلب عليه .

ثم أطلق أش الله عواءه يدعونا لملاقاته فى طريقنا الى الكتاب .
فقلت من بين دموعى : جميلة . لن أذهب اليوم الى الكتاب . فبانت

الدهشة على وجه أمى وقالت : اذهب حتى لا يغضب الشيخ منك ..
اذهب فذلك سوف يشرح صدرى . وعد فى الحال بعد أن تنتهى لأننى
أريدك . ولحنتى أبكى صامتا . فارتفعت كوعها فوق العنجريب لاهثة
.. ثم دفعتنى دفعة واهنة وهى تأمرنى : اذهب وعد فى سلامة الله .
فلن أرحل قبل أن أراك . وهمست الشقيقة : اذهب ولا تتعبها . وإذا
حدث شيء فسوف نرسل لك لتعود من الكتاب . لا تخف يا حامد ..
إذا حدث لا قدر الله ..

وصدقتها وانطلقت الى الكتاب وترنحت فيه أتمتم بلسانى دون
أن أعى فان ذهنى ظل مشغولا بالألم وهمساتها الحزينة . وحينما انتهى
اليوم انفردت عنهم جميعا . فقد كانوا يتلأأون ويجمعون قطع الحصباء .
ورحت أخطو بسرعة على الرمال وفى قلبى احساس ثقيل يتعثر فى كيانى .
وخلف أذننى اليسرى عرق ملعون ينبض بقوة . وفى ظهرى تماما خلف
القلب فقرة تنز بألم غريب . وفى عيني صورة أمى وشفتيها الذابلتين
اللتين راحتا فى الصباح تصبان فى أذننى كلمات قاتمة عن الموت : لكل
انسان نهاية . وتذكرت أن جدتى أيضا رددت هذه الكلمات . يبدو
أن الناس يعرفون فى آخر أيامهم متى يموتون . فهل عرفت أمى حقيقة
انها ستموت ؟ انها ستبأرحنا ؟ والا فلماذا كررت نفس كلمات جدتى :
لكل انسان نهاية ! ؟

ولأمر لا أدريه رأيت الشمس تظلم فى عيني . والأرض تميد
بى فتسمرت فى مكانى أمام كران نوح .. تماما على حافة الحور الذى
يخترق الهضبة على يمين القصر الأثرى فجلست على كتيب مرتفع
أبكى والريح تعول وترطم بجدران القصر فى نجيب يرتفع ويبعث الرعدة
بين ضلوعى يختلط به صوت الطوفان الخافت وهدير الدوامة وارتطام
الشمندورة الحمراء بسلسلتها ونهيق حمار فى تحويشة والد مصطفى .

وفجأة كف كل شيء . ولف الصمت كل مكان ولم تعد أذنائى
تسمعان الا صراخا عاليا ينبعث من الجنوب ، من نجعنا . صراخا انتزعنى
بقوة فأخذت أعدو وأكبو فوق الرمال حتى أشرفت على مدخل النجع
المائج بحركة دائبة وأقدام نسوة يتحركن متجهات الى خيمتنا . اذن
فانها أمى .

لقد كذبت على يا جميلة .. لماذا ؟ ليتنى لم أذهب الى الكتاب .
ولم أتوقف حين سمعت شريفة تصرخ بى : حامد تعال هنا .

ولم أبال بسعدية ولا بالبسطاوى اللذين اعترضا طريقى بل افلتت منهما
اتجه راكضا الى خيمتنا ، نفس الخيمة التى انبعث منها صوات جميلة
عاليا يشق النجع كله .

ووجدت نفسى فجأة بين ذراعى برعى الذى حملنى حملا وانا
أصرخ وأضرب صدره بقبضتى الى خيمة شريفة التى رأيتها تعدو وبين
يديها صندوق خشبى مزخرف تفوح منه رائحة نفاذة . ولم يتركنى
برعى ، حين انتهى بى الى خيمة شريفة بل واصل ضغطه على يدى
وهو يقول : الصبر يا حامد .. فلكل انسان نهاية .

قلت فى يأس : اذن فقد ماتت أمى . لماذا كذبت جميلة على ؟
وام يجب برعى بل ذرف دمعين سالتا على خده ثم تهاوى الى جانبى ،
وأقلت يدى دون أن يعى فنهضت واقفا ودفعت زنوبة فى صدرها دفعة
طرحتها على الأرض وانطلقت راكضا ، لا ألوى ، الى خيمتنا فى نفس
اللحظة التى كان أبى يندفع فيها وبين يديه قطعة كبيرة من الدبلان
الأبيض فتفاديته ، واندفعت الى الركن الذى اعتادت الأم أن تنام
فيه ، فرأيتها مسجاة فوق العنجريب فى نفس ثيابها ، وعلى ثغرها
ابتسامة واهنة تكاد تنطفئ ، تلقى ظللا غائرة حول عينيها الواسعتين .
ويبدو أنها كانت تريد أن تقول شيئا قبل أن تموت فقد رأيت شفتيها
منفرجتين قليلا .. لعلها كانت تهتف باسمى .

وتخلصت من جميلة وحجوبة وارتميت على صدرها أبكى وأصرخ .
ثم كان الظلام الذى غشى عيني .. الظلام الذى لم أفق منه الا بعد
ساعات عند خالتى أمينه بايا لأجد شقيقتى تطل على وفى عينيها دموع .
فقلت لها على الفور : لماذا تكذبين ؟ لماذا لم ترسلى لى فى الكتاب حتى
أعود ؟ فولولت باكية وهمست : استرح يا حامد فقد أغمى عليك وأنت
تبكى فوق صدرها . ومدت يدها بخرقه بللتها بماء ساخن ودلكت بها
جبهتى ، ثم تلفتت الى شريفة : خلى بالك منه . لا تتركه يخرج .
فالنسوة ينتظرننى هناك . وبارحت الخيمة على عجل ، فاستدرت
الى شريفة وأنا أسأل : أين أمى يا شريفة ؟ وفوجئت الفتاة بالسؤال
فقالت على غير ارادة منها : دفنوها يا حامد واستدركت تقول : رحلت
الى الجنة يا حامد ، ثم صمتت وهى تعض على شفتيها السفلى ، بينما
انتابنى احساس غريب بأن جسدى خفيف يكاد يطير فى جو الخيمة ..
الجو الذى تلاشى فيه كل شئ غير عيني واسعتين ، عيني أمى تحدقان
بينما العويل يعلو فى النجع كله يتخلله ترنيم خافت خلته هابطا من
السماء .

وتحسنت حالتى بعد اليوم السابع ، بعد طقوس الرحمة .
فأخذت ألح على شقيقتى حتى صحبتنى معها الى القبر : أول قبر فى
موطننا الجديد ، أول قبر سيصلى الناس امامه صلاة العيد والذي
ستنتشر حوله القبور عاما بعد عام .

ووجدت التربة مبتلة . فقد اعتادت شقيقتى أن تزور أمها كل
صباح تصب الماء على القبر وتروى صبارا لم ينبت بعد . ووضعت
يدى على الشاهد أرتل آيات من «سورة يس» وعند كل مقطع كان جسدى
يرتعش ، كل كلمة كانت تخرج لاهثة متقطعة منداة بالدمع خافتة
لا تصل الى اذنى . ثم تبدت لى العينان الجاحظتان فرحت أخط السور
والآيات حتى لكزتنى شقيقتى وهى تقول : هيا .

وفى الطريق عند كومة من الرماد ونحن نكاد نتعطف الى صفوف
الخيام تعثرت وكبوت على الرماد كبوة حاولت أن أنهض بعدها عبثا ،
فقد تيبست ساقى اليمنى وانكبت جميلة على تحملنى باكية الى خيمتنا .
فتلقانى أبى باكيا ومضى يلقي حراما ثقيلًا على جسدى المرتعش .

ومضت الحياة من حولى وظهرى ملتصق بالعنجريب . صاخبة
فى القرية بما جد عليها . رتيبة مملة فى الخيمة لا يتبدل فيها
شئ كما روت أختى . حتى هذيانى لم يكن يتغير . كلمات
أمى وشذرات من أحداث حياتى . . لكل انسان نهاية . ثلاث مرات
امام المحاكم . حتى أبى أخذ يطل على مرة فى الصباح وأخرى فى المساء
ينصرف بينهما يستشير الناس ويجلب الوصفات والعقاقير المختلفة :
شيخ . . حرجل . . بخور وينسون . وتعاويد لا تقع تحت حصر .
وأختى لا تبارحنى . وإمينة بايا تلصق لبخة القرطم بجبينى . بينما
حجوبة تعد وجباتنا . وتجلس بيدها على جبهتى وترتد والهة تتمم .
لقد اقتنعن جميعا ان مسا من الجن قد أصابنى فى بدنى وروحى . ألم

أنكفىء على كومة الرماد قبل رقدتى هذه ؟ أليس الجان يتخذون من
الرماد مسكنا لهم ؟ بلى انهم يسكنون الرماد وفوهات المداخن ..
يسكنون فى كل ماهو نار . فى كل ماهو متخلف عن النار .

كنت أصحو من غيبوبتى أحيانا لأجد مصطفى أو سرورا يقفان
صامتين على رأسى ، ثم ينصرفان ليحل بعدهما برعى والمحامى
وأش الله وبكر وصالح رفاق النجع يشجعوننى على ازدراد ملاعق
الثريد الساخن ، لأغفو وأهذى بعدها بكلمات متقطعة : المدرسة ..
تحويشة الجزار . سعدية . أين بطة ؟ تعالى يابطة . ومن حولى
أحاديث فى الخيمة أعى منها القليل وأخرى فى طرقات النجع لا أفهمها.

ولا أدرى من الذى أشار على أبى ؟ ، فقد دخل على يوما يصحب
رجلا غريبا أبيض الوجه على سحنته آثار غبار وفى عينيه حمرة مصفرة
غريبة تبعث الرعب . قلبنى هذا الرجل على بطنى . ثم مضى ينقر على
ظهرت ويقيس الأبعاد حتى توقف بأصابعه عند موضع قال بعده : هنا
ياشيخ أمين . الى بمجرة .. فأعدت له على الفور . فانكفاً عليها ينفخ
فى النار وقد دفع اليها برأس مسمار غليظ مضى يحمر حتى بدا مثل
جمره ملتهبة . اندفع به فى سرعة الى ظهرى فوق نفس الموضع الذى
أشار اليه . وهو يتمم : بالشفاء ياولدى .

وشعرت بالنار تلهب ظهرى فأطلقت صرخة عالية ألت بى بعدها
غيبوبة طويلة ورعشة متصلة . ثم أفقت أفتش عن الرجل مرعوبا
خشية أن يدهمنى مرة أخرى بمسماره النارى . وقد زارنى الرجل
مرتين بعد ذلك أدركت فيهما أنه من البنائين الذين وفدوا على القرية
منذ أيام وملئوها بالصخب الذى أخذ يتعالى .

فعلى المراقىء الرملية الجديدة كانت بواخر الدلتا الطويلة السوداء
ترسو وتصب فى القرية ألوانا شتى من الرجال . فلقد بر بأشرى بوعده
فازدحمت قرية الخيام بالمقاولين والبنائين والنقاشين والحجارين .
نفس العمال الذين عملوا فى تعلية خزان أسوان ، بل لقد حضر بعضهم
بناء خزان جبل الأولياء ومكوار . وجميعهم من قرى أسوان الشمالية
أو من قرى قنا الجنوبية وبالذات من الكلح .

كانوا يديرون الكلمات فى حلوقهم يلبثون بها هناك ثم يطلقونها على
الألسنة الى الشفاه فتخرج مفرطحة خشنة مدغمة لا يكاد يفهمها الانسان
وزاد من غرابة الفاظهم ومخارجها تلك الشوارب الكثة والأصوات العالية
التي تنحت الكلمات وتمر ببعضها من خلال الأنوف .

واخذ كل انسان في قريتنا يتخير مكان بيته ويتفق مع المقاتل .
ومضى العمال يدبون في كل مكان ، ينسفون الصخور بالألغام ويقتلون
منها احجارا يكومونها في مكعبات كل متر بسبعة قروش . وأمتلا جو
النجع برائحة البارود ودوى الألغام . بينما انطلق آخرون يعدون المونة
من الطين والمفرة الحمراء والصلصال .

وعرفت النجوع ألحانا غير ألحاننا وكلمات أغان غير كلماتنا ...
اسنا وكوبرى اسنا .. خبطنا الهوا نعسنا . اللي شبكنا يخلصنا ..
ولا تكف الأغنية الا لتتلوها أخرى : سلم على ، ثم يتغير اللحن ويهدر
حينما ويلهث ثم يعود الى الصفاء الحزين يخطر وينداح فوق الهضبة
وبين الخيام ويعبر بالعمال وهادا وجبالا الى أحبابهم في القرى التي
هجروها .. أيا ناعسة وخبريني ع اللي كاتل ياسين .. ع اللي كاتل
ياسين .. يابا .. يابا ع اللي كاتل ياسين .

ماجت الرمال بهم وتجمع الناس في الاصائل يتفرجون على
التحطيط . يحاولون تعلمه على أيدي الوافدين معجبين بجلدهم ولهوهم
ساخرين من لهجاتهم .

وفي إحدى صحواتي من غيبوبتي مضيت أتساءل : وابن حسن
المصري ؟ فأننى لم أعد أراه منذ أيام طويلة . وعرفت أنه قد رحل
وهجرنا الى الأبد . ترك القرية خلصة في إحدى الليالي ولم يعد اليها
من جديد . شريفة وحدها التي كانت تعرف قصته الكاملة . القصة
التي جعلته يهجر قرية عاش فيها ردحا من الزمن .

فقد كانت في تلك الأمسية في مطلع الليل تتكئ على عنجريب
وتطل من فرجة أحدثتها في بوص خيمتها على المساء ، والرجال الذين
كانوا يروحون ويجيئون . وطفقت تحلم وتتصور حياتها وما ينتظرها
في المستقبل وفي قلبها غموض كانت الأمسية ذات الهلال الباهت توحى
به .

وفجأة ، وأمام عينيها الشاخصتين من خلال فرجة البوص تلاقى
شبحان توقفا حين وقعت العيون على العيون كأن شيئا ما يشدهما .
عرفت هي أولهما ، فهو حسن المصري ، أما الثاني فرجل طويل القامة
عريض المنكبين حاد النظرات . عرفت فيه واحدا من الحجارين الجدد
الذين وفدوا على بواخر الدلتا منذ أيام . وأحست في صوته الخشن
غلظة لم تعهدها ، فقد ارتفع به قائلا : حسن ! أخيرا تقع عيناى عليك .

وتردد حسن لحظة ثم قال : من انت ؟ .

— من انا ! أنسيتنى يا حسن ؟

وصمت متحفزا ، ثم قال ، وهو يدنو ويده تعبت في جيبه : اذن فانت هنا يا كلب ، ونحن ندوخ في البحث عنك . وتراجع حسن خطوات حتى كاد يسد فرجة البوص . وهتف في صوت راعش خنقته المفاجأة : حمدان ! حمدان !

— نعم حمدان غريمك . الدم غالى يا حسن ولو بعد عشر سنوات .

— أخوك هو الذى اعتدى على شرفى ولطخه يا حمدان .

— وقتلته ثم لذت بالفرار . الذين يقتلون من أجل الشرف لا يهربون يا حسن الا خسيس مثلك .

— أما يكفيكم ؟ لقد قتلتم ابن عمى وأخذتم بالثأر .

— أبو القمصان ابن عمك . هذا ما تقصده يا خسيس .. جزمة ابن عمى زين الرجال « برقية » أبو القمصان .

وبدا واضحا أن حسن المصرى كان يتراجع الى الخلف ريثما يستعد لملاقاة عدوه فقد لمعت سكين حادة في يده في نفس اللحظة التى كان الآخر يرتفع فيها بخنجر يسدده الى قلب حسن المصرى ، تفاداه ثم عادا يتشابكان . الا أن شريفة كانت قد أطلقت صرختها الداوية المرعوبة . صرخة جاوبتها صرخات أخرى اندفعت بعدها الأقدام من كل مكان .. أقدام رجال النجع والعمال حتى ازدحم بهم النجع . وحيل بين حسن وغريمه وسبق حمدان الى خيمة العمدة . أما حسن المصرى فقد اختفى . وشريفة هى التى فتحت له باب خيمتها ومنها قفز الى أخرى ملاصقة حتى اختفى فى خيمة برعى .

وادرک أبى كل شيء فكلف برعى الذى ذهب به الى مقبرة فى التلال . بعد أن سلمه أبى جنيهات خضراء يستعين بها على الهروب .

وقيل بعد ذلك أنه زار البيضاء فى الليل قبل رحيله . وقيل أنه عبر النيل بقارب ، لينزل عند الأعراب فى رحاب الجبل . وأنه شوهد فى الليل يضرب فى شعاب التلال الغربية . قيل شيء ثم ردد نقيضه فى نفس اللحظة . بينما أبى وبرعى والشيخ فضل يكتمون سرهم ويسخرون من الناس وأشاعاتهم .

لقد اختفى حسن المصرى تماماً بينما أطلق سراح حمدان الذى أمره العمدة بمبارحة القرية على الفور ، فمضى الى الجنوب يبحث عن غريمه .

ولم يدر برعى ولا جمال مالذى أصاب شريفة فى الأيام الأولى بعد هروب حسن المصرى ؟ فقد عاشت ساهمة وإجمة لا تقرب زادا . تطرق الى الأرض ولا تجيب على أسئلة الناس الا بكلمات مقتضبة غامضة .

وأخذ الناس فى النجع يتحدثون عن حسن المصرى وشهامته ويردون حكايات تفيض بالدم والسرقات وثلم الأعراض وأبطالها هؤلاء الوافدين . . حكايات أشعرتهم بالحذر والخوف من الذين يكدحون أمام أعينهم لبناء بيوتهم . وقد حفزهم الى مزيد من الحذر والخوف تلك القصة الغريبة التى تلاها المحامى على مسامعهم فى احدى الأمسيات قبل منتصف الليل والقمر يكاد يغيب ليترك النجع فى ظلام دامس لا يبده الا فانوس باهت يتدلى من حبل أمام المتجر .

تفرس المحامى فى وجوههم ، فوجدهم متحفزين لسماع قصته فقال : فى وادى العرب بعد كرسكو ، اعتدى واحد من هؤلاء الحلب على أرملة شابة . . كان الرجل هو الذى يبنى بيتها . وقد بناه فى شهر واحد . كانت الأرملة الشابة خلاله تشجعه وتكافئه ببسمة وبشاي تقدمه فى الصباح وعند الضحى . قال لها مرة . أنت حلوة . . فقالت : يا سلام أنت رجل شهيم . فلعب الشيطان برأسه وتمنى لو استندفاً بين أحضانها فى الليالى الباردة وراحت الأرملة تسخو عليه . فصاح نوح : بنت الكلب : تستحق القتل . .

وصاح به فضل : أسكت يانوح . دعنا نسمع الحكاية لآخرها . .

فتنحنح المحامى مرة أخرى واسترسل : وفى اليوم الأخير ، اليوم الذى انتهى فيه الرجل من بناء بيت الأرملة فى مكان منعزل عن خيام الناس وبعد أن تفرق عماله ، اقترب الرجل من الأرملة يقول لها : مسكة . قالت . . نعم . وابتسمت ابتسامتها الناصعة ، فجنى جنونه واندفع اليها وأمسك بيدها بقوة لم تحتملها الا أنها تجلدت وقالت : اننى أعرف ما الذى تريده ، ولكن دعنى أتهياً لك . . وانصرفت الى الحاصل ، وهو يتابعها ثم أغلقت الباب دونه وهى تهمس : أتركنى حتى أتهياً .

ومضت تتحرك في الحاصل تسأل نفسها : رباه ماذا أفعل ؟
وأحست بعينيه تلتهمان جسدها من خلال ثقب وأسع في الباب فقررت
أن تستمهله لحظات ريثما تصل إلى حل فأخنت تتعري من ثيابها
والرجل يتابعها بنظراته ويلهث قائلاً : افتحي يامسكة . لكنها وقفت
في « الطشت » ومضت تصب الماء على جسدها الأسمر المدملج ونهديها
الصلبين - فقد كانت ما تزال شابة صغيرة ، مزهوة بقوامها اللدن
الجميل .

وأخذ الرجل الذي سمر عينيه في ثقب الباب يصرخ : افتحي ،
ويطرق على الباب طرقات عالية . فخرجت من « الطشت » فجأة
وتقدمت إلى الباب ترفع مزلاجها وتفتحه قليلاً فأطل برأسه من خلال
الفرجة ...

ولم يتمالك نوح نفسه فصاح : بنت الكلب العاهرة . أهلك
نفسها الفاجرة .. أسكت يانوح . أطل الرجل برأسه ومد يده يريد
أن يوسع من فرجة الباب ، لكنها تشبثت بقبضتها على الباب تدفعه
دفعاً ، حتى حشرت رأس الرجل بين ضلفة الباب والجدار .. نفس
الجدار الذي بناه . وراحت تضغط وتضغط والرجل يصرخ صراخاً
عالياً مائثاً أن خفت حين أهوى على الأرض جثة أرسلت حشرة
مروعة ثم كفت عن الحركة .

- يرافو .. ست مجدع .. ياسلام ..

قالها فضل وربت على ظهر نوح وهو يهمس : رأيت يانوح .
إياك أن تتركهم يعيشون بمندوهة .

وتحفز البسطاوى عند سماع هذه الكلمات فانصرف حتى يكون
في حراسة سعدية بينما عاد جمال إلى خيمته ليطمئن على زنوبة وأخته
شريفة .

وراح فضل يسأل : وماذا جرى لها بعد ذلك يامحامى ؟

- أبداً لا شيء . جاء أبناء نجعها وألقوا بجثة الرجل في النيل ،
ثم شاعت قصتها ، فتزوجها ابن العمدة .

ثم قصة من هنا وأخرى من هناك عن السرقات والقتل والاغتصاب حتى دب الدعر في القلوب الا أن المسألة ظلت في قريتنا مجرد قصص ونوادير حتى كانت ليلة سرق فيها متجر اختى وهى ساهرة على فراشى فى نجعنا تذرف الدمع ولا تبارحنى تاركة شعبان وحده هنالك .
كان شعبان ساهرا مع شقيقه ثم عاد ليكتشف أن كل شيء قد ضاع .. الفلوس . الأقمشة . السكر . كل شيء .

هنا تنبه الناس . وبدؤوا يتجمعون ويتخذون وسائل الدفاع عن انفسهم . ولأول مرة استندت البنادق محشوة الى جدران الخيام . على مقربة من صفائح الجاز فى بعض الخيام المتلاصقة . واخذ الشبان وعلى رأسهم برعى يتناوبون حراسة الخيام بالليل وبالنهار بينما البارود يفتت الصخور والأغاني ترتفع فى كل مكان . حتى انهم لم يصدقوا أن هؤلاء الرجال المسالمين العاملين فى بناء بيوتهم يمكنهم أن ينهبوا خيامهم ، فنشأت صداقات ، وضحك الناس كثيرا رغم التحفز والترقب .
وبرز بيت من بين الخيام ، ثم ارتفع غيره ، ومضى الناس يستحثون عمال البناء : أسرعوا . قبل أن يأتى الصيف وتنحسر المياه .

وجاء الصيف ومعه كانت قد ارتفعت بيوت عشرة غرت من سحنة الرمل المربد .

ومع الصيف كانت الجفون الحديدية الغليظة المسدلة على عيون الخزان ترتفع لتسرب مياه الفيضان من خلالها الى الشمال . ومع كل جفن يرتفع كان النيل يطامن من كبريائه وشموخه ويستدير ليتجه الى الشمال فى خطى واهنة فى اول الأمر ، ثم فى خطى هائجة مائجة تهدر عند الدوامة وتهز الشمندورة الحمراء بعنف بالغ يجعلها ترتطم بسلسلتها الغليظة التى تشدها الى القاع



٥١

وكرت فترة من الزمن منذ أن كان الطوفان والناس يلحقون جراحهم . كانوا مثل جيش تيدد في قلوب وتشرد على رمال الصحراء . ثم تحرك الأفندية في القاهرة وتحرك الرجال في كل مكان ، فترددت العبارة التقليدية التي تصدرت منذ تلك الأيام بيانات وشكاوى النوبيين . . دولتو . . بعد فروض الاحترام . . نحن منكوبو التعليه الثانية . . ثم تعرض المشكله في كلمات دامعة متوسله . والنهاية : طلبات رى أو الحاق ابن بوظيفة أو اعاده فتح مدرسة اغلقت أو بناء مستشفى . كل انسان كان يكتب : نحن منكوبو التعليه ثم ينتهى الى مطالب ذات شأن أو أخرى لا قيمة لها في نظر المسؤولين . لكن الناس جميعا منكوبون ولا حق لأحد أن يحرمهم من هذه الصفة .

ويقولون أن سيد وابور طفق يجوب التجوع وبرفقتة برعى والمحامى وأحمد محمود .

وانهم توقفوا مرة عند خور في أبريم يشق الهضبة يجادلون في قيمة البئر التى يحفرها بشير عثمان في الجبل . وارتكزوا مرة أخرى على حافة الخور الذى يجرى منحدرًا الى النيل على كتب من كران نوج ، وتأملوا مليا في الرمال حولهم وفي الوادى الشرقى الذى انحسرت عنه المياه قليلا ، وراحوا يتحدثون عن المستقبل . قال وابور :

— هنا عند خشم هذا الخور يمكن إقامة طلمبة رى تتخذ من الخور ترعة لها .

وحدق المحامى فى الخور الجاف مليا ثم قال : أليس غريبا أن تشكو هذه الأرض من ندرة الماء بينما البحيرة تترامى أمام عيوننا من الجبل الى الجبل طوال الشتاء .

وضرب كفا بكف ثم اضاف : والغريب أنهم فى مصر يقيمون الجسور لئلا تفوص الأرض !

وأصر وابور على مشروعه ومضى يقول : وإذا ما أقيمت الطلبة هنا فسوف تكتسى هذه الأرض الشاحبة الصفراء بالخضرة ، حتى تلك التلال يمكن أن تغطيها الخضرة .

ورفع برعى رأسه يسأل : ومن الذى يقيم لنا هذا المشروع ؟ وتمعن وابور فى وجهه متشككا ثم قال : الحكومة يا ولدى .. الحكومة قادرة على كل شيء .

قال : أية حكومة ؟ نفس الحكومة التى أغرقت ديارنا ! فاضاف المحامى على عجل : والتى نهبت أموالنا . انها لم تقدم لنا شيئا غير عوامة صحية تربط هنا وهناك مرة كل ستة أشهر . وشعر وابور باليأس وأنهما على حق فى تساؤلهما فاستدرك : قد تأتى حكومة أخرى فهتف المحامى : شهاب الدين ! .. آه لو كان من أبنائنا مهندسون وأطباء !

والتفت اليهما يهز أصبعا فى وجهيهما : علينا أن نعلم أولادنا يا وابور ليصبحوا أطباء وأساتذة فيحترمنا الحكام . فلا سبيل الى الاحترام غير المال ولا حيلة لنا فيه ، وغير التعليم . وضمت لحظة وهو يرمق الحور فى دهشة : ولكن الآباء يفضلون إرسال أبنائهم الى مصر ليخدموا فى البيوت . ينحنون للذى يستأهل والتى لا تستحق وللبيه الكبير والبيه الصغير صغر عقلة الصباغ والست ، والست الصغيرة .

وتنهذ وزفر زفرة حارة ثم أردف : آه لو كان فى وسعنا أن نعلم كل أبنائنا . فسكت وتأمل وجه وابور ليرى تأثير كلامه على هذا الرجل عاشق الماكينات . فوجده صامتا يزم شفثيه فى أصرار فسأله ما رايك يا وابور ؟ قال : التعليم أمره عسير والأسهل أن نعلم أبنائنا فى الورش . وأشار الى أحمد محمود الذى ظل صامتا وأضاف : هذا المسكين لم يستطع أن يكمل تعليمه . فتنهذ أحمد ثم قال : والمصيبة أن حجابة

ترجى الشيخ أمين تريد ارسال حامد ليخدم فى مصر .. والولد شاطر .. كيف حاله الآن يابرعى ؟

— مريض ومازال يهدى . انه لم يعرفنى بالأمس . شفاه الله .

وقال المحامى من جديد : لكن الشيخ أمين لم يقرر شيئا بعد ، وان كان يصر على ارساله الى مصر ليدرس فى الأزهر . لكننى أخشى على الولد أن يموت فانه يذبل فى كل يوم .. نصحت أباه أن يبعث به الى أسوان أو مصر فرفض قائلا : ان الله هو الطبيب .

وقال برعى : لو كان أحمد عودة فى البلد لذهب به الى دكتور . أما أبوه فانه يردد دائما : ماذا فعل الدكاترة لأمه ؟ لا فائدة فيهم ... لقد ضاعفوا مرضها .

ثم أطبقوا شفاههم واستداروا الى النيل يراقبون باخرة بيضاء ذات نوافذ كثيرة تهبط فى النيل قادمة من « ابو سمبل » تحمل سواحا تخلقوا الى آخر الموسم . وقد تبدى على ظهرها سفيرجيان بقفطانيهما والحزام الأحمر الملفوف حولهما ، فتابعوها بعيونهم حتى اختفت فى محاذاة المنحنى . ثم عاد وابور يتكلم عن الورش وهجر الخدمة فى البيوت وعن التعليم وعدد الصغار المؤهلين له فى الكتاب . وقبل ان ينتهى من أسمائهم هتف برعى وكأنه يفيق من حلم رهيب .

— كله الا الخدمة فى البيوت . افضل الموت هنا جوعا فوق هذه الصخور على اذلال نفسى . السادة يوقظوننا هناك ، كما يقول جمال ، بأجراسهم فى منتصف الليل ويبددون حلاوة النوم ، ويجبرونك على حمل أحذيتهم . كلا ليس فى وسعى احتمال كل هذا الدل . أما الذين يقبلونه فانهم أذلاء .

وأسرع أحمد محمود يتكلم ليرده الى صوابه : ليسوا أذلاء يابرعى . انهم أهلك وأهلك لكنهم مجبرون . لا تعترض . استمع الى كلامى حتى أنتهى . صبرك بالله .. بعض الناس يابرعى يأكلون لحما نافقا اذا ما عضهم الجوع بنابه .. قرأت يا وابور ان الناس فى الصين حين المت بهم المجاعة .. ناس مثلى ومثلك .. أكلوا لحوم أخوتهم . عرق الجبين الذى يكسب مليما شريفا ليس معيبا مهما انحنينا وحملنا للناس أحذيتهم وتحملنا مبادئهم .

وصاح برعى : ولكننى لا أكاد أتصور نفسى منحنيا أمام كلب ..

وتدخل وابور : الا تذكر كيف سافر جمال الى مصر ؟

— ومع ذلك ظلت أمه وشقيقته جائعتين . أتريد يا أحمد أن تذلنا؟

— ماشاء الله يا برعى . أنت مازلت شابا صغيرا مثلى لكنك لم تجرب مصر . انما أردت أن أبين أن الناس الذين ينحنون مجبرون .

واختتم وابور ساخرا منهما وقال : علام كل هذا الجدل . اننى الملح نذرا لمزيد من الهجرة للخدمة فى بيوت القاهرة وفى الحانات والمرقص . . فى كل مكان مشردين .

وصمت ثم أضاف : الجوع كافر يا برعى وأكفر منه صراخ الأطفال الجياع . وقال برعى فى زهر : مازالت فلوس التعويضات فى جيوبنا حتى نجد مخرجا . فهمس المحامى فى قهر : سبتان وتنتهى الفلوس ثم نعود الى البواخر تحملنا الى مصر جياعا . وعلى كل فان الناس الذين يخدمون فى البيوت ويمدون يد العون لذويهم أناس يستحقون الحب والاحترام . ولا شئ غير ذلك . ونهض برعى واجما . وتركهم على حافة الحور ، وهام فى شعاب الهضبة حتى يتسلل الى خيمتنا ليزورنى .

وقف ذاهلا أمام فراشى . وفى عينيه بريق غامض ودمعة يحتجزها اكراما لرجولته ورحمة بى . فقد كنت لا أزال مستلقيا على العنجريب . أهذى ولا أدرك الا قليلا مما يدور أمام عيني حتى بات الناس خيالات باهتة تختلط رعوسهم وكلماتهم وحركات أقدامهم بأعمدة الخيمة وسحب الدخان .

اتسمعت عيناى وتضاءل وجهى وازدادت ساقى تيبسا فبت لا أستطيع تحريكها . وما من علاج الا الرقى والتعاويد وجرعات من الينسون وحلث البر .

ثم جاء الشيخ مدبولى . وبرعى لا يزال فى خيمتنا . وجس بيده جبينى واستمع الى رواية أختى عن الحادث وكومة الرماد . ثم رفع رأسه وتفرس مليا فى وجه أبى وهمس : أقول لك يا أمين أم أنك لن تصدقنى مثل الآخرين ؟ فلب الذعر فى وجه أبى : ماذا يريد الرجل ؟ ماذا يعنى بسؤاله ؟ أيموت الولد يا مدبولى ؟ أفصح يا رجل . . قل لى أنه يموت والأمر لله . الأمر بيده سبحانه وتعالى . ثم رفع صوته وهمس : هيه يا مدبولى اليس هناك أمل ؟ .

وقال الشيخ بعد أن هز رأسه : لاشيء ولكن الشفاء بيد الله . وماذا يملك العبد غير الرضى بحكمته . فابتلع أبى ريقه وهمس : اننا نعتمد عليك . أعدلى ولدى .. فلم يجب الرجل الا بعد أن غمغم بكلمات مبهمه .. قال : سأفعل ما يريد الله وليست الامن عبيده . فهتف أبى فى يأس : كل شيء بأمره يا مدبولى . الا تستطيع .. فتمهل الرجل وتأنى بينما اخذ أبى يذرف الدمع صامتا ، بينما الشقيقة تحديق فى الرجل جامدة الوجه تمنى أن يقول شيئا يريحها من العذاب الذى يفترسها منذ شهر .

وأخيرا حرك الرجل شفتيه وقال : شفاء ابنك يا أمين فى شيء بسيط . وصمت ريثما سبج باسم الله وصلى على النبى وزاد الأمر وضوحا : بيضة واحدة يا شيخ أمين ، ان الله يضع سره فى أضعف خلقه .. جنى دجاج .. ويزول المرض !

وكفكف أبى دموعه ثم صاح فى جميلة : مالك تقفين حائرة ؟ ألم تسمعى كلامه ؟ اجمعى له عشرين بيضة . فأرسل الشيخ ضحكة خافتة وقال : بيضة واحدة .. ولكن من فرخة سوداء نوحى . وتفرس أبى فى لحية الرجل وقال : الفراخ السوداء كثيرة ! هيا يا جميلة . فتهيأت هذه للخروج من باب الخيمة الى حظيرة الدواجن . فاستوقفها الشيخ يقول : سوداء لا يعكر سوادها أى لون .. تضع البيضة التى أريدها فى صباح يوم من أيام السبت ما بين الفجر والضحى . ليس قبله وليس بعده !

وارتسم الوجوم على وجه شقيقتى فتبدت ضائعة لكنها تحركت الى الخارج تستشير خالتها . خرجت وهى تهمهم : جدتى ثم أمى . ثم ... وكفت عن ذكر اسمى ، خرجت تذرف الدمع بينما اتجه الشيخ الى أبى يأمره : ومع البيضة ، نحن فى حاجة الى ورق عنب . ابحت عنه فى كل مكان والشفاء بأمر الله ، وست صفائح فارغة نظيفة وهون ويد هون با أمين ، من النجاس !

وقلب أبى شفتيه ، ومضى يسأل الناس عن ورق العنب . لقد أغرق الطوفان كل تعريشة للعنب الا فى بعض الجهات المرتفعة .. فأين يجد تكعية ؟

وكر يومان .. ثم يوم ثالث وأنا لا أزال أهذى وأضحج بالألم ..

بينما يد الشيخ تتلمس رأسى • ثم رنت ضحكة مرحة قصيرة أطلقتها جميلة وهي تتلقى شريفة بالأحضان فقد عادت من عاقية من عند خالة أمها وبين يديها فرخة سوداء نوحى لا أثر للبياض أو أى لون آخر في ريشها • وانطلقت ضحكة أخرى في اليوم الرابع حين عاد أبى من عنيبة في أصيل يوم يحمل غراوتين صغيرتين ملأهما بورق العنب • وصاح في الناس : وجدت شجرة عنب عند جده الحمزلي في عنيبة • وانعطف الى لورد يربت على رأسه ويهمس : كفاك أنينا يالورد ، حامد سيسقى ، فزام لورد ، وهز ذيله وكأنما يعلن فرحته بالنبأ السعيد !

ولمعت يد الهون النحاسية في يد حجوبة فقد أعارها لنا عبده
الفرنساوى •

وتأمل الشيخ في كل شيء وأعلن أنه سيقوم بتطبيب الولد في الحال وارتكز على عجزه وكوم ورق العنب أمام عينيه ، وحط محبرة الى يمينه ومضى يرسم خطوطا غريبة بقلم البوص على كل ورقة من أوراق العنب ، ولسانه يهمهم بكلمات غريبة خافتة يرتفع بها أحيانا ليهتف : أخرج أيها الملعون • أخرج من جسد حامد ابن فاطمة بنت عائشة • • أخرج منه يا رجيم • • ويعود الى همهمته الخافتة ليصرخ • • أخرج منه يا الهى بجاه نبيك ، مره فيترك جسد حامد بن فاطمة بنت بايا ابن أحمد •

وأطل المحامى مرة غير ملق بالا الى غضب الشيخ من فوق رأس مدبولى على وريقات العنب • واستتدار الى برعى يقول • • انه يكتب يا برعى بالسوريانية ، اللغة التى لا يفهم الجان غيرها • لعنة الله عليك يا أمين • ستقتل الولد • • ليت أحمد عودة يعود •

وفرغ الشيخ في ضحى اليوم التالى من وريقات العنب وصاح في النساء يأمرهن ، فمضت جميلة تدق وريقات العنب تعاونها شريفة حتى تحولت الى عجينة خضراء لزجة في خضرتها قتامة كثيفة •

وتأمل الشيخ تلك العجينة ثم هتف مرة أخرى : اضربى البيض يا بنتى • • ثم الى بالصفائح الفارغة نظيفة ، فأسرعت الاقدام هنا وهناك وعادت لترص الصفائح أمام عينيه • فمضى يوزع لقيمات من العجين الأخضر فى كل صفيحة حتى انتهى منها • ثم وزع صفار البيض المضروب بالتعدل على الصفائح الستة وأمر بماء ساخن ملأ منه كل صفيحة وراح يقلب العجينة والبيض والماء الساخن بهراوة غليظة ، حتى أرغت وأزبدت

ثم تنفس الصعداء وقال : الآن يأذن الله أن يشفى الولد . ثم أضاف
أملأها وأنواعا من العطارة وانعطف الى جميلة يأمرها في صوت وقور :
في كل صباح قبل أن تهل الشمس على المعمور وفي كل مساء حين يخرج
الشیطان من بثره المهجور ، أقيموا الولد على عجزه ، ثم ارقعوا كل ثوب
مخيط عن جسده .

وتوقف وانعطف الى فقد أخذت أهذى وألوح بيد محروقة وأحملك
في الوجوه بعينين جاحظتين وأتمتم : لكل انسان نهاية .. سورة النساء
صعبة .. رفعتني الى صدرها .. شبيكة .. لا .. كلا يا حجوبة .. لا ترحلي
الآن . ابعدوا عني هذا التعبان وانكب الشيخ يتلو الصمدية . بينما
انفلتت انشقيقة تبكي بصوت لا يقطع الا ضربات أبي على كفيه . ثم
استكان جسدي حين تصيب منه عرق بارد مضت حجوبة تمسحه بطرف
جلبابها ومضيت أنا أتأمل خيالات الأجسام المتحركة أمامي وأراقب من
خلال فرجة البوص عوامة كانت تجتاز شريحة النيل أمام خيامنا . وواصل
الشيخ مدبولى حديثه من جديد : في كل صباح وفي كل مساء يصب
كوزان من هذا الدواء .. وأشار الى الصفائح على جسده وتفرك
قروة رأسه به . ويلمس به على جسده عاريا ، ثم يرتدى ملابسه ويغطي
بلحاف أبيض .. أسمعت يا جميلة . فهزت رأسها ، وقام هو يغسل
يديه قبل أن يزدرد طعاما دسما أعدته حجوبة وأنا أراقبه في شهوة
عاجزة .

وراح التعذيب الذي بدا لانهايا يفترسني صباحا ومساء .. أمينة
بايا تجمع خيوط العنكبوت وتراقبها من كل خيمة .. من كل مكان ..
حتى من بين جدران القصر الأثري وتزيل قشرة الجرح المتبقى من الكى
بالمسمار المحمى ، وتدميه ثم تذر عليه قليلا من التراب العسالق بخيوط
العنكبوت . ثم تتسلمني جميلة فتعريني وأنا أبدى مقاومة هزيلة وتصيب
كوزين من العفن الذي تعافه النفس على رأسى وعلى وجهها أمارات تقزز ،
وتمضى رغم ذلك في تدليك قروة رأسى بهذا العفن تغترفه من الصفائح
الست ، وتلمس به كل جسدي وتبذل جهدا هائلا في دعك ساقى
المتيبسة . يا الله . كم تتعذب هذه الشقيقة . انها تهمل نفسها وتكاد تكون
قد نسيت زوجها حتى وليدها الصغير تركته عند بنات خالتها لتفرغ لي
أنا وحدى .

جو الخيمة لا يتركه العفن فقد تخمر ورق العنب والاملاح وصفار
البيض وتجمع عليها الذباب في جيوش . ثم انبثق القمل من كل مسام
جسدى فراحت هذه الحشرات تسرح في شعري وتحت ابطي وفوق الحزام،
تنقلت من بين أنامل حنن أتحنسها ، ولم يعد الذباب يفارق وجهي بل
أخذ يتجمع على عيني حتى لم أعد أرى الا من خلاله بعد أن تكل يدي من
مطاردته . ومازال الشيخ مدبولي يروح ويجيء . وما زال أبي يغدق عليه
ويصله في تضرع ولا يبالي بنصائح الناس أن يسافر بي أو أن يلحق
بالعوامة الصحية عند أية قرية ترسو عندها وقد شجعه تحسن ظاهري
بدا في حالتي اذ أصابتني شهية غريبة للأكل دون أن يزداد وزني . لقد
بدأت أختطف الأكل حتى من يد محمود الصغير ولكن ساقى ظلت على
تيبسها لا تتحرك .

ثم رست الباخرة عند المحطة النيلية وعاد أحمد عودة من رحلته
وأقضى اليه اش الله بما حل بي ، فدخل على الخيمة وعلى وجهه وثيرابه
آثار السفر واندفع ليلوي على شيء الى فراشي يتحنس جبينى ليصرخ
في صوت خائق : يا للرائحة الكريهة .. وطاف بعينيه في الخيمة
وأضاف : وما هذه الصفائح ؟ والقمل والذباب ؟ افتحوا الباب . وأطرقت
جميلة برأسها تذرف الدمع وتخشى أن يدخل أبي وخالي مازال يهدر .
قمضت تهمس وتقص عليه انباء علاج الشيخ مدبولي الذي كان يدلف
من الباب في نفس اللحظة . ولم ينتظر أحمد عودة حتى تكمل جميلة
روايتها بل انحنى الى صفيحة وطوح بها بعيدا وبالثانية وبالثالثة حتى
انتهى منها جميعا ، ثم انكب على وحملنى حملا الى خيمته . والشيخ
ذاهل لا ينطق الا بجملة واحدة : ستقتل الولد يا أحمد .. ستقتله
واستدار اليه ، وأنا ما أزال متعلقا برقبتة ، وأمر : أغرب يا مدبولي عن
وجهه وسوف يعيش .. اياك أن تعود .. وخطا بي الى خيمته وأرقدنى
ثم أمر بحمام ساخن لى ألقى بعده جليابا جديدا . ومضى يحرق ملابسى
القديمة أمام الخيمة وهو ينادى . اش الله . أطلب من عوض كنية أن يعد
مركبه .

وأطل أبى على فراشى الجديد وهمس : أودعناك الله يا ولدى ،
واستدار الى أحمد عودة وهمس : حمد الله على السلامة . فأجاب فى
همهمة ثم قال : سنأرحل به الى عنينة فى الحال . قال : استرح من سفرك
حتى الصباح ، فلم يبال به بل قام يسلم على أهله ثم حملنى الى الشاطيء .
واستقر جسدى الناحل على فراش أعد لى تحت « التندة » البيضاء

فِي المركب التي أقلعت بنا تصعد النيل الى عنيبة ومن حولها شيطان الشرق التي أخذت المياه تنحسر عنها ، لتلمع جذوع الأشجار في الظلام حتى تبدت كعيون نائحة تسكب قطرات الدمع في صبر • حتى الجزيرة كانت أشجارها انساقمة قد ظهرت بعد انحسار المياه خضراء تتمايل في ببطء وتتحرك الى الشمال كلما مضت السفينة تجتازها •

وظل أحمد عودة واجما يرقبني في أسي حتى رست السفينة في عنيبة بمحاذاة العوامة الصحية التي اعتادت منذ شهور أن تنتقل بين القرى لتستقر فترة قصيرة من الزمن في عنيبة تعود بعدها الى طوافها • وتفرض الطبيب في جسدي الناحل وعيني الواسعتين وشفتي المتشققتين وساقى المتسببة ثم استدار يصرخ : برابرة • بهائم • الولد يموت ياراجل ! وانحنى على يجس نبضي ، ثم انطلق في سبابه من جديد حتى امتلأ وجه خالي ووجه عوض كنية بالذعر فمضيا يقولان في ضراعة : ما علينا يا سعادة البية •• اننا نعتمد عليك بعد الله • ثم صمتا وقد تركا دموعهما المنثالة تكمل توسلاتهما حتى قال : الولد مصاب بحمى في مصادينه ويجب ألا يأكل شيئا الا عصير البرتقال والليمون • أتسمعان ؟ عصير البرتقال والليمون •

ثم عادت السفينة بي وبأقفاص ملاحها أحمد عودة بالبرتقال والليمون •

وأخذت نوبات الغيبوبة التي ألفتني تقل يوما بعد يوم مع كل جرعة من الدواء أرتشفها وكف هذياني ولاحت تباشير الأمل ترتسم على وجهي •• ثم بدأت أعرف اختي وحجوبة وصغار النجع الذين دأبوا على زيارتي •• فهذا هو اش الله • والذي يغطي رأسه بطاقة مزركشة فصالح جلق • وهذا الشاب الطويل الذي حفلت شفته بشارب غليظ فبرعى • أما هذه فشريفة نواره النجع وهذه الساق هي ساق الشيخ فضل • أما هذا الصدر فهو صدر سعدية •

وفوجئت جميلة ذات صباح وأنا أمد يدا واهية الى رأسها أجذبها الى واحتضنها وأهمس : كتر خيرك يا جميلة •• فلم تجب بل تفرست في عيني ذاهلة ثم تخلصت مني وانطلقت الى خارج الحيمة تطلق زغرودة ممطوطة ملأت نجع الحيام كله • فأخذت أضحك وأستمع الى زغرودتها والى ألحان البنائين وفرقات البارود في الصخور • ثم عادت تتلمس ساقى

ويدي وتملا وجهي بالقبل وتهمم : شكرا لك يارب • الحمد لله سلمت
يا حامد ، يا شقيقى يا ابن أُمى ، ثم تهاوت الى جانب العنجريب تبكى
وتنهنه وأنا أحاول أن أهديء من روعها بكلمات خافتة ثم سكنت وأمالت
رأسها وأسندته الى حافة العنجريب وراحت تنام فى هذا الوضع نوما
عميقا •

ودخل الرجال والنساء وأدركوا سبب ما ألم بها من نعاس مفاجيء •
فراحوا يتهامسون حتى لا يوقظوها •

وانتهى الضحى ثم الظهيرة وهى ما تزال غافية ، ثم انتفضت فى
الأصيل تعد مع نسوة النجع طعاما للناس نذر به أبى منذ أسابيع لله اذا
ما عوفيت •

وانشنت بعد العشاء تطل على حلقة الذكر الهائجة فى الساحة
وتنتشى بصوت المداح الذى أخذ الناس يترنحون على أنغامه فى ضوء
فانوس باهت ألقى ظلالهم الطويلة المترنحة على الأرض •

انحسر الطوفان بعد أن هيمن على الوادى شهورا ثمانية ٥٢
وعادت الأشجار تهتز سامقة ومن تحتها على الأرض ديدان
تزحف فى حركات لولبية متلاحقة بين حشائش طويلة تبوق
فى ضوء الشمس وتمايل مع النسيم فى موجات متصلة • وتحركت
أيدي وعضلات الرجال والنساء والأطفال بعد خمول طويل • لقد وجدوا
عملا يقومون به فأطلقوا العجول وصغار الحملان فى الوادى تجتز النجيل
والحشائش فى شراة ونهم وتسمن تحت بصر الناس لحظة بعد لحظة •

فمن الشاطئ الى السفوح وفى مساحات عريضة وتحت سيقان
النخل ، وعلى حافة الحيران والآبار طفت الحشائش حتى تبتدى الوادى بحرا
من الحضرة المائجة لاتحدها عين ، تنفلت الحملان والحراف بينها فلا تبين

الا بعد أن تشبع • حتى الطريق لم يكن يستبينه المرء الا بصعوبة حتى أن برعى صاح مرة : الحشائش كثيرة • الأرض كلها مغطاة وقال البسطاوى فى حيرة وكيف يمكننا أن نزرع الأرض • • وأجاب برعى : بسيطة • • نجتز الحشائش ونعزق الأرض ثم نزرع • أما الحشائش فعلف للماشية نجفقه للشتاء •

وراحت المناجل والشراشر والفئوس تلمع وازدحمت القوارب والمراكب بأحمال من العلف تعبر بها النيل من الغرب لتكوم فوق سقوف الحيام وعادت المشاجرات بين الناس • فالجداول والبتون والجسور قد طمستها مياه الطوفان • ولم يعد الناس يعرفون حدودا فاصلة بين شرائح الأرض التى كانوا يملكونها • وما من جدار قائم يتعرفون به على الأرض فارتفعت النبابيت وشجرت الرعوس وسيق الناس الى العمدة • أو الى عنيبة فى المركز ثم راحت الفئوس تعمل ، فما هو الا شهر حتى نمت أعواد الذرة عملاقة فائقة الحضرة عريضة • وقد زرعت داريا وشريفة القيراطين وقطعة الأرض المتخلفة عن سقوط دارهما بعد ان حددتها بصعوبة فى نزاع مع أبى حول أرض الخرابة التى كانت تلاصق دارها • ولولا جمال وحب أبى له لما تمكنت داريا من الخرابة وزراعتها • وهامى وشريفة تجمعان الحشائش من بين عيدان الذرة التى نمت دون ما حاجة الى رى ، وعيناها تراقبان زنوبة التى ارتكنت على صخرة كبيرة تعجل عينيها فى الحضرة الطاغية من حولها ، وعلى وجهها نضارة جدتها هذه الحضرة ووعود جمال بالرحيل وها هو برعى يتوقف عندها لحظة : يا ست • النبى قبل الهدية • أول بلحة حمراء فى الوادى • خذى • فاستملحته • وتقبلت هديته باسمه وودت لو تحدثت معه قليلا • الا أن الحجل ابتعد به وهى ما تزال تمضغ ليتوقف وينادى : شريفة • • خذى • • أول بسر أحمر • • خذى واحدة • فاخطفتها من يده وقسمتها نصفين ناولت شطرا منها لأمها وهى تبتسم فى دلال : داريا • هدية من برعى • • ثم انحنت على ساقها تصرخ : يا لله • هذه الديدان التى تتسلق ساقى • ونفضت ساقها ثم أسرع الى جمال الذى كان ينوء بحمل ثقيل من الحشائش غطى رأسه ورقبته ، يسير به متقوس الظهر الى الشاطئ ومن خلفه البسطاوى وسعدية التى اكتفت ببطنها المنتفخة بجنينها •

ومر شهر والناس يكدحون على الضفة الشرقية يتأملون فى زهو عيدان الذرة التى استدارت كيزانها • ولا يعودون الى الضفة الغربية الا حين المساء ، عابرين النيل بالقوارب والفلاثك والمعديات • وعاد

بالدفء يبعث نقراته ، يصاحب المراكبية الذين مضوا يتغنون بخضرة
الوادي وسمرة العذارى . وتناسى الناس آلام الطوفان ، فالحضرة الباسمة
وأعواد الذرة الفارحة والنخيل المطوقة جيدها بالبسر الأحمر والنيسل
والجزيرة التي تبدت باقة خضراء عائمة في النيل .. كل ذلك قد بعث
السلوى في قلوبهم فراحوا يتوقعون محصولا وافرا بعد الجذب الذي
عاشوه في الشتاء فتمتلئ الصوامع بالغلال والتمر ..

توقف الشيخ فضل أمام حقله يتأمل عيدان الذرة . ولمح من بعيد
رمضان نجار السواقى وصاح به ضاحكا : مسكين رمضان . صامت يدك
عن العمل . فأجابه : تماما مثل ساقك يا فضل . وتضاحكا ثم راح فضل
يقول : لا سواقى ولا شواديف .. الأرض امتلأت بطنها بالماء طول الشتاء
وليسست في حاجة الى سواقى ترفع الماء .. ولا شواديف .. ما عليك
يارمضان .. في الشتاء نقيم ساقية في الغرب . وأشغلك صنبيا تحت
يدى فحرج النجار ساقه ومضى يضحك حتى انعطف الى الطريق الزراعية .

واستدار فضل يتجه الى الشاطئ وهناك انغرزت ساقه في الوحل
فهوى على الأرض مرسلا آهة قصيرة ثم تمكن من الوقوف وتخليص ساقه
من الطين وهو يتمتم : عين الحسود .. يالك من حسود يا رمضان ..
اللعنة عليك .. عينك تفلق الحجر ..

وألقي نظرة على النيل وصاح : تعال يا أحمد يا عودة . تعال ..
فلحق به أبى وأحمد عودة . فأشار الى النيل هامسا : انه يعلو في كل
لحظة . يعلو بسرعة غريبة . يبدو أن الفيضان سيكون عاليا في هذه
السنة وأخشى .. ثم حرج حقول الذرة بعين مشفقة - واسترسل :
أخشى ألا نهنا بالمحصول .

ولم يطق أحمد عوده حديث الرجل فقال : أراك يا فضل تتشامم .
- كلا يا أحمد .. قلبي يحدثني .. قلبي الذي لم يكذبني القول
مرة واحدة .

وقال أبى في صوت متحشرج : وماذا نفعل ؟ وهل يمكن أن نخذلنا
السماء مرتين في عام واحد ؟ الله رحيم بعباده يا فضل . ولن يترك
هذه الأعواد البارقة المثلثة تختنق في شبابها . تأمل بالله يا فضل .
أليس هذا من بديع صنع الخالق ؟ فهل يرضى سبحانه ونعالى أن يقتل
ويشوه بديع صنعه يا فضل ؟ . اخذ الشيطان يا فضل . اخذه .

خزفر فضل زفرة حارة صعدھا وهو يحملق فى النيل • ثم ربت على ساقه
وقال :

— الانسان يا أمين أفضل خلق الله ولكنك ترى منهم الضير •
ومجدوع الأنف ومبتور الساق • • والأصم والأبكم والاكتع وعدو
الشمس •

ثم ربت على ساقه مرة أخرى واسترسل فى صوت هادىء بعد أن
تأمل النيل الهائج الثائر يكاد يفرق الجزيرة ويطأ الشطآن الشرقية
والنتوء بقدميه • • اسمع يا أحمد • لماذا لا نعيد بناء الجسر ؟ لقد كسره
الطوفان •

وما الفائدة يا فضل ؟ كلها شهور أربعة أو أقل ويأتى الطوفان
ليكتسحه من جديد •

— المهم يا أحمد أن نتخذ المحصول وليأت الطوفان بعد ذلك •

وهز أبى رأسه وتأمل الجسر المطموس وقال : ولكن بناء الجسر
يحتاج الى مئات الرجال ، وليس أمامنا الا يومان أو ثلاثة • ثم أطبقوا
شفاههم على الصمت حائرين لا يدرون ماذا يفعلون • وأخيراً تطوع أبى
يقترح : المباني يمكن أن تصبر يا فضل • قال : ماذا تعنى ؟ المباني
لا يمكن أن تصبر فالشتاء مقبل • وسكت أبى طويلاً فقال أحمد عوده :
يمكنها يا فضل أن تصبر يومين • فليأت كل عمال البناء ليبنوا الجسر
معنا • وردد أبى فى صوت هامس : ولندفع لهم يومياتهم وزيادة حبتين
وصادفت الفكرة هوى فى نفس فضل وقال : والصغار تلاميذ الكتاب
يمكن أن يساعدوا • فصاحا فى صوت واحد : لكنهم مازالوا صغاراً •

— صغار ! لقد كنا نزرع ونقلع ونعبر النيل عائمين على ظهورنا
ونحن ما تزال صغاراً مثلهم •

وصمنا وكأن الشيخ فضل قد هز كيانهما بذكريات الصبا • ثم
عادوا مع شمس الأصيل الى الضفة الغربية وأصبحوا فانطلقت بهم القوارب
تحمل عمال البناء والصغار الى النتوء الشرقى •

وبدأوا يقيمون الجسر والأغاني والمواويل الصعيدية تملأ الجو : بلد
حبيبي قصاد عيني ومش قادر أعديله • • يختلط بها أصوات ارتطام

الجنوع والفتوس والطين وسرسمات الأطفال وسباب التسوة وهسدير
الفيضان وصوت الشمندورة •

وراحت مندوهة تعد الشاي للناس تحت جذع نخله مصيخة السمع
الى الكلمات الغريبة التي أطلقها البنئون فى الوادى ، كلمات مثل كلمات
حسن المصرى • وعلى مقربة منها ركز أحد العمال فأسه واتكأ عليها واستندار
الى أبى يسأل : متى جاءكم حسن يا شيخ أمين ؟ فتأمله أبى مليا ثم
قال : لماذا تسأل ؟ أأنت من بلده ؟ قال : كلا لكن حمدان ظل يبحث
عنه فى كل مكان حتى التقى به هنا ، وكاد يقتله • وخبط أبى خبطتين
بالفأس ثم همس : الحقيقة أننى لا أذكر • سألتنى متى جاءنا حسن • •
طيب • • متى يا أمين ؟ • • متى ؟ • • كان ذلك قبل أن يولد حامد
هذا • • وردد الآخر : بالضبط فى نفس السنة بعد أن ارتكب جريمته
وولى هاربا تاركا لبدته فى يد الجريمة •

وعادا الى عملهما وسياط الشمس تلهب ظهريهما وظهور عشرات
الرجال والصغار والنساء الذين مضوا يكدحون دون كلل ، يحفزهم
النيل الهائج والزرع الأخضر المتمايل • وراح الشيخ فضل يرمق
المحامي بنظرة قاسية فقد أهمل فأسه وارتقى جذع شجرة عالية تنحنى
على النيل مستغرقا فى أفكاره لا يبالي بريح ساخنة تنشط منذ الظهر
وتسرع من الجنوب الى الشمال ولا بهدير النيل أو بالألحان المتموجة من
حوله • كان يقول لنفسه : وما المصير يا محامى • ألا تتزوج ؟ •

وخيل له فى لحظة كف فيها عن التفكير فى مستقبل حياته أنه يسمع
طلقات رصاص وصرخات نساء هنالك عبر النيل ، حول كران نوج •
فاستدار الى الآخرين فوجدهم راكزين فتوسسهم على الأرض يتطلعون الى
الغرب فى ذهول وانعطف اليه يعبر الجزيرة ببصره ويستجلى الأمر من
فوق الجذع العالى ويميل ويشرب بعنقه • ثم رآه الشيخ فضل يهب
واقفا على نفس الجذع ثم يقفز الى الأرض ويهتف كالمحموم : النار • النار
يا جماعة • • حريقة يا هوه • • يا هوه • • حريقة •

النار • يا الله • • النار ومئات الحيام المتلاصقة • وهذه الريح الساخنة
النشطة • • ثم ازدحمت صفحة النيل بالقوارب تركض بهم الى الغرب
والشمس تكاد تغيب •

القرية لم تعد قرينتنا والنجوم ليست نجوعنا والحيام ..
 كل شيء لم يعد لنا فالنار تحتدم في كل مكان ، وصفائح
 الجاز تنفجر وتنفذ بنفسها في الهواء ثم تهوى في بقع
 متطايرة من اللهب وتقفز ناجية بنفسها من خيمة الى أخرى ، فيشتعل
 العلف الجاف ويحترق التبن المكوم على السقوف في أزيز . وتجف العصارة
 في فروع الأشجار ثم تلتهب لتتفحم ، وفوق كل ذلك بنادق ينطلق
 رصاصها في كل اتجاه . والناس يهرعون هنا وهناك وقد تدلت شفاههم
 السفلى ولمت عيونهم ببريق الغضب واليأس وسطعت جباههم بالعرق
 الأحمر ينعكس عليه اللهب فيبرق . أيديهم تتشبث بدلاء الماء وأكياس
 الرمل يقذفون بها في النار التي مضت تسرى من خيمة الى أخرى حتى
 تكونت في لحظات قصيرة قرية من اللهب تضطرم وتنفخ أوداجها مع الريح
 المسرعة من الجنوب ثم ينبطحون على الأرض يائسين يكبشون في التراب
 ويزدردونه دون وعي ، ويطلقون صرخات مرعبة تشق الفضاء وتختلط
 بصياح التعاج والحدير والأبقار المربوطة في حظائرها في قلب النار المتقدة .
 لورد وحده هو الذي استطاع أن ينقذ نفسه من خيمة كان يأوي اليها
 فأخذ يرك بساقه يجري مبتعدا عن النار التي اشتعلت في ذيله وها هو
 يتهاوى بعد أن أطلق نباحا كعواء الذئب على الأرض ويرفع رجليه الى
 السماء مستسلما لينام نومته الأخيرة .

الأنفاس تتقطع واللهاث يهدر بين الشفاه يشوه كلمات ظل الرجال
 والنساء يطلقونها : استغفر الله . أتسب الله يا رجل ؟ . اتق غضبه .
 فلوسى . تعويضاتى . لماذا تركتنا يا رب ؟ . يارب .. يا رب .. كلا
 اتركونى لا شأن لكم بى . دعونى اقتحم النار .. انها نارى وليست نار
 أحد . لا تحرمونى من النار .. يا بنت الكلب .

قطرات البترول المشتعل تتساقط على الصخور فتشتعل هي الأخرى .
حتى الرمل أصبح يشتعل . وها هي داريا تعدو خارجة من خيمة النيران
وبين يديها علبة صفيحية تحرقها فلا تبالي . تحرقها فتضغط عليها
بشدة . على الجنيحات الخضراء التي تبت لها بعد أن دفع جمال للمقاول
والبنائين وبعد شراء بعض الحلى والمصاغ لنفسها ولشريفه . . اليد تحترق
لكنها لا تبالي بل تتلفت هنا وهناك في حذر حتى لا يراها أحد ثم تنهاوى
على الأرض . وتركز العلبة فوق الرمل الأصفر وتعالجها حتى تفتحها .
ثم تلم بها اغمأة بعد صرخة هستيرية تطلقها . . لقد احتك الهواء بلمس
العلبة الداخلي الملهب ، بالورق الملهب . . فاشتعل ورقة ورقة أمام
عينها . وها هي تنهض تهذي وتسب زنوبة وجمالا وشريفة . وتكبر
يديها توجهما للسماء . انت فعلت بنا كل هذا لماذا ؟ ماذا جنينا . ولم
يبال بها أحد . فقد أخذوا يجتازونها يحملون أكياس الرمل ودلاء الماء .
ثم تنبعت لطرحتها المشتعلة وألقت بها بعيدا وهي تحس بوخز أليم في
يديها تراحت تتأوه وتستغيث منطربة على الأرض . فانكبت عليها
شريفة وزنوبة تناديان : أمام . أمام . فداك يا داريا . . ثم حملتاها الى
ركن في بيتها الجديد . بيت لم يكتمل . لم ترتفع كل جدرانها بعد . كل
الناس يتجهون الى الشمال مع الريح مبتعدين عن خيمتنا وخيام بعض
الناس حولنا فانها لم تمس لأنها في صف آخر ، بينما الصفوف الأخرى
تلتهب ، وها هو العمدة يمر أمام خيمة المتجر بركوبته ويصيح : ابعدوا
صفائح الجاز والزيت والبنادق . لا تتركوا شيئا فوق السقوف ، ثم
استدار ينادي : عوض . . عوض يا كتيه . أطلب المساعدة من ابريم
وأنت يا اش الله من عافية . أما أنت يا برعى فواصل عملك بارك الله
فيك . فقد كان برعى يجرى من الشاطئ الى خيام النار في سرعة وقد
تدلت من حبال على كتفه صفائح ملأها بالماء يقذف به في النار . . ثم
يعود . توقف حين رأى العمدة واستمع الى كلماته وأخذ يعدو . لكن
ها هي فضيلة تمسك بعلبة معدنية مثل داريا وتجري بها لترتكز على
الأرض فلمحها برعى وهتف : فضيلة . لا تفتحي العلبة . ألم تعرفي بما
حدث لداريا ؟ اسرعى بها الى الماء ، فنهضت ومضت تجرى حتى ألقت
بنفسها في النيل عند الجرف تغوص بالعلبة التي بين يديها في الماء
وتضغط عليها بجلبابها حتى بردت العلبة فرفعتها أمام عينها وتأملتها ،
ثم راحت تدللها ثم ارتفعت الى الشاطئ تفتحها لتقع هي الأخرى بعد
صرخة هستيرية ، فقد اكتشفت في العلبة أوراقا وجوابات كان الشيخ

فضل يحتفظ بها • أما الفلوس فلجنة الله على العلب المعدنية كلها •
واجتازتها واحدة تجرى وقد حملت بيديها مخدة تهشكها وتغنى : لولو
•• لو •• لولو •• يا بنتى •• ثم تهاوت على الجرف فاقدة الوعي • دون
أن يتنبه أحد لصراخها • فالنار ما تزال تضطرم وترتفع تلالا عالية حمراء
بلون الدم ، حمراء مثل جهنم ، ترتفع فوق الخيام التي راحت تأكل
أحشائها ، الفراش والصناديق • النار لا تزال تمد يدها وتضغط على
زناد البنادق ، أو تلقى صفائح الغاز الى السماء •• النار لا تكف • النار
ترحف بينما النيل يهدر في الشرق ويكسر الجسور • والشمندورة ترتطم
بسلسلتها وتبرق في ضوء اللهب المنعكس •

يومان • يومان كاملان تجمع فيهما الناس من ابريم وعافية وعينية
وتوماس يكافحون النار بالرمال والماء حتى هدأت الريح • فخبث السنة
اللهب وتحولت الخيام الى كومة من الرمال وأشلأ النعاج والحراف التي
مضت الكلاب تنهش فيها • وارتدى عمال البناء على الرمال واجمين
متذكرين حرائق تلتهم قراهم هي الأخرى المرة تلو المرة دون أن يبالي
بهم أحد •

ثم عاشت النجوع في الوجوم • فقد ضاع كل شيء : أعواد الذرة
المختنقة في الشرق تحت وطأة الفيضان والخيام والتعويضات • وخبا بريق
العيون وركب الجنون عقول رجال ونساء مضوا يصرخون في القرية
بلوحون بأيديهم للسماء وسادت الكآبة كل الوجوه • حتى وجه سعدية
الناضر الجميل بدا حزينا وهي تبكي متاع عرس احترق وجنينا أسقطته
حين فاجأتها طلقات الرصاص في نجع الخيام الملتهبة •

ثم بدؤوا يكتبون : نحن منكوبى التعلية ، احترقت خيامنا والتهمت
النار تعويضاتنا وداس الفيضان زراعتنا • ارحموا من في الأرض يرحمكم
من في السماء • كانوا ينادون قلوبا ميتة تجلس هناك في القاهرة خلف
مكاتب لامعة لا تبالي عاش الناس من أبناء الشعب أم ماتوا ! ولماذا يبالون
وحياتهم تجرى في يسر ؟ لماذا يبالون وقد بدأت أراضيهم تحبل مشى
وثلاثا في العام ، وقد زاد محصول القطن والقمح وقصب السكر •

وتملك اليأس قلوب الناس فعاشوا في مناحة متصلة يبيتون في
العراء ولا يفكرون في إقامة خيام جديدة • ولماذا نقيمها ؟ فلسوف تحترق
من جديد • لكن يد العون امتدت من القرى المجاورة فأقيمت خيام أخرى

واختفت البنادق وصفائح الجاز وتعبرت كل امرأة من حليها الذهبية ،
باعتها لاستكمال بناء بيت لم يكن قد اكتمل بعد .. وارتبكت
أعمال البناء فهذه تقول : لا تبنوا لي بيتا .. سأبنيه وحدي بالجالوص .
وهذا يهتف : عشرون في عشرة أمتار ؟! كلا اجعلوه عشرة في خمسة
واكتفوا بما بنيتموه .

ومضى الناس يرمقون داريا سكيئة وزنوبة بنظرات خنجرية غاضبة،
فقد كانتا السبب . تشاجرتا على العلبة المعدنية ذات الأوراق الخضراء .
ثم انكفأتا على الأرض بمسرجة مشتعلة تطايرت منها شرارة تلتفتها الرياح
ودارت بها كل مدار . كانت داريا تطرق حين تفاجئها هذه النظرات
المسمومة وتغمغم : ارادة الله . زنوبة هي المسئولة أما أنا فولية غلبانة ..
ثم تلقى بنفسها على شريفة تبكي حظها العاثر . بينما زنوبة تغمغم : لاشأن
لكم بي ، لست من هنا . وجمال حائر وشريفة واجمة لا تطيق نظرات
الناس .

وعاد جمال ذات مرة ليجد زنوبة تحثو التراب على رأسها وتصرخ :
جمال . طلقنى يا جمال . عد بى الى مصر .. لم أعد أطيق أمك ..
لا أطيق الحياة . عد بى ، والا رميت نفسى فى هذا النيل الهائج ، ثم
انتزعت نفسها وراحت تركض الى الشاطئ وكادت تلقى بنفسها لولا أن
لحق بها جمال وبرعى يحملانها الى خيمتها .

وأفاق جمال من ذهوله ، وانتحى بأمه يهمس فى أذنيها : البيت كاد
أن يكتمل ياداريا والمصاغ الذى بعناه كاف لا كماله . اسمحى لنا أن
نعود أنا وزنوبة الى مصر . قالت : طلقها يا جمال .. دعها تعود وحدها
الى أهلها ان كان لها أهل ! ولكنه ظل بها حتى رضخت وهى تقول :
احلف لى يا جمال أنك لن تنسانا . فأقسم بالله ، قالت له : بقبر أبيك .
فأقسم بقبر أبيه . قالت انك ستعيننى أنا وشريفة ، سترسل لنا طرودا
قال : أنا فداؤكما يا أم .. سوف أرسل .. سوف أرسل . ثم بكى
واختلطت دموعه بدموعها .

وكرت الاسابيع وكل شاب يهمس فى أذن أبيه وأمه أو زوجته :
لا مقام لنا هنا يا أم . يجب أن نرحل . الى أين ؟ الى مصر أم الدنيا .
تقوم هناك بأى عمل .

ثم راحت البواخر ترسو على مرافئنا وهى تصعد النيل . لا ينزل

منها أحد ثم تهبط من حلفا وتقلع من المحطة النيلية في ابريم ، وقد وقف على حافتها شباب نجعنا يلوحون للشساطين والدموع تلمع في عيونهم ؛ فأخذ النجع يخلو من كل انسان ، من الشباب والصغار فلم يبق الا العجائز من النساء والرجال والا التجار . حتى الاطفال هجروا النجوع مع آبائهم ، فلم يعد في النجع أولئك الصغار الذين كانوا يحجلون منذ شهور بين الحيام أو يتصايحون خلف كلو . لم يبق الا سرور وأنا وآخر اسمه فتحي .

وها هي سعدية وأمها على المحطة النيلية تودعان البسطاوى .
سعدية صامتة تذرف الدمع أما الأم فهي التي تتولى الحديث : لانتسنا .
عيب يا أمى . . عيب : قل للرجل يابسطاوى أن كل شيء قد ضاع .

ثم أوغلت الباخرة في النيل واجتازت النجع والبسطاوى يلوح للنجع بيديه ومن خلفه جمال وزنوبة التي كورت يديها حين واجهته ، فان داريا لم تودعها بينما رددت شريفة كلمة واحدة : أفيالوقو . . مع السلامة .

ثم جاء الدور على برعى . فهمس في أذن أبويه وظل بهما حتى سمحا له أخيرا . برعى الذى كان منذ شهور يقسم أنه لن يعمل خادما في أى بيت وأنه يفضل الموت جوعا في النجع بدل الانحناء لأحد هناك في مصر . برعى الذى عاش ساعات السجن يناضل مع المأذون وبدر أفندى ، بلغ به اليأس كل مبلغ ؛ فضحى بكل ما كان يردده ، بكرامته ؛ فقد ابتلعها ليسافر الى مصر يبحث عن أى عمل ولعله قال لنفسه : ربما أجد عملا . . فيه صون لكرامتى !

ودنا اليوم المرتقب . وها هو يودع المحامى وسيد وابور ليعود الى النجع فلا بد له من كلمة قاطعة يسمعها من شريفة . فاقتحم عليها بيتها في ساعة الأصيل فرمقته بنظرة انسان كان يتوقع هذا الاقتحام وأطاعته على الفور وتبعته الى الفناء الخلفى واجمة . لعلها كانت تفكر في حسن المصرى الذى اختفى وفي قبضته المخدرة اللذيذة على فخذه . وربما كانت تفكر في نفسها أو فيه هو برعى وحياتها معه . تبعته في حذر الى الفناء الخلفى لبيتها الذى لم يكن قد اكتمل بعد . بيتها الذى صبغته الشمس المائلة الى الغروب بلون شاحب . وتوقفا حين استقبلتهما الدواجن بالنقيق والصياح . ثم أخذتا يتهاامسان : شريفة . هيه يا برعى . أريدك يا شريفة . أريدك . . ألا تريدان أن نقولى شيئا يا بنت الناس ؟

.....

- قولى كلمة قبل أن أرحل .

.....

- افتحى فمك . قولى أنك زوجتى .

فلم تجب الفتاة وان كانت عيناها قد لمعتا بريق الدموع ، دموع الفرح التى أطلقت الرجل الكامل فى ضلوعه فانكب عليها يحتضنها ، وهى تحاول التملص منه فى دلال ؛ ثم مد يده الى صدرها فعاودها نفس الحذر اللذيد الذى بعثته قبضة حسن المصرى على فخذها بين عيسدان الذرة . عجباً لهؤلاء الرجال ، لقد ماتت قبضة الغريب وها هى قبضة برعى على صدرى تبعث نفس الحذر ..

- شريفة !

- هيه يا برعى .

- اقسمى أنك ستنتظرينى .

.....

وراحت تسأل نفسها .. مم يخاف برعى ؟ ليس هناك غيره . كل الشبان قد رحلوا يا برعى . فسوف أنتظرك .. ولكن متى ؟ ثم ارتفعت بصوتها تقول : مع السلامة .

- قلبى يحترق . كل شىء فى جسدى يحترق وأنت لا تجيبين .

فسمحت لنفسها أن تقترب منه خطوة ، ثم انفصلا فجأة وانزوى برعى فى ركن حين دخلت داريا الفناء وفى يدها فانوس مضاء . لقد رأتهما لكنها تجاهلتها واستدارت الى الركن الآخر تعتنى بدواجنها ، بينما شريفة وبرعى يحسبان أنفاسهما ولا يتكلمان . ومضت داريا تغمغم لنفسها : مسكينان .. يحسبان أننى عمياء .. لقد رأيتهما تتسللان الى الفناء وأنا لا أخشى منك على شريفة يا برعى فأنت رجل . وخشيت أن تكون قد أطالت عذابهما فاستدارت اليهما فجأة ترفع الفانوس فوق رأسها وتقول : شريفة . من هناك يا شريفة ؟ فأجابت بسرعة فى صوت مرتبك : أنا يا أماء . أنا شريفة .

وصمتت الأم لحظة ثم قالت : لست وحدك يا شريفة . فتلعثمت

الفتاة ولم تقل شيئاً ، الا أن داريا عاجلتها : برعى هو الذى معك . تعال يا برعى . وساد انصمت لحظة ثم أردفت : تعال يا ولدى فانك راحل كما رحل جمال . فأقبل الفتى عليها فى حذر متجههم الوجه وأضاعت داريا وجهه بالفانوس ورأت أمارات القلق بادية عليه فكتمت ضحكة ؛ فقد سرها أنه يخشاها ، يخشى منها على سره فلکم صدته مفضلة البسطاوى عليه . وأحسست أن عليها أن تلمس جراحه بكلمة طيبة فقالت : برعى ، مالك حزينا ؟ شريفة أختك يا برعى .. كبرت ما .. وها أنت ترحل ولا تدري متى تراها من جديد فقد جئت تودعها . وتأملت وجهه الذى أشرق ثم استرسلت فى حديثها ولكنك لم تودعنى . كنت ستفلت من الباب الخلفى ... لكن قلبى يسامحك .. فمن أجل عين تكرم ألف عين . وغمزت فى اتجاه شريفة : وهل ودعت كل فتيات النجع ؟ .. قال لها : كلا لم أودعهن بعد ، ولم أودع شريفة بعد . كنت أحدثها فى زواجنا ياداريا ، فماذا تقولين : على بركة الله يا برعى .. مع السلامة . شدد على جمال حتى لا ينسانا .. شدد عليه يا ولدى .

قال : أنت أمى وشريفة أخت .. زوجتى عما قريب .. لن أنساكما وجمال لن ينساكما . قالت : ليتك تطلق البيضاء يا برعى . لا تتركه وحده يا ولدى هناك فى مصر .

— على العين والراس يا داريا .

وصمت لحظة وفى عينية بريق حيرة ، واستدار الى شريفة يهمس :
لم تقولى شيئاً يا داريا فى أمرنا أنا وشريفة ؟
— قلت لك : على بركة الله .

فلثم يدها بينما هى تقول : ولماذا لم تطلب من جمال قبل الطوفان؟
كنا أتمننا فرحتنا قبل أن يسافر وتسافر .
— كان مشغولا بزنوبة ونقارها معك .

— المجرمة ! سبب كل المصائب . على خيرة الله يا ولدى .. وربت على كتفه ثم عادت وهى تنادى .. شريفة .. لا تغيبى مع الدواجن والديوك . عودى بسرعة .

وانتصف الليل • ورست الباخرة وأقلعت وعلى حافتها برعى داعم
العنين • وقبل أن تجتاز الباخرة به نجعنا ، خيل له أنه يسمع في الباخرة
نفسها صوتا يعرفه ، فاستدار ليراه في هيئة غريبة : عمة كبيرة بيضاء
على رأسه الكبير ، وملابس فضفاضة زاهية على جسده ، ويداه مومتلتان
بحبل • ومن حوله حارسان يرمقانه في اشفاق ، ويمسحان اللعاب الذي
أخذ يسيل بين شديقيه •

كان يردد في نعم متصل : واحد • • صمد • • واحد صمد • •
فدنا منه وتأمل وجهه وقال :

— حتى أنت يا كلو • • !!

ثم ارتد الى حافة الباخرة يراقب النجع الذي أخذ يتلاشى رويدا
رويدا حتى غاب عن عينيه •

اكتمل بيت أبي والمتجر وبيت خالي ، واصطفت خلفه عبر
شارع ضيق يؤدي الى الكتاب الذي بنى على عجل من الطين
بيوت اكتملت منها غرف آوت اليها بعض العائلات مثل
سعدية وأمها وبيوت أخرى لم ترتفع السقوف عليها بعد •

٥٤

وبينما أخرج أنا من الباب الخلفي ، وقد علقت كيس كتبي على
كتفي ، وقبل أن اخطو اتبعث من خلفي صوت يقلب عليه النعاس :
حامد • • ولد يا حامد •

فطويت المصحف الذي كنت أنظر فيه استعدادا لتسميع الماضي
على الشيخ في هذا اليوم وأدركت عنقي الى الخلف قرأت سعدية حاسرة
الرأس تقف على مصطبة عالية لم تردم بعد : حامد تعال يا حامد •

وقبل أن أقرب منها تراجعت عن المصطبة الى الباب واستندت

عليه متشائمة ، ترمقتى بنظرات غريبة . فتوقفت عند اطار المصطبة
وقلت : ماذا تريدن يا سعدية ؟ قالت : لا شيء الا أن البسطاوى لم
يرسل جوابا منذ أن رحل ، وتشاءبت ثم أضافت : وما قد مر شهر
كامل ونصف شهر دون أن يفكر فينا .

—

— وأريد أن تكتب له جوابا .

ثم فتحت الباب تقول فى صوت ناعس : ادخل . . ليست أمى
هنا . . فقد باتت فى الشرق ليلة أمس . تعال تكتب خطابا بإحامد .

— سأتأخر يا سعدية ويمدنى الشيخ فى الفلكة .

— لن تتأخر . . تعال . . ادخل . . اخص عليك . . تعال . .

ترددت لحظة وكادت أخطو خلفها ، وفى جسمى احساس غريب
ثم استشعره من قبل وجدتنى أريد أن أسعى اليها . بدلا من أن
تسعى الى ، ثم تمثلت الشيخ وفلكته فتسمرت فى مكاني ومضت هى
تقول : أمى غاضبة على البسطاوى وأنا أكتب خطابا دون أن تعلم . .
تعال نكتبه قبل أن تجيء . تعال . مالك واقفا مثل الهبيل . كبة
يا شيخ !

قلت : سأعود فى الظهر وأكتبه لك ، وامرعت قبل أن تقول
شيئا الى الطريق المنحدرة نحو الكتاب وفى ذهنى دوامة غريبة من
الأفكار تختلط فيها آيات القرآن المستعصية وأوامر أبى : احفظ من
جديد . . كيف ؟ لقد مرت الحمى بازميل حاد ومحت كل سورة وآية
من ذاكرتى . تعلية الصغر ، كما ردد أبى دائما ، كالنقش فى الحجر ،
لكن الأزميل قد قوى على النقش ومحا كل آية . محا كل شيء الا
القراءة والكتابة والجمع والطرح والضرب . أما السور والآيات ، أما
ما حفظت من نسيب الميرغنى فى النبى فقد تلاشى . حتى عدت مثل
اصفر واحد فى الكتاب أعاد حفظ القرآن . . لقد كبرت وطالت قامتى ،
وأحس أن فى حلمتى ثديى ترمستين كبيرتين تكادان تمزقان صدرى
وأضيق من ملامسة ثيابى لهما . . فقد كبرت وأجدر بى أن أذهب الى
المدرسة . وماذا تريد سعدية ؟ وتلفت الى الخلف لأرى ما اذا كانت
واقفة على المصطبة أم لا ؟ . . فالتقت عينى بطفل يصغرنى .
وفد الى القرية منذ أيام . . الوحيد الذى عاد من مصر ، صحت فيه :
فتحي . اليوم نحتفل . . قال نعم . وفى الظهر مستأى أمى بالطعام

الى الكتاب . وضحكت متذكرا أيامى الأولى فى الكتاب . . كيف لهوت
فى مثل هذه المناسبة ، كيف دللت وزهوت وأنا أراقب أقرانى يأكلون ،
فى نهم ، من طعام حملته أمى واخوتى إليهم . حينذاك كنت قد حفظت
آيات وسورا حتى بلغت الآية التى تقول : « يا أيها الانسان ما غرك
بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ما شاء ركبك »
. . وهنا رفع الشيخ يده وقال : كفى يا حامد وانطلق الأطفال
يصيحون ماشارا كباكا . . ماشرا كباكا . ودنا أحدهم منى وهمس :
كباكا يعنى عيش ، حامد ، أليس عندكم عيش ؟ قلت نعم . . ثم أمرنى
الشيخ : قل لستك عيشة انك قد بلغت آية ماشاركباكا ، ومسح على
شعرى بيده وكرر رغبته ، فعدت أقضى بالخبر الى جدتى فتهللت
أسارىها وقالت : بلغ الشيخ طه أن رغبته على الرأس والعين . ثم
انشغل البيت كله يوم ذاك يعدون العيش والفطائر اللذيذة .

وفى اليوم التالى عند الظهر رأيتهم على باب الكتاب يحملن كل
هذه الفطائر وهدايا للشيخ وعائلته . وراح الأطفال يتراقصون :
ماشاركباكا ، والتفوا بأوائى الأكل يلتهمون فى صخب وضجيج بينما
انصرفن داعيات لى وللشيخ .

واليوم سوف تأتى أم هذا الغلام الصغير واخوته يحملن الفطائر
نفسها . وسوف نهيص ونصخب فى الكتاب .

وتذكرت المدرسة ومصطفى الذى قال لى منذ أيام : المدرسة
ستفتح فى عنيبة . ولن يمر شهر الا ويكون بين لداته بطربوشه الأحمر
وبدلته . ولقد أعد ابراهيم عم فتحى هذا هناك لوكاندة ومطعما لنوم
وأكل التلاميذ مقابل أجر زهيد . لماذا لا تذهب معى يا حامد الى المدرسة ؟

لكن أبى مازال مصرا على رغبته : عاود حفظ القرآن يا ولدى .
عاود . فسوف تذهب الى الأزهر . وتعود شيخا كبيرا يستدير الناس
بك فى اجازتك ويقبلون يدك .

وها انذا أعود وأترنج فى الكتاب . ولكنى فى هذا الصباح مبلىل ،
أتوقع فطائر فتحى وتداعب ذهنى صورة سعدية ، وأعجب لماذا تثير
سعدية كيانى فى هذه الأيام . كنت أخاف منها . أما اليوم فلقد أصبح
جسدى يشرئب كلما رأيتها وتذكرت صدرها البض واحتكاكه بصدى
منذ سنين . تتلوها صورة حسن المصرى وهو ينقض على شريفة بين
عيدان الذرة وبرعى وهو يهمس لشريفة بين النخيل فى السحر . حتى

مندوهة بنت نوح . عروستى فى اللعب أخذت صورتها تداعب أفكارى
وتلح .

ولولا الخوف من حجوبة التى بدأت أحس أنها تتلصص على ،
لدخلت اليوم وراء سعدية لأكتب لها جوابا الى البسطاوى ولاتركها
بعد ذلك ترفعى الى صدرها كما تريد .

وجاءت ساعة الفطائر فانشغلنا بها . وقبل أن تنتهى منها رأينا
الشيخ يهب واقفا على قدميه يهلل ويرحب بجماعة من الناس أقبلت
علينا .

واختلست النظر وتعرفت عليهم على الفور : المحامى ووابور
يتوسطهما الشيخ مرسى تسبقه رائحة عطرة . ورقص شيء ما بين
ضلوعى حين رأيتهما يجلسون على المصطبة الى جانب الشيخ شليب .
وقبل أن ينتهوا من رشقات الشاى كان الشيخ شليب قد صفنا جميعا
أمام ضيوفه ليقول : آتينا من تسميع الماضى منذ دقائق . وتال
الشيخ مرسى : وهل يدرسون المطالعة والجمع والطرح والضرب ؟ .
فأجاب شيخنا فى زهو : والقسمه أيضا ياسيدنا الشيخ . ثم راجوا
يتهامسون بينما نحن نراقبهم والحيرة مرتسمة على وجوههم . ثم تذكرت
حديثا جرى أمامى منذ سنين فى الدر على مصطبة بدو أفندى عن المدرسة .
وقد تأكدنى ما ظننته . فقد بدأ الشيخ مرسى يمتحننا . أخذ يستدعينا
واحدا واحدا . ويأمرنا : اكتب - الصبر مفتاح الفرج - لؤلؤة . .
تلاؤا . من جد وجد . فنكتب نحن على الأرض : والشيخ شليب يرمقنا
فى إعجاب . وجاء دور الجمع والطرح والضرب والقسمه ثم جاءت
النهاية حين اتجه الشيخ مرسى الى سرور يسأله : اسمك : سرور .
واسم أبيك : صالح ابراهيم . وشغله ؟ عند الخواجه بيل فى
الاسكندرية . وتدخل الشيخ شليب والمحامى بقولان : ولكنه يقيم فى
نجع الزينية مع جده الشيخ ابراهيم . عال . . وانت ؟ حامد .
وأضاف المحامى : حامد أمين . شغله ؟ تاجر . . هنا ؟ . . نعم .

وسأل آخرين ثم هب واقفا وهو يقول : تعاليا معى . فسرنا
وراءه أنا وسرور حائرين وشيعنا الشيخ شليب على العتبة وهو يدعو
لنا وقد ملأته نشوة غريبة . فها هم الاكابر يهتمون بكتابته . وعلى يديه ،
كما سيروى على مر السنين والأجيال ، سيتمخرج موظفون ومحامون
ونواب !

ومضينا نتلوى بين الخيام وأكوام الحجارة وبيوت مكتملة وأخرى.
مازال العمال يكملون بناءها حتى أوفينا على النجع وأشار المحامي.
قائلا : هذا هو الشيخ أمين وألد حامد .

كان أبى متربعا على هودية ساقية يديرها . وأمام الساقية شرائح
صغيرة من الأرض الصفراء شقت فيها الجداول ، الساقية غريبة
الشكل . تعاون أبى وأحمد عودة والشيخ فضل على أقامتها . وفضل
هو المهندس الذى صمم بعد أن درس انحدار الأرض وارتفاعها عن
النيل . وأقام ساقية صغيرة على شاطئ النيل ترفع الماء الى جدول
كبير يصب فى حوض كبير رفعت عليه ساقية أخرى ترفع الماء منه الى
جدول كبير يتلوى بين الرمال كما يتلوى الشعبان . الساقيتان كانتا
تدوران لأول مرة فى حياة النجع . وتبعثان فى النجع ، لهنهما الباكي
الذى يعث فى عيون النساء والرجال بريق فرح ، فتوقفوا على أبواب
الخيام وعتيات البيوت يرمقون الساقيتين فى أعجاب . ويعجبون
يشعبان الماء الذى مضى يتلوى لامعا فى ضوء الشمس . شمس الخريف .
ويتخيلون الخضرة التى ستحل مكان الرمل الأصفر . . الشاحب .
وراحوا يضحكون بقلوب صافية لأول مرة منذ الحريق ، بل لقد تخلصت
داريا من يد اينتها وركضت الى الساقية وتوقفت عند رأس الجدول
تضئ وتهتف : يسعدك الله يا أمين وأنت يا فضل . سنأكل أنا وشريفة
أول قطعة من الملوخية على يدك يا أحمد عودة فحدجها الرجل وقال :
إن شاء الله يا داريا .

ويندو أن فضلا كان يروى نادرة ، فقد أخذ النساء يرسلن
قهقهة عالية قطعنها فجأة حين رأين موكبنا الصغير يتجه الى الساقية .
ومضين يراقبنا بعيون مستفسرة حتى توقفنا لصق داريا سكيئة
على رأس الجدول فاقتربن قليلا حتى لا يفوتهن شيء مما يقال .
وكانت حجوبة هى أجرا النساء فقد تقدمت حتى التصقت بنا فى اللحظة
التي ترك أبى فيها الهودية ، ومسح يده بجلبابه ليسلم على الشيخ
مرسى الذى تحدث معه طويلا عن الساقية والأنواع التى سيزرعونها ،
ثم استدار بالحديث فجأة وكلمه عن المدرسة ومشاكلها : ستغلق مالم
يزد عدد التلاميذ يا أمين . ماذا تقول ؟ ! الأزهر . لكن الأزهر لن
يغلق . المدرسة ، مدرستنا الوحيدة هى التى سيفلقونها . فكر يارجل .
وسكت أبى وبدأ على وجهه أنه لم يقتنع بعد ، وأدرك الشيخ
مرسى أنه لا بد من شرح وتوضيح فتساءل : وأين الشيخ ابراهيم جد

سرور ؟ وقبل أن يجيب أحد تدخلت جدته قهقهة : الشيخ ابراهيم هناك في الجبل عند بشير عثمان .. فاليوم تدور ساقيته ، مائة مترا وأربعة أمتار . ومدت يدها إلى سرور تمسك به وهي تقول : ماذا فعل الولد ؟ في وسعي تأديبه في الحال .. ماذا فعل ؟ لقد تعلم الشقاوة على آخر الزمن . وابتسم الشيخ بينما انطلق سرور يؤكد في لغة حبيبة أنه لم يرتكب جرما وقال لها الشيخ ، بارك الله في ولدك ياستى . إنما نريد أن نقابل جده . ثم عاد يبدى اهتماما غريبا بالساقيتين والجدول الكبير ولمعت عيناه في مرح حين رأى الشيخ « فضل » وأحمد عودة . فقد تذكر جلستهما في الدر على مصطبة بدر أفندي وسألتهما من جديد عن مشروعهما فأفاض في الشرح حتى قال : عال .. عما قريب نأكل القشء والخيار والفجل والجرجير من أرضكم هذه . فأنحنى الشيخ فضل أمامهم ووعد : ان شاء الله .. على أن تشرفنا بمباحثك بالزيارة . ثم استدار يسأل عن الساقية الأخرى التي قالت عنها العجوز وراح المحامي يشرح : رجل منا يخفر سبعين مترا في الجبل .

— ولا يجد الماء ؟ !

— لكنه لم ييأس . بل مضى يعمق البئر ثمانين مترا .

— ثم وجد الماء ؟

— كلا .. الماء لم ينبثق الا بعد مائة متر .

وكاد الرجل يصفق بيديه مرحا . بل أهتز جسده طربا . ثم مال على أبي : لماذا لا نقوم إلى البئر ساعة نقابل فيها جد هذا الغلام . فحدثكما معا في المسألة الهامة التي زرت نجعكم بسببها . عصفورتان بحجر واحد .. نرى البئر وصاحبها . وولتقي بالشيخ ابراهيم وهناك نتفق على كل شيء . هلم معنا .

خلف البيوت والحيام وعلى مقربة من الجبانة الحديثة رقدت الأرض الرملية الصفراء تتجههم في عيوننا الا شرائح صغيرة سويت وأعدت للرى ، تشقها الجداول والبثون والجسور . وفي قلب هذه الشرائح ساقية عالية تلهث ، فوق مدارها أربعة أبقار . ويبدو أننا وصلنا في

اللحظة المناسبة فان مائتين وأربعين قادوسا أحمر كانت تهبط الى
البئر لتعود مثقلة بالماء لتصبه في الجدول الكبير . وقد تربع على
الهودية بشير نفسه يرمق الرجال والنساء الذين جاءوا يحتفلون بمشروعه
في نشوة وزهو يفرقح بكرباج طويل على ظهور الأبقار الأربعة ..
عا .. عا .. عا ..

وتسللنا نحن بين الناس دون أن يلحظنا أحد في أول الأمر فقد
كانت عيونهم مشدودة الى القواديس . كان هناك العمدة وسفرجي
باشا وعبد القرنساوي الذي مضى يهتف : فورميدابل .. فورميدابل ..
هائل !

ودارت القواديس دورتها وعادت تلمع في وهج الشمس ثم مال
أول قادوس وأسال الماء في الجدول وتلاه قادوس آخر فثالث وهنا
انبعث الهتاف والتصفيق المتصل . وانطلق زغردة مثل رنين الذهب
تنداح مع الماء الفضي ليتلوى بين الرمال الصفراء .

ثم أوقفت الساقية وتجمع الناس حولها يشربون شايا أعد لهم
وينفثون دخان لفافات وزعها عليهم بشير بنفسه . ثم استداروا بعيونهم
ليروا « وابور » يعتلي ربوة مرتفعة . ومن هناك وكأنه نبي يبشر من فوق
جبل تدفق في حديث حماسي يهنئ ابن عمه بشير بالفوز ، ثم مضى يصور
لهم الحضرة التي ستكتسح الصفرة القائمة المتجهمة من حولهم فراحوا
يتخيلون نخيلا سامقا يفرش الأرض بظلاله ، وحقول قمح وذرة ، فنعموا
بلحظة هناء أتاحها لهم بشير والقواديس التي صبت الماء .

وكاد وابور أن ينهي حديثه ويترك المنصة لغيره ، الا أنه لمحنا :
لمح الشيخ مرسى فصاح في الناس : وليحيا الرجال العاملون .. ليحيا
الأستاذ ، مشيرا بيده الى الرجل ثم انهى وابور كلمته بالعبارة التقليدية
التي أصبحت على كل لسان : نحن منكوبي التعليه .. نطالب بطلمبات
رى تملأ هذه الصحراء بالحضرة والحياة . ثم أسرع الى الشيخ مرسى يشد
على يده ويرحب به بينما الناس يستديرون به .

وشد الشيخ موسى على يد بشير يبارك عمله ثم خلص الى الناس
يتحدثون اليه عن الطوفان والحرائق والفيضانات وضرورة إعادة صرف
التعويضات وإقامة طلهمات الري .

ثم تحدثوا اليه عن الرسائل التي ترد من الصعيد تشكو من الأرض القاحلة التي نزل فيها المهاجرون من أهل القرية . وتكلم الشيخ مرسى عن كل شيء في لغة سلسلة شيقة ثم خلس الى المدرسة حين قال : لو كان الحكام يحترمونا لما نزل بنا كل هذا الشر . وصمت الناس جميعا يحاولون فهم كلماته ومراميها ثم رفع العمدة رأسه وقال : وكيف نحملهم على احترامنا يا فضيلة الشيخ ؟ بالتعليم .. وهل هناك غير التعليم ؟ وسأل العمدة : لكن التعليم يحتاج الى مال كثير .. فاين لنا بالمال . وشرح الأستاذ ان النفقات زهيدة وأنهم في سبيل حمل الحكومة على تحويل المدرسة الى مدرسة داخلية مجانية يأكل وينام فيها التلاميذ دون مليم يدفعونه . وسرد السفرجى باشا قصة الباقر وجمال وكيف تعلموا ثم عادا استاذين كبيرين يشرفان النوبيين . وكيف يتعلم أولاد الباشوات على يديهما .

وتهللت أسارير الناس فان الاستاذين من القرية الملاصقة ، ثم اندفعوا يتكلمون في فخار عن أبناء القريتين الذين تعلموا وأصبحوا في مناصب كبيرة :

- تصوروا ، لقد كان أبوه طباحا فى بيت أحد الباشوات ، نجح هو بينما رسب أولاد الباشا ، فساقر الى بلاد الانجليز وتفوق حتى على أولاد الانجليز الأوروبية .

- وفلان .. من مصمص . عاد مدرسا فى مدارس النهضة فى الاسكندرية ، ثم فى عنيزة وسرد لهم الشيخ مرسى قصة المدرسين النوبيين فى المدرسة وكيف يكافحون فى سبيل حماية المدرسة وتعليم الأبناء . فالحكومة تعمل على اغلاقها متذرعة بمختلف الحجج ، ومنها قلة عدد التلاميذ . انها تقول : النوبيون لا يريدون أن يتعلموا . ولا شك يا ناس أن الباشوات يقولون فى قرارة أنفسهم : واذا تعلم النوبيون أين نجد طباحين وسفرجية وخداما يخضعون لنا ؟ وصاح المحامى ووابور : مضبوط . لقد صرح أحد النواب بقوله ومن الذى يعمل فى بيوتنا اذا ما تعلم هؤلاء . ؟ يحسن أن نفتح لهم مدرسة للطباحين !

وطاف الشيخ مرسى على وجوه الرجال بنظراته وشعر أنه سيفوز

فقال :

– المسألة في ايدينا .. الحكومة تقول ان التلاميذ عددهم قليل ،
فلماذا لا نرحم المدرسة بتلاميذ من أبنائنا .

وسكت يتأمل تأثير كلامه واسترسل : فاذا ما أرسلت كل قرية
اثنين أو ثلاثة من أبنائها زاد عدد التلاميذ فتبطل حجة الحكومة
وتستمر المدرسة . أما الآن ..

ثم مال على أبى والشيخ إبراهيم : هذان الولدان خسارة .
لماذا لا ترسلانهما الى المدرسة ؟ لن يكلفكما شيئاً يذكر . حرام .

وهز الشيخ إبراهيم رأسه وقال : موافق وسأبعث الى أبيه
يافضيلة الشيخ . أما أبى فقد مر بيده على جبهته وعلى صلبعته
الخفيفة ثم سأل : أليس الأزهر أفضل ياسيدنا الشيخ ؟ . لقد
تعلمت فيه سماحتك .

وكنت أراقب وجهه وعرفت أنه يوازن ويفكر بعمق وأنه سيوافق
في نهاية الامر . وأراد الشيخ مرسى أن يعجل باقناعه فقال : الأزهر
لن يغلق ، مدرستنا هي التي ستغلق يارجل . وابنك سيكون بجانبك
هنا في المدرسة . أما هناك في الأزهر فسوف يغترب وقد تلهيه مصر
عن دراسته . ومصر كما تعلم مكتظة بالدراجات والعربات والفتيات !

ولم يجب أبى بكلمة واحدة على الشيخ . بل استدار نحوى بين
نظرات الناس الحائرة المتسائلة ووضع يده على رأسى وهمس فى صوت
مختنق :

– غلبتنى يا حامد .. على خيرة الله ..

فابتسم الشيخ وقال : عال ، تلتقى صباح السبت فى عنية بعد
شهر ..

ولم أعد أنا الى النجع بل الى بيت شقيقتى جميلة أجتر معها
سعادتى .

المساء يسدل غلالته الرمادية على القرية الجديدة التي ستعيش فيها . أرمقها في وجوم من مكاني في هذه اللوكاندة الصغيرة .
لوكاندة إبراهيم ، مطعم ومقاعد وحوش واسع مسقوف
أعد لمبيت التلاميذ الغرباء . وفي المبنى الطيني نفسه مقهى يصخب
رواده حول الورق والنرد ، رواد من ألوان مختلفة . بينما الصغار
يتكئون على دكك عالية مع آبائهم يرمقون مثلي في وجوم موطنهم
الجديد وان نهض بعضهم تواقين الى اللعب والتصايح برغم نصائح
آبائهم .



وها هو خالى أحمد عودة يرمقنى فى اشفاق ويمد يده ينفض
غبارا علق بيدلتى الرمادية وينتزع طربوشى يخلصه من قشة انفرزت
فى صوفه الأحمر . ويعلمنى للمرة العاشرة كيف أنظف حذائى بخرقة
بيضاء أودعها منذ الآن فى جيبى . والنصائح تتلاحق من حولنا : أياك
أن تنزل فى النيل . أنت تعلم كم تحبك أمك . وكم أحبك . عد كل
يوم خميس . . . حاذر أن تتسخ ملابسك . هه ياهجين . أسمع كلامى
أم أنت شارد ؟ سرور ما هذا الطين الذى تعبت به ؟ . ألا ترى كيف
تلوثت أظافرك ؟ .

وأفبق من شرودى على كلمات خالى : اجتهد فى دروسك والا
فأنت تعلم أين تريد حجوبة أن ترسلك . فبرزت رأسى فى طاعة . ثم
عدت الى شرودى أتأمل القرية الرابضة أمام عيوننا . غابة من النخيل
وأشجار الأثل والسنتط تغمر مياه الطوفان قاماتها ولا تترك منها الا
وعوسا تهتز فى حزن بينما يرتعش الماء تحت الظلال القاتمة المرتسمة على
صفحته .

ومن خلف الغابة شراع أبيض تتناهى منه الى اسماعنا نقرات
دف ترجع جبال الشرق أصداؤها فتنداح على القرية الوادعة لاتشوبها
الا فرقعات « الدبش » و « الدوش » وصيحات اللاعبين بالنرد .
وعلى يمين اللوكاندة طريق لم ترصف بعد . على جانب منها سوق
وحانات ومقاهى بينما تصطف على الجانب الآخر بيوت غير البيوت
التي ألفتها فى قريتى . بيوت سمراء متصلة ومنفصلة بنيت من حجارة
منحوتة ، تدور حولها مظلات خشبية رمادية ، تمر من تحتها ردهات
ضيقة يلمع فيها البلاط الأبيض والرمادى ، ونوافذ عريضة يلمع
زجاجها ، وعلى افريزها صوانى صفراء عليها قفل فخارية لامعة
تنسدل من خلفها ستائر منمنمة مطرزة ، ومن بين الستائر تمتد الى
القلل أيد وسواعد بضة تختفى بسرعة . وحول كل بيت سور منخفض
تمتد خلفه حديقة لم تزرع بعد . والطريق العام يمر أمام هذه البيوت
ينتهى بساحة واسعة تتوسط سوقا ومقاهى وبيوتا ، فى محاذاتها
على الجانب الآخر مبنى المركز والمحكمة ومكتب البريد . والجامع
الذى تنبثق أمامه فى اتجاه النيل مبان أخرى يتعرج الطريق أمامها
ليفضى الى ساحة أخرى ، فى جانبها الشرقى مستشفى لم تعمل بعد
وفى جانبها الغربى مبان من نفس الطراز تطل من نوافذها الأيدي نفسها
والسواعد البضة . وأمام مبنى المركز الذى رفر ف عليه علم أخضر ،

مبنى المدرسة يعترض الساحة تطل عليها نوافذ الفصول ومكتب الناظر وحجرات المدرسين .

دربنا أنا وخالي حول هذا المبنى حتى واجهناه ووقفنا نتأمله . كان ميناء الأساسى يبدو خطا مستقيما ينتهى بخطين آخرين أفقيين يشكلان الفصول الواقعة على جانبه الشرقى والغربى . . الفصول كلها تفتح أبوابها على ردهة طويلة من البلاط ترتفع عن الفناء بسلاالم أربعة عريضة منعطف منها الى اليمين لتدلف الى حجرات المدرسين ، ومكتب الناظر تواجه حجرتان : المخزن ومكتب معاون . وتنعطف الى اليسار لتطل على عدد من الفصول .

وأمام المبنى الأساسى ساحة صغيرة تنتهى فى الطرف الآخر بالرافق العامة ودورة المياه . وفى محاذاة هذه الدورة جرس كبير وقف تحته رجل عجوز أسمر فى هندام نظيف يتمم وفى يده سبحة طويلة من الكهرمان . لقد صلى عم عوض المغرب منذ لحظات تحت الجرس ومضى يتمم حتى تقدم منه فراش آخر ، شاب صغير ، يخفيه ويسأل فى خبث : هل أعددت الجرس ياريس ؟ فنظر إليه الرجل فى استنكار ؛ فمئذ متى يعلم الفراشون رئيسهم واجباته ، وأشاح عنه ، ثم مد يده وصلصل الجرس صلصلة خافتة ، ورمى الشاب بازدياء وقال : فى الساعة الثامنة الا خمس دقائق يدق هذا الجرس لأول مرة فى هذه المدرسة الجديدة ، بارك الله فى مدرستنا الجديدة وفى الجرس . وضحك الشاب وصاح فى خبث : وفى اليد التى تشد الجرس . متى أشده أنا ؟ .

وأطبقا شفثيهما حين دنونا منهما ، وتبادلا التحية معنا وتعارف خالى مع الرجل العجوز الذى طفق يروى فى زهو أحداث عشرين عاما من حياته مع النظار والمدرسين والتلاميذ . قال : لقد كبروا جميعا ، لكنهم لا ينسون عم عوض . أصبحوا موظفين ، بارك الله فيهم وما زالوا يسألون غنى . قال خالى : أطل الله عمرك حتى تراههم جميعنا فى مناصب كبرى ، ومازلت قويا بحمد الله ، فتهلل الرجل وقال : الحمد لله يا ولدى . كنت فى مصر منذ أيام . أتعرف من الذى قابلنى فى شارع أبو اصبع ؟ تصدق بالله لقد عانقنى دون أن أشعر ففرغت ، ثم استدرت اليه لأجده فى بدلة الأنيقة يقبل يدي ! وتخابث محيى - الشاب الصغير - وقال : من يكون غير ابن عمك ؟ فتجهم وجهه وصرخ فى مرءوسه : اسكت يا ولد . واستدار الى خالى واسترسل فى

جماسة : الأستاذ عجيب نفسه .. ثم الأستاذ جمال .. ما زلت صغيراً يا محيي ، لا تعرف حتى أصول المهنة ولولا طيبة أمك وتفوذها وفصاحتها لما عشت معنا يا فتى .. لقد شهدتك تكبر وشهدت الصغار يكبرون ويتزوجون ، ثم يبعثون بصغارهم الى المدرسة نفسها ... الى أنا يا محيي ليسمعوا صليل الجرس الذي سمعه آباؤهم ، والله يا شيخ أحمد ان هذا الولد لا يفهم .. اسكت .. اسكت يا ولدي . ودار محيي من خلفه ولكزه تحت ابطه فقفز الرجل قفزة عالية وهتف : الله أكبر .. ثم صب غضبه على الفتى المهزار وطرده ، ثم تنبه لي وربت على رأسي وهو يهمس : بارك الله فيك يا ولدي . تعال غدا مبكرا في الصباح قبل أن يذق الجرس . أما الآن فانصرف .. وأخرج ساعة كبيرة من جيبه وتأملها ثم أزدف : حضرة الناظر والمدرسون والمأمور سيحضرون بعد دقائق يستعدون لافتتاح المدرسة . وشهد على يد خالي وهو لا يزال يروي ذكرياته . وقد تقدمنا الى الفناء الخارجي ثم عدنا أدراجنا وفي رفقنا محيي الذي مضى يشير قائلا : بيت المأمور . بيت الشيخ مرسى والدكتور . انه لم يحضر بعد وهذا بيتي . وأدركت من حديث بينه وبين خالي أن مصطفى ينزل في هذا البيت ، فاستبد بي حنين الى رؤيته رغم أنني كنت معه في النجع منذ يوم واحد . ولكن خالي رفض الدخول فاتجهنا الى اللوكائنة نتناول عشاءنا ونستمع الى الجرامافون . ثم نمت والأحلام تداعبني وتدغدغ جسدي وتبعث فيه خدرا لذيذا .

وها هي السبورة السوداء تلمع أمامي وعليها سطر أبيض : حصة الدين . والشيخ ياسين يلقي علينا درسه الأول . انني أستمع اليه مرتفقا بكوعي على القمطر وبجانبى سرور . لكنني لا أفهم كلمة واحدة مما يقوله الأستاذ لأن الفرحة الغامرة التي تشملني لا تترك لي فرصة الاستماع والفهم ...

ثم تعاقبت الدروس وجاءت القسحة الكبيرة . قانطلق الصغار يتعارفون . ويعقدون أواصر صداقات جديدة .. ويعجبون بملابسهم . كان واضحا أن بعض الآباء قد لفقوا ملابس لابنائهم . فقد أخذ المدرسون ينظرون اليها شذرا ، حتى ركبني خوف شديد قرحت أتواري حتى لا يلاحظ أحد شيئا على ملابسى برغم أنها كانت لاتزال جديدة ومرضية ، لكن الخوف الحقيقي الذي ركبني في اليوم الأول والأيام التالية كان خوفا لا يبارحني البتة . فمنذ أسابيع نجحت في امتحان القبول ، الا أنني رسبت في الكشف الطبي على نظري فعدت باكيا أنهنه وأدب الى جانب أبي في الطريق الى اللوكائنة يائسا خائب الأمل .

ولكن الصدفة العارضة جمعت بيننا وبين الشيخ مرسى الذى
سأل : الى أين يا شيخ أمين ؟ فأخذ أبى يروى بالتفصيل قصة خيبتى
فى الكشف الطبى وقال : ليس فى الأزهر كشف على النظر ، ويبدو أن
الله لا يريد له غير الأزهر . فتبسم الرجل ورجانا أن نعود معه .

ولا أدري ماذا فعل الرجل ، فقد دخل من باب وخرج من باب
آخر ، ثم انحنى على معرض وأشار الى باسما ، وأمرنى أن اقترب
منهما ، ثم وقفت أمام اللوحة ، والرجل من خلفى يلكننى وهو يقول :
يمين . شمال . فوق . تحت .

ونجحت .. ولكن سر نجاحى وتآمر الشيخ معى قد خلقا فى نفسى
خوفا لا أطيقه خشية أن يكتشف أمرى ، فأطرد من المدرسة ، الا اننى
برغم ذلك سعيد وأنا أواجه هذه السبورة السوداء وأتأبط كتيبى
وكراريسى وأحشو جيبى بالأساتيك والمساطر والأقلام وألوى شفتى
بأبجدية اللغة الانجليزية ، سعيد وأنا آوى الى فراشى فى اللوكاندة ،
واذاكر دروسى على ضوء الكلوب الكبير . مائة وعشرون قرشا فى الشهر
ثم ناكل ونشرب وننام فى فناء واسع مسقوف على عنجريب حملته من
بيتنا !

وصحوت فى ليلة من الليالى على يد تهزنى .. وفتحت عيني
لأجد « الشيخ مرسى » يطل على ويهمس : غط نفسك يا ولدى ..
ستمريض . خلى بالك يا شيخ ابراهيم ، رمضى يفتش ويبحث مع صاحب
اللوكاندة أمر راحتنا . لقد اعتاد أن يراقب حياتنا ، ودروسنا
واستذكارنا لها وطعامنا ويصلح ما بينى وبين هجين هذا الفتى المتمرد
الذى توطدت صداقتى معه برغم تقارنا المتصل .. لقد أصبح الرجل
أبا وأما لنا نحن الصغار جميعا .

ومر خميس عدنا فيه أنا وسرور وفوزى ابن عمدة ابريم الى
اهلنا .. خميس وجمعة قضيتهما مع شقيقتى وابنها الصغير وسمعت
الناس باذنى يتهامسون من حولى : جاء الافندى وراح الافندى ..
هس .. الافندى ينام ، فامتلات بالزهو وشعرت بسعادة غامرة وأنا أعود
فى أصيل الجمعة الى عنيبة .. حيث المدرسة والشيخ مرسى ورفاق
المدرسة واللوكاندة .

ومضت الحياة هائلة باسمه . الساقية تدور أمام بيتنا والارض
الصفراء تخضر والناس افاقوا قليلا من نكبة الحرائق والفيضان
والدروس تتلاحق سهلة ميسورة الا الرسم فقد تعثرت فيه ، أرسم

خطا بالمسطرة فيتلوى كما يتلوى التعبسان .. خطوطى كلها تتعرج
ويبدو أن خطى كان يتعرج مثلها ، يبدو أن حلاوة الحياة لا تكتمل الا
بمزارتها ، فقد حل بنا الخميس الثالث متجهما لسبب لا ادريه .
المدرسون النوبيون جميعا كانوا واجمين ، يدخلون الفصول وعلى
عيونهم نظارات سميكة ويتهاككون على الكراسى ويلقون الدروس فى
فتور . دخل الشيخ ياسين وأعقبه الشيخ مرسى وألقيا درسين
قصيرين ثم جلسا لا يقولان كلمة واحدة حتى دق الجرس فبارح كل
منهما الفصل وفى عينيه أسى . ثم دخل مكى أفندى المسلمانى مدرس
الحساب وفى يده مسطرة تعود دائما أن يضغط بها طرأيشنا وتهالك
على الكرسي ، ومضى يملأ علينا مسائل الجمع ولم يتوقف الا حين
تناهت الى أذنيه طرقات خافتة على الباب .. أمر سرورا بعدها بفتح
الباب ليدخل عم عوض واجما هو الآخر فابتدره الاستاذ : هيه يا عم
عوض قال : لا تبتئس يا استاذ فلعله قد عدل الآن وتناول طعامه .
ولربما تحسنت ظروفه فאלله لا ينسى عبيده . وأطرق الاستاذ وقال :
لقد انتهى اليوم المشرون من اضرابه عن الطعام ، وصحته تتدهور فى
كل لحظة كما يقول الجواب يا عوض ، ليتة يعدل ، ثم راحا يتهامسان
همسا كان يصل الى آذاننا ، وتردد فيه اسم حسين طه ثم استدار
عوض الى الباب وكاد يخرج الا أنه توقف كأنما تذكر شيئا ، فعاد
الى الاستاذ وتناوله ورقة صغيرة وهو يقول : حضرة الناظر يطلب هذا
التلميذ ، فتأمل الاستاذ قليلا فى الورقة ثم نادى : حامد أمين ،
فنهضت مستندا الى خافة القمطر ، فتأملنى الاستاذ ثم استدار الى
عم عوض : خذ معك . حضرة الناظر يريدك يا حامد .. زرر جاكنتك
.. ازح الطربوش قليلا الى الخلف .

وتبعت الرجل فى الردهة الطويلة حتى توقف بى أمام المكتب
ومضى ينقر على الباب ثم فتح الباب قليلا وأغلقه من جديد وهو يقول
هامسا : يبدو أنه ليس فى مكتبه الآن . انتظره هنا ، ثم ابتعد خطوات
واستند الى الدرابزين يتأمل الجرس الكبير بينما أخذت أنا اتمشى فى
الردهة قلقا خائفا . وفى هذه اللحظة وخذها احساست أن فى حذائى
عيبا ، فهى تلك البلاط دكا وتبعث ضجيجا لفت الى انظار بعض
المدرسين فأطلوا من أبواب الفصول يرشقوننى بنظرات قاسية توقفت
بعدها منكشا استندا الى جدار المكتب الخارجى . لقد أبى والدى الا
أن يحصن حذائى بحدوة مثل حدوة الحصان فمضت ترتطم بالأرض
وتصك الأذان بصخبها .

ومرت لحظات ظلت الرعدة فيها هادئة ثم ارتفع صوت عبد الرحمن
افندى مدرس الانجليزى يقول فى الحجرة الملاصقة لمكتب الناظر : فى
حجرة المدرسين : لكنهم لن يغلبوا الأحباش وأجابه صوت أجش :
هو .. هو .. يبدو أنك لا تعرف موسنولينى وجيشه وطائراته
وغازاته السامة . وارتفع صوت الشيخ « ياسين زنادة » فى نبرة محتدة :
لعنة الله عليه وعلى جيشه . ثم ساد الصمت لحظة تردد بعدها الصوت
الأجش نفسه : وهل أعلنت الحرب فعلا ؟ فأجاب عبد الرحمن افندى :
بدأت دون أن تعلن والنجاشى ملك الملوك يستصرخ ضمير العالم بينما
غصبة الأمم لا تفعل شيئا . فقال الشيخ ياسين : وماذا يقول الانجليز :
فالحبشة على حدود السودان ؟

— لا شيء ؟

— أذن فالأحباش غنيمة فى يد الطليان .

— اللهم اقض على الانجليز وعلى الطليان .. وانصر أمة الأحباش
فقد استضافوا رسل النبى صلى الله عليه ورضى عنهم .

أخذت أستمع الى أحاديثهم واتسائل عن النجاشى والأحباش
والطليان ثم رأيت عم عوض يتحفز ويرفع يديه بالتحية ، فشددت
من قامتى . وألقيت نظرة فى اتجاه المرافق ، ورأيت البية الناظر يقبل
علينا بوجهه الطيب . لكن خوفا غريبا ركبني برغم ذلك حين دنا الرجل
منا وحدجنى بنظرة متفحصة . ولم يبارحنى الخوف حتى تجاوزنى
ودخل مكتبه ثم صاح : هاته يا عوض . فدفعنى الرجل حتى وقفت
أمام الناظر واجما ، ثم وابتنى فكرة ارتعشت لها : لقد اكتشفوا سر
نجاحى فى الكشف الطبى وسوف يعيدونى الى بيتنا مطرودا ، فطفرت
الدموع الى عيني ، فرحت أغالبها وأقضم أظافرى وأبتلعها : ثم رفع
الرجل رأسه يتأملنى وسأل فى صوت خافت : حامد أمين ؟ فلم أجب
وبدا لى انه يردد اسما غير اسمى ، فعجب الرجل من ارتباكى وكرر
الاسم من جديد ، فلكرنى عم عوض فقلت : نعم .. نعم يا سعادة
البيه . فتبسم الرجل ابتسامة طيبة . ثم دس أنفه فى أوراق كثيرة
وقال ، وبين يديه ورقة صغيرة . هذا خطاب من الوزارة وتأملنى مليا
ثم أضاف : بعدم قبولك فى المدرسة . فلم أفهم شيئا مما يقوله
الناظر . وبدأ واضحا له أننى لم أفهم فكرر كلماته فى أناة ثم أضاف :
لا يقبل فى السنة الأولى من تجاوزوا العاشرة من عمرهم !

وساد الصمت لحظة وقبل أن أقول كلمة واحدة أنطلق عم عوض يقول : ولكن هذا الولد عمره لا يزيد عن العاشرة !! فتفحصني الناظر من جديد وقال باسم : أنت يا عوض تحب كل الأولاد خصوصا السمر والسود . كلهم عيالك . ولكن ألا ترى جسمه ؟ ثم طلب منه أن يقترب وعرض عليه ورقة عريضة قال بعدها : شهادة ميلاده . فارتد العجوز هامسا : أبوك مقفل . من الذى نصحه بتقديم هذه الشهادة ؟ . مقفل ! ثم دفعنى إلى الخارج وهو مازال يغمغم : ثلاثة عشر عاما ثم يقدم أبوك شهادة ميلاد ! ولم يتوقف الا أمام مكتب المعاون وألصقنى بالجدار حائقا ثم دخل وغاب لحظة طويلة أطلقت العنان فيها لدموعى ، ثم قررت ان استميت هنا فلا أبارح المدرسة . . وأخذت ألعن الناظر وأصب جام غضبى عليه . . لماذا يطردنى ابن الكلب ؟ لقد نجحت فى امتحان القبول . المدرسون جميعا راضون عني الا مدرس الرسم والأشغال . لابد أنه هو الذى وشا بى . . ابن الكلب . . ذو الوجه الأحمر . . وأخذت دون أن أشعر أنهنه بصوت عال رن فى الردهة الطويلة فبرز الشيخ موسى برأسه ثم تقدم حتى وقف أمامى يقول : من ؟ لماذا تبكى يا ولدى ؟ وأطاح بيدي التى كانت تفرك عيني وسأل : من ؟ حامد امين ؟ ! ماذا حدث ؟ وقبل أن أجيب استدار الى الشيخ ياسين الذى هتف باسمه وقال : تم كل شيء يا شيخ ياسين . . أرسلت برقية وخطابا مستعجلا ، فتنهد الآخر وقال : لعل وعسى . . ليته يعدل فيأكل طعامه . . وهل أرسلت الى أبيه . ؟ قال فى نبرة محتدة : والده !! أتسمى هذا الرجل أبا ؟ لعنة الله عليه . .

وخيل لى أنه قد تناسانى حين بدأ ينصرف وهو يمسح عينيه بمنديل حريرى أبيض فرفعت صوتى بالبكاء فعاد من جديد يسأل : ماذا حدث يا ولدى ؟ فشرحت له فى كلمات لاهثة مختنقة ما فعله الناظر بى ، فاستمع الى كلمائى الدامعة فى صبر وتغلب على أحزائى وابتسم لى وهو يقول : بس كده . ولا يهملك . . ارجع الى أهلك وسوف تعود ، ولكن لماذا قدم أبوك شهادة الميلاد ؟ لا تبك وكن رجلا . . قل لأبيك يرسل شكاوى . وسوف أزوره أنا بنفسى ؛ ثم انصرف من حيث أتى .

ولم تمض الا لحظة واحدة حتى عاد عم عوض يدفعنى الى الفصل وفى يده قائمة بالكتب والكراريس والمساطر والأقلام التى تسلمتها منذ أسبوع ، ودلفنا من باب الفصل فاتجهت أنا الى درجى بينما انحنى هو على الأستاذ يهمس فى أذنه .

وأستدار الصغار يحدقون فى وجهى الذى بلكته الدموع متسائلين
فقلت لسرور وأنا أجمع أدواتى : طردونى لكبر السن . فاطرق واجما
ويده تتشبث بساقي وكأنه يقول : لا تذهب . لكننى تخلصت منه
أخرج وراء عم عوض وأنا أرمق وجه الأستاذ لسبب لا أدريه . فوقف
ومد يده وربت على كتفى وغمغم : ما عليك يا ولدى فسوف تعود .
ثم اسلمتنى عوض الى الطريق وهو يقول : قل لأبيك انك ستعود اذا
كتبته شكاوى .

وعدت الى القرية ودخلت مشارف نجعنا والمساء يسدل غلالته
الرمادية فوق الخيام والبيوت ، اتسلل فى طريقى من الشاطئ الى
النجع خائفا من نظرات الشماتة فى عيني حجوبة وأبى ، ورحلت أقدم
رجلا وأوخر أخرى وفى رأسى دوامة من السخط والكراهية والحيرة وصور
مدرسين واجمين . ولعنة الله على والده ، وهذا خطاب من الوزارة
بعدم قبولك . قل لأبيك يكتب شكوى .

وعلى صفحة النيل أمام بيتنا مباشرة كانت أضواء تلمع ، أضواء
زورق بخارى صغير يشد من خلفه شمندورة حمراء يقترب بها من
الدوامة الهادرة ، فان الشمندورة الحمراء كانت قد انطلقت من اسارها
وعامت فى النيل اسبوعا كاملا الى الشمال وارتطمت بجفون الخزان
فأعادوها مكبلة بسلسلة جديدة الى مكانها المعهود ، يشدونها من
جديد الى قاع اليم .

وارتميت يائسا بين أحضان خالى ؛ وقد خيل لى فى تلك الأمسية
القائمة ان كل شىء قد ضاع وان الحمى ستعاودنى ، لكننى سرعان
مانمت نوما عميقا افقت منه فى الضحى لأرى المحامى رابضا أمامى
يركز ورقة على ركبته ويكتب .. نحن منكوبى تعلية خزان أسوان
الثانية .. الخ ..

ومضت الأيام وأنا في النجع أراقب الحيام تختفي ، والبنائين وهم يرسلون حنينهم في أغنيات دافقة وأساعد أبي في تدوين حسابات المتجر وأحاول بين هذا وذاك أن أتذكر كلمات انجليزية كنت قد بدأت ألوى بها لسانى منذ أيامى الأولى في المدرسة .

وبلغ الضيق بى جدا جعلنى أنهض أحيانا وأترك الساحة الممتدة أمام بيتنا وأهيم في الجبل وأتوقف عند البئر العميقة التى شقها بشر عثمان في بطن الهضبة على كتب من قبر أمى ، وأتأمل عيدان القمح القزمية ، وقد قضت الأرانب البرية بعضها ولفحت الشمس أوراقها فاصفرت ، واشفق على أبقار منهوكة القوى تنزح الماء من بئر تفوص في أحشاء الأرض مائة متر .

وفي أصيل يوم وأنا أعبر الفضاء الممتد حول تلك المزرعة لمحت في العتبة الصغيرة المستندة الى جدار الساقية صديقى سرور بجلبابه الدوبلين القلم ذى الياقة المدببة الأطراف على دكة خشبية يتصفح مجلة سيمر التلميذ قدنوت منه وقد اشتد بى الحنين الى المدرسة والقيت بالتحية فرفع رأسه عن المجلة ثم ألقاها جانبا ونهض الى يشد على يدي بحرارة وقال : تعال .. طلب منى عمى بشر عثمان أن أحرس الفيط حتى يعود ، وأراقب الأرانب البرية وأطاردها بالفرقلة . الى أين يا حامد ؟ قلت : الى بيت أختي . كيف حالك ؟ ما هي أخبار المدرسة وهل فاتتني دروس كثيرة ؟ .

فأفك الكثير يا حامد ، ولكننى سأساعدك إذا ما عدت . وماذا تفعل في بيت أختك ؟ أجلس ..

.. لا أريد أن أتأخر فأننى أحمل إليها خطاباً من مصر أو منسجته
بطة وزوجها .

ثم جلست وأخذت أتصفح المجلة بينما اتسيفل سرور بمطاردة
أرنب عاد بعدها لاهثاً ، ومالبت حتى استعاد أنفاسه وأخذ يروى حكايات
هيبت كوامن الشجن فى صدرى . حكايات عن المدرسة واللوكانبة
ومشاجرات الرفاق ومدرس الانجليزى ، ومكى افندى وكيف فرك
أذنيه : حذار أن تقع فى يده حين تعود فهو دائماً يكبس الطرابيش على
الرءوس ويأمرنا بالجلوس « ديز » على البلاط بركبنا العنارية حتى
تدمى . فتنهدت وأنا أقول : من قال اننى سأعود ياسرور ؟ فلم يجب
على سؤالى بل قال : أتعرف أن « صالح أفندى جمال » شكل فرقة
للكشافة وأنا فيها رئيس جماعة أحمر بينما فوزى رئيس جماعة بعنقى
ومصطفى رئيس جماعة أبو سمبل . أننا نقيم الحفلات وحامد افندى
يعزف لنا على العود ونحن تغنى .

.. ماذا تغنون ياسرور ؟ .. كلا .. الكلمات مع اللحن يا جدد .

فتنحنح وأصلح حنجرتي وراح يغنى : ياثيران اشتغلى اشتغلى ..
أن الشغل عدو الكسل . وارتفع صوته ينداح فى الصحراء ويعود إلينا
رجع غنائه من التلال الغربية .

وقبل أن يكمل لحنه ارتفع صوت أجش : سرور ، ياخيبتنى فيك .
الأرنب تأكل الزرع وأنت تغنى ؟ فوقفنا لنرى « بشير عثمان » يطل علينا
من باب العشة ومن حوله أحمد محمود والمحامى وسيد وابور . ولا
أدرى لم أحسست بضيق حين رأيت وجوههم : ألأنهم قطعوا خلوتنا ؟
أم لأن ضحبة سرور متعة بددها ؟ أم لعله ذلك الوجوم الذى ارتسم على
وجوههم ؟ كانوا ساهمين ، عيونهم غائرة ترمق الأفق البعيد . حتى
أحمد محمود تجاهلنى وتربع على الأرض بعد أن سواها بيده وأخذ
ينكت الأرض بخيزرائته المدببة . ثم ساد صمت ثقيل قمت خلاله أريد
أن أنصرف من العشة الى بيت أختى قبل أن يحل المساء ، الا أن الكلمة
التي قالها وابور وقطع بها الصمت استوقفتنى فعدت أصيخ السمع
إليهم . فقد سأله بشير : كيف مات رحمه الله . . ألم يكن شاباً ؟ ولم
يجب وابور على الفور بل أطرق إلى الأرض حزناً يرسم على الأرض
بأصبعه وجه رجل بظربوش طويل وأذنين طويلتين كأذنى الخمار . ثم

تمسك وبصق فوق الرسم غاضبا وقال : لا أدري . لقد كان شهابا
فهكذا كانوا يقولون أيام الحادث وفي عنيبة . وقال أحمد ..

لم أكن أعرف يا واپور وهم يسألونني عنه هناك في المركز انه
سيلاقى مصيره في الليمان بين المجرمين . عجيبة . الخط يبقى زمانا
بعد كاتبه .. وصاحب الخط ..

وارتفع بشير عثمان بصوته يقول : دنيا .. وماذا يملك العبد ؟
الانسان ضعيف . أضعف من الناموسية وهل يملك رد القضاء ؟ لكل
انسان نهاية يا واپور . لكل انسان ..

واستمر واپور يرسم الأذنين ثم همس في صوت متشرخ : لكن
ابنى آدم يموت في فراشه وبين أهله . لم نسمع أن أحدا مات من
الجوع .

وهمسي أحمد : انهم يموتون من الجوع .. قرأت أنهم في الصين ..
لكنهم يقولون انه هو الذى قتل نفسه من الجوع . فصاح بشير . قتل
نفسه من الجوع ؟ كيف كان ذلك ؟! ثم ساد الصمت طويلا قطعه واپور
بكلمات باكية : ظل يقطع الحجارة في الليمان .. ويعاملونه معاملة
المجرمين والكلاب ويضربونه ويشتمونه : يا بربرى الكلب . ويشتمدون
ملاسل الحديد حول خصرته وفي قدميه .

وصمت قليلا يتأمل وجه زميليه فرأى الحزن المرتسم عليهما ثم
وأصل حديثه المجهوم : يقولون انه أرسل شكوى الى الحكومة ، ولكنها
لم تبسال به بل كان العساكر يقولون له : يا بربرى الكلب ... ثم يشي
المسكين واضرب عن الأكل ثلاثين يوما .

هل تركوه دون طعام ؟ يا ولداه !! .

كلا ، بل تعدوا اغراءه بما لذ وطاب حتى يعدل لكنه أصر .
رأسه مثل حجر الصوان الذى لا يلين ، ثم القوه على الأسفلت العارى
حتى بصق الدم .. الدم الاحمر .. وراح الاطباء يحقنونه ثم كانت
النهاية ..

— مسكين ! اللهم لا تبطل صديقاً ولا عدواً بما ابتليت به حسين
.. لابد أنهم دفنوه في جنازة كبيرة أعدها اليه أبوه .

— جنازه ! لقد رفض أبوه تسلم جثته ودفن دون أن يعلم أحد
.. وبقي الخبر سرا حتى أذاعه أحد سعاة مصلحة السجون ،

— لا حول ولا قوة الا بالله :

— لقد باع الرجل ابنه فداء ولأته للحكومة .

وبصق بشير بصقة صفراء ومسح شاربه بطرف كفه ثم هتف
حائقا : لعنة الله عليه من أب .. ضناه وقلدة كبده !!

ومال سرور على وقال : الشيء نفسه كانوا يقولونه بالأمس في
عنيبة . لقد رحل الشيخ مرسى ومكى أقنسى ، وجميع المدرسين
النوبيين ؛ والفراشين الى الدر . قالوا : انهم سيقيمون مأتما في الدر
وفى كرسكو قرية حسين طه . ولكن لماذا سجن يا حامد فلم أجب ؛ اذ
كان الرجال قد وقفوا يودعون بشيرا ويتواعدون على صلاة الجمعة
في غد .. صلاة الغائب . وتلفت اليها بشير وقال : انصرف ياسرور
فالشمس تكاد تغيب ... ويبدو أن السماء ستمطر . خيرا وبركة .

فاتخذ كل منا طريقه ، هو الى النجع وأنا الى بيت أختي في
ابريم ، ومن فوقى دوى رعد وغيوم تلبدت بها السماء فجأة ثم رذاذ
مطر اشتد حتى بلل ثيابي ، وقوس قزح كبير يرتسم عند الأفق ويلقى
ألوانه المتداخلة على الهضبة الصخرية المترامية وتلاشى كلما مالت
الشمس الى المغيب ، وبرق خاطف ينير جوف الحور ثم يخبر ليبعث الرعب
في قلبي .

ومضيت أجرى خائفا ، مبتعدا عن المزرعة حتى انعطفت الى
الطريق المؤدى الى بيت أختي ، وقبل أن أدلف من بابه رأيت السماء
تنبلج بشهاب لامع تماما مثل انبلاجها فوق رأسينا أنا وبطة في ليلة
القدر ، ووجدتني أقول دون وعي : أشف يارباه أمي . أشف أمي
يارباه ، ثم سكنت فجأة والحزن يعتصر قلبي حين تذكرت شاهد القبر
الذي مررت به منذ حين .



وكرت الأيام والأسابيع وأنا لا أزال في النجع لا أفعل شيئا
غير مساعدة أبي في تدوين حسابات المتجر والترنح في الكتاب
وتحمل شماعة حجوبة التي عادت تتحدث عن رحيلى إلى
مصر ، ومراقبة النيل الطامى والبواخر الصاعدة فيه وكتابة جوابات
النسوة العجائز إلى الأبناء الغائبين !

وظل الأمل في العودة إلى المدرسة يداعب خيالى في الأيام الأولى
ثم تبدد بمرور الأيام فعشت حياة مليئة بالضجر والتمرد المكبوت ،
إلا أن الساعات التي كنت أقضيها على هودية الساقية كانت أسعد
ساعاتى فقد اعتدت أن أتربع عليها أراقب بقرتنا وهى تدور وتروى
الرمال الصفراء ؛ والشيخ « فضل » وهو يزك بساقه الخشبية وقد انحنى
ظهره قليلا يتنقل بين الشرائح الصغيرة الحضراء يشتل البصل ويتلمس
أوراق المرجير والفجل وأحراش الطماطم واللوبيا فى نشوة ، ثم يمد
يده إلى الأرض يعود بها محملة بالتراب يتشممه متقرزا ثم يعيده إلى
الأرض وكأننا يهرب منه .

وعلى مرمى البصر وغير بعيد من الساقية حركة أقدام تتدافع
وحناجر تهدر بأغاني العمل فما زال عمال البناء يحملون الحجارة والمونة
فى صف يدور بين الحجر والمعجنة والمبنى ، يتلقى المعلم منهم أحمالهم
ويضرب عليها بالمسطرين ويطلب المزيد فيدورون كما تدور البقرة فى
الساقية يرددون مقاطع أغنية بطيئة اللحن ، يرددونها خلف واحد

منهم وقف على ربة عالية يلوح بيديه ويفنى ؛ فين أميل في أنام ،
فتردد الحناجر من بعده في دوى بطيء : تحت ظل الساسابان : تحت
ظل الساسابان .

والخيام تختفى وتحل محلها بيوت ذات أفنية واسعة وتتغير
صورة النجم . صفوف ثلاثة من البيوت المبنية بالحجارة البيضاء تطل
على النهر ، وعلى أجسام النخيل العائمة برءوسها على سطح الطوفان .
ولولا حركة البناء والأغاني ولولا الساقية التي تدور والشادوف المنحني
دائما ليرتشف من أنيل رشفات صغيرة يلقي بها الى الرمال ، ولولا
نواح ساقية بثر الجبل التي شقها بشير عثمان ، ولولا شجيرات خروج
خضراء تهتز في قبضة النسيم والريح ويذكرنا حفيفها بأشجارنا في
الشرق ، ولولا رسائل من مصر والمدن يتجمع الناس حول لأقراها
عليهم لدامت رتابة الحياة ومللها القاتل .

حتى داريا سكيئة بدأت تبتسم وتضحك . فقد بر جمال بوعدة
.. ولم ينس برعى أباه وأمه ، لم ينس داريا ولا شريفة ، فقد أرسل
يقول لهما : أنا مازلت عند كلمتي ، فتبسمت شريفة ولعل خدرا لذيذا
سرى في صدرها عند النهدين .

أما البسطاوى فقد ابتلعه زحام المدينة ولم يرسل كلمة واحدة
الى سعدية وأمها ، نسيهما فارتسم القلق على وجه الزوجة الصغيرة .
فبدت تعيسة كما كانت شريفة وأمها منذ عامين ، ولعل البسطاوى
قد انشغل في مصر بما انشغل به جمال ، لعله التقى بواحدة . وسعدية
لا يمكن أن تنسى كيف كان يطارد كل فتيات النجم ، فما الذى يمنعه
هناك في مصر ؟ انه طليق . ليتها تمكنت من السفر معه .. لكن ..

ولعل انقطاع أخباره هو الذى جعلنى دائما أفكر في سعدية التى
لاتزال جميلة تفكيرا أخذت أفكره على نفسى ثم أعود اليه .. أستعذبه
وأطيله .. فأننى كنت لا أراها ألا وتنبعث في مخيلتى صورتها وهى
ترفعنى الى صدرها منذ أعوام أربعة ، ولا تتركنى إلا بعد أن تغيم
عينها ، فأتمنى أن أرقد على ذلك الصدر البض ، ولكننى برغم ذلك
كنت أخشى الاقتراب منها خوفا من حجوبة التى أخذت تتلصص على
وتشى بى عند أبى ، وظلمت أتجنبها حتى وجدتتها مرة تعترض طريقى ،
فى أصيل خميس من يناير عام ١٩٣٥ ، أصيل شديد البرودة تعول
بهبه الريح .

كنا وحدنا . فقد آوى الناس الى بيوتهم ولا أدري ما الذى جاء بها فى تلك اللحظة التى كنت أعود فيها من ابريم الى النجع . اكانت تترقب عودتى أم ان الصدفة وحدها هى التى جمعت بيننا فى ذلك الأصل ؟

حاولت أن أتجنبها لكنها سدت السبيل أمامى وقالت : تعال يا حامد لنكتب جوابا الى البسطاوى . . فارتبكت ولكننى تداركت نفسى وهمست : ليس الآن ياسعدية فأنى مهموم لا أستطيع كتابة جواب . غدا . .

- مهموم . كفى الله الشر ، ولماذا ؟ بسبب المدرسة ؟ ولماذا تشغل نفسك ؟ ولا يهمك يا شيخ . ألسنت رجلا مثل البسطاوى وبرعى ؟ ورننت كلمة « الرجل » . . « ومثل البسطاوى » فى أذنى رنيننا عجيبا ، ونفذت الى قلبى ولكننى تأهيت لأقول لها : دعينى هذا المساء وغدا أكتب لك جوابا ، الا أن البريق الذى لاح فى عينيها والشعاع الذهبى الذى ألقته الشمس الغاربة على وجهها وشعرها من خلال طرحتها والريح التى دفعت بجلبابها الى الخلف فضاق فوق الصدر وانطوى بين الفخذين ، والكائن الجديد الذى أخذ يشرب فى جسدى ويبعث احساسا غريبا ملتها بالسبحار يشدنى اليها . . الا أن كل ذلك جعلنى انسى كل تعلاتى وأهمسى : وأمك أليست فى البيت ؟ فتبسمت ثم همست :

- لكنها فى سابع نومة ولن تفيق الا مع الفجر . . تعال . فأمنى نفسها تريد أن تكتب جوابا الى أبى !!

همست بهذه الكلمات بإسمة ومازالت الريح تطوى جلبابها بين فخذيهما ثم استدارت الى بيتها فى خطى متثاقلة فتبعتها دون تردد من خلال الباب الخلفى ثم دارت بى فى كل الغرف وعرفت أنها كانت تكذب فاز أمها لم تكن هناك ، وتوقفت بى عند عنجريب وتأملتني ثم استدارت تلقى بطرحتها على السحارة وقد أسندت قدمها الى العنجريب كاشفة عن ساقيهما . . وأردت أن أبدد الصمت فقلت : الجواب ياسعدية . ؟ أين الورق ؟ فقد كنت خائفا . .

- الورق . . !

واستقامت لتتجه الى السحارة مارة بى فى طريقها ، لكنها توقفت فجأة أمامى وطوقتني بشدة متوقعة أن أقاوم كما كنت أفعل منذ أعوام

مضت الا أنها سرعان ما أدركت التغير الذي طرأ على جسدى وأحسنت
بالسعار الملتهب فيه وشعرت بجسدى يشرب ويتخفز لأول تجربة
فاندلقت بصدرها البض على صدرى ، تضغط عليه فى قوة لاهثة وتطلق
صرخات قصيرة مكتومة ثم أنظرخنا على العنجريب ، وأحسنت اننى
أغوص فى عالم من الرؤى ، عالم يتبدد فيه الخوف ، لتحل محله الثقة
والزهو ، عالم تلين فيه سعدية بين ذراعى تقاوم قليلا لتستثيرنى . ثم
تستسلم لتتهافت : أصبحت رجلا يا حامد . رجلا مثله . . منذ شهور
وأنا أريدك أن تكتب لى جوابا وأنت لا ترضى . أكتبت جوابا لمنسوخة
أو لشريفة يا حامد ؟ قلت لاهثا وفى سرعة : كلا . ثم انفصلنا لحظة
مطرقين برأسينا الا أنها عادت تطوقنى بذراعيها فأخذت أقاوم وقد
ركبنى ندم عجيب ، ركبنى احساس بالاثم وشعور يدفعنى الى أن
ألقى بنفسى فى النيل وأغوص فيه لأطهر روحى وبدنى ، موقنا أن أبى
وحجوبة ، أن كل انسان يرانى قبل أن أغوص فى الماء سيكتشف جريمتى
على وجهى وفى عيني .

ثم انبعث صرير باب موحش ، وصوت مبجوح ينادى : سعدية . .
أين أنت ؟ أليس حامد هو الذى دخل البيت معك ؟ فتركتنى وأسرعت الى
الباب الخارجى بينما قفزت أنا من السور الخلفى وأخذت أجرى الى النيل
تتقببنى صور من العار حتى خلعت ملابسى على الشاطئ وغصت فى النيل
وعدت مسرعا وأنا أرتعش من البرد اختبئ فى تحويشة البهائم أمام
المتجر .

ووقفت هناك أراقب الساحة من فرجة البوص . وهالنى أن اسمى
يتردد على كل لسان . فهذا هو صوت أبى يجلجل : أين غار هذا
أنولد ؟ وصوت خالى وحجوبة ، ثم صوت المحامى الذى توقف مباشرة
أمام فرجة البوص ينادى . . فكتمت أنفاسى ، وأنا ألعن حجوبة التى
وشت بى . لا بد أنها قد تلصصت على ولعلها لاحظت شيئا على وجه
سعدية .

لكن الكلمات التى أطلقها المحامى أوقفت تيار أفكارى السوداء
هذه ، فقد أخذ يقفز من رجل الى أخرى وينادى : حامد . أين هذا
المغفل ؟ ثم يضيف فى زهو : ألم أقل لكم ؟ الشكوى التى اكتبها تردع
الحكام فى مصر . . . كلمات . . . يا سلام على يدك وخطك وقصاحتك
بإمحامى . كلمات مثل النار تفتت القلوب القاسية . فأدركت أنهم
يبحثون عنى لسبب آخر ولعل الشكوى التى كتبها المحامى عن الفيضان

قد نشرت في الصحف ولعل أبى يريد منى أن أقرأ للناس هذا الخبر !
فتسائلت من مكمنى ووقفت أمام المحامى فتلقفنى صائحا : مبروك
يا ولد ... تعال قبل يذى . مبروك . عدت الى المدرسة يا حامد !

وأحاط الناس بى بينما وقفت أنا واجما لا أدرك شيئا مما يقولون ،
ثم تقدمت خالتي امينة بابا وأمسكت برأسى تهمس : ألا تسمع يا حامد ؟
مالك لا تفهم ؟ ستعود الى المدرسة مع مصطفى فى يوم السبت !

وأضاف المحامى : انه لا يصدق . خذ هذه الورقة . أرسلها
الشيخ مرسى مع مصطفى اليوم . خذ !

حينذاك فقط احساست أن فرحة غامرة تعربد فى صدرى فتركهم
وأطلقت العنان لساقى عائدا الى أبريم ، الى بيت جميلة ، أوف اليها
الخبر السعيد : سأعود الى المدرسة فى غيبة يا شقيقتى ، يا أمى
الحنون !

وتأهب للرحيل فى أصل الجمعة وبعد أن ودعت أهلى قفزت
على الركوبة ، اهتزها لتنتقل بى الا أن الشيخ « فضلا ، اعترض طريقى
بذك بساقه الخشبية ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة نورت وجهه
الطيب ، فترجلت أشد على يده ، فصافحنى الرجل بيد قوية خشنة ،
بينما مد يده الأخرى ، وهمس فى صوت عميق :

— لتكن انت يا حامد أول من يأكل من هذه الأرض .

ودفع بحزمة كبيرة من البصل الأخضر الى يذى ، فانكببت على
يده اقبلها الا انه جذبها بسرعة وقال :

— خذ . وهذه عشر حبات من الطماطم للأستاذ ... مازالت خضراء
يا حامد .

فاحتضنت الهديتين ثم قفزت الى ظهر ركوبتى من جديد تنطلق
بى الى الطريق العام وتخب فى الرمال الصفراء ...

وقبل أن يختفى النجع رأيت النيل يبرق بثريات باخرة تصعد
النيل ، ثم حانت منى التفاحة جانبية الى الشمندورة الحمراء فوجدتها
ترتطم ارتطاما شديدا بالسلسلة التى تشدها الى قاع اليم ... ترتطم ثم
تهبط لتعاود النضال من جديد .

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالمطهر

١٩٦٨

Bibliotheca Alexandrina



0655638

التمن ٦٠ قرشا